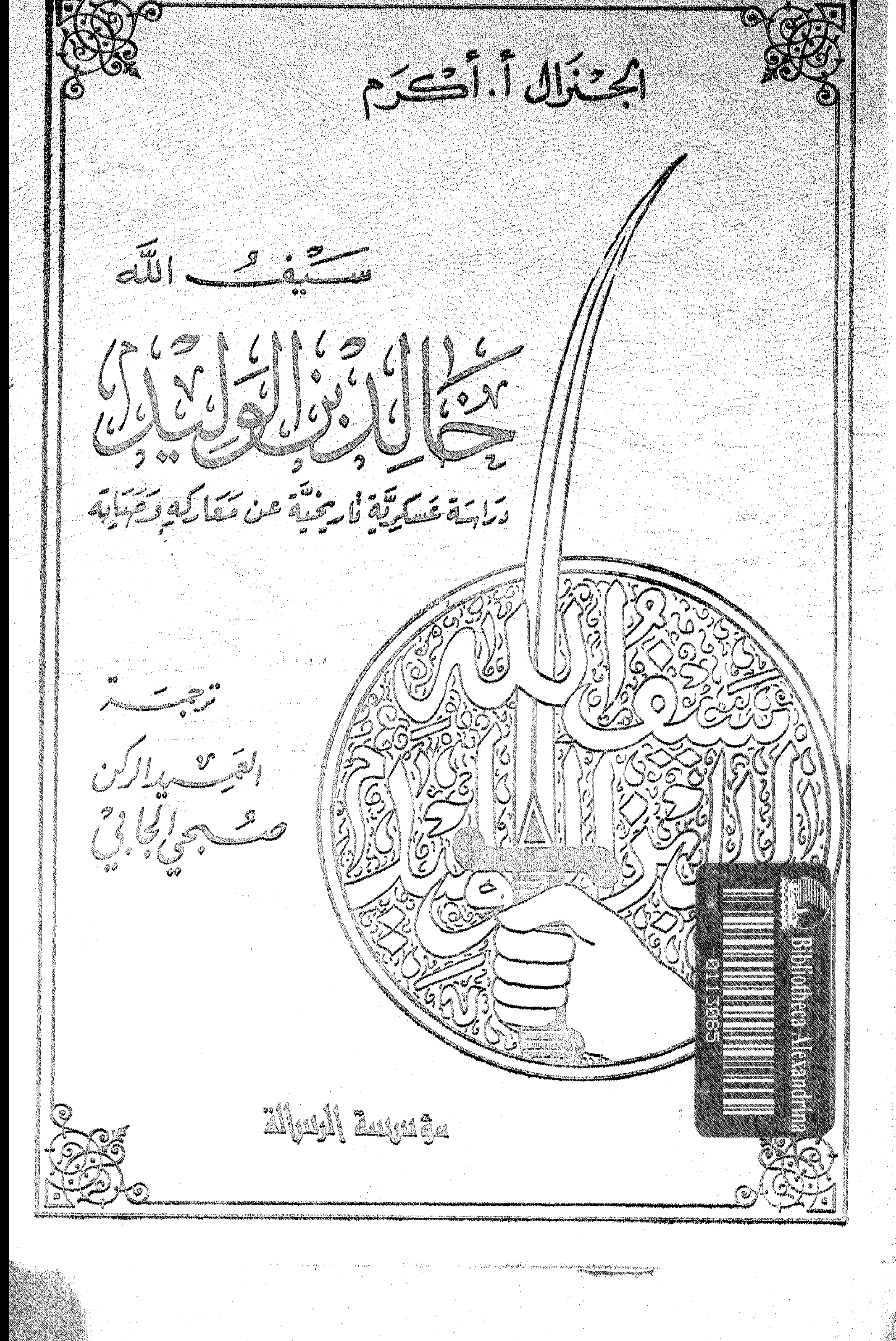
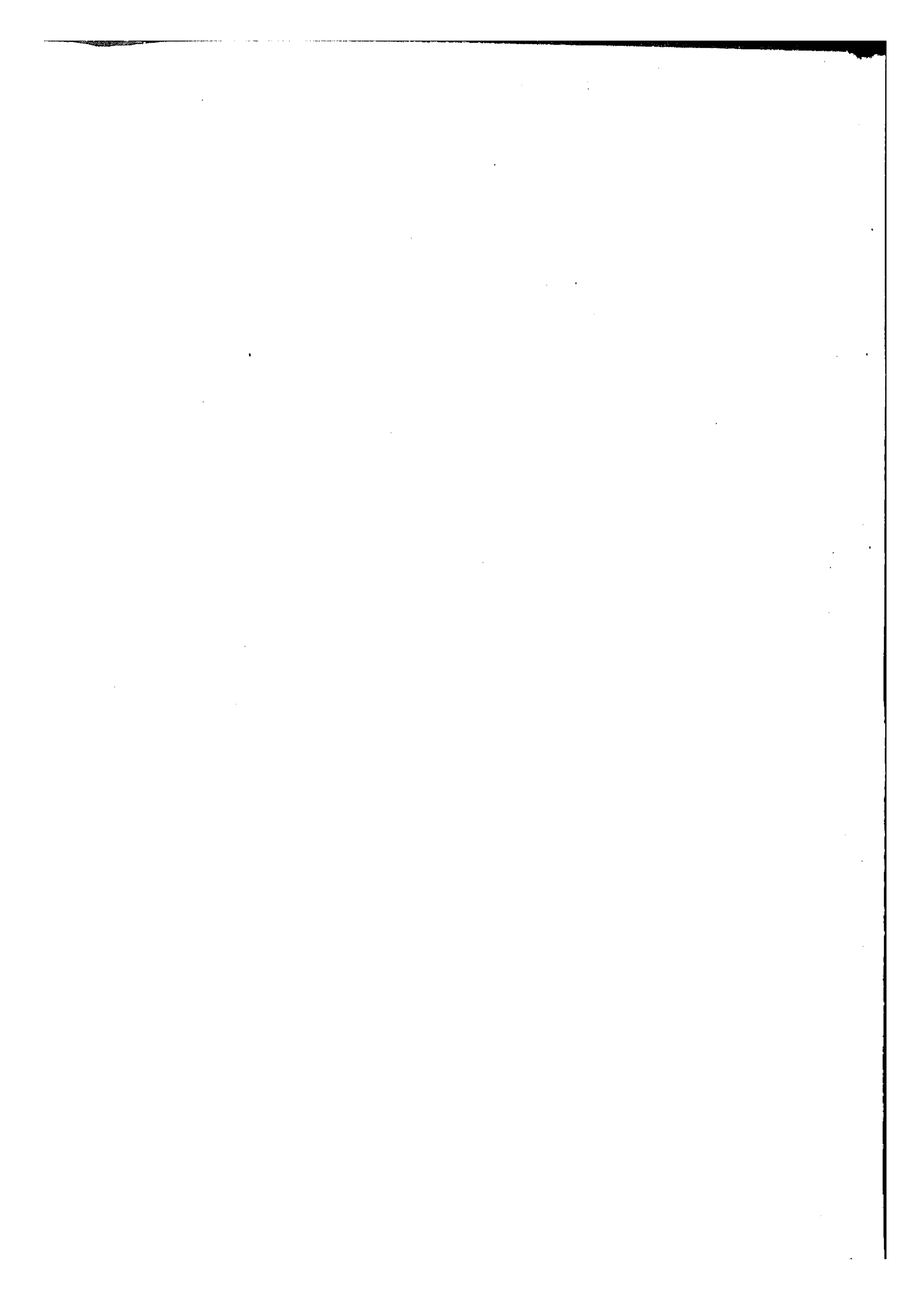
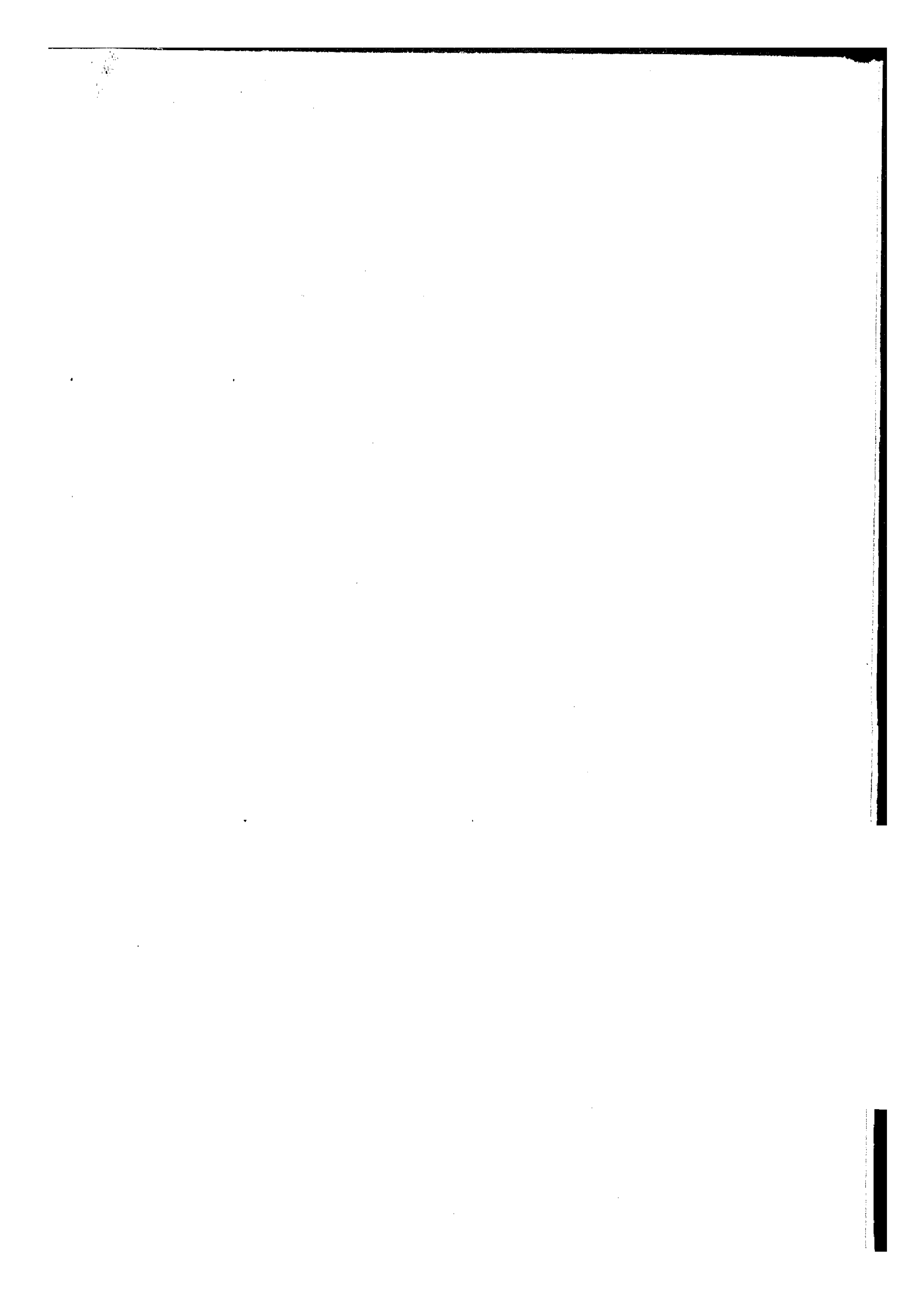

الجنرال أ. أكرم
سيف الله
خالد بن الوليد
دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته
ترجمة
العميد الركن
صبحي الجابي
مؤسسة الرسالة
Bibliotheca Alexandrina
0113085





سيف الله

خالد بن الوليد

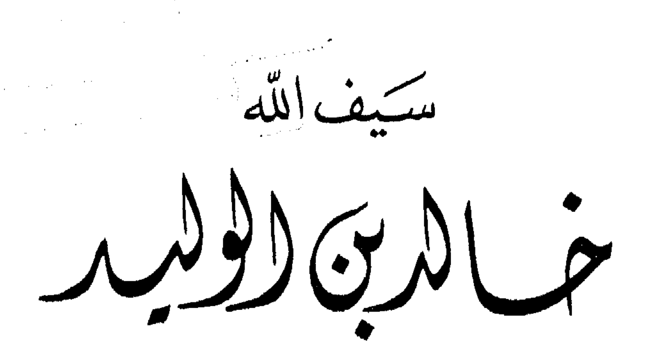
الطبعة السابعة
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



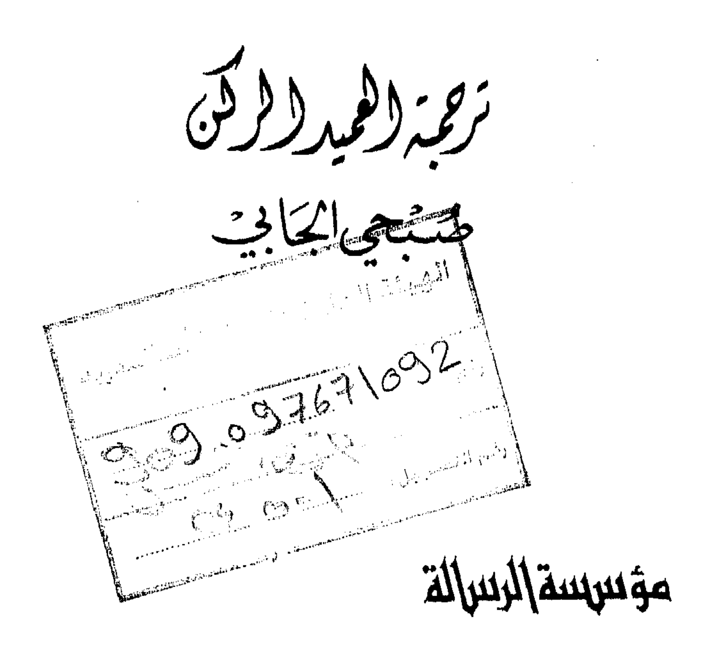
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣-٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

الجنرال أ. أكرم

سيف الله



دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته



مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المترجم

إن كتاب «سيف الله خالد بن الوليد» من تأليف ضابط باكستاني برتبة لواء، مسؤول عن تدريس مادة التاريخ العسكري في كلية القيادة والأركان الباكستانية. وهو يبحث بالتفصيل وبإسلوب عسكري جيد في الحياة والتربية العسكرية لدى العرب في فترة ما قبل الإسلام وما بعده، وحياة خالد بن الوليد منذ نعومة أظفاره وحتى وفاته. كما أنه يحوي شرحاً مفصلاً لكافة المعارك التي خاضها أو قادها خالد مع إرفاقها بالمخططات، وكلها من المصادر العربية. ويبدو أن المؤلف مطلع على الكتب التاريخية العربية بشكل جيد، وكذلك على بعض الكتب الأجنبية المتعلقة بذلك.

إن هذا الكتاب، بالإضافة إلى شرحه معارك الإسلام الأولى، فهو قصة أكبر قائد عسكري في عصره، وقصة المحاربين الأبطال الذين قاتلوا معه من نصر إلى نصر.

إن التاريخ الإسلامي يزخر بالإنجازات العسكرية الكبيرة والأعمال المجيدة التي حققتها جيوش المسلمين، ومع ذلك فإن التاريخ الإسلامي العسكري لم يُكتب بشكله الصحيح إطلاقاً، كما أن القليل فقط يعرف عنه حتى في الأقطار العربية والإسلامية ناهيك عن باقي بلدان العالم.

إن هذا النقص في المعرفة كبير بالنسبة للقرن الأول للإسلام (القرن السابع الميلادي) وهذا مما يؤسف له. فعندما ظهر الإسلام في موطنه الأصلي في الجزيرة العربية، انتشر كالموج العاتي عبر معظم أقطار العالم المعروفة آنذاك. وتمت الفتوحات الإسلامية على يد محاربين شجعان يشتعلون حماسة للدين الجديد تحت قيادة قادة ملهمين وعباقرة ستظل انتصاراتهم خالدة على مر السنين.

وكان من أعظم هؤلاء القادة سيف الله خالد بن الوليد، البطل الصنديد الذي لم يقهر في أية معركة والذي دحر كل جيش تجرأ بالوقوف في وجهه.

إن هذا الكتاب يتتبع حياة خالد وحملاته، منذ أيام صباه في مكة وحتى آخر أيامه في مدينة حمص. والكتاب يعطي صورة واضحة وشيقة عن معاركه في زمن النبي ﷺ، أولاً كمشرك، ثم كمؤمن. فهو يشرح معاركه ضد المرتدين، وفتحه للعراق في زمن الخليفة أبي بكر، ومسيرته التي لا تصدق إلى بلاد الشام، ومعاركه الرائعة التي خاضها والفتوحات التي تمت في هذه الربوع على يده.

ويكشف الكتاب أيضاً الأحداث التاريخية الهامة التي لها علاقة أو صلة بمعارك خالد.

إن هذا الكتاب التاريخي الضخم يضم أحداثاً كثيرة غير معروفة للكثير من الناس في عصرنا الحاضر. وهو بحث قيم للطلاب والمثقفين المدنيين والعسكريين. وهو مكتوب بلغة سهلة وأسلوب شيق يجذب جميع القراء بغض النظر عن معرفتهم السابقة بالتاريخ الإسلامي.

وهذا الكتاب في الحقيقة يعتبر الأول من نوعه، ويساهم مساهمة كبيرة في إحياء التراث الإسلامي، والمؤلف، وهو ضابط كبير في الجيش الباكستاني، أخذ على عاتقه تأليف هذا الكتاب في عام ١٩٦٤ وعالجه كموضوع عسكري منذ أول صفحة وحتى نهايته. وتعلم أولاً اللغة العربية لكي يستفيد من المراجع العربية المتوفرة، ثم حصل على كتب التاريخ التي ألفت خلال القرون الأربعة الأولى من الإسلام، ثم انطلق بعد ذلك للبحث والدرس والكتابة. وفي عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩، زار المؤلف جميع الأقطار العربية التي لها علاقة بأحداث الكتاب، وزار أيضاً ميادين المعارك التي خاضها خالد في لبنان، وسورية، والأردن، والعراق، والكويت، والعربية السعودية. وقد أنهى الكتاب وراجعه قبل الطبع في منتصف عام ١٩٦٩ أي بعد خمس سنوات من بدء البحث والكتابة.

العميد الركن صبحي الجابي

مقـدمة المؤلف

يزخر التاريخ الاسلامي بانجازات عسكرية عظيمة واعمال باهرة مجيدة قامت بها الجيوش الاسلامية . ولا يوجد في تاريخ الحروب معارك فاقت في تألقها وحسميتها معارك المسلمين ، كذلك لايوجد قادة فاقوا ، في الشجاعـة والمهارة ، قادة المسلمين الموهوبين . وقد كان السيف دائما مكان الشرف في الثقافة الاسلامية . ومع ذلك فلا يعرف الا القليل في العالم اليوم عن التـاريخ العسكري الاسلامي ، كذلك لايوجد عمل واحد مكتوب من قبل مفكر عسكري ذي خبرة يستند على البحث الصحيح والدراسة الشاملة للارض ، والوصف التفصيلي للمعارك الاسلامية الشهيرة . وفي الحقيقة ، لايوجد بحث حقيقي ، بل على النقيض يوجد فراغ .

لقد علمت بهذا الفراغ في اوائل عام ١٩٦٤ ، عندما كنت مدربا رئيسيا في كليـة الاركان الباكستانية (كلية كويتا) . وبما أنني كنت دائما تلميذا حاذقا في التـاريخ العسكري ، هـذه المادة التي أدرسها من بين مواد اخرى في كليـة الاركان ، فقد شعرت بأنني قد اكون مؤهـلا أكثر من العديد من العسكريين المسلمين لكي آخذ على عاتقي مهمة ملء هـذا الفراغ في الادب . وقد يحتاج التاريخ العسكري الاسلامي بكامله الى عدة مئات من المجلدات ، لكن البداية ، على الاقل ، يمكن ان تتم ، وقررت ان اقبل التحدي . ولسوف ابدأ من البداية ، وسأصف حملات خالد بن الوليد .

لقد وجدت كمية كبيرة من المادة متوفرة عن المعارك الاسلامية الاولى ، لكنها كانت جميعها باللغة العربية . اذ ان جميع اعمال المؤرخين المسلمـين الاوائل لم تترجم ، واذا وجدت التراجم فانها غير دقيقة في معظم الاحيـان ، كما انها كانت غير أمينة في بعض الاحيان بشكل مؤكد . وبالنسبة لمثل هـذه

الابحاث ، على المرء أن يعرف اللغة التي كتبت بها . لذلك فقد تعلمت اللغة العربية . بعد ذلك اعددت المراجع التي تضم اعمال جميع المؤرخين الاوائل لكنني استبعدت منها جميع الكتّاب ، مسلمين او مسيحيين ، الذين عاشوا وكتبوا بعد القرن العاشر الميلادي . وبما ان هؤلاء الكتاب قد حصلوا على معلوماتهم من المؤرخين الاوائل ، فقد قررت ان اركز بشكل خاص على مصادر الاوائل . وبهذه الطريقة فقد تجنبت الوقوع تحت تأثير آراء وتخمينات الكتاب الذين كتبوا بعد القرن العاشر بأي شكل من الاشكال . وكان تحديد المراجع سهلا نسبيا ، اما المشكلة الحقيقية فقد كانت في الحصول على هذه المراجع لانها غير متوفرة في الباكستان واثمانها في الاقطار العربية مرتفعة .

وبالنسبة لهذا الموضوع ، فقد ساعدني اصدقاء معينون قدموا هذه المراجع بسخاء كمساهمة منهم في هذا المشروع . وهؤلاء الاصدقاء ، الذين كانوا من تلامذتي في « كويتا » ، هم : العميد مجيد الحاج حسن من الاردن ، والعميد هـ . يو . بابار من الباكستان ، والرائدان نايف عون شرف وعبد العزيز الشيخ من السعودية . وهكذا اصبح في حوزتي مكتبة ممتازة تضم مؤلفات المؤرخين المسلمين الاوائل ، وباقتناء هذه المراجع ، ابتدا بحثي للموضوع .

من الامور الصعبة التي تواجه أي باحث يتناول مثل هذا البحث هي غياب المعلومات الجغرافية . فالجغرافية تشكل القاعدة المادية الاستراتيجية العسكرية ولا يمكن ان يكون هنالك تاريخ عسكري دون معرفة الظروف الجغرافية السائدة في ذلك الوقت بدرجة معقولة من الدقة . ولقد كنت محظوظا بحصولي على مؤلفين جغرافيين ممتازين خاصين بالفترة الاسلامية الاولى وهما : « الاعلاق النفيسة » لابن رستة ، و « البلدان » لاحمد بن يعقوب ، ويشرحان بشكل مفصل الجغرافية المادية والسياسية في تلك الفترة . وبواسطة هذين المؤلفين استطعت ان اقيّم ظروف طبيعة الارض ، وان احدد بدقة مواقع عدة اماكن لم يعد لها اثر اليوم . وقد قضيت عدة اسابيع في الدراسة المركزة لحل هذه المشكلة ولاعداد الخرائط التي ضمها هذا الكتاب .

بالنسبة لطلبي للخرائط ، فقد تمت مساعدتي ايضا من قبل العميد مجيد الحاج حسن من الاردن ، والعميد هـ . يو . بابار من الباكستان . وكان آخر مساعداتي الجغرافية أطلس تاريخي عن العراق اعده الدكتور احمد سوسه من بغداد ، وهو يشمل بحثا ممتازا يغطي العراق وما جاورها .

ومع ان عمالقة الادب التاريخي في القرون القليلة الاولى من العصر الاسلامي كانوا جميعهم على الاغلب من المسلمين (كذلك كانوا حقا عمالقة في معظم فروع الادب) ، فقد كنت حريصا كذلك على دراسة بعض المؤلفين الغربيين لكي اقف على روايتهم للاحداث ، وخاصة فيما يتعلق بالفتح الاسلامي لسورية . وقد استطعت ان اتعرف على مؤرخين بيزنطيين هما «نسيفورس»[١] ، و « ثيوفانس »[٢] ، وكلاهما عاش في اواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع ، ولكن لسوء الحظ لم اجد اية ترجمة لاعمالهما باللغة الانكليزية التي اعرفها . لذا قررت ان استند بالنسبة لوجهة النظر الغربية على ادوارد جيبون [٣] ذائع الصيت الذي يعتبر كتابه ، « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، مساهمة قيمة بدون شك في التاريخ ، بالرغم من تحامله على المسلمين . وهو يعطي المامة خاطفة فقط ولكن علي ان اكون قانعا بذلك بسبب غياب ادب غربي مفصل وثقة .

وبينما كنت اتحاشى جميع الكتب المؤلفة بعد القرن العاشر للاسباب التي سبق ان ذكرتها ، كنت مضطرا لدراسة مؤلفين معينين من هذه الحقبة لمساعدتي في المسائل الجغرافية ، بحيث تمكنت من جمع كل المعلومات الممكنة التي تجعل من هذا الكتاب اكثر دقة . وقد استخدمت بشكل واسع « معجم البلدان » الشهير الذي الفه « ياقوت » ، الذي عاش في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر . ومن بين الاعمال الجغرافية التي تنتمي للقرن الثاني عشر والذي كان اكبر مساعد لي كان كتاب « الفرات الاوسط » ،

---

(١) Nicephorus

(٢) Edward Gibbon

(٣) Theophanes

الذي الفه « الويس موسيل »[1] ، العلامة التشيكي الذي تنقل بشكل واسع في العراق وسورية في العقد الثاني من هذا القرن ، وقام بدراسة شاملة لجغرافية المنطقة التي يجتازها نهر الفرات .

بعد ان انممت دراستي الكتب واعداد المسودة الاولى ، حصلت على اجازة من الجيش وغادرت الباكستان في اوائل شهر آب عام ١٩٦٨ .

قضيت اولا بعض الوقت في اوروبا ، وبشكل رئيسي في لندن ــ في المتحف البريطاني ــ للبحث عن مؤلفات تتعلق بالحملات الاسلامية ضد الامبراطورية البيزنطية . لم استطع ان اجد اية ترجمة باللغة الانجليزية للكتاب الغربيين الاوائل ، لكنني تمكنت من الحصول على بعض المراجع المفيدة من مكتبة المتحف .

في اواخر آب نزلت في بيروت ، حيث بدات رحلتي لميادين المعارك التي خاضها خالد بن الوليد . سوف أرى الاراضي التي سار عليها خالد ، والاماكن التي خاض فيها معاركه ، والرمال التي سال عليها دم اعدائه . في لبنان لم يكن لدي عمل سوى تحديد موقع « أبو القدس » ، وهو مكان انقذ فيه خالد رتلا محاصرا من المسلمين ، وبعد ان حددت هذا المكان ، سافرت الى سورية .

في سورية ، اقمت في كل مدينة فتحها خالد : دمشق ، حمص ، تدمر ، حلب ، وشاهدت كل مكان قاتل فيه خالد ، وتعرفت على المواقع الصحيحة لجميع الاماكن المتبقية المذكورة في الجزء الرابع من هذا الكتاب . في دمشق شاهدت اسوار قلعتها ، وهي آثار لاتزال باقية ماعدا في جزئها الغربي حيث اختفت تماما . كذلك شاهدت الابواب الستة التي لاتزال اسماؤها كما كانت في عهد خالد ، لكن داخل القلعة تغير كليا . وعندما كنت في دمشق ، انتهزت الفرصة السانحة وزرت المتحف الوطني ودرست بعض المراجع القيمة التي لا املك مثلها في مكتبتي الخاصة .

---

(1) Alois Musil

وفي حمص ، قمت بواجب الزيارة لجامع خالد بن الوليد . لقد كانت لحظة مؤثرة بالنسبة لي عندما وقفت عند قبر سيد الحرب ـ الرجل الذي كنت افكر فيه واقرأ واكتب عنه لاربع سنوات خلت . فقد جلست في حالة تأمل في الجامع ، قرب قبر خالد ، لمدة ساعة . ثم وقفت وصليت ركعتين ودعوت الله ان ينصر المسلمين كما نصر خالداً .

من الايام السارة التي قضيتها في سورية ، كان ذلك اليوم الذي بحثت فيه ووجدت « قنسرين » ، التي استولى عليها خالد ، والتي مارس فيها آخر قيادة له .

كثير من الناس في حلب قد سمعوا بقنسرين وعرفوا انها تقع في مكان ما قرب مدينتهم . كذلك فهي مرسومة على خرائط الآثار كموقع لاطلال قديمة . لكن لم يعرف اي شخص اين تقع تماما ، وكيف يستطيع الوصول اليها ، بسبب عدم مجيء اي زائر قط تعيه الذاكرة لمشاهدة آثار قنسرين . وعلى كل حال ، فقد استأجرت سيارة اجرة . ولحسن الحظ وجدت بدويا في المدينة يقطن على بعد ميلين من قنسرين جاء الى حلب بزيارة . فاذا انزلته في قريته ، فانه سيدلني على الطريق المؤدية الى قنسرين . فأخذته معي وسارت السيارة في طريق جيد حتى قرية « زربة » التي تقع على مسافة ١٤ ميلا جنوب غرب حلب ، وهنا ، وبناء على ارشادات البدوي ، انعطفت السيارة عن الطريق الرئيسية وسارت في طريق ترابية وعرة . وبعد ان سرنا على هذه الطريق مسافة خمسة اميال ، وصلنا الى قرية البدوي فنزل من السيارة واخبرنا ان نتابع سيرنا حول تل قريب فنشاهد قنسرين . فبقيت انا والسائق ندور حول التل فلم نجد قنسرين بل وجدنا انفسنا على الطريق الرئيسية التي تركناها خلفنا قبل بضعة اميال . ان قنسرين ، او بالاحرى موقع قنسرين حيث لايوجد اي اثر باق لها ، يقع فعلا على هذه الطريق . وكنا متوجهين اليه مباشرة لكننا سرنا في دائرة واسعة لكي يستطيع البدوي ان ينزل في قريته . انه لبدوي ذكي ! لكنه كان شابا لطيفا حيث قدم لي خدمة بايصالي على بعد ميلين من قنسرين ، فبينما كل شخص في القرى المجاورة يعرف موقع قنسرين ، الا انه لايعرف احد في حلب موقعها .

كانت أهم زياراتي الى ميادين المعارك في سورية هـي زيارة اليرموك . فهذه المنطقة كانت محظورة بسبب قربها من خط وقف اطلاق النـار ، وغير مسموح للاجانب بزيارتها ، ولكن شكرا للمساعدة التي قدمها سفيرنا السيـد آ.آ. شيخ ، فقد منحت اذنا من الحكومة السورية لزيارة اي مكان في المنطقة ارغب في مشاهدته . وليس ذلك فقط ، فقد زودني الجيش السوري ايضـا بواسطـة نقل تسير في جميع انواع الاراضي ، ورافقني ضابط يعرف المنطقة جيـدا ، وقد برهن انه دليل لايمكن الاستغناء عنه . وبهذه الطريقة اتيحت لي الفرصة لقضاء عدة ساعات ومعي خريطة وبوصلة ، وانا اتفحص ميدان المعركة الشهير بامعان . وقد سارت بنا السيارة على امتداد جبهة المعركـة مما مكنني من دراسـة طبيعة الارض من عدة مواقع هامة ، والقيت نظرة فاحصـة على وادي اليرموك من الضفة الشمالية . ولم استطع ان أرى « وادي الرقـاد » لانه يقع على خط وقف اطلاق النار ، لكنني استطعت من قرية تسمى «الشجرة»، وهي تبعد ثلاثة اميال عن الوادي ، ان اشاهد بوضوح المنطقة التي جرت فيها المرحلة الدامية الاخيرة من هذه المعركة .

بعد اليرموك ، ذهبت مع الضابط المرافق لي الى بصرى ، وهنا شاهدت قلعتها الشهيرة ، وتفحصت طبيعة الارض حول بصرى ، ثم عدت الى دمشق .

لقد مكثت حوالي اسبوعين في سورية وهي بلد تزخر بالجمال والتاريخ . وهنـا كانت رحلاتي ميسرة وممتعة بفضل مساعدة وتعاون سفيرنا وسكرتيرنا الاول ، السيد « فازال رحيم » . وفي الثالث عشر من ايلول ، سافرت بـرا الى عمان . ووصلت الاردن ووجدت ان الباكستاني لايعتبر اجنبيا فيهـا . وفي الحقيقـة فان الباكستاني لايشعر ، عندما يكون خارج وطنه ، انـه في بلده مثلما يشعر في الاردن ، فالمحبة وحسن الضيافة اللتان يقابل بهمـا الباكستانيون لايمكن ان تنسى . لقد أقمت في الاردن ضيفا على الجيش الاردني ، وقـدمت لي التسهيلات لكي اشاهد كل ماطلبت ان اراه من الاماكن ، لـذا اقـدم شكري الى رئيس الاركان العامة اللواء عامر الخماش . كما انني مدين الى تلميذي وصديقي ، العميد مجيد الحاج حسن ، الذي اخذ على عاتقـه المسؤوليـة الكاملة في تنظيم برنامج زيارتي للاردن الذي حقق نهاية ناجحـة

وفعالة . قضيت يوما كاملا في تفحص ميدان معركة اليرموك من الجهة الجنوبية لنهر اليرموك . وقد كان هذا العمل متمما للاستطلاع الذي اجريته في وقت سابق من الاراضي السورية . لقد زرت « فحل » ، وشاهدت منطقة وادي الاردن التي جرت فيها معركة فحل . ثم ذهبت بالسيارة الى « مؤتة » ، وسرت في المكان الذي يعتقد بأنه موقع المعركة ، وقد بني في منتصفه مسجد جديد جميل . كما ان قادة المسلمين الثلاثة الذين استشهدوا في هذه المعركة قد دفنوا في مكان يسمى « المزار » وهو يبعد ميلين عن مكان المعركة ، وقد زرت قبورهم وقرات الفاتحة على ارواحهم .

انتهت زيارتي للاردن في الحادي والعشرين من ايلول عام ١٩٦٨ حيث طرت الى بغداد عن طريق بيروت حاملا معي ذكريات اقامة ممتعة في بلد صغير في مساحته لكنه كبير في روحه .

وصلت بغداد فوجدت ان جميع الترتيبات قد اعدت مسبقا لرحلتي هذه ، فشكرا لملحقنا العسكري الحصيف ، العقيد هـ.م.إ امين . وقد استجابت الحكومة العراقية بشكل ايجابي لمشروعي الخاص بالكتابة عن الفتوحات الاسلامية ، كما ان وزير الثقافة والارشاد ، السيد عبد الله السلوم ، اصدر تعليمات بوجوب منحي جميع التسهيلات لكي ازور جميع الاماكن التي ارغب في زيارتها . لقد كانت هذه المساعدة الرسمية ذات قيمة لاتقدر بالنسبة لي . لقد قدمت لي واسطة نقل ، كما رافقني ضابط هو الدكتور محمد باكير الحسيني ، الذي برهن انه دليل جيد ورفيق ممتاز . قضيت أولا اسبوعا في بغداد وانا ادرس في مكتبة متحف بغداد واتناقش مع بعض الادباء العراقيين البارزين مثل : الدكتور صالح احمد العلي ، والدكتور احمد سوسة (الذي سبق ان تحدثت عن اطلسه) ، والسيد فؤاد صفر . وقد دارت هذه المناقشات حول المواضيع التاريخية والجغرافية ، وكانت ذات فائدة لي . لكن مهمتي في تحديد أماكن ميادين المعارك في العراق كانت اكثر صعوبة منها في سورية والاردن ، والسبب في ذلك يرجع الى ان خالد إبن الوليد قد خاض معاركه في سورية والاردن في مدن كبيرة وسهول شهيرة

وهي مازالت باقية للزائر كي يراها . اما معاركه في العراق فقد جرت بشكل رئيسي في مدن صغيرة عفت آثارها . بالاضافة الى ذلك ، فان نهري دجلة والفرات يشبهان المرآة المتقلبة في تصرفاتها اذ يغيران مجريهما اعتباطا عدة مرات ، وهكذا فقد غيرا المعالم الجغرافية للمنطقة التي يجريان فيها . وهذا ماجعل مهمة تحديد اماكن المدن بدقة على ضفافهما امرا صعبا . ومع ذلك ، فقد استطعت ان احقق الشيء الكثير ، بفضل الله .

لقد قمت برحلة استغرقت عدة ايام تركزت اولا في بغداد ثم في الكوفة ، وقد قطعت بنا السيارة مئات الاميال في اراضي صحراوية وزراعية . لقد حددت الاماكن التي حارب فيها خالد بعد استيلائه على « عين التمر » ، لان هذه الاماكن غير موجودة الآن كما ان موقعها غير محدد بشكل دقيق . ثم تابعت رحلتي الى البصرة وشاهدت « المزار » (حاليا يدعى الازير) ، ومواقع ابلة وحفير التي لايوجد لها اثر باق . وبذلك فقد انتهت اقامتي في العراق التي دامت زهاء اسبوعين ونصف ، هذه الاقامة التى كانت ممتعة ومريحة بفضل كرم الضيافة التي قام بها العقيد امين . وفي الثامن من تشرين الاول سافرت برا الى الكويت .

في الكويت كان لدي عمل قليل جدا لكي اقوم به ، فقد حددت وشاهدت مكان « كاظمة » ، وهو موقع معركة خالد الاولى ضد الفرس (عمليا لايوجد الكثير من اطلال كاظمة) ، وبعد يومين من وصولي طرت عائدا الى باكستان . في فترة الاسابيع الستة التي قضيتها في الشرق الاوسط ، سافرت برا زهاء اربعة آلاف ميل .

لقد مكثت اربعة اشهر في الباكستان ، اعيد كتابة حملات خالد في العراق وسورية على ضوء المعلومات التي حصلت عليها في اسفاري . وفي اوائل شهر شباط عام ١٩٦٩ ، انطلقت مرة اخرى الى الصحراء لاكمل مابقي من رحلتي . لقد طرت الى جدة في الرابع من شباط ، وقد استقبلت في المطار من قبل ملحقنا العسكري ، العقيد نور الحق ، ومن قبل ممثلين عن الجيش السعودي حيث اخبر العقيد نور الحق الحكومة السعودية عن مجيئي

وعن هدف زيارتي . وقد دعتني الحكومة ، حسب تقاليد الضيافة العربيـة ، كي اقيم ضيفا عليها . فقبلت الدعوة بسعادة . وقد كانت هذه الدعوة فضلا كبيرا لانه لايمكنني ان اقوم برحلاتي البعيدة بسبب المساحات الشاسعة التي تتألف منها السعودية بدون مساعدة رسمية وفي الحقيقة ، كلما كان يمر الزمن ، وكلما كانت تسير بنا السيارة في الدروب الرملية وفي الصحراء القاحلة ، كنت اشعر اكثر فأكثر كم انا مدين للحكومة السعودية ، وبشكل خاص للجيش ، لانـه بدون مساعدتهما لما تمكنت من تحقيق مثل هـذه الدراسة الشاملـة لميادين المعارك هناك .

لقد وضعت جميـع ترتيبات زيارتي من قبل الجيش ، وقد رافقني ضابط دلبـل هو النقيب عبد الرحمن الحماد ، وهو شاب ذكي لازمني كمساعد ورفيق خلال مدة الاسابيع الخمسة التي اقمتها في البلاد .

فور وصولي الى مكة اديت « العمرة » ، ثم صرت الى الرياض . لقد قررت ان ازور اولا القسم الشمالي من الجزيرة العربية ثم ازور بعـد ذلك منـاطق المعارك التي جرت في منطقتي مكة والمدينة . وهكذا ، فسوف ارى اولا الاماكن التي خاض فيها خالد معاركه ضد المرتدين . وهذه المعـارك موضحة في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

مكثت ثلاثـة ايام في الرياض ، حيث قضيت فترة الصباح كاملة فـي دراسة ميدان معركة « اليمامة » ، ثم سافرت برا الى « بريدة » حيث جعلت منهـا قاعدة انطلاق لي فانطلقت منها الى « نباج » (حاليا تدعى نبكية) ، و « البطاح » . وفي الثاني عشر من شباط ، طرت الى « حيل » ، وقد فوجئت بكونها منطقة باردة . وهنا قضيت ثلاثـة ايام في التجول بالسيارة حـول الصحراء المتاخمة ، وشاهدت عدة اماكن حارب فيها « خالد » المرتدين . ولاعطاء فكرة عن صعوبة الدراسة والاستطـلاع في هذه المناطق ، فانني قطعت ٢٠٠ ميل لمشاهدة موقعي « سميرة » و « غمرة » ، وهما قريبتان من بعضهما ، حيث قمت من اجل ذلك برحلة دائرية من « حيل » مارا بشعاب صحراوية

واراض وعرة استغرقت عشر ساعات . وقد كان تحديد الاماكن مشكلة كبيرة اذ كان علي ان اقرا الخرائط التي مقياسها ١ : ٠٠٠ر٠٠٠ر١ .

طرت عائدا الى الرياض في الخامس عشر من شباط ، وفي اليوم التالي عدت الى جدة .

والآن بدات المرحلة الثانية من رحلتي ، انها في منطقة مكة . في السابع عشر من شباط ، ذهبت الى الطائف لمدة نهار وليلة ، وشاهدت المسجد حيث كان يقوم معسكر المسلمين اثناء حصار الطائف . ولم اجد اثرا لاي اطلال يمكن ان ترشد الى قلعة الطائف ، لكنني انتهزت الفرصة وزرت عددا من الاماكن التي لها علاقة بالطريق التي سلكها رسول الله الى الطائف . ثم عدت الى جدة ، واسفت لمغادرتي الطائف لكونها بقعة جميلة وبردها مقبول .

وقضيت يوما واحدا على ارض معركة « حنين » ، وقد اثبت هذا اليوم انه طويل حقا . لقد اظهرت الخرائط طريقا يؤدي الى وادي حنين ، وقد كان هذا الطريق هو الطريق الرئيسي من مكة الى الطائف قبل انشاء طريق « الاوتوستراد » الحالي ، لكنه غير مستخدم الآن كما ان الامطار قد خربته . وقد سرت في وادي حنين بفضل سيارة « اللاندروفر » التي لولاها لما تمكنت من اجتيازه مطلقا . ولحسن الحظ ، اجتزت الوادي الذي جرت فيه معركة حنين حيث تمكنت من دراسته بشكل مستفيض .

بعد ذلك قضيت يوما آخر في دراسة مكة نفسها ، لكي احدد على الارض خطة فتحها . لقد توسعت مكة بشكل كبير منذ الايام الاولى للاسلام ، ومن المتعذر تحديد حدودها كما كانت في عهد النبي (ص) بشكل صحيح ، ومع ذلك فالاماكن التي كانت معروفة آنذاك لاتزال موجودة ، وقد شاهدت بأم عيني جميع هذه الاماكن . وتسلقت ايضا تل « ابي قبيس » الذي يبعد ميلين جنوب الكعبة ، ومنه شاهدت بشكل واضح طرق الاقتراب الجنوبية . وحاولت ايضا ان ارسم مخططا مناظريا ، لكن المنطقة كانت كثيرة التلال لدرجة ان العمل اثبت انه خارج حدود امكانياتي الفنية وعلي ان اكون قانعا برسم

خريطة بدون تلال . ولم اجد خرائط طبوغرافية كبيرة المقياس لارشادي في ذلك . وانني اقر ان من بين جميع الخرائط التي يضمها هذا الكتاب ، فان هذه الخريطة (الخريطة رقم ٥) لست راضيا عنها تماما . وربما يستطيع كاتب آخر يتمتع بمواهب فن رسم الخرائط بشكل افضل مني ويقوم بتحسين هذا المجهود الذي بذلته كرجل مشاة .

وهكذا انتهت المرحلة الثانية وهي دراسة منطقة مكة . وحان الآن وقت الحج ، لذا ففي نهاية شباط ، اديت فريضة الحج – وهي الامنية العزيزة لكل مؤمن – كضيف على الحكومة السعودية . وبعد ان اديت هذه الفريضة ، ذهبت بالسيارة الى المدينة المنورة في الرابع من آذار ، من اجل المرحلة الاخيرة من رحلتي الى ميادين المعارك الاسلامية . وفي المدينة قمت بدراسة شاملة لمعركتي « أحد » و « الخندق » ، وهما معركتان شهيرتان ومن السهل معرفة مكانهما على الارض . لقد رسمت مخططات مناظرية لتضاريس التلال المختلفة الموضحة في خرائط هذا الكتاب ، وقد زرت « الابرق » وهو مكان يبعد ٧٠ ميلا عن المدينة ، حيث دحر الخليفة ابو بكر فيه المرتدين في معركة الابرق وهذه المعركة ليست معروفة كثيرا . ولقد نظم هذا الجزء من رحلتي من قبل الرائد محمد عبد الحميد اسعد ، وقد اصطحبت معي كدليل خير الادلاء العلامة الشيخ ابراهيم بن علي العياشي ، وهو اديب ومؤرخ ذو شهرة ، ومعرفته بالتاريخ الاسلامي القديم والجغرافية تدعو الى الاعجاب .

بعد اقامة خمسة ايام في المدينة المنورة عدت الى جدة ، وفي الحادي عشر من آذار ١٩٦٩ ، طرت عائدا الى الباكستان . غادرت السعودية وانا اشعر بامتنان عميق للتعاون وللمساعدة التي قدمتها الحكومة لي والجيش ، في هذه المملكة الصحراوية الشاسعة ، كما انني اشعر بامتنان لكرم الضيافة التي لقيتها من قبل جميع السعوديين الذين اتصلت بهم . وهنا لايسعني الا ان اشيد بشكل خاص بالامير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع حيث ان تلطفه في معاملتي كضيف على الدولة جعل الاشياء المستحيلة ممكنة بالنسبة لمهمتي .

وفي الباكستان ، بعد أن استرحت من عناء السفر الى الجزيرة العربيه ، درست بعمق الاوراق العديدة التي كتبتها خلال رحلتي لميادين المعارك التي خاضها خالد . وقد دهشت انني استطعت ان انفذ هذه الرحلة كلية على حسابي ، لانها كانت بلا شك مشروعا طموحا ، وانا مدين لله العلي القدير الذي جعل رحلتي ناجحة . وقد كان يترتب علي ان ادفع ثمنا باهظا في الجهد والوقت والمال ، ولكن عندما انظر الى الوراء ، اجد نفسي مسرورا لكوني قمت بها على نفقتي الخاصة وليس على نفقة واهب كريم (وهذا لايعني انه كان هنالك اي عرض فعلي للمساعدة) . ان عملي الذي قمت به اعتبره خدمة مني للاسلام ، واسهاما في الادب الاسلامي . انها خدمة رجل متواضع من المؤمنين .

ولقد قضيت عدة اشهر وانا اعيد كتابة مسودة الكتاب ، وفي تشرين الاول ١٩٦٩ ارسلت المسودة المنقحة الى المطبعة . لقد امضيت أكثر من خمسة اعوام في تنفيذ كامل المشروع بدءا من جمع المراجع الاولية وحتى التحضيرات النهائية لطبع الكتاب .

ان هذا الكتاب عبارة عن كتاب تاريخي وهو يتحدث بشكل خاص عن التاريخ العسكري الاسلامي . انه يبحث في سيرة ، وفي حملات رجل من اشهر الجنود الذين قد عرفهم العالم ، انه خالد بن الوليد البطل المنتصر دائما والذي لم يعرف ابدا معنى الهزيمة العسكرية .

لقد تجنبت الاصطلاحات الفنية بحيث يفهمه الرجل العادي والجندي المحترف ، وحاولت ان احافظ على اسلوب مبسط .

ان جزءا كبيرا من المادة الموجودة في هذا الكتاب غير معروف بشكل عام بالنسبة لعامة الناس ، لكن كل حادثة ، وكل واقعة هي صحيحة تاريخيا . كما ان كل تحرك ، وكل مبارزة ، وكل ضربة ، وكل قول مأثور جميعها مأخوذة من مؤلفات المؤرخين الاوائل . وفي ترجمة الحقائق ، كنت اعتمد في بعض الاحيان على المحاكمة العقلية وخاصة فيما يتعلق بوصف المعارك ، لكنني حاولت ان اكون موضوعيا بقدر الامكان . وفي كتابتي عن المعارك ووصفي

للأحداث التي حصلت في السنوات الاولى الخاسمة من الاسلام ، فقد منحت الثقة لاعداء الاسلام عندما كانوا يستحقونها ، كما اظهرت اخطاء المسلمين (على الرغم من انها كانت قليلة) .

ومع انني قدمت جميع الحقائق في الصفحات الاولى ، الا انه يجدر التنويه بأنه كان هنالك كثير من الفوضى بسبب وجود روايات متعدده ومتضاربة . لقد سجل المؤرخون الاوائل بأمانة كل رواية بالنسبة لكل حادثة ، وحتى عندما تكون هذه الروايات متناقضة ، وتركوا الاختيار للقارىء ، مع ذكر عبارة : « والله اعلم » . ان هذه الفوضى تنطبق بشكل خطير بالنسبة لحملة بلاد الشام اذ قد ترك القارىء في شك فيما يتعلق بكيفية تنفيذ الحملة وتسلسل الاحداث زمنيا .

لقد حاولت ان ابدد هذه الفوضى باعطاء رواية واحدة مفهومة تبدو لي انها اكثر احتمالا ومعقولة . انني لم احمل الكتاب حواشي في اسفل الصفحات لشرح الاختلافات في الرأي بين المؤرخين الاوائل .لكنني وضعت حواشي لأبين المرجع التاريخي الذي اخذ منه كل حوار او قول مأثور . ان هذه الحواشي تعتبر مرجعا لطلاب البحث التاريخي اكثر منها للقارىء العادي ، وبامكان هذا الاخير ان يهملها ان لم يكن مهتما في دراسة أوفى للموضوع . علاوة على ذلك ، في حال وجود اختلافات جوهرية او جدلية ، فقد ذكرت بعض الملاحظات في ملحق في نهاية هذا الكتاب ، وهذا الملحق يعتبر ذا قيمة للقراء الذين يرغبون في الاستزادة من المعرفة .

ان بعض المعارك ، وبشكل خاص الواردة في النصف الثاني من الكتاب ، قد اعيدت صياغتها ، لكن وصفي لها مركز على الاحداث وعلى الدلائل الواضحة من قبل المؤرخين الاوائل . ان الاختلاف يكمن في كون المؤرخين الاوائل لم يبذلوا جهدا لتحليل الاستراتيجية والتكتيك ، لكنني حاولت ان افعل ذلك كجندي وكذلك كمؤرخ . ان فلسفة المناورة والتحليل هي مساهمتي في شرح كل معركة . كما ان جميع الحقائق التي قدمتها تخص التاريخ ، وهي

الأزهار اللامعة في جبين هذا التاريخ . لكن الخيط الذي يمسك بها هو خيطي ، وترتيب الازهار هو ترتيبي .

قد يبدو الجزء الاول من الكتاب ـ وهو خاص بالمعارك التي جرت في زمن الرسول ـ انه السيرة العسكرية للنبي محمد اكثر منها لخالد . وهذا امر لايمكن تحاشيه ، فالاحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية في زمن النبي سواء اكانت دينية أو سياسية او اقتصادية أو ثقافية او عسكرية كانت جميعها خاضعة لنفوذ رسول الله بحيث لايستطيع أي كاتب ان يصف هذه الاحداث دون ان يعكس في كتابته التأثير القوي لشخصية محمد (عليه صلوات الله) ، والرسالة الجديدة التي أتى بها خاتم المرسلين . بالاضافة الى ذلك ، فان دراسة المعارك التي خاضها الرسول هي امر جوهري للطالب الذي يرغب في تتبع تطور فن الحرب في اوائل عصر الاسلام اعتبارا من بدايته المتواضعة في المدينة المنورة وحتى المناورات المعقدة التي نفذها خالد في اليرموك .

لقد ذكرت في الصفحات السابقة الكثيرين ممن قدموا لي يد المساعدة في تنفيذ المشروع . وهنالك اناس آخرون قدموا لي المساعدة في عدة نواح ، لكن المجال لايسمح لي بتسميتهم جميعا . وعلى كل الاحوال ، فانني اود ان اذكر انني مدين لزوجتي لرسمها الخرائط ولتدقيقها المسودة ، ولمساعدي الشخصي « عبد الستار شاد » لطبعه المسودة على الآلة الكاتبة .

وفي الختام ، فان الهدف من هذا الكتاب هو تقديم سيرة خالد بن الوليد للعالم والانجازات العسكرية التي حققها . فاذا نجح الكتاب في تحقيق غايته فالحمد لله ، وان لم ينجح فالشكر لله ايضا .

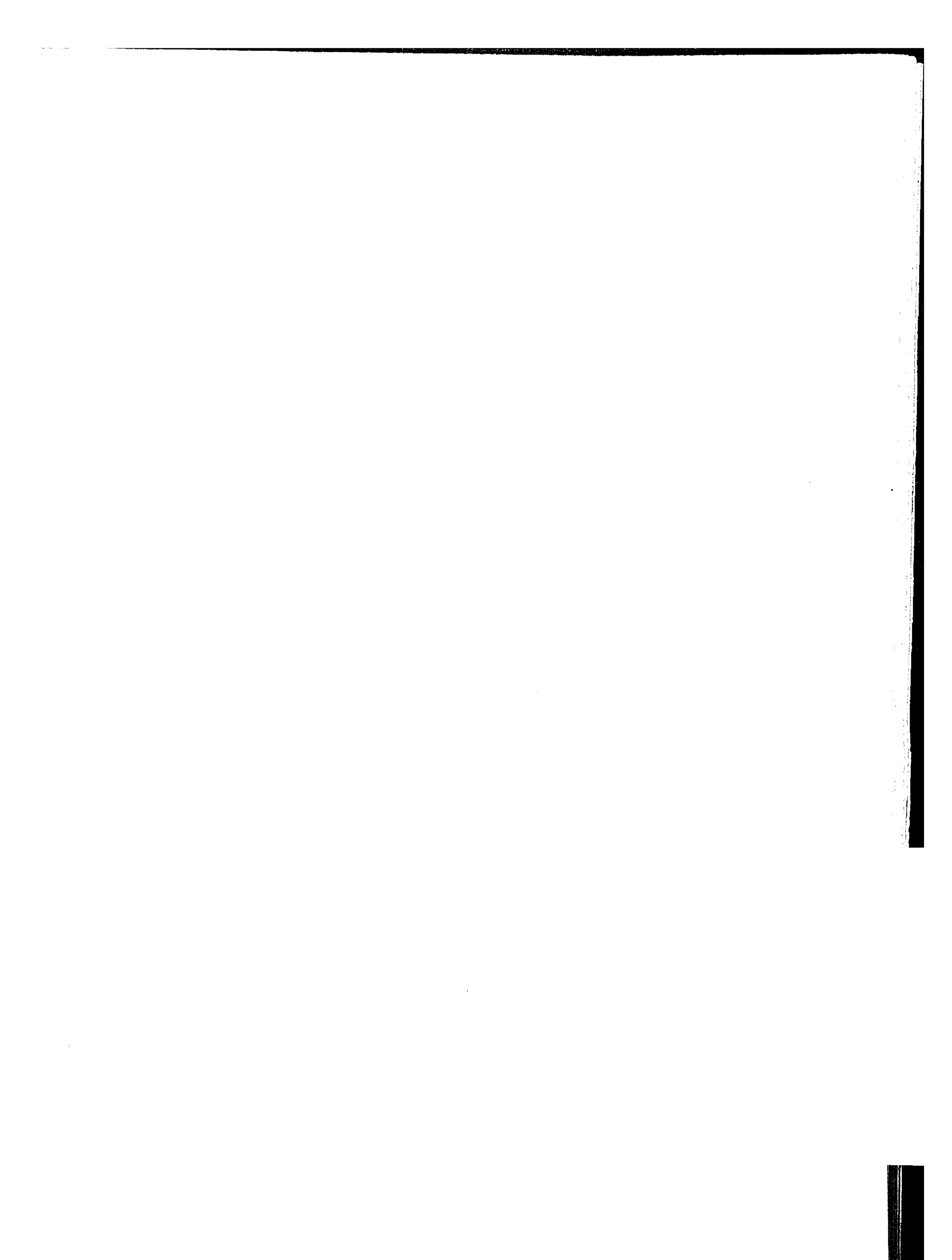
تشرين الاول ١٩٦٩

روالبندي ـ باكستان الغربية

آ٠ي٠ أكرم

الجزء الاول

في زمن النّبي



الفتى[1]

حملق خالد والفتى الطويل القامة كل منهما في الآخر . وبدآ بالدوران ببطء ، وكان كل منهما يركز نظره باهتمام علـى الآخر ويفتش عن ثغرة لهجومه ، كما ان كلا منهما كان حذرا من الحيل التي قد يستخدمها الآخر . لم يكن في عينيهما عداوة بل مجرد منافسة وتصميم ثابت على الفوز . لقـد وجد خالد ان من الضروري ان يكون حريصا ، لان الغلام الطويل القامة كان اعسر ويتمتع بميزة الفوز على خصمه في المبارزة .

كانت المصارعة تسلية شائعة بين الفتيان في شبه الجزيرة العربية ، وكانوا يتبارزون مرارا مع بعضهم البعض . لم يكن يوجد حقد في هذه المبارزات . لقد كانت عبارة عن رياضة ، وكان الفتيان يتدربون على المصارعة كاحدى متطلبات الرجولة عند العرب . لكن هذين الفتيين كانا اقوى من الجميع كمـا كانـا زعيمين للفتيان الذين في سنهم . وكانت هذه المباراة عبارة عن مبارزة عـلى لقب الوزن الثقيل . كان الفتيان يتباريان بشكل جيد . وكانا متقاربين في العمر ، كان كلاهما في سن المراهقة . وكان كل منهما طويلا ونحيلاً ، وكانت عضلاتهما المتكونة حديثا تتماوج على ذراعيهما وكتفيهما عندما كانت اجسامهما المبتلة بالعرق تلمع في الشمس . كان الفتى طويل القامة اطول من خالد ببوصة واحدة . وكان وجهاهما متشابهين بحيث يصعب التمييز بينهما . قذف خالد الفتى الطويل ، لكن هذه السقطة لم تكن عادية . اذ عندما سقط الفتى الطويل سمع صوت قرقعة عالية ، وبعد دقيقة تبين من شكل ساقه غريبة الشكل انها قد كسرت . فقد استلقى الفتى المضروب على الارض بدون حراك ، وحدق خالد بفزع الى ساق صديقه المكسورة .

وبمرور الايام التأم الجرح وعادت ساق الفتى الطويل كما كانت قوية وسليمة . واستمر في الصراع ثانية ليصبح احد المقاتلين الاشداء . كما ان الفتيان ظلا صديقين . ونظراً لكونهما ذكيين وقويين حسبما وهبتهما الطبيعة ، فقد كانا فاقدي الصبر والتروي . فاستمرا في التنافس في كل شيء يقومان به .

على القارىء ان يتذكر هذا الفتى الطويل ، لانه سيلعب دورا هاما في حياة خالد . انه ابن الخطاب واسمه عمر .

بعد أن وُلد خالد أخذ من أمه ، كما هي العادة لدى عائلات قريش ، وأرسل الى احدى القبائل في الصحراء . وقد تم ايجاد مرضعة له لكي تقوم بتربيته والاعتناء به . ان هواء الصحراء النقي وضع أساسا للقوة الهائلة والصحة الجيدة التي تمتع بها خالد خلال حياته . لقد بدا ان الصحراء قد لاءمت خالد اذ انه احبها وشعر كأنه بين اهله وذويه . عاش خالد طفولته بين عرب الصحراء ، وعندما بلغ الخامسة أو السادسة من عمره عاد الى منزل ابويه في مكة .

لقد أصيب خالد في طفولته بمرض الجدري ، لكن اصابته كانت خفيفة ولم تسبب له تشويها سوى آثار البثور القليلة في وجهه . ولم تؤثر آثار البثور هذه على وسامة وجهه ، هذه الوسامة التي سببت له كثيرا من المشاكل بين حسناوات شبه الجزيرة العربية .

لقد اصبح الطفل فتى ، وعندما بلغ سن الصبا ادرك بشيء من الكبرياء انه ابن زعيم . فوالده « الوليد » كان زعيم بني مخزوم ـ احدى أشرف بطون قريش ـ وكان يلقب في مكة أيضا بـ « الوحيد [1] » . لقد تكفل الوالد الآن بتنشئة خالد ، وبذل جهده (وقد نجح بذلك) لكي ينمي فيه الخصال العربية الحميدة كالرجولة والشجاعة والفروسية والخشونة والكرم . وكان الوليد يفتخر بعائلته وبنسبه ، واخبر ابنه خالد عن شجرة عائلته كما يلي :

---

(١) الاصفهاني ـ الجزء ١٥ ، صفحة ١١ .

خـــالد
ابن الوليـــد
« المغـــيرة
« عبـــد الله
« عمر
« مخزوم (وقد سمي البطـــن
باسمه)
« يقظـــة
« مُرة
« كعـــب
« لؤي
« غالـــب
« فهـــر
« مالـــك
« النضـــر
« كنانـــة
« خزيمـــة
« مدركـــة
« إلياس
« مضـــر
« نـــزار
« معد
« عدنـــان
« اد (ويقال ادد)
« مقوم
« ناحـــور

ابن تيرح
« يعرب
« يشجب
« نابت
« إسماعيل (يعتبر أباً للعرب)
« ابراهيم (النبي)
« آزر
« ناحور
« ساروغ (أو اسراغ)
« راعو
« فالخ
« عيبر
« شالخ
« إرفخشد
« سام
« نوح (النبي)
« لمك
« متوشلخ
« إدريس (النبي)
« يرد
« مهليل
« قينن
« يانش
« شيث
« آدم (ابو البشر)

كانت قبيلة قريش العظيمة التي قطنت مكة تتمتع بامتيازات ومسؤوليات بين بطونها الرئيسية . كانت بطون قريش الثلاثة المتزعمة هي بني هاشم ، وبني عبد الدار (بني امية فرع منها) وبني مخزوم . كان بنو مخزوم مسؤولين عن شؤون الحرب . وكانوا يربون ويدربون الخيل التي تمتطيها قريش للحرب ، كما كانوا يقومون باتخاذ الترتيبات من اجل اعداد وتجهيز الحملات ، كذلك كانوا يقدمون الضباط لقيادة جماعات قريش في المعركة . ان دور بني مخزوم هذا قد هيأ الجو الذي ترعرع فيه خالد .

لقد تعلم خالد وهو لا يزال طفلا ركوب الخيل . وهو كمخزومي عليه ان يكون فارسا ماهرا ، وبسرعة اتقن اعمال الفروسية . ولكن لم يكن كافيا ان يركب الخيل المدربة فقط ، بل كان عليه ان يكون قادرا على ركوب اي حصان . وكان عليه ان يعطى خيلا صغيرة السن غير مروضة وعليه ان يروضها ويجعلها رهن اشارته بحيث تصبح خيلا صالحة للحرب . كان بنو مخزوم من امهر الفرسان في شبه الجزيرة العربية ، واصبح خالد واحدا من خيرة فرسان بني مخزوم . بالاضافة الى ذلك ، فالعربي الذي يحسن ركوب الخيل فقط لا يعتبر فارسا جيدا اذ ينبغي عليه ان يحسن ايضا ركوب الجمال لان الخيل والجمال تعتبر حيوية بالنسبة للحرب العربية . كان الحصان يستخدم للقتال ، اما الجمال فكانت للمسيرات الطويلة . وكانت الخيل في هذه الحالة تسير خلف الجمال دون ان يمتطيها احد .

تعلم خالد مهارات القتال جنبا الى جنب مع ركوب الخيل . لقد تعلم استخدام جميع الاسلحة : المزراق ، والرمح ، والقوس والنشاب ، والسيف . كذلك فقد تعلم القتال على ظهر الحصان ، ومترجلا . وفي الوقت الذي اصبح فيه ماهرا في استخدام جميع الاسلحة كان يتفوق بشكل بارز في استخدام الرمح وهو على صهوة جواده ، والسيف للمبارزة على ظهر الحصان او مترجلا . كان العرب يعتبرون السيف سلاح الفروسية لانه يجعل الخصمين قريبين من بعضهما ، كما ان البقاء على قيد الحياة في قتال السيف يعتمد على القوة والمهارة وليس على مجرد المحافظة على مسافة امينة من الخصم . وكان السيف اكثر الاسلحة التي يوثق بها .

وعندما بلغ خالد سن الرجولة ، اصبح طوله يزيد على ١٨٠ سنتمترا كما اصبح عريض المنكبين واسع الصدر مفتول العضلات نحيلا لكنه قوي البنية . وكانت لحيته كثيفة وتملأ وجهه . ونظرا لهيئته البهية ، وشخصيته القوية ، ومهارته في ركوب الخيل واستخدام الاسلحة فقد اصبح شخصية محبوبة ونال اعجاب الناس في مكة . وهو كمصارع ، ارتقى سلم المجد عاليا حيث جمع المهارة والقوة .

كان عدد افراد العائلات العربية كبيرا ، فالاب كان يتزوج عدة زوجات الزيادة ذريته . فالوليد كان احد ستة اشقاء . (ربما كانوا اكثر من ذلك ، لكن اسماء ستة فقط هي المسجلة) . اما ابناء الوليد الذين نعلمهم فكانوا خمسة من الذكور واثنتين من الاناث . والاولاد هم : خالد ، والوليد (على اسم أبيه) ، وعمارة ، وعبد شمس . اما البنتان فهما « فاختة » ، « وفاطمة » .

كان الوليد رجلا ثريا . لذا لم يكن خالد في حاجة للعمل لكي يكسب رزقه فانصرف الى تعلم مهارات ركوب الخيل والمبارزة . وبسبب هذه الخلفية من الثراء ، فقد كبر خالد غير عابىء بالامور الاقتصادية واصبح معروفا باسرافه، وبكرمه حيث كان يعطي كل طالب للمساعدة . وقد سبب له هذا الكرم في احد الايام مشكلة خطيرة . كان الوليد رجلا ثريا كما ذكرنا . لكن القرشيين كانوا اناسا ديمقراطيين بشكل يدعو للدهشة ، وكان على كل فرد منهم ان يقوم بعمل ما سواء للحصول على مكافاة او لمجرد ان يكون عضوا نافعا في المجتمع . وكان على الوليد نفسه ان يعمل بالرغم من انه كان يستأجر عددا كبيرا من المستخدمين . ففي وقت فراغه كان حدادا[1]،وجزارا[2] يذبح الحيوانات للعشيرة، وكان ايضا تاجرا ، حيث كان يقوم مع العشائر الاخرى بتنظيم وارسال قوافل التجارة الى البلدان المجاورة . فقد رافق خالد قوافل التجارة اكثر من مرة الى سورية وزار المدن التجارية الكبرى في ذلك الاقليم الجميل التابع لروما . وفي سورية كان يمكنه ان يقابل عرب الفساسنة المسيحيين ، والفرس من بلاد فارس ، والاقباط من مصر ، والرومان من الامبراطورية البيزنطية .

(١) ـ ابن قتيبة ـ صفحة ٥٧٥ .
(٢) ـ ابن رسته ـ صفحة ٢١٥ .

كان لخالد كثير من الاصدقاء الذين كان يذهب معهم ، مثلما كان يذهب مع اخوته ، لركوب الخيل والصيد . وعندما لا يذهبون الى الصيد كانوا يقرضون الشعر ويتناولون الشراب . وقد لعب بعض هؤلاء الاصدقاء دورا هاما في حياة خالد وفي هذه القصة ، ومن بين الذين يستحقون الذكر بالاضافه الى عمر : عمرو بن العاص وابو الحكم . واسم ابي الحكم هذا هو عمرو بن هشام بن المغيرة ، والذي اصبح اسمه فيما بعد « ابا جهل » . وهو ابن عم خالد . وهنالك ابن ابي الحكم ، عكرمة وهو صديق حميم لخالد .

لم يكن الوليد ابا راعيا لاولاده فقط ، بل كان ايضا مدربهم العسكري ومنه تعلم خالد اول دروسه في فن الحرب . لقد تعلم كيف يتحرك بسرعة في قلب الصحراء ، وكيف يتقرب من قرية معادية ، وكيف يهاجمها . لقد تعلم اهمية اخذ العدو على حين غرة ، ومهاجمته في وقت غير متوقع ، ومطاردته عندما يندحر ويلوذ بالفرار . ان هذا النوع من الحرب يختص بالحروب القبلية بشكل جوهري ، لكن العرب عرفوا جيدا قيمة السرعة ، وخفة الحركة ، والمفاجأة ، كما ان الحروب القبلية هذه كانت تعتمد بشكل رئيسي على تكتيكات الهجوم .

وعندما وصل خالد الى سن النضج ، اصبح اهتمامه الرئيسي هو الحرب واصبح هذا الاهتمام مسيطرا عليه بدرجة كبيرة . وكانت افكاره افكار قتال ، وكان طموحه طموح النصر . وكانت دوافعه عنيفة وكان تركيبه النفسي عسكريا . وكان يصبو الى خوض معارك كبيرة والى احراز انتصارات عظيمة يكون هو بطلها بحيث يكون مثار الاعجاب والتقدير من قبل الجميع . لقد وعد نفسه ان يخوض المعارك وان يحقق النصر . كما وعد نفسه باراقة الكثير من الدماء . ويبدو ان القدر كان يحمل نفس الافكار عن خالد بن الوليد .

الدِّيـن الجَـديد

كان هنالك رجل عربي يجوب شوارع مكة ليلا ، غارقا في التفكير . وكان هذا الرجل ينتمي الى عشيرة بني هاشم الشريفة . وكان جميل المحيا ، مربوع القامة ، ذا منكبين عريضين ، وكان شعره يتدلى بضفائر حتى اسفل اذنيه . وكانت عيناه السوداوان الواسعتان ذات الاهداب الطويلة تبدوان حزينتين من عناء التأمل والتفكير .

كان هنالك الكثير من اساليب الحياة عند العرب التي سببت لهـذا الرجل الالم . وحيثما نظر حوله كان يجد امارات الفساد : في الظلم الـذي يرزح تحته الفقراء والبائسون ، وفي اراقة الدماء التي لا مبرر لها ، وفي معاملة النساء اللواتي يعتبرن كالبهائم ، وكان يشعر بألم عميق كلما سمع بواد الاطفال الانـاث .

وكانت بعض القبائل العربية قد تناقلت عادات سيئة كواد الاناث مـن اطفالهم . فالاب كان يترك الطفلة تكبر حتى تبلغ الخامسة او السادسة من عمرها . ثم يخبرها بأنه سيأخذها في نزهة ويلبسها أفخر ثيابها كأنها ذاهبـة الى حفلة . وهكذا يأخذها من المدينة او القرية الى مكان يكون قد حفـر فيه قبرا لدفنها . ثم يوقفها عند حافة هذا القبر دون ان تعلم ماذا سيحل بها ، وهي تعتقد ان اباها قد احضرها الى هنا للنزهة وتنظر اليه بشوق وهي تسأله متى ستبدأ الحفلة . ثم يقوم الاب بدفع طفلته نحو القبر ، وعندما تصرخ الطفلة طالبة مساعدة أبيها ، فانه يلقي بالحجارة الكبيرة على جسدهـا الغض ويكتم انفاسها . وعندما يتوقف جسد الطفلة عن الحركة تماما يهيل التراب في القبر

حتى يملأه ومن ثم يعود الى منزله . وفي بعض الاحيان كان الأب يتفاخر بفعلته هذه .

لم تكن هذه العادة طبعا منتشرة على نطاق واسع في الجزيرة العربية . اذ لم تسجل حادثة واد واحدة بين عائلات مكة الشهيرة : بني هاشم ، وبني أمية ، وبني مخزوم . وقد كان واد البنات يحدث بين بعض القبائل التي تعيش في الصحراء فقط ، و في بعض البطون فقط . وكان هذا العمل ، حتى ولو حدث على نطاق ضيق جدا ، مثيرا للرعب والاشمئزاز بين العرب الاذكياء والاباة في ذلك الوقت .

ثم كان هنالك اصنام مكة . ولقد بنيت الكعبة من قبل النبي ابراهيم كبيت لله ، لكنها ملئت بآلهة من خشب وحجر . وقد كان العرب يستعطفون هذه الآلهة بتقديم القرابين لها ، اعتقادا منهم بان الآلهة تؤذي الشخص عندما تغضب وتكون كثيرة السخاء عندما ترضى . وكان يوجد داخل الكعبة وحولها ٣٦٠ صَنَماً ، وكانت الاصنام التي تعبد اكثر من غيرها : اللات والعزى وهُبَل . وكان هُبَل فخر الآلهة عند العرب ، وهو اكبر هذه الآلهة وكان منحوتا من العقيق الاحمر . وعندما استورد اهل مكة هذا الصنم من سورية كان ينقصه اليد اليمنى ، لذلك فقد صنعوا له يدا جديدة من الذهب ولصقوها في ذراعه .

وكان يوجد في ديانة العرب مزيج غريب من الشرك والايمان بالله ــ الاله الحقيقي . كانوا يؤمنون بان الله هو الرب والخالق ، ولكنهم كانوا يؤمنون ايضا بالاصنام معتبرين إياهم ابناء وبنات لله . وكانت منزلة الرب في اذهان العرب تشبه مجلسا ربانيا ، فالاله هو رئيس المجلس وبقية الآلهة عبارة عن اعضاء في هذا المجلس ، وكل منها يتمتع بقوى خارقة مع انها تابعة للرئيس . وكان العرب يقسمون بهبَل ، او بأي إله او إلهة . كما كانوا يقسمون بالله ايضا . وكانوا يسمون ابناءهم ب عبد العزى . كذلك كانوا يسمون ابناءهم ب عبد الله .

وليس صحيحا ان يعتقد بان كل شيء يتعلق بثقافة العرب كان مغلوطا في ذلك الوقت . اذ كان يوجد كثير من الامور الرائعة والمجيدة في نمط حياتهم .

كان العرب يتمتعون بصفات الشجاعة وحسن الضيافة والتمسك بالكرامة الشخصية وشرف القبيلة .

كذلك كانوا يحبون الأخذ بالثأر في النزاعات الدموية التي كانت تنتقل من الاب الى الابن ،ولكن هذا العمل كان مفهوما ، وحتى ضروريا ، في مجتمع قبلي لا يوجد فيه سلطة مركزية لفرض القانون والنظام . وكانت مقابلة الشر بمثله على الصعيدين الشخصي والقبلي هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على السلام ومنع انتهاك القانون .

كان هذا العربي الذي ذكرناه آنفا يذهب الى كهف في تل ليس بعيدا عن مكة ويعتكف فيه شهرا واحدا كل سنة . وكان يقضي وقته في هذا الكهف يفكر ويتأمل وينتظر ، وهو لا يعرف ماذا كان ينتظر . وفي احد الايام ، بينما كان يفكر ويتأمل داخل الكهف شعر فجأة بوجود شخص ما . لكنه لم ير احدا ولم يسمع اية حركة ، لكنه شعر ان شخصا ما موجود في الكهف . ثم سمع هذا الصوت يقول : « إقرأ ! » فهتف العربي ، الذي شعر بالرهبة من هذا الصوت ، « ما أنا بقارىء ؟ » فقال الصوت ، الذي اصبح مرتفعا ، مرة اخرى « إقرأ ! » فقال العربي « ما أنا بقارىء ؟ » فقال الصوت وقد بدا مخيفا : « إقرأ ! » ثم تابع الصوت بلهجة وديعة :

« إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم[1] » .

وقد حدث هذا في يوم اثنين من شهر آب عام ٦١٠ ميلادي . لقد هبط الوحي على محمد أول مرة ، وتمت ولادة دين جديد .

وعندما هبط الوحي على محمد (عليه السلام) ، كان خالد في الرابعة والعشرين من عمره . وقد بقي النبي محمد مدة ثلاث سنوات يتلقى تعليمات ربه بواسطة الملاك جبريل دون ان يتكلم شيئا عن رسالته . ثم امر بعد ذلك ان

---

(١) ـ قرآن كريم : سورة ٩٥ ، آيات ١ ـ ٥

يبشر بدين الله ، وبدأ بعائلته وعشيرته . وقد سخر معظمهم برسالته وبالدين الجديد .

وفي احد الأيام قرر النبي ان يجمع اقرب اقربائه ويدعوهم الى وليمة في منزله ، وبذلك تسنح له الفرصة لكي يجمعهم معا ويضعهم في موقف يرغمون على الاستماع اليه . وقد أعدت الوليمة في حينها وتناول الضيوف الطعام بشهية . ثم خاطب النبي ضيوفه المجتمعين قائلا : « يابني عبد المطلب ! اني والله ما اعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان ادعوكم اليه فأيكم يؤازرني على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم [1] » .

وكانت اجابة الجميع هي الصمت . ولم يجب احد من الحاضرين ، وكان كل منهم يراقب الآخرين ليرى هل سينهض احد لنصرة هذا الرجل . ثم وقف شاب لم يبلغ العشرين بعد ، وكان هذا الشاب نحيلا ضامر الجسم هزيل الساقين ، وقال بصوت منخفض : « انا يانبي الله ساكون نصيرك » .

وقد ضج الضيوف بالضحك على هذا المشهد المضحك من قبل هذا الشاب — سخرية واستهزاء به — ثم وقفوا وبدؤوا بالانصراف . لكن الشاب لم يتأثر بمثل هذه السخرية ، وسرعان ما تعانق مع النبي بحرارة . ثم قال النبي : « ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم [2] » . كان هذا الشاب هو ابن عم النبي — انه علي بن ابي طالب . لقد كان اول من اسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

وبدات الحقيقة بالانتشار تدريجيا ؛ ودخل في الدين الجديد افراد قلائل معظمهم من الشباب او الضعفاء قليلي الحيلة . كان عددهم قليلا لكن شجاعتهم كانت عالية . وقد توسعت دائرة نشاط النبي . وبالرغم من معارضة قريش

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٣
(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٣ ، ابن سعد — مجلد ١ ، صفحة ١٧١
(٣) ابن هشام — الجزء الاول ، صفحة ٢٤٥ ؛ الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦ — المسعودي : المروج : الجزء ٢ ، صفحة ٢٨٣ .

واهاناتها له ، فقد استمر في مخاطبة الناس في زوايا الشوارع وفي السوق هاديا ومحذرا من النار التي تنتظر فاعل الشرّ . كان يَسْخر من أصنامهم المصنوعه من الخشب والحجر ويدعوهم الى عبادة الإله الحقيقي. وعندما ازدادت نشاطاته، أصبحت معارضة قريش له أقسى واشد . وقد تزعم هذه المعارضة بشكل رئيسي أربعة رجال هم : ابو سفيان (واسمه صخر بن حرب ، وهو زعيم بني أمية) ، والوليد (والد خالد) ، وابو لهب (عم النبي) ، وابو الحكَمْ . وسنسمع الكثير عن الاول والرابع في هذه القصة .

كان ابو سفيان والوليد عزيزي النفس وموضع احترام . وعندما قادا المعارضة ضد النبي ، لم يسيئا التصرف ولم يستخدما الشتم والذم . وكان ردّ الفعل الاولي للوليد هو الكرامة المضطربة . وقد صاح بانفعال : « لماذا تنزل النبوة على محمد ، ولم تنزل عليّ انا أكبر رجل في قريش منزلةً وسنّا ، وكذلك يوجد ابو مسعود زعيم قبيلة ثقيف ؛ وبالتأكيد هو ، وانا ، اعظم رجلين في المدينتين [1] » . كان هذا الرجل الكبير يعيش في عالم خاص به حيث يعتمد كل شيء على الحَسَبْ والنَّسَبْ .

وقد كان طبعا غير عادلٍ مع النبي ، لان عائلة محمد تتصل بأجيال عائلته الست ، كما ان عائلة محمد لاتقل نبْلاً عن عائلته . وفي الحقيقة ، فان عائلة محمد تعتبر في التاريخ الحديث ارفع منزلة من اي عائلة أخرى في مكة ، فقد كان عبد المطلب ، جدّ النبي ، زعيم قريش .

وطبقاً لرواية ابن هشام ، فان الآية القرآنية التالية قد نزلت بشأن ماقاله الوليد : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريَتَيْنِ عظيمٍ . » والمدينتان ، هما مكة والطائف . كذلك فان الآيات القرآنية التالية تتعلق بالوليد، الذي ذكرنا في الفصل السابق انه يُعرف بلقب « الوحيد » : « ذَرْني ومن خلقتُ وحيداً ، وجعلتُ له مالاً ممدوداً ، وبَنين شهوداً ، ومَهّدتُ لهُ تمهيداً ، ثم يَطمَعُ ان أزيدَ ، كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقُهُ

(١) ابن هشام — جزء رقم ١ ، صفحة ٣٦١ .

(٢) قرآن كريم (سورة رقم ٤٣ — آية رقم ٣١) .

صعودا [1] » ، « ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، ان هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر [2] » .

وكان أبو الحكم أكثر هؤلاء الزعماء حقداً وتعطشاً للدماء ، وهو ابن عم خالد وصديقه . وبسبب معارضته الشديدة للاسلام فقد لقبه المسلمون بـ « أبي جهل » ، اي الرجل الجاهل . وقد لازمه هذا الاسم بين اقرانه وزملائه . وقد كان رجلا صغير الجسم ، قوي البنية ، خشنا ، وقد وصفه أحد معاصريه (كان ذا وجه كالحديد ، ونظرة كالحديد ، ولسان كالحديد) . ولا ينسى أبو جهل في صباه ان محمداً قد رماه أرضاً عندما تصارع معه في مباراة عنيفة وسبب له جرحا في ركبته بقيت آثاره حتى مماته [4] .

وعندما وجد اشراف قريش وغيرهم ان من المستحيل منع النبي من القيام برسالته سواء بالتهديد او بالاغراء ، قرروا الذهاب الى الرجل الجليل والمحترم ، ابي طالب عم النبي وزعيم بني هاشم . وكانوا يتمنون قتل النبي لولا خشيتهم من نفوذ عائلته وعشيرته التي تحميه . كما ان قتله سوف يؤدي الى نزاعات دموية عنيفة مع بني هاشم الذين سيثأرون بدون شك بقتل القاتل أو أحد أفراد عائلته .

وفا، جاء وفد قريش الى ابي طالب وقال له : « يا أبا طالب ! انت زعيمنا وأفضل شخص بيننا . لقد رأيت مايفعله ابن اخيك لديانتنا . انه يشتم آلهتنا . وهو يفتري على ديننا ودين آبائنا . فإما ان توقف محمداً عن هذه الاعمال ، أو أن تسمح لنا باتخاذ الاجراءات اللازمة ضده [5] » .

فكلمهم ابو طالب بلطف وأخبرهم بانه سينظر في هذه المسألة ، وصرفهم ببشاشة . ولكن أبا طالب لم يفعل شيئا لايقاف النبي عن رسالته ونشر الدين

---

(١) قرآن كريم : سورة رقم ٧٤ ـ آيات رقم ١١ ـ ١٧ .
(٢) قرآن كريم : سورة رقم ٧٤ ـ آيات رقم ٢١ ـ ٢٦ .
(٣) الواقدي : « المغازي » ـ صفحة ٢٠ ، وابن رسته صفحة ٢٢٣ .
(٤) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ١٥٥
(٥) ابن هشام ـ جزء ١ ، صفحة ٢٦٥ ، وابن سعد صفحة ١٨٦ .

الجديد باستثناء ابلاغه عما قاله وفد قريش . كان ابو طالب شاعرا . وعندما تصادفه مشكلة من هــذا القبيل ، فانه يؤلف قصيدة طويلة يضمّنها جميــع مشاكله .

كانت اعمال النبي محور الاحاديث في منزل الوليد . فكان الوليد يجلس مساء مع أولاده وأقربائه ويستعرضوا أحداث النهار وما يفعله بنو قريش لمجابهة حركة محمد . وقد سمع خالد واخوته أباهم وهو يصف ما تم بــين وفد قريش الاول وبين ابي طالب . وبعد بضعة اسابيع ، استمعوا الى ابيهم وهو يتحدث عن الوفد الثاني الذي ذهب الى ابي طالب والذي لم يثمر شيئا كسابقه . وقد تابع النبي رسالته . بعد ذلك اتخذ الوليد خطوة جريئة . فقرر ان يقدم ابنه « عمارة » الى ابي طالب كبديل لشخص محمد . وكــان عمارة شابا وسيما طويل القامة وكان مثالا للشاب الفاضل في نظر الرجــال والنساء . فجاء وفد قريش الى ابي طالب ومعهم عمارة وقالوا له : « يا ابا طالب هذا هو عمارة بن الوليد . انه من خَيرة شباب قريش ومن أنبلهم وأوسمهم . فخذه كابن لك ، وهو سوف يساعدك ويكون تحت امرتك كأي ابن من الأبناء . وبالمقابل اعطنا ابن اخيك الذي انقلب ضد دينك ودين آبائك وقد سبب انشقاقاً في قبيلتنا . وسوف نقتله . اليس هذا عدلاً ــ رجل مقابل رجل ؟ » .

صدم ابو طالب بالعرض وقال : « لا اظن ان هذا عدلا على الاطلاق . انكم تريدون اعطائي ابنكم لاطعمه وأربيه بينما انتم تريدون محمداً لتقتلوه . وقسماً بالله ان هذا سوف لن يتم[1] » . وقد فشلت مهمة الوفد . ولا يعرف ماذا كان رد فعل عمارة بالنسبة لهذا الفشل هل هو خيبة الامل او الفرح .

بعد ان أيقنت قريش انه لايوجد أمل في ثنيه عن عزمه او اقناعه ، قررت ان تجعل حياة محمد واتباعه جحيما لا يطاق بحيث يخضع في النهاية الــى رغبات آل قريش . فأطلقوا متشردي مكة ضده . وصار هــؤلاء يصرخــون ويستهزئون بالنبي كلما مرّ بهم ، ويلقون التراب على وجهه ، ويضعون الاشواك

---

(١) ابن هشام ــ جزء ١ ، صفحة ٢٦٧ ، وابن سعد صفحة ١٨٦ .

في طريقه . وكانوا يلقون الاقذار على منزله ، وقد شاركهم في عملهم هذا ابو لهب وابو جهل . وانتقلت هذه المعاملة السيئة الى مرحلة اشد عنفا .

عندما زادت حدة الاضطهاد ضد المسلمين ، كذلك ازدادت أساليب وطرق هذا الاضطهاد . وقد فكر احد الاشخاص بالاساءة الى قضية محمد وذلك بتحديه وطلبه الى مباراة في المصارعة . وبذلك يتم تحقيره واذلاله في مبارزة عامة . وقد كان هذا الرجل عم النبي ، وهو لم يؤمن واسمه راكان بن عبد يزيد ، وهو بطل في المصارعة ويفتخر بقوته ومهارته . ولم يستطع أحد من اهالي مكة القاءه على الارض قط . فجاء الى النبي وقال له : « يا ابن اخي ! اعتقد انك رجل . واعتقد انك غير كذاب . فتعال وصارعني . فاذا القيتني ارضا فانني سأعترف بك نبياً حقيقياً » . وقد كان هذا الرجل مسروراً في قرارة نفسه بهذه الطريقة التي فكر بها للاقلال من قيمة محمد في نظر اهل مكة . ففي رأيه ان محمداً اما ان يقبل التحدي او يرفضه ، فاذا رفضه فانه سيبدو صغيراً أمام الناس وان قبله فانها فرصة العمر لسحقه . لقد قبل النبي التحدي وفي مباراة المصارعة هذه ألقى النبي الرجل على الارض ثلاث مرات ! لكن هذا الوغد حنث في وعده [1] .

وكان النبي نفسه في مأمن من الأذى الجسدي وذلك بسبب حماية عشيرته له ، ولانه يستطيع ان ينزل بخصمه من الاذى أكثر مما يصيبه اثناء المبارزات . لكن كان هنالك مسلمون في موقف ضعيف — وهؤلاء لا يرتبطون بنسب مع عائلات قوية أو كانوا ضعفاء جسديا وهؤلاء كانوا من الرقيق رجالا ونساء . وكانت توجد فتاة من الرقيق ضربها عمر عندما أسلمت ، وظل يضربها حتى كلّ ساعده ولم يستطع الاستمرار في الضرب . هذا ومن المعروف ان عمر كان رجلاً شديد البأس .

لقد عُذّب الكثيرون من الرجال والنساء من قبل قريش . ومن أشهر هؤلاء الذين عُذّبوا كان بلال بن حمامة وقد تحدث عنه التاريخ بكلمات ناصعة . وقد

(١) حسب رواية ابن هشام (جزء ١ — صفحة ٣٩٠) فان النبي هو الذي تحدى « راكان » لكنني سردت رواية ابن الاثير (جزء ٢ — صفحة ٢٧ ، ٢٨) واعتقد انها اكثر احتمالا .

كان بلال عبداً حبشياً ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، وقد عُذب من قِبل سيده « أمية بن خلف » . وكان بلال يمدد على الرمال المحرقة وقت الظهيرة ، أثناء الحرّ الشديد ، وتوضع صخرة كبيرة على صدره ويترك تحت رحمة الشمس اللاهبة . ومن حين لآخر كان سيّده يأتي لينظر اليه وهو يتعذب اشد العذاب ويقول له : « تبرّأ من محمد وعُدْ لعبادة اللاّت والعُزّى » . لكن ايمان بلال كان قويا ولم يتأثر بكلام سيده . ولم يدر بخلد امية بن خلف وهو يعذب بلال ، بانه هو وابنه سوف يقابلان بلال ـ الذي كان يوما ما عبده ـ في غزوة بدر ، وان بلال سيكون منفذ حكم الاعدام به وبابنه .

لقد اشترى أبو بكر بلالا وكثيراً من العبيد ، وجميعهم ضحايا التعذيب ، وقد كان رجلا ثرياً . وكلما علِمَ أبو بكر بوجود عبد مسلم يتعذب كان يشتريه ويعتقه .

بالرغم من كل هذا الاضطهاد ، بقي النبي لطيفا ورحيما مع أعدائه . وكان يصلي ويقول . « ياإلهي أشدُدْ أزري بعمر وأبي الحكم » . وقد استجاب الله دعاءه بالنسبة لعمر الذي أصبح الرجل الاربعين الذي دخل في الاسلام [1] ، لكن ابا جهل بقي كافراً ومات على كفره .

في عام ٦١٩ م ، اي بعد عشر سنوات من هبوط الوحي لاول مرة ، مات ابو طالب[2] .

وقد اصبح مركز النبي حرجاً بعد موته . فازدادت عداوة قريش ، كما ازداد الخطر على حياة المسلمين . وظل النبي محاطا بعدد قليل من الاصحاب الذين استمر في هديهم ، وكان بين هؤلاء عشرة مقربون اليه . وقد اصبح هؤلاء يُعرفون باسم « العشرة البَرَرة » ، وكانوا موضع احترام وحب وتقدير المسلمين طيلة حياتهم [3] .

---

(١) لقد وضع هذا الترتيب بالنسبة لدخول عمر الاسلام « ابن قتيبة » ـ صفحة ١٨٠ ، اما الطبري فيذكر ان ترتيب عمر في دخول الاسلام كان السابع والستين (جزء ٣ ـ صفحة ٢٧٠)

(٢) عشر سنوات محسوبة بالعام القمري وهو اقصر من العام الشمسي ب ١١ يوما .

(٣) هؤلاء العشرة البَرَرَة هم : علي ، ابو بكر ، عثمان ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن عبيد الله ، أبو عبيدة بن الجراح ، سعد بن زيد ، عمر .

لقد بقي النبي في مكة ، يتحمل ما لا يطاق . ثم قابل بعض الرجـال من المدينة (وكانت تعرف باسم يثرب) النبي واعتنقوا الاسلام . وقد دعوه ليهاجر الى مدينتهم ، بعد ان علموا بمقدار الخطر الذي يتعرض له ، ويعيش معهم . فأذن الله للمسلمين بالهجرة ، وارسل النبي معظمهم الى المدينة .

في ايلول عام ٦٢٢ م ، استقر رأي قريش اخيرا على قتل محمد . وفي مساء اليوم المخطط لاغتياله ، غادر النبي منزله وهاجر الى يثرب وبصحبته ابو بكر ، وعبد ، ودليل . وعند وصوله الى يثرب ، اصبحت المدينة مركزا للدين الاسلامي وعاصمة الدولة الاسلامية الجديدة . وبذلك انتهت فترة الاضطهاد .

بعد مغادرة النبي مكة بثلاثة اشهر ، استدعى الوليد ابناءه وهو عـلى فراش الموت وقال لهم : « يا اولادي ، اوصيكم بثلاثة اشياء واحرصوا على تنفيذها . الاول هو نزاعي الدموي مع (خزاعة) فاثأروا لي . واقسم بالله ، انني اعلم انهم ليسوا مذنبين ، لكنني اخشى ان تلاموا بعد هذا اليوم . امـا الثاني فهو مالي ، الذي تجمع من الفوائد واستحق لي مع « ثقيف » واعملوا على استيفائها منهم . والثالث هو انني استحق التعويض أو الدم من « أبي أزيهر[1] » لقد تزوج هذا الرجل ابنة الوليد ثـم تركها دون أن يعيدها الى منزل والدها .

بعد ان انهى الوليد وصيته لفظ انفاسه الاخيرة . ودفن بموكب مهيب يليق بزعيم كبير وابن شريف من قريش .

لقد انهيت المشكلة الاولى بدون صعوبة تذكر ؛ حيث دفعت خزاعة الديّة واسدل الستار بدون عنف . أما المشكلة الثانية فقد ظلت معلقة لعدة سنوات بدون حل . وبالنسبة للمشكلة الثالثة ، وهي النزاع مع زوج ابنة الوليد ، فقد قرر هشام شقيق خالد ان لايرضى بديلا عن دم ابي ازيهر . وقد انتظر اكثر من عام الى ان واتته الفرصة ثم قتل هذا الرجل . وتعقدت الامور وكان هنالك خطر اراقة الدماء بين العائلتين ؛ لكن ابا سفيان تدخل وعقد صلحاً بينهما ولم ترق دماء اخرى .

---

(١) ابن هشام — جزء ١ ، صفحة ٤١٠ — ٤١١ .

لقد عاش خالد فترة هدوء في مكة خلال السنوات التي تلت موت أبيه ، وتمتع بحياة هنيئة من جراء الثروة التي كان يملكها . وسافر الى سورية مع قافلة تجارية ووصل الى مدينة « بصرى » ، هذه المدينة التي سيزحف اليها بعد عدة سنوات كهدف عسكري .

اننا لانعلم كم زوجة وكم ولدا كان لدى خالد في ذلك الوقت ، لكننا نعلم عن ولدين : أكبرهما يدعى سليمان ، والثاني يدعى عبد الرحمن . وقد ولد هذا قبل موت الوليد بحوالي ستة أعوام ، كما أنه قد حقق فيما بعد شهرة كقائد في سورية . ولكن طبقا لعادات العرب، كان خالد يدعى بـ « ابي سليمان »، او خالد بن الوليد . وكان معظم الناس يخاطبونه بابي سليمان .





غـزوة أحـد

لقد ابتهج كل شخص في مكة بوصول القافلة من فلسطين . فقد كانت القافلة في خطر كبير خلال الايام القليلة التي مرت بها على طول الطريق الساحلي قرب المدينة ، وقد أوشكت ان تقع بيد المسلمين . ولكن بفضل مهارة وقيادة ابي سفيان للقافلة ، فقد انقذت من الوقوع في الاسر . وكانت القافلة تتألف من الف بعير محملة ببضائع قيمتها خمسون الف دينار ، وقد حقق ابو سفيان في هذه القافلة ربحا مقداره ١٠٠٪ .

ونظرا لان جميع العائلات المرموقة في مكة مساهمة في هذه القافلة ، فان عودتها بهذا القدر من الربح سببت الفرح للجميع . وقد حدث ذلك في آذار ، وهو شهر الربيع في الجزيرة العربية ، من عام ٦٢٤ م .

وبينما كان اهل مكة يغنّون ويرقصون ، والتجار يفركون أيديهم انتظاراً لحصتهم في الربح ، كان جيش قريش المنكسر يجر أذيال الخيبة والفشل في طريقه الى مكة . وكان هذا الجيش قد اندفع استجابة لطلب النجدة من أبي سفيان ، عندما تحقق من خطر المسلمين المحدق به . وقبل ان يصل جيش قريش الى مكان الاشتباك ، استطاع ابو سفيان ان ينقذ القافلة . وارسل رسالة الى قريش للعودة الى مكة لزوال الخطر . لكن ابا جهل الذي كان يقود الجيش ادرك أنه لن يستفيد شيئا في حال عودته . وكان قد أمضى الـ ١٥ سنة الماضية من عمره في معارضة مريرة ضد النبي ، اذن فهو لن يسمح لهذه الفرصة ان تفوته . فبدلا من العودة ، تورّط في معركة مع المسلمين .

وهاهو الجيش المتشامخ يعود الآن الى مكة وهو في حالة من الذهول وذل الهزيمة .

وبينما كان جيش قريش في طريقه الى مكة ، جاء مراسل منه على ظهر بعير سريع . وعندما وصل هذا المراسل الى تخوم مكة ، شقّ قميصه واخذ يصرخ بصوت عالٍ معلناً حدوث مأساة . فتجمع اهالي مكة حوله ليستفسروا منه عن أنباء المعركة .

وبدؤوا يسألونه عن أبنائهم واعزائهم فاخبرهم عن مصيرهم . وكان بين الحاضرين ابو سفيان وزوجته هند .

وقد علمت « هندُ » من هذا المراسل عن اعزائها الذين فقدتهم وهم : والدها عتبة الذي قتل على يدي علي ، وحمزة عم النبي ، وعمها « شيبة » على يدي حمزة ، واخوها وليد على يدي علي ، وابنها حنظلة على يدي علي . فشتمت حمزة وعلي واقسمت على الانتقام .

لقد كانت « وقعة بدر » أول صدام رئيسي بين المسلمين واعدائهم اذ صمدت قوة صغيرة ، مؤلفة من ٣١٣ مسلما ، كالصخرة أمام غزو ١٠٠٠ رجل من الكافرين . وبعد قتال عنيف دام ١ ــ ٢ ساعة ، حطم المسلمون جيش قريش الذي فرّ بشكل فوضوي من ميدان المعركة . وقد قتل أو اسر في هذه الوقعة خيرة بني قريش .

كما قتل سبعون مشركاً ، واسر سبعون آخرون على يد المسلمين الذين فقدوا ١٤ شهيدا فقط . وكان من بين قتلى المشركين ١٧ قتيلا من بني مخزوم، وكان معظمهم من أبناء عم وابناء شقيقات خالد . كما قتل أبو جهل ، واسر وليد شقيق خالد .

وعندما أعلن المراسل أسماءَ القتلى ومن قتَلهم ، لاحظ بنو قريش تكرار إسمَيْ علي وحمزة . فقد قتَل عليٌ ١٨ رجلاً بنفسه واشترك في قتل أربعة آخرين . أما حمزة فقد قتل أربعة رجال واشترك مع علي في قتل اربعة آخرين . وهكذا فقد سيطر اسمُ علي في هذا الاجتماع الحزين .

وبعد يومين ، عقد ابو سفيان مؤتمراً ضمّ جميع زعماء قريش . ولم يكن احد بين المجتمعين لم يفقد شخصا عزيزا في وقعة بدر . فبعضهم فقدوا الآباء ، وبعضهم فقدوا الابناء ، والبعض الآخر فقد الاشقاء . وكان أكثر الحاضرين هياجاً صفوان بن امية ، وعكرمة بن أبي جهل .

وقد كان من الصعب كبح جماح عكرمة ، فابوه كان له شرف قيادة جيش قريش في غزوة بدر وقد قتل في المعركة . ووجد الابن بعضَ السلوى والعزاء لكون ابيه قتل رجلاً في وقعة بدر كما أنه هو نفسه قتل رجلا آخر . علاوة على ذلك ، فقد هاجم المسلم الذي قتل اباه ، وجرحه في ذراعه ، لكن ذلك لم يكن كافيا ليطفىء تعطشه للانتقام . وأصرّ عكرمة على انه ينبغي على قريش ان تثأر لقتلاها .

وقال ابو سفيان : « لقد فقدت أنا ايضا ابني حنظلة ، وإن تعطشي للثأر لايقل عنك . وساكون اول من يجهّز حملة قوية لشنّ هجوم ضد محمد [1] » .

وتعهد الجميع في هذا المؤتمر بأخذ الثأر ، وان لا يتقاعس احد عن القتال في هذه المرة . وسوف تجهز حملة لم يجهّز مثلها من قبل في مكة ، ولسوف تدعى القبائل المحلية الاخرى للانضمام الى الحملة والاشتراك في إبادة المسلمين . كما أن الربح الاجمالي الذي حققته القافلة ومقداره خمسون الف دينار سوف يصرف على تمويل الحملة . وانتخب ابو سفيان بالاجماع قائدا لجيش قريش .

اتخذ ابو سفيان قرارين ؛ أولهما : ينبغي عدم البكاء والنحيب من أي نوع كان على الذين قتلوا في بدر . والفكرة وراء هذا الامر هي ان الدموع تغسل الحقد من قلوبهم ، لذا يجب ان يظل هذا الحقد في القلوب حتى يتم اخذ الثأر من المسلمين . ومع ذلك ، فان الذين كان مصابهم كبيرا كانوا يبكون في السر .

أما القرار الثاني فيتعلق بالاسرى الموجودين لدى المسلمين . فقد أمر

---

(١) الواقدي : المغازي ـ صفحة ١٥٦ ـ ١٥٧

ابو سفيان بعدم بذل الجهود لاطلاق سراحهم خوفا من ان يؤدي ذلك الى طلب الثمن من قبل المسلمين . ومع ذلك ، فان هذا القرار لم ينفذ من الجميع. اذ بعد يومين غادر ليلاً احد الاشخاص مكة سراً لدفع الفدية عن ابيه ، وعندما علم الناس الآخرون بذلك ، بادروا فورا الى دفع الفدية واطلاق سراح ذويهم . ولم يكن امام ابي سفيان اي خيار سوى الغاء قراره .

لقد كانت قيمة الفدية تختلف من شخص لآخر . وقد بلغ اعلى معدل لها ٤٠٠٠ درهم ، وادنى معدل ١٠٠٠ درهم بالنسبة للاشخاص الذين لايستطيعون دفع اكثر من ذلك . وقد حصل عدد قليل من الاسرى الفقراء الذين كانوا من المتعلمين ، على حريتهم مقابل تعليمهم عددا معينا من ابناء المسلمين القراءة والكتابة . وقد اطلق سراح بعض المعوزين من قبل النبي دون ان يدفعوا الفدية شريطة ان لايعودوا ابدا الى حمل السلاح ضد المسلمين .

وكان من بين الذين ذهبوا للتفاوض على اطلاق سراح الاسرى : عكرمة ، وخالد (الذي لم يشترك في غزوة بدر بسبب غيابه آنذاك عن الحجاز) ، وهشام شقيق خالد . وقد رتب خالد وهشام امر إطلاق سراح اخيهما وليد . وعندما سمع هشام ان مقدار الفدية ٤٠٠٠ درهم اخذ يساوم لتخفيض قيمتها لكن خالد انّبه على ذلك . ثم دفع مبلغ ٤٠٠٠ درهم مقابل اطلاق سراح وليد ، وبعد ذلك غادر الاشقاء الثلاثة « المدينة » ونصبوا خيامهم لقضاء الليل فى مكان يدعى « زول حايفه » على بعد بضعة اميال عن المدينة . وهنا هرب وليد ليلا من المخيم وعاد الى « المدينة » والتحق بالنبي واصبح مسلما .

وبعد ذلك برهن انه مسلم مخلص واصبح من المقربين للرسول ، وعلى الرغم من اعتناقه الدين الجديد ،فقد ظلتعلاقاته مع اخيه خالد قوية وحميمة. وبينما كان الموضوع الرئيسي في مؤتمر قريش هو التحدث عن الثأر ، فان عاملا آخر قد جرَّ قريش الى الحرب مع المسلمين وهو عامل اقتصادي . فالمحور الرئيسي الذي كانت تسلكه قوافل قريش وهي ذاهبة الى سورية وفلسطين ، كان يقع على الطريق الساحلي الذي لم يعد مفتوحا امامها بعد غزوة بدر . وفي تشرين الثاني ، لمسَ صفوان بن امية الحاجة الى مزيد من التجارة ، فارسل قافلة باتجاه سورية على محور آخر ظن انه قد يكون آمنا .

وغادرت هذه القافلة مكة على الطريق المؤدي الى العراق ، وبعد ان سارت مسافة ما اتجهت شمال غرب نحو سورية ، وبعد ان اجتازت « المدينة » اعتقد صفوان أنها اصبحت في أمان . لكن النبي علم بأمر هذه القافلة وأرسل زيد بن حارثة على راس مائة رجل لأسرها وقد تم له ذلك .

بعد ذلك ذهب صفوان الى أبي سفيان ، وقد اتفق القائدان في الراي على انه عندما يزدهر اقتصاد قريش ، الذي يعتمد على التجارة الرابحة مع سورية ، فان القضاء على المسلمين يصبح امرا وشيكا . وقد كان عكرمة قليل الصبر يضغط للاسراع . ومع ذلك ، فان ابا سفيان ، الرجل الحكيم والزعيم القديم ، كان يعلم ان الحملة تحتاج الى وقت لتجهيزها وأشراء الجمال والخيول والاسلحة . وقد وعد ببذل جهده .

بدأ الاعداد للحملة الآن بحماس كبير . واثناء ذلك ، جاء رجل غير مؤمن الى ابي سفيان ومعه اقتراح . كان هذا الرجل يدعى « ابو عامر » من المدينة . وقد اعترض على وصول النبي الى المدينة ، وعلى السرعة التي اعتنق فيها افراد عشيرته – « الاوس » – الاسلام . وفي مكة ، اخذ يحرض بني قريش ضد المسلمين . وكان « ابو عامر » يسمى في الجاهلية ب « الراهب » ، لكن النبي سماه ب « الفاسق » ! وهكذا عرفه المسلمون باسم : « ابو عامر الفاسق[1] » .

وقد قال لابي سفيان : « يوجد معي خمسون رجلا من عشيرتي . ولي نفوذ كبير على عشيرتي الاوس . وانني اقترح عليك ان اخاطب الاوس بين المسلمين قبل أن تبدأ المعركة ، وانني على يقين بأنهم سيهجرون محمداً وينضمون الى جانبي[2] » . فقبل ابو سفيان هذا الاقتراح بسرور . وكانت الاوس احدى قبيلتين رئيسيتين في المدينة وكان افرادها يشكلون ثلث جيش المسلمين .

بدأ التفاوض مع القبائل المجاورة ، واخذت الامدادات تصل من كنانة وثقيف . وفي اوائل آذار عام ٦٢٥ م ، بدأ تجمع الحملة في مكة . وفي هذه

---

(١) ابن هشام – الجزء ٢ صفحة (٦٧) .

(٢) الواقدي : المغازي – صفحة (١٦١) .

الاثناء كتب العبّاس ، عم النبي ، رسالة الى الرسول من مكة يعلمه فيها بالاستعدادات التي تحضّر ضده .

وفي الأسبوع الثاني من آذار ، انطلق القرشيون من مكة بجيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعمائة دارع . وكان معهم ثلاثة آلاف بعير ، ومائتا فرس . وقد سارت مع الجيش خمس عشرة امراة قرشية في هوادج . وكانت مهمتهن تذكير القرشيين بابنائهم الذين قتلوا في غزوة بدر وتقوية معنوياتهم . وكانت هند بين هذه النساء وكانت بمثابة قائدة لهم ، وكان الدور يلائمها تماما. كما كانت بينهن زوجة عكرمة ، وزوجة عمرو بن العاص ، وشقيقه خالد . ومن النساء اللواتي سنسمع عنهن مرة أخرى ، عَمْرة بنت الكمة ، كما كان يوجد عدد من النساء الناشدات اللواتي يحملن الرّق والطبول .

وعندما كانت الحملة تسير باتجاه المدينة ، قال احد قادة قريش ، وهو « جُبير بن مُطعِم » ، الى عبده الملقب بـ « الوحشي » (وحشي بن حرب) : « فان انت قتلت عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فانت عتيق [1] » . وقد رحّب الوحشي بهذا العرض . وكان هذا العبد الحبشي الاسود ضخم الجثة ، وكان يقذف بمدراق [2] له جلبه معه من موطنه في افريقيا . وكان ماهرا في استخدام هذا السلاح ولم يخطىء الاصابة قط .

وبعد ان سارت الحملة مسافة اخرى ، راى « الوحشي » احد الجمال التي تحمل الهوادج يسير بجانبه . وقد نظرت اليه هند من الهودج وقالت له : « يا أبا السواد ! عش وخذ مكافاتك [3] » . لقد وَعَدَتْه بأن تعطيه جميع المجوهرات التي تتزين بها اذا استطاع ان يقتل حمزة انتقاما لقتل ابيها .

نظر « الوحشي » بِنَهَمْ الى الحلية التي مع هند : القلادة ، الاساور ، الخلاخيل ، الخواتم التي تضعها في اصابعها . وقد بدت جميعها غالية الثمن ، فلمعت عيناه فرحا لمجرد احتمال الحصول عليها في حال نجاحه بمهمته . لقد حُذّر النبي الاكرم من قبل العبّاس باستعدادات قريش قبل أن

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦١ ـ ٦٢ .
(٢) ضرب من الرماح .
(٣) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦١ ـ ٦٢ .

يبرحوا مكة . وبينما كانوا في طريقهم الى المدينة ، كانت الأنباء تصل الى النبي عن تقدمهم بواسطة القبائل الصديقة . وفي العشرين من آذار ، وصل القرشيون الى قرب المدينة وعسكروا على بعد بضعة اميال عنها ، في منطقة تكثر فيها الاشجار غرب جبل اُحُد . وفي هذا اليوم **بالذات** ، ارسل النبي كشافَيْن لرصد القرشيين . وقد عاد الكشافان واعطيا تقريراً عن القوة الحقيقية لهم .

وفي الحادي والعشرين من آذار ، غادر النبي المدينة ومعه الف رجل منهم مائة دارع . ولم يكن مع النبي من الخيل سوى فرسه وفرس أبي بردة ابن دينار الحارثي . وقد عسكروا لقضاء الليل قرب تل صغير أسود يدعى « الشيخين » ، وهو يقع الى الشمال من المدينة على بعد ميل ونيّف .

وفي صباح اليوم التالي ، وقبل استئناف المسير ، ترك المنافقون ، وتعدادهم ٣٠٠ رجل بإمرة عبد الله بن اُبيّ ، النبيَّ بحجة ان قتال القرشيين خارج المدينة لن يكتب له النجاح . لذا فانهم لن **يشتركوا** في عملية سوف تؤول بنظرهم الى الفشل . وهكذا عاد المنافقون الى المدينة . وبقي مع النبي ٧٠٠ رجل ، فسار بهذه القوة من المعسكر . وفي الحقيقة فان النبي لم تكن لديه النية للقتال خارج المدينة . وقد كانت رغبته ان ينتظر المسلمون وصول القرشيين الى المدينة وهنا تجري المعركة على ارضهم ، لكن معظم المسلمين أصروا على الخروج لملاقاة القرشيين ، لذا فان النبي ، نزولا عند رغبتهم ، سار لقتال قريش خارج المدينة . ولكن بالرغم من خروجه لملاقاة اعدائه في ارض مكشوفة ، الا انه هو الذي اختار ارض المعركة . وتقدم النبي الى سفح جبل اُحُد وفتح قواته بتشكيل المعركة .

ان اُحُداً هي عبارة عن **هضبة** طبيعية كبيرة تقع شمال المدينة على مسافة اربعة أميال (اعتبر مسجد النبي كنقطة انطلاق من المدينة) ، وترتفع الى علو الف قدم عن مستوى السهل المحيط بها . ويبلغ طول هذه الهيئة الطبيعية خمسة أميال . وفي الجزء الغربي من اُحُد ، يوجد بروز كبير يهبط بانحدار شديد نحو السهل ، كما يوجد الى يمين هذا البروز ، وادٍ يرتفع بشكل طفيف ويضيق وهو يبتعد حتى يصل الى مضيق يبعد ١٠٠٠ متر عن نهاية البروز .

وفي مـدخل الوادي ، وعند نهايـة البروز ، وضع النبي جيشه بحيث كـان الـوادي خلفـه .

لقد تنظم المسلمين في تشكيـل متلاحم تبلـغ جبهته ١٠٠٠ ياردة . ووضع جناحـه الايمن عند سفح تل صغير يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما وطوله ٥٠٠ قدمـا ، ويسمى « عَيْنَيْنـن » . كانت ميمنة المسلمين مؤمّنة ، لكن ميسرتهم يمكن الالتفاف حولها من وراء تل « عينين » ، ولمواجهة هـذا الخطر ، وضع النبي ٥٠ راميا على تل عينين بحيث يسيطرون على طرق الاقتراب التي قـد يناور منها القرشيون للوصول الى مؤخرة المسلمين . وقد اعطى النبي تعليماته الى آمـر الرماة ، عبد الله بن جبير ، فقال : « إنْضَحْ الخيلَ عنّا بالنَّبْـل لايأتونا مـن خلفنا إن كـانت لنا او علينا فاثبُتْ مكانَكَ لانُؤْتَيَنّ مـن قِبَلِكَ [١] . » لقد كانت الاوامر الصادرة الى الرماة محددة بشكل دقيق . فبما أن « عينين » كانت هضبة طبيعية هامة ومسيطرة تماما علـى المنطقـة المحيطة بها ، كان من المحتم التاكيد على ضرورة عدم سقوطها بأيدي قريش .

وقد وقفت ١٤ إمرأة وراء المسلمين بمهمة تقديم الماء للعطشى ، وحَمْل الجرحى خارج المعركة وتضميد جروحهم . وكانت بين أولئك النساء فاطمة بنت الرسول (زوجة علي) . وقد اتخذ النبي موقعه مع الجناح الايسـر لجيشـــه .

وكانت تراتيب قتال المسلمين تهـدف الى الدخول في معركة جبهيـة موضعية وقد تم استيعابها بشكلٍ جيد . وقد منَحتْ هذه التراتيب المسلمين ميزة استثمار مصادر قوتهم ــ وهي الشجاعة ومهارة القتال . كذلك فان هذه التراتيب انقذتهم من الاخطار التي سيتعرضون لهـا بسبب قوة القرشيـين العددية وقوتهم بالفرسان وهؤلاء يشكلون ذراع المناورة المتحرك الذي يفتقده المسلمون . لقد كان الموقف يـلائم أبا سفيان لكي يخوض معركة في ارض مفتوحة بحيث يستطيع المناورة ضد مجنبات المسلمين ومؤخرتهم بواسطـة الخيالـة ثم يركز قوته ويهاجمهم . لكن النبي احبط خطته واجبره علـى

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٦٥ ــ ٦٦ ، الواقدي : المغازي صفحة ١٧٥ .

القتال في جبهة محدّدة بحيث يصبح تفوقه العددي وقوته بالفرسان ذات قيمة محدودة . وهناك نقطة تستحق الملاحظة وهي أن المسلمين يواجهون فعلياً المدينة وجبل أُحد خلفهم ، والطريق الى المدينة مفتوحا امام القرشيين .

تحرك القرشيون الآن ، واقاموا معسكراً للمعركة على بعد ميل جنوب البروز ، ومن هنا قاد أبو سفيان جيشه الى الامام وشكّله بترتيب قتال يواجه المسلمين . وكان ترتيب القتال يتألف من قوة رئيسية من المشاة في الوسط ومن جناحين متحركين . لقد كان خالد على الجناح الايمن ، وعكرمة على الجناح الايسر ، وقد عُزز كل منهما بسريّة خيالة تتألف من ١٠٠ محارب . وقد عُين عمرو بن العاص مسؤولا عن جميع الخيالة ، لكن عمله الرئيسي كان تنسيق التعاون . لقد وضع أبو سفيان مائة نبّال على رأس الصف الامامي من أجل الاشتباك الاولي . وكان يحمل عَلَمَ قريش طلحة بن أبي طلحة وهو أحد الذين ظلوا على قيد الحياة بعد غزوة بدر . وهكذا انتشر القرشيون وظهرهم الى المدينة ، بحيث يواجهون المسلمين وكذلك جبل أحد . وفي الحقيقة فقد كانوا بين جيش المسلمين وقاعدته في المدينة . (انظر الخريطة رقم ١ لرؤية تراتيب قتال الجيشين) .

ووقفت النساء مباشرة خلف القوة الرئيسية لقريش . وقبل ان تبدأ المعركة ، انطلقت بإمرة هند بين رجال قريش من اجل تذكيرهم بمن قتلوا في وقعة بدر ، وقبل ان تعود النساء الى مواقعهن في مؤخرة الجيش ، ارتفع صوت هند عاليا قويا وهي تقول :

« وَيْهاً بني عَبْدِ الدَّارْ * وَيْهاً حُماةَ الأدْبارْ * ضرباً بكل بتّارْ »

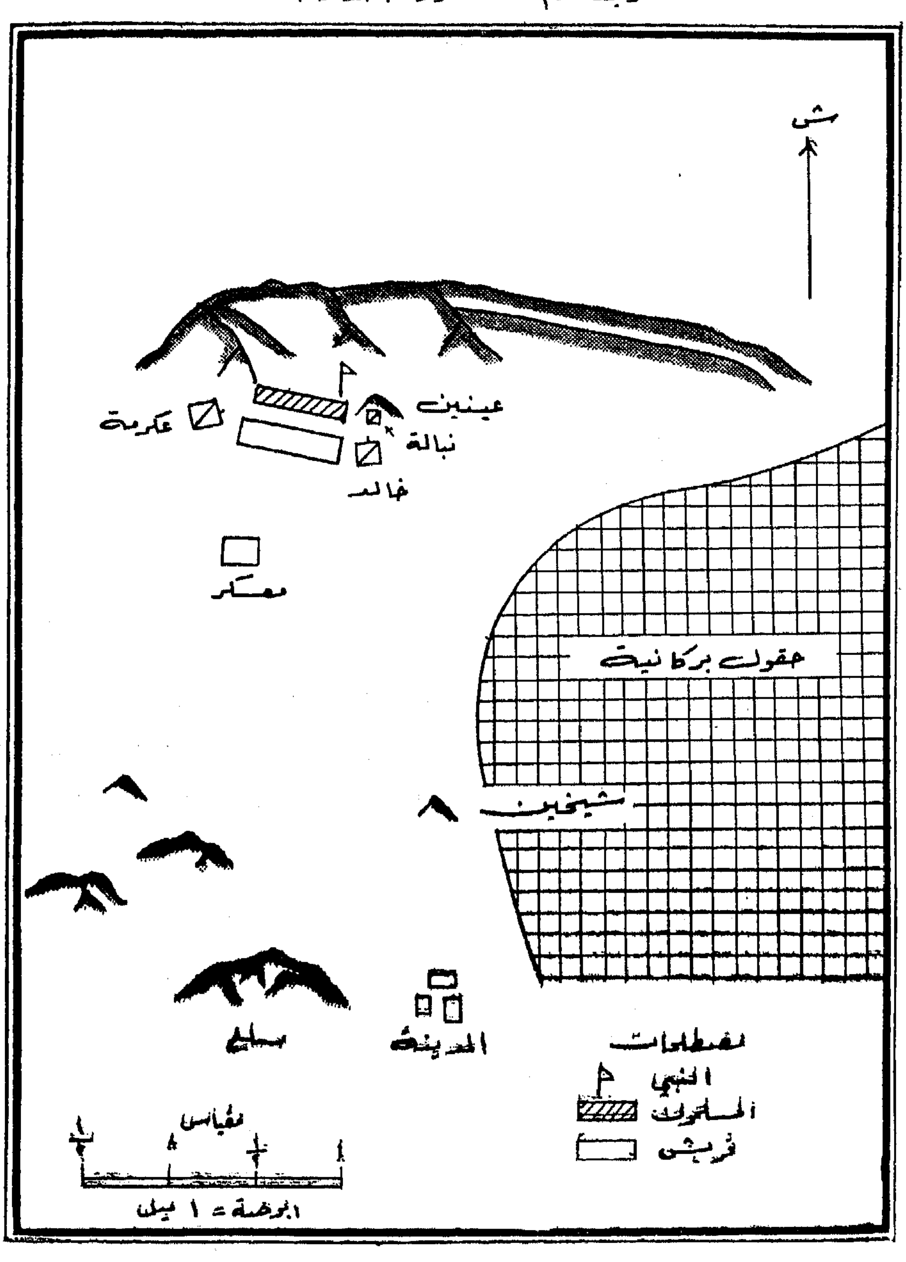
وتقول :ـ

« نحنُ بناتُ طارقْ ، إن تُقْبِلوا نعانقْ
ونبسطْ النمارقْ ، او تدْبِروا نُفارِقْ ، فِراقَ غَيْرِ وامِقْ » (١)

في صباح يوم السبت الواقع في الثاني والعشرين من آذار عام ٦٢٥ م

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٦٨ ، والواقدي : المغازي ــ صفحة ١٧٦ .

الخريطة رقم أ - غزوة أحد - ١



(السابع من شوال عام ٣ هجري) ، بعد عـام واسبوع مـن غزوة بدر [١] ، تقابل الجيشان في صفوف منتظمة ، سبعمائة مسلم مقابل ثلاثة آلاف مـن المشركين ، وكانت هـذه هي المرة الاولى التي يتولى فيها ابو سفيـان قيـادة ميدانية ضد النبي ، لكن كان لديه قادة صغار أكفـاء وكان واثقا من النصر . وكان المسلمون يرددون الآية الكريمة : « وقالوا حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل» [٢] . وانتَظَروا حكمَ الله .

كان أول حادث ، بعد اصطفاف الجيشين ، هو محاولة « الناسق » لتأليب الاوس . فقـد تقدم هذا الرجل امام الصف الاول من جيش قـريش وخَلْفَه اتباعه الخمسون وعدد كبير من عبيد قريش . فواجه الاوس وصرخ قـائلا : « يابني أوس ! أنا ابو عامر . وانتم تعرفونني ! » وكـان ردّ الاوس بالاجمـاع : « فَلاَ أنْعَمَ الله بك عيناً يافاسق ! » وأتْبَعوا اجابتهم هـذه برشقة من الحجارة انهالت على « الفاسق » واتباعه ، مما جعل هؤلاء الاتباع ينسحبون بسرعة الى صفوف قريش .

بعد مواجهة « الفاسق » لبني أوس وفشله بالتأثير عليهم ، انطلـق النبّـالة من الجانبين يتراشقون . وكان هـذا الاجراء بمثابة مبارزة في المدفعية بين نبالة قريش المائة ونبّالة المسلمين ، الذين كانوا إما في المجموعة الموجودة في « عينين » او المنتشرين على طول الصف الامامي للمسلمين . ثم أُطلقت عدة رشقات من النبال . وتقـدم خالد تحت تغطية نبّالة قريش على رأس سريته لمهاجمـة الجناح الايسر للمسلمين ، لكنه أُجبر على التراجع بسبب رمايات نبّالة المسلمين الدقيقة . وبعد ان انتهت رمايات النبالة ، سُمعت اغنية نساء قريش مرة ثانية في ميدان المعركة : « نحن بنات طارق . . . » .

ثم بدأت المرحلة الثانية بمبارزات بين ابطال الجيشين . فخرج طلحة ، حامل رايـة قريش ، من الصف الامامي وقال : « انا طلحة بـن أبي طلحة ،

---

(١) لقد ذكر بعض المؤرخين ان تاريخ معركة احـد يقع بعد اسبوع من التاريخ المذكور ، لكن الأصح هو هـذا التاريـخ .

(٢) قرآن كريم : سورة ٣ آية ١٧٣ .

هل مِنْ مبارز ؟ » [1] فخرج اليه علي . وقبل ان يتمكن طلحة من توجيـه أية ضربة ، ضربه علي بسيفه ورماه ارضا . فأصيب طلحة بجرح فقط ، وعندما رفع علي سيفه ليضرب ثانية ، طلب طلحة الرحمة . وعاد علي بسرعة الـى صفوف المسلمين . وعلى كل الاحوال ، فقد قتل طلحة من قبل المسلمين أثناء سير المعركـة . وعندما سقط طلحة ، تقدم مشرك آخر وحمل راية قريش إلا ان هذا الرجل قتل على يد حمزة . ولما قتله حمزة ، شاهد « الوحشي » الذي كان يقف خلف صفوف قريش عملية القتل . فبدأ « الوحشي » يسـير خلسة نحو اليمين لكي يقترب من جنب حمزة . وكان من السهل تمييز حمزة بواسطة ريشة نعامة كبيرة كان يضعها على عمامته .

اصبحت المبارزات الآن اكثر انتشارا . وكان اقرباء طلحة يلتقطون الراية الواحـد تلو الآخر ، وينصرعون الواحد تلو الآخر على أيدي المسلمين ، وسقط اكبر عدد من القتلى بسيف علي . كما ان ابا سفيان خرج للمبارزة ايضـا وتقابل مع حنظلة بن ابي عمير الذي كان مترجلا . وقبل ان يتمكن ابو سفيان من استخدام رمحه او استلال سيفه ، ضرب حنظلة القائمتين الاماميتـين لحصانه وطرحه ارضا . فصرخ ابو سفيان طالبا النجدة وجاء احد رجالـه واشتبك في مبارزة مع حنظلة وقتله . وانسحب ابو سفيان بسرعة الى صفوف قريش .

وخرج من صفوف قريش محارب آخر هو عبد الرحمن بن أبي بكـر للمبارزة ، فاستل ابوه ، أبو بكـر ، سيفـه واستعد للتقـدم مـن موقـع المسلمين لمقاتلته . لكن ابا بكر اوقف من قبل النبي الذي قال له : « أعِدْ سيفك الى غمده » [2] . وفيما بعد ، اصبح عبـد الرحمن هذا واحدا من اشجـع المحاربين المسلمين وذاعت شهرته في حملات المسلمين في سورية .

بعد المبارزات مباشرة ، عمّ القتال والتحم الجيشان واشتبك المتحاربون بالايدي . كان المسلمون يتفوقون بالشجاعة وباستخدام السيف ، لكن هـذا

(١) الواقدي : المغازي صفحـة - ١٧٦ .
(٢) الواقـدي : المغازي - صفحة ٢٠٠ .

التفوق لم يجد نفعا بسبب تفوق قريش العددي . وعندما اشتد أوار القتال قام خالد بهجمة اخرى باتجاه الجناح الايسر للمسلمين ، حيث كان النبي ، لكنه رد على اعقابه مرة اخرى بواسطة نبّالة المسلمين الموجودين في «عينين» .

واشترك النبي في القتال شخصيا باطلاق السّهام على القوة الرئيسية لقريش . ووقف بجانبه سعدُ بن أبي وقاص ، وكانت مهنته صناعة السّهام ، وكان من خيرة النبّالة في عصره . كان النبي يدلّ سعد على الاهداف وكان سعد يحقق اصابات مؤكدة .

كان حمزة يقاتل قرب الطرف الايسر لقوات المسلمين . وكان قد قَتَل حتى ذلك الوقت رجلين وشاهد ثالثا يقترب منه – ويُدعى سبّاع بن عبد العُزّى ، وكان حمزة يعرفه جيدا . فصاح حمزة : « هَلُمّ اليّ ياابن مقطّعة البظور ! »[1] (كانت والدة صعب تقوم بعملية ختان الاطفال في مكة) . فانفعل سبّاع واستل سيفه وهجم على حمزة .

وبينما كان حمزة وسبّاع يتبارزان بالسيف والترس ، اقترب «الوحشي»، الذي كان يزحف خلف الصخور والشجيرات ، من حمزة . رهَبّ واقفا بعد ان قدّر المسافة بينه وبين ضحيته ورفع مزراقه استعدادا لقذفه . وفي هذه الاثناء كان حمزة يوجه ضربة قاضية على رأس سبّاع الذي سقط جثة هامدة عند قدمي حمزة . وفي هذه اللحظة بالذات قذف « الوحشي » مزراقه على حمزة فأصابه في بطنه واخترق المزراق جسده . فالتفت حمزة نحو « الوحشي » واخذ يزمجر بغضب ثم تقدم نحوه . وعندما شاهد « الوحشي » ، الذي كان يختبىء وراء صخرة كبيرة ، حمزة متقدما نحوه ، اخذت فرائصه ترتعد ، لكن حمزة لم يستطع التقدم سوى بضع خطوات حيث سقط على الارض .

انتظر « الوحشي » حتى خمدت انفاس حمزة نهائيا ، ثم تقدم نحو الجثة وانتزع مزراقه منها ، وانسحب من ساحة المعركة . فلقد انتهت مهمته . وخاض

---

(١) ابن هشام – مجلد ٢ صفحة ٧٠ .

(٢) ضرب من الرماح – المترجم .

« الوحشي » في حياته عدة معارك لكنها لا تعادل المعركة التي خاضها ضد حمزة « رضى الله عنه » « اسد الله واسد نبيه[1] » .

بعد استشهاد حمزة ، بدأ جيش قريش يتقهقر تحت ضغط هجوم المسلمين . وبينما كان العديد من حاملي راية قريش يلاقون حتفهم او يصابون بجراح ، حملت رايتهم من قبل عبد استمر في القتال حتى قتل وسقطت الراية مرة اخرى وهزم القرشيون وفرّوا بدون نظام .

دب الفزع في صفوف القرشيين الآن . وبدأ المسلمون في مطاردة فلولهم ، لكن القرشيين كانوا يفرون بسرعة امامهم . وأخذت نساء قريش بالعويل عندما شاهدن ما حلّ برجالهن ، واسرعن بالفرار أيضا باستثناء عَمْرَة التي بقيت حيث هي واقفة خلف خط المعركة الرئيسي للقرشيين .

إنقضّ المسلمون على مخيم قريش وبدؤوا بنهبه . وكانت الفوضى على اشدّها في المخيم الذي كان يعج بالنساء والعبيد المذعورين خوفا على حياتهم ، بينما كان المسلمون ينهبون كل شيء يجدونه في طريقهم وهم يصيحون صيحات الفرح . انعدم النظام ، وفقدت السيطرة لان المسلمين شعروا بانهم كسبوا المعركة . في الحقيقة ، انتهت المرحلة الاولى فقط من المعركة . وكانت خسائر القرشيين طفيفة ، الا انهم هُزموا بشكل واضح وبدا ان غزوة أحُد قد انتهت ، لكنها لم تنته .

عندما كان المسلمون يطاردون القرشيين ويدخلون مخيمهم ، كان الجناحان المتحركان لقريش يقفان بثبات . وتحرك خالد وعكرمة الى الوراء قليلا من مواقعهما السابقة لكنهما كانا مسيطرين تماما على رجالهما ، ولم يسمحا لاي فارس ان يتراجع . شاهد خالد الفوضى التي حدثت امامه : رأى القرشيين وهم ينهزمون ، وشاهد المسلمين وهم ينهبون ويسلبون ، كما رأى النبالة الموجودين في « عينين » . لم يعرف خالد ماذا يفعل تماما ، لكنه كان متحليا بالصبر بدرجة كبيرة وكان ينتظر فرصة مواتية لكي يتصرف على ضوئها . وسرعان ما واتته هذه الفرصة .

---

(١) الواقدي : المغازي صفحة ٢٢٥ .

عندما رأى النبالة الموجودون في « عينين » هزيمة قريش ووصول المسلمين الى مخيمهم ، اصبحوا متشوقين للاشتراك في نهب المخيم . وكان المخيم مغرياً . فالتفتوا الى قائدهم ، عبد الله بن جبير ، وطلبوا منه ان يأذن لهم بالانضمام الى زملائهم ، لكن عبد الله كان حازما في رفضه اذ قال لهم : انكم تعلمون جيدا أوامر رسول الله ، فعلينا ان نبقى على هذا التل الى ان نستلم امرا منه بتركه . لكن النبالة اجابوا : هذا صحيح ، لكن رسول الله لم يقصد ذلك . وعلينا ان نتمسك بالتل اثناء المعركة وبما انها انتهت الآن فلا يوجد اي معنى لبقائنا هنا . وعلى الرغم من احتجاجات قائدهم ، فقد ترك معظمهم التل واسرعوا باتجاه مخيم قريش وهم يصيحون : « الغنيمة ! الغنيمة ! »[1] وبقي عبد الله على التل ومعه تسعة من النبّالة . ولحظ خالد تحرك النبالة فانتظر وصولهم الى مخيم قريش .

بدأ خالد ضربته ، فشنّ هجوما بالخيالة على النبّالة القلائل الذين بقوا على التل ، بهدف الاستيلاء على موقعهم ليتسنى له القيام بالمناورة . ولما رأى عكرمة تحرك خالد أسرع باجتياز السهل للانضمام الى سريّة خالد . وعندما وصلت سرية خالد الى قمة التل ، كانت سرية عكرمة لاتزال في الخلف لكن عكرمة نفسه جاء مسرعا وبدأ يشارك في الانقضاض على النبالة المسلمين .

قاوم النبالة المخلصون الذين بقوا على التل ببسالة . واستشهد بعضهم وجرح الباقون . وهؤلاء طُردوا من التل بسبب الهجوم الذي شنه خالد . أما عبد الله بن جُبَيْر الذي دافع عن الموقع حتى النهاية ، فقد اصيب بعدة جروح وقتل على يد عكرمة . ثم تقدمت سرية خالد ، وفي إثرها سرية عكرمة ، الى الامام ووصلت الى خلف الخط الذي كان بيد المسلمين منذ ساعة . ومن هنا هاجمت السريتان المسلمين من الخلف . هاجم عكرمةُ مع جزء من سريته المجموعة التي كانت مع النبي ، أما خالد فقد هاجم بسريته وبالجزء الباقي من سرية عكرمة المسلمين الموجودين في مخيم قريش .

كرّ خالد على مؤخرة المسلمين وهو واثق بأنه سيأخذهم على حين غرة

---

(١) الواقدي . المغازي ـ صفحة (١٧٨ ـ ١٧٩) ، ابن سعد ـ صفحة (٥٤٥ ـ ٥٥١) .

وسيدمرهم في الحال . عندما وصلت خيالة قريش الى المخيم ، دب الهرج والمرج في صفوف المسلمين ، وفقد عدد قليل منهم صوابه وبدؤوا بالفرار ، اما معظمهم فقد صمدوا وقاتلوا . وطالما ان النبي حيّ ، فان هؤلاء الرجال لن يقرّوا بالهزيمة . لكن عندما بدأ المسلمون بمنازلة فرسان قريش ، اندفعت « عَمْرَة » والتقطت راية قريش من الارض واخذت تلوّح بها من فوق راسها لكي تراها القوة الرئيسية لقريش .

في هذا الوقت ، استطاع ابو سفيان ان يستعيد السيطرة على معظم المشاة بعد ان رأى تحرك الخيالة ، وبعد ان راى راية قريش بيدي عَمْرَة وهي تلوح بها ، واعاد رجاله للقتال . وعندما علم القرشيون ان خيالتهم قد هاجمت المسلمين من الخلف ، اندفعوا للمعركة مرة ثانية وهم يصيحون صيحة الحرب الخاصة بهم : « من أجل عُزّى ! من أجل هُبَل ! » [1] .

وقع المسلمون الآن بين نارين ، فخيالة قريش تهاجم من المؤخرة والكتلة الرئيسية من مشاتهم تهاجم من الامام . واندفع ابو سفيان نفسه في المعركة وقتل مسلما . واصبح الموقف ميؤوساً منه بالنسبة للمسلمين الذين تشتتوا في مجموعات صغيرة تقاتل كل واحدة منها على هواها لصد هجمات الخيالة والمشاة . ازدادت الفوضى ، حتى ان بعض المسلمين بدؤوا يقاتلون بعضهم بسبب الغبار . ومع ذلك فان الذعر لم يدب في الصفوف . وبدأت الخسائر ترتفع بين المسلمين الصامدين الذين قرروا القتال حتى النهاية . في هذا الوقت ، قَتَل خالدُ أولَ رجلٍ (أبو عسيرة) برمحه والقى برجل آخر على الارض وظنّ انه قد مات ، وتابع تقدمه على حصانه ، لكن هذا الرجل نهض ثانية واستأنف القتال ضد القرشيين .

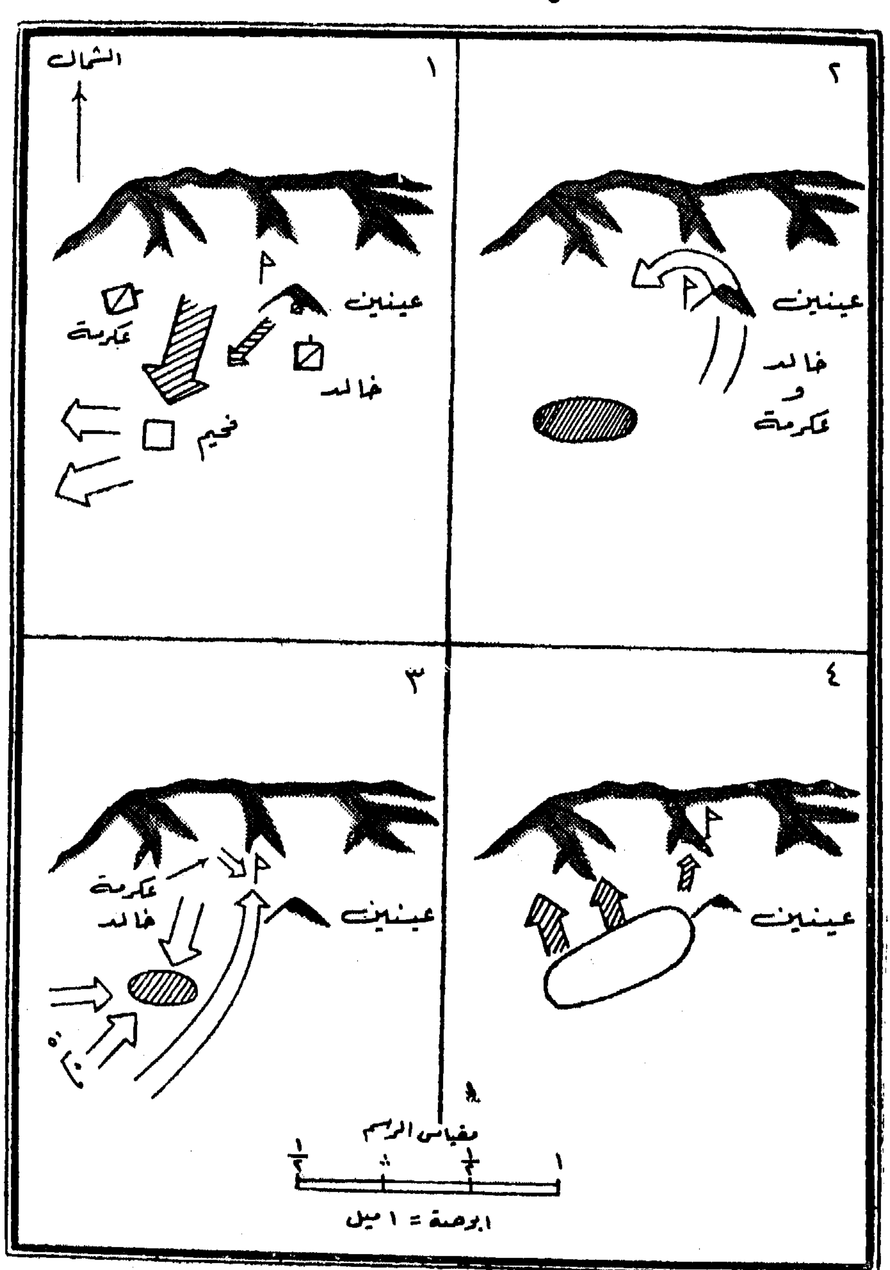
انقسمت المعركة الآن الى قسمين منفصلين . فالقوة الرئيسية من المسلمين كانت تقاتل ضد القوة الرئيسية من جيش قريش ، وكان هنالك مجموعة اخرى مع النبي تقاتل ضد جزء من سرية عكرمة وبعض مشاة قريش التي عادت لمهاجمتها . والآن بدأ الامتحان الإلهي . (انظر الخريطة رقم — ٢) .

---

(١) الواقدي : المغازي — صفحة ١٨٨ ، ابن سعد — صفحة ٥٤٥ .

الخريطة رقم ـ ٢ ـ

معركـــة أحـــد ـ ٢



عندما ترك المسلمون مواقعهم لمطاردة القرشيين ، بقي النبي في مكانه . وكان معه ثلاثون رجلا من اصحابه الذين لازموه ورفضوا ان ينساقوا لاغراء النهب والسلب . وكان من بين هؤلاء الثلاثين اقرب المقربين من اتباعه ، ومنهم : علي ، وأبو بكر ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عُبيد الله ، وأبو عبيدة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابو دجانة ، ومُصعب بن عُمير . وكان مع المجموعة امرأتان كانتا تحملان الماء للمسلمين وقد انضمتا الآن الى النبي .

عندما استولى خالد على موقع النبّالة واتجهت خيالة قريش لمهاجمة المسلمين من الخلف ، أدرك النبي مدى خطورة الورطة التي وقع بها المسلمون . ولم يستطع ان يفعل شيئا للسيطرة على القوة الرئيسية وقيادتها بسبب كونها بعيدة عنه ، وايقن ان مجموعته سوف تهاجم سريعاً . كان موقعه الحالي غير محميّ ، لذا قرر التحرك الى سفح البروز الكائن خلفه مباشرة (وهذا غير البروز الكائن عند السفح والذي تمركز عليه الجناح الايمن للمسلمين) ، وبدأ بتنفيذ ذلك . وعندما قطّع حوالي رُبع ميل فقط مع اصحابه الثلاثين ، كان عكرمة مع فرسانه يسدّ عليه الطريق . قرر النبي الوقوف والقتال حيث وصل ، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة من مشاة قريش لمهاجمة النبي .

وجدتْ مجموعةُ النبي نفسها تُهاجم من الامام والخلف . فشكل المسلمون سياجاً حول النبي للدفاع عنه ، وبدأ القتال يحتدم تدريجيا . واستخدم النبي قوسه وظل يستخدمه حتى انكسر . بعد ذلك ، استخدم سهامه في تعزيز جعبة « سعد » ، الذي سبب كثيرا من المشاكل للقرشيين بفضل مهارته في رماية السهام . واخذ كلُ مسلم على عاتقه قتال مجموعة من القرشيين تتألف من ٣ — ٤ رجال فإما ان يستشهد او يردّ خصومه على اعقابهم .

كان عكرمة أول القرشيين الذين وصلوا الى موقع النبي . وبينما كان عكرمة يقود مجموعة من رجاله الى الامام ، التفت النبيُ الى علي وقال له وهو يشير الى المجموعة : « هاجِمْ اولئك الرجال » . فهاجمهم علي وطردهم

بعد ان قتل واحدا منهم . واقتربت مجموعة اخرى من الخيالة من موقع النبي . فقال النبي الى علي مرة ثانية : « هاجم اولئك الرجال » [1] . ومرة اخرى هاجمهم علي وطردهم وقتل مشركاً آخر منهم .

وعندما اشتدت حدة القتال ، بدأ القرشيون يلقون بالسهام والحجارة على مجموعة النبي . كان القرشيون يستخدمون هذه القذوفات عن بعد ثم يهاجمون بالسيوف وهم إما على ظهور الخيل او مترجلين . وقف ابو دُجَانة امام النبي ليدرأ عنه السهام وظهره الى مشاة قريش حيث كانت معظم السهام تأتي منهم . وبعد مضي فترة من الوقت ، كان ظهر أبي دجانة مرصّعاً بالسهام حيث بدا كالقنفذ ، لكنه استمر في إعطاء سهامه الى « سعد » . وقف طلحة أيضا بجانب النبي . وفي احدى المرات ، عندما اقترب سهم من وجه النبي واوشك على اصابته ، وضع طلحة يده امام خط سير السهم واوقفه بيده . وقد فقد طلحة احد اصابعه نتيجة لذلك ، لكنه أنقذ النبي .

كان خالد يوجّه الهجمة تلو الهجمة على الكتلة الرئيسية للمسلمين بسريته ، واحدث اصابات بالغة في صفوفهم . وكان لتوه قد قتل برمحه رَجُلَهُ الثاني — وهو ثابت بن دحداحة . واعتمد خالد في هذه المعركة بشكل اساسي على رمحه الذي كان يصيب به خصمه ويطرحه ارضا . وكان خالد ، كلما طَرحَ رجلا ارضا ، يصرخ قائلا : « تَلَقَّى هذا ! فانا ابو سليمان » [2] .

انتهت الهجمة الماكسة الاولى ، وتلاها فترة هدوء في قطاع النبي ، كما ان القرشيين إنسحبوا مسافة قصيرة ليأخذوا قسطا من الراحة قبل أن يستأنفوا هجماتهم . واثناء فترة الهدوء هذه ، لاحظ احدُ المسلمين ان النبي كان ينظر فوق كتفه بحذر . فسأل الرجلُ عن سبب ذلك ، فأجاب الرسول : « إنني اتوقع مجيء أبي بن خَلَف ، وهو قد يقترب مني من الخلف . فاذا رايتموه قادما ، دعوه يقترب مني » . ولم يكد ينته من كلامه حتى انفصل رجل من سرية عكرمة وتقدم ببطء نحو النبي ، وهو يمتطي جوادا كبيرا .

---

(١) الطبري — مجلد ٢ ، صفحة ١٩٧ .
(٢) الواقدي : المغازي — صفحة ١٩٨ .

صاح الرجل : « يامحمدُ ! لقد أتيت ! فإما انت او أنا ! » عندئذ ، طلب بعض أصحاب النبي إذنا بمنازلة الرجل ، لكن النبي قال : « دعوه ! » [1] فانتحى الاصحابُ جانبا ، وافسحوا المجال لاقتراب الخيّال .

في غزوة بدر ، أُسر شاب صغير يدعى عبد الله بن أُبي بيد المسلمين (وهو ليس عبد الله بن أُبي زعيم المنافقين) . فجاء والده أُبي بن خلف لاطلاق سراحه ودفع فدية مقدارها اربعة آلاف درهم . وبعد ان تم دفع الفدية واطلق سراح الشاب **الصغير** ، اصبح أُبي ، الذي كان مايزال في المدينة ، سفيهاً تجاه النبي . فقد قال له : « يامحمد ! عندي حصان اقوّيه بتغذيته بكمية كبيرة من العلف ، لانني سآتي في الغزوة التالية ممتطياً ذلك الحصان وسوف اقتلك » . عندئذ ، اجاب الرسول قائلا : « كلا ، لن تقتلني . لكنني انا الذي سوف اقتلك وانت على ظهر ذلك الحصان ، اذا أراد الله ذلك » [2] . فضحك الرجل بسخرية وهو يبتعد مع ابنه .

والآن ، فان أبي بن خلف يقترب من النبي على ظهر حصانه . لقد شاهد اصحاب النبي وهم يفسحون له الطريق . ورأى النبي وهو ينتظره ، فأعجب بالرجل (النبي) الذي انطلق لقتله . كان النبي يرتدي معطفين من الـزَّرَدْ . وكان يرتدي خوذة مصنوعة من السلاسل يتدلى منها حلقات جانبية تغطي وجناته . كما كأن سيفه في غمده ، وهو يتصل بنطاق جلدي ، وكان يمسك بيده اليمنى رمحاً . لاحظ أُبَيّ منكبي محمد العريضين القويين ، كما لاحظ يدي الرسول الخشنتين الكبيرتين القادرتين على كسر الرمح قطعتين . كان منظر النبي مهيباً .

ان عددا قليلا من الناس يعرف اليوم أن النبي محمداً كان احد المسلمين الاشدّاء في عصره . فاذا أُضيف الى قوته الشخصية حقيقة اختياره نبيًا ، فان من الممكن لأي امرىء ان يتصور مقدار كونه خصما مخيفا لأيٍ كان . لكن أُبيّ لم يُصبْ بالفزع . فقد قتل مسلما منذ هنيهة ، وكانت معنوياته عالية .

---

(١) الواقدي المغازي ـ صفحة ١٩٨ ، ابن هشام ـ مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .
(٢) ابن سعد ـ صفحة ٥٤٩ ، ابن هشام ـ مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

كان من السهولة بمكان أن يأمر أصحابه بذبح أُبي . فينقضون عليه ويقطعونه إربا . او كان يمكنه ان يعطي أمراً بسيطاً الى عليّ : « اقتل ذلك الرجل » ، فيصبح هذا الرجل في عداد الموتى ، لانه اذا انطلق علي لقتل رجل فلن يستطيع احد انقاذه . لكن النبي أمر اصحابه ان يقفوا جانبا . انه لايريد مساعدة أحد في هذه المرة . انها مسألة شرف شخصي ــ مسألة فروسية . ان محمداً سيقاتل لوحده كفارس عربي . انه سيحافظ على موعده مع مُتَحَدٍّ .

عندما وصل أُبي الى النبي ، ظل ممتطياً جواده . فهو ليس في عجلة من امره . وكان لايشك لحظة واحدة بأن محمدا كان ينتظر هجومه ، فمدّ يده لاستلال سيفه . لكن النبي كان اسرع منه فرفع رمحه وضربه على الجزء العلوي من صدر أُبيّ . حاول أُبيّ ان يخفض رأسه ، لكنه لم يكن سريعا في ذلك . فأصابه الرمح في كتفه الايمن ، قرب اسفل عنقه . كان الجرح طفيفاً ، لكن أُبيّ سقط عن حصانه ، وكسرت احدى اضلاعه من جرّاء ذلك . وقبل أن يعاود النبي الضربَ ، نهض أُبي وولّى الادبار الى رفاقه ، وهو يصرخ . فاوقفه هؤلاء وسألوه عن سبب الفزع الذي اصابه ، فأجاب أُبيّ بصوت مرتجف : « ان محمداً قد قتلني بقوة الله » .

تفحص القرشيون جرحه ، واخبروه بأن لايكون سخيفا لان جرحه طفيف وسيندمل بسرعة . لكن صوت أُبيّ ارتفع اكثر من ذي قبل وقال : « سوف أموت ! » وعندما حاول القرشيون ان يواسوه ، فقد أُبيّ السيطرة على نفسه وصاح بصوت مذعور : « اخبركم بأنني سأموت ! إن محمداً قال انه سيقتلني . فلو أن محمدا بصق علي فقط ، فانني سوف أموت » [1] . وبقي أُبي في حالة معنوية سيئة .

وعندما عاد القرشيون الى مكة ، ذهب أُبي معهم . وبينما كانوا يعسكرون في مكان يسمى « صَرَف » ، وهو ليس بعيدا عن مكة ، مات الرجل التعيس . ومن المؤكد ان موته لم يكن بسبب الجرح . والله أعلم !

---

(١) ابن هشام ــ مجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

أصبح الموقف تدريجيا اكثر حرجا لان المسلمين لم يحرزوا أي تقدم . وكان ابو سفيان وخالد يريدان قرارا سريعا لان المعركة طالت بما فيه الكفاية . لذا قرر القرشيون زيادة الضغط على المسلمين ، والهجوم على النبي وقتله ان امكن لان موته قد يضع حدا للمقاومة .

لذلك فقد تقدمت مجموعة قوية من مشاة قريش لمهاجمة النبي . وتابع المدافعون المسلمون قتالهم ، وسقط منهم الكثير . واتفق ثلاثة من قريش ان يخترقوا السياج المضروب حول النبي وان يقتربوا منه لمسافة بسيطة . وهؤلاء الرجال الثلاثة هم : عتبة بن ابي وقاص ، وعبد الله بن شهاب ، وابن قميئة . بدا الثلاثة معا بالقاء الحجارة على النبي .

القى الرجل الاول (وهو شقيق سعد) اربعة احجار على وجه النبي ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى . والقى عبد الله حجرا واحدا فشجّه في جبهته ، أما ابن قميئة فقد رمى حجرا واحدا فجرح وجنته ودخلت حلقتان من حلق المِغفَر [1] في وجنته .

سقط النبي على الارض من جراء ضربه بالحجارة ، واُسعف من قبل طلحة . في هذه اللحظة قام المسلمون القلائل الذين بقوا مع النبي بهجمة معاكسة عنيفة وطردوا القرشيين . القى سعد قوسه ، واستل سيفه واندفع نحو اخيه ، لكن هذا الاخير كان اسرع منه فهرب واختبأ في صفوف قريش . وقال سعد فيما بعد انه لم يكن يوما ما راغبا في قتل رجل كما كان بالنسبة لاخيه عتبه الذي جرّح النبي .

كانت هنالك فترة اخرى قصيرة توقف فيها القتال . وقد مسح النبي خلالها الدم عن وجهه . وعندما فعل ذلك قال : « كيف يُفلح قومٌ خضّبوا وجهَ نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم » [2] . حاول ابو عبيدة ، وهو يلم بالجراحة الماما بسيطا ، ان يخرج الحلقتين اللتين دخلتا في وجنة النبي . فنزع احدى

---

(١) المغفر : شبيه بالدرع ذو حلق يجعل على الراس يتقى به في الحرب ـ المترجم .
(٢) ابن هشام ـ جزء ٢ ، صفحة ٨٠ ـ الواقدي : المغازي ، صفحة ١٩١ .

الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيّته ، ثم نزع الاخرى فسقطت ثنيته الاخرى ، فكان ساقط الثنيتين [1] .

اثناء فترة توقف القتال القصيرة استعاد النبي قوته وشفي من صدمة الجراح . وكانت تقف بالقرب منه امراة زنجية ، تدعى ام ايمان ، كانت قد سهرت عليه وهو طفل صغير . خرج رجل من صفوف قريش ، يدعى حَبّان ابن الأرقة ، واقترب من النبي ووضع سهما في قوسه واطلقه باتجاه المراة الزنجية التي كانت تقف وظهرها باتجاهه . فأصاب السهمُ ام ايمان في مؤخرتها . وعندما شاهد حبّان ذلك انفجر بالضحك وعاد باتجاه القرشيين . راى النبي ماحدث وغضب غضبا شديدا . واخذ سهما من جعبته واعطاه الى سعد ، وقال له : « ارم ذلك الرجل » [2] . وضع سعدُ السهمَ في قوسه وسدّد على المشرك ورماه . فأصابه في عنقه . في هذه المرة ضحك النبي .

بدأ القرشيون الآن هجومهم الاخير بعنف ضد النبي من جميع الاتجاهات. كان السياج الذي اقامه اصحاب النبي قادرا على صد الهجوم بشكل عملي في جميع النقاط ، لكنه اخترق في مكان واحد واندفع منه ابن قميئة باتجاه النبى. كان هذا الرجل احد الاشخاص الذين قذفوا النبى بالحجارة في المرحلة السابقة من الهجوم . وكان يقف بالقرب من النبي والى يمينه مُصعب بن عُمير وامراة تدعى ام عمارة . وهذه المراة تخلّت عن حمل الماء الى الجرحى ، والتقطت سيفا وقوسا من احد القتلى واشتركت بشكل فعلي في القتال الدائر. وتمكنت من اصابة فرس وجرح احد المشركين .

اخطأ ابن قميئة وظن مُصعب هو النبي واندفع نحوه . كان مصعب في انتظاره واستل سيفه وبدأ بالمبارزة . وبعد فترة قصيرة ، ضرب ابنُ قميئة مصعبَ بن عُمير وقتله بضربة قاضية .

عندما سقط مُصعب ، اندفعت ام عمارة نحو ابن قميئة وضربته على كتفه بسيفها . ونظرا لان ابن قميئة كان يرتدي معطفا من الزّرد ، ونظرا

---

(١) الضمير في « كان » راجع الى ابي عبيدة ، وذلك لانه خلع الحلقتين بأسنانه فانكسرت ثنيتاه ــ المترجم .

(٢) الواقدي : المغازي ــ صفحة ١٨٩ .

لضعف ضربة المراة ، فانه لم يتاثر بضربتها . وبالمقابل ، ضَرَبَ ابنُ قميئة المراة على كتفها بسيفه ، لكن هذه الضربة لم تقتل المراة لكونها ضربة عاجلة . ولكنها سبَّبت لها جرحا بالغا واسقطتها على الارض ولم تستطع الحركة لبعض الوقت .

عندما سقطت ام عمارة على الارض ، راى المشركُ النبيَ واقفا لوحده فاندفع نحوه . ورفع سيفه وسدّد ضربة شديدة على راسه . فقطع السيفُ بعض حلقات مغفَرِهِ ، لكنه لم يستطع اختراقه ، واستقر السيف على كتف النبي الايمن . كانت الضربة عنيفة مما سبَّبت سقوط النبي في حفرة موجودة خلفه . ومن هنا ، رفعه علي وطلحة .

عندما راى ابنُ قميئة سقوطَ النبي عاد مسرعا الى القرشيين وهو يصيح بأعلى صوته : « قتلتُ محمداً » [1] . وسُمِعتْ صرخته في أرجاء ميدان المعركة من قبل القرشيين والمسلمين على حد سواء ، وقد اثرت هذه الصرخة على معنويات المسلمين ، وبدأ معظمهم بالهرب نحو جبل احد . لكن عددا قليلا من المسلمين قرروا انه لن يكون لحياتهم معنىً اذا قتل رسول الله . فاندفعوا نحو خيّالة قريش وصمموا على بيع أرواحهم بثمن غالٍ لكنهم صدّوا من قبل خالد وعكرمة . وهنا قتَل خالد الرجل الثالث ــ وهو رفاعة بن الوكش .

بينما كانت القوة الرئيسية للمسلمين تفر باتجاه التلال ، كان معظم القرشيين مشغولين بنهب الموتى ، ووجد المسلمون الذين يدافعون عن النبي انه لم يبق احد من القرشيين بالقرب منهم . ان اغراء النهب والسلب كان قويا بالنسبة للقرشيين كما كان قبل ذلك بالنسبة للمسلمين . وعندما وجد النبي أن طريقه خالية من المشركين ، انسحب ومن معه من اصحابه باتجاه المضيق الكائن عند الوادي . وقد لاحقه عدد قليل من القرشيين في هذا الانسحاب لكن أصحابه صدوهم وقتلوا واحداً او اثنين منهم . وراى خالد تحرك مجموعة النبي باتجاه المضيق الجبلي ، لكنه لم يحاول ان يعترضها لانه كان مشغولا بمطاردة القوة الرئيسية لمشاة المسلمين . وهكذا لم يجد النبي

---

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٧٨ .

صعوبة في الوصول الى المضيق ، وتسلقت المجموعــة المنحدر الشديد للبروز الذي كان على شكل جرف عال يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدما ، ويقع على الحافــة الشرقية للمضيق . وهنا توقف النبي في شقّ في الصخور واخذ ينظر الــى ميدان المعركة الممتد أمامه . (انظر الخريطة رقم ٢ للاطــلاع علــى المرحلة النهائيــة) .

من بين الثلاثين رجلاً الذين قاتلوا مع النبي في الاعمال القتالية السابقة ، بقي أربع عشرة رجلا فقط ومعظم هؤلاء أصيب بجراح . لقد سقط ستة عشر دفاعاً عــن النبي وفي سبيل الله .

هكذا ترك المسلمون ميدان المعركة . فبعضهم هرب بعيدا في حالة ذعر ؛ وبعضهم عاد الى المدينة ، والبعض الآخر لم ينضم مرة ثانية الى النبي الا بعد مضي يومين . لكن أولئك الذين اعتزموا الالتجاء الى التلال تحركوا بمجموعات صغيرة ، وشقوا طريقهم عبر خيالة قريش ووصلوا الى سفح جبل احد . وهنا تفرقوا ، فبعضهم التجأ في سفوح التلال ، وبعضهم تسلق حافة الجبل، والبعض الآخر اختبأ في الكهوف . ولم يعرف أحد منهم ماذا ينبغي عليه أن يفعل بعد ذلك . اما القرشيون فكانوا تحت سيطرة كاملة من قبل قيادتهم .

عند وصول النبي الى المضيق ، كان لديه بعض الوقت للعناية بجراحه . وهنا انضمت ابنته فاطمة اليه . وقد أحضر عليٌ الماءَ من مكان قريب ، وكانت فاطمة تبكي بهدوء وهي تغسل الدم من وجه ابيها وتضمّد جراحه . استراح النبي في هذا الملجأ حيث لاتستطيع قريش ان تهاجم بقوة نظرا لصعوبة السير في المضيق .

كان البعض من المسلمين الذين التجأوا الى جبل احُد يتنقلون بدون هدف ، وهم لايعرفون الى أين يذهبون وماذا يفعلون . وبينما كان أحد هؤلاء ، ويدعى كعب بن مالك ، يسير باتجاه المضيق ، رأى النبي وتأكد من شخصيته. وكان هذا الرجل يملك صوتاً قوياً . فتسلّق صخرة كبيرة ، وواجه الاتجاه الذي يعرف ان معظم المسلمين يلتجئون فيه وصاح بأعلى صوته : « يامعشر

المسلمين ابشروا ، هذا رسول الله » . [1] واشار بيده نحو النبي ، وكان من نتيجة هذا النداء ، الذي لم يكن مسموعا من قبل قريش ، ان تحركت مجموعات كثيرة من المسلمين فوق التلال وانضمت الى النبي . وكان عمر من بين هؤلاء ، وقد كان سروره لايوصف عند رؤيته النبي مرة ثانية .

في غضون ذلك ، كان أبو سفيان يبحث عن جثة النبي . فسار في ميدان المعركة وأخذ ينظر الى وجه كل ميت عسى ان يرى وجه خصمه . ومن حين لآخر ، كان يسأل رجاله : « أين محمد ؟ » ووصل في تجواله الى خالد وسأله نفس السؤال . فأخبره خالد أنه رأى محمدا محاطاً بأصحابه وهو يسير باتجاه المضيق . وأشار خالد الى الجرف الصخري العالي . فطلب ابو سفيان من خالد ان يأخذ خيَّالته ويهاجم الموقع .

نظر خالد الى الوادي المملوء بالصخور الكبيرة والذي يؤدي الى البروز، ثم الى المنحدر الشديد للبروز نفسه . وقد خامَرَه الشك في امكانية المناورة ، فهو يعلم ان فرسانه في مثل هذا النوع من الارض سيكونون في موقف حرج للغاية . ولكنه كان يأمل في ان تسنح له فرصة مواتية ، كما حدث بعد الهزيمة الاولى للقرشيين . كان خالد متفائلا دائما . فبدأ بتحريك سريته باتجاه البروز .

وعندما رأى النبي هذا التحرك دعا ربه قائلا : « اللهم إنه لاينبغي لهم أن يعلونا . » [2] عندئذٍ اخذ عمر مجموعة من المسلمين وتحرك بها مسافة قصيرة نحو المنحدر لمواجهة خيالة قريش . وعندما وصل خالد مع سريته ، رأى عمر وبعضَ المسلمين ينتظرونه على أرض مرتفعة . فأيقن ان الموقف ميئوس منه ، ليس بسبب وجود المسلمين بارض مرتفعة فقط ، بل لان فرسانه أيضا لن يتمكنوا من المناورة في هذه الارض الصعبة . وانسحب خالد . وكانت هذه آخر مناورة تكتيكية في غزوة أحُد .

شاهد أبو سفيان وخالد ، مع عدد كبير من القرشيين ، مشهدا لن

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ صفحة ٢٠٠ ، الواقدي : المغازي ـ صفحة ١٨٥ .
(٢) ابن هشام ـ الجزء ٢ ـ صفحة ٨٦ .

ينسياه أبدا ؛ وهما لايقرأنه . إذ هاجمت هند ونساء قريش ميدان المعركة حيث كانت جثث شهداء المسلمين ملقاة . ووجدت هند جثة حمزة فانقضت عليها والمدية بيدها .

كانت هند ضخمة الجسم قوية البنية فلم تجد صعوبة في تشويه الجثة . وشقت البطن واخرجت كبد حمزة . وقطعت منه قطعة كبيرة ولاكتها ، لكنها لم تستطع ان تسيغها فلفظتها . ثم قطعت أنف حمزة واذنيه ، وطلبت من باقي النساء ان يحذون حذوها بالنسبة لباقي الجثث .

اقترب « وحشي » الآن من هند . فالتفتت اليه وناولته جميع مجوهراتها وقالت له : « عندما نعود الى مكة ، سوف اعطيك عشرة دنانير[1] » . وبعد ان تجردت هندُ من زينتها ، صنعت لنفسها عقداً وخلخالاً من آذان وأنوف الشهداء الذين مثّلت بجثثهم ، وتزينت بهما . وبعد ان انتهت من ذلك اخذت هذه المرأة غريبة الاطوار تنشد بأعلى صوتها :

« نحنُ جَزَيْنَاكُم بيوم بَدْرِ	والحربُ بَعْدَ الحَرْبِ ذاتُ سُعُرِ
ما كان عن عُتْبَةَ لي من صَبْرِ	ولا أخي وَعَمِّهِ وبَكْري
شَفَيْتُ نفسي وَقَضَيْتُ نَذْري	شَفَيْتَ وَحْشِيُّ غليلَ صدري
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَيَّ عُمْري	حتى تَرِمَّ أعْظُمي في قبري[2]

بعد هذه المأساة الشنيعة التي حدثت ، سار ابو سفيان عبر الوادي . وكان لا يزال يأمل ان يكون محمداً قد قُتل ؛ اذ ربما يكون خالد قد اخطأ في تمييز النبي . ثم صَعِد على صخرة كبيرة بعيدة بعض الشيء عن موقع النبي وصاح بأعلى صوته : « أفي القوم محمد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه مرتين ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه ، ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه . ثم التفت أبو سفيان الى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قُتلوا لو كانوا في الاحياء لأجابوا » . فلم يملك عمر بن الخطاب

(١) الواقدي : المغازي ـ صفحة ٢٢٢

(٢) ابن هشام : الجزء ٢ صفحة ٩١

نفسه أن قال : « كَذَبْتَ يا عدو الله قد ابقى الله لك ما يخزيك » . فقال ابو سفيان : « إعلُ هُبَل إعلُ هُبَلْ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجيبوه » . قالوا : « ما نقول » ؟ قال : « قولوا الله أعلى وأجَلّ » . قال ابو سفيان : « ألا لَنَا العُزّى ولا عُزّى لكم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » . قالوا : « ما نقول ؟ » قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » . قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر والحرب سجال اما إنكم ستجدون في القوم مُثلا لم آمر بها ولم تسؤني[1] » .

عندما اجاب عمر أبا سفيان قال له ابو سفيان هلّم يا عمر . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيتِهِ فانظُرْ ما شأنه » . فجاءه . فقال له ابو سفيان . « أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : « اللهم لا وانه ليسمع كلامك الآن » . فقال : « أنت أصدقُ عندي من ابن قميئة وأبَرّ » . لقول ابن قميئة لهم : « إني قتلت محمداً » . وبعد أن انهى أبو سفيان حواره مع عمر ، قفل راجعاً الى جيشه .

ترك القرشيون ميدان المعركة وتجمعوا في معسكرهم القديم الذي كانوا فيه في اليوم السابق . وعندما بدؤوا بمغادرة أرض المعركة ، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، فقال : « اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فان كانوا قد جَنَبوا الخيل وامتطوا الإبلَ فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ اليهم فيها ثم لأناجزنّهم[2] . قال علي : فخرجت في آثارهم انظر ماذا يصنعون ، فجَنَبوا الخيلَ ، وامتطوا الابل ، ورجّهوا الى مكة .

قضى القرشيون ليلتهم في حَمْراء الاسد التي تبعد عشرة أميال عن المدينة[3] . وعاد المسلمون الى المدينة باستثناء بعض المشردين الذين بدؤوا بالعودة في اليوم التالي وما بَعْدَهُ .

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٩٣ ــ ٩٤ ، الواقدي : المغازي صفحة ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ، ابن سعد صفحة ٥٥١ .

(٢) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٩٤ .

(٣) يقع هذا المكان قرب « بئر علي » الحالية على الطريق الرئيسي الى مكة .

نهض النبي في صباح اليوم التالي وارتدى درعه . وكانت آثار الجراح التي أصيب بها في المعركة لاتزال بادية على وجهه . فوَجنَتَهُ وَجَبْهَتَهُ ، وَشَفَتَهُ كانت لاتزال متورّمة .

كما أن فقدانه للسنّيّن سبب له الماً ، بالاضافة الى كتفه الايمن الذي أصيب بسيف أبن قميئة . وقد آلمه هذا الكتف طيلة شهر كامل .

أرسل النبي في طلب مؤذّنه ، بلال ، وامره أن يدعو المؤمنين للمعركة . وان الذين سيسمح لهم بالانضمام الى الغزوة التي ستتم في الصباح هم أولئك الذين اشتركوا في المعركة في اليوم السابق . دَوَى صوت بلال في ارجاء المدينة ووصل الى أسماع كل مؤمن .

نهض المسلمون فور سماعهم أوامر النبي للتجمع من أجل المعركة . وكان معظمهم مصاباً بجراح ، كما ان جراح بعضهم كانت أشد من الآخرين . لقد قَضَوْا ليلة دون أن يغمض لهم جفن وهم يتألمون من جراحهم . وكانت النساء مشغولات طيلة الليل في تضميد جراح الجنود والسهر عليهم والاعتناء بهم . وعلى الرغم من أن كثيراً من المسلمين لم يكونوا في حالة ملائمة للمعركة ؛ إلا انهم نهضوا من فراشهم . ولم يسمع أنين او صراخ بين هؤلاء المؤمنين . كان بعضهم يعرج ، والبعض الآخر يستخدم عكازات ، وآخرون يستندون على زملائهم لكي يتمكنوا من السير . جاءوا الى النبي وهم يعرجون ويتمايلون . وعند رؤيتهم للنبي صاحوا : لبّيك ياسيدنا يارسول الله . انطلق هؤلاء المسلمون المنهكون والمصابون بالجراح لقتال المشركين بقيادة نبي جريح ومنهك أيضاً . كان تعدادهم يبلغ حوالي خمسمائة مقاتل .

بينما كان المسلمون يتجمعون للمعركة ، كانت هنالك مناقشة حادّة في معسكر قريش . كان عكرمة ، الذي لم يفتر حَمَاسُه عن اليوم السابق ، يُصِرُّ على العودة للمعركة لان المسلمين كانوا في حالة سيئة بنتيجة المعركة وهذا هو الوقت المناسب لمهاجمتهم مرة اخرى وسحقهم قبل ان يستجمعوا قواهم .

وقال صفوان بن امية : « كَفَى ! كَفَى ! لقد كسبنا المعركة ، وهذا النصر

يكفينا . فاذا كان المسلمون في حالة سيئة ، فنحن لسنا في حالة افضل .

ان معظم خيولنا قد أصيبت كما ان الكثيرين من رجالنا جُرحوا . فاذا دخلنا المعركة القادمة بقوتنا الحالية، فلن نكون محظوظين كما كنا بالأمس » .

سمع زعماءُ قريش في هذا الوقت أيضاً خَبَرَ تركِ ٣٠٠ من المنافقين للنبي قبيل نشوب القتال . فخَشَوْا ان يعود هؤلاء المنافقون الى النبي نادمين، وفي هذه الحالة فان قوة المسلمين ستعزَّز بمقاتلين جدد . وبينما كان الجدال محتدماً ، اكتشف القرشيون والقَوْا القبضَ على كشّافين من المسلمين ارسلهما النبي لجلب معلومات عنهم . فقُتل هذان الكشافان على الفور ، واكّد وجودُهما مخاوفَ صفوان وابي سفيان بأن المسلمين كانوا في حالة تأهب للهجوم . لذا ، فقد امر أبو سفيان بالتحرك الى مكة فوراً .

وصل المسلمون الى حمراء الاسد بعد الظهر فوجدوها مهجورة . فأقاموا معسكرا . وبعد اربع ليالٍ قضوها في حمراء الاسد ، عادوا الى المدينة .

انتهت غزوة أحد . وسقط فيها من المسلمين سبعون . قَتَلَ أبو سفيان رجلاً واحداً . وقَتَل كلٌ من صفوان ابن أمية ، وخالد ، وعكرمة ثلاثة مسلمين . ومن قريش قُتل اثنان وعشرون مشركاً ، من بينهم قُتل ستةٌ بيد علي ، وثلاثةٌ بيد حمزة . وكانت هذه الغزوة هزيمة للمسلمين ، لكنها لم تكن فاصلة .

كانت غزوةُ احُد ثاني معركة رئيسية في تاريخ الإسلام . وكانت المعركة الاولى التي يتولى فيها أبو سفيان قيادة جيش ضد المسلمين ، وأول معركة في حياة خالد . خسر النبي هذه المعركة ، بسبب الرماة الملولين الذين عَصَوْا اوامر النبي واوامر قائدهم المباشر . وفي الحقيقة ، نسي هؤلاء الرماة انفسهم للحظات بأنهم مسلمون وعادوا الى طبيعتهم الجاهلية واشتركوا في النهب والسلب .

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ صفحة ١٠٤ ؛ الواقدي : المغازي ـ صفحة ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٣

لقد عبّر العديد من الكتاب عن رأيهم بان عرب هذه الفترة من التاريخ كانوا يجهلون الحرب النظامية ؛ وانهم لم يكونوا ، من وجهة النظر العسكرية ، سوى غزاة ومغيرين وانهم لايعرفون شيئا عن المعارك النظامية . وتصوّر الكثيرون من هؤلاء الكتّاب بأن العرب تعلموا فن الحرب من الرومان والفرس الذين اصطدموا معهم عسكرياً بعد موت النبي .

ان قولهم هذا ليس صحيحاً . وقد سبق ان أخذنا بعين الاعتبار تراتيب القتال التي تبناها النبي وكذلك الأسباب العسكرية السليمة الكامنة وراء نشره لقواته . وينبغي ان نلاحظ أيضا ان النبي في اختياره ميدان المعركة قد ترك المدينة مفتوحة لهجوم القرشيين . وكانت المدينة قاعدة للمسلمين ، لكن الطريق المؤدي الى تلك القاعدة والذي يمر جنوب موقع المسلمين ، كان مفتوحاً لابي سفيان . فلو ان ابا سفيان قرر التحرك الى المدينة ، فان المسلمين لن يكونوا في طريق تقدمه . في هذا القرار ، توقع النبي بشكل صحيح بان أبا سفيان لن يجرؤ على التحرك الى المدينة ، لانه لو فعل ذلك لعرّض مجنبته ومؤخرته للهجوم من قبل المسلمين . وهذا ماحصل تماماً . فأبو سفيان لم يتحرك الى المدينة خوفاً من المسلمين الذين كانوا يقفون على جانب الطريق . وكان هذا مثالاً نموذجياً ، تكرر عدة مرات في التاريخ العسكري ، لقوة تدافع عن قاعدتها ليس بالتمركز فيها وخوض معركة جبهية ، بل بتهديد اي تحرك معادٍ نحو تلك القاعدة من الجنب .

وبينما كان أبو سفيان مجبراً على خوض المعركة تحت ظروف غير مواتية بالنسبة له ، كان ترتيب قواته سليماً ، ووفق الاسلوب العادي الذي كان يتبعه الرومان والفرس ؛ وهو عبارة عن تقسيم الجيش الى قوةٍ رئيسية من المشاة في الوسط ، وأجنحة متحركة للمناورة ضد مجنبات العدو ومؤخرته . فبالنسبة لاختيار مكان المعركة ولترتيب القتال المتخذة ، فانه من المشكوك فيه أن يتصرف أي قائد روماني او فارسي ، لو قدر له ان يقود هذه القوات ، بشكل مغاير لما فعل النبي وابو سفيان . وبالتأكيد فان أي ناقدٍ لم يقدر لنا حلاً افضل .

هنالك حقيقة اخرى هامة اظهرتها هذه المعركة وهي فكر خالد

العسكريْ ومهارتـه . فعندما هَرَبتْ القوةْ الرئيسية للقرشيين ، بقيت الاجزاءُ الصغيرة ــ وهي سرايا الفرسان ــ صامدة في ميدان المعركة . وبشكل عـام عندما يفر الجزء الرئيسي من الجيش ، فان الفروع الصغيرة لاتصمُدْ . وهنا نرى الشجاعة غير الاعتيادية لخالد (ولعكرمة) بالمحافظة على سريتيهما والسيطرة عليهما في ميدان القتال ، مع ان المنطق قد يَرَى أنْ لافائدة ترجى من ذلك . راينا الصبر الذي تحلّى به خالد ، ورأينا رفضه لقبول الهزيمة . ان عين خالد الثاقبة فقط هي التي لاحظت الثغرة التي نشأت عندما تـرك الرماةُ موقعهم ، وهي التي رات امكانية الاندفاع بسرعة للوصول الى مؤخـرة المسلمين المكشوفة . لمح هــذا الموقف في لحظات . راى الثغرة واتخذ قـرارا سريعا لاستغلال الفرصة وتوجيه هجمة معاكسة . ان هذه المناورة البارعة التي قام بها خالد هي التي قَلَبَتْ نصرَ المسلمين الوشيك الى هزيمة .

كذلك راينا تصميم خالد وإصراره على الضغط المتواصل ضد المسلمين الذيـن كانوا يقاومون بعناد الى أن اندحروا . كما أنَّ قتلَه لثلاثة رجـال اظهر شجاعته الشخصيـة ومهارته القتالية . ان خالداً الذي يملك جـراة الشباب واندفاعه ، وصبرَ وحنكة الكهول ، بَشَّـر بمستقبل عسكري عظيم منذ هــذه الغزوة .

كانت هذه اول معركة في الاسلام تنفّذتْ فيها مناورات بارعة . وبعد هــذا التاريخ ، اخذت المناورات والخطط الحربية تبرز بشكل واضح . وقد اكتسبت الاسماءُ التاليـة شهرة خالدة في غضون العِقْدين اللذين اعقبـا غزوة احـد كمنتصرين وفاتحـين : خالد ، عمرو بن العـاص ، أبو عبيدة ، سعد بن أبي وقاص .

غـزوة الخنـدق

إحتلت غزوة احُد تفكيرَ خالد عدةَ ايام بعد عودته الى مكة . وفكر اكثر من مرة كيف سنحت له الفرصة عندما ترك الرماةُ موقعهم ، وكيف انه ادرك في حينه امكانية القيام بمناورة بسرعة وبدقة . وكرّر خالد مثل هـذه الهجمات المعاكسة في المعارك التي خاضها فيما بعد . لكن الحقيقة التي شغلت بَاله ، والتي لم يستطع تفسيرها ، هي شجاعة وصلابة المسلمين . إن الامر غير طبيعي ان تصمد قوة صغيرة امام قوة كبيرة تفوقها كثيرا بالعَدَد ، وأمام هجمات من جميع الاتجاهات ، كالصخرة في تصميمها واستعدادها للقتال حتى النهاية دفاعاً عن قائدها ودينها . فضلا عن ذلك ، كان المسلمون والقرشيون وسائر العرب من أصل واحد . ربما كان هنالك تأثير ما للدين الجديد على اتباعه لاتستطيع أديان اخرى ان تؤثر مثل ذلك . وربما كان هنالك تأثير ما أيضا لشخصية محمد لايتوفر في شخصيات الآخرين . ان مثل هذه الافكار شغلت بال خالد ، لكنه حتى الآن لم يكن ميالا الى الدين الجديد . وفي الحقيقة كان يتطلع الى مجابهة ثانية مع المسلمين ، ولكن بدون مرارة او حقد كان يفكر في المعركة القادمة مثلما يفكر الرجل الرياضي بمباراته التالية .

واستمر خالد في التمتع بالحياة الرغيدة بالقوة والحماس التي يتميز بهما الرجل .

في السنتين التاليتين ، لم يحدث أي صدام عسكري مباشر بين المسلمين والقرشيين . ولكن جرت حادثة تعرف باسم « يوم الرَّجيع » ، وهي حادثة وحشية ومريعة اساءت الى العلاقات بين مكة والمدينة .

جرى هذا الحادث في تموز عام ٦٢٥ م . حيث قدم بعض الاشخاص الى النبي بصفة وفد عن قبيلتي عَضَل والقارة ، وعبّروا عن رغبتهم في اعتناق الإسلام وطلبوا منه أن يُرسل معهم بعض رجاله ممن يحفظون القرآن وتعاليم الإسلام لكي يشرحوا الدين الجديد وأحكامه لأفراد القبيلة . فعيَّن النبيُّ ستة من أصحابه للقيام بهذه المهمة . وانطلق هؤلاء مع الوفد وهم فخورون بهذا العمل الذي انتخبوا من أجله لنشر الدين الحنيف غير عالمين بالفخ الذي نُصب لهم . وعندما وصل هؤلاء الرجال وأدلاَّؤهم الى مكان يسمى الرَّجيع ، وهو ليس بعيدا عن عَسْفان ، وقعوا في كمين مؤلف من مائة مقاتل من افراد القبيلتين اللتين ينتمي اليهما الوفد . فاستلوا سيوفهم ، لكن لم تتح لهم الفرصة لاستعمالها ، وقتل منهم ثلاثة وأسر ثلاثة . وهؤلاء الاسرى اقتيدوا الى مكة ، واستطاع واحد منهم ان يتخلص من قيده ويهاجم آسريه لكنه قُتل أيضا . اما الاسيران اللذان وصلا مكة فهما خُبَيْب بن عَدي ، وزيدُ بن الدَّثِنَّة . لقد سبق أن قَتَل هذان الاسيران بعضَ المشركين في المعركة ؛ فأخذا من قبل آسريهم الى مكة وبيعا هناك الى أقارب قتلى المشركين بثمنٍ باهظ ، وهؤلاء اشتروهم بحماس بقصد قتلهم انتقاماً لاولئك الذين فقدوهم .

لم يُتخذ أيُّ اجراء ضد الاسيرين لبضعة أيام ، لان الشهر الذي أسرا فيه كان شهر صفر ، وهو من الاشهر الحُرُم ، وعند انقضاء الشهر ، أخذا الى مكان يسمى « التَّنْعيم » ، وهو يقع الى الشمال الغربي من مكة ، حيث كان جميع السكان يتجمهرون بما فيهم العبيد والنساء والاطفال . اقتيد الأسيران الى عمودين من الخشب ثُبّتا في الارض . فطلبا ان يُسمح لهما بصلاة أخيرة فاستجيب طلبهما . وعندما انتهت الصلاة ، أعيد ربط الاسيرين بالعمودين .

وخُيِّر كل منهما إما بالعودة الى عبادة أصنام قريش أو الموت . فاختار كلاهما الموت . ثم جاء ابو سفيان وقال لزيد بن الدَّثِنَّة : « أنشُدُك اللهَ يازيد

(١) ابن هشام — الجزء ٢ صفحة ١٧٢

اتحب ان محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وانك في اهلك ؟ » قال : والله ما احب ان محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في اهلي ، فقال ابو سفيان : « مارايت من الناس احداً يحبُّ احداً كحبّ أصحاب محمد محمداً » .

قُتل زيدٌ اولاً ، وكان موته سريعاً وسهلا . حيث تقدم عبدٌ منه وغرَز حربةً في صدره . ثم جاء دور خُبيب . وكان موته استعراضياً . وهذا هو السبب الذي حدا بأهل مكة للتجمع لمشاهدة هذا العرض وانتظاره بشوق .

انطلق اربعون وَلَداً باشارةٍ من عكرمة بن ابي جهل ، الى العمود المربوط به خُبَيْب وبدؤوا بوخزه بحرابهم . وكانوا في بعض الاحيان يقفون بعيدا ثم يندفعون باتجاهه وهم يرفعون حرابهم كأنهم يريدون قتله ، ولكنهم يتوقفون قبيل الوصول اليه ويبدؤون بوخزه مرة ثانية بحيث يسببون له الجراح دون قتله . كان بعض الاولاد عنيفين اذ سبّبوا له جراحاً اعمق مما سبّبه الآخرون ، وسرعان ما أصبح جَسَدُه مغطّى بالدم الذي كان ينزف من مئات الجروح السطحية . وكان ينتفض لدى كل ضربةِ حَرْبة ، لكنه لم يتأوّه او يصرخ . وكان المتفرجون يضجّون فرحاً لمشهد تعذيب خُبَيْب .

وبعد ان استمر هذا المشهد لفترة ، تقدم عكرمة وبيده حَرْبة باتجاه خُبيب ، وفرّق الاولادَ . ربما لان هؤلاء قد تعبوا ، او ربما لان المتفرجين سئموا اللعبة . ثم رفع عكرمةُ حربتَه وغرزها في قلب خُبَيْب ، وهكذا وضع حدّاً لآلامه ، وتركت الجثتان على العمودين حتى تتآكلا .

لقد نَظّم هذا العرض التعذيبي من قبل عكرمة الذي جَهّز الاولاد بالحراب ولقّنهم بما يفعلون . لم يعلم عكرمة ، عندما نَظّم المشهد الدموي المريع ، انه من الممكن ان يُسامح وان يُعفى عنه لمعارضته الشديدة للاسلام ، والدم المهراق الذي سفكه في بدر وفي أحُد ، لكن فعلتَه هذه لن تغفر له . ففي هذا اليوم أصبح عكرمة « مجرم حرب » .

من الجدير بالذكر أن ابا سفيان قد تحدّى النبي ، قبل مغادرته ميدان

المعركة في أحد ، لمقابلة المسلمين مرة ثانية في بدر بعد سنة ، وان النبي قبل هذا التحدي . وهذا يعني ان اللقاء بين المسلمين والقرشيين سيتم خلال شهر آذار عام ٦٢٦ م ، لكن عندما اقترب موعد اللقاء ، شعر ابو سفيان بعدم الرغبة في لقاء المسلمين . كانت أمطار الشتاء قليلة ، وعندما انتهى فصل الشتاء ، ارتفعت درجات الحرارة فجأة . كان الطقس حاراً وجافاً وكان الموسم يبشر بالسوء . قرّر ابو سفيان ان يؤجل العملية وارسل عميلاً الى المدينة لنشر اشاعة تقول بان القرشيين كانوا يتجمعون باعداد كبيرة ، وان قوّتهم في هذه المرة ستكون أعظم مما كانت في أحد . وكان يقصد من ذلك تخويف المسلمين لكي يبقوا في المدينة ، لكن النبي عندما علم بذلك أعلن : « سأحافظ على موعدي مع المشرك حتى لو اقتضى الامر أن أذهب لوحدي» .[1]

في أواخر آذار ، سار المسلمون من المدينة . وكانوا يَعدُون ألفاً وخمسمائة مقاتل ، من بينهم خمسون فارسا . وصل الجيش الى بدر في الرابع من نيسان عام ٦٢٦ م (المصادف الاول من ذي القعدة عام ٤ هـ) ، لكنه لم يجد أثرا لقريش .

عندما تلقى ابو سفيان أنباء مسيرة المسلمين من المدينة ، جمع القرشيين وانطلق من مكة . كان جيشه يتألف من الفي مقاتل ومائة فرس ، ورافق الجيش مقاتلون شجعان مثل خالد ، وعكرمة ، وصفوان ، وعندما وصل القرشيون الى أصفان ، قرّر ابو سفيان انه ليس مضطراً تحت أية ظروف للقيام بهذه الحملة . ثم التفت الى مرؤوسيه وقال لهم : « ان هذه السنة سنة قاسية لكي نتورط فيها بحرب . فالأرض اصابها الجدب ، ونادراً مارأينا مثل هذه الحرارة . ان هذه الظروف ليست ملائمة للقتال . واننا سوف نقاتل في سنة خصبة » .[2] وبعد أن بيّن أسباب عدم الاستمرار في التحرك أمر بالعودة الى مكة . احتج صفوان وعكرمة بشدة على هذا القرار ، لكن احتجاجهم لم يجد نفعاً . وعاد القرشيون الى مكة .

---

(١) ابن سعد : صفحة ٥٦٣

(٢) ابن سعد : صفحة ٥٦٣

بقي المسلمون في بدر مدة ثمانية أيام . وبعد أن سمعوا بعودة ابي سفيان الى مكة ، شدّوا رحالهم وعادوا الى المدينة .

بعد عودة القرشيين الى مكة ، كان من الممكن ان يسود السلام بين المسلمين والقرشيين لولا تدبير المكائد من قبل اليهود . ولكي نفهم أسباب دسائس اليهود ، يجب ان نعود الى الوراء عندما وصل النبي الى المدينة بعد مغادرته مكة .

عند قدوم النبي الى المدينة ، حيث اعتبر ذلك العام الاول للهجرة ، تشكل المسلمون في مجموعتين هما : المهاجرون وهم الذين هاجروا مع النبي من مكة ، والانصار وهم أهل المدينة الذين اعتنقوا الاسلام ودَعَوْا النبي للمجيء والعيش معهم . وكان يوجد مجموعة صغيرة ثالثة بين المسلمين تعرف باسم : « المنافقين » ، وهم من سكان المدينة الذين قبلوا النبي ودينه لكي يؤثروا في المجرى العام للحوادث لكنهم لم يكونوا مسلمين في افئدتهم . وكان زعيم هؤلاء المنافقين عبد الله بن أبي ، وكان ذا نفوذٍ كبير في المدينة وشعر أن قدوم النبي سيقلل من مكانته ونفوذه . وهؤلاء المنافقون هم الذين تركوا جيش المسلمين يوم أحد . واستمروا في خلق العراقيل في طريق النبي ، وكانوا يبذلون كل جهد ، دون معارضة النبي او دينه بشكل صريح ، لاضعاف تصميم المسلمين كلما نوَوْا الذهاب الى القتال .

كان يوجد في المدينة طائفة من اليهود تضم ثلاث قبائل تعرف بـ : بني قَيْنُقاع ، وبني نَضِيْر ، وبني قريظة . وعندما وصل النبي الى المدينة ، قبله هؤلاء اليهود دون تحفظ اذ لم يَرَوا في الدين الجديد اي تهديد لمركزهم . وكل قبيلة من القبائل الثلاثة دخلت في معاهدة مع النبي يمكن وصفها بأنها معاهدة صداقة او معاهدة عدم اعتداء . وكانت المعاهدة تتضمن فقرةً تنص على ان لايقوم أي من الطرفين بمساعدة اعداء الطرف الآخر المشتبك في القتال .

عندما كان النبي في مكة ، كانت آيات القرآن التي نزلت ، تعالج بشكل رئيسي المسائل الروحية والدينية . وهكذا فان الصفة المميزة للاسلام كانت آنئذٍ بشكل جوهري ، روحية ودينية ، وهي تتحدث عن علاقة الانسان بالإله .

وعندما هاجر النبي الى المدينة ، اتخذ الاسلام دورا اكثر فعالية وحيوية في شؤون الناس ، فدخل في مجالات المجتمع ، والسياسة ، والاقتصاد . وبدأ الاسلام يتعامل مع الانسان كعضو في المجتمع ، والمجتمع كأداة لتحقيق حياة فاضلة ولتحقيق التقدم والازدهار لجميع الناس . ان هذه الطاقة الخلاّقة التي اخذها الاسلام على عاتقه كانت كفيلة بوضعه في مجرى الصدام مع الديانات القديمة . وهذا الصدام كان لابد ان يقع عاجلا أم آجلا ، واقرب الديانات القديمة التي دخل الاسلام في صدام معها كانت اليهودية . ادرك اليهود الخطر الذي يهدد مركزهم لاول مرة عندما حقق المسلمون نصراً مؤزراً في غزوة بدر . بعد ذلك نقضت قبيلة بني قينقاع المعاهدة ودخلت في مواجهة سافرة ضد المسلمين . فحاصر النبي هذه القبيلة في معاقلها واجبرها على التسليم . وكعقاب لبني قينقاع على نقضهم للعهد ، طردوا من المدينة ، وهاجروا الى سورية . اما القبيلة الثانية التي نقضت المعاهدة فهي قبيلة بني نضير وقد حدث ذلك بعد غزوة أحد مباشرة . وقد عوقبت من قبل المسلمين بنفس العقاب . وقد هاجر قسم من هذه القبيلة الى سورية ، واستقر القسم الآخر في منطقة خيبر شمال المدينة . وفي العمليات التي تمت ضد قبيلتي بني قينقاع وبني نضير ، وقف عبد الله بن ابي الى جانب اليهود في بداية الامر ، وكان يحرضهم على قتال النبي ويعدهم بالمساعدة بواسطة اتباعه . ولكن فيما بعد ، عندما رأى ان الكفة تميل لصالح المسلمين ، تخلى عن اليهود وتركهم لمصيرهم .

واستمرت القبيلة اليهودية الثالثة ، قبيلة بني قريظة ، في العيش بسلام في المدينة . كانت علاقاتها مع المسلمين عادية وتتسم بالهدوء ، وكان كل جانب يحترم ويحافظ على بنود المعاهدة . لكن يهود بني نضير الذين استقروا في خيبر لم يصفحوا عن المسلمين الذين طردوهم . وبعد غزوة احد ، علموا بنبأ الاتفاقية التي تمت بين المسلمين والقرشيين للقتال في معركة اخرى ، واخذوا ينتظرونها بفارغ الصبر على امل أن يُسحق المسلمون فيها . ولكن عندما عرفوا بعد سنة ان المعركة لن تتم ، قرروا ان يقوموا بعمل مباشر لتأليب القرشيين ضد المسلمين ومحاربتهم .

عندما ولّى صيف عام ٦٢٦ م ، ذهب وفدٌ من يهود خيبر الى مكة . وكان زعيمُهم حُيَيُّ بن اخطب ، الذي كان زعيم بني نضير في المدينة . عند وصول الوفد الى مكة ، قام بالتفاوض مع أبي سفيان ، وبدأ بتنظيم حملة ضد النبي . وكان على حُيَيٍّ ان يثير قلق ومخاوف القرشيين ؛ فشرع في إبراز الخطر الذي سيواجهه القرشيون نتيجة انتشار الاسلام في الجزيرة العربية. واذا وصل المسلمون الى اليمامة ، فان طرق تجارة قريش الى العراق والبحرين سوف تغلق .

وسأل ابو سفيان حُيَيٍّ : « اخبرني يا ابن الأخطب ، بصفتك من أهل الكتاب ، هل في رأيك ان دينَ محمد الجديد خيرٌ من ديننا ؟ » فأجاب حُيَيٌّ دون ان تطرف له عين : « انني كرجل من اهل الكتاب ، أستطيع ان أؤكد لك بأن دينكم خيرٌ من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه [1] » لقد ادخل قوله السرور على القرشيين ، ووافقوا على قتال محمد اذا انضمت اليهم قبائل عربية أخرى .

ثم ذهب الوفد الى غطفان وبني أسد وتفاوضوا معهم مثلما تفاوضوا مع القرشيين وحققوا نتائج مماثلة . اتفقت هاتان القبيلتان وقبائل اخرى على الاشتراك في حملة كبيرة لقتال وتدمير المسلمين .

بعد غزوة أحد ، قبل القرشيون بفقدان تجارتهم مع سورية كأمرٍ حتمي. فطالما أن المسلمين محتفظون بقوّتهم في المدينة ، فان أهل مكة لايمكنهم أن يستخدموا الطريق الساحلي المؤدي الى سورية . لذلك ، فقد زاد المكيون تجارتهم مع العراق ، والبحرين ، واليمن ، وبذلك أمكنهم تعويض مافقدوه نتيجة توقف التجارة مع سورية . ادرك ابو سفيان ، بعد التفاوض مع الوفد اليهودي ، مقدار الخطر الذي ستتعرض له تجارة اهل مكة من جراء انتشار الاسلام . فاذا وصل المسلمون الى اليمامة ، فان تجارة قريش ستقتصر على اليمن ، لان الطرق الى العراق والبحرين ستكون عندئذٍ في ايدي المسلمين . وان مثل هذا التقلص في التجارة سوف يكون ضربة اقتصادية لايمكن لقريش

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٢١٤

ان تقوم لها قائمة بعدها . كذلك فان ابا سفيان تحمّل الكثير نتيجة عدم حماس صفوان بن امية في الحملة الاخيرة . وتضافرت جميع هذه العوامل وجعلت ابا سفيان يقرر بحماس القيام بحملة اخرى على المدينة .

بدات الاستعدادات للحملة . وبدأ رجال القبائل بالتجمع في أوائل شباط عام ٦٢٧ م . جَهّزتْ قريشٌ اكبر قوة تتألف من اربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة فرس ، والف وخمسمائة بعير . تليها غطفان التي جهزت الفي مقاتل بإمرة عُيَيْنَة بن حِصْن ، بينما جَهّزت قبيلة بني سلمة سبعمائة محارب . كذلك اشتركت قبيلة بني أسد بقوة غير معروفة بإمرة طُليحة بن خويلد . تجمعت قريش وبعض القبائل الصغيرة في مكة ، بينما تجمعت قبائل غطفان وبني أسد ، وبني سلمة في قراهم شمال ، وشمال شرق ، وشرق المدينة حيث يتوجهون من هناك مباشرة الى المدينة . كان تعداد هذه القوات بما فيها القبائل الصغيرة عشرة آلاف ، واستلم ابو سفيان قيادة الحملة . وأصبحت هذه الحملة تعرف بـ « الأحزاب »

في يوم الاثنين ، الرابع والعشرين من شباط ٦٢٧ م (المصادف الاول من شوّال عام ٥ هـ) ، تحركت الاحزاب من مناطقها وتجمعت قرب المدينة حيث اقامت معسكراتها . عسكرت قريش في منطقة الجدول جنوب الغابة ، والى الغرب من جبل احد ، في نفس المكان الذي عسكرت فيه لمعركة احد . اما غطفان وقبائل اخرى فقد عسكروا في ذَنَبِ نَقْمى ، على بعد ميلين الى الشرق من جبل احد . وبعد ان اقامت الاحزاب معسكراتها ، زحفت الى المدينة .

عندما بدأ تحشد الاحزاب ، وصلت الانباء بواسطة العيون الى المدينة . وكانت التقارير تصل تباعا عن هذا الحشد . واخيراً تلقى النبيّ معلومات تفيد بان عشرة آلاف مقاتل يسيرون باتجاه المدينة للقضاء على المسلمين . وعندما تلقى المسلمون هذه المعلومات غير السارة اصيبوا بالاضطراب واليأس . وكان المسلمون دائماً ، طبعاً ، أقل عددا من اعدائهم . وكانت نسبة القوى في بدر واحُد ١ : ٣ و ١ : ٤ ، لصالح المشركين ، ومع ان عدد المسلمين في المدينة انخفض الآن الى ثلاثة آلاف مقاتل من المقاتلين الاشداء ، الا انه كان

بينهم عدة مئات من المنافقين الذين لايمكن الاعتماد عليهم . كما ان عدد عشرة آلاف يبدو رقما ضخما . اذا لم يسبق أن تجمّع مثل هذا الجيش اللجب لخوض معركة .

ثم لاح الأملُ على شكل اقتراح قدّمه سلْمان الفارسي . اذ أوضح أن جيشَ الفرس عندما يخوض معركة دفاعية ضد أعداء متفوقين ، كان يلجأ الى حفر خندق عريض وعميق في طريق العدو ، بحيث يصعب اجتيازه . وكان هذا الاسلوب في الحرب غير مألوف للعرب ، لكنهم رأوا مزاياه ، وقبل الاقتراح .

أمر النبي بحفر الخندق . لكن الكثيرين من العرب الذين لم يستطيعوا فهم مثل هذا التكتيك ، أبدوا عدم رغبتهم في القيام بعملية الحفر ، وتنشط المنافقون كالعادة في إغراء الناس بعدم الاشتراك في هذا العمل الشاق . لكن النبي نزل بنفسه الى الحفر ، عندئذٍ لم يتهرب أحد من المسلمين من المشاركة في الحفر . وحدّد مكان الخندق وقسّم كاملَ طوله بين المسلمين من أجل حفره ، وأعطي كل عشرة رجال أربعين ذراعاً [1] . وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق والعرق يتصبّب من جباههم ، كان حسّان بن ثابت يتجول بين المسلمين وهو ينشد أشعاره التي ترفع من روحهم المعنوية . كان حسّانُ شاعراً ، وربما كان أكبر شاعر في زمانه . وهو يستطيع ان يرتجل الشعر بأي موضوع وبأية مناسبة ، وينظمه باسلوب جميل لدرجة ان سامعيه لا يصدقون ان هذا الشعر مرتجل الا بصعوبة . وكان يستطيع ان يلهب حماس الناس .

امتدّ الخندقُ من « الشيخين » الى تل خبّابُ ، ومن هناك الى جبل بني عُبيد . وكانت جميع هذه التلال ضمن المنطقة المحمية بواسطة الخندق، ومن جهة الغرب كان الخندق يتجه جنوبا لتغطية المجنبة اليسرى غربي التلين المعروفين باسم جبل بني عُبيد . والى الشرق من «الشيخين » وجنوب

---

(١) الذراع = ٠،٥٧٢ من المتر ـ المترجم .

غرب بني عبيد . والى الشرق من « الشيخين » وجنوب غرب جبل بني عبيد ، تمتد أراض بركانية ــ وهي عبارة عن مناطق ذات أرض متكسرة وغير مستوية، ومغطاة بصخور كبيرة سوداء ، غير صالحة لتحرك عسكري رئيسي . والى الجنوب قليلا من منتصف الخندق ، كان يقف تل سَلْع المرتفع حوالي ٤٠٠ قدماً والذي يبلغ طوله ميل واحد ، وهو يمتد بشكل عام شمال ــ جنوب وبه نتوءات في جميع الاتجاهات . وفي الحقيقة ، إن تل ضباب الصغير يقع شمال شرق نتوء سَلْع ، مع ان الخريطة لاتظهر ذلك بوضوح . (انظر الخريطة رقم ٣ [1]) .

وعندما انتهى حفر الخندق ، أقام المسلمون معسكرهم أمام تل سَلْع مباشرة . وكانت قوتهم الاجمالية تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل من ضمنهم المنافقون الذين كانت قيمتهم القتالية والاعتماد عليهم غير مؤكد . كانت خطة النبي تقضي بأن لاتزج القوة الرئيسية لجيشه في القتال وذلك لكي تضرب في أية بقعة يستطع العدو أن يحصل على موطىء قدم عبر الخندق . ولحراسة الخندق ضد أية مفاجأة ، خصص لهذا الفرض مائتا رجل على طول الخندق ، ووضعوا كالأوتاد على التلال المسيطرة على الخندق . واستُخدمت قوة متحركة مؤلفة من خمسمائة رجل للقيام باعمال الدورية على قرى المدينة المختلفة وللتعامل ضد أي متسللين قد يعبروا الخندق دون ان يراهم أحد ، وكذلك لتأمين الحماية للمناطق غير المحمية بالخندق . (لم تكن المدينة آنذاك كما هي الآن ، اذ كانت مؤلفة من مجموعة من القرى والحصون . وكان مركز المدينة المادي والروحي هو مسجد النبي) . ووُضِعَتْ النساءُ والاطفال في الحصون والبيوت البعيدة عن جبهة القتال التي كانت تواجه الشمال والشمال الغربي .

كان فصل الشتاء الذي اوشك على الانقضاء قاسيا وطويلا .

وعندما رأى القرشيون الخندق ، فزعوا في بادىء الامر ثم تابعوا سيرهم

---

(١) قيل أيضا ان الطرف الغربي للخندق ينتهي عند « مزاد » . وهذا صحيح ، لان التلال الثلاثة الظاهرة على الخريطة رقم (٣) ــ التلاّن الجنوبيان لجبل بني عبيد والتل الموجود شمالها تسمى أيضا « مزاد »

حانقين . لقد جاء القرشيون بقوة كبيرة وبدأ لهم أن النصر مؤكد . وتوقع ابو سفيان ان يخوض معركة ناجحة ، والآن ظهر هذا الخندق المبارك في طريقه !

وانفجر ابو سفيان قائلا بغضب : « والله انّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها [1] . لم يكن في عقل هذا الرجل البسيط مكان لمثل هذه التكتيكات . اما بالنسبة للعربي اللامع فهي ليست لعبة كرة ومضرب .

على كل الاحوال ، تحركت الاحزاب من معسكرها ، وانتشرت على طول الخندق من الشمال والشمال الغربي ، وضَرَبتْ حصارا استمر ثلاثة وعشرين يوما . وكانت الاحزاب تصل الى الخندق نهارا وكان المسلمون يفطونه بقوات صغيرة من جهة المدينة . وكان هنالك تبديل للرماة الذين كانوا يقظين طيلة النهار ، وفي الليل كانت الاحزاب تعود الى معسكراتها . كانت دوريات الاحزاب تتحرك على طول الخندق بشكل مستمر نهارا واحيانا في الليل لايجاد مكان يمكن العبور منه . وقد وجدوا مكانا للعبور ، وسنتحدث عنه فيما بعد .

استمر الحصار عشرة ايام دون اتخاذ أي قرار للمجابهة من كلا الجانبين . وكانت معنويات الطرفين تحت تأثير الانفعالات الطبيعية ، لكنها مالت الى الصعوبة اكثر من الضعف . بدأ المسلمون يشعرون بوطأة الجوع . ولم يكن في المدينة مخازن كبيرة للطعام ، واصبح المسلمون يعيشون على نصف تعيين يومي . ارتفع صوت المنافقين واخذوا يجاهرون بانتقاد النبي . اثناء حفر الخندق ، وعد النبي المسلمين بأنهم سيدمرون امبراطوريتي الروم والفرس في غضون بضع سنوات ، ويستولون على ثروات هاتين الامبراطوريتين . وبدأ المنافقون يقولون الآن : « كان محمد يَعِدُنا أنْ نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدُنا اليوم لايأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط » [2] . اما المؤمنون الصادقون ، فظلوا ثابتين وصامدين ، كما ان ثقتهم بنبيّهم بقيت ثابتة لاتتزعزع .

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ صفحة ٢٢٤ .

(٢) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٢ .

بدا الموقف يسوء تدريجيا في صفوف الاحزاب أيضا ، وبدأ التذمر يظهر بينهم . فالعرب لم يكونوا معتادين على الحصار الطويل وهم يفضلون معركة نشطة سريعة على هذا الشكل من الحرب . وبقي الطقس سيئا وسبّب الغمّ والضيق بين الاحزاب . كما ان الطعام بدأ بالنقصان ، لان ابا سفيان لم يتخذ الترتيبات اللازمة بشأن تخزين كميات كبيرة من الطعام تكفي لمدة طويلة من الزمن . ولكن بما ان الاحزاب لم يكونوا محاصَرين ، فقد اتخذوا بعض الاجراءات لجمع المؤن من مناطق بعيدة . وبدأ الرجال بالتذمر ، لذا كان على ابي سفيان ان يفكر مليّا لايجاد مخرج لهذا المأزق . اخيرا استشار حُيَيّ اليهودي ، فاتفقا على خطة جديدة تبشر بالنجاح .

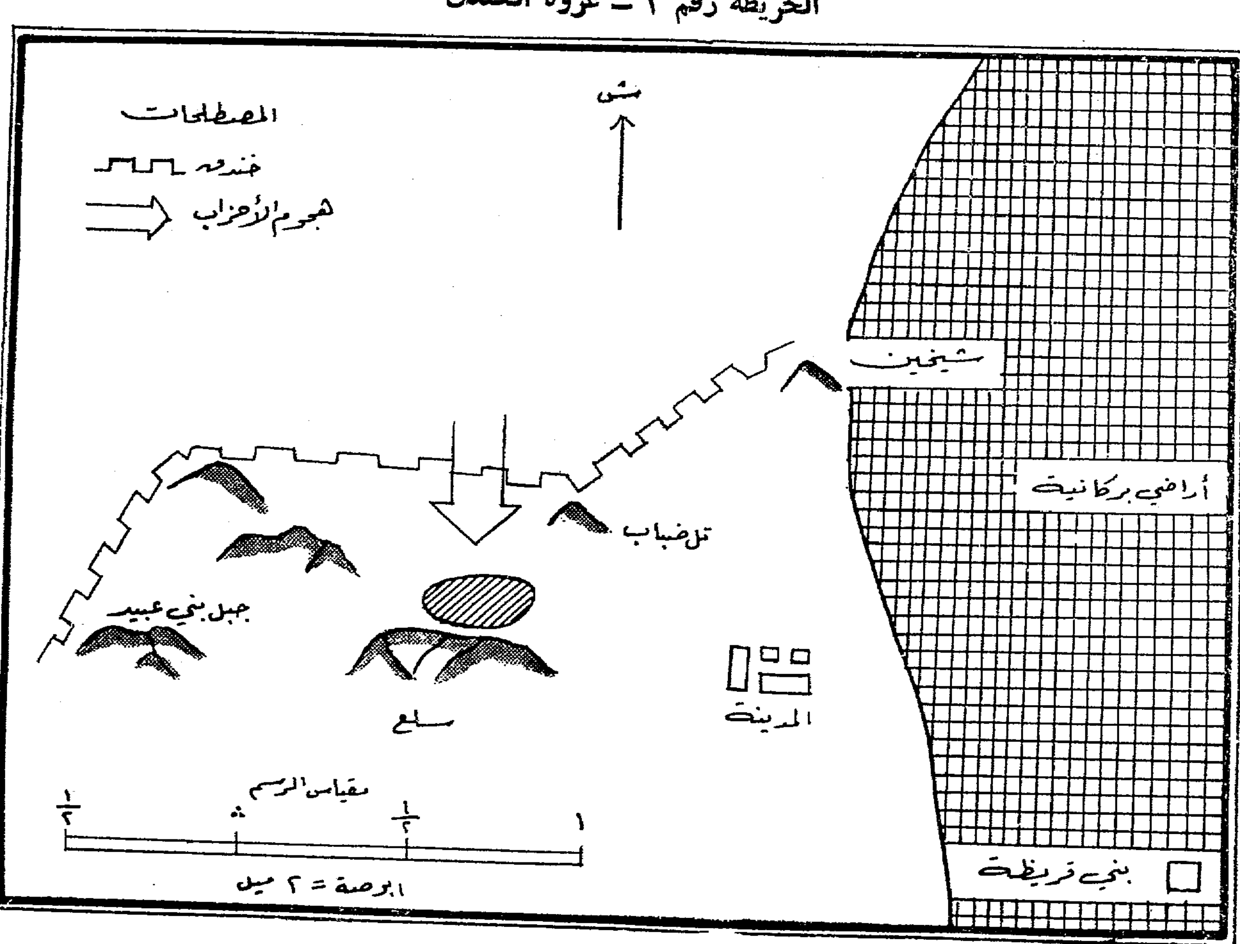
في مساء يوم الجمعة ، السابع من آذار ، تسلّل حُيي الى قرية بني قريظة . وذهب الى كعب بن أسد القُرَظِي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله على قومه ، وعاقده على ذلك ، فلما سمع كعبٌ بحُيَيّ بن اخْطَبَ اغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حُيَيٌ : ويحك ياكعبُ افتح لي ، قال : ويحك يا حُيَيٌ انك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدت محمدا ، فلست بناقضٍ مابيني وبينه ، ولم أرَ منه الا وفاءً وصِدْقا ، قال : ويحك افتح لي أُكَلِّمْكَ ، ففتح له . وبدأ حُيَيٌ باقناع كعب والضغط عليه للانضمام الى الاحزاب في الحرب ضد المسلمين . رفض كعب في بادىء الامر وقال : « اذا انضممنا اليكم وفشلت الحملة ، سيعود عَبَدَةُ الاصنام الى ديارهم بسلام وسوف نتحمل نحن غضب محمد »[1] . لكن حُيي استمر في ضغطه ولم يزل بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على ان اعطاه عهدا وميثاقا « لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ان ادخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك »[2] ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووافق على الدخول في تحالف مع الاحزاب .

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٢ ، الواقدي : المغازي ، صفحة ٢٩٢ .

(٢) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٣ .

الخريطة رقم ٣ — غزوة الخندق



وطبقاً لشروط هذا التحالف ، ستقوم الاحزاب وبنو قريظة بهجوم في وقت واحد ، على المسلمين . وكانت قرية هؤلاء اليهود وحصونهم على بعد ميلين جنوب شرق المدينة ، وهم سوف يهاجمون من هذا الاتجاه ويطردون بعض المسلمين من الخندق بينما تهاجم الاحزاب جبهياً . وفي حال فشل الهجوم ، ستترك الاحزاب حامية قوية في الحصون اليهودية للدفاع عن اليهود ضد المسلمين الذين سيقومون بمهاجمتهم انتقاماً منهم . طلب بنو قريظة مهلة عشرة أيام لتجهيز انفسهم قبل أن يبدأ الهجوم ، وفي أثناء ذلك تستمر الأحزاب في القيام بعمليات صغيرة من الشمال .

وهكذا نقض يهودُ المدينة جميعُهم العهدَ مع النبي . ولم يدركوا انهم سيدفعون ثمن ذلك غالياً .

فلما انتهى الخبرُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى المسلمين، بَعَثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَعْدَ بن مُعاذ بن النعمان — وهو يومئذٍ سيد الأوس — وسَعْدَ بن عُبادة بن دُلَيم احد بني ساعدة بن كعب ابن الخزرج ، وخَوّاتَ بن جُبير اخو بني عمرو بن عوف ، فقال : « انطلِقوا حتى تنظروا أحَقٌ ما بَلَغَنا عن هؤلاء القوم ام لا ، فان كان حقاً فالحَنُوا لي لحناً اعرِفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجْهَرُوا به للناس »(1) . فخروجوا حتى اتوْهُمْ ، فوجدوهم على اخبث مابلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « مَنْ رسولُ الله ؟! لاعَهْدَ بيننا وبين محمد ولا عقد » . فعادوا الى رسول الله واخبروه بما رأوا وسمعوا . وقد جاءت حادثة « صفية واليهودي » لتؤكد ذلك .

كانت صفيةُ بنت عبد المطلب ، عمة النبي ، في فارعِ حصنِ حسّان بن ثابت ، وكان حسّان بن ثابت في الحصن مع النساء والصبيان . قالت صفية رضي الله عنها : « فَمَرَّ بنا رجل من يهود ، فجعل يُطيف بالحصن ، وقد حارَبَتْ بنو قريظة ، وقطعت مابينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(1) ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٣

وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لايستطيعون ان ينصرفوا عنهم الينا إن أتانا آت ، قالت : فقلت : ياحسان ، ان هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه ان يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأنزل اليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا [1] ، قالت : فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت [2] ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن اليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، قالت : فلما فرغت منه رجعت الى الحصن ، فقلت : ياحسان ، انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه إلا انه رجل ، قال : مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب. » [3]

عندما وصلت اخبار هذه الحادثة الى مسامع المسلمين ، لم يعد هنالك شك لديهم بخيانة بني قريظة . واصبح الموقف الآن اكثر توتراً ، واخذ المنافقون يجاهرون بتخوفهم . وانخفضت التعيينات اليومية للمسلمين من نصف تعيين الى ربع تعيين . (وفيما بعد لم يعد هناك تعيينات يومية) . مع ذلك فقد ظل المسلمون صامدين ، ولكن اذا استمر الحصار مدة اطول، فان الجوع سوف يجبرهم على الخضوع . ولم يجد المسلمون حلاً عسكرياً مباشرة للمشكلة .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عوف ــ وهما قائدا غطفان ــ فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة في ذلك .

---

(١) انكر قوم منهم ابو ذر شارح السيرة هذا الحديث ، واستبعد ان يكون حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبن بهذه المنزلة . وقد كان يهاجي كثيرا من الشعراء فما نسبه أحد منهم الى الجبن ــ المترجم .

(٢) احتجزت : معناه شددت وسطي .

(٣) ابن هشام ــ الجزء : ٢ ، صفحة ٢٢٨ .

فلما أراد الرسول ان يفعل بعث الى سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله أمراً تحبّه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء اصنعه لكم ، والله ما اصنع ذلك إلا لانني رايت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت ان أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما » . فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لايطمعون ان يأكلوا منها ثمرة الا قِرى او بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نعطيهم اموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فأنت وذاك » ، فتناول سعدبن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : « ليَجهدُوا علينا » .

وهكذا توقفت المفاوضات . وادرك النبي ان الحل الوحيد للمشكلة يكمن في كسر الحصار بمناورة دبلوماسية ، وبدأ يبحث عن مخرج آخر . وسرعان ما اتى هذا المخرج .

كان يوجد بين غطفان رجل يدعى نعَيم بن مسعود فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله ، اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا ان استطعت ؛ فان الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة — وكان لهم نديماً في الجاهلية — فقال : يابني قريظة ، قد عرفتم وُدّي إياكم ، وخاصة مابيني وبينكم ، قالوا : صدَقتَ ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كانتم : البلد بلدكم ؛ فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على ان تحَوّلوا منه الى غيره ، وان قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد واصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا

كأنتم ، فان رأوا نُهزَةً اصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من اشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقةً لكم على ان تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد اشرتَ بالرأي .

ثم خرج حتى اتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش . قد عرفتم وُدّي لكم ، وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقاً ان ابلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، قال : إعلَموا ان معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك ان نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنُعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ، فأرسل اليهم : أن نعم ، فان بَعَثت اليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى اتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيرتي واحبُ الناس إلي ، ولا أراكم تتهمونني ، قالوا : صَدَقتَ ما انت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ثم قال لهم مثل ماقال لقريش ، وحَذَّرهم ما حَذَّرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله ان أرسل ابو سفيان ورؤوس غطفان الى بني قريظة عِكرِمةَ بن ابي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : انا لسنا بدار مُقام وقد هلك الخُفُ والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا اليهم أن اليومَ يوم السبت وهو يوم لانعمل فيه شيئاً ، وقد كان احدث فيه بعضنا حَدَثاً فأصابه مالم يخفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى ان ضرّستكم الحرب واشتد عليكم القتال إن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك .

فلما رجعت إليهم الرُسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :

والله إن الذي حدثكم نُعَيْم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بني قريظة : إنا والله لاندفع اليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمَروا الى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

فأرسلوا الى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهناً فأبَوا عليهم ، وخَذّل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورَهم وتطرح أبنيتهم .

وهكذا قام نُعيم بن مسعود بمهمته على اكمل وجه ، وخرجت بنو قريظة من التحالف . وفي صباح اليوم التالي ، السبت ١٥آذار ، بعد ان سئم خالد وعكرمة من المماطلة ، وادركا انه لا أمل في اي عمل مشترك بين الاحزاب، قررا ان يأخذا زمام المبادرة لتحريك الموقف بأي اتجاه ، فتقدما لى الامام على راس سريتيهما الى مكان يقع الى الغرب من « ضُباب » ، حيث كان الخندق هنا غير عريضٍ ، كما هو الحال في اماكن أخرى ، ويمكن اجتيازه على ظهر حصان أو زحفاً بواسطة مقاتلين راجلين . وكان هذا المكان يقع ايضاً امام معسكر المسلمين عند سفح سَلْع .

تقدمت سرية عكرمة أولاً ، وقفزت مجموعة صغيرة الخندق ، واقتربت الخيل من جانب المسلمين . وكان بين المهاجمين عكرمة ورجل ضخم ، وهذا الرجل ويدعى عمرو بن عبد وُد ، كان يتقدم امام المجموعة على صهوة جواد ضخم ايضاً ، وبدا يراقب المسلمين الذين فوجئوا باقتحام القرشيين للخندق. وفجاة رنع عمرو راسه وزمجر : » انا عمرو بن عبد وُدّ . انا اعظم محارب في الجزيرة العربية . انا الذي لايُقهر انا ... انا ... » . وكان بلا شك معجباً بنفسه . ثم قال : من يبارز ؟

استقبل المسلمون التحدي بصمت . واخذوا ينظرون الى بعضهم بعضاً ، ثم نظروا الى النبي . لكن احداً لم يحرك ساكناً ، لان عمرو كان

مشهوراً بقوته وشجاعته . ومع انه جُرح عدة مرات ، الا انه لم يخسر أية مبارزة ولم يرحم خصماً . وكانت تنسج حوله القصص والحكايات . فكان يقال إنه يعادل خمسمائة فارس ، وانه يستطيع رفع فرس بيديه ويلقيها على الارض ؛ وانه يستطيع ان يحمل عجلاً بيده اليسرى ويستخدمه كترس في القتال ؛ وانه يستطيع كذا وكذا . وكانت هذه القصص عن بطولاته لاتنتهي. وقد تسَنّج الخيال حول هذا المحارب الأساطير .

لذا فقد ظل المسلمون صامتين ، فضحك عمرو استهزاءً وشاركه القرشيون في ضحكته لانهم وقفوا قريبين من الخندق وكانوا يشاهدون ويسمعون كل مايجري .

عندئذٍ تابع عمرو كلامه : « اذن لايوجد بينكم من يملك شجاعة الرجال ؟ اين إسلامكم واين نبيكم ؟ » عند سماع هذا التقريع والتحدي ، ترك عليٌ ابن ابي طالب موقعه في الصف الاول للمسلمين ، واقترب من النبي وطلب منه ان يأذن له بمنازلة عمرو وإخراسه نهائيا . لكن النبي لم يأذن له . فعاد عليٌ الى موقعه .

فكان هنالك موجة اخرى من الضحك والاستهزاء بالمسلمين وتحديهم . فذهب علي مرة ثانية الى النبي . لكن النبي لم يأذن له . ثم تمادى عمرو في تحديه وبشكل مهين اكثر من ذي قبل وقال : « اين جنتكم ؟ هذه الجنة التي تقولون ان من يستشهد في المعركة يدخلها ؟ الا تستطيعون ارسال رجل لمنازلتي؟»

عندئذ ذهب عليٌ للمرة الثالثة الى النبي ، ورأى النبي في عيني عليٍ نظرة يعرفها جيدا ، وعرف ان علياً لايمكن كبح جماحه هذه المرة . فنظر الى عليٍ بحنان ونزع عمامته ولفها على رأس عليٍ ثم اخرج سيفه وطوق به خصر علي ودعا له بالتوفيق .

كان السيف الذي اعطاه النبي لعلي ملكا لمشرك يدعى مُنَبّاً بن حجاج . وقد قُتل هذا الرجل في معركة بدر ، ووصل السيف الى المسلمين كجزء من غنائم الحرب . واخذ النبي السيفَ لنفسه . وبعد ان اصبح هذا السيف بيد

عليّ صار اشهر سيف في الاسلام ، اذ قتَل عدة رجال في مبارزات متكافئة اكثر من أي سيف في التاريخ . وكان هذا السيف يسمى « ذو الفقار » .

خرج علي بن ابي طالب عليه السلام في نفر معه من المسلمين وسار باتجاه المشركين الذين اقتحموا الخندق ووقف النفر على مسافة من عمرو ، وتقدم علي الى مسافة المبارزة منه . كان عمرو يعرف علياً جيدا اذ كان صديقاً لوالده ابي طالب . فضحك عمرو لدى مشاهدته علياً مثلما يضحك الرجل من الصبي .

فنادى عليّ : ياعمرو ، انك كنت قد عاهدت الله الا يدعوك رجل من قريش الى إحدى خلّتين إلا اخذتها منه ، قال له : اجل ، قال له علي : فإني ادعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام ، قال : لاحاجة لي بذلك ، قال : فاني ادعوك الى النزال ، فقال له : لم يا ابن اخي ؟ فوالله ما أُحِبُّ أن اقتلك ، قال له علي : « ولكني والله احب ان اقتلك »[1] ، فحميَ عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، وبدأ القتال .

ضَرَب عمرو علياً عدة ضربات ، لكن علياً لم يصب بأذى . فكان يتلقى الضربة بسيفه او بترسه ، او يتحرك جانبا لتفادي ضربات عمرو . اخيرا بدأ عمرو يتراجع ويتفادى ضربات علي ، وتعجّب عمرو كيف يحدث هذا اذ لم يصمد طويلا اي رجل سبق ان تبارز معه .

ثم تتابعت الضربات بسرعة ، ورمى عليٌ سَيفه وترسَه على الارض واندفع كالسهم واطبق بيديه على خنّاق عمرو ، وبضربة بارعة اخلّت بتوازن عمرو ، سقط عمرو على الارض وقد حدث ذلك بثوان . ثم جلس عليٌ على صدر عمرو وبدأ الهمس يدور في صفوف الجيشين ، وحبس الجميع انفاسهم . تحول الارتباك البادي في وجه عمرو الى غضب . فهو مستلق على الارض وفوق صدره هذا الشاب الصغير الذي يقل حجمه عن نصف حجم عمرو . لكن عمرو لم ينته ، فهو مايزال مصّرا على كسب المبارزة واستعادة مركزه كمحارب فذ . وهو سيلقي بهذا الفتى في الهواء كورقة تذريها الرياح .

---

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٥ .

احمـرّ وجه عمرو ، وانتفخت أوداجه ، واخذت عضلات جسمه تهتـز عندما ضغط على قبضة علي ليبعدها عن عنقه . لكنه لم يستطع زحزحتهـا قيـد أنملـة .

فقال علي : « إعلم ياعمرو ان النصر والهزيمة من عند الله . واني ادعوك الى الاسلام . وبذلك لن تنجو من الموت فقط ، ولكنك ستكسب رضى الله في الحياة الدنيا والآخرة » . ثم استل عليّ خنجرا حادا من نطاقه ووضعه قريبا مـن عنق عمـرو .

لكن هذا كان فوق طاقة عمرو . فهل عليه ان يعيش بقية حياته تحت ظل الهزيمة والعار ؟ وقد اعتبرته الجزيرة العربية احد اعظم ابطالها . وهـل يرضى ان يقال عنه انه قبل بانقاذ حياته في مبارزة لقاء خضوعه واستسلامـه لشروط خصمه ؟ كلا ! ان عمرو بن عبد وُد عاش بالسيف وسيموت بالسيف . فحياته التي قضاها بالعنف يجب ان تنتهي بالعنف . فجمع لُعابه في فمه وبصق في وجه علي !

عرف عمرو ماذا سيحدث . عرف ان عليا سوف يرفع ذراعه الايمـن في الهواء ثم يغرز الخنجر في عنقه . كان عمرو رجلا شجاعا وهو يستطيع أن يواجه الموت بدون وجل . فقـوس ظهره ورفع ذقنه ــ ليقدم عنقه الى عليّ .

لكن ماحدث اثر ذلك تركه في حيرة شديدة . لقد نهض علي بهدوء مـن على صدر عمرو ، ومسح البصاق عن وجهه ، ووقف على بضع خطوات منـه وقـال له :

« إعلم ياعمرو ، انني اقتلك فقط في سبيل الله وليس لدافع آخر . وبما انك بصقت في وجهي ، فان قتلي لك الآن يمكن ان يكون لدافع انتقام . لذا فانني اعفو عنك . انهض وعد الى قومك ! » .

ونهض عمرو . لكن لا معنى لرجوعه الى قومه خاسرا . انه يرغب في ان يعيش منتصرا او لايعيش ابدا . فالتقط سيفه في محاولة اخيرة لاحراز النصر، وهجم على علي اذ ربما يصيبه على حين غرة .

كان لدى علي وقت كاف لالتقاط سيفه وترسه والاستعداد لتلقي الضربة . وكانت الضربة التي سدّدها عمرو الآن وهو في حالة من اليأس والغضب اشدّ ضربة في المبارزة . لقد حطّم بسيفه ترسَ علي ، لكنه لم يستطع ان يؤثر سوى احداث جرح غير عميق في صدغ علي . وكان الجرح ابسط من ان يزعج علياً . وقبل ان يتمكن عمرو من رفع سيف مرة اخرى ، تلألأ ذو الفقار في ضوء الشمس وهوى على عمرو محدثا جرحا عميقا في عنقه . وتدفق الدم من عمرو كالنافورة .

وقف عمرو للحظات بدون حراك ، ثم بدأ جسمه يترنح كالثمِل . ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة .

لم تهتز الارض عند اصطدام ذلك الجسد الضخم بها ، فالارض ثابتة جداً . لكن تل سَلْع اهتزّ من صيحة « الله اكبر » التي انطلقت من حناجر ألفَيْ مسلم . وسُمع صدى صيحة النصر في طول الوادي وعرضه قبل ان تهدأ في قلب الصحراء . بعد ذلك ، انقضّت مجموعة المسلمين على الستة الباقين من قريش . وبنتيجة الاقتتال الذي جرى بالسيوف ، قُتل قرشيٌ آخر كما سقط مسلم واحد . وبعد بضع دقائق انسحبت مجموعة القرشيين وعادت بسرعة عبر الخندق . وسقطت حربةُ عكرمة اثناء قفزه فوق الخندق ، ونَظَم الشاعر حسّان بن ثابت شعراً كثيراً حول هذه الحادثة . ولم ينجح رجل يُدعى نوفل بن عبد الله ، وهو ابن عم خالد ، في اجتياز الخندق وسقط فيه . وقبل ان يتمكن من النهوض ، وصل المسلمون الى حافة الخندق ورموه بالحجارة . فقال لهم : « يا معشر العرب قِتْلَةٌ احسن من هذه[1] » . فنزل إليه عليٌ فقتله .

عادت الآن مجموعة المسلمين الى المعسكر ، ووُضِعَتْ حراسةٌ مشدّدة على مكان العبور .

بعد ظهر اليوم التالي ، تحرك خالد بسريته ، على أمل ان ينجح حيث فشل عكرمة . وحاول ان يعبر الخندق ، ولكن الحراس المسلمين الواقفين على

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٢٤٠ .

نقطة العبور شاهدوه في هذا الوقت ، فتقدموا وانتشروا على الخندق لمنع عبور خالد . وتم تبادل رمايات كثيفة بالنبال فقتـل مسلمٌ وقرشيٌ ، ولم يستطع خالد العبور .

وبما ان المقاومة الفورية التي ظهرت عند الخندق كانت شديدة بحيث لا يمكن التغلب عليها ، فقد قرّر خالد ان يلجأ الى الخدعة . فتحرك بسريته الى الخلف وكأنه تخلى عن نيته في عبور الخندق ، ووضعها على مسافة من الخندق . فانطلت الحيلة على المسلمين اذ اعتقدوا ان خالد قد تخلّى عن محاولة عبور الخندق ، وانسحبوا وبدؤوا في الاسترخاء ، وهم ينتظرون سكون الليل وهدوءه . وفجأة عاد خالد بسريته ، وقبل ان يتمكن الحراس المسلمون من الانتشار مرة ثانية ، عبر الخندق رهطٌ من القرشيين بقيادة خالد . ولم يكد يتقدم هذا الرهط عبر الخندق ، حتى انتشر المسلمون بسرعة واستطاعوا ايقاف خالد عند رأس الجسر الذي استطاع ان يحتله . (انظر الخريطة رقم ٣) . وحاول خالد ان يتابع التقدم ، لكن مقاومة المسلمين كانت قوية جداً ، ولم يحقق نجاحاً . وحدث اشتباك بالايدي بين رهط القرشيين والحراس المسلمين فَقَتَل خالد احد المسلمين . وكان « وحشي » موجوداً مع رهط القرشيين ، فَقَتَل مسلماً بنفس المزراق الذي قتل به حمزة . وقبل ان يَمضي وقت طويل ، انسحب خالد عبر الخندق بعـد ان رأى ان الموقف ميئوسٌ منه . وكان هذا الاشتباك آخر عمل عسكري رئيسي في معركـة الخندق .

وفي اليومين التاليين لم يحدث اي نشاط سوى تبادل رمايات متفرقة بالنبال ، والتي لم تؤثر على احد من الجانبين . وبدأ طعام المسلمين بالنفاذ ، لكن شجاعتهم كانت اقوى من يأسهم ففضلوا الموت جوعاً على الاستسلام للمشركين . اما في معسكر الاحزاب فبدأت الروح المعنوية بالانهيار وبدأ التذمر بالظهور . وعرف كل واحد بان الحملة التي كان من المتوقع ان تقود الى نصر مبين ، انتهت بالفشل . وانتشرت البلبلة بين الصفوف ، واصبح الموقف لا يطاق لان احدا لم يستطع ان يجد مخرجا من هذا المأزق .

وفي مساء الثلاثاء ، الثامن عشر من آذار ، هبت على منطقة المدينة عاصفة هوجاء . وبدأت الرياح الباردة تعصف بمعسكر الاحزاب وتحدث صريرا عبر الوادي . وانخفضت درجات الحرارة . كان معسكر الاحزاب اكثر تعرضا للعاصفة من معسكر المسلمين . وبَدَا كأن الرياحَ تريدُ أن تنتقم من الاحزاب . فأطفأتْ النيران ، وقَلَبَتْ قدورَ الطعام ، واقتلعتْ الخيام . واندس المشركون تحت اغطيتهم وعباءاتهم إتقاء العاصفة ، وهم ينتظرون نهاية لحالتهم ، هذه النهاية التي يبدو انها لن تأت .

لم يستطع ابو سفيان ان يتحمل اكثر من ذلك . فنهض واقفا ، وصاح بأعلى صوته مخاطبا رجاله : « يامعشر قريش ، انكم والله مااصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والخُفُّ واخْلَفَتْنا بنو قريظة ، وبَلَغَنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدّة الريح ماتَرَوْنَ ، ماتطمئن لنا قدْرٌ ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مُرتَحِلٌ » [1] . ثم قام الى جملة وهو مَعْقُول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، وانطلق هو ورجاله مبتعدين عن العاصفة الشديدة . وسمعت غَطَفَان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم . وهكذا عادت الأحزاب الى ديارها . وكان خالد وعمرو بن العاص يسيران بسريتيهما في مؤخرة جيش قريش بمهمة حرس مؤخرة خوفا من قيام المسلمين بمطاردتهم . كان الأمرُ قاسيا بالنسبة لأبي سفيان الذى عاد بجيشه الى مكة ، كما ان وطأة الفشل كانت ثقيلة على صدره .

وفى صباح اليوم التالى وجد المسلمون ان الاحزابَ قد ذهبت ، فعادوا الى منازلهم في المدينة . كانت هذه هي المحاولة الاخيرة التي قام بها القرشيون لسحق المسلمين ، حيث ظلوا بعد ذلك في وضع دفاعي .

انتهت غزوة الخندق . وقد خسر كل جانب اربعة اشخاص . وكانت هذه الغزوة نصرا للمسلمين لانهم حققوا هدفهم بالدفاع عن انفسهم وعن بيوتهم ضد الاحزاب ، بينما فشلت الاحزاب في محاولتها للقضاء على المسلمين . وفي الحقيقة ، فشلت الاحزاب في احداث أي ضرر للمسلمين . استمر الحصار

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٢٣٢ .

ثلاثة وعشرين يوما وكانت وطاته شديده على كلا الجانبين . لقد انتهى الحصار بسبب هبوب العاصفة ، لكن هذه العاصفة لم تكن سبب رفع الحصار . لكنها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير . وللدقة في التعبير ، فان هذه العملية كانت حصارا ومجابهة اكثر من كونها معركة ، لان الجيشين في الحقيقة ؛ لم يشتبكا في القتال .

كانت هذه الغزوة اول مثل في التاريخ الاسلامي على استخدام السياسة والدبلوماسية في الحرب ، وهي تظهر تفاعل السياسة والقوة في تحقيق الهدف القومي . وان استخدام القوة المسلحة ـ وهي احدى الملامح العنيفة للحرب ـ يتم فقط عندما تفشل الاجراءات السياسية في تحقيق هدف الدولة . وعندما يصبح استخدام السلاح امرا لامفر منه ، تقوم السياسة مع أداتها الرئيسية وهي الدبلوماسية ، بتمهيد الطريق لاستخدام القوة المسلحة . فهي تهيّيء المسرح ، وتُضعف العدو ، وتقلّل قوته الى درجة معينة بحيث تستطيع القوة المسلحة أن تُستخدم ضده مع اقصى احتمال للنجاح .

وهذا مافعله الرسول (ص) تماما . فقد استخدم اداة الدبلوماسية لبذر الشقاق في صفوف العدو واضعافه ، ليس من حيث العدد فقط ولكن من حيث الروح المعنوية ايضا . ولم يستطع معظم المسلمين ان يدركوا ذلك ، لكنهم كانوا يتعلمون من قائدهم . ان كلمات النبي : « الحرب خدعة » (1) بقيت تتردد وتستخدم في حملات المسلمين فيما بعد .



(1) ابن هشام ـ جزء ٢ ، صفحة ٢٢٩ ، الواقدي : المغازي ـ صفحة ٢٩٥

إسلام خالد

وُقّعت معاهدة الحديبية في اوائل نيسان عام ٦٢٨ م (اواخر ذي القعدة عام ٦ هـ) . لم يكن قصدُ النبي توقيع مثل هذه المعاهدة عندما انطلق الى مكة في منتصف شهر آذار . كان قصده أداء العمرة ، واخذ معه ألفا واربعمائة مسلح من المسلمين وعددا كبيرا من المواشي للتضحية .

على اية حال ، خشي القرشيون ان يكون المسلمون قادمين لقتالهم واخضاعهم في عقر دارهم ، لان زمام المبادرة الآن اصبحت بيد المسلمين . ونتيجة لذلك ، خرج القرشيون من مكة وتحشّدوا في معسكر قريب ، ومن هنا أُرسل خالد الى الامام على رأس ثلاثمائة خيال وسار على الطريق المؤدية الى المدينة لاعتراض جيش المسلمين . ووصل الى « كُراع الغَميم » ، وهي تبعد خمسة عشر ميلا عن عسفان ، ووضع قوته في ممر لقفل الطريق أمام المسلمين في هذه المنطقة الجبلية [١] . (انظر الخريطة رقم ٤) .

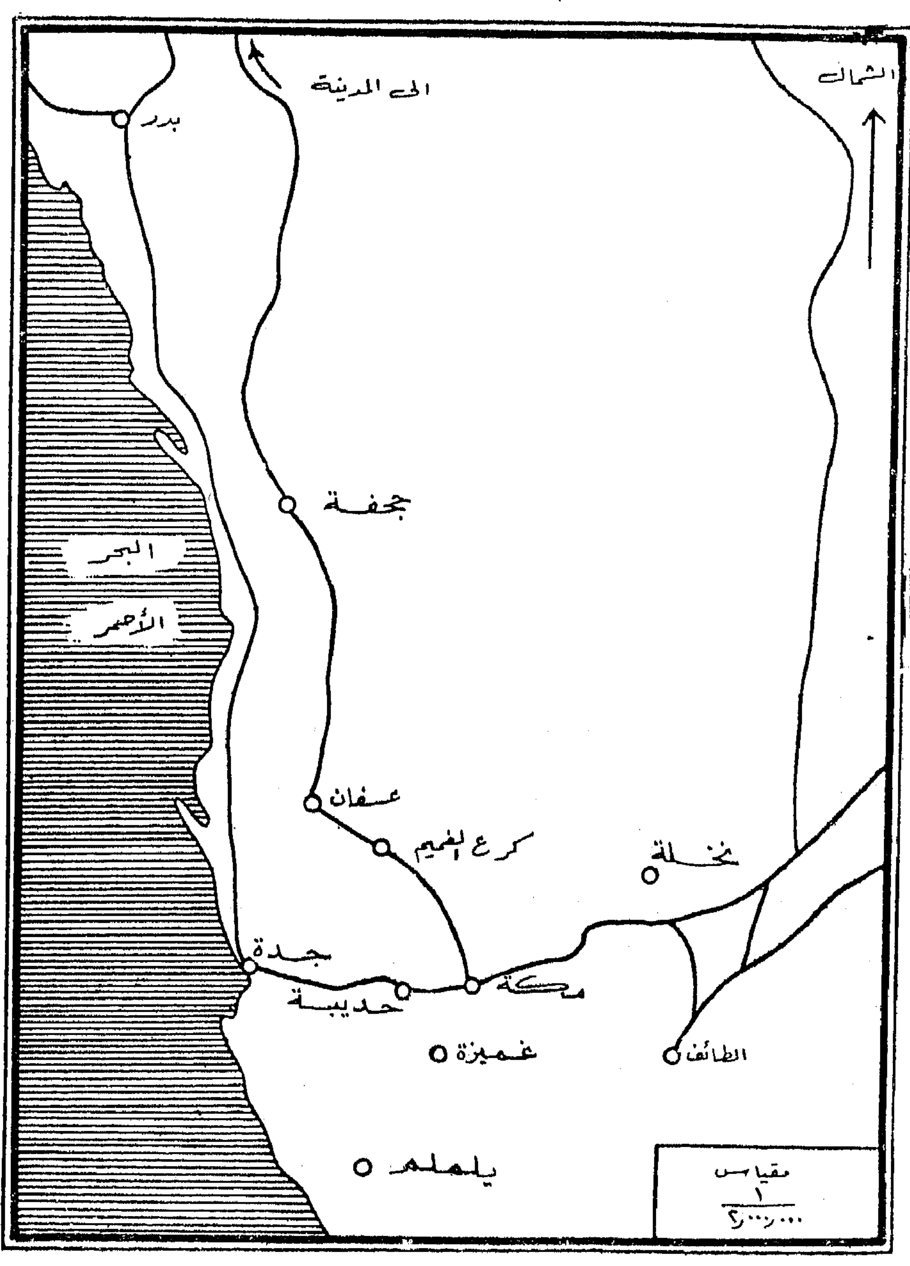
وعندما وصل المسلمون الى عسفان ، كانت تتقدم امامهم مفرزة تضم عشرين خيّالا بمهمة استطلاع . اصطدمت هذه المفرزة بقوة خالد في كُراع الغَميم ، وأعلمت النبي الموجود في عسفان عن موقع خالد وقوته .

قرر النبي ان لايضيع وقتا في القتال في هذا المكان . وكان حريصا على تجنب سفك الدماء ، لان قصده كان أداء العُمْرة وليس القتال . فأمر مفرزته

---

(١) ان كُراع الغميم هذه ليست كُراع المحمّلة على الخرائط الحديثة . وكُراع المحمّلة على الخرائط الحديثة تقع في خليج صغير على البحر الاحمر ، بينما كُراع الغميم القديمة تقع في منطقة جبلية ، تمتد غربا حتى البحر ، جنوب شرق عُسفان .

الخريطة رقم ٤ - فتح مكة - ١



المتقدمة بالبقاء على تماس مع خالد وجذب أنتباهه لها ، وفي نفس الـوقت حرّك جيشه من اليمين ، سالكا دروبا ضيقة تمر في منطقة جبلية ليست بعيدة عن الساحل تؤدي الى ممر يعرف باسم « ثَنيَّة المُرار »[1] كـان المسـير شاقا ، لكنه تحقق بنجاح وامكن تفادي موقع خالد . وعندما شاهد خـالد غبارَ رتل المسلمين من مسافة بعيدة ، ادرك ماحدث واسرع بالانسحاب الـى مكة . وتابع المسلمون مسيرتهم حتى وصلوا الى الحديبية ، التي تبعد ثلاثة عشر ميلا الى الغرب من مكة ، حيث اقاموا معسكرا .

وفي الحديبية ، بدت المعركة وكأنها وشيكة الوقوع لبعض الوقت علـى الرغم من رغبة النبي في تجنب سفك الدماء . وحصلت بعض المناوشات ، لكن لم تقع خسائر . وبعد بضعة ايام ، تحقق القرشيون من ان المسلمين قـد أتوا فعلا لاداء العمرة وليس للقتال . بعد ذلك بدأت المفاوضات بين الجيشين بواسطة المبعوثين ، واخيرا تم الاتفاق على عقد هدنة اصبحت تعرف فيما بعد باسم « معاهدة الحديبية » . ووقّع عليها النبي نيابة عن المسلمين ، ووقّـع عليها سهيل بن عمرو عن القرشيين . وكانت شروطها كما يلي :

١ ـ قيام هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .

٢ ـ يعود المسلمون هذا العام من غير عَمْرة ليعودوا في العام الثاني فيؤدوها .

٣ ـ عدم التزام قريش باعادة كل مسلم يأتي اليها مرتدا عن الاسلام الـى الديـن الاسلامي .

٤ ـ عدم قبول أي رجل من قريش يأتي الى الرسول مسلما الا بأذن وليه .

٥ ـ ان يكون لكل قبيلة حرية الانضمام الى المسلمين او القرشيين .

وقد ثار بعض المسلمين احتجاجا على البندين الثالث والرابع ، وخاصـة عمر الذي احتج على ذلك ، لكن جميع الاحتجاجات تم تهدئتها بواسطة النبي . ولقـد حققت الهدنة للمسلمين عمليا مزايا واضحـة وراسخة على المـدى

---

(١) كان هذا الممر يسمى ايضا « ذات الحنظل » ـ ابو يوسف : صفحة ٢٠٩ .

البعيد ، على الرغم من ان هذه المزايا لم تكن ظاهرة ، عند توقيع الهدنة لكل شخص . ومن مزاياها بالنسبة للمسلمين انها تظهرهم بمظهر السخاء في شروطهم ، وهذا ذو تأثير نفسي على القبائل العربية لانه يعطي الثقة بأن المسلمين كرماء في تعاملهم مع المشركين . علاوة على ذلك ، فاذا لم يُسمح لبعض المسلمين بمغادرة مكة ، فانهم سيكونون عونا وآذانا للمسلمين في وسط العدو ، ويمكنهم ان يؤثروا على أهل مكة في حالات معينة . كما ان وجودهم في معسكر قريش سوف يكون في الحقيقة مصدرة قوة للمسلمين . وقال النبي إن أي رجل يرغب في الانضمام الى المسلمين ، فان الله يجعل له فرجا ومخرجا .

ونتيجةً للبند الخامس من المعاهدة ، انضمت قبيلتان الى الطرفين : « فتواثبَتْ خُزاعة فقالوا نحن في عقد رسول الله وعهده وتواثبتْ بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم »[1] . وكانت هاتان القبيلتان في عداء مستمر ونزاع مستحكم منذ الجاهلية .

بعد أن مكث المسلمون في الحديبية مايزيد عن اسبوعين ، عادوا الى المدينة . وفي السنة التالية ، في آذار ٦٢٩م (ذي القعدة ٧ هـ) ، أدى المسلمون العمرةَ بقيادة النبي . وأخلى القرشيون مكةَ وسكنوا في المنطقة المحيطة بها مدة ثلاثة أيام ، ولم يعودوا الى منازلهم حتى غادر المسلمون مكة .

بعد مضي بعض الوقت ، حدث تغير في تفكير خالد . ففي البدء كان يفكر بشكل رئيسي في الامور العسكرية والاهداف العسكرية . ولما كان يعرف مقدار إمكانيته وبسالته الحربية ، فقد كان يشعر بانه يستحق أكاليل الغار عن جدارة ، ولكن النصر كان يفلت منه بشكل او بآخر . ففي غزوة احد ، استطاع المسلمون أن يتجنبوا هزيمة كبيرة على الرغم من مناورته البارعة . وقد أعجب بترتيب القتال الذي نظّمه النبي ، وبالطريقة التي قاد فيها المعركة ضد القرشيين على الرغم من تفوقهم عليه عدديا . كذلك ابتعد النصر عن القرشيين في غزوة الخندق . انطلق القرشيون الى المعركة بعد ان اتخذوا كافة التدابير والاحتياطات وحشدوا قوة كبيرة لدرجة ان النصر كان يبدو

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٢٨١

مؤكداً ؛ لكن الخندق الذي حفره المسلمون أنتزع هذا النصر من أيديهم . اندفع جبش قريش كالأسد وعاد كالفأر . وفي حملة الحديبية ، عندما حاول خالد ان يعترض تقدم المسلمين ، تفوق عليه النبي في المناورة التي اجراهـا بينما كان انتباه خالد مُنْصَبّاً على المفرزة الصغيرة من المسلمين التي كانت تسير امام قوة النبي . كان خالد يفكر في هذا الرجل ، ولم يستطع ان يخفي اعجابه بالصفات التي يتحلى بها ، وهذه الصفات :

القيادة ، والخُلُق ، وقوة الشخصية التي لم يجدها في احد غيره .

علاوة على ذلك ، كان خالد يرغب في صدام المعارك وفي احراز النصر ، وكانت روحه العسكرية تبحث عن المغامرة العسكرية ، فلم يجد مع قريش سوى الكوارث والنكبات .

ولم يستطع أن يَرى أيةَ بارقةِ امل في خوض معارك ناجحة الى جانب القرشيين . وربما ينضم الى النبي ، حيث يجد الى جانبه آفاقاً واسعة من النصر والمجد .

كان يوجد نشاط عسكري كبير في المدينة . وكانت بين الفينة والاخرى ترسل حملات ضد قبائل المشركين ، إما لتشتيت التحشدات المعادية قبل ان تشكل خطرا على المسلمين ، او للاستيلاء على الجمال والمواشي . ففي الفترة بين غزوة أحد واداء العَمْرة ، قام المسلمون بثمانية وعشرين حملة ، بعضها كان بقيادة النبي شخصيا والبعض الآخر بقيادة قادة عُينوا من قبله ؛ وانتهت هذه الحملات بنجاح كامل باستثناء عدد قليل جدا . وغزوة خيبر كانت أكبر هذه الحملات ، حيث سُحقت آخر مقاومة لليهود . لم توسّع هذه الحملات الحدود السياسية فقط للإسلام ، لكنها تسببت أيضاً في زيادة كبيرة في الثروة . وكلما وصلت التقارير عن الانتصارات العسكرية للمسلمين الى مكة ، كان خالد يفكر بشوق في النشاطات التي يقوم بها المسلمون والتي تسبب السرور في النفس . وكان يتمنى بين الحين والآخر ان يكون في المدينة مركز هذا النشاط .

بعد اداء العمرة من قبل النبي ، بدأ الشك يخامر خالد فيما يتعلق بمعتقدانه الدينية . لم يكن في يوم من الايام متديناً ولم يكن ميالاً الى آلهة الكعبة . وكان فكره دائماً « متفتحاً » . وها قد بدأ الآن بالتفكير بإمعان في الأمور الدينية ، لكنه لم يُفصح عن أفكاره هـذه لأحد . وفجأة شعر بأن الاسلام هو الدين الحقيقي . حدث هذا بعد عَمْرة النبي بحوالي شهرين .

بعد ان استقر رأيه حول الاسلام ، قابل خالدٌ عكرمةً وآخرين وقال لهم : من الواضح للعقل النير ان محمداً ليس شاعراً ولا ساحرا ، كما تزعم قريش . ورسالته من عند الله . ومن واجب كل ذي بصيرة ان يتبعه .

صُعق عكرمة بكلمات خالد وقال : « هل ستتخلى عن ديننا ؟ » .

فقال خالد : « قررت ان أؤمن بالإله الحقيقي » . فقال عكرمة : « من الغريب حقاً ان تقول انت مثل هذا القول من بين القرشيين » . فقال خالد : « لماذا ؟ » قال عكرمة : « لان المسلمين قتلوا الكثير من ابنائنا في المعارك . وبالنسبة لي فانني بالتأكيد لن أؤمن بمحمد ، وسوف لن أكلمك الى ان تتخلى عن هذه الفكرة غير المعقولة . الا ترى ان قريش تطلب دم محمد ؟ » .

فأجاب خالد : « انها مسألة جهل ؟ » .

وعندما سمع ابو سفيان من عكرمة عن تحول خالدٍ عن عقيدته ، استدعى البطلين : خالد وعكرمة . ثم سألَ خالداً : « اصحيح ماسمعت ؟ » فقال خالد : « وما سمعت ؟ » قال ابو سفيان : « بأنك ترغب في الانضمام الى محمد . » فقال خالد : « نعم ، ولم لا ؟ فمحمد واحد منا وقريبنا . » .

غضب ابو سفيان وهدّد خالداً بالعواقب الوخيمة التي تترتب على ذلك ، لكن عكرمة كبح جماح غضبه وقال له : « اهدا يا ابا سفيان . فان غضبك سيقودني أيضاً للانضمام الى محمد . فخالد حرٌ في أن يختار الدين الذي يرغبه . » وهكذا وقف عكرمة الى جانب خالد على الرغم من الاختلافات الدينية بينهما .

---

(١) لواقدي : المغازي ــ صفحة ٣٢١

في تلك الليلة ، اخذ خالد درعه ، وسلاحه ، وفرسه وانطلق الى المدينة . وفي الطريق قابل عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (ابن حامل راية قريش في غزوة احد) اللذين كانا متوجهين الى المدينة لنفس الغاية ؛ وقد استغربوا أمر ذهابهم للمدينة لان كل واحد منهم كان يعتبر الاثنين الآخرين من الدّ اعداء المسلمين . وصل الثلاثة الى المدينة في الحادي والثلاثين من أيار عام ٦٢٩ م (الاول من صفر عام ٨ هجرية) ، وذهبوا الى منزل النبي . دخل خالد أولاً واسلم . ثم تبعه عمرو ثم عثمان . وقد رحّب بهم النبي ؛ وصفح عن عداوتهم السابقة ،وهم الآن يستطيعون ان يبدؤوا صفحة بيضاء . كان خالد وعمرو بن العاص المع عقلين عسكريين في زمانهما ، ودخولهما الاسلام حقق النصر للمسلمين في السنوات التالية .

كان خالد ، الذي بلغ الآن الثالثة والاربعين ، مسروراً لوجوده في المدينة . فقابل اصدقاءه القدامى ووجد انه موضع حفاوة وتكريم من الجميع .

وتم نسيان النزاعات القديمة . وسادت المدينة روح جديدة ــ انها روح الرجال الطلائع . وعمّ النشاطُ ، والترقب المزوج بالامل ، والحماسة ، والتفاؤل ، ارجاء المدينة ، وتفاعل خالد بهذا الجو الذي لمس شغاف قلبه . وكان سعيداً بالدين الجديد .

وقابل خالدٌ عُمَرَ ايضا وعادا صديقين مرة اخرى . لكن بقيت آثارٌ قليلة من التنافس القديم بينهما عالقة في عقليهما الباطنين ولم يظهر ذلك بشكل مقصود . وإيقن خالد الآن ان تنافسه مع عمر لم يكن في صالحه ، لكونه دخل في الاسلام حديثاً بينما كان عمر مهاجراً وترك بيته في مكة . وكان عمرُ الرجل الاربعين الذي اعتنق الاسلام . وعندما كان المسلمون في مكة فان عُمَرَ كان لا يستطيع ان يتباهى كثيراً بالحصول على هذا المركز ، لان عَدَدَ المسلمين كان وقتئذٍ قليلاً ، اما الآن وقد دخل في الاسلام الآلاف ، فانه مع هذا العدد الكبير مرشحٌ لنيل مركز هام بسبب كونه الرجل الاربعين في الاسلام . إن خالداً الآن ينافس رجلاً ليس فقط يوازيه بالقوة والارادة والقدرة ، ولكنه ينافس مسلماً رقمه اربعون .

عكف خالد على زيارة النبي باستمرار . وكان يستمع ساعات الى احاديث النبي . وتعلم الحكمة والفضيلة على يدي رسول الله . وفي أحد الايام زار خالدُ وفضلُ بن عباس (ابن عم النبي) الرسول في منزل زوجته ميمونة ، وهي عمة خالد . وكان أحد الاعراب قد ارسل طعاماً مطبوخاً هدية للنبي ، وكعادته طلب النبي من الضيوف ان يبقوا ويقاسموه الطعام . ففرش بساط على الارض وجلسوا حوله جميعاً ـ النبيُ ، وزوجته ، والضيفان .

وعندما مدّ النبي يده الى الطعام ، سألته ميمونة فيما اذا كان يعرف نوع الطعام الذي احضره الاعرابي . لكن النبي لم يكن يعرف ما هو . فقالت له ميمونة بان الطعام عبارة عن عظاية[1] مشوية . عندئذٍ سحب النبي يده وقال انه لا يأكل هذا النوع من الطعام . فسأله الضيفان فيما اذا كان محرّماً . فقال لهما انه ليس محرّماً وان بامكانهما اكله . كذلك احجمت ميمونة عن الطعام . اما خالد وفضل فقد اتيا على الطعام أذ ان هذا النوع من الطعام كان مألوفاً بين أعراب البادية [2] .

---

(١) العظاية نوع من الضّبّ .

(٢) اخذت حادثة الطعام هذه من ابن سعد ـ صفحة ٣٨١ . وهذه الحادثة غير معروفة كثيرا.

مؤته وسيف الله

بعد وصول خالد الى المدينة بثلاثة اشهر ، سنحت له الفرصة ليظهر ما يستطيع ان يفعله ، كجندي وكقائد ، للدين الذي اعتنقه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً الى امير بصرى الغساني[1]، وحمّله رسالة تدعو هذا الزعيم لاعتناق الاسلام . وعند وصول المبعوث الى مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني ، وقتله . واعتبرت هذه الجريمة عملاً شائناً بين العرب ، لان المبعوثين الدبلوماسيين كانوا يتمتعون بحصانة تقليدية ضد اي اعتداء بالرغم من عداوة الجانب الذي يمثلونه . واثارت انباء هذا الاعتداء الغضب في المدينة .

واعِدّت حملة في الحال لتاديب قبيلة غسان ، وعيّن النبي زيد بن حارثة قائداً للحملة وقال : « إن اصيب زَيدٌ فجعفر بن ابي طالب على الناس ، فإن اصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحة على الناس » . فتجهز الناس ثم تهيّؤوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف . وكان خالد من بينهم ، جندياً ضمن صفوف المسلمين . اسند النبيُّ المهمة الى زيد وهي تتلخص في البحث عن الرجل المسؤول عن جريمة قتل المبعوث المسلم ، وقتله ، ثم الطلب الى اهل مؤته ان يدخلوا في الاسلام . فاذا قبلوا ذلك فلن يلحق بهم اي اذى . وعندما انطلقت قوات المسلمين لم تكن تعرف مقدار قوة العدو الذي ستقاتله .

كانت المعنويات مرتفعة عندما بدات قوة المسلمين بالسير من المدينة . ثم مَضَوْا حتى نزلوا مَعَان من ارض الشام ، فبلغ الناس ان هرقل قد نزل

(۱) قبيلة غسان قبيلة كبيرة وذات باس ، كانت تقطن سورية والاردن .

مآب من ارض البلقاء في مائة الف من الروم ، وانضم اليهم من لَخْمٍ وجُذَامَ والبقين وبهراء وبكيّ مائةَ الفٍ منهم عليهم رجلٌ من بكيّ ثم احد إراشه يقال له : مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين اقاموا على مَعَانَ ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعَدَدِ عَدُوِّنا ، فإما ان يُمدّنا بالرجال ، وإما ان يأمرنا بأمره فنَمْضِيَ له ، قال : فَشَجَّعَ الناس عبدُ الله بن رَوَاحة وقال : ياقوم ، والله إن التي تكْرهونَ لَلّتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعَدَدٍ ولا قوّة ولا كَثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي إحدى الحُسْنَيَيْن إما ظُهُور وإما شهادة ، فقال الناس : قَدْ والله صَدَقَ ابنُ رَوَاحَة ، فمضى الناس ، فقال عبد الله بن رواحة أبياتاً من الشعر لاثارة الحماس ورفع المعنويات[1] .

ووصل المسلمون الى تخوم البلقاء خيث لقيتهم جموع هرقل من الروم والغساسنة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤْتة ، ، فالتقى الناس عندها فتَعَبَّأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له : قطبة بن قتادة وعلى مَيْسَرَتِهم رجلاً من الانصار يقال له : عَبَايه بن مالك ثم التقى الجانبان استعداداً للقتال . حدثَ ذلك في الاسبوع الثاني من ايلول عام ٦٢٩م (الاسبوع الثالث من جمادى الاولى عام ٨ هجرية) . نَظّم زيدٌ قواتِه بالاسلوب العادي وهو : القلب والميمنة والميسرة . وكانت الميمنة كما ذكرنا بإمرة قُطْبة والميسرة بإمرة عَبَايهَ ، وأما القلب فكان بإمرة زيد نفسه ، وكان خالد في القلب أيضا . كان ميدان المعركة يقع الى الشرق من قرية مؤتة الحالية بحوالي ميل واحد . والارض هنا منبسطة ، لكن يوجد بها تموج طفيف ، كما ان الانحدار الخفيف للسلسلة الجبلية غير المرتفعة يقع خلف المسلمين عندما يواجهوا الغساسنة الى الشمال[2] .

---

(١) لكنني أسأل الله مغفرة … وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
او طعنة بيدي حران مجهزة … بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا
حتى يقال اذا مرّوا على جدثي … أرشده الله من غاز وقد رشدا

(٢) شيدت الحكومة الاردنية مسجدا في مكان معركة مؤتة .

شكّل الفساسنة ، الذين كانوا بقيادة مالك بن زافلة ، قواتهم على شكل كتلة عميقة لمواجهة المسلمين . وقد قدّر بعض المؤرخين ان قواتهم بلغت مائة الف ، بينما يضاعف البعض الآخر ذلك الرقم . ان هذه التقديرات لا شك انها خاطئة . ربما كانت قوات العدو تتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر الفاً . وفشل المسلمون في هذه المعركة . فلو كان تعدادُ الاعداء ضعف عدد المسلمين فقط ، لتمكن المسلمون من دحرهم بدون شك ، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين عدة مرات وهذا ما مكّنهم من الحاق الهزيمة بالمسلمين . وعلى هذا الاساس تم تقدير قوات العدو بين عشرة آلاف وخمسة عشر الفا .

بدات المعركة ، والتحم الجيشان . فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى قتل ، ثم اخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى اذا النحَمَهُ القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فَعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ . وهنا بدات الفوضى تدب في صفوف المسلمين ، لكن عبد الله بن رواحة اخذ الراية بسرعة ، ثم تقدم بها – وهو على فرسه – واستطاع ان يستعيد النظام . ثم قاتل حتى قتل ايضا .

الآن بدات الفوضى في صفوف المسلمين . اذ هرب بعضهم من ساحة المعركة ، لكنهم توقفوا على مسافة ليست بعيدة عنها . واستمر البعض الآخر في المقاومة بشكل غير منظم بمجموعات صغيرة تتألف من شخصين أو ثلاثة او اكثر . ولحسن حظ المسلمين ، لم يستغل العدو النجاح ، فلو فعل ذلك لتمكن من ابادة المسلمين الذين كانوا بدون قائد . وربما يرجع سبب ذلك للبسالة والشجاعة التي اظهرها قادة المسلمين ، وكذلك للجراة التي قاتل بها المسلمون مما جعل العدو يتخلى عن القيام باعمال حاسمة وجريئة ضدهم .

عندما سقط عبد الله ، اخذ الراية ثابت بن أرقم ، فقال : « يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا انت ، قال : ما انا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد » . فأخذ خالد الراية وتولى القيادة .

اصبح الموقف الآن خطيرا ومن الممكن ان يتحول بسهولة الى ما هو اسوأ ، ويؤدي الى هزيمة تامة للمسلمين . لقد اظهر القادة الذين تولوا القيادة قبل خالد شجاعة اكثر مما اظهروه من فن القتال والدراية في هذه المعركة . استعاد

خالد السيطرة على جيشه الصغير ووضعه بترتيب قتال منسق . وكان عليه ان يختار احد الحلول الثلاث التالية : الاول ، ان ينسحب وينقذ المسلمين من الدمار،ولكن هذا الحل يعتبر هزيمة وسيُلام على جلبه العار لجيش المسلمين. والثاني ، ان يتحول الى الدفاع ويستمر في القتال ، وفي هذه الحالة فان التفوق في قوة العدو سيؤدي الى انهاء المعركة لصالح العدو . اما الثالث ، فهو ان يهاجم ويقلب توازن العدو ، وبذلك يكسب خالد مزيدا من الوقت لدراسة الموقف ووضع افضل خطة للعمل . كان الحل الثالث هو اقرب الحلول لطبيعة خالد ، لذا قرر تبنيه .

هاجم المسلمون بعنف على طول الجبهة . واندفعوا للامام وفي مقدمتهم خالد . ان المثل الذي ضربه خالد قد اثار الحمية والشجاعة في صفوف المسلمين ، وازدادت المعركة عنفا . واستمر القتال القريب بين الجانبين لبعض الوقت ،واندفع قطبة ، الذي كان يقود ميمنة المسلمين ، الى الامام وقتل القائد الفسّاني « مالك » في مبارزة . وادى ذلك الى تثبيط معنويات العدو ، والى حدوث نوع من الفوضى في صفوفه . وانسحب الآن الفساسنة وهم لا يزالون يقاتلون ، على امل ان يكسبوا الوقت لاعادة تنظيم صفوفهم . وفي هذه اللحظة ، كان خالد يتناول السيف العاشر ، حيث كسر قبل ذلك تسعة سيوف في مبارزات عنيفة .

عندما تراجع المسلمون ، جمع خالد قواته وقطع التماس مع العدو وانسحب مع قواته بعيداً الى الخلف . واصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال ، وكان كلاهما يلتمس الراحة واعادة التنظيم . وانتهت هذه الجولة من المعركة لصالح المسلمين ، وفقد المسلمون حتى الآن اثني عشر رجلا فقط . اما العدو فلا توجد معلومات عن مقدار خسارته ؛ لكنها لاشك كانت جسيمة ، لان كل قائد من قادة المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعاً ومقاتلاً بارعاً ، كما ان السيوف التي كسرت بيد خالد لاشك انها كسرت في اجساد الاعداء . وعلى كل الاحوال ، فان الموقف لم تظهر اى امل في نجاح آخر المسلمين . لقد ابعد خالد الهزيمة عن المسلمين وانقذهم من العار

والكارثة ؛ لكنه لم يستطع أن يفعل اكثر من ذلك . وفي المساء ، سَحَبَ خالدٌ جيشه من مؤتة وبدأ رحلة العودة الى المدينة .

عندما وصلت انباءُ عودة الجيش الى المدينة ، خرج النبي والمسلمون الذين بقوا في المدينة لملاقاة الجنود العائدين . كان المسلمون في حالة نفسية سيئة ، لانه لم يسبق لهم منذ غزوة أحد ان يقطعوا التماس مع العدو ويتركوه يسيطر على ميدان المعركة . وعندما وصل الجيش الى مشارف المدينة ، اخذ الناسُ يحثون على الجيش التراب ويقولون : « يافُرّارُ فَرَرْتُم في سبيل الله » . لكن النبي هَدّاهُم وقال : « ليسوا بالفُرّار ولكنّهُمُ الكُرّار ان شاء الله » [1] . ثم قال النبي بصوت مرتفع : « ان خالدَ سيفٌ من سيوفك فأنت تنصره » [2] . فمنذ يومئذٍ سُمي خالد سيف الله .

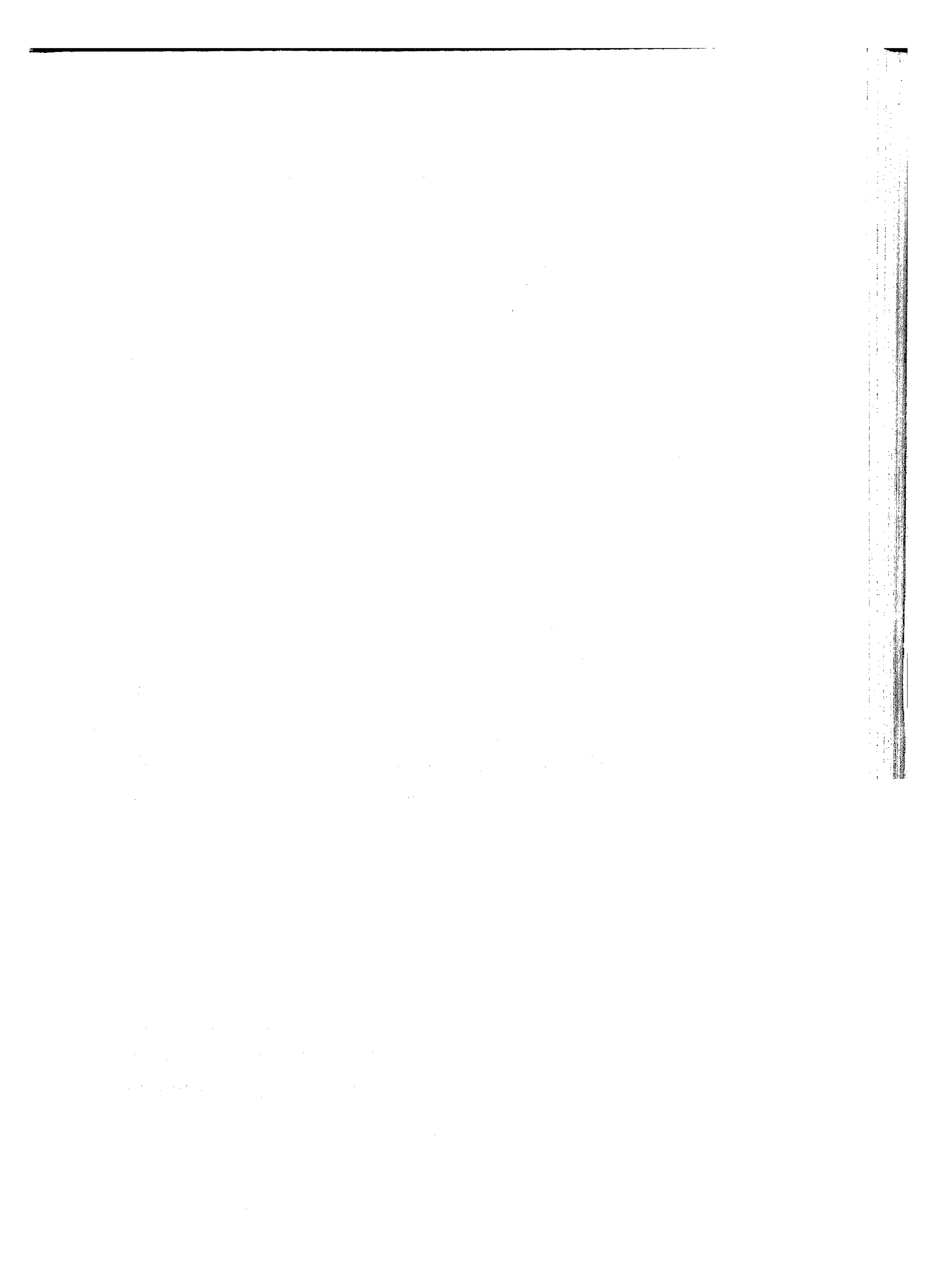
بعد ذلك تلاشى غضب المسلمين وادركوا مدى الحكمة والشجاعة اللتين اظهرهما خالد في معركة مؤتة .

يصف بعضُ المؤرخين معركةَ مؤتة بأنها نصر للمسلمين ، ويسميها البعض الآخر بأنها هزيمة . وفي الحقيقة لم تكن نصرا او هزيمة بل كانت معركة انسحاب ، كانت انسحابا لصالح الاعداء ، لان المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة وتركوها تحت سيطرة اعدائهم . كذلك لم تكن معركة مؤتة معركة كبيرة او حتى هامة . لكنها منحت خالدا الفرصة ليُظهر كفاءته كقائد مستقل الشخصية ، كما منحته لقب : « سيف الله » .

---

(١) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٣٨٢ .

(٢) الواقدي : المغازي ـ صفحة ٣٢٢ .



فَتح مَكّة

عندما تم صلحُ الحديبية بين رسول الله وبين قريش كان فيمـا شرطوا على رسول الله وشرط لهم ان من أحـبَّ ان يدخل في عقد رسول الله وعهده فليدخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعـة في عقد رسول الله وعهده . وكان بين هاتين القبيلتين نزاع قديم يعود الى ايام الجاهليـة ، لكـن الاسلام حجز بينهم وتشاغل الناس به ، وكان من المتوقع بعد صلح الحديبية أن يسود السلام بينهما . لكن ذلك لم يحدث . اذ أمسكت بنو بكر بخيط النزاع مرة اخرى . فنَظّمت اغارة ليلية على خزاعة ، وقد ساعدت قـريش بني بكر سرّاً واعطتها ليس السلاح فقط بل عددا قليلا من المحاربين كـان بينهم عكرمـة ، وصفوان بن اميـة . وقتل عشرون شخصـا من خزاعة في هـذه الإغـارة .

وذهب وفد من خزاعة في الحال الى المدينـة وابلغوا النبي بما حدث . وطلب الوفـد مساعدة المسلمـين حيث ان قبيلتهم خزاعـة داخلـة في عقـد رسول الله وعهده .

لم يكن ابو سفيان مهتما مباشرة بالمساعدة التي قدمتها قريش لبني بكر في الاغارة . لكنه كان يخشى أن يَنتقضَ الصلحُ وان يأخذ المسلمون بالثأر ، لـذا فقد سافر الى المدينة من اجل التفاوض مع المسلمين على صلح جديد . ولدى وصوله الى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة ، وحين أتى ليجلس علـى فراش رسول الله طوَتهُ عنه ، فقال : يابنيةُ ، ما أدري ارغبتِ بي عن هـذا الفراش ام رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وانت رجـل

مشرك فلم أحِبّ أن تجلس على فراش رسول الله ، قال : والله لقد أصابك يابنية بعدي شَرّ ، ثم خرج حتى اتى رسول الله ، فكلّمه فلم يَرُدّ عليه شيئا ، ثم ذهب الى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ، فقال : ما انا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلمه ، فقال : اانا اشفعُ لكم الى رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد الا الذّرّ لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن ابي طالب رضوان الله عليه وعنده فاطمة بنت رسول الله وعندها حَسَنُ بن علي غلام يدِبُّ بين يديها ، فقال : يا عليّ ، انك أمَسُّ القوم بي رَحِماً ، واني قد جئت في حاجة فلا ارْجِعَنّ كما جئت خائباً ، فاشفعْ لي الى رسول الله ، فقال : ويحك يا ابا سفيان ! والله لقد عَزَمَ رسول الله على أمرٍ مانستطيع ان نكلمه فيه ، فالتفتَ الى فاطمة فقال : يا ابنة محمدٍ ، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ قالت : والله مابلغ بنيّ ذاكَ ان يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ، قال : يا أبا الحسن ، إني أرى الامور قد اشتدّتْ عليّ فانصحني ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحقْ بأرضك ، قال : او ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا والله ما اظنه ، ولكني لا اجد لك غير ذلك ، فقام ابو سفيان الى المسجد ، فقال : يا ايها الناس ، اني قد أجَرْتُ بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته فوالله ماردّ عليّ شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعْدَى العدو ، ثم اتيت علياً فوجدته اليَنَ القوم ، وقد أشار عَلَيّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئا أم لا ، قالوا : وبم امَرَك ؟ قال : امرني ان أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك ! والله إن زَادَ الرجلُ عَلَى ان لعب بك ، فما يغني عنك ماقلت ؟ قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

بعد ذهاب ابي سفيان ، امر رسولُ الله الناسَ بالاعداد والتجهيز السريع لعملية واسعة النطاق . كان قصده ان يجمع قواته ويحركها بسرعة وبسِرّيّة تامة بحيث لايعلم القرشيون بمجيء المسلمين الا بعد وصولهم الى مكة . وبذلك

لايتوفر لقريش وقت كاف لجمع قوات اخرى من القبائل الحليفة المجاورة لمواجهة المسلمين . وبينما كان حشد القوات قائما على قدم وساق ، علم النبي بان امرأة في طريقها الى مكة ومعها رسالة لتحذير أهل مكة من الاستعدادات التي تُجهّز ضدهم . فأرسل علياً والزبير بسرعة وراءها . واستطاعا ان يلحقا بالمرأة فالقيا القبض عليها وعلى الرسالة واعاداها الى المدينة .

بدأ تحرك جيش المسلمين من المدينة في الاول من كانون الثاني عام ٦٣٠ م (العاشر من رمضان ، عام ٨ هجري) . انضم عدد كبير من القبائل المسلمة الى النبي في المدينة ، كما انضم عدد آخر الى النبي وهو في طريقه الى مكة . وبذلك أصبح عددُ جيش المسلمين عشرَة آلاف مقاتل . وصل النبي بهذه القوة الى مَر الظهران [1] التي تقع على بُعد عشرة أميال شمال غرب مكة ، دون ان تعلم قريش بهذا التحرك . وكان هذا أسرَعَ تحرك نفذ من قبل جيش المسلمين .

في هذا الوقت قرَّر العباس ، عم النبي ، ان ينضم الى المسلمين ويعتنق الدين الجديد . وعندما وصل جيش المسلمين الى « الجُحْفَة » ، تقابل مع العباس وأفراد عائلته الذين كانوا في طريقهم الى المدينة . وقد سُرَّ النبي عندما علم بنيّة العباس للدخول في الاسلام ، وكانت العلاقات بين النبي والعباس دائما ودية .

وعندما وصل المسلمون الى مَرّ الظهران ، فكّر العباسُ ملياً بمصير أهل مكة . حيث خشي أن تؤدي الحملة الى تدمير القرشيين فيما اذا استولى المسلمون على مكة عنوة . لذلك انطلق العباس على ظهر بغلة الرسول ، بعد موافقة النبي ، لتحذير قريش من النتائج الخطيرة للمقاومة واقناعهم بارسال مبعوثي سلام الى المسلمين . وحوالي هذا الوقت ، خرج ابو سفيان من مكة للقيام باستطلاع شخصي وليرى فيما اذا كانت طلائع المسلمين قد وصلت .

(١) مرّ الظهران عبارة عن وادٍ صغير ، وأصبح الجزء السفلي منه يسمى « وادي فاطمة » وهو يجتاز طريق « اوتوستراد » جدة ـ مكة على بعد حوالي ٢٠ ميلاً من مكة .

وفي منتصف الطريق الى مكة تقابل مع العباس : فسأل ابو سفيان العباس « ماهي أخبارك يا أبا الفضل ؟ » فقال العباس : « ويحك يا ابا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، واصَبَاحَ قريش والله ! » فقال أبو سفيان : « فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ » .

فقال العباس : « والله لئن ظفر بك لَيَضْرِبَنَّ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، فركب أبو سفيان على البغلة خلف العباس . قال العباس : « فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما راى أبا سفيان على عجز الدابة قال : ابو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يَشْتَدُّ نحو رسول الله ، وركضت البغلة ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ، قال : فاقتَحَمْتُ عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ، ودخل عليه عمر فقال : يارسول الله ، هذا ابو سفيان قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ ولا عَهْدٍ فَدَعْني فَلأضربْ عنقه ، قال : قلت : يارسول الله إني قد اجَرْتُه ثم جلستُ الى رسول الله فأخذت براسه فقلت : والله لايناجيه الليلة دوني رجل ، فلما اكثر عمر في شأنه قال : قلت : مَهْلاً ياعمر فوالله لو كان من رجال بني عَدِيٍّ بن كعب ماقلت هذا ، ولكنك قد عرفت انه من رجال بني عبد مناف ، فقال : مهلاً ياعباسُ فوالله لإسلامُك يوم اسلمت كان احَبَّ إليّ من إسلام الخطاب لو اسلم وما بي إلا اني قد عرفت ان اسلامك كان احَبَّ الى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم » . فقال رسول الله : « اذهب به ياعباسُ الى رَحْلِك فاذا اصبحتَ فأتِني به » . قال العباس : « فذهبتُ به الى رحلي ، فبات عندي ، فلما اصبح غَدَوتُ به الى رسول الله » ، فلما رآه الرسولُ قال :

« ويحك يا أبا سفيانَ الم يأنِ لك ان تعلَمَ انه لا إلهَ إلا الله » قال : بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك ! اما هــذه والله فان في النَّفْس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : وَيْحَكَ اسلِمْ واشهدْ ان لا إله

الا الله وان محمداً رسول الله قبل ان تضرب عنقك ، قال : فشهد الحق ، فأسلَم ، قال العباس : قلت يارسول الله ، إن ابا سفيان رَجلٌ يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نَعَمْ من دَخَل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ وَمَنْ اغلَقَ عليه بابَه فهو آمِنٌ ومن دَخَل المسجدَ فهو آمِنٌ » .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله : « ياعباسُ احْبِسْهُ بمضيقِ الوادي عند خَطْمِ الجبل حتى تَمرَّ به جنود الله فيراها » . قال : فخرجتُ حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمَرَني رسول الله ان احبسه ، قال : وَمرَّت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباسُ مَنْ هذه ؟ فأقول : سُلَيْم ، فيقول : مالي ولسُليم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباس من هؤلاء ؟ فأقول مزَينة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا يسألني عنها ، فاذا إخبرته بهم قال : مالي وابني فلان ، حتى مَرَّ رسولُ الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والانصار لايرى منهم إلاّ الحدق من كثرة الحديد ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ياعباس ! من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والانصار ، قال : ما لأحَدٍ بهؤلاء قبلُ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن اخيك الغَدَاةَ عظيما ، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوَّة ، قال : فنعم إذَنْ ، قلت : النَّجاءَ [1] الى قومك ، حتى اذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : « يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لاقِبَلَ لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن » . فقامت اليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : « اقتلوا الحَمِيتَ الدَّسِمَ الأحمس قُبِّحَ مِنْ طليعةَ قوم ! » قال : « ويلكم لاتَغُرَّنَّكُمْ هذه من انفسكم ؛ فانه قد جاءكم مالا قِبَلَ لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ » . قالوا : « قاتلك الله ، وما تغني عنا دارُك ؟ قال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمِنٌ ، ومن دخل المسجد فهو آمن » ، فتفرق الناسُ الى دوْرهم والى المسجد . وذهب ابو سفيان الى داره [2] .

---

(١) السرعة ــ المترجم .

(٢) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٠٢ ــ ٤٠٥ ؛ ابن سعد ــ صفحة ٦٤٤ ؛ الواقدي : المغازي ــ صفحة ٣٢٧ ــ ٣٣١ .

توقع المسلمون ان يجدوا بعض المقاومة لدخولهم مكة . وهم لايستطيعون ان يجزموا بأن العملية ستكون هادئة ، مع ان النبي كان يأمل بعدم اراقة الدماء ، خاصة مع اعداء المسلمين الألداء امثال عكرمة وصفوان . لذا كانت خطة النبي تقضي بفتح مكة بعملية عسكرية .

تقع مكة في وادي ابراهيم وهي محاطة بتلال سوداء وعرة مسيطرة عليها. وترتفع هذه التلال الى مايزيد عن ألف قدم فوق مستوى الارض المحيطة بها . ويتم الاقتراب الى مكة بواسطة اربعة محاور تمر عبر التلال . وهذه المحاور تأتي من جهات الشمال الغربي (وغالباً من الشمال) ، والجنوب الغربي ، والجنوب ، والشمال الشرقي . قسّم النبي جيشه الى اربعة أرتال ، وكل رتل يتقدم على احدى المحاور الأربعة : فالرتل الاول سيدخل مكة على طول الطريق الرئيسية المؤدية الى المدينة من جهة الشمال الغربي عبرْ اذاخِرْ ؛ وكان هذا الرتل بقيادة ابي عبيدة وكان النبي ضمن هذا الرتل . وسيدخل الرتل الثاني مكة من الجهة الجنوبية الغربية عبرْ ممرّ الى الغرب من تل كُدىً ، وكان هذا الرتل بقيادة الزبير . وسيدخل الرتل الثالث من الجهة الجنوبية عبر كداء ؛ وكان هذا الرتل بقيادة علي . اما الرتل الرابع فسيدخل مكة من الجهة الشمالية الشرقية عبرْ اللّيط والخَنْدَمَة ؛ وكان هذا الرتل بقيادة خالد . (انظر الخريطة رقم ٥)[1] .

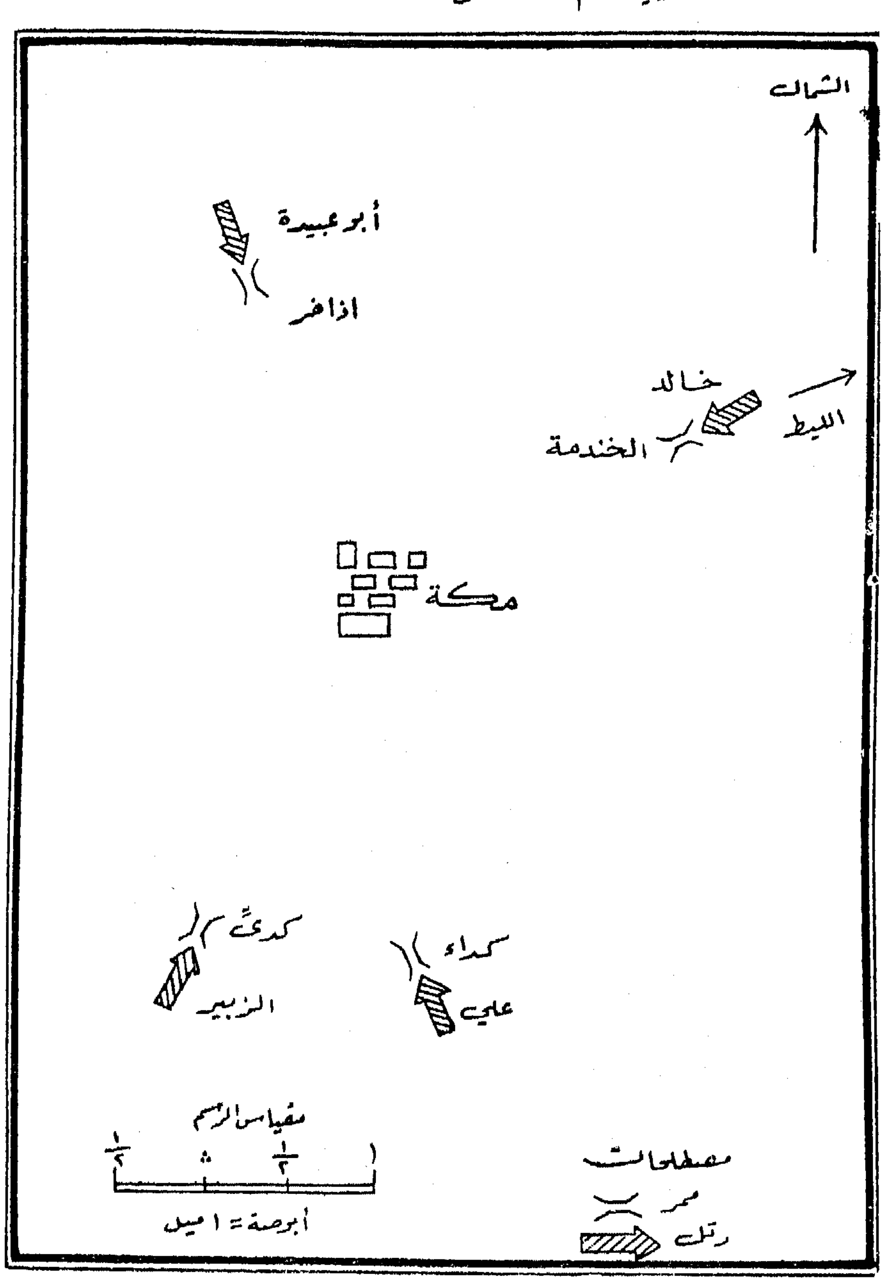
كان تقدم المسلمين يهدف الى القيام بهجمات متقاربة على هدفٍ مركزي واحد ؛ وذلك لاجبار العدو على توزيع قواته وعدم تمكينه من تركيزها على محور واحدٍ من محاور التقدم . علاوة على ذلك ، فان العدوّ لو نجح في ايقاف الهجوم على بعض المحاور ، فهنالك محاور اخرى يمكن للمهاجمين ان يستخدموها لمتابعة الهجوم وبذلك فان الفرصة متاحة لتحقيق النجاح .

لقد استخدمت جميع محاور الاقتراب لمواجهة متطلبات التكتيك ،

---

(١) ان المنطقة الموضحة في الخريطة رقم ٥ هي منطقة تلال بكاملها ، ولكن نظرا لعدم امكانية رسم التلال بدون مساعدة خرائط طبوغرافية دقيقة ذات مقياس كبير ، فلم تظهر التلال على هذه الخريطة .

الخريطة رقم ٥ - فتح مكة - ٢



وكذلك لمنع هروب القرشيين ؛ ولكن فيما بعد عندما قبل الاشتباه ، نجح بعض الافراد في الهرب .

اكد النبي على وجوب عدم القتال الا اذا كان هنالك مقاومة مسلحة من قبل القرشيين . كما أمرَ النبي بعدم قتل الجرحى ، وبعدم مطاردة الهاربين ، وبعدم ذبح الاسرى .

تمَّ دخول مكة في الحادي عشر من كانون الثاني عام ٦٣٠ م (العشرين من رمضان عام ٨ هجري) . وقد تمت العملية بسلام وبدون سفك دماء باستثناء ماجرى في قطاع خالد . كان عكرمة وصفوان قد جمعا عصابةً من المنشقين من قريش والقبائل الاخرى وقرَّرا ان يجبرا المسلمين على خوض معركة للحصول على النصر . فقابلا رتل خالد في الخندمة ، وكانت هذه التجربة جديدة وغريبة بالنسبة لخالد . كان عكرمة وصفوان القائدان العدوان اللذان يجابهان خالد في المعركة اصدقاءه فيما مضى ؛ كما ان صفوان متزوج من « فاختـَه » ، شقيقة خالد . وعلى كل الاحوال ، فالاسلام ألغى جميع العلاقات والصداقات التي كانت في الجاهلية ، ولا يستطيع غير المسلم ان يَدَّعيَ على مسلمٍ بقضية حدثت زمن الجاهلية .

هيّأ القرشيون أقواسَهم واستلّوا سيوفهم ؛ وهذا ماكان ينتظره خالد . فهاجم موقع القرشيين ، وبعد صدام قصير وعنيف ، طُرد القرشيون . وقُتل من القرشيين اثنا عشر رجلاً واستشهد من المسلمين اثنان فقط . وهرب عكرمة وصفوان من المجابهة .

عندما علِمَ النبيُ بهذا الاشتباك وبعدد القتلى من المشركين ، لم يُسَرّ من خالد . وكان يرغب في عدم اراقة الدماء ؛ وقد خشي ان يكون خالد نفسه هو الذي تسبب في المناوشة ، نظراً لمعرفة النبي بطبيعة خالد العنيفة . واستدعى النبيُ خالداً وطلب منه شرحاً لما حدث . قَبِل النبيُّ تفسير خالد لما حدث ووافقه على ذلك . وكان خالدُ اذا ضَرَب أوجع ، لذلك لم يكن في طبيعة هذا الرجل أعتدال .

عندما تمَّ فتح مكة من قبل المسلمين ، خرج النبي حتى جاء البيت فطاف

به سبعاً على راحلته ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فاخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فوقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، الا كلُّ مأثرةٍ او دمٍ او مالٍ يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلا سِدَانَةَ البيت وسقاية الحاجّ ، الا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الابل أربعون منها في بطونها اولادها ، يامعشر قريش ، إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم قال : « يا معشر قريش ، ماترون أني فاعل فيكم ؟ » قالوا : خيراً اخ كريم ،وابن اخ كريم ، قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء[1] » .

ثم دخل النبي الكعبة فراى فيها صور الملائكة وغيرهم ، فراى ابراهيم عليه السلام ، مصورا في يده الازلام يستقسم بها ، فقال : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يَستَقسِم بالازلام ، ما شأن ابراهيم والازلام » . ثم امر بتلك الصور كلها فَطمِستْ . وعندما تم ذلك شعر النبي كان حملا ثقيلا انزاح عن كاهله ، فالكعبة قد اصبحت نظيفة من الآلهة المزيفة ، ولا يوجد الآن سوى الإله الحقيقي الذي ينبغي عبادته في بيت الله ثم تلا الرسولُ الآية الكريمة : « وقلْ جاءَ الحقُ وزَهق الباطلُ إن الباطل كان زهوقاً[2] » . ثم اخذ يحطم الاصنام بقضيب في يده حتى لم يبق منها صنم الا وقع .

انقضت الايام القليلة التالية في تعزيز الموقف واعادة التنظيم . وقد اعتنق الاسلام معظم اهل مكة واقسموا يمين الولاء لرسول الله .

كان النبي قد عهد الى امرائه من المسلمين — حين امرهم ان يدخلوا مكة — ان لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا انه قد عهد في نفرٍ سماهم ، امر بقتلهم وان وجدوا تحت استار الكعبة . وكان عددهم عشرة (ستة رجال واربع نساء) ويمكن ان نسميهم بمصطلحات العصر الحديث « مجرمي حرب » . فمنهم من ارتدَّ مشركاً بعد ان اسلم ، ومنهم من كان يؤذي النبي والمسلمين في مكة بشكل مباشر او غير مباشر . وكان عكرمة على راس القائمة ، وكذلك هند .

---

(١) ابن هشام — الجزء ، صفحة ٤١٢ .

(٢) قرآن كريم : سورة رقم ١٧ — آية رقم ٨١ .

وعندما انسحب عكرمة اثناء المناوشة مع خالد ، اختبأ في مكة ، وعندما خفت يقظة المسلمين وحذرهم ، خرج من مكة وهرب الى اليمن ، واسلمت امراته ام حكيم بنت الحرث بن هشام ، فاستأمنت له من رسول الله ، فأمنه ، فخرجت في طلبه الى اليمن حتى اتت به رسول الله فأسلم .

اما صفوان بن امية ، فمع انه لم يكن في قائمة « مجرمي الحرب » ، إلا انه خشي على حياته وفر الى جدة على أمل ان يجتاز البحر الاحمر ويلتجيء في بلاد الحبشة ، لكن صديقا له طلب من النبي ان ينقذ حياته ويقبل استسلامه فأخبره النبي أنه لاينوي قتل صفوان وانه يقبل عودة صفوان بسرور . وسافر هذا الصديق الى جدة واحضر معه صفوان . واستسلم صفوان للنبي، ولكن هذا الاستسلام كان شخصيا وسياسيا . وبالنسبة لدخوله في الاسلام ، فقد طلب النبي ان يمنحه شهرين لكي يفكر بذلك . فأعطاه الرسول مهلة أربعة اشهر .

عمليا ، قتل ثلاثة رجال فقط وامراتان من مجرمي الحرب . اما الباقون فقد عفا النبي عنهم ، ومن بينهم هند ، التي اسلمت .

بعد ان دمر النبي الاصنام في الكعبة ، أرسل حملات صغيرة للقرى المجاورة للقضاء على الاصنام الموجودة في معابدها . فأرسل خالد الى « نخلة » لتدمير العزى ، وهي أهم واحدة في الآلهة . ومعه ثلاثون خيالا[1] » .

ويبدو انه كان يوجد العزى الحقيقية والعزى التقليدية . فاستدل خالد على العزى التقليدية ودمرها ، ثم عاد الى النبي وابلغه بتنفيذ المهمة . فسأله النبي فيما اذا شاهد أمراً غير عادي . فاجاب خالد بانه لم ير شيئا . عندئذ قال له النبي بأن العزى لم تدمر . وطلب منه ان يذهب ثانية .

فعاد خالد الى نخلة غاضبا ، وفي هذه المرة وجد العزى الحقيقية . فهرب حارس معبد العزى خوفا على حياته ، لكنه قبل ان يتخلى عن إلهته علق سيفاً حول عنقها على أمل ان تتمكن من الدفاع عن نفسها . وعندما دخل خالد المعبد وجد امرأة سوداء عارية فاعترضته واخذت بالبكاء . لكن خالد لم

(١) كان يوجد وادي نخلة ، وهو يعرف الان باسم وادي اليمانية ، الذي يمر فيه الطريق الرئيسي بين مكة والطائف ، وكان يوجد نخلة التي كان فيها الالهة العزى ، وهذه تقع شمال وادي اليمانية . وهي على بعد ٤ ــ ٥ ' ،ال جنوب بئر السبئة الحالي .

يتوقف ليقرر فيما اذا كانت تريد اغواءه او حماية الصنم ، واستل سيفه وضرب المرأة ضربة قوية شطرتها الى قسمين . ثم هشم الصنم ، وعاد الى مكة وابلغ الرسول بما رأى وفعل . فقال له النبي ان ذلك الصنم هو العزّى وهو لن يعبد مرة ثانية [1] .

في العشرين من كانون الثاني عام ٦٣٠ م ، وبعد تدمير الاصنام ، وقع حادث سيء لبني جذيمة . اذ ارسل النبي عددا من الحملات الى القبائل التي تسكن في جوار مكة ليدعوهم الى الاسلام ، واعطى تعليمات لامرائه ان لا يقاتلوا من يقبلوا الدعوة . وكان قصد النبي في ذلك هو تجنب اراقة الدماء ايضا .

تسلّم خالد قيادة الحملة التي ارسلت الى منطقة تهامة ، الى الجنوب من مكة . وكانت الحملة تتألف من ثلاثمائة وخمسين خيّالاً من عدة قبائل، وكان اكبر عدد معه من بني سُلَيْم ،كما كان معه بعض الانصار والمهاجرين . كان هدف الحملة هو يَلَمْلَم ، التي تبعد خمسين ميلا عن مكة . (انظر الخريطة رقم ٤) .

عندما وصل خالد الى الجميّزة ، التي تقع على بعد خمس عشرة ميلا عن مكة على الطريق الى يلملم ، قابل قبيلة بني جذيمة . فلما رآه القوم اخذوا السلاح ، فقال خالد : « ضعوا السلاح فان الناس قد اسلموا » .

فقال رجل من بني جذيمة يقال له جَحْدَم : « ويلكم يابني جذيمة انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الإسار ، وما بعد الإسار الا ضرب الاعناق ، والله لا أضع سلاحي ابدا » .

وكان يوجد نزاع قديم بين قبيلة خالد وبني جذيمة . ففي ايام الجاهلية ، كانت قافلة صغيرة من قريش عائدة من اليمين فاعترضها بنو جذيمة وسلبوها وقتلوا شخصين مهمين هما عوف — والد عبد الرحمن بن عوف ؛ وفاكه بن المغيرة (عم خالد) . وفيما بعد قتل عبد الرحمن خالد بن هشام قاتل ابيه ، لكن فاكه لم يؤخذ لمقتله الثأر .

وبدأ الآن بنو جذيمة بالنزاع مع جحدم وقالوا له : « ياجَحْدم اتريد ان تَستفِكَ دماءنا . ان الناس قد اسلموا ووضعوا السلاح ووُضعت الحرب ، وامن الناس » . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول

(١) ابن سعد — صفحة ٦٥٧ .

خالد . ان سبب ما حدث فيما بعد غير واضح . فربما عاد مؤقتاً الى عادة الاخذ بالثار التي كانت سائدة في الجاهلية . (حيث ان خالدا دخل الاسلام منذ بضعة اشهر فقط) . ومن جهة اخرى ، ربما كان فيه حماس زائد للاسلام وكان يشك في صدق اعتناق بني جذيمة للدين الاسلامي . فلما وضع بنو جذيمة السلاح امر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر الى رسول الله رفع يديه الى السماء ثم قال : « اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد[1] » . ثم دعا رسول الله عليّ بن ابي طالب فقال : « يا عليُّ اخرُج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل امر الجاهلية تحت قدميك » . فخرج علي ومعه مال قد بعث به رسول الله ، فَوَدَى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال . ثم قال لهم علي حين فرغ منهم : « هل بقي لكم بقية من دمٍ او مال لم يُودَ لكم ؟ » قالوا : لا ، قال : فاني اعطيكم هذه البقية من المال احتياطا لرسول الله مما يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع الى رسول الله فأخبره الخبر ، فقال : « أصبتَ وأحسنتَ » .

وقد استُدعي خالدٌ بعد ذلك من قبل النبي الذي طلب منه ايضاحا لما فعل . فقال خالد انه لا يعتقد بأن بني جذيمة كانوا مسلمين حقا ، وان لديه انطباعاً بأنهم كانوا يخدعونه ، وهو يعتقد بأنه كان يقتل في سبيل الله .

كان عبد الرحمن بن عوف حاضرا مع النبي عندما قابل خالداً . وعندما سمع عبد الرحمن بن عوف ايضاح خالد قال له : « عَمِلْتَ بأمر الجاهلية في الاسلام » . فقال خالد : « إنما ثأرت بأبيك » . فقال عبد الرحمن : « كذبت قد قتلتُ قاتل أبي ولكنك ثأرتَ بعمك الفاكه بن المغيرة » . حتى كان بينهما شرٌ . فتدخل النبي وقال لخالد : « مهلا يا خالد دع عنك اصحابي فو الله لو كان لك أحُدٌ ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما ادركت غدْوَةَ رجلٍ من أصحابي ولا رَوْحَتَه[2] » .

وهكذا وضع خالد في مكانه الصحيح . وقد تم الصفح عنه ، لكنه تعلم درساً هاماً بانه لا يحتل نفس المكانه التي يحتلها اصحابُ النبي — خاصة العشرة البَرَرَة — وذلك لدخوله الاسلام متأخراً . وكان عليه ان يحفظ هذا الدرس جيدا في مناسبات عديدة في المستقبل .

---

(١) ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٤٢٩ .

(٢) ابن سعد — الجزء ٢ ، صفحة ٤٣١ .

غـــزوة حُنـــين

لم يكد اهل مكة يقسمون يمين الولاء للرسول وتعود الحياة طبيعية في مكة ، حتى بدات ريح العداوة تهب من جهة الشرق . اذ بدات قبائل هوازن وثقيف بالاستعداد للحرب .

كانت هوازن تعيش في المنطقة الواقعة شمال شرق مكة ، وثقيف في منطقة الطائف . وخشيت هاتان القبيلتان المتجاورتان ان يقوم المسلمون ، بعد فتح مكة ، بمهاجمتهما في عقر دارهما كلا على انفراد . ولتجنب هذا الاحتمال ، قررتا ان تقوما بهجوم على المسلمين على امل ان تحققا نصرا عليهم باخذهما زمام المبادرة . احتشدت القبيلتان في أوطاس ، قرب حنين ، وقد انضم اليهما متطوعون من قبائل اخرى عديدة . وشكلت القبائل تحالفا مماثلا لتحالف الاحزاب في غزوة الخندق . بلغت قوة القبائل المتحالفة ضد المسلمين اثني عشر الف مقاتل ، وتولى قيادتهم مالكُ بن عوف ، وهو يبلغ الثلاثين من عمره ، وكان حاد الطبع . قرر مالكٌ ان يجعل رجاله يحاربون في موقف خطير لكي يكون قتالهم متسما بشجاعة اليأس . فأمر بان يصطحب المقاتلون معهم عائلاتهم وقطعان ماشيتهم .

وكان يوجد قائد آخر في التحالف هو دريد بن الصمّة . وكان هذا شيخاً كبيراً ليس فيه شيء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مُجرّبا .

وفي أوطاس قال دُريد بعد ان سمع اصوات العائلات والمواشي : « مالي اسمع رُغاء البعير ونهاق الحمير وبُكاء الصغير وثغاء الشاء ؟ قالوا : « ساق مالكُ بن عوف مع الناس اموالهم ونساءهم وابناءهم » ، قال : اين مالك ؟ قيل :

هذا مالك ، ودعا له ، فقال : يا مالك ، انك قد اصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الايام ، مالي اسمع رُغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاء ؟ قال : سقتُ مع الناس اموالهم وابناءهم ونساءهم ، قال : ولِمَ ذاك ؟ قال : اردت ان اجعل خلف كل رجل منهم اهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : فزجره ، ثم قال : راعي ضأن والله ، وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في اهلك ومالكَ . لذلك ضع العائلات وقطعان الماشية في مكان امين بعيد عن ميدان المعركة ، فان كانت لك لحق بك مَنْ وراءك ، وان كانت عليك القاكَ ذلك وقد احرزت اهلك ومالك ، قال : لا والله لا افعل ذلك ، انك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنني يا معشر هوازن او لاتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره ان يكونَ لدريد بن الصِّمَّة فيها ذكر او راي . قالوا : اطعناك . عندئذ قرر دريد ان يترك مالك وشانه . ثم قال مالك للناس : اذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا بشدة رجل واحد .

وقد جلبتْ هوازنُ فقط اموالها وابناءها ونساءَها ، اما باقي القبائل فلم تفعل ذلك .

لم يكن النبي يرغب في اراقة دماء اخرى ، لكن لم يكن امامه خيار سوى الانطلاق لمواجهة هذا العدو الجديد . ولم يكن يرغب ايضا في انتظار تحالف آخر يتشكل ضده ويهاجمه كما حدث قبل ثلاث سنوات في غزوة الخندق . علاوة على ذلك ، اذا انتظر النبي في وضع دفاعي في مكة وبقي العدو قابعا في اوطاس فان ذلك سيؤدي الى حالة من الجمود قد تدوم اشهراً ، ولا يستطيع النبي ان يضيع مثل هذا الوقت الطويل . اذ كان عليه ان يلتفت الى الامور التنظيمة والى هداية القبائل وادخالها في الدين الاسلامي في الوقت الذي لايزال فيه الاثر النفسي لسقوط مكة ماثلا في اذهان العرب . وهو لايستطيع ان ينصرف الى هذه الاعمال طالما يوجد حشدٌ معاد كبير في اوطاس . وعلى اية حال ، فان تحديا معاديا قويا لسلطته في هذه المرحلة سوف يقلل من اثر فتح المسلمين لمكة في عقول العرب . وكان لابد من مواجهة هذا التحدي . كذلك ينبغي سحق

هذه القوات المعادية . وكان قرارُ النبي بالتقدم من مكة قد خلق موقفاً غير اعتيادي لكلا الجانبين المتحركين لملاقاة بعضهما البعض في معركة هجومية .

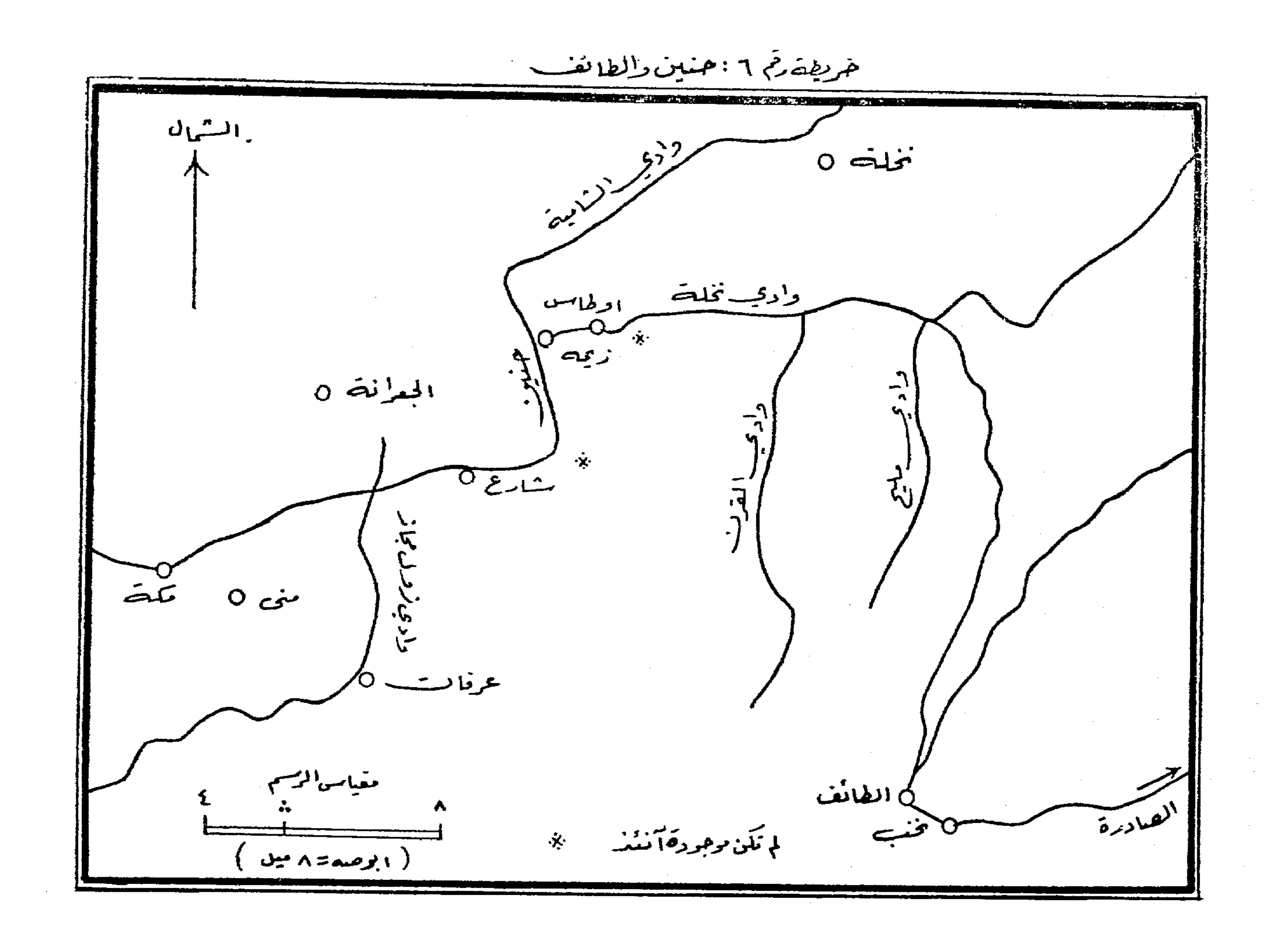
وفي السابع والعشرين من كناون الثاني عام ٦٣٠ م (السادس من شوّال عام ٨ هجري) ، انطلق المسلمون من مكة . كان جيش المسلمين يتألف من العشرة آلاف مقاتل الذين فتحوا مكة بالاضافة الى الفين من اهالي مكة الذين دخلوا في الاسلام بعد فتح مكة . وكان يشك في قيمة هؤلاء المسلمين الجدد الذين لم يدخل الاسلام في قلوبهم بشكل حقيقي ، وقد انضموا الى جيش المسلمين لانهم اعتقدوا ان هذا هو التصرف الذي ينبغي ان يفعلوه . وكان من بينهم ابو سفيان وصفوان بن امية . وهذا قد اعطي مهلة اربعة اشهر من قبل النبي لكي يفكر بالدين الجديد ، لكنه الآن اصبح ميالا للنبي وتبرع للمسلمين بمائة درع للمعركة القادمة .

تقدم المسلمون من مكة وكان على راسهم مفرزة من بني سُلَيْم تضم سبعمائة مقاتل ، تعمل تحت قيادة خالد . وفي مساء الحادي والثلاثين من كانون الثاني ، وصل المسلمون الى وادي حُنين واقاموا معسكرهم فيه .

ان حنين عبارة عن وادٍ يمر من شارع المجاهد (شارع حديث) ، الذي يبعد احد عشر ميلا شرق وشمال شرق مكة ، الى شارع نخلة (قديم) ، الذي يبعد سبعة اميال الى الشرق . ويستمر الوادي بالاتجاه شرقا مسافة سبعة اميال اخرى ثم يتجه شمالا نحو زيمة . (جميع هذه الاماكن لم تكن موجودة اثناء غزوة حنين) . ويبلغ عرض الوادي حوالي ميلين في معظم الاماكن ، ولكن عندما يجتاز شارع نخلة يضيق حتى يصل من ربع الى نصف ميل ، وعندما يقترب من زيمة يضيق اكثر . ويعتبر هذا الجزء من الوادي مضيقا وهو يقع قرب زيمة . بعد زيمة يتعرج طريق الطائف حتى يصل الى وادي نخلة اليمانية . (انظر الخريطة رقم ٦) .

بينما كان المسلمون يتقدمون باتجاه حنين ، كان كل جانب قد ارسل عملاءً للحصول على معلومات عن الجانب الآخر . لذا كان كلٌ من الجانبين على علم تام بقوة ومواقع وتحركات الآخر . وبعث النبي (ص) عبد الله بن ابي

خريطة رقم ٦ : حنين والطائف



حدرد الاسلمي ، الى هوازن وأمر ان يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتي النبي بخبرهم ، فانطلق ابن ابي حَدْرَدْ فدخل فيهم فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد اجمعوا له من حرب رسول الله ، وسمع من مالك وامر هوازن ما هم عليه ، ثم اقبل حتى اتي رسول الله فأخبره الخبر . فدعا رسول الله عمر بن الخطاب فأخبره الخبر ، فقال عمر : كذب ابنُ حَدْرَدْ ، فقال ابن ابي حَدْرَدْ : إنْ كَذَّبتني فطالما كذبت بالحق يا عمر فقد كذبت من هو خير مني ، فقال عمر : يا رسول الله ، الا تسمع ما يقول ابن ابي حَدْرَدْ ؟ فقال رسول الله : « قد كُنْتَ ضالاً فهداك الله ياعمر »[1] .

عندما وصل المسلمون الى معسكرهم الجديد في وادي حُنين ، وصلت انباء وصولهم الى مالك بن عوف بواسطة عيونه . وتوقع مالك ان يعرف المسلمون بوجود جيشه في أوطاس ، وانهم سيقاتلونه في اوطاس او بالقرب منها . فوضع خطة للايقاع بالمسلمين .

قبل فجر الاول من شباط عام ٦٣٠ م (المصادف الحادي عشر من شوال سنة ثمان هجرية) تشكل المسلمون في ترتيب المسير استعدادا للتقدم الى اوطاس حيث من المتوقع ان يشتبكوا مع العدو . وكان في نية المسلمين ان يعبروا مضيق حُنين قبل ان يعلم العدو بتحركهم . كان حرس المقدمة يتألف مرة ثانية من بني سُلَيْم بقيادة خالد ، وسار خلف هذه المقدمة وحدات المسلمين المختلفة ، بما فيهم مجموعة اهل مكة التي يبلغ تعدادها الفين . وابقي معسكر المسلمين في وادي حنين كقاعدة للعمليات .

وعند اول ضوء ، دخل حرس المقدمة المضيق (على بعد ميلين من زيمة) . واسرع خالد في تقدمه رغبة منه في مفاجأة العدو في أوطاس . وبعدئذ هبَّت العاصفة !

كان خالد أول من تلقى صدمة الكمين . وتبدد هدوء الفجر بآلاف الصيحات التي اطلقها الاعداء ، وانهالت السهام ليس بالعشرات او العشرينات ولكن بالمئات . انهالت السهام كالبَرَدْ الهاطل من السماء واصابت الخيل

(١) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٠ .

والرجال . لم يقف بنو سليم للتصرف ضد العدو . ولم يقفوا ليفكروا او يلتجئوا . بل اتجهوا للخلف وفروا كرجل واحد . وذهبت صيحات خالد لرجاله كي يصمدوا ادراج الرياح وضاعت في الضجيج والفوضى . وجرح خالد جرحا بليغا وحمل بعيدا ، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقي ممددا على الارض غير قادر على الحركة بسبب جرحه .

عندما انكفأ بنو سليم الى الوراء وانهزموا مذعورين ، ودخلوا في مواقع الوحدات الاخرى التي كانت تحتل الممر الضيق ، وشعرت هذه الوحدات بأن امرا ما قد حدث ، وانضم الى الفارين مجموعة اهل مكة فاترة الهمة ، وتبعهم عدة وحدات من المسلمين . هرب بعض المسلمين الى المعسكر ، لكن غالبيتهم انتشروا والتجأوا على مسافة خلف مكان الكمين على جانبي الممر . لم يعرف اي شخص ماذا حدث تماما . وازدادت الفوضى عندما حملت الابل بعضها على بعض وتراكض الناس والخيل وتداخل بعضها ببعض في هياج اعمى للخلاص من هذا المأزق .

لقد فاجأ مالك بن عوف الذين كان من المنتظر ان يفاجئوه . فحرك جيشه خلال الليل الى مضيق حنين الذي يتعذر فيه اجراء المناورة . ووضع رجاله على جانبي الممر داخل المضيق حيث اختبأوا خلف الصخور وثنيات الارض التي ساعدت على الاختفاء . كانت هوازن في الامام ، ومعها مجموعات صغيرة من ثقيف . ثم جاءت خلفها ثقيف ، وخلف هؤلاء تمركز المتطوعون من باقي القبائل . وضع مالك خطة بارعة . اذ أخر تحركه حتى آخر ضوء لكي يعتقد المسلمون بان قواته لا تزال في أوطاس ، ثم وضعها في كمين عند مضيق حنين بغرض ابادة المسلمين او طردهم بحالة من الذعر الى مكة وما بعدها . وكان يوجد خلف موقع الكمين ممر[1] ضيق يستطيع المسلمون التقدم الى أوطاس ـ قاعدة مالك .

فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة اهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في انفسهم من الضغن ، فقال ابو سفيان بن حرب :

(١) لم استطع ان احدد مكان هذا الممر . فربما كان في زيمة او بالقرب منها .

« لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » . وصرخ جبلة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن امية : « ألا بَطَل السحرُ اليوم » ، فقال له صفوان : « اسكتْ فضَّ الله فاك ، فو الله لان يَرُبَّني[1] رجل من قريشٍ أحبُّ اليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن[2] .

تُرِكَ النبيُّ واقفاً في الممر مع تسعة من أصحابه ، كان بينهم علي ، وابو بكر ، وعمر ، والعباس . وعندما كان الناس يفرون بالقرب من النبي قال : « أين أيها الناس ، هلموا الي ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله[3] » . لكن صرخاته ذهبت هباءً . ووصلت العناصر المتقدمة من هوازن الى المكان الذي يقف فيه النبي ، وهنا سقط اول مشرك في غزوة حُنين على يدي علي ابن ابي طالب ، وكان هذا المشرك يتقدم على جمل له احمر وبيده راية سوداء في رأس رمح له طويل امام هوازن ، وهوازن خلفه ، اذا ادرك طعن برمحه واذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه ، وبينما ذلك الرجل من هوازن يصنع ما يصنع اذ هوى له علي بن ابي طالب ورجل من الانصار يريدانه ، فجاءه عليٌّ من خلفه ، فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الانصاري على الرجل فضربة ضربة اطنَّ قدمه بنصف ساقه ، وسقط عن راحلته .

تحرك النبي الآن ذات اليمين مع أصحابه والتجأ في بروز صخري . وحاول عدد قليل من ثقيف التقدم باتجاه النبي واصحابه ، لكنهم طردوا من قبل أصحاب النبي .

لقد صَنَعَ مالكُ بن عوف بالمسلمين مالم يصنعه أحَدٌ قط من قبل . وكان هذا الحادث أول وأسوأ تجربة مروا فيها بوقوعهم بكمين ، حيث فقد الكثيرون منهم رشدهم وهربوا من ميدان المعركة . وعلى كل الاحوال ، فان الشجعان في هذا الموقف لم يصابوا بالذعر ولم ينهزموا[4] .

---

(١) يَرُبَّني : يكون لي رباً ، أي ملكاً علي .
(٢) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٣ ــ ٤٤٥ .
(٣) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٤٣ ــ ٤٤٥ .
(٤) يقصد الكاتب النبي وأصحابه ــ المترجم .

لقد ضرب مالك بذكاء ، ولكن لسوء حظه ، فان رجاله لم ينفذوا بالشكل الذي كان يرجوه . اذ انهم لم ينتظروا حتى يدخل الجزء الرئيسي من قوات المسلمين في المصيدة ، واطلقوا سهامهم عندما أصبح حرس المقدمة ضمن مدى الرمي . وارتكب مالك خطيئة الآن وهي قناعته بما حقق من انتصار ؛ اذ بعد ان تقدم بضع مئات من الياردات لم يحاول ان يطارد المسلمين . فلو انه فعل ذلك ، لتغيرت قصة هذه المعركة وسردت بشكل مختلف . علاوة على ذلك ، فان رمي السهام من قبل هوازن كان ضعيفا للغاية . فقد أصيب عدة مسلمين ورواحلهم بجراح ، الا انه لم يقتل احد في الكمين .

نظر النبي الى المنطقة التي أمامه فاستبشر خيراً . وقرّر أن لايدع مالكاً يذهب بهذا النصر الذي احرزه بسهولة . فالتَفَتَ الى العباس ، وكان امرءاً جسيماً شديد الصوت ، وقال : « يا عباسُ اصرُخْ يامعشرَ الأنصارِ يامعشر أصحاب السَّمُرَةِ » . فصرخ العباس بأعلى صوته وسمعه معظم المسلمين فأجابوا : لبيك لبيك ، وبدؤوا في التجمع حول النبي حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة أمرهم بالقيام بهجمة معاكسة فقام هؤلاء بشن هجومٍ على افراد هوازن الذين كانوا قريبين من النبي وطردوهم ، وازداد عددُ المسلمين المتجمعين حول النبي حتى وصل الى الآلاف . وعندما شعر النبي أن القوة المتجمعة حوله كافية ، أمر بالقيام بهجوم عام ضد هوازن .

في هذه المرة كان مالك هو الذي فوجىء . فبعد ان كان متأكداً ان النصر حليفه ، وجد جيشنه مُهاجَماً . واشتد القتال وتشابك الجيشان ، وهذا ماكان يطمح اليه المسلمون ، لكونهم يتفوقون في هذا النوع من القتال على خصمهم في استخدام السيوف . وكان المسلمون لايُجارَوْن في فن القتال القريب والمبارزة بالسيف . وبدا المسلمون يضغطون على هوازن ، وبدا هؤلاء بالتراجع شيئا فشيئاً . وعندما رأى النبي هذا الضغط على هوازن قال « الآن حمي الوطيس » [1] .

---

(١) ابن سعد ـ صفحة ٦٦٥ .

أيقن مالك أن القتال يسير لغير صالحه ، لذا قرر ان يضع خطة الانسحاب موضع التنفيذ . وكانت ثقيف في مواقعها السابقة على مسافة قصيرة خلف هوازن . فاسند اليها مهمة حراسة المؤخرة ، وسَحَبَ هوازن الى الخلف . وتقدم المسلمون الى الامام واصطدموا بثقيف التي بدات بتلقي العقاب الشديد من المؤمنين . بعد هذا الاصطدام ، بدات ثقيف بالفرار وتبعها متطوعو القبائل الاخرى الذين لم يشترك بعضهم في القتال . وفي غضون ذلك ، تمكن مالك من سحب هوازن بأمان الى الممر ، وهنا نشر قواته لخوض معركة دفاعية وانتظر التحاق الهاربين من قواته . وطالما أنه يتمسك بهذا الممر ، فان عائلات وقطعان ماشية هوازن هي في أمان .

لم يَفِقْ المسلمون من صدمة الكمين فقط ، بل قاموا بهجوم معاكس ، واستعادوا مواقعهم وطردوا العدو من أرض المعركة . وكان هذا نصراً تكتيكياً مؤزراً .

بينما كان المسلمون يجرّدون قتلى ثقيف من أسلحتهم وملابسهم ، حصل حادث طريف يتعلق باثنين من المسلمين . كان الأول أنصارياً من المدينة ، والثاني كان يدعى المغيرة بن شعبة وهو من قبيلة ثقيف . وكان قد قتل مع عثمان بن عبد الله (وهو من ثقيف) غلام له نصراني أغرل [1] . وبينما كان الأنصاري يسلبُ الغلام القتيل ويجرّده من ملابسه ، وجده أغرل ، فصاح بأعلى صوته : « يامعشر العرب ، يعلم الله ان ثقيفاً غُرْلٌ » . فأخذ المغيرة بن شعبة بيد الانصاري ، اذ خشي ان تذهب عنهم في العرب ، وقال له : « لاتقل ذاك فداك ابي وأمي ، انما هو غلام نصراني » ، ثم جعل يكشف له عن القتلى ويقول له : « الا تراهم مُخْتَتَنين كما ترى » [2] .

بعد أن اكتمل تجمع جيش المسلمين ، باستثناء عدد قليل من الهاربين ، قرر النبي ان يستثمر النجاح . فنظّم مجموعة قوية من الفرسان وارسلها الى الامام لتأمين الوادي قبل ان تتمكن هوازن من استعادة قوتها واعادة تنظيم

(1) اغرل : أي غير مختتن ، والغرلة : هي الجلدة التي يقطعها الخاتن ــ المترجم .
(2) ابن هشام ــ الجزء ٢ صفحة ٤٥٠

جيشها . وكانت هذه المجموعة تضم العديد من المتطوعين ، وكان من بينهم بنو سليم الذين استعاد خالد سيطرته عليهم . لم يشترك خالد في الهجوم المعاكس الذي شنته المسلمون . اذ كان ملقىً حيث سقط أثناء هروب بني سليم وظل حيث هو حتى انتهى الهجوم المعاكس . ثم جاءه النبي ونفخ على جراحه ، فنهض خالد وهو يشعر بالقوة وبأنه صالح للقتال مرة أخرى [1] . وبسرعة استطاع أن يجمع بني سُلَيم .

اسندت قيادة مجموعة الفرسان الى الزبير بن العوّام الذي تقدم على طول الوادي واصطدم بمالك في الممر . وبعد اشتباك قصير ، تم طردُ مالك من الممر . وأصبح الوادى بأكمله بيد المسلمين . ترك النبي مجموعة خيالة الزبير في الممر ، لكي تتمسك به كقاعدة وطيدة ولتحرسه ضد أي عودة محتملة لهوازن ، وارسل مجموعة اخرى بإمرةِ أبي عامر الى اوطاس . وكان فيها معسكر هوازن الذين اتخذوا مواقعهم حول المعسكر ، بعد أن طُردوا من الممر ، ليدافعوا عن عائلاتهم وماشيتهم . عند وصول المسلمين الى أوطاس ، حدث اشتباك عنيف فيها . وقتل ابو عامر تسعةً من هوازن في مبارزات شخصية ثم قُتل من قبل خصمه العاشر ، فأخذ الراية ابو موسى الأشعري ، وهو ابن عمه ، فقاتل هوازن ، ففتح الله على يديه وهزمهم . وسقط المعسكر في أيدي المسلمين ، وهنا انضمت الى مجموعة المسلمين هذه مجموعة خيالة الزبير ، وكان خالد على رأس المجموعة .

لقد انفرط الآن عقد تحالف الاعداء بشكل تام . وتفرقت هوازن وبعض القبائل وعادوا الى قراهم ، بينما اسرعت ثقيف بقيادة مالك الى الطائف وقررت ان تقاوم هناك حتى النهاية . وهكذا انتهت غزوة حُنين .

كانت خسائر المسلمين في هذه المعركة قليلة بشكل يدعو الى الدهشة ، وكان ذلك بسبب رماة هوازن غير الماهرين . وقد جُرح العديدُ من المسلمين ، واستشهد اربعة فقط . ويعود السبب في ذلك الى المهارة الفائقة والشجاعة التي كان يتصف بها المسلمون والتي مكنت أبطالهم من قتل ثلاثة أو اربعة

---

(١) الاصفهاني ـ الجزء ١٥ ، صفحة ١١ .

من الاعداء في وقت واحد ، الواحد تلو الأخر . وقتل من المشركين سبقون في الوادي ، وفي الممر ، وفي أوطاس . وكان من بينهم دريد بن الصمة الذي نصح مالك لكن نصيحته ذهبت سُدىً . وقد اسر المسلمون في معسكر الاعداء في أوطاس ستة آلاف من النساء والاطفال والعبيد ، وآلاف من الجمال والماعز والغنم [1] .

كانت هذه أول مرة يقع فيها المسلمون في كمين على نطاق كبير من قبل عدوهم . وكان هذا الكمين ثاني مَثَلٍ في التاريخ اذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل (المثل الاول كان الكمين الذي نصب للرومان من قبل هانيبال عند بحيرة تراسِمين – Trasimene – في عام ٢١٧ قبل الميلاد). كانت خطة مالك التي وضعها لابادة جيش المسلمين جيدةً وسليمة ، ولكن بسبب ضعف التنفيذ من قبل رجاله لم يستطع ان يحقق المهمة التي وضعها لنفسه . وعلى كل الاحوال ، فانه على الرغم من ضعف التنفيذ هذا ، كان بامكانه ان يحقق نصرا مؤزّراً لو لم يكن المسلمون اعداءَه . فتصميم النبي على عدم تقبل الهزيمة ، وايمان المسلمين بقائدهم ، هما اللذان حوّلا الهزيمة الى نصر لهم . كان النبي ، بخلاف مالك ، غير راضٍ بنجاح محدود ، فاستثمر النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يؤخذ فيها خالد على حين غِرّة . كان دائماً يعرف قيمة المفاجأة ، لكنه هذه المرة فوجىء هو شخصياً . ورأى بأم عينيه كيف ذُعر رجاله عند الظهور المفاجىء للعدو في وقت ومكان غير متوقعين . وصَمّمَ على أن لا يؤخذ مرة أخرى على حين غرة . ولم يفاجأ خالد بعد ذلك قطّ .

* * *

---

(١) لايعرف أحدٌ اليوم موقع اوطاس ؛ ولكن من المؤكد انها في الوادي ، لانه لايمكن اقامة معسكر يضم ستة آلاف شخص (باستثناء الجنود) وآلاف الجمال والماعز والغنم بجانب تل أو في جدولٍ صغير . وانا شخصيا حددت مكانها بعد « زيمة » بقليل ، ومن المحتمل أن تكون في مكان آخر .

حصار الطائف

دمّر النبيُ العدوَ في حنين وطرده من أوطاس . وقرّر ان لايعطي الفرصة لمالك بن عوف في استعادة قوته وتنظيم اية مقاومة . لذلك فقد أرسل الاسرى وقطعان الماشية التي تم الاستيلاء عليها في أوطاس الى الجِعْرانة وامر بوضعها تحت الحراسة الى ان يعود الجيش ، وفي اليوم التالي انطلق الى الطائف ، حيث توجد مقاومة كبيرة ينبغي مجابهتها . تحرك النبيُ بحذر ؛ فبعد الكمين الذي نُصب للمسلمين في حُنين ، كان النبي حريصاً على عدم الوقوع في فخ آخر . وكانت طبيعة الارض في منطقة الطائف كثيرة التلال ، وتشتمل على جروف صخرية ترتفع حتى تصل الى السهل المرتفع الذي تقع عليه الطائف ؛ وفي ارض كهذه فإن قائدا داهيةمثل مالك يستطيع ان ينصب كميناً في اي مكان فيها .

بعد أن تَرَكَ النبيُ أوطاسَ ، سار في وادي نخلة ثم اتجه جنوباً الى وادي المَلَيْح . ومن هذا الوادي ، سار النبيُ الى وادي القَرْن ، ثم سلك هذا الوادي حتى وصل السهل المرتفع الذي يقع شمال غرب الطائف بسبعة اميال . وحتى هذا المكان لم يصادف المسلمون اية مقاومة ، كما أن الكشافين لم يبلّغوا عن وجود أحد من ثقيف خارج الطائف ؛ ولكيْ يفاجىء النبيُ مالكَ ، غيّر النبي محور تحركه فاجتاز الاراضي المختلفة شمال الطائف ، ووصل الى المنطقة قليلة التلال الواقعة الى الشرق من الطائف بين نِخْب والصّادِرة [1] .

(١) سير وادي المَلَيْح بين مطار الطائف الحالي والسَّيْل الكبير . ويقطع وادي القرن طريق اوتوستراد الطائف ــ مكة على بعد سبعة أميال من الطائف . وتقع الصادرة على مسافة ٢٥ ميلا الى الشرقَ من الطائف . وتقع نِخْب على مسافة ثلاثة أميال الى الشرق وجنوب شرق الطائف . وكان وادي النخب يعرف في الماضي باسم « وادي النمل » وهو الوادي الذي سار فيه سليمان الى اليمن لمواجهة ملكة سبأ . وقد سردت قصة سليمان في القرآن الكريم (سورة رقم ٢٧ ــ آيات من ١٦ ــ ٤٤) .

ومن هنا سار الى الطائف وجاءها من الخلف . وكان خالد يسير في مقدمة الجيش على راس بني سُلَيْم كحرسٍ متقدم . (انظر الخريطة رقم ٦) .

ولكن على الرغم من صغر سنّ مالك بن عوف ، فان هذا الرجل لايؤخذ على حين غِرّة . فبعد ان لاقى الامرّيْن في صدامه مع المسلمين في حنين واوطاس ، قرّر ان لايقبل معركة مع المسلمين في ارض مكشوفة : فهو سيقاتلهم وفق شروطه هو . لذلك فقد وضع جيشه داخل اسوار مدينة الطائف ، بعد ان كدّس المؤن الكافية لحصار طويل . وانتظرت ثقيف بقيادة قائدها الشاب وصول المسلمين .

وصل المسلمون الى الطائف في الخامس من شباط عام ٦٣٠ م (الموافق للخامس عشر من شوال ، سنة ثمانٍ هجرية) ، وبدؤوا بحصارها الذي استمر ثمانية عشر يوما . ولدى الوصول الى الطائف ، اقيم معسكر المسلمين قريبا جدا من سورها ، وقد استغل رماة ثقيف ذلك واطلقوا السهام على المعسكر . وقد قُتل عددٌ قليل من المسلمين قبل ان ينقل المعسكر الى المنطقة التي يقوم عليها اليوم مسجد ابن عباس . ووضعت مجموعات من المسلمين حولَ الطائف لمنع الدخولَ والخروج ؛ وعيّن ابو بكر مسؤولا عن عملية الحصار .

قضى المسلمون معظم الوقت في تبادل رمايات النَّبْل مع ثقيف . وكان المسلمون يقتربون من الطائف ويحاولون خطف رماة ثقيف من الاسوار ، لكن ثقيف كانت في وضع افضل لكونها داخل الاسوار بينما المسلمون كانوا في العراء . لذلك فقد اصيب عدد كبير من المسلمين بجراح اثناء المناوشات مع ثقيف ، وكان عبد الله بن ابي بكر بين الجرحى .

وهكذا مرت بعضُ الايام . وكان رسول الله قد ارسل ، بعد سقوط مكة ، عُرْوَةَ بن مسعود ، وغَيْلان بن سَلَمة الى جُرَش في اليمن لتعلم صنعة الدّبّابات والمجانيق والضُّبور [1] وكل مايتعلق بفن الحصار . وعلى

(١) الدبابات : آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ثم يدخل فيها الرجال .

كل الاحوال ، فان هذين الرجلين لم يعودا الا بعد حصار الطائف وهكذا لم يلعبا دورا في الحصار . ولكن سلمان الفارسي جاء مرة ثانية لمساعدة المسلمين كما فعل في غزوة الخندق . وهو كفارسي كان يعرف شيئاً ما عن اشكال الحرب المعقدة . فصنع المسلمون ، بناءً على تعليماته ، المنجنيق واستخدموه في قذف الحجارة على الطائف ؛ وكانوا بارعين في استخدامه لكن تأثيره لم يكن قوياً .

قرر سلمان بعد ذلك أن يستخـدم الدبّابات (وهي عبارة عن ترس كبير ، مصنوع عادة من الخشب او الجلد ، ثم يدخل تحتها مجموعةٌ مـن المهاجمين ويتقدموا الى بوابة الحصن ، وهم محميون من قذائف العدو ، ثم يندفعوا نحو البوابة ويقتحموها بعد أن يحطموها بواسطة عمود ضخم خاص من الخشب او يشعلوا النار فيها) . وَصَنَعَ المسلمون ، بناءً على تعليمات سلمان ، دبابات من جلد البقر ، ودخلت تحتها مجموعة منهم لاشعال النار في بوابة الطائف . وحالما ذهبوا الى البوابة ، صب مالكٌ ورجاله نفايات حديد ملتهبة على الدبّابات . وقد احرقت قطعُ الحديد هذه الدبابات وسببت الذعر للرجال المتجنّين تحتها ؛ لذا تركوا هذا العتاد الجديد وعادوا الـى الخلف بسرعة . واثناء فرارهم ، اطلقتْ ثقيفُ رشقةً من السهام عليهم وقتلت واحداً منهم .

مرَّ اسبوعان والنهاية كانت غير مرئية . فثقيف لم تخرج للقتال ؛ ولم يستطيع المسلمون اقتحام الاسوار والقتــال داخل الطائف . وكلما اقترب المسلمون من الطائف تنهال عليهم السّهامُ وتردهم الى الخلف ، وفي أحـد الايام اشترك ابو سفيان فيّ هجمة على الطائف وأصاب سهم عينه . وعـاش بعد ذلك بعين واحدة .

يعتبر شهر شباط شهراً بارداً في منطقة الطائف ، وكان الطقس خلال الحصار سيئا . حاول المسلمون ان يُجبروا ثقيفا على الخروج من حصنهم في الطائف ليقاتلوهم لذا فقد قطعوا بعض كروم العنب قرب الطائف ؛ لكـن ثقيفا رفضت ان تغادر حصنها . كان مالك قائداً حاذقاً فلم يغامر بدخول

(١) طبقا لبعض المصادر ، فقد ابو سفيان عينه في اليرموك وليس في الطائف .

معركة تكون في صالح خصمه . اخيراً جمع النبي مجلس حرب وطلب مشورة امرائه . فقال له احدهم : « عندما تجبرُ ثعلباً على الدخول في جحره ، فانك إن انتظرتَ طويلاً تصطاده ، ولكن اذا تركته في جحره فانه لن يؤذيك » . فأشار ابو بكر بالعودة الى مكة واثنى عمر على ذلك .

لم يستطع النبيُ ان ينتظر لمدة غير محدودة حتى تسقط الطائف بسبب وجود مسائل هامة عليه ان يتفرّغ لها . فاقترح رفعَ الحصار وعودة الجيش الى مكة ؛ لكن بعض المسلمين المتحمسين احتجّوا على ذلك واصرّوا على القتال حتى يتحقق النصر . فقال لهم النبي ان بامكانهم ان يقاتلوا غداً .

وفي اليوم التالي تقدم هؤلاء المسلمون المتعطشون للقتال مرة أخرى الى جدار الطائف للاستيلاء على الحصن ، فرمتهم ثقيف بالنبل . فعادوا ووافقوا النبي على ان من المفضل ترك الثعلب في جحره .

في الثالث والعشرين من شباط (الرابع من ذي القعدة عام ٨ هجري) رفع الحصار عن الطائف . وفَقَد المسلمون اثني عشر شهيداً وجُرح منهم عدد كبير . وبقيتْ ثقيفُ مناوئةً للمسلمين . ولكن بعد مضي عشرة أشهر ، اعتنقت هذه القبيلة الاسلام وبرهنت انها قوية في عقيدتها .

وصل المسلمون الى الجعرانة في السادس والعشرين من شباط ، وكان معهم من هوازن سَبْيٌ كثير (ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لايدرى ما عِدّته) . ثم اتى وفد من هوازن الى النبي ، وقد اسلموا ، فقالوا : « يارسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يَخْفَ عليك ، فَامْنُنْ علينا منّ الله عليك » . ثم قام رجل من بني سعد ابن بكر (وهم من هوازن) يقال له زهير فقال : « يا رسول الله ، انما في الحظائر عماتك وحواضنك [1] اللاتي كُنّ يكفلْنَكَ ، ولو انا مَلَحْنا [2] للحرث ابن ابي شمر او للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به

(١) حواضنك : يريد النساء اللاتي ارضعنك ، لان حاضنة رسول الله من بني سعد وهم من هوازن ــ المترجم .

(٢) مَلَحْنا : ارضعنا ، والملح : الرضاع ــ المترجم .

رَجَوْنا عطفَه وعائدته [1] عليناوأنت خير المكفولين . » فقال رســول الله : « أبناؤكم ونساؤُكم أحَبُّ اليكم أم أموالكم » ؟ فقــالوا : « يارســول الله ، خَيَّرتنا بين اموالنــا واحسابنــا ، بل ترد الينــا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا » [2] ، فقال لهم : « أمَّــا ماكان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، واذا ما انا صليت الظُّهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برســول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسألكم » .

فلما صلّى رسول الله بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رســول الله : « أما ماكان لي ولبني عبد المطلب فهــو لكم » . وقــال المهاجرون :« وما كان لنا فهو لرسول الله » ، فقال الاقرع بن حابس : « أما أنا وبنو تَميم فلا » ، وقال عُيينة بن حِصْنٍ : « أما أنا وبنو فزارة فلا » ،

وقــال عباسُ بن مِرْداس : « أما أنا وبنو سُلَيْم فلا » ، فقالت بنو سُلَيْم : « بَلَى ، ماكان لنا فهو لرسول الله : « أما من تمسَّك منكم بحقِّه من هذا السَّبْي فله بكل إنسانٍ ستُّ فرائض من أول سَبْيٍ أصيبُهُ » . فردُّوا الى الناس ابناءَهم ونساءَهم .

بعد مضي عدة ايام خرج مالكٌ من الطائف وجاءَ الى معسكر المسلمين . وأصبح مسلماً وكوفىء بسخاء من قبل النبي . ومن المؤسف ان لايُعطى هذا الجندي الشاب اللامع دوراً هاماً في حملات المسلمين فيما بعد ، حيث كانت لديه المؤهلات التي تجعل منه قائداً فذا .

عاد النبيُّ وجيشُ المسلمين الآن الى المدينة ، فوصلوها في أواخر شهر آذار عام ٦٣٠ م . وبذلك انتهى العامُ الهجري الثامن . وقد عُرف العام الذي تلاه « بعام الوفود » ، لان معظم قبائل الجزيرة العربية ارسلت وفوداً الى المدينة وقدّمت ولاءها الى النبي . ولم تكن جميع الوفود (أو زعماء القبائل الذين ارسلوها) التي جاءت الى النبي مدفوعةً بدافع الرغبة في الدين الحقيقي ، كما سنرى فيما بعد . فبينما كان البعض مخلصاً للدين ، كان البعض الآخر قد جاء لاسباب سياسية ، او حتى لمجرد حب الاستطلاع .

---

(١) عائدته : فضله ـ المترجم . (٢) ابن هشام ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٩ .

مُجَازَفةٌ في دَوْمَةِ الجَنْدَل

في العام التاسع للهجرة ، قام المسلمون بعملية كبيرة واحدة ــ وهي غزوة تبوك ، التي قادها النبيُّ شخصياً . وَوُجّهت هذه الحملة لتكون عملية سلمية ، ولكن ليس مهماً كيف تَنفّذ بعضُ الناس مهامَّهم سلمياً ، فخالدٌ دائماً يبحث عن المغامرة والعنف .

في فصل الصيف الحارّ من عام ٦٣٠ م ، وصلت التقارير الى المدينة بخصوص حشد الروم لقوات كبيرة في سورية . وانهم دفعوا بعناصر المقدمة الى الاردن ؛ وان هرقل الامبراطور البيزنطي نفسه موجود في حمص .

في منتصف تشرين الاول عام ٦٣٠ م امر النبي المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم . لم يكن هدف الحملة محاربة الروم ، لان ذلك يمكن ان يحدث فيما بعد عندما يتحسن الطقس . كذلك فان النبي اراد أن يمتحن ايمانَ المسلمين بجعلهم يسيرون في حرّ الصيف اللاهب . ولا يستطيع ان يستجيب لنداء النبي في مثل هذه الظروف سوى المؤمنين الصادقين .

وقد استجاب المؤمنون الصادقون . ولبّى معظم المسلمين النداء بسرور وبدات الاستعدادات للحملة ؛ ولكن بعض الناس تخلفوا عن الدعوة لحمل السلاح . كان شهر تشرين الاول حارءا في ذلك العام على غير عادة ، وكانت الثمار الطيبة والظلال الوارفة تغرى المسلمين على البقاء في ثمارهم وظلالهم . وكان الناس لايريدون سوى البقاء على الحال من الزمان الذي هم عليه حتى تنتهي موجة الحرّ . وانطلق المنافقون كعادتهم يثبطون همم المسلمين عن الانضمام للحملة ويخلقون المشاكل ؛ واستطاعوا ان يؤثروا على عدد قليل منهم .

وفي أواخر تشرين الاول عام ٦٣٠ م (منتصف رجب عام ٩ هجري) انطلق المسلمون الى تبوك . وكان جيشُ المسلمين هذا اكبرَ جيش سبق ان تجمع تحت راية النبي . وكان يضم رجالاً من المدينة ، ومكة ، ومن معظم القبائل التي اعتنقت الاسلام . قدّر أحد المصادر ان قوة هذا الجيش بلغت ثلاثين الف مقاتل ، من بينهم عشرة آلاف فارس ، ولكن من المحتمل ان يكون هذا العدد مبالغاً فيه .

عند وصول المسلمين الى تبوك علموا ان عناصر الروم التي كانت في الاردن قد انسحبت الى دمشق . لذا لم يكن من الضروري التقدم أبعد من ذلك .

لكن النبيّ قرّرَ أن يُخضِعَ القبائلَ التي تعيش في هذه المنطقة تحت السيطرة السياسية للاسلام . كانت الاماكن الهامة في المنطقة هي : ام رشرش (قرب العقبة الحالية) ، وجربة ، وأذرُع ، ومَكنَه — وجميعها تقع على امتداد خليج العقبة . (انظر الخريطة داخل غلاف الكتاب) . وقد أبرمت الاتفاقيات مع هذه القبائل التي وافقت جميعها على دفع الجزية .

رغب النبي في اخضاع منطقة هامة تبعد قليلا عن تبوك . وكانت هذه المنطقة تسمى « دومة الجندل » (تسمى اليوم « الجوف ») ، وكان يحكمها اكَيدِرُ بن عبد الملك ، وهو رجل نصراني من قبيلة كِندة وكان مشهوراً بحبه للصيد . فأرسل النبي خالداً لاخضاعها ومعه اربعمائة خيّال ، وامره أن يأسِرَ اكيدراً . وقال له : « إنك ستجده يصيد البقر » . (١)

وصل خالد الى مدينة دومة الجندل المسوّرة في ليلة مقمرة صائفة من شهر تشرين الثاني عام ٦٣٠ م (منتصف شعبان ، عام ٩ هجري) . ولم يكد ينشر خالد قواته قرب المدينة ، حتى فُتحت أبوابها وخرج أكيدِر مع نفرٍ من أصحابه على خيولهم وهم يحملون أسلحة الصيد السائدة في تلك الايام . ربما خرج اكيدر للصيد ليلاً بسبب شدة الحر في النهار فقرر أن يصطاد في برودة الليل ، كما ان الليلة المقمرة أغرته بالخروج للصيد .

---

(١) ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٥٢٦ .

إنقضّ خالد مع نفر من رجاله على أكيدر وصحبه واستطاع خالد شخصياً ان يرمي أكيدر عن حصانه ويأخذه أسيراً ، وبنفس الوقت هاجم رجاله بقية مجموعة الصيد . وقاوم حَسّانُ ، شقيق أكيدر ، محاولةَ أخذِهِ أسيراً فقتل ؛ اما الباقون فقد هربوا الى داخل الحصن وأغلقوا الأبواب .

قَدِمَ خالد بأكَيْدِر على رسول الله ، فَحَقَنَ له دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلّى سبيله .

بعد هذه الحادثة ، غادر المسلمون تبوك عائدين الى المدينة . فوصلوها في منتصف كانون الاول عام ٦٣٠ م ، حيث كان الطقس آنذاك لطيفاً .

بعد غزوة تبوك لم يكن هنالك نشاطات عسكرية هامة خلال حياة النبي . فقد جاءت الوفود من جميع قبائل الجزيرة العربية ، وأقسمت يمين الولاء للنبي ، واعتنقت الاسلام ووافقت على دفع ضريبة معينة . وعيّن النبي زعيماً لكل قبيلة من القبائل التي دخلت في الاسلام . وهكذا ظل النبي مشغولا بأعمال الدولة . وأرسلت حملات من قبله الى عدة أنحاء في الجزيرة العربية . وكانت المهمة المسندة لهذه الحملات هي دعوة القبائل للدخول في الاسلام ، وفي حال لجوء القبيلة للمقاومة المسلحة يقوم المسلمون بمحاربتها واخضاعها .

في تموز ٦٣١ م (الموافق لشهر ربيع الثاني ، عام ١٠ هجري) ، أرسل النبي حملة عسكرية بقيادة خالد الى قبيلة بني الحرث بن كعب في نجران ، التي تقع الى الشمال من اليمن . وأمره ان يدعوهم الى الاسلام قبل أن يقاتلهم ، ثلاثاً ، « فان استجابوا فاقبل منهم ، وان لم يفعلوا فقاتلهم » . وكان مع خالد أربعمائة فارس .

وصل خالد الى نجران وأجرى اتصالا مع بني الحرث بن كعب . ودعاهم الى اعتناق الاسلام ، فقبلوا دعوته ، ولم ترق الدماء . وبقي خالد مع القبيلة عدة اشهر ، وهو يعلمهم أصول الاسلام ؛ وعندما اقتنع بأنهم أصبحوا

مسلمين صالحين ، كتب الى النبي يعلمه بنجاح مهمته . فأرسل النبي الى خالد كتابَ تقدير ، واوعز اليه ان يعود الى المدينة مع وفد من بني الحرث ابن كعب . عاد خالد مع الوفد في كانون الثاني عام ٦٣٢ م (شوّال ، عام ١٠ هجري) .

وقابلهم النبي بالترحيب والاكرام الذي كان يقابل به جميعَ الوفود . وقد شُرحت شروط الاستسلام لهم ، وعُيِّن زعيمٌ للقبيلة ، وبعدئذٍ عاد الوفد الى نجران .

كانت هذه المهمةُ آخرَ عملٍ أسند الى خالد زمن النبي .



الجزء الثاني

حروب الرّدة

تجمّع نذر العاصفة

في الحقيقة ، بدأت الردة عن الدين الاسلامي في حياة النبي ، وقد تمت محاربة أول عملية ارتداد كبيرة وتم القضاء عليها والنبي لايزال حيًّـا . لكن الخطـر الحقيقي للارتداد عن الدين ظهر بعد وفاة النبي ؛ عندما اجتـاحت الجزيرة العربية موجة عاتية من الكفر بعد الايمان ؛ وكان علّى ابي بكر ان يتولى محاربة المرتدين . ان حروب الردة المشروحة في هذا الجزء مأخوذة ككل ، على الرغم من ان أول هذه الاحداث يعـود حسب التسلسـل الزمني الى الجزء الاول من هذا الكتاب .

حدث أول ارتداد كبير في اليمن وعُرف بحادثة الاسود العنسي . كان الاسود زعيم قبيلة عَنْس ــ وهي قبيلة كبيرة تقطن الجزء الغربي من اليمن . واسمه الحقيقي عَبْهَلَة بن كعب ، ولكن بسبب لون بشرتـه الداكـن سمي بالاسود . وكان متعدد الصفات ، يحسد على عدد قليل منها ، وقبل الارتداد عرف برغيم العشيرة وبالكاهن .

خلال العام العاشر للهجرة ، اعتنق سكان المناطق الجنوبية والجنوبيـة الشرقية من شبه الجزيرة العربية الاسلامَ . فأرسل النبي المبعوثين والمعلمين الى أماكن متعددة لتعليم الناس مبادىء وأصول وأحكام الدين وقد أنجز هذا العمل باتقان . لكن غالبية سكان هذه المناطق لم يصبحوا مسلمين حقيقيين ، حيث كان اسلامهم شكليا أكثر منه تغيّراً في القلب .

قبل دخول هؤلاء السكان بالاسلام ، كان يحكم اليمن نيابةً عن الامبراطور

الفارسي ، أحد نبلاء الفرس واسمه « باذان[1] » . واسلَمَ هذا الحاكم وثبِّت في منصبه من قبل النبي . ونظراً لكونه عاقلاً وفاضلاً ، ازدهرت الولاية تحت حكمه ؛ ولكنه مات قبل الحج الاخير للنبي بمدة قصيرة . وعيَّن النبيُ ابنه « شَهْر » حاكماً على صنعاء . وظل السلامَ سائداً في اليمن ، ولم تعكر صفو سماء الجنوب أيّة غيوم .

بعد ذلك ، وفي حجة الوداع للنبي صلى الله عليه وسلم ، قرر الاسود أن يصبح نبياً . فجمع قبيلته ، واسمَعَهم بعضَ اشعاره ، وادعى انها من القرآن الذي انزل عليه ، واعلن انه رسول الله .

كان الأسود يملك حماراً وقد دربه على اطاعة أوامر معينة ، واستخدم هذا الحمار لعرض قوته بإعطائه أمراً ما : « اركع أمام سيدك » ، فيركع الحمار[2] . وبسبب ذلك ، سمي الاسود « بذي الحمار » . ويذكر بعض المؤرخين انه كان يعرف باسم « ذي الخمار[3] » ، اي الثَّمِل . ويمكن ان يكون اسمه هذا صحيحا لادمانه الشديد على شرب الخمر . مع ذلك ، فإن قبيلته تبعته وهي تعتقد انه نبي حقيقي ؛ وقد شاركهم في هذه الخطيئة بعض القبائل اليمنية قليلة الشأن .

جَهَّز الاسود قوة من الفرسان ، تعدادها سبعمائة ، وخرج الى نجران . فاستولى عليها بدون مشقة وطرد حاكمها المسلم . وترك احد رجاله ليحكم نجران وتحرك الى صنعاء وهو يتباهى بهذا النصر السهل . (انظر الخريطة رقم ٧) . سمع « شَهْر » ، الحاكمُ المسلمُ الذي عُيِن حديثا حاكماً على اليمن ، بسقوط نجران ، كما علم بنوايا الاسود ، فقرر ان يهاجم الاسود قبل ان يتمكن من الوصول الى صنعاء . فجهز قوة صغيرة (لم يكن لديه محاربون كثيرون) ، وسار لملاقاة خصمه ، وتقابلت القوتان على مسافة شمال صنعاء .

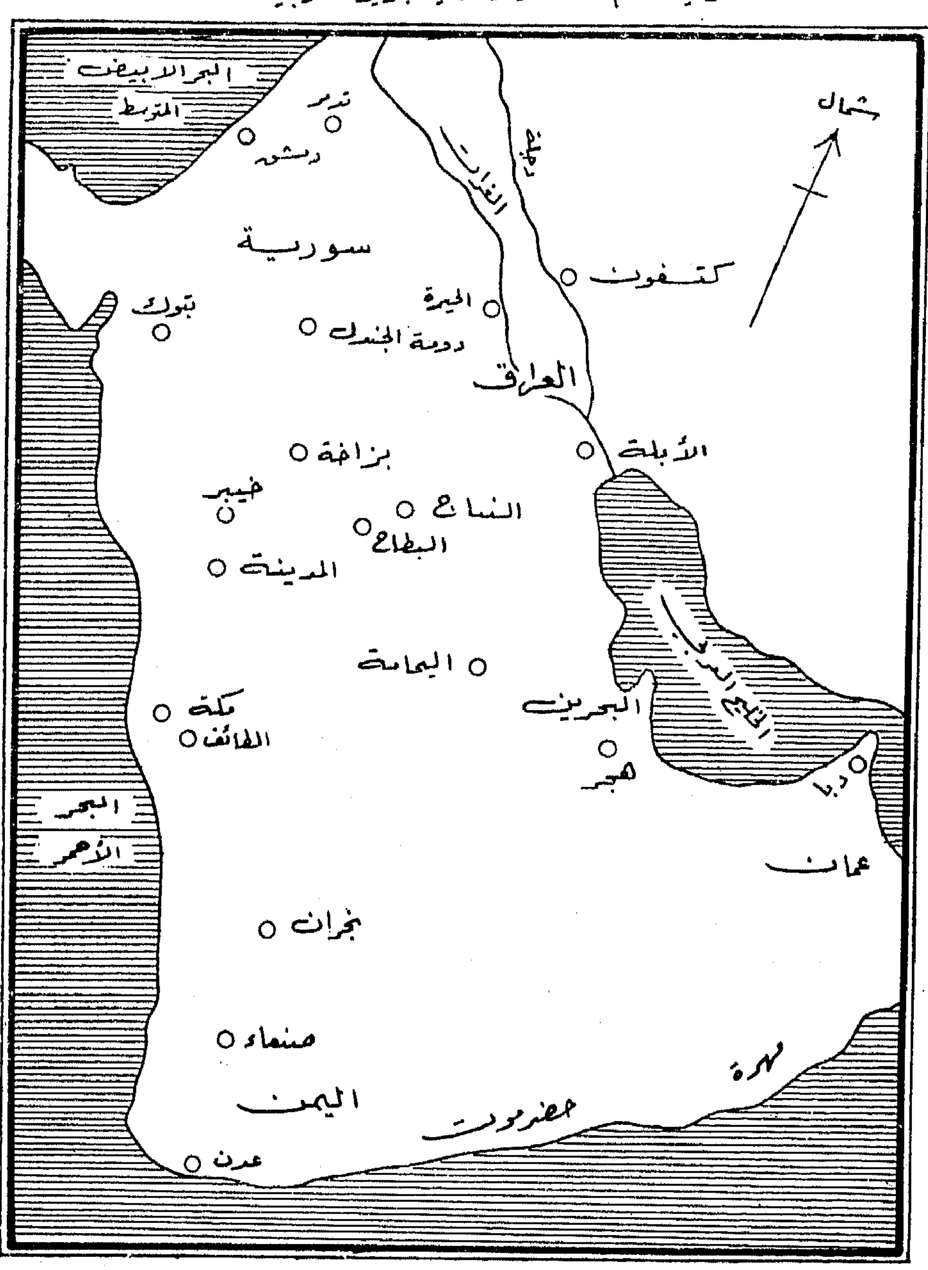
---

(١) بعض المؤرخين يسميه باذام .

(٢) البلاذري ــ صفحة ١١٣ .

(٣) البلاذري ــ صفحة ١١٣

الخريطة رقم ٧ - المرتدون في الجزيرة العربية



وانتهت المناوشة القصيرة التي حصلت لصالح الاسود . فهزم المسلمون في المعركة وقتل « شهر » ، تاركا وراءه أرملة شابة جميلة تدعى « آزاد » . وبعد خمسة ايام دخل الاسود صنعاء فاتحا . لقد عمل بسرعة لتحقيق مهمته ، اذ مضى خمسة وعشرون يوما فقط منذ ان جمع قبيلته واعلن النبوة .

اصبحت معظم اليمن تحت سلطته . ولكي يسعد بانتصاره العسكري والسياسي ، تزوج من آزاد الجميلة . ولم يكن امام الارملة المسكينة من خيار سوى الخضوع والاستسلام لذي الحمار .

بعد ان احتل الاسود نجران وصنعاء ، عزز انتصاراته ومد سلطته على جميع انحاء اليمن ، واعترفت به عدة قبائل حاكما ونبياً . وبعد ان اخذت سلطته بالنمو ، بدأ يشعر بعدم الرضى بلقب نبي واعلن نفسه « رحمن اليمن[1] » . كلمة رحمن تعني رحيم ، وهي احدى اسماء الله الحسنى عند المسلمين . وهكذا حاول الاسود ان يدخل ملكوت الالوهية التي لم يدعها رجل الا ونزلت به اسوأ العواقب . وعلى اية حال ، اصبح يعرف بالنسبة لاتباعه ب : « رحمن اليمن » . استمر الاسود في تعاطي الخمر ، كما استمر في التمتع بآزاد ذات الحظ السيء ، التي كانت تكرهه بشدة وقد اسَرّت الى ابن عمّها : « ما خلق الله شخصا ابغض إليّ منه[2] » . وبسبب سوء اخلاق الاسود ، فقد صَبّ جام غضبه على عائلة باذان الفارسية وعامل افرادها أسوأ معاملة . وبسبب عمله هذا ، ناصبه العداء الشديد رجل قوي ومسلم حقيقي يدعى فيروز الديلمي ـ وهو احد افراد عائلة باذان الفارسية وابن عم آزاد .

اتخذ النبي في المدينة بعض الاجراءات ضد الاسود العنسي دون علم منه ، بعد ان تلقى تقارير كاملة عن اعماله ، وارسل اليه قيسُ بن حُبيرة لتنظيم عملية تصفيته . فذهب قيس الى صنعاء سراً ، ووضع الاساس لحركة سرية ضد الدّجال ، واجرى اتصالا مع فيروز الفارسي . واصبح قيس وفيروز الراسين المدبرين للتنظيم الذي سيقوم بالانتقام من الاسود واتباعه المرتدين . ووضعا خططهما بسرية تامة .

---

(١) البلاذري ـ صفحة ١١٣ .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٧ .

ان قتل الاسود لم يتم بالامر السهل . اذ كان رجلاً ضخماً ، قوي البنية ومشهوراً بقوته وشراسته ، وسبق ان اتهم فيروز بعدم الاخلاص . علاوة على ذلك ، كان يعيش في قصر محاط بسور عال ومحروس بعدد كبير من المقاتلين الذين كانوا يتجولون باستمرار حول السور وفي ممرات القصر . واختير هؤلاء الحراس لاخلاصهم وايمانهم بالاسود . والمدخل الوحيد للقصر الذي يمكن المرور منه ، موجود فوق جزء معين من السور ، وقريب من غرفة آزاد . ولابد من تسلق السور . فاتصل فيروز بآزاد ، وشرح لها غرضة وطلب مساعدتها فوعدته بالمساعدة حالاً ، ورات في ذلك خلاصا لها من حياتها التعيسة التي تعيشها مع الاسود .

اختيرت ليلة الثلاثين من ايار عام ٦٣٢ م (السادس من ربيع الاول عام ١١ هجري) لتكون الليلة المصيرية . فبعد منتصف الليل تماما ، بدأ القمر بالاختفاء ، وفي لحظة لم يكن فيها احد من الحراس قريبا ، تسلق فيروز سور القصر بواسطة حبل وتسلل الى غرفة آزاد . فخبأته في الغرفة ، وانتظرا ، تحدوهما رغبة واحدة وهي الخلاص من الاسود .

قبيل الفجر ، خرجت آزاد من حجرتها وسارت الى غرفة الاسود ، المجاورة لغرفتها . وكانت تعرف بوجود حارس قريب ، لكنه لم يظهر . ففتحت الباب ، ونظرت داخل الغرفة ، ثم عادت الى فيروز . وهمست ، وفي عينيها وميض نار الانتقام : « انه مخمور الآن » .

سار فيروز وخرجت آزاد خلفه من غرفتها على رؤوس اصابعها ووصلا الى باب حجرة الاسود . وقفت آزاد عند الباب ودخل فيروز شاهراً سيفه . وفجاة نهض الاسود على فراشه وحملق بدهشة بفيروز الذي لم يترك مظهره شكاً بالنسبة لغرضه . امام هذا الخطر ، صحا من ثمالته ، ولكن قبل ان يتمكن من مغادرة فراشه ، قفز فيروز الى الامام وضربه على رأسه بالسيف . فسقط جريحا ، لكنه لم يمت . وطبقا لروايات المؤرخين : « بدأ يخور كالثور [1] » .

---

(١) البلاذري — صفحة ١١٤ .

لفتت صيحاته انتباه الحارس الذي اندفع الى الحجرة . فرأى آزاد واقفة عند الباب ، فسألها : « ماالخطب مع رحمن اليمن ؟ » فوضعت الفتاة الجريئة إصبعها على شفتيها وهمست : « صه ! النبيْ يوحى اليه [1] » . فأومأ الحارس برأسه علامة الفهم ، ولم يعر صيحات سيده اي اهتمام ومضى لسبيله.

انتظرت آزاد حتى وصل الخفير الى نهاية الممر ، ثم اندفعت الى الغرفة . فرأت فيروز واقفاً بجانب السرير ، وهو ينتظر الفرصة ليضرب ثانية ، بينما كان الدجال يتلوى في فراشه،ويلوح بيديه. فعمل الاثنان الآن معاً . اسرعت آزاد الى رأس السرير ، وامسكت بشعر الاسود بكلتا يديها وانزلت رأسه . اما فيروز فاستل خنجره وفصل رأس الاسود عن جسده الضخم . وهكذا انتهت حياة النبي الكذاب ، عَبهَلَة بن كعب ، المعروف بالاسود ، وبذي الخمار ، والمخمور. ودامت اعماله السيئة ثلاثة اشهر وانتهت بموته ، قبل وفاة الرسول بستة ايـام .

بموت الاسود انهارت حركته . وهبت مقاومة المسلمين التي نظمها قيس في صنعاء للانتقام بعنف من اتباع الاسود ، وقتل الكثيرون منهم . لكنْ هرب الكثيرون ايضا وهؤلاء خلقوا المتاعب للحكام المسلمين في مرحلة قادمة . والكثير عاد مسلماً مرة ثانية ، ومن هؤلاء ارتد البعض مرة ثانية . وعين فيروز حاكما على صنعاء .

وصل الرسول الذي حمل الانباء السارة الى المدينة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة . وقد جلب تقرير القضاء على الاسود العنسي بعض العزاء للمسلمين المفجوعين بوفاة النبي .

ان المدينة الآن تمر في ازمة عاطفية ، وروحية ، وسياسية . فموت محمد ترك المسلمين في فراغ . اذ كان محمد في العشر سنوات الماضية بالنسبة لهم : القائد ، والحاكم ، والقاضي ، والمعلم ، والمرشد ، والصديق . لقد شارك

---

(١) البلاذري ـ صفحة ١١٤ .

في جميع مظاهر الحياة . وكانوا يعرضون عليه جميع مشاكلهم ، فيجد الحل ، ويقرر ، ويوجه ، ويواسي . وكانوا يشعرون في وجوده بأنهم في مأمن من المشاكل والمتاعب . والآن ذهب النبي . فشعر المسلمون بالوحدة والخوف ــ وكما جاء في كلمات المؤرخين : « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية [1] » .

وازدادت الازمة عندما بدات تصل تقارير الثورة المنتشرة في الجزيرة العربية . لقد ثارت جميع قبائل الجزيرة العربية باستثناء القبائل في مكة ، والمدينة ، وثقيف بالطائف ، ضد سلطة المدينة السياسية والدينية وحنثوا بيمين الولاء . وظهر انبياء كاذبون في البلاد وادعوا النبوة . وعندما رأى هؤلاء المدعون الكذابون مقدار الحب والاحترام اللذين حظي بهما محمد ، دون ان يدركوا الفترات العصيبة التي مرت به قبل ان تثمر جهوده ، قرروا ان النبوة شيء حسن ، وانه ينبغي ان يستفيدوا منها ايضا . وبالاضافة الى الاسود ، كان يوجد كذابان (وربما ثلاثة) وكذابة واحدة . وكان يوجد آخرون من الزعماء وكبار السن الذين لم يدعوا النبوة ولكنهم تحالفوا مع المتنبئين الكذابين في خططهم الغادرة لاطفاء شعلة الاسلام والعودة الى الاستقلال القبلي زمن الجاهلية . وانتشرت نار الارتداد بسرعة في ربوع الجزيرة العربية ، واصبحت تهدد مكة والمدينة ــ المركزين الروحيين والسياسيين للدولة الاسلامية الفتية.

كان السبب الرئيسي للارتداد عن الدين هو ضعف الايمان الحقيقي . فمعظم القبائل اعتنقت الدين الاسلامي في السنتين التاسعة والعاشرة للهجرة لاسباب سياسية . ووجدوا ذلك مناسبا لهم . ونظروا الى محمد كزعيم سياسي قوي أكثر من كونه نبيا ذا رسالة سماوية جديدة . كان مسلمو مكة هم المسلمون الحقيقيون ، وبشكل خاص مسلمو المدينة الذين كانوا على احتكاك مع النبي عدة سنوات ونهلوا بعمق من ينبوع الحقيقة التي كشفها النبي . اما القبائل البعيدة فلم تمر بهذه التجربة الروحية . ففي عدة حالات ، عندما يصبح زعيم القبيلة مسلما ، فان القبيلة تحذو حذوه بسبب الولاء القبلي اكثر من الاقتناع الديني . فبوفاة محمد شعرت القبائل بانها حرة في نبذ ولائها الذي كان ، في

---

(1) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦١ .

نظرها ، مرتبطا بشخص وليس بالمدينة او بالاسلام . مات محمد ، فهم يستطيعون الآن ان يلقوا بنير النظام الذي فرضه الدينُ الجديد : في تحديد عدد الزوجات الذي يستطيع الرجل ان يتزوجه ، وفي جمع الضرائب لفائدة المجتمع ، وفي فرض الصلاة والصوم . فالزعماء الاقوياء الذين قادوا ثورة الردة فضلوا ان يكونوا احرارا في استغلال الضعفاء لمصلحتهم الخاصة ، غير مقيدين بالقيود التي فرضها الاسلام عليهم .

ازدادت مخاوف المسلمين عندما اصبح ابو بكر خليفة للمسلمين — واول خليفة في الاسلام . لم يعرف ابو بكر انه يتمتع بأية صفة قيادية بارزة من قبل ، ولا يمكن سوى للمقدرة ان تسيّر سفينة الدولة خلال العاصفة التي تجمعت من كل جانب وبدات تهدد وجود الاسلام . والمطلوب في هذا الوقت الحرج هو قائد قوي ، وشديد ، وقدير . ماذا كانت صورة ابي بكر ؟ كان رجلا صغير الجسم ، نحيلا ، شاحب اللون ، غائر العينين ، رقيق الحاجبين . وكان ظهره محنيا قليلا مما اضفى عليه مهابة الشيخوخة ، على الرغم من صَبْغِه للحيته . بالاضافة الى ذلك ، كان رقيقا ، وحساسا ، ولطيفا ، وكانت دموعه تنهمر من عينيه عندما يتأثر بأمرٍ ما .

عندما تجمع الناس لمبايعة ابي بكر ، وقف ابو بكر والقى اول خطاب له ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « اما بعد ايها الناس فإني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم . فإن احسنت ، فأعينوني . وإن اسات ، فقوّموني . الصدق امانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي ، حتى اُرجع عليه حقه ، إن شاء الله . والقوي منكم الضعيف عندي ، حتى آخذ الحق منه ، ان شاء الله . لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قومٍ الا عمهم الله بالبلاء . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى صلاتكم رحمكم الله[1] » .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٥٠ .

كانت فضائل ابي بكر وخدماته الجليلة للاسلام معروفة جيدا . فشجاعته الشخصية ، وولاؤه للنبي الذي سمّاه « بالصديق » ، ومعنوياته العالية المبنية على المبادىء ، وايمانه كأحد المخلصين للدين ، جميعها لم تكن موضع شك . ونظراً لكونه ثالث رجل اعتنق الاسلام ، فان مركزه بين « العشرة البررة » كان مرموقاً حقاً [١] . ولكن هل كانت صفاته هذه تؤهله للقيادة في الاوقات العصيبة ؟ ثم كان بعد ذلك خروج جيش أسامة ، الذي عرّض المدينة للخطر ، وزاد في مخاوف المسلمين .

حوالي منتصف أيار عام ٦٣٢ م ، « ضرب النبي على الناس بعثا الى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه ، فأمره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الاولون [٢] » .

كان أسامة يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وهو ابن زيد بن حارثة اول قائد للمسلمين سقط في معركة مؤتة . ومع ان اسامة كان من عامة الناس ولم يكن من عائلة ذات نفوذ في قرش ، الا ان النبي عينه قائدا على جميع المحاربين المشهورين الذين ينتمون الى افضل البطون . تجمع المقاتلون في مكان يقع غربي أحد ، واصبح هذا الحشد يُعرف بـ : « جيش أسامة » . وكانت هذه آخر حملة أمر بها النبي ، ومن الممكن ان تعني الحرب مع الروم .

حُدّدت منطقة مؤتة الاردنية كهدف جغرافي لاسامة . اذ امره النبيُ ان يذهب الى المكان الذي قتل فيه ابوه ، وان يغزو تلك الاقاليم . كما امره ان يذهب بسرعة ، وان يأخذ معه الادلاء ، وان يرسل امامه العيون . قبل وفاة النبي بوقت قصير ، ذكّر اصحابه لارسال جيش أسامة . وعندما توفي النبي في يوم الاثنين ، الخامس من حزيران عام ٦٣٢ م (١٢ ربيع الاول عام ١١ هجري) كان الجيش لا يزال في معسكره . وفي نفس اليوم اصبح ابو بكر ، ابن ابي قحافة، خليفة للمسلمين .

---

(١) اول رجل اعتنق الاسلام هو علي ، والثاني هو زيد بن حارثة .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٢٩ .

وفي اليوم التالي اصدر الخليفة ابو بكر تعليماته لجيش أسامة لكي يستعد للمسير . وارسل جميع اصحاب رسول الله القادرين على القتال للانضمام الى الجيش في معسكره والعمل تحت قيادة أسامة الشاب . حتى ان عمر ، وهو من أقرب اصدقاء ابي بكر ، أرسل الى المعسكر .

استمرت التحضيرات في الايام القليلة التالية على الرغم من وصول الانباء عن الانتشار السريع للارتداد عن الدين . وجاء عدد من المسلمين البارزين الى الخليفة وقالوا له : « ان هؤلاء جُلّ المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغي لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين » . فقال ابو بكر : « والذي نفس ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته [1] » .

ومرت ايام قليلة اخرى . واخذت الانباء تتوارد عن المرتدين . فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : « ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه يأذن لي ان ارجع بالناس فان معي وجوه الناس وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله واثقال المسلمين ان يتخطفهم المشركون [2] » . وقالت الانصار فان ابى الا ان نمضي فأبلغه عنا واطلب اليه ان يولي امرنا رجلاً اقدم سناً من أسامة. فخرج عمر بأمر أسامة واتى ابا بكر فأخبره بما قال أسامة فقال ابو بكر : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم ارد قضاءً قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقال عمر : « فان الانصار امروني ان ابلغك وانهم يطلبون اليك ان تولي امرهم رجلاً اقدم سناً من أسامة » . فوثب ابو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر فقال له : « ثكلتك امك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله وسلم وتأمرني أن أنزعه [3] » . فخرج عمر الى الناس ، فقالوا له: ما صنعت ، فقال : « امضوا ثكلتكم امهاتكم ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله » .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦١ .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .
(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .

في الرابع والعشرين من حزيران عــام ٦٣٢ م (الاول من ربيــع الثاني عام ١١ هجري) ، انطلق جيش اسامة من معسكره . فخرج ابو بكر حتــى اتاهم فاشخصهم وشيعهم ، وهو ماش واسامة راكب * وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة ابي بكر . فقال اسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن" او لانزلن . فقال: « والله لاتنزل ، ووالله لا اركب . وما علي أن اغبّر قدمي في سبيل الله ساعة ، فان للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجــة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة [1] » .

وطلب ابو بكر من اسامة ان يترك له عمر ، اذا راى ذلك مناسبا ، لكي يعينه . فاذن اسامة لعمر ان يبقى مع ابي بكر . بعد ذلك قال ابو بكر : « يا أيها الناس ، قفوا أوصكم بعشر ، فاحفظوها عني ، ولا تخونوا ، ولا تغلــوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغــيرا ولا شيخــا كبــيرا ولا امراة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله[2] » . ثم التفت أبو بكر الى اسامة وقال له : « إصنع ما امرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم وابدأ ببلاد قضاعة » . فمضى أسامة بجيشه لتنفيذ مهمته .

كان ارسال جيش اسامة خطيئة في الظروف التي نشات منذ وفاة النبي. وذكر بعض الكتاب المسلمين انه عمل حكيم من قبل ابي بكر ، لان ذلك كان بمثابة اظهار للقوة امام الثائرين ، وبذلك تم ردعهم عن القيام باعمال اكثر عنفا . وعمليا لم يكن ذلك هو المشكلة . فمع ان اسامة نفذ مهمته بسرعة وبفاعلية ، الا ان عمليته لم تؤثر بتاتا على الاعمال القتالة التي قام بها المرتدون في شمال ووسط الجزيرة العربية . وكان ارسال جيش اسامة عملا دينيا ، غايته اظهار الخضوع لارادة النبي الراحل ، اما من ناحيــة المناورة العسكريــة والاستراتيجيــة السياسـة ، فلم يكن اكثر من مظاهرة . وقد ثبت ذلك عندما عارضه قــادة

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٢ .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٣ .

المسلمين الذين ظهر من بينهم في هذه الحملة وفي الحملات التالية ابرع قادة في التاريـخ .

كان ابو بكر مدفوعا لهذا القرار بسبب رغبته في تنفيذ آخر رغبة عسكرية للنبي . لم يكـن ارسالـه لجيش اسامـة بسبب عـدم الجدارة الاستراتيجية ، فقد كان ذا قدرة عسكرية كبيرة ، كما برهن عاجلا في قيادته وادارته للحرب ضد المرتدين وفي فتوحات العراق وسورية .

ذهب جيش اسامة . وأصبحت انباء انتشار الثورة وتحشـد القبائل المعاديـة تزداد خطورة يوما بعد يوم . وازدادت مخاوف المسلمين . وعلى النقيض ، فقد ابتهج المرتدون بتولي ابي بكر مقاليد الخلافـة ، وبارسـال الجيش . وظنوا ان بمقدورهم تحطيم الدولة الاسلامية بسهولة بعـدان اصبح ابو بكـر مسؤولا عن ادارة شؤون المسلمين . واطمأن المرتدون لانهم لن يواجهوا حدة عمر ، أو بسالة علي الذي ليس له ند . إنهم سوف يجابهون شيخا لطيفا.

ولكن المسلمين فوجئوا كما فوجىء المرتدون بالضربات العنيفة التـي لقيها هؤلاء المرتدون على يدي الشيخ اللطيف . فقد هرب احـد زعماء الثائرين امام قوات أبي بكر واخذ يصرخ برعب : « ويل للعرب من ابن ابي قحافة . » [1]

* * *

(١) البلاذري ـ صفحة ١٠٤

ضربات أبي بكر

اصبح الارتداد عاماً حتى شمل كل قبيلة في الجزيرة العربية باستثناء اهالي مكة والمدينة وقبيلة ثقيف في الطائف . في بعض الحالات كانت القبيلة ترتد عن الاسلام بكاملها . وفي حالات أخرى كان قسم من القبيلة يرتد والقسم الثاني يظل متمسكا بالدين الحنيف ؛ وكان على الكثيرين ممن بقوا مسلمين أن يدفعوا حياتهم ثمنا لعقيدتهم . **اشعل الكذابون نيران الارتداد** بواسطة طليحة ابن خويلد ، ومسيلمة بن حبيب ، والنبيئة الكذابة سجاح بنت الحارث . كان مسيلمة دجالا منذ بعض الوقت ، بينما ادعى طليحة النبوة أثناء مرض النبي . وكان الخطر الداهم الذي يتهدد المدينة يتركز في طليحة وقبائل وسط ـ غرب، ووسط ـ شرق الجزيرة العربية التي سارت وراءه . وهذه القبائل هي غطفان ، وطَيِّىء ، وهوازن ، وبنو أسد ، وبنو سُلَيْم .

كان المرتدون يحتشدون في منطقتين قرب المدينة هما : « الأبرق » ، وتقع على بعد ٧٠ ميلا شمال شرق المدينة ، وذو القصة وتقع على بعد أربعة وعشرين ميلا شرقي المدينة [1] .

(انظر الخريطة رقم ٨) . وكانت هذه التحشدات تضم غطفان ، وهوازن، وطيِّىء . بعد ذهاب جيش أسامة باسبوع او اسبوعين ، ارسل أهل الردّة الموجودون في ذي القصة وفداً الى ابي بكر فعرضوا أن يقيموا الصلاة على أن

---

(١) الابرق الآن عبارة عن سهل مملوء بالحجارة يقع على بعد خمسة أميال شمال حنكية . أما ذو القصة فهي غير موجودة ؛ ومكانها معروف فقط بالنسبة لمسافتها عن المدينة (ابن سعد ـ صفحة ٥٩٠) ، وتقع على الطريق الى ربازة التي تقع على مسافة ٢٠ ميلا شمال شرق حنكية .

الخريطة رقم ٨ المرتدون في الجزيرة العربية - ٢

شمال
أجأ
*(حائل)
البزاخة
زفار
سلمى
غمرة
سميراء
نباج
*(بريدة)
الحزن
خيبر
البطاح
نقرة
إلى اليمامة (٨٠ ميلاً)
الأبرقة
المدينة
ذو القصة

* لم تكن موجودة آنذاك

بمقياس الرسم: ١/٠٠٠ر٠٠٠ر٤

يعفوا من الزكاة . ولكن أبا بكر أبى إلا ما كان رسول الله يأخذ وابَوْا فردَّهم واجَّلَهم يوماً وليلة .

فوجىء الوفد بتصميم أبي بكر وثقته بنفسه ، وكأنه لايعلم مقدار ضعف مركزه . ومع ذلك فقد منحه يوما وليلة للتفكير . وفي صباح اليوم التالي غادر الوفد المدينة دلالة على معارضته لطلبات ابي بكر . فأرسل ابو بكر مبعوثيه ، بعد ذهاب الوفد مباشرة ، الى جميع القبائل المرتدة يدعوهم الى البقاء مخلصين للاسلام والاستمرار بدفع الزكاة .

لكن وفد المرتدين من ذي القصة ، القى نظرة متفحصة على المدينة قبل مغادرته لها ، ولاحظ خلوها من المقاتلين . وعندما عاد الوفد اخبر القبائل المتجمعة عن محادثته مع ابي بكر وحالة المدينة الخالية من الجنود . وفي غضون ذلك عزّز طليحة ، الموجود حاليا في سميراء ، المرتدين في ذي حُسا بقوة من المتطوعين بقيادة أخيه « حِبَال » ، وهو قائد ذو حيلة واسعة ودهاء . وعندما سمع المرتدون بأخبار الوفد ، قرروا بدافع الغرور أن يهاجموا المدينة وهي خالية من القوات المدافعة . لذا ، تحركت القوة الموجودة في ذي القصة الى ذي حُسا ، ومن هنا تقدم جزء من القوة الى قرب المدينة وعسكر فيها استعدادا لمهاجمة المدينة . والآن هو الاسبوع الثالث من تموز عام ٦٣٢ م (أواخر ربيع الثاني عام ١١ هجري) .

وصلت انباء هذا التحرك الى أبي بكر ، وفي الحال بدأ تنظيم الدفاع عن المدينة . كان الجيش الرئيسي بقيادة اسامة بعيدا عن المدينة ، لكنها لم تكن بدون دفاع كما توهم المرتدون . فكان يوجد قليل من المحاربين ، خاصة من بني هاشم (عشيرة الرسول) ، الذين بقوا في المدينة لتشييع جثمان النبي . فشكّل أبو بكر من هؤلاء قوة مقاتلة . وقويت ثقة أبي بكر ، وهي لاتهتز أبداً ، بوجود شجعان معه مثل : علي ، والزبير بن العوّام ، وطلحة بن عبيد الله . وعيّن كلَّ واحدٍ من الثلاثة قائداً على ثلث القوة المشكلة حديثاً .

لم يحدث شيء لمدة ثلاثة أيام . وبقي المرتدون بدون نشاط لعدم معرفتهم كيف يبدؤون عملهم . بعد ذلك ، انطلق المسلمون من المدينة بناءً على أوامر

ابي بكر . فشنوا هجوما سريعا على المعسكر المتقدم للمرتدين وطردوهم بعيداً . وانسحب هؤلاء المرتدون الى ذي حسىً . فأبلغ المسلمون ابا بكر بنجاحهم ، فأمرهم ان يبقوا حيث هم وينتظروا تعليماته .

وفي اليوم التالي انطلق ابو بكر من المدينة ومعه قافلة طويلة من جمال التحميل ، حيث ان جمال الركوب كانت جميعها مع اسامة ، وهذه الجمال كانت افضل جمال استطاع ابو بكر أن يجمعها كواسطة للنقل . وعندما وصلت الجمال الى معسكر المرتدين المهجور ، ركب المسلمون الذين طردوا المرتدين على هذه الجمال ، وتقدمت القوة باتجاه ذي حسىً وهي قاعدة المرتدين .

وهنا كان الأعداءُ بالانتظار ، واظهر « حِبَالُ » شقيق طليحة ، دهاءَه العسكري . اذ وضع رجاله خلف قمة منحدر أمام القاعدة وباتجاه تقدم المسلمين .

وصعد المسلمون المنحدر وهم على ظهور جمالهم غير شاعرين بالعدو الذي كان ينتظرهم خلف قمة المنحدر . وعندما اقترب المسلمون من القمة ، وقف المرتدون وقذفوا عددا لايحصى من قِرَبِ الماء وعندما تدحرجت هذه القِرَبُ بين قمة المنحدر باتجاه المسلمين ، انفجر صوت عالٍ من صفوف المرتدين عندما بدؤوا بقرع الطبول والصياح بأعلى صوت . وعندما فوجئت الجمال غير المدرّبة على القتال ، وغير المعتادة على الاصوات المفاجئة او على اشياء تتدحرج بأعداد كبيرة باتجاهها ، اضطربت ولاذت بالفرار . فبذل المسلمون اقصى جهدهم للسيطرة على الجمال المذعورة ولكن بدون جدوى . وفي الحال عادت قوة المسلمين الى المدينة ثانية .

فرح « حِبَالُ » بخطته . فقد نجح بطرد المسلمين الى المدينة دون ان يطلق سهما واحدا . وعلى ضوء الحيلة البارعة التي ابتكرها حِبَال ، من الممكن اعتبار انسحاب المرتدين السابق كان خدعة خططت من قبل حِبَال لاستدراج المسلمين من مقرهم الامين في المدينة الى ذي حُسىً . ولكننا لانعرف الحقيقة. لكن حِبَال ارتكب خطيئة وهي تصوره ان المسلمين قد ذعروا ، وأن تراجعهم السريع الى المدينة كان علامة ضعف . ولم يعرف أن الجمال التي كان يمتطيها

المسلمون هي التي ذعرت لعدم تدربها على القتال وليس الرجال الذين على متونها . وقد ابلغ « حبال » جزء قواته الموجود في ذي القصة بهذا النجاح واستدعاه للتقدم الى الامام . وفي نفس الليلة تقدمت جميع قوات المرتدين وأقامت معسكرها مرة ثانية قرب المدينة وهو المكان نفسه الذي انسحب منه المرتدون في اليوم السابق . وكانت معنويات المرتدين عالية .

كان المسلمون من جهة ثانية بحالة من الغضب ، وكان كل شخص مصمم على اعادة الكرّة والاشتباك من جديد . وعرف ابو بكر ان المرتدين قد عادوا الى معسكرهم قرب المدينة ، فقرر أن يهاجمهم قبل ان يستطيعوا اتمام استعداداتهم للمعركة . وبناءً على تعليماته ، قضى المسلمون معظم الليل في اعادة تنظيم جيشهم الصغير والتجهيز للمعركة .

خلال الهزع الاخير من الليل ، قاد ابو بكر جيشه وسار به من المدينة استعدادا للهجوم . ووزع جيشه على النحو التالي : القلب ، والجناحان ، وحرس المؤخرة . واستلم هو قيادة القلب ، وسلّم قيادة الجناح الايمن للنعمان ابن مقرّن،والجناح الايسر لعبد الله بن مقرّن،وحرس المؤخرة لسويد بن‌مقرّن. وقبل طلوع الفجر ، كان الجيش يتحرك باتجاه معسكر المرتدين الذين خلدوا للنوم ثقةً منهم بقدرتهم على احراز نصر سهل في الغد .

فوجىء « حبال » هذه المرة . فعندما لاحت تباشير الفجر ، انقض المسلمون وهم يصيحون بعنف على المعسكر والسيوف تلوح بأيديهم . فقتل الكثيرون من المرتدين ، وأطلق عددٌ كبير منهم ساقيه للريح ولم يتوقفوا حتى وصلوا الى ذي القصة . وانهارت معنوياتهم الى الحضيض .

كسب ابو بكر هذه الجولة ، التي كانت عملا تكتيكيا دامياً أدّى الى طرد المرتدين بالسيف وليس بالحيلة فقط . فقد قرر ابو بكر ان يأخذ العدو على حين غرّة وبذلك حقق المفاجأة التي ساعدته على الانتصار على الرغم من تفوق عدوه عددياً . وكان ابو بكر بحاجة الى نصرٍ تكتيكي ، وقد تمكن من احرازه . ومن الملاحظ ان هذه المعركة تعتبر أول مثالٍ في التاريخ الاسلامي على

الهجوم الليلي الذي هو عبارة عن أسلوب تكتيكي لم يصبح مألوفا حتى الحرب العالمية الاولى .

بعد ان كسب ابو بكر هذه الجولة كما أسلفنا ، قرر ان لايعطي الفرصة لاعدائه . وصمم على ملاحقتهم قبل ان يفيقوا من الصدمة وقبل ان يعيدوا تنظيم أنفسهم . فعندما طلعت الشمس ، سار الى ذي القصة .

عند وصوله الى ذي القصة ، شكل قواته للمعركة كما شكلها في الليلة السابقة ، ثم شنّ هجومه . فصمد المرتدون أمام الهجوم ؛ لكن معنوياتهم كانت منخفضة ، فبعد مقاومة بسيطة انسحبوا امام المسلمين وتراجعوا الى « الأبرق » حيث كان يتجمع فيها عدد كبير من أفراد قبائل غطفان وهوازن وطييء .

بعد أن استولى ابو بكر على ذي القصة ، ارسل قوة صغيرة بقيادة طلحة ابن عبيد الله لمطاردة العدو . تقدم طلحة مسافة قصيرة وقتل بعض الهاربين ، لكن صغر حجم قوته منعه من انزال خسائر كبيرة بالمرتدين المنسحبين .

تم الاستيلاء على ذي القصة في الثلاثين من تموز عام ٦٣٢ م (الثامن من جمادى الاولى ، عام ١١ هجري) . وترك ابو بكر النعمانَ بن مقرّن مع مفرزة للتمسك بذي القصة ، وعاد بباقي القوة الى المدينة . وفي الثاني من آب ، عاد جيشُ أسامة الى المدينة ؛ ولم تعد عاصمة الاسلام في خطر .

عندما ترك أسامة المدينة ، سار الى تبوك . فقاومه معظم القبائل في هذه المنطقة بعنف ؛ لكن أسامة المملوء بحيوية وحماس الشباب ، اكتسح تلك المناطق في شمال الجزيرة العربية مبتدئا بقبيلة قضاعة التي تبعثرت من جرّاء ضربات قواته ، ثم تقدم الى دومة الجندل (حيث أسَرَ خالد أكيدر قبل عامين) . وقد قتل أسامةُ جميع الذين حاربوه وأحرق البساتين والقرى ، تاركاً وراءه سحب الدخان [1] .

ونتيجة لعملياته ، خضعت عدة قبائل للمدينة واعتنقت الاسلام مرة ثانية . لكن قضاعة بقيت ثائرة ، وقد حاربها فيما بعد عمرو بن العاص .

---

(١) ابن سعد — صفحة ٧٠٩ .

بعد ذلك سار اسامة الى مؤتة ، وحارب قبائل كلب وغسّان وثأر لموت ابيه . وعلى كل الاحوال ، لم تنشب معارك كبيرة . ثم عاد الى المدينة ومعه عدد كبير من الاسرى وكمية كبيرة من غنائم الحرب واموال الزكاة التي دفعتها القبائل . أستقبل جيش اسامة من قبل أبي بكر واهل المدينة بحفاوة بالغة . وكان لعودته ارتياح كبير بين المسلمين . وقد بقي جيش أسامة بعيدا عن المدينة مدة أربعين يوما .

بعد هزيمة المرتدين في ذي القصة ، انتقمت معظم القبائل المرتدة من افرادها الذين بقوا مسلمين وذلك بذبحهم . وتمّ ذلك بدون شفقة أو رحمة ، فبعضهم حُرق حياً والبعض الآخر رمي من أعلى الصخور الشاهقة . وعندما علم ابو بكر بالاعمال الرهيبة هذه ، غضب غضباً شديدا وأقسم بأن يقتل كلّ مشرك قَتَلَ مسلماً وان يهاجم كل قبيلة مرتدة بالسيف .

اختلفت الامور الآن بالنسبة للمسلمين ، فالانتصارات التي حققها ابو بكر رفعت من معنويات المسلمين على الرغم من انها غير حاسمة . وندمت بعض القبائل المرتدة التي تسكن قرب المدينة وعادت الى الدين مرة ثانية ودفعت الزكاة . كذلك عاد جيش اسامة بالاسرى والاموال . فامتلأت خزائن الدولة الاسلامية مرة ثانية وبذلك توفرت قاعدة مادية سليمة لتمويل جميع الحملات ضد أعداء الإسلام .

قرر ابو بكر أنه يحتاج الى وقت كثير قبل أن يشنّ هجوما عاما ، وذلك لكي يتيح الفرصة لجيش أسامة لأخذ قسط وافر من الراحة واعادة التجهيز . لذلك أمَرَ أسامةَ أن يريح جنوده في المدينة ، وبعمله هذا وفّر الحماية للعاصمة . أصبحت القوة التي سبق ان أعدّها ابو بكر ، قبل رجوع جيش اسامة ، تبدو كأنها جيش ، لذا قرر أن يستخدم هذا الجيش في هجوم آخر على المرتدين المتجمعين في الأبرق الى ان ينتهي اسامة من إراحة جنوده واعادة تجهيز جيشه . واصبح أبو بكر الآن جاهزاً للحرب بشكل حقيقي ، ليس لانزال العقاب بالقبائل المرتدة بسبب جريمة الارتداد فقط ، وانما للثأر لدم المسلمين الابرياء الذين قتلوا من قبل المرتدين .

وعندما اعلن ابو بكر عن نيته في قيادة جيشه الى الابرق ، حاول ذوو الراي من المسلمين منعه من القيام بذلك . وقالوا له : « ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن تعرض نفسك فانك إن تـُصـَبْ لم يكن للناس نظامٌ، ومقامُك أشدُّ على العدو ، فابعث رجلا فان اصيب أمرت آخر » .

لكن ابا بكر كان ينوي وضع حمل ثقيل على كاهل المسلمين من قادة ووحدات . فهو على وشك ان يطلب منهم ان يقاتلوا كما لم يفعلوا من قبل وان يواجهوا الاخطار التي سوف تواجه معظم المحاربين . ولم يستطع ان يجد طريقة افضل تلائم توقعاته سوى ان يخطو هذه الخطوة بنفسه . فقال لهم أبو بكر : « لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي » [1] .

فخرجت القوة الصغيرة بإمرة أبي بكر الى ذي القصة ، حيث كان النعمان في انتظاره . (احرز النعمان بن مقرن هذا شهرة كبيرة فيما بعد بسبب انتصاره في نهاوند من بلاد فارس) . وهنا عين ابو بكر النعمان واخوته لقيادة الجناحين وحرس المؤخرة ، كما فعل في هجومه الليلي ، وانطلق الى الابرق . وكان ذلك في الاسبوع الثاني من آب (الاسبوع الثالث من جمادى الاولى) .

عندما وصل المسلمون الى الابرق وجدوا ان العدو منظم بترتيب القتال. وبدون تأخير ، فتح ابو بكر قواته وهاجم المرتدين .

لم تكن معنويات المرتدين الآن مرتفعة كما كانت منذ اسبوعين . فالقوات التي هربت من ذي القصة هي نفسها التي انضمت الى المرتدين في الابرق ، وكما هو المعتاد في مثل هذه الحالات ، فقد اثر وصولهم على معنويات الآخرين . واستطاع المرتدون ان يصمدوا بعض الوقت ، بسبب تفوقهم العددي ، لكنهم بعد ذلك دحروا وهربوا . فحقق ابو بكر انتصارا آخر .

ذهبت بقية المرتدين الذين هربوا من الابرق ، وقبائل اخرى معينة من هذه المنطقة الى البزاخة ، وانتقل طليحة الكذاب الى سميراء . لكن قبائل اخرى تعيش في هذه المنطقة استسلمت للقوات التي ارسلها ابو بكر بعد

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٧٩

الاستيلاء على الابرق لاخضاع المناطق المجاورة . وتم جمع الزكاة من القبائل التي عادت ثانية الى الاسلام .

في اليوم التالي غادر الخليفة ابو بكر الابرق متوجها الى المدينة . وهنا قضى بضعة ايام في تصريف شؤون الدولة ، ثم انتقل الى ذي القصة مع جيش « اسامة » . ومنذ الآن لم يعد هذا الجيش يسمى بجيش اسامة ، لان اسامة انجز المهمة المطلوبة منه واصبح جيشه بعد ذلك يعرف باسم جيش الاسلام الذي وضع تحت تصرف الخليفة لاستخدامه حسب متطلبات الموقف . وبذلك انتهت قيادة أسامة لهذا الجيش .

نظم ابو بكر في «ذي القصة» جيش الاسلام وقسمه الى عدة الوية للتعامل مع الاعداء الذين احتلوا جميع أراضي الجزيرة العربية باستثناء منطقة صغيرة كانت بحوزة المسلمين . كانت هذه هي المرة الاولى التي ينظم فيها جيش المسلمين في الوية ، ولكل لواء امير (قائد) ، وذلك لتنفيذ مهام مستقلة وفق التوجيه الاستراتيجي العام للخليفة . كان القادة المسلمون حتى الآن يعملون على المستوى التكتيكي ، اما من الآن فصاعدا فسوف يدخلون عالم الاستراتيجية ، وقد اثبتوا فيما بعد تفوقا في هذا المضمار .

خطط ابو بكر في ذي القصة استراتيجية الحرب ضد المرتدين وذلك في الاسبوع الرابع من آب عام ٦٣٢ (أوائل جمادى الآخرة عام ١١ هجري). كانت المعارك التي خاضها ابو بكر في ذي القصة والابرق عبارة عن عمل وقائي لانقاذ المدينة ولتثبيط همة العدو عن القيام بهجمات اخرى ، وذلك لكسب الوقت من اجل اعداد وتجهيز قواته الضاربة الرئيسية . ويمكن وصف الاعمال الوقائية التي نفذها ابو بكر بأنها هجمات تمهيدية ، فهي مكنت ابا بكر من تأمين قاعدة لشن الحملة الرئيسية منها .

كان على ابي بكر ان يقاتل عدة اعداء وليس عدوا واحدا ، وهؤلاء الاعداء هم : طليحة الدجال في البزاخة ، ومالك بن نويرة في البطاح ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة . وكان عليه ان يحارب المرتدين المنتشرين على السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية : في البحرين ، وعمان ، ومهرة ، حضرموت

واليمن . وكان يوجد مرتدون ايضا في المنطقة جنوب وشرق مكة ، وفي شمال الجزيرة العربية تظاهرت قضاعة بانها رجعت الى الدين بعد عودة جيش اسامة .

كان موقف المسلمين يشبه جزيرة صغيرة من الايمان في بحر من الكفر ، وسراجا منيرا في الظلام يشكل خطرا على المؤمنين . ولم يكن عمل ابي بكر مقتصرا على المحافظة على الشعلة متقدة فحسب بل كان عليه ان يبدد الظلام ويسحق قوى الشر التي تجمعت من كل جانب واصبحت مصدر تهديد للاسلام . كان عدد المرتدين يفوق عدد المسلمين كثيرا ، على الرغم من انهم غير متحدين . وكانت قوة ابي بكر العسكرية تكمن بوجود ابرع المقاتلين في صفوف المسلمين . بالاضافة الى وجود سلاح رهيب لديه — هو سيف الله خالد بن الوليد .

وضع ابو بكر خططه الاستراتيجية وفق ما ذكرنا آنفا . فقسم الجيش الى عدة الوية وكانت أقواها ، لواء خالد الذي كان بمثابة قوة ضاربة للمسلمين . وكان على هذا اللواء ان يحارب أقوى قوات المرتدين ويخضعهم . واعطيت باقي الالوية مناطق أقل أهمية لاخضاع قبائل المرتدين الاقل خطرا بعد سحق مقاومة العدو . وأبقي لواءان كاحتياط لتعزيز لواء خالد أو اية الوية اخرى تحتاج الى مساعدة . كان على لواء خالد أن يبدأ بخوض المعركة ، وستزج باقي الالوية في المعركة على ضوء نتائج عمليات خالد الذي أعطي مهمة محاربة أقوى قوات العدو . كانت خطة ابي بكر تقضي بتطهير منطقة اواسط غرب الجزيرة العربية أولا (المنطقة القريبة من المدينة) ، ثم اخضاع مالك بن نويرة ، وأخيرا التركيز ضد أخطر الاعداء وهو مسيلمة الكذاب . أي ان ابا بكر كان يهدف الى حشد قواته ضد الجيوش المعادية الرئيسية والقضاء على كل جيش على انفراد وبالتتالي ، ثم تطهير المناطق القريبة فالبعيدة .

شكل الخليفة ابو بكر احد عشر لواءا ، وعين أميرا لكل لواء . واعطى لكل لواء راية . ووزع القوة البشرية المتوفرة لديه على هذه الالوية . وبينما اسندت مهام فورية لبعض القادة ، فقد أسندت مهام لقادة آخرين للقيام بمهام معينة فيما بعد . واعطيت تعليمات لامراء الالوية لضم الرجال الشجعان الى

الويتهم وهم في طريقهم الى اهدافهم . فيما يلي اسماء قادة الالوية الاحد عشر والمهام التي اسندت اليهم :

١ ـ خالد : التوجه الى طليحة بن خويلد في البزاخة ، ثم الى مالك بن نويرة في البطاح .

٢ ـ عكرمة بن ابي جهل : التوجه الى مسليمة الكذاب في اليمامة دون الاشتباك معه الى ان يتم تجهيز قوات اكثر عددا .

٣ ـ عمرو بن العاص : التوجه الى قبيلتي قضاعة ووديعة في منطقتي تبوك ودومة الجندل .

٤ ـ شرحبيل بن حسنة : التقدم خلف عكرمة جاهزا لتلقي تعليمات الخليفة .

٥ ـ خالد بن سعيد : التوجه الى القبائل المرتدة على مشارف الشام .

٦ ـ طُرَيفة بن حاجز : التوجه الى قبيلتي هوازن وبني سُلَيم في منطقة شرقي المدينة ومكة .

٧ ـ العلاء بن الحضرمي : التوجه الى المرتدين في البحرين .

٨ ـ حذيفة بن محصن : التوجه الى المرتدين في عُمان .

٩ ـ عرفجة البارقي : التوجه الى المرتدين في مهرة .

١٠ ـ المهاجر بن ابي امية : التوجه الى المرتدين في اليمن ، ثم الى قبيلة كندة في حضرموت .

انطلق خالد لمحاربة المرتدين عندما تم تنظيم لوائه ، ثم تبعه بعد فترة قصيرة عكرمة وعمرو بن العاص . وقد استبقى الخليفة ابو بكر الالوية الاخرى حيث ارسلها بعد اسابيع ، او حتى اشهر . وكان ارسالها مشروطا بنجاح عمليات خالد الموجهة ضد اصلب الاعداء .

وعلى أية حال ؛ فقد أرسل ابو بكر المبعوثين ، قبل ان تترك الالوية ذا القصة ، الى جميع القبائل المرتدة في محاولة اخيرة لاقناعهم بالعودة الى طريق

الصواب . وقد اعطيت تعليمات محددة الى المبعوثين تنص على مايلي : الطلب الى القبائل المرتدة ان تعود الى الاسلام وتعلن خضوعها التـام ؛ فاذا قبلت القبائل بذلك فانها ستمنح العفو والسلام ؛ واذا لم تقبل فانها ستحارب الى ان يتم انقضاء على المقاومة وستؤخذ نساؤها واطفالها سبايا ؛ وقبل الهجوم على اية قبيلة ، فان قوات المسلمين ترفع الأذان ، فاذا استجابت القبيلة للاذان فان ذلك يعتبر خضوعا منها .

كذلك أعطى الخليفة تعليمات واضحة الى امراء الالوية :

« (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا عهد من ابي بكر خليفة رسـول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه ، لقتال من رجع عن الاسلام ؛ وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سرّه وعلانيته . وأمره بالجد في امر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الاسلام الى اماني الشيطـان بعد أن يُعذِرَ اليهم ، فيدعوهم بداعية الاسلام ، فإن اجابوه أمسك عنهم ، وان لم يجيبوه شنّ غارته عليهم ، حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهـم والذي لهم ، فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذي لهم ، لاينظرهم ، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب الى أمر الله عز وجل ، واقر له قبل ذلك منه ، واعانه عليه بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيـل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استَسَرَّ به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مُراغَمَهُ ، لايقبل من أحدٍ شيئاً أعطاه الا الاسلام ، فمن أجابه ، وأقر قَبِلَ منه وعلّمه ، ومن ابى قاتله ، فان اظهره الله عليه قَتَلَ منهم كل قِتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسّم ما أفاء الله عليه ، إلا الخمس فانه يُبَلّغُنَاه وإن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وان لايدخل فيهم حشوا حتى يعرفهـم ويعلم ماهم ، لئلا يكونوا عيونا ، ولئلا يُؤتى المسلمون من قِبَلهم ، وأن يَقتَصد بالمسلمين ويَرْفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقّدهم ولا يُعجل بعضهم عن بعض ويستوصيَ بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القَوْل »[1] .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٢ .

طُلَيحة الدَّجال

كان طليحة بن خويلد أول من اصطدم مع المسلمين من بين المتنبين الكذابين الذين بقوا بعد موت « الأسود » . وكان طليحة زعيماً لقبيلة بني اسد ، وكان يناصب النبي العداء ردحاً من الزمن .

كشف طليحة عن عدائه للمسلمين بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر . اذ اعتقد ان المسلمين قد أوذوا بشدة في المعركة ، فجمع قبيلته بغرض الاغارة على المدينة لاستغلال فرصة ضعفهم ؛ لكن النبي علِمَ بتحشد القبيلة وارسل قوة من الفرسان تعدادها مائة وخمسون فارسا للاشتباك معها . وقبل ان تصل انباء هذا التحرك المضاد الى طليحة ، كانت خيالة المسلمين قد وصلت اليه . فتفرّق المشركون بدون قتال ، واستولى المسلمون على قطعان ماشية القبيلة وساقوها الى المدينة كغنائم حرب . واثرت هذه النتيجة السيئة على طليحة وقلّلت من قيمته في نظر قبيلته .

ثم اشترك طليحة في غزوة الخندق . اذ استجاب الى نداء اليهود لحمل السلاح ضد المسلمين ، وشكّل مفرزة من المقاتلين من بني أسد وضمّها الى الاحزاب التي حاصرت المدينة . وعندما انسحب ابو سفيان من المدينة ، عادت قبيلة بني اسد الى قراها ، وفي هذه المرة ايضا لم يحقق طليحة شيئاً .

وكانت الحادثة التالية التي جابه فيها طليحة المسلمين هي عندما أرسل المسلمون حملة ضد يهود خيبر في عام ٦٢٨ م (عام ٧ هجري) . فانحازت قبيلة بني أسد بزعامة طليحة الى اليهود . وشنّ طليحة عدداً من الهجمات على المسلمين أثناء توجههم الى خيبر لكنه دُحر في جميع هذه الاشتباكات . عندئذٍ سحب طليحة قواته وترك اليهود لمصيرهم .

بعد سنتين ، خلال « عام الوفود » ، أرسلت بنو أسد وفداً الى المدينة لتقديم الولاء الى النبي . ودخلتْ القبيلةُ بأكملها في الاسلام ، ولكن اعتناقها للاسلام كان لاسباب سياسية ، مثلما فعل عدد كبير من قبائل الجزيرة العربية ، وليس بدافع الايمان الحقيقي . واعتنق طليحةُ الإسلام ظاهرياً أيضاً . وظل طليحة زعيماً لقبيلتــه سواء أكان مشركاً أم مسلماً . كما ظـلَّ كاهنا يتنبأ بالمستقبل ويقرض الشعر .

اثناء مرض النبي ، وقبل وفاته ببضعة أيام ، عزَم طليحة على الاستقلال . فأعلن نفسه نبياً . ودعا أفراد قبيلته لكي يتّبعوه ، وقد تبعه الكثيرون . وعندما وصله نبأ وفاة النبي ، ضاعف جهوده ليكون النبي الجديد ، وعندما انتشرت عدوى الردّة في الجزيرة العربية ، سارت قبيلة بني اسد بكاملها وراء رايته ، وقبلت به زعيماً ونبياً . ولكي يظهر انفصام روابطه بالمدينــة ، طرَد جابي الضرائب في منطقته وهو شاب صنديد يدعى ضِرار بن الأزور ، وسوف نتحدث عنه الكثير في الحملة التي ارسلت الى أرض الشام .

بعد أن أعلن طليحةُ نفسَه نبياً ، شعر بأن من الضروري ان يفعل شيئاً يتعلق بالدين لكي يبرهن أنه حقاً رسولٌ من عند الله . فهداه تفكيرُه الى ان يغير طريقة الصلاة . فألغى الركوع والسجود اللذين هما جزء أساسي مــن فريضة الصلاة التي يقيمها المسلمون . وقال : « إن الله لايصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئاً . اذكروا الله واعبدوه قياماً » .

وصلّتْ قبيلةُ بني أسد بدون ركوعٍ وسجود بناءً على توصية نبيّهم الدجّال ، بعضهم عن غفلة وبعضهم عن عصبية .

وبانتشار الردّة ارتفعت مناصب أتباعه . وتلقى طليحةُ المساعدات من القبائل الرئيسية الموجودة في أواسط شمال الجزيرة العربية ، وكانت أخلصها قبيلة غطفان تليها قبيلة طيّىء ، وكانت قبيلةُ بني أسد على حلف مع هاتين القبيلتين منذ زمن بعيد . وقُدِّمتْ مساعدة أخرى من قبيلتي هوازن وبني سُلَيْم ، لكن هذه المساعدة كانت فاترة . ومع ان هاتين القبيلتين ارتدتا عن الاسلام وحاربتا المسلمين، إلا أنهما لم تنضما الى طليحة ولم تحاربا تحت لوائه .

كان عُيينة بن حصن اقوى مساعدٍ لطليحة ، وكان عيينة ـ وهو بعين واحدة ـ زعيماً لبني فزارة وهي احدى بطون غطفان القوية . وهو الذي كان يقود مقاتلي غطفان في غزوة الخندق ، والذي اطلق عليه النبيّ إسم : «الأحمق». وقد كان احمق فعلا باتباعه طليحة . وعلى كل الاحوال ، لم يكن عيينه مؤمنا تماما بالدجّال لانه قال يوما : « والله لأن نتبع نبيا من الحليفين : أسد وطيّىء احب الينا من ان نتبع نبياً من قريش وقد مات محمد وبقي طليحة فطابقوه على رأيه» [1] . وكانت مساعدته ليست بذات قيمة ، لانه وضع قبيلة بكاملها تحت سلطة طليحة .

جمع طليحة قبيلة بني أسد في سميراء . وكانت غطفان تقيم في جوار بني اسد جاهزة لتنضم الى طليحة بأسرع مايمكن . وقبلت به طيّىء أيضا زعيما ونبيّاً ، لكنها بقيت في منطقتها شمال وشمال شرق خيبر باستثناء مفرزة صغيرة انضمت اليه في سميراء . وهنا بدأ طليحة بالاستعداد لمحاربة قوات المسلمين .

عندما سمع طليحة بتجمع القبائل في الابرق وذي القصّة ، أرسل مفرزة من قبيلته بقيادة اخيه « حِبَال » لتعزيزها . ولقد سبق أن وُصفت عمليات المسلمين ضد ذي القصة والابرق . فبينما كانت هذه العمليات دائرة ، تحرك طليحة بجيشه الى بُزاخة ، حيث انضم اليه فيما بعد بقايا المرتدين الذين طردوا من الابرق .

تمت استعدادات طليحة في بزاخة بسرعة . وارسل المبعوثين الى عدة قبائل يدعوها الى الانضمام اليه ، واستجابت عدة قبائل لدعوته . فجلب عُيينة سبعمائة محارب من بني فزارة . وكانت اكبر القوات من بني أسد وغطفان . وكان يوجد أيضا مفرزة من طيّىء ، لكن القوة الرئيسية من طيّىء لم تأت الى بُزاخة .

كان طليحة مستعدا للمعركة عندما انطلق خالد من ذي القصّة .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٧ .

سعى ابو بكر بشتى الوسائل ، قبل ان يزج بخالد ضد طليحة ، لتقليل قوة طليحة لكي يضمن النجاح لخالد . فبالنسبة لقبيلتي بني أسد وغطفان لايمكن عمل أي شيء لوقوفهما بثبات خلف طليحة ، أما بالنسبة لطيئ فالامر مختلف . ففي الحقيقة لم تكن مخلصة تماما في مساعدتها للدجال ، وكان زعيمها عدي بن حاتم مسلما ورعا . (لقد عاش هذا الرجل مائة وعشرين عاما ، وكان طويلا لدرجة انه عندما كان يمتطي صهوة جواده كانت قدماه تلامس الارض) [1] . وعندما حاول عدي أن يمنع ارتداد طيئ عن الاسلام ، انفضت القبيلة من حوله وكانت النتيجة ان ترك قبيلته مع عدد من اعوانه المخلصين والتحق بالخليفة ابي بكر . فقرر ابو بكر ان يقوم بمحاولة إبعاد طيئ عن طليحة . واذا لم يتمكن من اقناعهم بتخذيل طليحة ، فانه سيحاربهم ويسحقهم بسرعة في مكانهم الحالي قبل ان يتمكنوا من اللحاق به في بزاخة . وبهذه الطريقة سيحرم طليحة من مساعدة طيئ .

وارسل ابو بكر زعيم طيئ للتأثير في قبيلته . وسار معه خالد ، وكان لواء خالد يعقد اربعة آلاف رجل . وقال ابو بكر لخالد : « واذا باءت جهود عدي بالفشل ، فابدا بطيئ على الاكناف وقاتلها هناك » [2] . وكان على خالد ان يتوجه الى بزاخة بعد الانتهاء من طيئ . (انظر الخريطة رقم ٨) .

انطلق خالد من ذي القصة باتجاه الشمال قاصدا بزاخة . وقبل ان يصل الى بزاخة ، اتجه يسارا واقترب من المنطقة الواقعة جنوب جبال « أجأ » والتي تتجمع فيها قبيلة طيئ . وهنا تقدم عدي الى الامام وخاطب افراد قبيلته : تكلم عن الله ورسوله ، وعن نار جهنم ، وعن عدم جدوى المقاومة ، ولكن على الرغم من بلاغته القوية لم يفلح في التأثير عليهم . وعارضه ذوو الراي منهم ، عندئذ حذرهم عدي قائلا . « لقد اتاكم قوم ليُبيحُنَّ حريمكم ولتكننه بالفحل الاكبر ، فشأنكم به » .

---

(١) ابن قتيبة ــ صفحة ٣١٣ .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .

لقد أثر تحذير عدي ، فقال له ذوو الرأي من قبيلته : « امنع الجيش عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا فإنا ان خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم او ارتهنهم » .

فعاد عديّ الى معسكر المسلمين وشرح الموقف لخالد ، لكن خالدا لم يكن في موقف يسمح له بتضييع الوقت في المفاوضات . كما كان متشدّدا ضد الردّة ولم يكن على استعداد لان يكون ليّنا مع اولئك الذين حوّلوا الايمان الى كفر . لكن عديا توسل الى خالد قائلا : « ياخالد أمسك عني ثلاثا [1] يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من ان تعجّلهم الى النار وتشاغل بهم » [2] . فوافق خالد على الانتظار .

فأرسل شيوخ طيّىء مفرزة من الخيالة الى طليحة كأنها تعزيز لقواتهم الموجودة معه . وبدأت المفرزة بالعمل سرّا لابعاد قوات طيّىء عن طليحة قبل وصول خالد بزاخة . وقد نجحت المفرزة بمهمتها . ولم يشترك العددالقليل الذي بقي من طيّىء مع طليحة في معركة بزاخة .

ووافق خالد على عدم مهاجمة طيّىء . وفي غضون ذلك قرّر ان يتوجه الى قبيلة مرتدة اخرى فارتحل نحو الانسر يريد جديلة . فقال له عدي : « ان طيئاً كالطائر ، وان جديلة أحدُ جناحي طيىء فأجّلني اياما لعل الله ان ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث ، ففعل . فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاءه باسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في ارض طيّىء وأعظمه عليهم بركة » [3] . أصبح خالدٌ الآن أقوى مما كان عليه عندما انطلق بلوائه من ذي القَصّة الى بزاخة . وفي طريقه الى براخة استطاع ان يضم مقاتلين جدد الى صفوفه .

وعندما اصبح خالدٌ على مسيرة يوم من بزاخة ، بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ، وهما من الانصار ، طليعة . فتقابل هذان الرجلان مع اثنين

---

(١) ثلاثا : اي ثلاثة ايام ــ المترجم .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .
(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٣ .

من المرتدين كانا يقومان ايضا بمهمة الاستطلاع للعدو ، وكان « حبال » احدهما وهو شقيق طليحة . فقُتل « حِبَال » ، لكن الآخر هرب ليحمل الانباء السيئة الى الدجّال .

فغضب طليحة لنبأ مقتل اخيه وتقدم مع شقيقه الثاني ويدعى « سَلَمة » . وتقابل المرتدان مع المسلمين . وحدثت مبارزتان بين الخصمين . وكان طليحة وعكاشة خبيرين باستخدام السيف وظلا يقتتلان طويلا بعد ان قَتَل سَلَمة ثابت بن أقرم . وفي النهاية خرّ عكاشة صريعا أمام طليحة . وبقيت جثتا ثابت وعكاشة على الارض الى ان قدم باقي المسلمين فتعرفوا عليهما ودفنوهما . وقد جزع لموتهما المسلمون وقالوا : « قُتِل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم » .

عندما وصل خالد الى الجزء الجنوبي من سهل بزاخة ، عسكر على مسافة قصيرة من معسكر المرتدين . ومن هذين المعسكرين تتحرك القوتان المتخاصمتان للمعركة . كان ميدان المعركة يتألف من سهل بزاخة — وهو سهل منبسط يحيط به من الجهتين الغربية والشمالية عدد قليل من التلال الصخرية قليلة الارتفاع . وهذه التلال امتداد للسفوح الجنوبية الشرقية لجبال « أجأ » [1] . انظر الخريطة رقم ٨) .

كان مسرح معركة بزاخة جاهزا . فالمسلمون والمرتدون كانوا مستعدين للقتال في صبيحة اليوم التالي . وفي الغداة ، تقابل خالد ، سيف الله ومعه ستة آلاف مقاتل ، مع طليحة الدجّال الذي لم يعرف تعداد جيشه لكنه ، كما يُعتقد كان اكبر من جيش المسلمين . حدث ذلك في حوالي منتصف شهر ايلول عام ٦٣٢ م (جمادى الآخرة عام ١١ هجري) .

في صباح اليوم الذي تلا وصول خالد ، تشكل الجيشان للمعركة في سهل بزاخة . كان خالد يقود المسلمين بنفسه وقد وقف على رأس لوائه . أما طليحة فقد عيَّن عُيَيْنة لقيادة جيشه ، ووقف عيينة في وسط

(١) لم يبق أي اثر من بزاخة ، لكن السهل الذي يحمل اسمها يبدأ على مسافة ٢٥ ميلا جنوب غرب « حيل » الحالية ويمتد باتجاه الجنوب الغربي .

الجيش حيث كان يوجد سبعمائة مقاتل من بني فزارة (قبيلة عيينة) . على حين كان طلحة يقيم متلفعا في كساء له بفناء بيت من شعر يتنبأ لهم والناس تقتتلون .

وبعد ان انتظم الجيشان استعدادا للمعركة ، شنّ خالد هجوما على طول الجبهة . قاوم المرتدون بعناد لبعض الوقت ، وخاصة بنو فزارة ، ولكن ضغط المسلمين بدأ يظهر بعد فترة واخذ خط جبهة المرتدين بالانهيار . فلما هزّتْ عيينة الحربُ وضرس القتال ، كرّ على طليحة فقال : « هل جاءك جبريل بعد ؟ » قال : لا ، فرجع فقاتل حتى اذا ضرّسه القتال وهزته الحرب كرّ عليه فقال : « لا أبالك أما جاءك جبريل بعد ؟ » قال : لا والله ، قال عيينة : حتى متى ، قد والله بلغ منا ! ثم رجع الى وطيس الحرب .

وعندما شعر المسلمون بتباشير النصر ، هاجموا بعنف واستولوا على ارض اخرى . عندئذ ذهب عيينة مرة ثالثة الى طليحة وقال له : « هل جاءك جبريل بعد ؟ » قال نعم . قال عيينة : « فماذا قال لك ؟ » قال : قال لي : « ان لك رحاً كرحاه وحديثا لاتنساه »[1] . فقال عيينة : « اظن ان قد علم الله انه سيكون حديث لاتنساه » . ثم اندفع الى قبيلته وقال : « انصرفوا يابني فزارة فهذا والله كذاب » . فانصرفوا وانهزم الناس . فَغَشَوْا طليحة يقولون ماذا تأمرنا ؟ وكان قد اعدّ فرسه عنده وهيأ بعيرا لامراته « النوّار » . فلما ان غشوه يقولون ماذا تأمرنا قام فوثب على فرسه وحمل امراته ثم نجا بها وقال : « من استطاع منكم ان يفعل مثل مافعلت وينجو بأهله فليفعل »[1] .

انتهت معركة بزاخة بانتصار خالد . وبذلك فقد تم دحر ثاني اخطر أعداء الاسلام وتبعثرت قواته وانهزمت .

هرب طليحة الى حدود الشام ، حيث اتخذ له ملجا بين قبيلة « كلب » . وانتهت ايام الدجل بالنسبة اليه . ولم يطل به المقام مع

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٥ .

هذه القبيلة حتى سمع بان بني اسد قد دخلت في الاسلام مرة ثانية . ونتيجة لذلك عاد الى الاسلام وعاد الى قبيلته . وزار مكة لاداء العمرة خلال خلافة ابي بكر ، لكن الخليفة لم يعره اهتماما عندما علم بمجيئه الى مكة .

وبعد سنتين زار طليحة المدينة وجاء لرؤية عمر ، الذي لايصفح بسهولة . وعندما رأى عمر طليحةَ قال له : « قَتَلْتَ سيدَيْن من سادات المسلمين : هما عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم ، فوالله لا احبك ابدا » .

كان طليحة ذكيا . فأجاب عمر قائلا : « لقد اكرمهما الله بالجنة على يديّ ، لكنني لم افد من ذلك شيئا . واني اطلب العفو من الله » .

قال عمر ، دون ان يلين ، : « لقد كذبت عندما قلت ان الله لن يؤذيك » . فقال طليحة : « ان ذلك كان نتيجة الكفر الذي قضى الله عليه . ولا يمكن ان الام الآن على الكفر » .

فأيقن عمر ان لانتيجة ترجى من النقاش معه فقال له : « ياخُدَع مابقي من كهانتك ؟ قال : نفخة او نفختان بالكير » [1] .

لم يكن عمر يحب المزاح بطبعه ، فلم يردّ عليه وذهب في سبيله .

عاد طليحة الى قبيلته وعاش بين افرادها حتى الغزوة الثالثة للعراق . ثم تطوع للخدمة في العراق كمسلم مقاتل وقائد . وخدم بشكل بارز ، وحقق المعجزات في الشجاعة والمهارة ، واشترك في معركتي القادسية ونهوند حيث سقط شهيدا .

حالما انتهت المعركة ، ارسلَ خالد مفارز لمطاردة فلول المرتدين واخضاع القبائل المجاورة . فالتقت احدى هذه المفارز ببعض المرتدين في منطقة رمان ابجلية ، على بعد ٣٠ ميلا جنوب وجنوب شرق بزاخة ، فاستسلموا بدون قتال وعادوا الى حظيرة الاسلام مرة ثانية . وتوجه خالد على رأس

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٩ .

قوة لمطاردة عُيينة الذي هرب باتجاه الجنوب الشرقي مع افراد قبيلته ، بني فزارة ، وبعض العناصر من بني أسد . وعندما وصل عيينة الى غمرة ، على بعد ٦٠ ميلا من بزاخة (انظر الخريطة رقم ٨) ، لحق به خالد . عندئذ عاد عُيينة الى القتال مرة ثانية ، لانه على الرغم من عدم ايمانه بطليحة الآن ، بقي مناوئا وغير نادم . وبعد اشتباك عنيف قتل فيه عدة مرتدين وهرب الباقون ، اخذ عيينة اسيرا .

كان والد عيينة زعيما لغطفان ، وكان رجلا محترما وذا سمعة طيبة ، لذلك كان عُيينة يعتبر نفسه لايُجارَى في النسب والحسب . لكن سليلَ الزعامة والنسب ، والذي طلب النبي ان يتفاوض معه في غزوة الخندق ، أصبح الآن مكبَّلاً بالاصفاد واقتيد كأسير مطأطأ الراس الى المدينة .

وعندما دخل المدينة ، تجمهر الاطفال حوله بعد ان اكتشفوا هويته . واخذوا ينخسونه بعصي مدببة وهم يصيحون : « ياعدو الله ! كفرت بعد ايمان » .

فقال عُيينة : « فوالله لم اكن مؤمنا قط » . وكان يقصد بقوله هذا انه لايمكن ان يتهم بالارتداد لانه بالاصل لم يكن مسلما (كما يدعي الآن كذبا) .

توسَّل عُيينة الى أبي بكر فصفح عنه ؛ وبذلك اصبح عُيينة مسلما مرة اخرى وعاش بأمان بين افراد قبيلته ردحا طويلا من الزمن .

وأصبح عُيينة في زمن الخليفة عثمان رجلا مُسِنًا ، فزار المدينة وعرج على الخليفة . فاستقبله عثمان ببشاشة وطلب منه ان يتناول معه طعام العشاء . لكن عثمان اندهش عندما رفض الدعوة بحجة انه صائم . وعندما لاحظ عيينة الدهشة على وجه عثمان اردف قائلا : « وجدت ان الصيام ليلا أسهل منه نهارا » [1] .

بعد الاشتباك في غمرة [2] ، توجّه خالد الى النُقرة حيث تجمعت بعض

---

(١) ابن قتيبة ـ صفحة ٣٠٤

(٢) وردت « غمر » في كتاب ابن سعد (صفحة ٥٩٠) .

بطون بني سليم لاستئناف القتال ضد المسلمين . (انظر الخريطة رقم ٨) .
وكان يقود هذه البطون من بني سُلَيم زعيم مندفع يُدعى عمرو بن عبد العزّى ، المشهور باسم : « ابي شجرة » . لم يتعلم هذا الرجل اي درس من هزيمة طليحة ؛ ولكي يشجع رجاله على الثبات في تحدي سلطة المسلمين ، نظم الابيات التالية من الشعْر :

فَرَوَّيتُ رمحي من كتيبة خالد   وإني لأرجو بعدها ان أعمّرا (١)

حالما وصل خالد الى النّقرة ، شنّ هجوما عنيفا على بني سُلَيم . وكان خالد يحمل ذكريات طيبة عن بني سليم . فقد قاتلوا تحت قيادته خلال فتح مكة وغزوة حُنين والهجوم على الطائف . وباستثناء هربهم عندما وقعوا في الكمين الذي نصب للمسلمين في مضيق حنين ، فقد قاتلوا بكفاءة . لكنهم اليوم اصبحوا مرتدين ، لذا فانهم لايستحقون الرحمة .

قاتلت قبيلة بني سُليم بعنف ضد قائدها السابق واستطاعت ان تقتل عدة رجالٍ من المسلمين ؛ لكنهم تلقوا أيضا ضربات خالد القاصمة . وقتل عدد كبير منهم قبل ان يلوذوا بالفرار . واسر قائدهم ابو شجرة ، الجندي والشاعر ، واقتيد الى المدينة ، الذي توسّل هو ايضا الى الخليفة ابي بكر فصفح عنه . وعاد مرة اخرى الى الاسلام .

وبعد سنوات ضاقت احوال ابي شجرة ؛ واصبح معوزاً . فذهب الى المدينة على امل ان يتلقى بعض المساعدة . فأناخ ناقته خارج المدينة ثم اتى الخليفة عمر بن الخطاب وهو يعطي المساكين الصدقة ويقسمها بين فقراء العرب . فقال ابو شجرة : « يا امير المؤمنين اعطني فاني ذو حاجة » .

قال عمر : ومن انت ؟ فقال : « انا ابو شجرة » . فقال عمر : « اي عدو الله الست الذي تقول :

فروّيت رمحي من كتيبة خالد   وإني لأرجو بعدها ان اعمّرا

ولم ينتظر عمر الجواب من ابي شجرة وجعل يعلوه بالدِّرّة في راسه

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٢ .

حتى سبقه عدواً . فرجع الى ناقته وارتحل . ولم يُرَ أبو شجرة في المدينة بعد ذلك .

وعندما كانت معركة بُزاخة دائرةً ، كان هنالك بعض القبائل التي وقفت جانباً تراقب المعركة عن كثب . وهذه القبائل هي بنو عامر وبعض بطون هوازن وبنو سُلَيم . ومع أنها كانت تميل الى طليحة ، إلا انها امتنعت عن الاشتراك في المعركة وفضّلت أن تقف على الحياد الى ان تتبلور نتيجة المعركة .

وسرعان ماعُرفت النتيجة . ولم يكد يستتب السلام والهدوء في بزاخة حتى جاءت هذه القبائل الى خالد واعلنَت ولاءها ، وقالت : « ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلّم لحكمه . في اموالنا وانفسنا » [1] .

وبدات مجموعات اخرى من العرب النادمين تصل تِباعاً الى بُزاخة . واعلنت عودتها الى الاسلام . لكن خالداً تذكر تعليمات الخليفة التي تقضي بقتل جميع الذين قتلوا مسلمين . فلم يقبل الا أن يأتوه بالذين قتلوا ومَثّلوا في المسلمين من افراد قبائلهم . فوافقت القبائل على ذلك .

وقد كان حكم خالد سريعاً ؛ فقتل المرتدين الذين قَتَلوا مسلمين بنفس الطريقة التي قتلوا بها ضحاياهم . فمنهم من أحرق بالنيران ، ومنهم من رُجم بالحجارة حتى الموت ، ومنهم من قُذف من الجبال ، ومنهم من تكّس في الآبار ، ومنهم من رُمي بالنِّبال . [2] . العين بالعين !

وكتب خالد الى أبي بكر يعلمه بكل ماحدث . وردّ الخليفةُ على خالدٍ بكتابٍ يشكره على ما أنجز ، ويهنئه على نجاحه ، ويثني على خطواته ، ويدعو له بمزيد من النجاح والتوفيق .

بعد قتالِ بني سُلَيم في النُّقْرة ، بقي خالد في بُزاخة لمدة ثلاثة أسابيع، وهو يتقبل عودة القبائل الى الاسلام ويعاقب القَتَلة الذين اقدموا على

---

(١) البلاذري — صفحة ١٠٧ ، الطبري — جزء ٢ صفحة ٤٨٦ .
(٢) الطبري — جزء ٢ ، صفحة ٤٩٠ .

التنكيل بالمسلمين . وبعد ذلك توجّه الى ظَفَر لمواجهة سلمى ابنة مالك بن حذيفة والقضاء عليها .

كانت سلمى ابنة مالك بن حذيفة تكنّى بأم زِمْل ، وهي ابنة عم عُيينة ، وكان ابوها مالك بن حذيفة بن بدر زعيما كبيرا في قبيلة غطفان . وكانت امها ، أم قرفة ، سيدةً جليلة تحظى باحترام وتقدير القبيلة . وفي زمن النبي ، حاربت أمُّ قرفة ضد المسلمين وقد تمّ أسرها في المعركة ثم قُتلت ، لكن ذكرياتها بقيت حيّة بين غطفان . كذلك فقد تمّ اسر ابنتها سلمى واقتيدت الى المدينة ، حيث قدمها النبي امةً الى زوجته عائشة . لكن سلمى لم تكن سعيدة فاعتقتها عائشة ، وعادت الى قبيلتها .

بعد موت والديّ سلمى ، بدأت سلمى بالظهور واخذت نفس مكانة امها في قبيلتها . واصبحت ، على غير المعتاد بين العرب ، زعيمة القبيلة . وكانت امها تملك جملا بديعا فورثته سلمى بعد مقتل امّها ؛ ونظرا لان سلمى كانت تشبه امها تماما ، فكلما ركبت الجمل كانت تذكّر افراد قبيلتها بأمّها الراحلة.

وأصبحت سلمى واحدة من زعماء المرتدين الذين ناصبوا المسلمين العداء. وبعد معركة بُزاخة والاشتباك في غمرة ، اسرع بعض المنهزمين من المعركة مع عددٍ من هوازن وبني سُلَيْم الى ظَفَر عند الطرف الغربي لسلسلة جبال سلمى ، وانضموا الى جيش سلمى . (انظر الخريطة رقم ٨) [1] . فَعَنّفتهم بشدة لانهزامهم وتخليهم عن عُيينه ، ونظراً لشدة بأس هذه المرأة لم يجرؤوا على الردّ عليها . واستطاعت بسطوتها ان تجمل من هؤلاء قوة منظمة . وفي غضون بضعة ايام اصبحت سلمى تشكل خطرا على السلطات الاسلامية . لقد ادركت ان خالدا بعد أن انتهى من معركة بزاخة سوف ياتي لمهاجمتها ، وهي بانتظار الصدام مع سيف الله على احرّ من الجمر .

---

(١) ان موقع ظفر معروف بشكل عام ، والمكان بالتحديد غير مؤكد . ويذكر الطبري ان ظفر هي ميدان المعركة كما يذكر ان ّعرك هي مدينة الزعيمة سلمى . وعرك الآن عبارة عن قرية تدعى رّق وهي على بعد ٣٥ ميلا من « حيل » عند السفح الشمالي لسلسلة جبال سلمى . وعلى بعد ١٢ ميلا من رّق يوجد تل يسمى ظفر ، وانا اعتقد ان هذا هو موقع ظفر حيث دارت المعركة.

سار خالد بلوائه من بُزاخه الى ظفر حيث واجه جيشُ المسلمين مرة ثانية جيش المرتدين . ومرة اخرى اخذ خالد زمام المبادرة وبدأ الهجوم .

اثبتت المعركة انها كانت قاسية . ففي حين استطاع خالد ان يدحر الجناحين ، إلا انه لم يحرز نجاحاً ضد قلب المرتدين . كان قلب جيش المرتدين صامدا . وكانت سلمى تركب على ظهر جمل امها الشهير ، ومن مركز قيادتها على ظهر الجمل كانت تدير المعركة . وكان يحيط بجملها اشجع المحاربين الذين صمموا على التضحية بأرواحهم دفاعا عن الجمل الشهير وعن راكبته الجليلة .

تأكد خالد ان قوة العدو المعنوية تكمن في شخص سلمى ، وطالما انها موجودة على ظهر جملها فالمعركة سوف تستمر ويستمر معها حمام الدم . لذلك كان لابد من القضاء عليها . فاندفع خالد على راس مجموعة مختارة من المحاربين وانقض على جملها ، وبعد قتال عنيف مع المرتدين الذين يحيطون بالجمل تمكن خالد من اصابة الجمل واسقاطه على الارض ، وسقطت معه سلمى التي قتلت في الحال . وكان يحيط بها مائة جثة من اتباعها الذين قاتلوا لآخر قطرة دفاعا عن زعيمتهم .

بموت سلمى انتهت المقاومة وتبعثر المرتدون في جميع الجهات . وقد كانت معركة خالد مع سلمى اعنف قتال جرى منذ القتال ضد طليحة .

ويعتقد ان سلسلة جبال سلمى ، وهي جبال سوداء وعرة تقع على مسافة ٤٠ ميلا جنوب شرق مدينة حيل ، قد سُميت بهذا الاسم نسبة الى سلمى ، أم زمل ، وتكريما لهذه السيدة العظيمة التي كان لديها الشجاعة للوقوف امام أعظم جندي في عصره ، والنزول الى ساحة الوغى .

جرت معركة ظَفَر في أواخر تشرين الاول عام ٦٣٢ م (أواخر رجب عام ١١ هجري) . واراح خالد جنوده بضعة ايام . ثم اصدر اوامره للمسير الى البطاح لقتال مالك بن نويرة .

انتهت المرحلة الاولى من حرب الردّة بموت سلمى . وتم دحر واخضاع القبائل الرئيسية في أواسط شمال الجزيرة العربية التي ثارت ضد الاسلام

ومشت وراء طليحة ، كما تم قتل أو اسر أو طرد زعمائهم ، ولم يثر بعد ذلك اي زعيم في هذه المنطقة .

ولكن بقي رجل واحد ، وهو اشبه بزعيم عصابة اكثر منه زعيم قبيلة ، يسبب القلق والازعاج للمسلمين . وكان اسم هذا الرجل هو : إياس بن عبد ياليل ، الشهير باسم : « الفجاءة » . وكان رجلا مغامرا .

وفي الوقت الذي كان فيه خالد يوطد مركزه في بزاخة ، قدم الفجاءة على ابي بكر وقال له : « إني مسلم وقد اردت جهاد من ارتد من الكفار فاحملني واعنّي » [1] .

ففرح أبو بكر لهذا الطلب واعطاه سلاحاً . فخرج الفجاءة من المدينة واخذ يستعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم ويُصيب من امتنع منهم. وعمل الفجاءة مع عصابته في المنطقة الواقعة الى الشرق من مكة والمدينة .

فلما بلغ ابا بكر خبره كتب الى طريفة بن حاجز : « ان عدو الله الفجاءة اتاني يزعم انه مسلم ويسألني ان اقويه على من ارتد عن الاسلام فحملته وسلّحته ثم انتهى إليّ من يقين الخبر ان عدو الله قد استعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ اموالهم ويقتل من خالفه منهم فسر اليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله او تأخذه فتأتيني به » . فسار اليه طريفة بن حاجز فلما التقى الناس كانت بينهم الرماية بالنبل ، فلما راى الفجاءة من المسلمين الجد قال لطريفة : والله ما انت بأولى بالامر مني انت امير لأبي بكر وانا اميره . فقال له طريفة : ان كنت صادقا فضع السلاح وانطلق معي الى ابي بكر فخرج معه . فلما قدما عليه أمر ابو بكر طريفة بن حاجز فقال : « اخرج الى هذا البقيع فحرّقه فيه بالنار » . فخرج به طريفة الى المُصلّى فأوقد له ناراً فقذفه فيها.

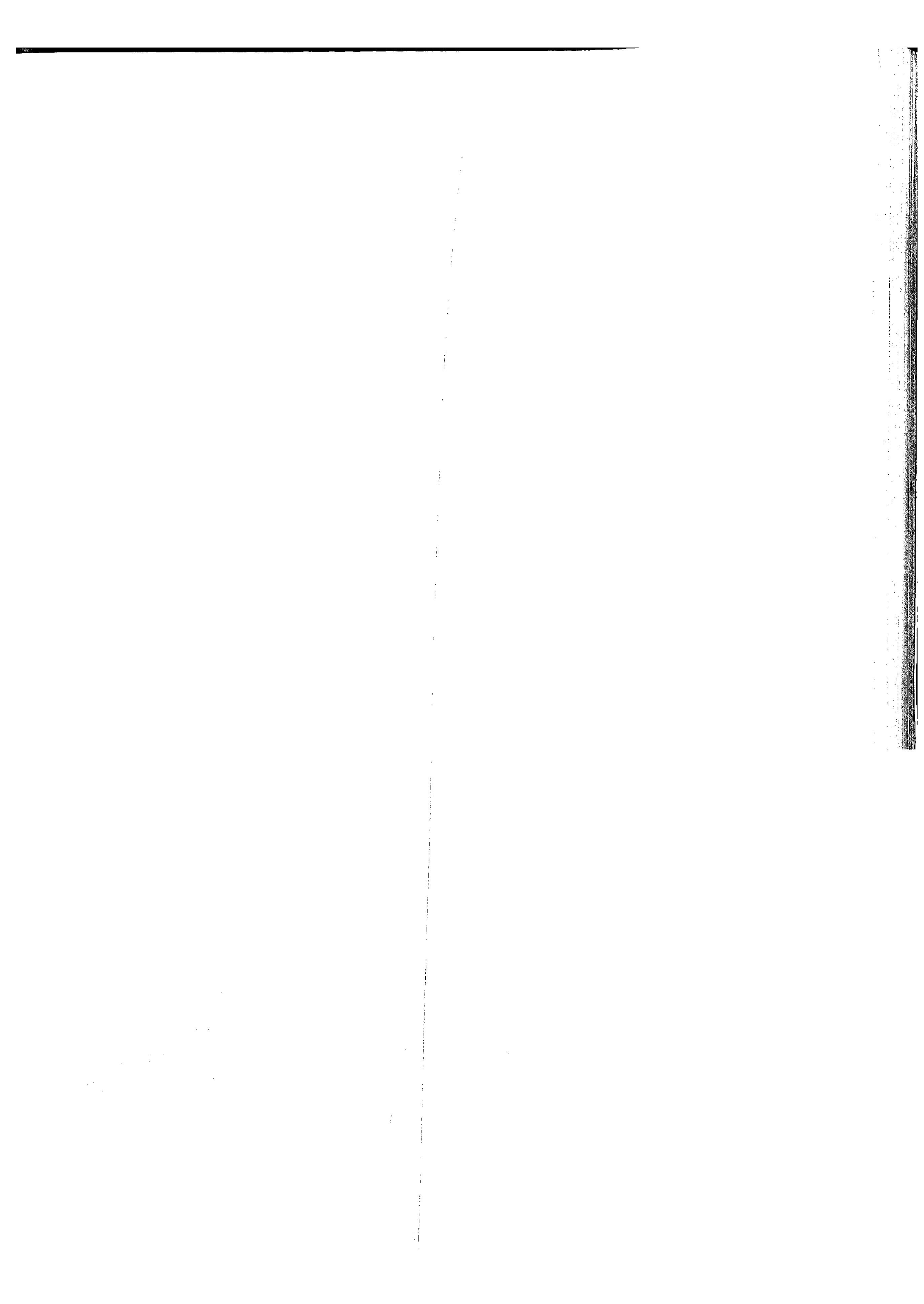
وعندما كان ابو بكر على فراش الموت قال : « إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت اني تركتهن ، وثلاث تركتهن ووددت اني

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٢ .

فعلتهن ، وثلاث وددت اني سألت عنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .
ومن بين الثلاث اللاتي تمنى ابو بكر رضي الله عنه تركهن مايتعلق بالفجاءة اذ قال : « وودت اني لم اكن حرقت الفُجاءَة السُلَمي واني كنت قتلته سريحاً او خليته نجيحاً . »[1]

---

(1) الطبري – الجزء (٢) صفحة ٦١٩ ؛ البلاذري صفحة ١١٢ ؛ المسعودي – المروج – الجزء ٢ صفحة ٣٠٨ .



السّادة الكاذبون والسّيدات الكاذبات

كان مالك بن نويرة زعيم بني يربوع وهي فرع كبير من قبيلة بني تميم التي كانت تسكن المنطقة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من بلاد فارس ، فقد اعتنق بعض العناصر الزرداشية [1] ، لكن معظم افراد القبيلة كانوا وثنيين حتى جاء الاسلام الى الجزيرة العربية ، وكانت البطاح [2] مركز قبيلة مالك . (انظر الخريطة رقم ٨) .

كان مالك زعيما من اصل عريق . وكان مشهورا بكرمه وحسن ضيافته ، فكان يوقد النيران خارج منزله طيلة الليل لكي يأتي اليه المسافرون في تلك المنطقة فيجدوا عنده المأوى والطعام . وكان يتفقد النار طيلة الليل لئلا تنطفيء جذوتها . كما كان رجلا وسيما جدا ذا شعر راس كثيف ، وكان وجهه كما قال احد معاصريه : « جميلا كالقمر »[3] . وكان حاذقا في استخدام الاسلحة ، ومشهورا بشجاعته وفروسيته ، وكان شاعرا ملهما . وبعبارة اخرى كان مالك يتمتع بجميع الصفات التي يصبو اليها العرب في الرجل الكامل ، حيث كان لديه كل شيء .

كانت ليلى ابنةً للمنهال ، وعرفت فيما بعد بأم تميم . وكانت ذا جمال اخاذ ، وهي من اجمل بنات الجزيرة العربية ، وقد انتشرت انباء جمالها

---

(١) الزرداشية : ديانة المجوس والفرس قديما – المترجم .

(٢) البطاح الآن عبارة عن خربة صغيرة يقطنها البدو وهي تبعد ١٤ ميلا جنوب وجنوب غرب قرية الرسّ الحالية .

(٣) البلاذري – صفحة ١٠٨ .

الساحر في طول الجزيرة وعرضهـا وكانت مشهورة بجمال عينيها وقوامها . وكانت هي ايضا تملك كل شيء [1] .

وعندما بلغت سن الرشد تقدم اليها جميع العشاق في المنطقة لكنهـا رفضتهم جميعا . ثم قابلت مالكا في احد الايام وقُـدّر لها ان تدخل صفحات التاريخ . فتزوجها مالك . وبـذلك حاز مالك على اجمل امرأة في زمانـه كزوجـة له بالاضافـة الى الصفـات الاخـرى التـي كـان يحـوز عليهـا ويُحسَد عليهـا .

في الحقيقة ، كان مالك بن نويرة يملك كـل شيء بالتأكيد ماعدا الايمان . فخـلال « عام الوفود » ، عندما اعتنقت قبيلةُ بني تميم الاسلامَ ، ذهـب مالك واعتنق الاسلام . ونظرا لمركزه في القبيلة ومواهبه ، فقد عينه النبي زعيمـا على عشيرة بني حنظلة . وكانت مسؤوليته الرئيسية هي جمع الزكاة وارسالها الى المدينة .

قام مالك بهذه المهمة بكفـاءة وامانة لبعض الوقت . ثم مات النبي . فعندما وصلتْ انباءُ وفاته الى البطاح ، كان يوجد لدى مالك كمية كبيرة مـن اموال الزكاة وكان على وشك ارسالها الى المدينة . فنسي يمين الولاءَ الذي اقسمـه ، ففتح خزائن المال في الحـال واعاد الاموال الى الذين دفعوهـا . وقال : يابني حنظلـة ، ان اموالكم اصبحت لكم الآن . لقد ارتد مالـك عن الاسـلام .

كانت سَجاح إبنةُ للحارث بن سويد بن عُقفان . وقد وُلدت في عائلة من الزعمـاء ، وكانت تتمتع بصفات القيادة ، وقوة الشخصية ، والذكـاء هذه الصفات التي يتمتع بها عدد ضئيل من النسـاء . وكانت تتنبأ للمستقبل ، وكانت شاعرةً ملهمة تقول كل شيء بالشعْر . وعندما كان يخاطبها احد من الناس نثرا تجيبه شعرا .

وعُرفت سَجاحُ فيما بعد بأم سَديرة ، وكانت تنتمي من جهة أبيها الى

---

(١) الاصفهاني ــ الجزء ١٤ ، صفحة ٦٥ : « كان يقال : لم يُر اجمل من قوامها » .

بني يربوع ، وبذلك كانت تمتُّ الى مالك بن نويرة بصلة القربى . وكانت تنتمي من جهة امها الى تغلب . وعاشت سجاح في اغلب الاوقات بين بني تغلب الذين كانوا يعتنقون النصرانية ، وبسبب نفوذ أمها أصبحت سجاح نصرانية ايضا ، لكنها لم تكن قوية الايمان بالنصرانية شأنها شأن الكثيرين من بني تغلب ، كما سنرى فيما بعد .

عندما بدأت الرِدّة بالانتشار ، سمعتْ سجاحُ ان طليحة ومسيلمة قد اعلنا نبوتهما . فقالت لنفسها لماذا يكون الرجالُ فقط أنبياءً ؟ ولماذا لاتدخل المرأة عالم النبوة ؟ واخيرا استسلمت للاغراء كإمرأةٍ تجري المغامرة في عروقها . فأعلنت نفسها نبيّة ، ونظمت بعض أبياتٍ من الشعر لتظهر نبوتها .

ومما يثير الدهشة ان معظم افراد قبيلة أمها قبلوا بها نبيةً وعاهدوها على الطاعة . وكانوا من النصارى . فجمعت عددا كبيرا من الاتباع المسلحين ونزلت الى الجزيرة العربية حيث انضوت قبيلة والدها تحت لوائها . ومما لاشك فيه ان الكثيرين ممن اتبعوها من ذوي الراي ومن رجال القبائل كانوا مدفوعين بعامل النهب وبالرغبة في تسوية نزاعات قديمة مع بعض القبائل في شمال شرق الجزيرة العربية .

واستطاعت ان تجمع قوة لابأس بها من الاتباع لتغزو بهم ابا بكر . فلما انتهت الى « الحَزْن »[١] راسلتْ مالك بن نويرة . واقترحت عليه أن يتحالف معها : فيعملا معا ضد القبائل التي تعتبر عدوا مشتركا للطرفين ، ثم يقوما بعد ذلك بمهاجمة قوات المسلمين في المدينة . ولكي تؤكد لمالك انها لاتضمر نوايا عدوانية ضد اراضي بني يربوع قالت له : « فإني إنما انا امرأة من بني يربوع . وان كان مُلْكٌ فالمُلْكُ مُلْكُكم »[٢] .

قبل مالك باقتراح سجاح وتحالف معها . وعلى كل الاحوال ،

---

(١) ان موقع الحزْن غير مؤكد ، ولكن بناء على المعلومات المحلية في « حبيل » ، فهي نفس منطقة حَزْم الواقعة بين سميراء والبطاح .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٦ .

استطاع مالك ان يخفف من غلوائها الى حدٍّ ما واقنعها بالعدول عن محاربة المسلمين . حدث هذا في حزيران عام ٦٣٢ م .

إتجهت قوات مالك وسجاح نحو القبائل التي أساءت الى بني تميم وتغلب . لم يكن في هذه العملية اية دوافع دينية ، وانما كانت الدوافع الحقيقية هي الثأر والحماس للسلب والنهب . وكانت القبائل التي تقاوم قواتهما تُحارَبُ وتُخضع ثم تنهب . قاتل اتباع مالك مع سجاح الدجالة في هذه الإغارات تطبيقا للتحالف بينهما . ويبدو ان مالك لم يشارك شخصيا في عمليات الغزو والنهب .

ثم تقدمتْ سَجاحُ الى « النبّاج » وبدات بنهب الجوار [1] . وهنا لاقت مقاومة خطيرة . فاتحدت القبائل الموجودة في هذه المنطقة بدافع الخوف المشترك من سجاح المخيفة واستعدت لمقاومتها . وحدثت معركة بين الطرفين لكنها لم تكن حاسمة ، غير ان عددا قليلا من القادة الذين يعملون تحت إمرة سجاح قد أُسروا في هذه المعركة ، ورفضت القبائل أن تطلق سراحهم الا اذا تعهدت سجاح بمغادرة منطقتهم . فقبلت شرطهم .

فاجتمع زعماء القبائل الذين يسيرون وراءها وقالوا لها : « ماتأمريننا ؟ » فقالت : « اليمامة » . فقالوا : « ان شوكة اهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ امر مسيلمة » . فقالت « اليمامة » ، ثم قالت : « عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، لايلحقكم بعدها ملامة »[2] .

كان مسيلمة الكذاب اكثر اعداء الاسلام خطرا اذ راح يهدد وجود الدولة الجديدة . وهو ابن حبيب من بني حنيفة . وكانت هذه القبيلة احدى القبائل الكبيرة التي كانت تقطن منطقة اليمامة .

ظهر مسيلمة على مسرح التاريخ لاول مرة في اواخر العام التاسع

---

(١) النبّاج هي النبكية الحالية (ويسميها السكان ايضا النبجية) وتبعد ٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي من بريدة .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٨ .

للهجرة ، وهو « عام الوفود » ، عندما جاء مع وفد بني حنيفة الى المدينة .
وكان الوفد يضم رجلين بارزين لعبا دورا هاماً بالنسبة لمسيلمة ولقبيلته ، فأحدهما ساعد مسيلمة للوصول الى مركز القوة ، والثاني انقذ القبيلة من الهلاك . وهذان الرجلان هما نهار الرَّجَّال بن عُنفُوة ، ومجاعة بن مرارة .

وصل الوفد الى المدينة . ورُبطت الإبل في معسكر للمسافرين ، وبقي مسيلمة للعناية بالإبل بينما دخل العضوان الآخران المدينة . وتكلما مع النبي ، ثم قدما له الطاعة واعتنقا الاسلام . وكما هي العادة لدى النبي فقد قدّم لهما هداياهما ، الا ان احدهما علّق قائلا : « إنا قد خلّفنا صاحبا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا . فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لهما ، وقال : « أما إنّهُ ليس بِشَرِّكم مكانا » [1] اي : لحفظه ضيعة أصحابه ، ذلك الذي يريد النبي . وقد فسّر مسيلمة كلام النبي فيما بعد ، عندما ادعى النبوة ، لصالحه .

وعندما عاد الوفد ، نشر رسالة الاسلام واقام الدين الجديد بين بني حنيفة . واعتنقت القبيلة بكاملها الدين الاسلامي . وبَنوا مسجدا في اليمامة واقاموا الصلاة بانتظام . وبعد مرور بضعة اشهر ، ارتد مسيلمة عن دينه وأعلن نبوته . فجمع الناس وخاطبهم مشيرا الى النبي محمد : « إني قد أُشركتُ في الامر معه . الم يقل لوفدينا . أما إنه ليس بشركم مكانا ؟ ماذاك إلا لما كان يعلم أنه قد أُشركت في الامر معه » [2] . وهذا الامر الذي يقصده مسيلمة الكذاب هو النبوّة .

بعد ذلك أدهَشَ مسيلمةُ الحاضرين بِحِيَلِه العجيبة . فقد كان ساحرا ماهرا يستطيع ان يصنع الاعاجيب . فهو يستطيع ادخال البيضة في زجاجة ، ويستطيع نزع ريش الطائر ثم يعيده فيحلق الطير مرة ثانية ،

---

(١) ابن هشام ــ جزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ ــ ٥٧٧ .

(٢) ابن هشام ــ جزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

وكان يقوم بهذه الاعمال السحرية لاقناع الناس بأنه رسول من عند الله . وكان يسجع للنـــاس الاساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : « لقد أنعَمَ الله على الحبْلى ، أخرَجَ منها نَسَمةً تسعى ، من بين صِفَاقٍ وَحَشَا »[1] . وكانت معظم الاساجيع تظهر تفوق قبيلته ، بني حنيفة ، على قريش .

كان الناس مبهورين بحكمته ، فتجمهروا حوله . ومـن العجيب أن هؤلاء النـاس لم يشكوا برسالـة محمد الإلهية . فقبلوا محمدا كرسـولِ لله ، وقبلوا مسيلمة شريكا له في النبوة وهذا كل ماكان يبغيه مُسيلمة .

وبدا نفوذ مسيلمة يتعاظم تدريجيا . وفي احد الايام من أواخر عـام عشرة للهجرة ، كتب الى النبي : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسـول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فإني قد أُشركتُ في الامر معك ، وان لنا نصف الارض ، ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وكتَب النبي الى مسيلمة رداً على رسالته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، اما بعـد ، فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين »[2] .

وعُرِف الـدّجال منذ ذلك الحين بمسيلمة الكذاب .

وبدأ نهار الـرّجّال بالعمل الآن ، وهو احد اعضاء الوفد من بني حنيفة الـذي جاء الى النبي في « عام الوفود » كما سبق وان ذكرنا آنفا . وكـان هـذا الرجل قد تخلّف في المدينـة عندما عاد باقي الوفد الى قبيلته ، وبقي ملازما للنبي ، مما اكسبه سعة الاطلاع بالدين الاسلامي . فقرأ القرآن وبرز كصديق محترم للنبي . وفي غضون بضعة اشهر كـوّن لنفسه سمعة يحسد عليها كمسلم فاضل وتقي ، واصبح صيته ذائعاً في الجزيرة العربية .

وعندما أصبحت انباء مسيلمة تشكل خطرا على الاسلام ، بدأ النبي

(١) ابن هشام ــ جـزء ٢ ، صفحـة ٥٧٧ .
(٢) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٠ ــ ٦٠١ .

بدراسة الطرق والوسائل الكفيلة بالحد من نفوذ مسيلمة الكذاب . ونظرا لكون اليمامة بعيدة جدا ، قرر النبي ان يرسل رجلا للعمل ضد مسيلمة بين الناس . فاختار النبي نهار الرجّال لهذه المهمة . فهو زعيم من زعماء بني حنيفة ، وقرأ القرآن ، وتعلم الحكمة والفضيلة على يدي النبي . فأرسله النبي لكي يقضي على نفوذ مسيلمة في اليمامة .

وعندما وصل هذا الوغد الى اليمامة ، صرّح بأن مسيلمة هو نبي حقاً ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة اذ شهد له انه سمع محمدا صلى الله عليه وسلم يقول إنه أشرك معه . فصدقوه واستجابوا له . ومن يجرؤ على التشكيك بقول هذا الصاحب المحترم ؟ وكان وصول هذا الزنديق سعادة لاتوصف لمسيلمة ، وبدأ بنو حنيفة بالتوافد بأعداد كبيرة على مسيلمة لتقديم آيات الولاء والطاعة الى رسول الله ! كوّن مسيلمة والرجّال تحالفا شريرا بينهما . واصبح الرجّال الساعد الايمن لمسيلمة ، وكان هذا لايتخذ أي قرار دون استشارته .

وبموت النبي ، اصبحت قبضة مسيلمة على بني حنيفة شاملة . وبدأ الناس بالتوافد عليه ، وبدأ مسيلمة بوضع قوانينه واحكامه الخاصة في الامور التي تتعلق بالاخلاق والسلوك الديني ، فأحلّ الخمر والزنا .

وبدأ الناس يصدقون ان مسيلمة يملك قوى خارقة ، وساعد الرجّال على ترسيخ هذه الصورة في أذهانهم . واقترح الرجّال يوما أن يقوم مسيلمة بلمس راس كل طفل يولد ، كما كان يفعل النبي ، ليباركه . فأعطيت التعليمات طبقا لذلك . وكان كل طفل يولد يرسل الى اليمامة لكي يباركه مسيلمة . ويقول المؤرخون ان هؤلاء الاطفال عندما كبروا وبلغوا سن الشباب ، لم تنبت شعرة واحدة في رؤوسهم او رؤوسهن ! ولكن هذا لم يعرف طبعا الا بعد موت مسيلمة . وهناك الكثير من الامثال التي تظهر ان كل عمل قام به مسيلمة تقليدا للنبي محمد كانت نتيجة عكسية وتحمل بين طياتها الكوارث .

ومع ان جميع قبيلة بني حنيفة سارت وراء مسيلمة ، الا انهم لم يؤمنوا جميعا برسالته الإلهية المزعومة . فبعضهم آمن به لاسباب سياسية ، او

لأسباب شخصية تتعلق بحب الظهور ، بينما الكثيرون ممن اتبعوه كانوا مدفوعين بدوافع الاخلاص القبلي . وفي أحد الايام عيّن مسيلمة مؤذناً لينادي للصلاة . وكان هذا الرجل يدعى حجير بن عمير ، وكان يشك بمسيلمة . وبدلا من ان يقول في الاذان : « اشهد ان مسيلمة رسولُ الله » ، حيث كان يوضع اسم مسيلمة بدلا من محمد ، كان هذا المؤذن الجديد ينادي بأعلى صوته اثناء الاذان : « أشهد ان مسيلمة يظن انه رسول الله »[1] .

في أحد الايام جاء رجل صافي الذهن لزيارة مسيلمة ولم يسبق له ان رأى مسيلمة من قبل ، وكان يدعى طلحة . وعندما وصل الى باب منزل مسيلمة قال : « أين مسيلمة ؟ » فقالوا : « مه رسول الله » . فقال : « لا حتى اراه » . فلما جاءه قال : « أنت مسيلمة ؟ » قال : « نعم » . قال : « من يأتيك ؟ » قال : « رحمان » . قال : » أفي نور أو في ظلمة ؟ » قال : في «ظلمة» . فقال طلحة : « اشهد انك كذاب" وان محمدا صادق . ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضَر » . وقد قتل طلحة مع مسيلمة يوم عقرباء .

كان مظهر مسيلمة مرعبا . فهو قصير القامة ، قوي البنية ، ذو وجه اصفر ، وذو عينين صغيرتين ومتقاربتين ، وذو انف مسطح . وكان دميما للغاية . ولكن كما يحدث غالبا مع كل رجل دميم وشرير ، كان ذا تأثير سحري على النساء . فهن لايستطعن ان يقلن : « لا » . وكان مسيلمة رجلا موهوبا ولكن بدون ضمير فأي إمرأة تترك لوحدها معه لاتستطيع ان تهرب من سحره الشيطاني .

لكن سجاح الدجالة لم تعرف حقيقة مسيلمة عندما قدمتْ الى اليمامة . وهي ستعرف ذلك سريعا .

سارت سجاح مع جيشها الى اليمامة . فسمع مسيلمة بهذا المسير وانزعج لهذا النبأ ، لانه لم يكن يعرف نواياها وهل هي عدائية ام ودّية .

---

(١) البلاذري ـ صفحة ١٠٠ .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٨ .

وهو يستطيع بالتأكيد ان يهزم جيشها في المعركة ، لكن عكرمة كان يعسكر بعيدا مع لوائه ، الى الغرب ، وكان مسيلمة ينتظر منذ عدة اسابيع هجوم المسلمين . فاذا كان على عكرمة ان يتحرك في الوقت الذي يكون فيه مسيلمة مشتبكا مع جيش سجاح ؟ فانه سيكون في موقف حرج . وهذا يعني الاشتباك مع جيشين في آن واحد : جيش سجاح ، وجيش المسلمين . فقرر مسيلمة ان يستميل سجاح ويجعلها على الحياد . وعرف كيف يتعامل معها . فهو سيتعامل معها كما يتعامل مع اي امراة ، وهذا الامر يتقنه جيدا .

فأرسل الى سجاح ان لاتجلب معها محاربين ، لانه لن يكون لهم عمل في اليمامة . وبامكانها ان تحضر لوحدها من اجل المحادثات . لذا فقد تركت سجاحُ جيشها في معسكر وجاءت مع اربعين مقاتلا لمقابلة مسيلمة الكذاب . فوصلت اليمامة لكنها وجدت بأن الحصن مغلقا ، وتسلّمت تعليمات مسيلمة التي تقضي بأن تترك المحاربين خارج الحصن وتدخل لوحدها . فوافقت سجاح ، وتركت رجالها خارج الحصن في معسكر ، ودخلت لوحدها . فقال مسيلمة لرجاله : « اضربوا لها قبّة وجمّروها لعلها تذكر الباه » ، ففعلوا . فلما دخلتْ القبة نزل مسيلمة وقال : ليقف ههنا عشرة وههنا عشرة ثم دارسها فقال : « ما اوحيَ اليك » . فقالت : « هل تكون النساء يبتدئن ؟ ولكن انتَ ما اوحي اليكَ ؟ » فقال : « الم تر الى ربك كيف فعل بالحبلى ، اخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاقٍ وَحَشا » . فقالت : « وماذا ايضا ؟» قال « أوحي اليّ ان الله خلق النساء افراجاً وجعل الرجال لهن ازواجا فنولج فيهن قعسا إيلاجاً ثم نخرجها اذا نشاء إخراجا فينْتجنَ لنا سِخَالا إنتاجا » . فقالت : « اشهد انك نبي » . قال : « هل لكِ ان اتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب ؟ » قالت : « نعم »[1] .

فاقامت عنده ثلاثة ايام ثم انصرفت الى قومها . فقالوا : « ماعندك » . قالت : « كان على الحق فاتبعته فتزوجته » . قالوا : « فهل أصدَقَكِ

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

شيئا ؟ » قالت : « لا » . قالوا : « ارجعي اليه فقبيح بمثلك ان ترجع بغير صَداق [1] . فرجعت . فلما رآها مسيلمة اغلق الحصن وقال : « مالكِ ؟ » قالت : « اصدقني صداقا . قال : « من مؤذنك » ؟ قالت : « شَبَث بن رِبْعِي الرياحي » . قال : « عليّ به » . فجاء ، فقال : « نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب ، رسول الله ، قد وضع عنكم صلاتين مما اتاكم به محمد صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر » [2] .

وعادت سجاح بهذا الصداق الى قومها .

وبعد عدة ايام ، ارسل مسيلمة مبعوثا الى سجاح لتمتين الروابط مع قومها بالاضافة الى العلاقة التي نشأت بينهما في القبة التي اقيمت في فناء داره . وعرض عليها تحالفا سياسيا واقتصاديا : فبوسعها ان تحصل على نصف غلات اليمامة . لكن سجاح رفضت . ثم ارسل مسيلمة مبعوثه مرة ثانية لكي تقبل على الاقل الربع ، فقبلت سجاح ذلك وغادرت الى العراق . حدث هذا في اواخر تشرين الاول عام ٦٣٢ م (اواخر رجب ، عام ١١ هجري) ، أي قبيل المجابهة بين عكرمة ومسيلمة بوقت قصير .

لقد انتهت علاقة مسيلمة بسجاح . كما انتهت علاقة سجاح بالسياسة والنبوة . فأقامت بين عشيرة أمها وعاشت بقية حياتها في غموض . وقد اعتنقت الاسلام ، واصبحت امرأة تقية فاضلة . وفي أيام خلافة معاوية ، انتقلت الى الكوفة ، حيث ماتت هناك .

* * *

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

(٢) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٩ .

نهاية مالك بن نُوَيرة

عندما انتهى خالد من سلمى وأتباعها ، أصدر أوامره للمسير الى البطاح للعمل ضد مالك بن نويرة ، وكان لايشك بان بعضا من رجاله سوف يعارضون خطته . تمّ التجهيز للتحرك وفق الاوامر ، ولكن عندما حان الوقت للمسير ، رفضتْ مجموعة كبيرة من جنوده ان تتحرك .

كان هؤلاء الجنود من الانصار . فجاء ذوو الرأي منهم الى خالد وقالوا له إنهم سوف لايذهبون الى البطاح . وقالوا أيضا : « ماهذا بعهد الخليفة الينا . ان الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا » .

فقال خالد : « إن يَكُ عهد اليكم هذا ، فقد عهد إليّ ان امضي وأنا الأمير ؛ وإليّ تنتهي الاخبار . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً فكنت إن أعلمته فأتتني لم أعْلِمهُ حتى انتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه ، لم نَدَعْ ان نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم [1] . ومضى خالد ، وندمت الانصار ، وتذامروا

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ : يبدو ان قرار خالد للمسير الى البطاح كان من عنده وليس جزءاً من الخطة الكاملة للخليفة ؛ ولكن الطبري يقول (الجزء ٢ صفحة ٤٨٠ ، صفحة ٤٨٣) ان تعليمات ابي بكر الى خالد كان تتضمن بشكل محدّد التوجه الى مالك بن نويرة في البطاح بعد الانتهاء من طليحة . وربما لم يكن رجال خالد على علم بالمهمة التي أسندها ابو بكر لقائده خالد .

وقالوا : « إن أصاب القوم خيرا إنه لخيرٌ حرمتموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبكم الناس . » فاجمعوا اللحاق بخالد وجرّدوا اليه رسولا فأقام عليهم حتى لحقوا به . ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد به احدا . حدث هذا خلال الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٢ م (منتصف شعبان ، عام ١١ هجري).

عندما غادرتْ سجاح الدّجّالة الجزيرة العربية الى العراق ، بدأ مالك يفكر **بالدور** الذي لعبه في التآمر على الاسلام . وقد وصلته الانباء عن كيفية تدمير جيش طليحة من قبل سيف الله ، كما وصلته انباء العقاب الذي أنزله خالد بالمرتدين الذين قتلوا مسلمين . كان مالك خائفاً . وقد خسر بذهاب سجاح حليفا قويا ، وشعر بأنه تُرك وحيدا وانه خُذل .

وبدأ يدرك خطورة تحالفه مع الدّجّالة . فارتداده كان واضحا ولا مجال للشك فيه . ثم وصلت انباء انتصار خالد على سلمى وانه قادم في طريقه الى البطاح . كان مالك رجلا شجاعا ، لكنه كان يشعر بعدم إمكانيته قتال خالد .

بعد أن شعر مالك بانه عاجز ومخذول ، قرر أن ينقذ مايمكن انقاذه ؛ وان يكفّر عن جرائمه بالتوبة وتقديم الولاء ، وهذه ضرورة سياسية أيضا ، لانه لاحل آخر أمامه . فجمع افراد قبيلته ، بني يربوع ، وخاطبهم قائلا : « يابني يربوع ؛ إنا قد كنا عصينا أمراءنا اذ دعونا الى هذا الدين . وبطّأنا الناس عنه . فلم نفلح ولم ننجح . وإني قد نظرت في هذا الامر ، فوجدت الامر يتأتى لهم بغير سياسة ، واذا الامر لايسوسه الناس . فإياكم ومناواة قوم صُنع لهم . فتفرقوا الى دياركم وادخلوا في هذا الامر . » [1] فتفرقوا على ذلك الى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع الى منزله ، وهو ليس بعيدا عن البطاح .

ولكي يُظهر مالك حسنَ نواياه ، جمع الزكاة المستحقة للمدينة وارسلها الى خالد ، الذي كان في طريقه الى البطاح ، مع مبعوثَيْه اللذين قابلا خالدا في طريق تقدمه . فأخذ خالد الزكاة ، لكنه لم يعتبرْ دفعَ الزكاة تكفيرا كافيا ،

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٢ .

لان الزكاة هي فرض في جميع الاحوال . فقال خالد للمبعوثين : « ماحملكما على موادعة سجاح ؟ » فقالا : « ثأر قديم كنا نطلبه في بني ضبه وكانت ايام تشاغل وفرص . » (1)

لم يسأل خالد المبعوثين اسئلة اخرى ، واخفى شكوكه عنهما . ويمكن ان يكون هذا الاجراء من قبل خالد حيلة لايهام مالك بالامان وايقاعه بكمين دون ان يثير شكوكه . فمنذ كمين حنين ، كان خالد يقظا باستمرار ، فتابع التقدم كعملية عسكرية ضد خصم مسلّح .

وجد خالد ان البطاح غير مدافع عنه ولا يوجد به احد . ولا يوجد جيش ليحاربه ، حتى ولا مفرزة من الجنود . فاحتل البطاح وأرسل سرايا الخيالة بحثا عن المرتدين من بطون قبيلة بني تميم . وكرّر خالد على مسامع قادة هذه السرايا تعليمات الخليفة وهي : « اذا نزلتم منزلا فأذّنوا واقيموا ، فإن اذّن القوم واقاموا فكفوا عنهم وان لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة » .

وفي اليوم التالي ، وصلت سرية خيالة بقيادة ضرار بن الازور الى منزل مالك بن نويرة . فألقى ضرار القبض على مالك وزوجته ليلى وعدد قليل من رجال بني يربوع . أما السرايا الاخرى فلم تواجه اية مشاكل ، لان جميع بطون القبيلة استسلمت بدون مقاومة .

جاءت سرية ضرار بمالك بن نويرة وزوجته الى خالد ؛ وكان مالك يعتبر زعيماً للعصاة والمرتدين ، ومثل امام خالد لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبها ضد الدولة والاسلام . وقف مالك امام خالد بكبرياء الزعيم الذي لايستطيع ان يطأطئ الراس او ان يتخاذل .

بدأ خالد الحديث . فتكلم عن الجرائم التي ارتكبها مالك والضرر الذي سببه لقضية الاسلام . ثم سأله خالد بعض الاسئلة . فاشار مالك في ردّه على الاسئلة الى النبي بقوله « سيدك » . فغضب خالد لموقف مالك المتكبر وقال : « الا تعتبر ان النبي سيدك ؟ » .

---

(1) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ .

شعر خالد بأن مالك كان مذنبا ؛ وانه لايزال غير مؤمن . فامر بقتله . وقام بهذه المهمة ضرار بن الازور . وكانت هذه هي نهاية مالك بن نويرة .

اصبحت ليلى ارملة ولكن ليس لمدة طويلة . ففي نفس الليلة تزوجها خالد .

وعندما اعلن خالد عن نيته بالزواج من ليلى ، استاء بعض المسلمين من اعلانه هذا . حتى أن بعض الناس بدؤوا يشيعون بأن مالك ربما لم يكن في الحقيقة غير مؤمن وانه عاد الى الدين ؛ وربما امر خالد بقتله لكي يتمكن من الفوز بليلى لنفسه . وقد احتج على تصرف خالد أحدُ الاصحاب المرموقين ، وهو ابو قتادة ؛ لكن خالداً زَجَرَه بكلمات مناسبة . فغضب ومضى الى المدينة حتى أتى ابا بكر واخبره ان مالك بن نويرة كان مسلماً ، وان خالدا قد قتله لكي يتزوج من ليلى الجميلة . وابو قتادة هذا هو نفس الرجل الذي ذهب الى النبي بعد فتح مكة بوقت قصير واخبره ان خالدا قتل بني جذيمة بدون رحمة بالرغم من استسلامهم . فخلافه مع خالد ليس جديدا .

على كل الاحوال ، لم يُسَرّ ابو بكر لرؤية ابي قتادة ، وخاصة لانه ترك الجيش بدون اذن من قائده . فقال له ابو بكر : « ارجع الى خالد »[1] ، فرجع ابو قتادة الى البطاح .

ولكن قبل ان يعود الى مركزه ، انتشرت أقواله في جميع ارجاء المدينة . فبلغت اقواله مسامع عمر الذي هَبَّ واقفا وهرع الى ابي بكر وقال له : « لقد امرت رجلا يقتل المسلمين ويحرق الناس احياءً . . »[2] لكن ابا بكر لم يتأثر . وكانت لديه قناعة بان مالكا قد اعاد الزكاة الى دافعيها عندما بلغته انباء وفاة النبي ، كما انه تحالف مع سجاح . ولم يكن لديه ادنى شك بردّة مالك . اما بالنسبة لحرق الناس احياءً ، فان الخليفة نفسه امرَه بحرق المرتدين الذين حرقوا مسلمين احياءً[3] . ولم يحرق خالد اناسا غيرهم .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٢ .
(٢) البلاذري ــ صفحة ١٠٧ .
(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٤٨٢ .

ثم تابع عمر قائلا : « إن في سيف خالد رَهَقاً [1] ، فان لم يكن هذا حقاً حق عليه ان تقيده » فأرسل أبو بكر في طلب خالد .

وكان ابو بكر يعلم ان هذين الرجلين العظيمين لايكنان المحبة لبعضهما . فقال لعمر : « ارفع لسانك عن خالد . وانني لم اكن لأشيم [3] سيفاً سله الله على الكافرين » . واصبح يشار الى خالد منذ ذلك الوقت « بسيف الله » .

لكن عمر اصَرَّ قائلا : « لكن عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته » . [4] فقبل ابو بكر ان يبحث الموضوع فارسل في طلب خالد .

علم خالد الآن بالاستياء الذي اثاره بسبب زواجه من ليلى . فقال : « اذا اراد الله أمراً أصابه » . واستعرض خالد بينه وبين نفسه اسباب استدعائه من قبل الخليفة ، واعتقد ان السببَ هو الادعاءات ضده ، وقد سبب له هذا التخمين شيئاً من الانزعاج .

عند وصوله الى المدينة ، ذهب مباشرة الى المسجد . ولم يكن المسجد في تلك الايام مجرد مكان العبادة . بل كان ايضا مكانا للاجتماعات والمناقشات، وكان مدرسة ومكانا للراحة ، ومركزا للنشاط الاجتماعي . وكان خالد يرتدي قباءً له عليه صدأ الحديد ، وكان معتمرا بعمامة له قد غرز فيها أسهما . فلما ان دخل المسجد ، قام اليه عمر فانتزع الأسهم من راسه فحطمها ثم قال : « ارئاء قتلتَ امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك » . فلم يكلمه خالد لانه كان يظن ان رأيَ ابي بكر على مثل رأي عمر فيه حتى دخل على أبي بكر . فلما ان دخل عليه أخبره الخبر واعتذر اليه فعذره ابو بكر وتجاوز عنه ماكان في حربه تلك وأمر بدفع الدية لورثة مالك . فخرج خالد حين رضي عنه ابو بكر وعمرٌ جالس في المسجد ، فقال خالد لعمر : « هلم

---

(١) رهقا : ظلما ـ المترجم .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٣ .
(٣) اشيم : اغمد ـ المترجم .
(٤) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

إليّ يا ابن شملة »[1] . فعَرَف عمرُ انّ ابا بكر قد رضي عنه ؛ فلم يكلمه ودخل بيته .

أصبحت مشكلة مالك وليلى موضع جدل في التاريخ الاسلامي . وكان البعض يستشهد بقول ابي قتادة بأن قوم مالك قد اذّنوا ، وان مالكا قد عاد الى الدين قبل ان يؤسر . والبعض الآخر كان يقول بأن خالدا لم يأمر بقتل مالك قطّ ؛ وكل مافي الامر ان خالدا عندما أمر بحبس مالك وأصحابه كان الليل باردا ، فأمر خالد مناديا فنادى : ادفئوا أسراكم ، وكانت في لغة كنانة اذا قالوا دثروا الرجل فأدفئوه دفأه قتله ، وفي لغة غيرهم ادفه فاقتله ؛ فظن القومُ وهي في لغتهم القتل انه اراد القتل فقتلوهم ؛ فقتل ضرار بن الازور مالكا .

ان هذا الجزء من القصة غير صحيح من كافة الوجوه . وقد قدّم بغرض اظهار العداء الذي يضمره عمر نحو خالد ، ولتبرئة ساحة خالد من تهمة قتل مسلم .

لايوجد شك في ردّة مالك بن نويره وتمرّده : فإعادته أموال الزكاة الى الذين دفعوها ، وتحالفه مع سجاح ، واشتراك مقاتليه – بناءً على أوامره – في إغارات سجاح ، كانت أكبر دليل على ردّته . وذكر جميع المؤرخين هذه الحوادث كحقائق ثابتة . وفي اعتقادي ، لايوجد ادنى شك في ان خالدا أمر بقتل مالك ، وقد أقدم على ذلك بدافع الاقتناع الحقيقي النابع من الايمان بان مالكا كان مرتدا وخائنا . ولكن الشك ظل يكمن في نفوس بعض العرب ، وخاصة عمر ، الذي اعتبر قتل مالك جريمة عاطفية . وقد شجعه على هذا الاعتقاد شقيق مالك ، الذي قدم لمقابلة عمر ولابلاغه بمآثر اخيه مالك وكيف انه قتل ضحيةً لشهوات خالد .

---

(1) الطبري – الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

معركة اليمامة

عندما نظّم ابو بكر قوات المسلمين في احَد عشر لواءاً في ذي القَصّة ، عَيّن عكرمة بن ابي جهل قائداً على احد الالوية . وكانت الاوامر التي أعطيت الى عكرمة تنص على ان يتقدم لملاقاة قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة ، على ان لايتورط معه في معركة . كان ابو بكر يعرف أكثر من قوّاده قوة مسيلمة وامكانياته ، فلم يرغب في قتاله بقوات غير كافيـة . وبما أن خالدا كان أكفأ قادة ابي بكر ، كان الخليفة يفكر في اسناد مهمة قتال مسيلمة الى خالد بعد ان ينتهي من قتال اعداء الاسلام الآخرين .

كان ابو بكر يهدف من إعطاء مهمة عكرمة الى تثبيت مسيلمة في اليمامة . فطالما ان عكرمة في الافق ، فان الكذّاب سيظل يتوقـع هجوم المسلمين ولن يتمكن من ترك قواعده . بالاضافة الى ذلك ، فان تجميد مسيلمة في مكانه يعطي الفرصة لخالد لكي يقاتل القبائل المرتدة في أواسط شمال الجزيرة العربية دون تدخل من اليمامة . كان ابو بكر موفقا في اختيار عكرمة للمهمة التـي أسندها اليه لان عكرمة كان رجلا شهما وشجاعا . بالاضافة الى ذلك ، كان عكرمة متحمسا لاثبات اخلاصه للاسلام ، وللتكفير عن عداوته الشديدة للنبي قبل أن يعتنق الدين الجديد .

تقدم عكرمة بلوائه واقام معسكرا في مكان ما من منطقة اليمامة . فموقع معسكره غير معروف للمؤرخين . ومن هذا المعسكر كان يراقب قوات بني حنيفة انتظارا لتعليمات الخليفة ؛ كما ان وجود عكرمة ساعد على إبقاء مسيلمة في اليمامة . وعلى كل الاحوال ، فاننا لانعرف هل كان مسيلمة ينوي مغادرة اليمامة أم لا .

عندما تلقى عكرمة التقارير عن هزيمة طليحة على يد خالد ، بدأ يتشوق للمعركة . فالانتظار سبّب له الضيــق . وكان عكرمة رجـلا جريئا وقائدا شديدا ، ولكن كان ينقصه حكمة خالد وهدوؤه ـ هاتان الصفتان اللتان تميزان القائد المقدام عن القائد المتهور .

وسمع عكرمة بنجاحٍ ثان وهو ان شرحبيل بن حسنة كان يتقدم للانضمام إليه . وكان شرحبيل يقود لواءا أيضا ، وكان قد تلقى أوامر الخليفة بالتحرك خلف عكرمة وانتظار التعليمات . وبعد بضعة أيام سيكون شرحبيل معه .

ثم جاءت الانباء عن كيفية قضاء خالد على قوات سلمى . فلم يستطع عكرمة ان ينتظر أكثر من ذلك . فلماذا يترك خالدا ينال كلّ الامجاد ؟ ولماذا ينتظر شرحبيل ؟ لماذا لايهجم على مسيلمة بنفسه ؟ فان استطـاع ان يهزمه لوحده ، فانه سيفوز بالمجد ويصبح شهيرا ويفوق الآخرين . وكم سيكون وقع المفاجأة السارّة على الخليفة ! فحرّك عكرمة لواءه . حدث هذا في نهاية تشرين الاول عام ٦٣٢ م (نهاية رجب ، عام ١١ هجري) .

وبعد بضعة أيام عاد الى معسكره بعد ان تلقى ضربة قوية من مسيلمة . فكتب الى أبي بكر واعلمه ماحدث له ، وبالنتيجة السيئة التي حققها . كذلك سمع شرحبيل بهذه الانباء السيئة ووقف على مسافة من معسكر عكرمة .

تألم أبو بكر وغضب اتهور عكرمة وعدم اطاعته الاوامر التي اعطيت اليه . ولم يخف غضبه في الكتاب الذي وجهه الى عكرمة والذي قال فيه : « يا ابن أم عكرمة ، لا أرينك ولا تراني على حالها ، لاترجع فتوهن الناس . إمضِ على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما اهل عُمان ومهرة ، وان شغلا فامض انت ثم تسير وتسير جندك تستبرئون من مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجرُ بن أبي أمية باليمن وحضرموت » [1] . وهؤلاء الثلاثة كانوا قادة الوية .

---

(١) الطبـري ـ الجـزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ ـ ٥٠٩ .

وسار عكرمة بلوائه الى عمان . وبقي شرحبيل في منطقة اليمامة . ولكي لا يقع بنفس الخطأ الذي وقع فيه عكرمة ، كتب اليه ابو بكر : « ابق حيث انت حتى يأتيك أمري » [1] .

بعد أن أمر الخليفة بدفع الدية لورثة مالك بن نويرة ، استدعى خالدا وأسند اليه مهمة تدمير قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة . وبالاضافة الى لوائه الكبير فقد وُضع لواء شرحبيل تحت قيادته . كما أن قوات الانصار والمهاجرين التي جمعها ابو بكر في المدينة سوف تُرسل الى البطاح بعد وقت قصير للانضمام الى قوات خالد . وبذلك يكون خالد قد كلف بقيادة جيش الاسلام الرئيسي .

سار خالد الى البطاح حيث كان لواؤه القديم بانتظاره . وفي غضون ذلك كتب الخليفة ابو بكر الى شرحبيل : « اذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله فالحَق بقضاعة حتى تكون انت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » [2] . وكانت قضاعة هذه قبيلة مرتدة سبق أن قاتلها أسامة لكنه لم يقهرها ، وهي تسكن قرب حدود الشام .

انتظر خالد في البطاح لحين وصول الانصار والمهاجرين من المدينة ، ثم سار الى اليمامة . وسُرّ خالد لوضع قوات شرحبيل تحت إمرته . وكان شرحبيل قد فعل فعل عكرمة اذ بادر بقتال مسيلمة قبل قدوم خالد عليه لكنه لم يحقق نجاحا . فلما قدم عليه خالد لامه بشدة .

كان خالد لايزال على مسافة من اليمامة عندما وصلته المعلومات من عناصر الاستطلاع ان مسيلمة يعسكر في سهل عقرباء ، عند الضفة الشمالية من وادي حنيفة حيث توجد الطريق المؤدية الى اليمامة .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

ولعدم رغبة خالد في الاقتراب من عدوه عبر الوادي ، فقد ترك الطريق على مسافة بضعة اميـال الى القرب من عقرباء ، وتحرك جنوبا حتى ظهر على الارض المرتفعة الواقعة على بعد ميل واحـد جنوب الوادي ، مقابل مدينة جبيلة [1] . ومن هذه الارض المرتفعة ، استطاع خالد ان يرى سهل عقرباء بكامله ، وكان يمتد على الحد الامامي للسهل معسكر بني حنيفة . فاقام خالد معسكره على الارض المرتفعة . وبلغت قوة جيشه ثلاثة عشر الفا .

عندما انطلق خالد من البطاح ، وصلت انباء مسير المسلمين الى مسيلمة بواسطـة العملاء الذين اكدوا له ان هـذا الجيش هـو جيش الاسـلام الرئيسي . كانت الطريق من البطاح الى اليمامة تمر عبر وادي حنيفـة ، ويقع سهل عقرباء عند الضفة الشماليـة للوادي ، خلف جبيلة ، وهـذا السهل يحدّد الحدّ الخارجي للمنطقـة الخصبة التي تمتد من عقرباء الـى اليمامة وباتجاه جنوب شرق . وكانت هـذه المنطقة تحتوي على المـزارع والبسـاتين والحقول المزروعـة ، وتوخيا للـدّقة ، فان اليمامة نفسها عبارة عن اقليم اكثر منه مكان ، وكانت عاصمتها « حجْر » ، وهذه ايضا تسمى اليمامة بشكل عام . وتقع مدينـة الرياض الحاليـة في نفس المكان الذي كانت تقع فيه حجْر القديمة [2] .

كان مسيلمة لايرغب في السماح للمسلمين بانزال الدمار والخراب في المدن والقرى . لذلك تقدم بجيشه الى جبيلة ، على مسافة خمسة وعشرين ميـلا شمال غرب اليمامة ، واقام معسكره قرب جبيلة ، حيث يبدأ سهـل عقرباء . ومن هـذا المكان يستطيع مسيلمة الدفاع عن سهول اليمامة الخصبة، ويكون بنفس الوقت على مجنبة طريق تقدم خالد ، فاذا اخطأ خالد وسار

---

(١) جبيلة الحالية عبارة عن قرية صغيرة . وحسب روايات السكان المحليين ، كـانت في الماضي مدينة كبيرة .

(٢) ان قرية اليمامة الحالية التي تقع على مسافة ٥٠ ميلا جنوب شرق الرياض ، وقـرب الخرْج ، ليست اليمامة التاريخية ، اي ليست اليمامة التي حصلت فيها هذه المعركة .

في وادي حنيفة ، فان بني حنيفة ستهاجم مجنبته اليسرى . وهنا لايستطيع خالد ان يتجنب المعركة ويتقدم الى اليمامة ، لان مسيلمة عندئذ سينقض على مؤخرته . (نفس الفكرة التكتيكية التي طبقها النبي في أحد) .

كان مسيلمة جاهزا للمعركة في سهل عقرباء مع جيش مؤلف من اربعين الف مقاتل ، جميعهم متحمسون للقتال . فالعمليتان الناجحتان ضد عكرمة وشرحبيل ، زادتا من ثقتهم بأنفسهم وخلقتا هالة حول « الكذّاب » وبأنه لايقهر . واصبح رجاله مستعدين الآن للتضحية بأرواحهم دفاعا عن زعيمهم وقضيته . وكان مسيلمة واثقا من انه سينزل العقاب بخالد كما انزله من قبل بعكرمة وشرحبيل .

قبل وصول خالد ببضعة ايام ، فَقَدَ مسيلمة واحدا من أكفأ قواده ، هو مُجَّاعة بن مرارة ، الذي سبق ان جاء ذكره كعضو هام في وفد بني حنيفة الذي أرسل الى النبي . وكان هذا الرجل قد خرج مع اربعين رجلا للاغارة على قبيلة مجاورة طلبا للثأر . وعند عودتهم من الإغارة ، توقفوا ليلا عند ممر يدعى ثنية اليمامة ، التي تبعد مسيرة يوم عن عقرباء . ونامت جماعة مُجّاعة نوما عميقا ، لكن نومهم هذا كان الاخير ، لانه تم أسر جميع هذه الجماعة في الصباح الباكر من قبل احدى سرايا الخيالة التي كانت تتقدم امام جيش خالد . وقدّم هؤلاء المرتدون الى سيف الله .

فاستجوبهم خالد ، وسألهم هل يؤمنون بمحمد أم بمسيلمة ؟ فأجابوا بدون استثناء انهم يؤمنون بمسيلمة . واردف البعض قائلا : « نقول منا نبي ومنكم نبي » [1] . لكن خالدا لايريد اضاعة الوقت في مثل هذه الترّهات، فأمر بقتلهم جميعا باستثناء زعيمهم مُجّاعة ، الذي كُبّل بالحديد كأسير . وكان مُجّاعة رجلا بارزا في قبيلته فإبقاؤه كرهينة قد يكون ذا فائدة . ووصل جيش المسلمين ، ومعهم مجاعة مكبلا بالحديد ، بالقرب من عقرباء وأقاموا معسكرهم كما ذكر آنفا . واصبح الجيشان الآن جاهزين للمعركة .

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٠ .

كان وادي حنيفة هو الحد الفاصل بين الجيشين . وكانت ضفة الوادي عند الجانب الشمالي ترتفع نحو مائة قدم . اما عند الجانب الجنوبي فكانت ضفة الوادي ترتفع تدريجياً حتى تصل الى ارتفاع مائتي قدم ، على بعد ميل واحد من الوادي حيث كان يعسكر جيش خالد . وكانت تقع على الضفة الشمالية ايضا قرية جبيلة ، وعند الطرف الغربي من القرية كان يمتد خندق حتى يصل الى الوادي . كان الحدّ الامامي للمسلمين يمتد على طول ضفة الوادي الجنوبية مسافة ثلاثة أميال ، وكان المرتدون يقفون على الضفة الشمالية للوادي . وكانت قرية جبيلة والخندق يقعان في وسط جيش مسيلمة . وكان سهل عقرباء يمتد خلف المرتدين ، وكان يوجد في هذا السهل على بعد ميلين من الوادي حديقة كبيرة يحيط بها سور . وسميت هذه الحديقة بعد المعركة « بحديقة الموت »[1] . (انظر الخريطة رقم ٩) .

وفي صباح اليوم التالي انتشر الجيشان وفتحا للمعركة . نظم مسيلمة جيشه على النحو التالي : القلب ووضعه تحت إمرته مباشرة ، والجناح الايسر بقيادة رَجّال ، والجناح الايمن بقيادة طفيل . ولكي يثير مسيلمة همم رجاله وحماسهم ، جعل ابنه شرحبيل بن مسيلمة يتقدم الصفوف وهو يصيح بأعلى صوته : « يابني حنيفة ، اليوم يوم الغيرة ، اليوم ان هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات فقاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم »[2] .

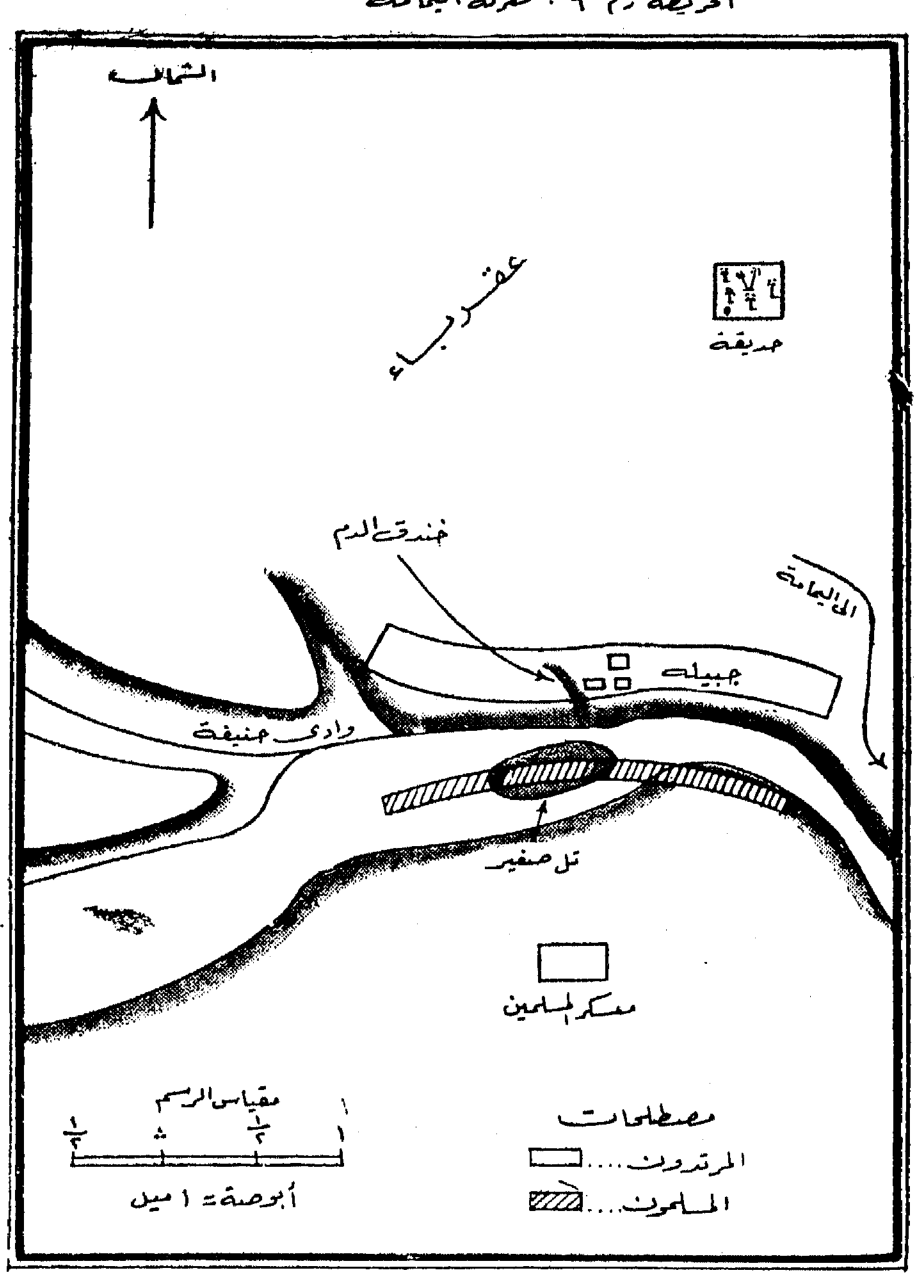
قرر مسيلمةُ ان ينتظر هجومَ خالد ، اي انه سيتخذ وضعية الدفاع ، فبعد ان يصدّ الهجوم ، سيتحول الى الهجوم على خالد لزعزعة صفوفه ودحره .

قضى المسلمون الليل في الصلاة . فقوات العدو التي أمامهم هي اكبر قوات قاتلوها حتى الآن ، كما ان قائدها يعتبر من ادهى الرجال . فبعد صلاة

---

(١) ان موقع حديقة الموت غير معلوم بدقة . وقد قُدرتْ مكانها من مجرى المعركة .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٩ .

الخريطة رقم ٩ : معركة اليمامة



الصبح ، حــرّك خالد قواته البالغ عددها ثلاثة عشر الفا للمعركــة ، وهي منظمة ايضا على النحو التالي : القلب وهو بإمرة خالد مباشرة ، والجنــاح الايسر بإمرة ابي حذيفة ، والجنــاح الايمن بإمرة زيد (الاخ الاكبر لعمر) . لم ينظم خالد" رجاله لهذه المعركة بمجموعات قبلية ، كما كانت العادة من قبل ، بل نظمهم في كتائب وسرايا حسب متطلبات المعركة وكانت هذه الكتــائب والسرايا تضم عناصر مختلطة من القبائل المختلفة .

خطّط خالد" ، كما كانت عادته ، على اساس ان يقوم بالهجوم منــذ البداية ، وان يجبر خصمه على اتخاذ وضعية الدفاع وعدم السماح لــه بالانتقال الى الهجــوم . وبهذه الطريقة فانه سيحرم مسيلمة من المنــاورة ويجعله يتصرف وفق مشيئته كمهاجم . لكن خالداً لم يكن لديه تصور عمّا سيواجهه المسلمون . فان هذه المعركة ستكون اعنف معركة دموية يواجههــا المسلمون . فنسبة قوات مسيلمة الى قوات المسلمين كانت ثلاثة الى واحد ، بالاضافة الى ان مسيلمة قائدها كان رجلا شجاعا وداهية . لكن خالدا كــان واثقا من النصر . وكان يثق بنفسه وبمهارة وشجاعة قادته ورجاله . وعندما تقــدم امام جيشه ، نظر بفخرٍ ورضىً الى قادته الابطال . وكان يوجــد رجال مشهورون في هذا الجيش ، كما ان بعضا آخر سيبلغ درجة من الشهرة في السنوات التالية . كان يوجد في الجيش زيد شقيق عمر ، وعبد الله بن عمر . كما كان يوجد ابو دجانة الذي درأ السهام بجسمه حماية للنبي في غزوة أحُد . وكان يوجد عبد الرحمن ابن الخليفة ابي بكر ، ومعاوية بن ابي سفيان الذي سيصبح اول خليفة في الخلافة الاموية . كذلك كان يوجد ام عمارة ، وهي السيدة التي قاتلت بجانب النبي في احُد ، مع ابنها . وكان يوجد ايضــا الوحشي" الذي كان مشهورا باستخدام حربته .

سار قادة جيش المسلمين امام كتائبهم ، وهم يتلون آياتٍ من القرآن . وكانوا يذكّرون الناس بجنات النعيم التي أعدها الله للشهــداء ، وبالنــار التي تنتظر المتخاذلين .

بدأت المعركة في صباح احد الايام الباردة من الاسبوع الثالث من شهر كانون الاول عام ٦٣٢ م (الاول من شــوّال ، عام ١١ هجري) .

أمر خالد بالهجوم العام ، وتقدم سيل المسلمين وهم يصيحون : « الله اكبر » . قاد خالد هجوم القلب ، وقاد ابو حذيفة وزيد هجوم الجناحين . وتقابل الجيشان وامتلأ الجو بالصيحات ، واشتبك الرجال الاشداء واندفعوا للاقتتال . واخذ خالد يجندل كل عدو يقترب منه . واظهر ابطالُ المسلمين شجاعة نادرة وحققوا المعجزات ، وشعر خالد بأن محاربيه سوف يقتحمون صفوف الاعداء سريعاً .

لكن جيش مسيلمة وقف صامدا كالصخر . وسقط الكثيرون من المرتدين في المعركة ، ولم يستطع المسلمون اختراق صفوفهم . وكان المرتدون يحاربون بحماس ، ويفضلون الموت على التخلي عن شبر من الارض ، وأدرك المسلمون انهم غير قادرين على التقدم عبر صفوف اعدائهم . فبعد فترة من الصدام بين الجيشين ، ظهر شيء قليل من عدم النظام في صفوف المسلمين بسبب اندفاعهم الى الامام وبسبب محاولاتهم لاختراق جبهة المشركين . لكن هذا لم يؤثر على المسلمين . فطالما انهم مهاجِمون ، والعدو بوضعية الدفاع ، فشيء قليل من عدم النظام لايؤثر .

ثم أدرك مسيلمة بأنه اذا بقي بوضعية الدفاع مدة اطول فان فُرَصَ اختراق المسلمين لصفوفه ستزداد . فأمر بهجوم معاكس عام على طول الجبهة. فتقدم المرتدون الى الامام كالموج العارم ، ووجد المسلمون انفسهم يدفعون الى الوراء . واشتد القتال عندما حاول المسلمون بكل ما أتوا من قوة ان يوقفوا تقدم المرتدين الذين دفعوا ثمناً غاليا لكل شبر كسبوه من الارض ، وقد صمدوا بسبب ايمانهم بوعد مسيلمة الكذاب بأن الجنة تنتظر اولئك الذين يسقطون ، وضغطوا على المسلمين بدون هوادة . وبدا يظهر في صفوف المسلمين شيء من عدم التماسك بسبب دمج أفراد القبائل في كتائب مختلطة وعدم تعودهم على القتال بهذه الطريقة .

وبدا يُلمس تفوقُ المرتدين العددي . فقد هجموا بكتل متراصة على صفوف المسلمين الرقيقة ، واخذوا يزيدون ضغطهم عليهم ، عندئذ تزعزعت صفوف المسلمين وبدؤوا بالتراجع . وشدّد المرتدون هجماتهم الجريئة ،

واجبروا المسلمين على الانسحاب غير المنتظم . واخذت الكتائب المسلمة ترتد الى الخلف وتترك ارض المعركة . ولم يستطع قادة المسلمين ايقاف التراجع. واستمروا في ذلك الى ان توقفوا خلف معسكرهم الذي انطلقوا منه .

عندما ترك المسلمون سهل عقرباء ، طاردهم المرتدون بقوة . ولم تكن هذه المطاردة مخططة ، بل كانت ردّ فعل غريزي ، مثل ردّ فعل المسلمين ومطاردتهم لفلول قريش في الجزء الاول من غزوة أحد . وكما فعل المسلمون في احد استمر المرتدون في المطاردة حتى وصلوا معسكر المسلمين وبدؤوا بنهبه . وكما حصل في أحد ايضا ، فان انشغال المرتدين بالسلب قد أعطى خالدا الفرصة للاستعداد ولشن هجمة معاكسة .

كانت خيمة خالد موجودة في معسكر المسلمين ، وكانت زوجته ليلى تقيم فيها ، وكان بجوارها مُجّاعة مكبّلا بالحديد . فاندفع عدد قليل من المشركين الى خيمة خالد بغرض النهب والسلب . فرأوا مجاعة وتعرفوا عليه . ورأوا ليلى وأرادوا ان يقتلوها لكن مُجّاعة منعهم من ذلك وقال لهم : « مَهْ أنا لها جارٌ فنِعْمَت الحرّة ، عليكم بالرجال » . وفي مسارعتهم لوضع يدهم على الغنائم ، نسيَ المرتدون ان ينقذوا زعيمهم مجاعة .

تمّ اجتياح المعسكر بشكل مخيف ، فكان المشركون ينهبون كل مايستطيعون حمله : ويحطّمون ويتلفون الاشياء التي لايستطيعون حملها . فمزقوا خيمة خالد . ثم توقف النهب والسلب فجأة ، واسرع المرتدون بالعودة الى سهل عقرباء ، لانهم استطاعوا أن يشاهدوا من جهة الجنوب جيش المسلمين وهو يتقدم مرة ثانية بنظام وبصفوف متراصة .

عندما توقف المسلمون خلف معسكرهم بعد تراجعهم امام المرتدين ، اخذوا يفكرون بما حدث لهم فلم يجدوا اي اثر للخوف في نفوسهم . وكانوا يشعرون فقط بالغضب على عدم النظام الذي أصاب صفوفهم والذي سبب تراجعهم . فكيف حصل ذلك ؟ وكيف يمكن ان يحدث ؟ خاصة وانهم انزلوا بالعدو خسائر جسيمة تفوق كثيرا خسائرهم .

بقيت شجاعتهم ثابتة لاتتزعزع ، لكنهم شعروا ايضا بأنهم غلبوا

ووجدوا متنفسا لغضبهم عندما اخذوا يتبادلون النهم ؛ قبيلة ضد قبيلة ، وبطن ضد بطن ، والقرية ضد البادية . واخذوا يلومون بعضهم على الهزيمة التي لحقت بهم . فقال سكان القرى : « يا اهل البوادي نحن ادرى بالحرب منكم » ؛ فأجاب سكان البادية : « يا أهل القرى انكم لاتحسنون القتال ، ولا تدرون ما الحرب »[1] . فتعالت الاصوات بأن يقاتل كل فريق ضمن مجموعته القبلية ، أي ان اهل القرى يقاتلون مع بعضهم ، واهل البادية يقاتلون ضمن قبائلهم . عندئذ يظهر من المتخاذل .

استطاع خالد ان يدرك ماحدث . فجبهة المرتدين لم تتهاوَ تحت تأثير هجوم المسلمين العنيف ، كما حدث لجميع الجبهات قبل ذلك . علاوة على ذلك ، فالمرتدون قاموا بهجومهم المعاكس عندما كان المسلمون غير منتظمين نوعا ما . ففقد المسلمون توازنهم ، ولم يستطيعوا اعادة التوازن بسبب ضغط الهجوم المعاكس . كما ان المسلمين لم تنقصهم الشجاعة اثناء القتال .

وادرك خالد أيضا ان تشكيل الكتائب المختلطة من اهل القرى والبوادي كان خطأ ، لان الانتماء القبلي كان لايزال قويا بين العرب . وهذا الشعور القبلي أضاف ركيزة اخرى من ركائز القوة الى الحمية الاسلامية والى الشجاعة الفردية والمهارة التي كانت تميز جيش المسلمين . فأمام تفوق المرتدين العددي ، والذي بلغت نسبته ثلاثة الى واحد ، والتعصب الاعمى لأتباع مسيلمة ، وغياب الاخلاص القبلي ، كل ذلك ادى الى عدم تماسك كتائب المسلمين أثناء القتال .

أصلح خالد غلطته فأعاد تجميع جيشه . وقد نَظَّم هذا الجيش كالسابق من حيث ترتيب القتال ؛ وعيّن نفس القادة ، لكن الجنود شُكّلوا في وحدات حسب قبائلهم وبطونهم . والآن أصبح كل جندي لايقاتل من اجل الإسلام فحسب ، بل من أجل شرف القبيلة . وسيكون هنالك تنافس بريء بين هذه القبائل والبطون .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٣ .

وعندما اكتملت اعادة التنظيم ، مرّ خالد وقادته المرؤوسون على الكتائب. فتكلموا مع الجنود وقوّوا من عزائمهم لانزال العقاب بمسيلمة بسبب العار الذي لحق بهم . واقسم الرجال على ان يحاربوا بأسنانهم عند الضرورة .

إختار خالد ايضا بضعة محاربين وجعل منهم حرّاسا له . وكان ينوي ان يضرب مثلا لرجاله بالنزول الى ساحة القتال بنفسه . وهؤلاء الحراس سيكونون مفيدين ، فقال لهم : « كونوا دائما قريبين مني » .

وتقدم المسلمون ، بعد ان اعيد تنظيمهم في صفوف منتظمة ، الى سهل عقرباء . فعادوا الى المعركة ليس كالأسود ، بل كالأسود الجائعة .

في غضون ذلك ، نشر مسيلمة الكذاب جيشه مرة ثانية بنفس ترتيب المعركة السابق . وانتظر الهجوم الثاني لسيف الله ، وهو واثق من انه سيطرد المسلمين من ميدان المعركة .

اندفع المسلمون مرة ثانية الى الامام وفق أوامر خالد ، وهم يصيحون : الله اكبر ، ويامحمداه ! واشتبك جيش المسلمين الصغير مع جيش المرتدين الجرّار . وتصادم الجناحان بالجناحين والقلب بالقلب . وتقابل قائد ميمنة المسلمين زيد مع قائد ميسرة المشركين الرّجّال . فقال زيد : « يا رَجّال ؛ الله الله ، فوالله لقد تركت الدين ، وإنّ الذي ادعوك اليه لأشرف لك واكثر لدنياك » [1] . فأبى فاجتلدا فقتل الرّجّال .

شنّ المسلمون هجمات عنيفة على طول الجبهة ، وكان المرتدون يدافعون بضراوة للمحافظة على مواقعهم . فسقط المئات منهم ، وبدات خسائر المسلمين ايضا بالتصاعد . وكان الجانبان متعادلان تقريبا بالتفوق العددي للمرتدين وبالمهارة والشجاعة للمسلمين . واحتدم القتال بين الجانبين الذي اتصف بالكرّ والفرّ . وكان الغبار يتصاعد الى عنان السماء من جرّاء وقع اقدام آلاف المتحاربين . وكانت السيوف والحراب المتكسرة تملأ الوادي والسهل كما ان الجثث والاشلاء الممزقة كانت تتكدس على الارض وهي تنزف دماً .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥١١ .

واخذ الدم يجري في خندق يؤدي الى وادي حنيفة . ونتيجة لذلك ، أصبح هذا الخندق يعرف باسم « خندق الدم » . ولا يزال هذا الخندق يعـرف بهذا الاسم حتى اليوم . وظلت المعركة متأرجحة بين الطرفين دون ان تحسم لأي منهما .

ادرك خالدٌ الآن ان المرتدين الذين يتعصبون بشكلٍ اعمى لنبيّهم الكذاب لن يستسلموا . وان الحلّ الوحيد يكمن في قتل مسيلمة للقضاء على الروح المعنوية للمشركين ، وبالتالي التغلب عليهم وهزيمتهم . لكن مسيلمة لايخرج للمبارزة مثلما يفعل خالد . وكان لابد من إخراجه مـن بين صفوف المرتدين حيث يحيط به اتباعه المخلصون .

وعندما خفت حدّة القتال ، توقف المحاربون ليلتقطوا انفاسهم . وكانت هنالك فترة هدوء . فخرج خالد امام صف المسلمين ودعا الى المبارزة وقال : « انا ابن الوليد ! من يبارز ؟ » فخرج عدة أبطال من بين صفـوف المرتدين الواحد تلو الآخر نحو خالد . فقضى عليهم واحدا بعد الآخر وهو يرتجز :

« أنا ابن أشياخٍ وسيفي السّخْتْ   اعظمُ شيء حين يأتيك النّفْتْ »[1]

تقدم خالد ببطءٍ وبثبات نحو مسيلمة ، وكلما برز له بطلٌ قتله ولـم يبق أحد يجرؤ على مبارزته ، وأصبح خالد الآن قريباً من مسيلمة بحيث يستطيع أن يكلمه دون أن يرفع صوته . وكان مسيلمة ، عـلى كل الاحوال ، محاطـاً بحرّاسة ، ولا يستطيع خالد ان يصل اليه .

اقترح خالد اجـراء محادثات بينه وبـين مسيلمة . فوافق مسيلمة ، وخرج الى الامـام بحذر وتوقف قريباً من خالد . فعرض عليه خالد أشياءً مما يشتهي مسيلمة وقال لـه : « إن قبلنا النصف فأي الانصاف تعطينا »[2] ، وكان مسيلمة اذا همّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً فينهاه شيطانه أن يقبل ، فأعرض بوجهه بعد أن استلهم شيطانه . وعندما شاهد خالد ذلك تذكر كلمات

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٣ [السخت : الحادّ،النفت : اوار المعركة] ـ المترجم .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٤

النبي التي قالها بشأن مسيلمة : « إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه ، فاذا اعتراه أزبَدَ كأن شدقيه زبيبتان لا يهم بخيرٍ إلا صرفه عنه . فاذا رأيته منه عورة فلا تقيلوه العَثرة »[1] .

كان خالد ينوي قتل مسيلمة . وكان اقتراحه باجراء المحادثات عبارة عن طُعم لكي يجعله يقترب منه . وكان على خالد أن يعمل بسرعة قبل أن يعود مسيلمة ويصبح محميا بحرّاسه . فسأله خالدٌ سؤالاً آخر . فأعرض مسيلمة بوجهه ليستشير شيطانه ، وفي هذه اللحظة هجم خالد عليه .

كان خالدٌ سريعاً . لكن مسيلمة كان اسرع . ففي لمح البصر عاد أدراجه بسرعة .

اصبح مسيلمة آمناً مرة أخرى بين ايدي حرّاسه . لكن شيئا ذا مغزى طرأ ، عندما هرب مسيلمة ، على معنويات الجيشين ، فارتفعت معنويات جيش المسلمين وانخفضت معنويات جيش المرتدين . فهربُ نبيّهم وقائدِهم أمام خالد كان شيئا معيباً في أعين المرتدين ، وابتهج المسلمون من جهة أخرى لشجاعة قائدهم . ولكي يستثمر خالد هذه الفرصة النفسية التي برزت أمامه ، أمر بشن هجوم جديد في الحال .

هجم المسلمون مرة أخرى وهم يصيحون : « الله أكبر » . وقاتلوا ببسالة واندفاع ، واخيراً لاح النصر في الافق . فبدأ المرتدون بالتراجع من جرّاء ضربات المسلمين المحكمة بالسيوف والحراب ، وأخذوا ينسحبون بسرعة أمام ضغطِ المسلمين . وارتفعت معنويات المسلمين الى عنان السماء فضاعفوا جهودهم . وبعد ذلك انهارت وتحطمت جبهة المرتدين .

لم يستطع مسيلمة أن يفعل شيئاً ، فقائده الكفؤ رَجّال قد قتل . فجاء الآن قائد ميمنته « المحكّم » لانقاذ موقف المرتدين . فنادى المحكّمُ : « يابني حنيفة ، الحديقة ، الحديقة ، ادخلوا الحديقة وسأحمي ظهوركم » .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٤

لكن عقد المرتدين كان قد انفرط . وهربت الكتلة الرئيسية من جيشهم وتفرقت في جميع الاتجاهات . بقي رُبع جيش مسيلمة تقريباً في حالة قتال ، فأسرع هذا الجزء بدخول الحديقة المسوّرة بينما المحكّم يحمي تراجعه بواسطة حرس مؤخرة صغير . سرعان ما تـم القضاء على حرس المؤخرة هذا بواسطة المسلمين ، وسقط المحكّم قتيلا بيد ابن الخليفة ، عبد الرحمن بن ابي بكر .

قام المسلمون بعد ذلك بمطاردة فلول المرتدين في سهل عقرباء وهم يضربون ذات اليمين وذات الشمال . وسرعان ما وصلوا الى الحديقة المسوّرة التي تضم حوالي سبعة آلاف مرتد ، ومسيلمة من بينهم . وكان المرتدون قد اغلقوا باب الحديقة وهم يعتقدون بانهم اصبحوا في مأمن .

تجمع الجزء الاكبر من جيش المسلمين قرب « حديقة الموت » . وكان الوقت بعد الظهيرة ، والمسلمون متحمسين لاقتحام الحديقة وانهاء المهمة التي بدؤوها منذ الصباح الباكر ، قبل أن يتبدّد الظلام ، ولكن لا يوجد اي منفذ يؤدي الى الحديقة . فالسور يحيط بها من جميع جهاتها ، وكانت البوابة موصدة . ولم يكن بحوزتهم تجهيزات حصار ، وليس لديهم وقت ليقضوه في الحصار .

وبينما كان خالد يقدح زناد فكره ، قال محارب قديم الى زملائه ، وكان يدعى البراء بن مالك ، : « يا معشر المسلمين ؛ احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه » . لكنهم رفضوا في بادىء الامر ، لان البَراء كان أحد الصحابة البارزين ، وخشوا ان يؤدي ذلك الى موته . لكن البَراء أصرّ على طلبه . واخيراً وافق رفاقه وحملوه ووضعوه على الحائط . فوضع يديه على طرف الحائط وقفز الى داخل الحديقة . وفي لحظات : تمكن من قتل مشركين أو ثلاثة حاولوا منعه من الوصول الى البوابة ؛ وقبل ان يتمكن آخرون من اعتراضه ، فتح باب الحديقة على مصراعيه ، فاندفع المسلمون الى داخل الحديقة كالسيل العارم . وهنا بدأت آخر واعنف مرحلة من معركة اليمامة .

كان من الممكن ان يتغلب المرتدون على المسلمين داخل الحديقة بسبب تجمعهم الكثيف عند مدخل الحديقة الضيق . لكن المسلمين شقوا طريقهم

بثبات الى داخل الحديقة ؛ وكان المرتدون بتساقطون امامهم اكواماً . وبدا المرتدون يتراجعون امام وطأة ضربات المسلمين .

وأصبح القتال يدور بعنفٍ شديد ؛ نظرا لتعذر المناورة داخل الحديقة والتحام الجانبين في قتال قريب . وبدات صفوف المرتدين بالانهيار نتيجة كثرة القتلى منهم . لكن مسيلمة كان لا يزال يقاتل : اذ لم تكن لديه نية للاستسلام . وعندما أقترب منه المسلمون ، استل سيفه واشترك في القتال المتلاحم ، وقد اندهش المسلمون بقوته وبراعته . فقد كان قائدا داهية ، ومقاتلا شجاعاً وماهراً . لكن الزبد بدأ يخرج من فمه دلالة على الغضب ، واعرض بوجهه ليستشير شيطانه .

بلغت المرحلة الاخيرة من المعركة ذروتها . فضغط جيش المسلمين على المرتدين في كل مكان ، ولم يبق سوى محاولات مسيلمة الاخيرة لمنع الانهيار التام لجيشه .

كان المسلمون يقاتلون قتالا ضارياً ، وقد انزلوا بالمرتدين افدح الخسائر ، وكانت الجثث تغطي الارض . وأصبح لون التراب احمر بفعل دماء القتلى والجرحى .

هرع الكثيرون من المرتدين الى مسيلمة وقالوا له في يأس : « أين ما كنت تعدنا ؟ » فقال : « قاتلوا عن أحسابكم » .

أدرك مسيلمة انه لن ينال صفح خالد ، فهو مُدان بقتل الكثيرين من المسلمين ؛ وسيفه لا يزال يقطر بدمائهم ، وقرر أن يقاتل مع افراد قبيلته حتى النهاية . وكان حرّاسه يقاتلون حوله بتعصب كما كانوا في السابق . وتقدم وحشي من مسيلمة . وكان هذا احد مجرمي الحرب الذين نوه عنهم النبي في مساء يوم فتح مكة . وخشيةً من الأسوأ ، هرب وحشي من مكة وذهب الى الطائف ، وعاش بين قبيلة ثقيف ردحاً من الزمن . وفي العام التاسع للهجرة ، عندما اعلنت ثقيف ولاءها للنبي ، ذهب وحشي الى النبي ايضاً واعتنق الاسلام . واقسم يمين الولاء .

وكان النبي لم يره منذ عدة سنين ولم يكن متأكدا اذا كان هو نفس

الرجل . فسأله النبي : « هل أنت وحشي ؟ » فقال : « نعم يا رسول الله » . فقال النبي : « أخبرني كيف قتلت حمزة » . فقصّ وحشيّ القصة بكاملها منذ البداية حتى النهاية . ولم يدر بخلده الزاوية الاخلاقية من القصة ، وانه قتل رجلا شهماً نبيلا له مكانة خاصة في قلب النبي . بل سرد القصة كجندي قديم يتحدث عن بطولاته ومآثره . كما ان قتلَ محاربٍ فذّ مثل حمزة ، كان بدون شك إنجازاً عسكرياً بالنسبة اليه .

برهن وحشي انه راوية ممتاز ، لكن احداً لم يصفق له . فكانت أمارات الاسى ترتسم على محيّا النبي وهو يستمع اليه ، ثم قال له : « لا تريني وجهك مرة ثانية » . فأدرك وحشيّ ان بقاءه في المدينة خطر عليه لان ذكرى حمزة لا تزال ماثلة هناك . فغادرها على الفور .

عاش وحشي في السنتين التاليتين في قرى متعددة حول الطائف متخفياً ومبتعداً عن المسافرين . فكان ضميره يؤنبه ، وَخشي على حياته التعيسة . ثم جاءت الردّة . فبقي وحشي مخلصاً لدينه الجديد واختار ان يحارب المرتدين من أجل الاسلام . وخدم تحت إمرة سيف الله .

عندما وقعت عينا وحشيّ على مسيلمة ، شدّد قبضته على حربته ؛ هذه الحربة التي أودت بحياة الكثيرين . كان الكذّاب يقاتل بشراسة . وكان يصدّ عنه ضربات المسلمين وهو محاط بحرّاسه ، وأحياناً كان يقاتل امام حراسه . ولكنه لم يغب لحظة عن نظر القاتل الاسود . لقد اختار وحشيُ ضحيته الثانية ؛ وموتها سيخفف من الالم الذي يعتصر في قلبه . فتسلل وحشيّ من مكانه خلف صف المسلمين ونقدم الى الامام ليضع مسيلمة ضمن مدى حربته . ولم يشاهد وحشيّ وهو يتقدم ؛ الجموعَ الحاشدة ، أو المحاربين الذين تغطيهم الدماء والذين يحيطون بمسيلمة . وكان وحشيّ لايرى الا ضحيته .

رأى وحشيّ أمّ عمارة ، السيدة العظيمة التي قاتلت في أحد ، وهي تحاول الوصول الى مسيلمة . وكانت تتبارز مع مشرك سدّ الطريق أمامها . وفجأة ضربها المشرك ضربةً أفقدتها يدها . فتلقاه ابنها الذي كان يقف بجوارها بضربة قاضية وساعد والدته على النجاة . وكانت كسيرة الخاطر لانها لم تتمكن من الوصول الى مسيلمة .

اقترب وحشيّ من مسيلمة . وكان يتخيل شهيد احد ، حمزة ، الذي كان مقتله سبب كل متاعبه . وكان يستطيع ان يميز في مخيلته صورة حمزة الشجاع والوسيم . لكنه طرد من ذهنه هذه التخيلات المؤلمة ونظر مرة أخرى الى مسيلمة . وقد اصيب بصدمة من جرّاء التباين بينهما . اذ كان منظر مسيلمة ذي الوجه البشع الاصفر ، وذي الانف المسطح مخيفا خاصة والزبد يملأ فمه وهو بحالة هياج وغضب . ورأى وحشيّ جميع الآثام والشرور واضحة في وجهه .

قاس وحشي المسافة بينه وبين مسيلمة بعينه الخبيرة . فكان المدى ملائما . وبينما كان يهمّ برمي وتسديد حربته ، شاهد ابا دجانة (وهو الرجل الذي جعل من جسمه ترسا لحماية النبي في أحُد) وهو يتقدم نحو مسيلمة شاهرا سيفه . وكان ابو دجانة ماهرا في استخدام السيف وسوف يصل الى هدفه بسرعة . فرمى وحشيّ حربته فاصابت مسيلمة في بطنه . فوقع مسيلمة الكذاب على الارض وهو يتلوى من الالم . وفي لحظة كان ابو دجانة فوق مسيلمة . وبضربة محكمة من سيفه فصل راس الكذاب عن جسده . وعندما نهض ابو دجانة ليعلن النبأ السارّ ، انقض عليه احد المشركين وطعنه بالسيف. فلما رأى احد المرتدين مسيلمة على هذه الحال ، صرخ قائلا : « إن العبدَ الأسود قتَل مسيلمة » . وانتشر النبأ في ارجاء الحديقة ، واخذ المسلمون والمرتدون يقولون : « قتل مسيلمة » .

وخدم وحشيّ فيما بعد تحت إمرة خالد في حملة الشام . وعندما تم فتح الشام واصبحت ولاية للدولة الاسلامية ، استقرّ وحشيّ في مدينة حمص وعاش فيها حتى سنّ متقدمة . لكنه قضى معظم ايامه في احتساء الخمر . وقد جلده عمر ثمانين جلدة بسبب شرب الخمر (وكان أول مسلم في التاريخ يعاقب على شرب الخمر) ، لكنه رفض ان يتركه . لكن عمر تركه ، لانه ربما حلّت به لعنة الله بسبب قتله لحمزة .

وفي حمص ، اصبح وحشيّ شخصية هامة تجتذب المسافرين . فكان زوار المدينة (مدينة حمص) يذهبون الى منزله على امل أن يكون صاحبا

ليسألوه عن مقتل حمزة ، ومقتل مسيلمة . فاذا كان صاحيا ، كان يسرد بالتفصيل مقتل حمزة ثم مقتل مسيلمة . وعندما يصل الى نهاية روايته ، كان يرفع حربته بفخر واعتزاز ويقول : « بهذه الحربة قتلت افضل الرجال وانا كافر ، وقتلت أسواهم وانا مؤمن » .

تسبّب نبأ مقتل مسيلمة الكذّاب في انهيار المرتدين بسرعة . فبعضهم صار يقاتل بعنف نتيجة اليأس ؛ لكن هؤلاء لم يستمروا طويلا ، وفقدوا حياتهم ثمنا لذلك . لكن معظمهم توقف عن القتال ، واخذوا ينتظرون بيأس كامل سيوف المسلمين لانهاء حياتهم . وقام المسلمون بهجمة أخيرة على جموع المرتدين وقتلوا منهم الكثيرين . وهكذا اصبحت المعركة مذبحة .

وعندما غابت الشمس ، خيّم الهدوء على حديقة الموت . فلم يَعُدْ المسلمون يقوون على رفع سيوفهم بسبب الإجهاد . ولم يبق احدٌ ليقتلوه .

قضى المسلمون ليلتهم في نفس المكان لكي يستريحوا من هول المعركة ، وناموا قريري العين منتصرين .

في صباح اليوم التالي ، خرج خالد ليتفقد ميدان المعركة . وكانت آثارُ المعركة باديةً في كل زاوية . فالاشلاءُ والجثثُ تملأ وادي حنيفة ، وسهلَ عقرباء ، وحديقةَ الموت . وكانت الارض مخضبة بالدماء حيثما سار .

لقد قتل جميع قادة المرتدين الهامين في اليمامة ، ماعدا الأسير مُجّاعة الذي جاء به خالد وهو يرسف في الحديد ليُريَه مسيلمة وأعلام جنده ، والهزيمة الساحقة لبني حنيفة .

كانت حالة المسلمين أيضاً سيئة . فالمعركة كانت رهيبة ، وهم الآن في حالة لايستطيعون حتى الدفاع عن انفسهم . كانوا مرهقين ، وقد ناموا الليلة الماضية في المكان الذي وصلوا اليه ليريحوا اطرافهم المتعبة . لكن خالدا كان راضيا من نتيجة المعركة ؛ فمسيلمة قد قتل وجيشه مزّق شرّ ممزق . وارتسمت علامات الفرح على وجهه ، لكن مجاعة سرعان ما ازال هذه العلامات . اذ قال لخالد : « وإنه والله ما جاءك إلا سَرَعان الناس ، وإن جماهير الناس

لفي الحصون » . فقال خالد : « ويلك ماتقول ؟ » قال مجاعة : « هو والله الحق ، فهلمّ لأصالحك على قومي » . ثم قال : « أنطلقْ اليهم فأشاورهم وننظر في هذا الامر ثم أرجع اليك » .

كان خالد يعلم ان رجاله المنهكين غير قادرين على متابعة القتال ، لذا وافق على اقتراح مجاعة وقال له : « فليكن الصلح » .

اتفق خالد مع مجاعة على شروط الصلح : فالمسلمون يأخذون الذهب ، والسيوف ، والدروع ، والخيل ، ونصف السَّبْي . ثم طلب مجاعة ان يذهب الى قومه ليعرض عليهم ما اتفق عليه . فسمح له خالد بالذهاب . ولما عاد الى خالد قال له : « لقد أبوا ما صالحتك عليه ، وبامكانك ان تهاجم اذا شئت » .

فقرر خالد ان يلقي نظرة على اليمامة بنفسه . واوعز الى قواته المنهكة ان تدفن الشهداء وتجمع الغنائم ، وأخذ معه سرية من الخيالة وانطلق صوب اليمامة وبصحبته مجاعة . وعندما اقترب من الحائط الشمالي للمدينة المسوّرة رأى رجالا على الحصون وعليهم الحديد الذي يلمع تحت أشعة الشمس . فقال في نفسه كيف يستطيع ان يجابه مثل هذا الجيش ؟ فرجاله في حالة منهكة لاتساعدهم على القتال ، وبحاجة ماسّة الى الراحة .

فكسر صوت مجاعة الصمت قائلا : « انهم مستعدون لتسليم الحصن اذا لم تأخذ منهم السّبي . وهم مستعدون أيضا لاعطائك الذهب ، والسيوف ، والدروع ، والخيل » .

فسأل خالد : « هل وافقوا على ذلك ؟ ؛ فقال مجاعة : « لقد بحثت الامر معهم لكنهم لم يتخذوا قرارا بعد » .

لم يكن خالد على استعدادٍ للتنازل أكثر مما عرض على مجاعة . فنظر الى مجاعة عابسا وقال : « سأمنحك ثلاثة أيام ؛ فاذا لم تفتح أبواب الحصن وفق شروطي الاخيرة فانني سأهاجم . وعندئذٍ لن تكون هناك تنازلات من أي نوع » . فذهب مجاعة مرة ثانية الى الحصن . وعاد هذه المرة باسماً واعلن :

« لقد وافقوا » [1] .

وتمّ الصلح طبقا للشروط التي اتفق عليها . ووقع خالد نيابة عن المسلمين ووقع مجاعة نيابةً عن بني حنيفة [2] .

عاد مجاعة بن مرارة بعد توقيع معاهدة الصلح الى الحصن ؛ وسرعان ما فتحت أبوابه . فتجول خالد ومعه خيالته ومجاعة في المدينة وهو يتوقع أن يرى حشود المحاربين المسلحين ؛ ولكنه حيثما نظر ، كان لايرى إلا النساء والشيوخ والاطفال . فالتفت الى مجاعة قائلا : « أين المحاربون الذين رايتهم على الحصون ؟ » فأشار مجاعة الى النساء وقال : « هؤلاء هم المحاربون الذين شاهدتهم . فعندما جئتُ الى الحصن ألبستهنّ الدروع ، وحمّلتهنّ الاسلحة ، وجعلتهن يقفن على الحصون . وفي الحقيقة ، لايوجد محاربون . » فقال خالد : « ويحك يا مجاعة لقد خدعتني » . فقال مجاعة : « إنهم قومي ولم أستطع إلاّ ما صنعت » . وكان بوسع خالد ان يمزق المعاهدة ويقضي على مجاعة . لكنه لم يفعل ، وتم توقيع المعاهدة واحترمت بنودها . وقد اعتُبر جميعُ افراد بني حنيفة الموجودون في الحصن آمنين . ثم بعد ذلك سُمح لهم ان يتجولوا في الجوار كما يشاؤون .

بعد يوم او يومين وصلت رسالة من الخليفة ، الذي لم يكن على علم بان معركة اليمامة قد انتهت ، تأمر خالداً بان يقتل جميع المرتدين من بني حنيفة . فكتب خالد الى الخليفة بأن الامر لايمكن تنفيذه بسبب اتفاقية الصلح التي وقعها معهم . فوافق ابو بكر على ذلك .

كانت اتفاقية الصلح تشمل الموجودين في الحصن فقط . لكن باقي أفراد قبيلة بني حنيفة ، الذين يبلغ تعدادهم عشرات الالوف ويعيشون في المنطقة المحيطة باليمامة ، كانوا غير مشمولين بالاتفاقية . وكان أهم عناصر بني حنيفة

---

(1) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة : ٥١٥ — ٥١٧ ؛ البلاذري — صفحة ٩٩ — ١٠٠ .

(2) يوجد بعض الاختلاف في الراي حول الشروط الصحيحة لمعاهدة الصلح هذه بين المؤرخين ، ولكن التفاصيل ليست ذات بال .

هم بقايا جيش مسيلمة الذين فرّوا من سهل عقرباء . وكان هؤلاء المحاربون ، الذين يصل عددهم الى عشرين ألفا ، يتحركون كيفما اتفق في جماعات حسب البطون التي ينتمون اليها . ولم يشكل هؤلاء خطرا كبيرا على الاسلام بعد موت مسيلمة ، لكنهم مع ذلك كانوا يعيثون فسادا . وكان ينبغي سحقهم . وحسب شريعة الحرب القاسية ، لايُعفى هؤلاء من السحق الا اذا استسلموا دون قيد او شرط .

كان خالد ينوي القضاء على جميع المقاومات بين بني حنيفة لكي يعم السلام في تلك المنطقة . فسمح لجيشه بالراحة لمدة يومين ؛ ثم قسّم جيشه الى مفارز ، وأرسل هذه المفارز لاخضاع المنطقة المحيطة باليمامة وأمرها بقتل أو اسر جميع الذين يقاوموا . وانطلقت هذه المفارز لتمشيط المنطقة .

لوحق المرتدون الهاربون في كل مكان . وقد ظل الآلاف منهم غير نادمين ومتحدّين السلطة الاسلامية ؛ فهوجم هؤلاء وتم القضاء عليهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم . لكن آلافاً آخرين استسلموا وتم اطلاق سبيلهم . وقد عاد جميع الذين بقوا على قيد الحياة من بني حنيفة الى حظيرة الاسلام مرة ثانية .

أقام خالد قيادته قرب اليمامة ، حيث بقي حوالي شهرين في هذه المنطقة قبل ان يتلقّى مهمته العسكرية التالية من الخليفة .

بعد انتصار المسلمين في معركة اليمامة ، تحررت معظم الجزيرة العربية من الردّة . وقد بقي القليل من المرتدين في أطراف الجزيرة ، لكن هؤلاء لم يشكلوا خطرا يذكر . كما استمرت بعض المعارك مع المرتدين ، لكنها كانت معارك صغيرة اذا ما قورنت بمعركة اليمامة والمعارك الاخرى التي حدثت قبلها .

كانت معركة اليمامة أعنف معركة حدثت في التاريخ الاسلامي . فلم يسبق المسلمين أن واجهوا قوة متفوقة مثلما حدث في هذه المعركة ؛ وقد حاربوا ببسالة نادرة تحت قيادة سيف الله . وقد برهنوا أيضا في قتالهم قوات بني حنيفة بامرة مسيلمة بأنهم رجال من الفولاذ . وبعد نصف قرن تال ، كان الرجال الطاعنين في السن يصفون هذه المعركة بالتفصيل الى أحفادهم ، وكان الرجل منهم ينهي حديثه قائلا بفخر واعزاز : « لقد حاربت في اليمامة . »

كانت الخسائر فادحة في هذه المعركة . فالمرتدون خسروا واحدا وعشرين ألفا : منهم سبعة آلاف في سهل عقرباء ، وسبعة آلاف في حديقة الموت ، وسبعة آلاف في عمليات التطهير والتمشيط التي قامت بها المفارز التي أرسلها خالد حول منطقة اليمامة .

وكانت خسائر المسلمين قليلة اذا ما قورنت بخسائر المرتدين ؛ ولكن اذا ما قيست بخسائرهم في المعارك السابقة ، فقد كانت خسائرهم كبيرة . فسقط منهم اثنا عشر ألفا من الشهداء ، واستشهد معظم هؤلاء في وادي حنيفة أو بالقرب منه . كان نصف خسائر المسلمين من الانصار والمهاجرين الذين كانوا من أصحاب النبي واقرب الناس اليه . وقيل أيضا ان من بين شهداء المسلمين ثلاثمائة شهيد كانوا يحفظون القرآن بكامله . وسقط في المعركة بعض من خيرة المسلمين منهم : ابو دجانة ، وابو حذيفة (قائد الميسرة) وزيد (شقيق عمر ، وقائد الميمنة) . ونجا في المعركة عبد الله بن عمر .

عندما عاد عبد الله الى المدينة ، مرّ على والده لتقديم فروض الاحترام ، لكن عمر نظر الى ابنه وقال : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عني » . فقال عبد الله : « يا أبت ؛ أن زيداً قد طلب الشهادة فأعطيها ، وجهدت ان تساقَ اليّ فلم اعطها »[2] .

وصلت حملة ابي بكر ضد المرتدين ذروتها في معركة اليمامة . وقد لاقت أستراتيجية ابي بكر نجاحا بتعيينه خالدا لمحاربة زعماء المرتدين بالتتالي ؛ وبدءا بالاهداف القريبة ثم البعيدة . فالامور بعد ذلك أصبحت سهلة .

هنالك حادثة لابد من ذكرها قبل الانتهاء من سرد معركة اليمامة . ففي اليوم الذي فتحت فيه أبواب حصن اليمامة ، جلس خالد خارج فسطاطه في المساء . وكان يجلس بجانبه مجاعة . وكانا بمفردهما . وفجأة التفت خالد

(١) يرى الزائر الى « جبيلة » مقبرة على الضفة الجنوبية للوادي حيث دفن شهداء المسلمين في المعركة ؛ كما يرى رابية صغيرة ، بين القرية وخندق الدم ، حيث دفن المرتدون .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٢ ــ ٥١٣ .

الى مجاعة وقال له : « زوّجني ابنتك » . فقال له مجاعة : « مهلا ، انك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك [1] » . فقال خالد : « ايها الرجل زوّجني » . فزوّجه ابنته الجميلة . فبلغ ذلك الخليفة ابا بكر ؛ فكتب اليه كتابا يقطر الدم : « لعمري يا ابن ام خالد إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دَمُ الف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفِف بعد » . [2] فلما نظر خالد في الكتاب ، جعل يقول : « هذا عمل الأعيسر » يعني عمر بن الخطاب .

على كل الاحوال ، عاش خالد مع زوجته الجديدة ابنة مجاعة بن مرارة . ويبدو انه ترك زوجته ليلى ارملة مالك بن نويرة . ولا يُعرف ماذا حدث لتلك السيدة ؛ لان التاريخ لم يذكر شيئا عنها بعد ذلك .

* * *

(١) يقصد الخليفة ــ المترجم .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥١٩ .

إنهيار الرّدة

تم القضاء على بقايا المرتدين في منـاطق الجزيرة العربية الاقل حيوية بواسطة سلسلة من الحملات المخططة جيدا التي نفذها المسلمون في غضون خمسة أشهر .

ارسل عمرو بن العاص بلوائه الى تخوم الشام لإخضاع المرتدين في تلك المنطقة . وكانت القبيلتان اللتان بحاجة الى عقاب هما قضاعة ، ووديعة . وهذه القبيلة هي جزء من قبيلة كلب . وبينما كان خالد يقاتل المرتدين في اواسط الجزيرة العربية ، كان عمرو يضرب المرتدين في الشمال ، لكن نجاحه كان محدودا . فلم يستطع أن يخضع القبائل بشكل تام ويجعلها تستسلم .

وعندما انتهت معركة اليمامة ، توجه شرحبيل بن حسنـة على راس لوائه بأوامر من الخليفة ، لتعزيز عمرو ؛ وقد عمل القائدان معاً بانسجـام تام لاخضاع القبائل الشماليه . وكان معظم المرتدين يحتشدون في منطقة تبوك ودومة الجندل ، حيث نفذ القائدان في هذه المنطقة اعنف ضرباتهما . وفي غضون اسابيع قليلة ، تم القضاء على المرتدين ، وعادت القبائل الى حظيرة الاسلام مرة ثانية . وعاد السلام الى شمال الجزيرة العربية .

كانت القبيلة الرئيسية التي تسكن عمان هي قبيلة « أزد » . وكـان زعيم هذه القبيلة هو لقيط بن مالك الأزدي ، وكان يلقب « بذي التاج » . وكان عرب هذه القبيلة قد اعتنقوا الاسلام في زمن النبي ، وقبلوا ان يلتزموا بشروط الدولة الاسلامية .

وعند سماعهم نبأ وفاة النبي ، ثاروا بقيادة ذي التاج وارتدوا عـن

الإسلام . ولم يتأكد ارتداد ذي التاج ؛ فاذا عدنا الى تعليق الطبري الـذي قال : « ادّعى بمثل ما ادعى به من كان نبيّاً » [1]، يمكننا أن نستنتج أنه ربما ادعى النبوة . ومهما يكن ، فان ذا التاج أعلن نفسه ملكا على عمان عندما كان ابو بكر مشغولا بالخطر الذي كان يتهدد المدينة ، وجعل مركز قيادته في « دَبَا . (انظر الخريطة رقم ٧) .

وبعد ان ترك خالدٌ ذا القَصَّة ليقاتل طليحة ، أرسل الخليفةُ حذيفة ابن محصن (أحد أمراء الالوية) للقضاء على المرتدين في عمان . ودخل حذيفة منطقة عمان ، لكن لم يكن لديه قوات كافية لمحاربة ذي التاج ؛ فقرر ان ينتظر وصول التعزيزات . وكتب الى الخليفة يعلمه بالأمر ، فأمر الخليفـة ، كما ذُكر سابقـا ، عكرمةَ بالتحرك من اليمامة لمساعدة حذيفـة . وعند وصول عكرمة ، قام القائدان بالعمل معاً ضد ذي التاج في دبَا .

حدثت معركة دَبا في نهاية تشرين الثاني عام ٦٣٢ م (أوائل رمضان ، عام ١١ هجري) . وسارت المعركة في بادىء الامر لغير صالح المسلمين ، لكن في اللحظة الحرجة ، ظهرت قوة من المسلمين المحليين ، عادت الى دينها رغم انف ذي التاج ، في ميدان المعركة وحاربت مع المسلمين ضد المرتدين . وبمساندة هذه القوة ، استطاع المسلمون هزيمة جيش المرتدين . وقُتـل ذو التاج في المعركـة .

ونظرا لتعيين حذيفة حاكما علـى عمان ، فقد عمل على اعـادة النظام والقانون الى ربوع البلاد . وتفرغ عكرمة الذي لم تكن لديه مسؤوليات ادارية، لقتال المرتدين في المنطقة المجاورة لدَبَا ، وتمكن من القضاء على مقاومة المرتدين من قبيلة أزْد في عدد من المعارك الصغيرة . وبذلك عاد الهدوء والسلام بين افـراد قبيلة أزْد ، ولم تسبب هـذه القبيلة بعد ذلك اية متاعب للسلطـة الاسلامية في المدينة .

ومن عمان توجه عكرمة الى مَهْرَة بناءً على أوامر ابي بكر . وهنا ايضا أصابت عَدوى الردّة السكان المحليين ، ولكن الارتداد هنا كان اقل خطرا من

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٩ .

المناطق الاخرى . وكانت مهرة هي هدف عرفجة البارقي (أحد أمراء الاولوية)، وكانت التعليمات التي صدرت الى عكرمة تقضي بأن يساعد عرفجة ، ولكن نظرا لتأخر وصول عرفجة فقرر عكرمة ان يقضي على المرتدين المحليين بواسطة قواته بدلا من الانتظار .

كان جيش المرتدين المحليين الذي تجمع في « جيروت » يتألف من مجموعتين غير متكافئتين ووصل عكرمة الى جيروت وتقابل مع المشركين في أوائل كانون الثاني عام ٦٣٣ م (منتصف شوال عام ١١ هجري) . وقبل أن يبدأ الهجوم طلب عكرمة من المرتدين ان يعودوا الى الدين الاسلامي . فمن بين مجموعتي المرتدين ، رفضت المجموعة الكبيرة نداء عكرمة ، لكن المجموعة الصغيرة قبلت العودة الى الاسلام وانضمت الى المسلمين . فهاجم عكرمة المرتدين وهزمهم . وقتل قائد المرتدين ، واستولى عكرمة على عدد كبير من الاسلاب والغنائم .

بعد أن وطد عكرمة دعائم الاسلام في مَهرة ، تحرك بلوائه الى مكان يدعى « أبيَن » حيث أراح جنوده وانتظر تطورات الموقف .

تم في البحرين عمل عسكري مستقل ضد المرتدين بواسطة لواء العلاء بن الحضرمي . فبعد معركة اليمامة ، ارسل ابو بكر هذا القائد للقضاء على المرتدين في البحرين ، واخبره انه قد لايستطيع تعزيزه باي قوات أخرى من المسلمين، وعليه ان يعمل بالقوات التي معه . وعندما وصل العلاء الى البحرين ، وجد المرتدين متجمعين في هَجَر وهم يتخندقون في مواقع قوية . (وهذه هي الحالة الوحيدة التي استخدمت فيها الاستحكامات في حملات الردة) .

وشن العلاء عدة هجمات واستمرت المعركة بضعة أيام ولكن بدون أن يحقق نجاحا ، لان اجتياز خط الاستحكامات كان صعبا . وكان كلما يخطط لعبور بعض القوات ، كان المرتدون يصدونهم . وبدأ العلاء يفكر في كيفية اجتياز هذه المواقع التي لا تخترق .

وفي إحدى الامسيات ، سمع العلاء أصوات ابتهاج تنطلق من مواقع المرتدين . فلم يعرف كنه هذه الأصوات ، فأرسل عيونا لاستطلاع الامر . فعاد

هؤلاء ليخبروه بان حالة من السكر والعربدة تعم معسكر المرتدين . فأمر العلاء على الفور بشن هجوم ليلي . وعندما قام المسلمون بهجومهم ، لم يجدوا أيا من الحرس ، وأخذوا العدو على حين غرة . فانقضوا على العصاة وقتلوا المئات منهم قبل ان يعودوا الى رشدهم ويعلموا أن احتفالهم لم يتم .

وفي اليوم التالي طارد العلاء فلول المرتدين حتى الساحل حيث لم يبدوا أية مقاومة . واستسلم معظمهم وعادوا مرة ثانية الى الاسلام .

وانتهت هذه العملية في أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثاني من ذي القعدة ، عام ١١ هجري) .

كانت اليمن أول ولاية تثور ضد السلطة الاسلامية عندما حملت قبيلة انس السلاح بقيادة زعيمها « الأسود » . وقد ذكر خبر الاسود في الفصول السابقة . فهو قتل على يد فيروز الفارسي في حياة النبي ، وبعد ذلك أصبح فيروز حاكما على صنعاء .

وعندما وصل نبأ وفاة النبي ، ثار اهل اليمن مرة ثانية بقيادة قيس بن عبد يغوث بن مكشوح . وكان هدف المرتدين المعلن هو طرد المسلمين من اليمن ، وقرروا ان يحققوا هذا الهدف باغتيال فيروز وبعض القادة الهامين من المسلمين ، وبذلك يجعلون المسلمين في اليمن بدون قيادة . ونتيجة لذلك ، فان طردهم سيكون سهلا .

ولتنفيذ هذه الخطة ، دعا قيس فيروز وبعض القادة من المسلمين الى منزله لاجراء محادثات . فوقع بعض المسلمين في الفخ وقتلوا على الفور بيد المتآمرين ، ولكن فيروزا كان قد علم بالمؤامرة في آخر لحظة وعرف التنظيم الذي يقف وراءها . ونظرا لعدم وجود قوة عسكرية تحت تصرفه ، فقد هرب طلبا للنجاة . وغادر صنعاء . فعلم قيس بذلك وحاول اللحاق به ، لكنه تمكن من تضليل مطارديه ووصل الى منطقة التلال حيث وجد ملجأ أمينا . حدث ذلك في حزيران او تموز عام ٦٣٢ م (ربيع الاول او ربيع الثاني عام ١١ هجري) .

بقي فيروز طيلة الاشهر الستة التالية في مخبئه الجبلي الحصين ، وقد

التحق به في غضون تلك الشهور آلاف المسلمين الذين كانوا على استعداد لبذل دمائهم في سبيل طرد قيس وإعادة الحكم الاسلامي في اليمن . فنظم فيروز هؤلاء المسلمين في جيش . وعندما شعر بأن قوته كافية لمواجهة قيس ، سار الى صنعاء بهذا الجيش ، وكان قيس بانتظاره فيها .

وفي منتصف كانون الثاني عام ٦٣٣ م (أواخر شوّال ، عام ١١ هجري) تقابلا للمعركة في ظاهر المدينة . فانتصر المسلمون في المعركة ، وهرب قيس الى « ابْيَنْ » وهو المكان الذي استراح فيه عكرمة فيما بعد ، بعد إخضاع مَهْرة .

في « ابْيَنْ » انضم الى قيس بعضُ زعماء المرتدين ، لكنهم تشاجروا فيما بينهم . وبعد أن رأوا انه لا أمل لهم بمعارضة المدينة ، استسلموا جميعا للمسلمين وعفا الخليفة عنهم نتيجة لذلك .

وحارب بعض زعماء المرتدين ، بعد عودتهم الى الاسلام ، بشجاعة في العراق والشام في السنوات التالية .

كانت آخر ثورة كبيرة للمرتدين هي ثورة قبيلة كِنْدة ، التي كانت تسكن منطقة نجران ، وحضرموت ، واليمن الشرقي . وكان تسلسل الاحداث في هذه الثورة مثل باقي الثورات التي قام بها المرتدون .

فعند وفاة النبي ، اتخذت قبيلة كِنْدة موقفا عدائيا ، بالرغم من انها لم تقم بالثورة في الحال . وكان حاكم حضرموت هو زياد بن لبيد الذي كان يعيش في ظفر ، عاصمة حضرموت . وكان زياد رجلا أمينا ، ويخشى الله ، وكان صارما في جمع الزكاة ، التي سَبَّبت الكَرْب في نفوس قبيلة كِنْدة . وباءت جميع محاولاتهم للتهرب من دفع كامل الزكاة ، بالفشل .

وفي كانون الثاني عام ٦٣٣ م (شوال ، عام ١١ هجري) ، حدثت حادثة فَجَّرَتْ موقف قبيلة كندة : اذ قدّم احد زعماء القبيلة الثانويين ناقةً كجزء من الزكاة . لكنه غيّر رأيه واراد ان يسترجع الناقة ، لكن زياداً رفض تلبية طلبه . فأرسل هذا الزعيم بعض رجاله فسرقوا الناقة .

فأرسل زياد بعض الجنود لالقاء القبض على سارقي الناقة . فأعادوا

الناقة وقبضوا على الجناة الذين تم توقيفهم . وفي صباح اليوم التالي تجمهر حشدٌ من كندة وطالبوا باطلاق سراح رجالهم . لكن زياداً رفض اطلاق سراح اللصوص ، واعلن بانهم سيحاكمون طبقا للشريعة الاسلامية . وهنا تفجر الموقف .

وثارت اعداد كبيرة من كِندة وارتدّتْ عن الدين الاسلامي ، ولم يكتفِ هؤلاء بالامتناع عن دفع الزكاة وعدم التقيد بالقوانين الاسلامية ، بل حملوا السلاح ضد سلطة المدينة . وانضم اليهم عدد كبير من المنشقين ؛ فأقاموا المعسكرات العسكرية واستعدوا للحرب .

كان احد معسكرات الثائرين في الرياض ، لبس بعيداً عن ظَفَر . فأرسل اليهم زياد قوةً للاغارة على هذا المعسكر ليلا ، فعادت القوة بعد أن أدّت مهمتها بنجاح . وقتل بعض المرتدين ، وأسر الكثيرون منهم ، وتم طردُ الباقين . وبينما كان الاسرى يُساقون الى ظَفَر ، مرّوا بأكبر زعماء كندة ، الاشعث ابن قيس ، الذي لم يكن قد ارتدّ بعد . فاستغاثت به نسوة بني عمرو بن معاوية وناديته : « يا أشعث ؛ يا اشعث ، خالاتك ، خالاتك » . وقد برهن الاشعث ان ولاءه لقبيلته اقوى من ولائه لدينه او للسلطة المركزيه . فاعترض سبيل قوة المسلمين ، ومعه عدد كبير من المحاربين ، واطلق سراح الاسرى ، وارسل المسلمين المكلفين باصطحاب الاسرى الى زيد بخفي حنين .

وكان هذا العمل بدايةً لثورة الاشعث . فتوافد افراد قبيلة كندة الى الاشعث بأعداد كبيرة وانضووا تحت لوائه واستعدوا للمعركة ؛ لكن القوتين : قوة المسلمين ، وقوة المرتدين ، كانتا متكافئتين بحيث لم تشعر احداهما بانها قادرة على الشروع في اعمال عدائية هامة . وانتظر زياد التعزيزات قبل ان يشن هجومه على الاشعث .

كانت التعزيزات في الطريق . فقد أرسل المهاجر بن ابي امية ، آخر امراء الالوية ، من قبل ابي بكر الى اليمن بعد ان اتم اخضاع بعض الثائرين في نجران . وأمره ابو بكر ان يذهب للانضمام الى زياد من اجل قتال مرتدي

قبيلة كندة ،بدلا من الذهاب الى حضرموت . وصدرت تعليمات مماثلة الى عكرمة الذي كان موجودا في « أبـيَـنَ » .

انضمت قوات زياد الى قوات المهاجر في ظَفَر وتولى القيادة على القوتين المهاجر وانطلق لمحاربة الاشعث .

كان الاشعث بن قيس احد الرجال البارزين في عصره . وهو ينحدر من سلالـة امراء كِندة ، وكان متعدد الصفات والمزايا : فهو قائد قدير ، وزعيم ذكي ، ومحارب جريء ، وشاعر ملهم ، كما كان خصب الخيال ، زلق اللسان، جذّاباً ، وداهية . ولكن كانت فيه نقيصة واحدة وهي انه كان غـدّاراً . ويذكر المؤرخون ان اسرته هي الوحيدة التي اخرجت أربعةً من ناقضي العهود في خط متسلسل : الاشعث ، ووالده ، وابنه ، وحفيده .

وكان الاشعث يعيش قريبا من الخط الفاصل بين الفضيلة والشرّ ، وبين الايمان والكفر ، ولكنه لم يجتز ذلك الخط ابداً . وكان يمارس نوعاً مـن التهديد المفتعل بالحرب ، وكان ذكيا بحيث لايتورط بحرب فعليـة . ففي أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثاني من ذي القعدة ، عام ١١هجري) واجه جيش المسلمين في معركة .

لم تستمر المعركة طويلا . فانهزم الاشعث ، لكن هزيمته لم تكن ساحقة. فسحب جيشه بسرعة من ميدان المعركة وتراجع الى حصن « النّجير » ، حيث انضمت اليه قبائل اخرى منشقة . وهنا استعد الاشعث للحصار .

بعد هذه المعركة مباشرة ، وصل لواء عكرمة ايضا . فتقدمت الويـة المسلمين الثلاثة بقيادة المهاجر الى « النّجير » ، وضربت حصارا حول المدينة المحصّنة . وكان يوجد ثلاثة طرق تؤدي الى المدينة . فنشر امراء الالويـة قواتهم للمعركـة على جميع الطرق الثلاث ، وضربوا حصارا كاملا حـول المديـنـة وعزلوها . وكانت التعزيزات التي تصـل الى الأشعث إما ان تؤسر او تطرد بعيـدا .

دام الحصار عدة ايام . وشنّت الحامية المحاصَرة عددا من الهجمات ،

لكنها صُــدّت جميعها وتكبدت الحامية بعض الخسائر . مع ذلك بقيت قبيلة كِنْدة صامدة في تصميمها على القتال .

وحوالي منتصف شباط عام ٦٣٣ م (اوائل ذي الحجة ، عام ١١ هجري) أيقن الاشعث ان الموقف ميؤوس منه . ولا توجد اي امكانية للنجاح . وان الحصن سيسقط ان عاجلا او آجلا بيد المسلمين ، وان المسألة مسألة وقت فقط ، وبعد ذلك سيكون هنالك حمّام من الدم . وكان تصرف الاشعث ينم عن حقيقة اخلاقه ؛ فقرر ان يبيع قبيلته لقاء إنقاذ نفسه .

لذلك ارسل الاشعث رسالة الى عكرمة يقترح فيها اجراء محادثـات بينهما . وكان الاشعث يعرف عكرمة معرفة جيدة ، حيث كانا صـديقين قبل اعتناقهما الاسلام . ونتيجة للاقتراح ، تم اتخاذ الترتيبات للمحادثات بـين عكرمة والمهاجر من جهة وبين الاشعث من جهة اخرى . وخرج الاشعث مـن الحصن سِراً وبصحبته بعض الرجال لاجراء المحادثات . فقـال الاشعث : « سأفتح لكم ابواب الحصن اذا انقذتم حياة عشرة رجال واهليهم » . فوافق عكرمة والمهاجر على ذلك . فقال المهاجر : « اكتب اسماءَ العشرة رجال ، وسوف نختم الكتاب » . فانتحى الاشعث جانبا مع رجاله وبدؤوا بكتابـة الاسماء . وكان الاشعث ينوي كتابة تسعة اسماء من المقربين اليه ثم يضيف اسمه كعاشر رجل ؛ لكنه لم يلحظ وجود احد رجاله وهو ينظر من فوق كتفه ويقرأ الاسماء التي كتبها . كان اسم هذا الرجل « جحدم » ، ولم يكن لـه اسم بين الاسماء التسعة . وعندما كتب الاشعث الاسم التاسع ، ولم يبق الا ان يكتب نفسه وثب عليه جحدم وبيده خنجر وقال لـه : « نفسك أو تكتبني »[1] . فكتبه وترك نفسه على امل ان ينقذ نفسه فيما بعد باستخدام ذكائه . فاكتملت اللائحة وختمها المهاجر .

عاد الاشعثُ ورجاله الى الحصن . وفي الوقت المحدّد ، فتح احد ابواب الحصن ، وتدفق المسلمون الى داخله وانقضوا على الحامية التي لم تكن تتوقع مثل هذه المفاجاة . وحدثت مجزرة رهيبة ، واستمرت حتى القى جميـع

(١) الطبـري ــ الجـزء ٢ ، صفحـة ٥٤٧ .

من في الحصن سلاحهم . وتم انقاذ الاشعث ومجموعة من الرجال واهليهم الذين بقوا بجانبه .

وسقط حصنُ « النجير » الآن . وعندما تفحص المهاجر لائحة الاسماء التي أعدها للأشعث ، لاحظ ان اسم الاشعث غير موجود في اللائحة . فقال المهاجر لاشعث : آ الحمد لله الذي خطاك نوءَك يا أشعث ياعدو الله . قد كنت أشتهي أن يخزيك الله » [1] . فشدّه وثاقاً وهمّ بقتله ، فقال له عكرمة : « اخّره وابلغه أبا بكر فهو اعلم بالحكم في هذا » . وبناء على ذلك ، فقد كُبِّل بالحديد .

استولى المسلمون على عدد كبير من الاسرى والسبايا داخل الحصن . وكان بين السبايا كثير من الفتيات الجميلات . فسيق الاسرى والسبايا من الحصن الى المدينة . ومرّوا بالاشعث ، وقد علموا في هذا الوقت بخيانته ، فاخذت السبايا تلعنه وتقول :« خائن ، خائن ! » [2] . وارسل الاشعث مع الاسرى والسبايا الى المدينة . ولم تكن هذه الرحلة سارّة بالنسبة للاشعث بطبيعة الحال .

لم يكن الاشعث غريبا على المدينة . فقد زارها خلال « عام الوفود » ، عندما قدّمتْ كِندة ولاءَها الى النبي واعتنقت الاسلام . وخلال تلك الزيارة ، تزوج الاشعث ام فروة ، شقيقة ابي بكر ، ولكن عندما غادر المدينة تركها مع ابي بكر ، على ان يأخذها في زيارته التالية . لكن هذه الزيارة تمت الآن في ظروف مختلفة !

اتهم الخليفةُ الاشعثَ بجميع الجرائم التي ارتكبها ضد الاسلام والدولة. قال له : « ماذا تراني اصنع بك فانك قد فعلت ماعلمت » فقال الاشعث : « تَمنّ عليّ فتفكّني من الحديد وتزوجني اختك فإني قد راجعتُ واسلمتُ » . فقال ابو بكر :« قد فعلتُ » . فزوجه ام فروة ابنة ابي قحافة.

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٨ .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦١٩ .

وبقي الأشعث في المدينة . وفي السنوات التالية ، قاتل بشجاعة في الشام ، والعراق ، وبلاد فارس ، وفي زمن عثمان عيّن حاكما على اذربيجان .

لكن خيانته بقيت ملازمة له . وكان الكثير من الناس ، ومنهم أبو بكر ، يتمنون انه لو لم يتم الصفح عنه بعد ارتداده . وفي الحقيقة ، عندما كان ابو بكر على فراش الموت ، وكان يتحدث الى اصحابه عنْ أسفه على الاشياء التي لم ينفذها وكان يتمنى لو فعلها ، وعلى الاشياء التي نفذها وكان يتمنى ان لم يفعلها، قال : « وددت أني يوم اتيت بالاشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه فانه يخيل الي انه لايرى شرا إلا اعان عليه . » (١)

لاشك أن تلاميذ التاريخ الاسلامي يتذكرون ان زوجة الامام الحسن التي قتلته بالسم بتحريض من الخليفة معاوية الذي أعطاها لقاء هذه الخدمة مائة الف درهم ، كانت إبنة الأشعث (٢) .

بهزيمة قبيلة كِندة في النُّجير ، انهارت آخر حركات الردّة . وأصبحت الجزيرة العربية امينة على الاسلام . وانطفأت جذوة نار المرتدين التي اجتاحت الجزيرة .

وسوف تشاهد الجزيرة العربية في تاريخها العاصف الثورات ، والحروب الاهلية عدة مرات ، لكنها لن ترى حروب الردّة مرة ثانية .

لقد بدأت حروب الردّة وانتهت خلال العام الحادي عشر للهجرة . واشرق فجر العام الثاني عشر للهجرة ، في الثامن عشر من آذار عام ٦٣٣م ، على الجزيرة العربية وهي تحت سلطة الخليفة المركزية في المدينة .

وكانت حروب الردّة اكبر انتصار سياسي وعسكري لابي بكر . ومع ان الخليفة حقق إنجازات عسكرية جريئة بفتح العراق والشام ، إلا انه بادارته الناجحة لحروب الردّة قد قدّم خدمة جليلة للاسلام . وان هذه الانجازات لم تكن ممكنة بدون ساعد سيف الله .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٤٨ .
(٢) ابن قتيبة ، صفحة ٢١٢ .

الجزء الثالث

فتح العراق * * *

التصادم مع الفرس

سقط حصن النجير ، وهو آخر حصن من حصون الردّة ، بأيدي المسلمين في حوالي منتصف شباط عام ٦٣٣ م . وبعد ذلك كتب ابو بكر الى خالد ، الذي كان مازال في اليمامة ، « سِرْ الى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بمنطقة الابلة وقاتل اهل فارس ومن كان في ملكهم من الامم . وليكن هدفك الحيرة » [١] .

كانت هذه الاوامر التي اعطاها ابو بكر الى خالد بالغة الاهمية . فقد أخذ ابو بكر على عاتقه مجابهة اقوى امبراطورية في ذلك العصر ، وقف العالم امامها مضطربا أكثر من الف سنة .

كانت الامبراطورية الفارسية لانظير لها من عدة وجوه . فهي أول امبراطورية عظيمة حقا في التاريخ : وكانت تمتد من شمال اليونان غربا حتى البنجاب شرقا . وكانت فريدة ايضا في طول الزمن الذي ازدهرت به : من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد ، باستثناء الثغرة التي حدثت بسبب الفتح الاغريقي . ولم تعمّر اية امبراطورية اخرى في التاريخ مثلها من حيث مستوى الثقافة والحضارة والقوة العسكرية التي بلغتها . ولقد عرفت الامبراطورية الفارسية التقهقر ، لكنها كانت بعد كل تقهقر تنهض ثانية بكل قواها .

كان آخر عصر ذهبي لبلاد فارس في القرن السادس بعد الميلاد عندما

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .

أعاد انوشروان العادل الامبراطورية الى مستواها السابق من العظمة والازدهار. وحكم انو شروان مدة ثمانٍ واربعين عاما ، وكان معاصرا للامبراطور الروماني جوستنيان . فانتزع الشام من الرومان،واليمن من الحبشة،وكثيرا منأواسط آسيا من الاتراك . ومات هذا الامبراطور العظيم في عام ٥٧٩ م ، بعد مولد النبي بتسع سنوات .

وكما يحدث عندما يموت حاكم عظيم ، جاء بعد انوشروان عددٌ من الاباطرة الاقل بأسا ، وبدأ مجد وازدهار الامبراطورية بالانحطاط . فالحروب الاهلية والمنازعات بدّدت قوة الدولة . وبلغ الانحطاط ذروته في زمن شيرى (سير وِسْ) ، وهو حفيد أنوشروان ، الذي سجن أباه « كسرى بارويز » ثم قتله . ولم يكتف بهذه الجريمة الشنعاء ، بل قام باعمال اسوأ . ولكي لاينازعه احد على حقه في العرش او في السلطة ، قام بقتل جميع الذكور في عائلته باستثناء أردشير . ويُقدر عددُ الذين قتلهم من آل انوشروان مابين خمسة عشر الى ثمانية عشر . ودام حكم « شيرى » مدة سبعة أشهر فقط حيث قتل هو ايضا .

وبموته عمت الفوضى بشكل اسوا . كذلك فان الفوضى عمت تقارير المؤرخين الاوائل حول الاباطرة الذين جاؤوا بعد « شيرى » من حيث التسلسل الزمني ومدة حكم كل منهم . والشيء المؤكد هو فيما يتعلق بالامبراطور « يزدجرد بن شهريار بن بارويز » ، الذي استطاع ان ينجو من القتل وأصبح آخر امبراطور فارسي من سلالة ساسان . وكان على هذا الامبراطور الشاب سيء الطالع ان يشهد انحطاط امبراطورية آل كسرويه العظيمة .

كان بين « شيرى » و « يزدجرد » حوالي ثمانية اباطرة في فترة اربع أو خمس سنوات ، وكانت من بينهم امراتان هما « بوران » و « ازرميدخت » ، وكلتاهما كانتا ابنتي كسرويه باروير . وبرهنت الاولى – وهي بوران – انها حاكمة عاقلة وفاضلة لكن كان ينقصها الحزم المطلوب في السلطان . وقد تُوجت اثناء حياة النبي . وقد قيل ان النبي عندما سمع بتتويجها قال ان الامة التي توكل امرها الى امراة ان تفلح ابدا .

لن نقوم بوصف جميع الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الفارسية جغرافيا ، لكننا سنقتصر على العراق . فالعراق لم تكن وقتئذٍ دولة ذات سلطان ، فهي أقل من ذلك . ولم تكن مجرد ولاية ، فهي أكثر من ذلك . وكانت العراق احدى أراضي الامبراطورية الفارسية ، وكانت في جزأيها الغربي والجنوبي أرضا عربية .

كان العرب معروفين في العراق منذ أيام بختنصر ، لكنهم لم يكونوا مالكين لايٍ من الاراضي آنذاك . ولم تأت هجرة جديدة الى العراق من القبائل العربية الا في أوائل ظهور المسيحية ، حيث قدمت موجة منهم من اليمن وبدؤوا بالتمتع بالسلطة والنفوذ . وكان من بين زعماء العرب المهاجرين مالك بن فحم ، الذي أعلن نفسه ملكا ، وبدأ يحكم الجزء الغربي من العراق . وبعد مالك بجيلين ، انتقل العرش الى عمرو بن عدي ، من قبيلة لخم ، الذي بدأ الاسرة المالكة اللخمية ، والتي كانت تسمى في بعض الاحيان آل منذر . وقد حكم ملوك هذه الاسرة عدة أجيال تابعين للامبراطور الفارسي .

وكان آخر آل منذر ، النعمان بن منذر ، الذي قام بعمل عدائي ضد كسرى باروبز حيث حكم بسبب ذلك بالاعدام . وقد نفذ حكم الاعدام بواسطة فيل ظل يطأ عليه حتى مات . وقد أدّى ذلك الى قيام ثورة من قبل عرب العراق. لكنها سُحقت على الفور بواسطة الامبراطور ، وبهذه الثورة الفاشلة ، انتهى حكم آل منذر .

بعد ذلك عيَّن كسرى ملكا جديدا هو قبيصة بن إياس بن حية الطائي، ليحكم العراق . وتمتع الملك الجديد بنوع من الحكم الذاتي لبضع سنوات . لكن معظم صلاحياته سُحبت منه ومنحت للامراء الفرس الذين تولوا السلطة الكاملة على البلاد . وظل قبيصة ملكا بالاسم .

كانت العراق ، بلد الثقافة والثروة والخصب ، أثمن ممتلكات الامبراطورية الفارسية ، وكانت بالنسبة للعرب القادمين من الصحراء القاحلة جوهرة خضراء ، وأرض الحليب والعسل . وكان نهراها : الفرات ، ودجلة ، اكبر نهرين

معروفين في ذلك الوقت . لكن هذين النهرين لم يكونا يجريان آنذاك كما يجريان اليوم ، كما أن مدن العراق آنذاك لم تكن كمدنه اليوم. فالكوفة والبصرة لم تكونا موجودتين (انشئت هاتان المدينتان في عام ١٧ هجري) . وكانت بغداد مدينة صغيرة وسوقا تجاريا على الضفة الغربية لنهر دجلة ، كما ان المدينتين العظيمتين كتيسفون والحيرة أصبحتا اثرا بعد عين . كانت كتيسفون العاصمة تحتل مركزا هاما في الامبراطورية الفارسية . وقد ذكر انها بنيت من قبل اردشير بن بابك . وكانت مبنية على جانبي نهر دجلة وكانت تعرف من قبل المسلمين باسم : « المدائن » ، لانها كانت تضم ثلاث مدن في مدينة واحدة . كانت الحيرة عاصمة لاسرة لخم العربية . وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات ، وكانت مدينة متلألئة ، تزخر بالقلاع [1] . وكان يوجد ابلّه ، الميناء الرئيسي للامبراطورية الفارسية الذي كانت تؤمه السفن من الهند والصين ومن عدة اقطار بحرية في الشرق .

ومن المعروف ان الفرات ودجلة يغيران مجراهما أكثر من مرة منذ ايام بابل . وتشير الخرائط الموجودة في هذا الكتاب الى المجرى الذي كان يسير فيه النهران في الايام الاولى للاسلام . والاختلاف الرئيسي في مجراها القديم عن المجرى الحديث هو في مجرى نهر دجلة . وكان هذا النهر يسير قبل الاسلام في القناة الحالية المسماة « دجلة الاعور » ، لكنه ترك هذه القناة وسار في مجرى جديد من الكوت مارا بدجيلة (دجلة الصغير) والاخضر ، ثم يدخل في منطقة بحيرات ومستنقعات مكونا منطقة مساحتها ١٠٠ ميل مربع ، شمال غرب أبلّه . وبعد ذلك أصبح سرير النهر القديم جافا ورمليا . وكانت المستنقعات تمتد الى الشمال مسافة اطول مما هي عليه اليوم (إن المنطقة الظاهرة في الخريطة رقم ١٠ كأراض مستنقعية هي غير دقيقة) ، ثم يتابع النهر سيره ليصل الى سرير دجلة الاعور في منطقة مزار (منطقة عزير الحالية) ، حيث يتابع جريانه جنوبا ، وجنوب شرق حتى يصل الى الخليج العربي . لكن دجلة

---

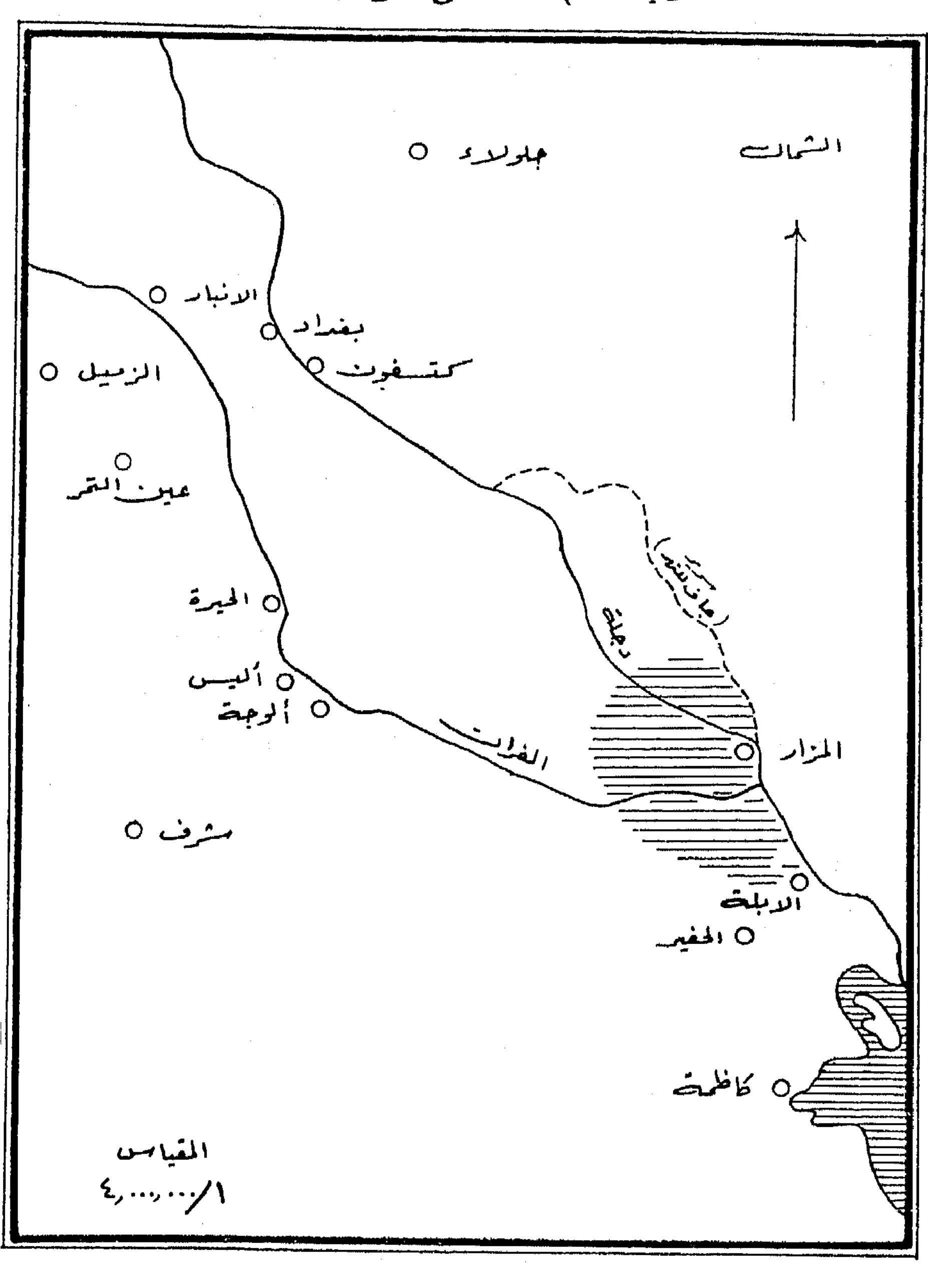
(١) يقع موقع الحيرة على مسافة ١٢ ميلا جنوب شرق النجف . ولم يبق من المدينة القديمة سوى بعض آثار القصر الابيض الذي يقع في الطرف الشمالي للحيرة .

غيّر مجراه مرة ثانية في القرن السادس عشر وعاد الى سريره القديم ، وهو المرسوم على جميع الخرائط الآن باسم دجلة . وعلى كل الاحوال ، فان هذا ليس اكبر فرع من دجلة ، لان الغرّاف الذي يبدأ من الكوت وينضم الى الفرات في الناصرية أكبر منه . اما دجيلة ، الذي كان في أوائل أيام الاسلام قناةً رئيسية ، أصبح اليوم نهرا متواضعا ، ويعتبر ثالث الفروع الكبيرة لدجلة بعد الغرّاف ودجلة الاعور .

ويسير الفرات في مجرىً واضح حتى موقع « هندية » الحالي ، حيث يتفرع الى قناتين رئيسيتين كما هو اليوم وهما : فرع الحِلة ، والفرات الرئيسي . ويتفرع الفرع الرئيسي (الفرع الغربي) مرة ثانية الى مجرىً واحد كبير ، وعدة اقنية ثانوية ، غيرت مجراها عبر العصور عدة مرات ولكن ليس كدجلة . ويتحد الفرعان الرئيسيان مرة ثانية عند « سماوة » حيث يسير الفرات نحو منطقة البحيرات والمستنقعات التي ذكرناها آنفا . وبينما تضيع بعض مياه النهر في المستنقعات ، يجري النهر في قناة واضحة ومرسومة على الخرائط الآن باسم الفرات ؛ ويتجه شرقا حيث ينضم الى دجلة عند « القرنة » . وقد تم تجفيف المستنقعات بواسطة نهر كبير يعرف باسم « مكيل » يصب في دجلة الى الشمال من البصرة ، ومن هنا تنحدر هذه المياه الى الخليج العربي كنهر واحدٍ كبير ، يعرف اليوم باسم « شط العرب » . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

حدثت عدة تغييرات في انحناءات والتواءات هذين النهرين . لكنني لم اظهر هذه التفصيلات على الخرائط . واوضحت الفروع الرئيسية للنهرين فقط .

هكذا كانت العراق سياسيا وجغرافيا عندما أرسل ابو بكر خالدا اليها . كانت العراق ارضا يحتلها الفرس والعرب ، ويحكمها البلاط الفارسي . وبدات الامبراطورية بالانحطاط سياسيا ولكن من الخطأ التصور أنها تقهقرت عسكريا . وربما يظل التاثير العسكري للامبراطورية على مستوىً عالٍ لعشرات من السنين بعد انحطاطها سياسيا . هكذا كان وضع الفرس في عام ٦٣٣ م .



الخريطة رقم ١٠ - فتح العراق

كان جيش الفُرس ، وبضمنه العرب الملحقون عليه ، اقوى آلة عسكرية مرهوبة الجانب في عصرها . وكان على رأس الجيش نخبة من الابطال المحنكين، وكان هذا الجيش يفخر بانجازاته الماضية وقوته الراهنة . وكان الجندي الفارسي أفضل محارب في زمانه من حيث التجهيزات . فكان يرتدي درعا من الزَّرد ، او بتراءَ [1] ، وكان يضع على رأسه خوذة من الزرد الرفيع أو المعدن المطروق ، وكانت ذراعاه تغطيان باكمام معدنية ، اما ساقاه فكان يغطيهما درع لوقايتهما . وكان يحمل حربة ، ورمحا ، وسيفا ، وفأسا او عصا حديدية لكسر الدروع . وكان يحمل أيضا قوسا او قوسين مع ثلاثين نبلة ، ووتري قوس أحتياطيين يتدليان من خوذته [1] . وهكذا فان الجندي الفارسي كان مجهزا بمعدات وأسلحة فعالة . ولكن كان ينقصه خفة الحركة . وعلى العموم، كان الجندي الفارسي لايضاهى في معركة الكتل الثابتة ، الى أن ظهرت خيالة خالد خفيفة التسليح ، سريعة الحركة .

وبدأ كل شيء بالمثنى بن حارثة . وكان رجلا كالنمر أصيب فيما بعد بجروح في معركة مع الفرس ، وكان المثنى زعيم قبيلة بني بكر ، التي كانت تسكن الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق . وليس مؤكدا ان المثنى قد أصبح مسلما في زمن النبي . فمن المحتمل ان يكون كذلك ، لان وفدا من بني بكر قدم الى المدينة خلال « عام الوفود » واعتنق الاسلام على يد النبي . لكن لم يذكر أي شيء عن اعتناق المثنى للاسلام في ذلك الوقت .

بعد معركة اليمامة بوقت قصير ، حوّل المثنى نشاطه نحو العراق . فأخذ عصابة من اتباعه وبدأ الاغارة على العراق طلبا للمغامرة وللغنائم ، وقد شجعته على ذلك الفوضى التي كانت واضحة في الشؤون السياسية للامبراطورية الفارسية . في بادىء الامر ، التصق المثنى بالمحيط الخارجي للصحراء لكي يستطيع ان ينسحب بسرعة الى داخل الصحراء ، لكن اغاراته بدات تأخذ طابعا

---

(١) اخذت هذه التفصيلات من الدينوري ـ صفحة ٧٣ ، وهو الكاتب الوحيد الذي وصف معدات وتجهيزات جندي الامبراطورية الفارسية .

جريئا تدريجيا . فنوّع أهدافه ، وصار يضرب مرة في الشرق وأخرى في الغرب . وعلى كل الاحوال ، كانت معظم اغاراته في منطقة أبلّه ، وكان يعود بالغنائم والاسلاب التي بهرت عرب الصحراء . كانت الحاميات الفارسية تقف مكتوفة الايدي أمام فرسان المثنى الذين يظهرون ثم يختفون كالاشباح بعد ان يضربوا ضربتهم .

جاء المثنى الى أبي بكر في أوائل شباط عام ٦٣٣ م (أواخر ذي القعدة ، عام ١١ هجري) . وقد شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها في إغاراته على الفرس . ورسم صورة مشرقة عن الحالة المتردية في العراق ، وعن الثروة التي تنتظر من ينهبها ، والازمة السياسية المستعصية التي اقضّت مضاجع البلاط الفارسي ، وعجز الحاميات الفارسية عن القتال في المناوشات خفيفة الحركة والسريعة . ثم قال لابي بكر : « أمّرني على من قِبَلي من قومي أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك ناحيتي . » [١]

فوافق الخليفة وزوّده بكتاب تعيينه قائدا على جميع مسلمي بني بكر . فعاد المثنى ، ومعه كتاب تخويله السلطة ، الى شمال شرق الجزيرة العربية . وهنا جعل الكثيرين من رجال القبيلة يعتنقون الاسلام ، وجمع جيشا صغيرا مؤلفا من ألفي رجل واستأنف إغاراته بحماس وعنف .

ذهب المثنى من المدينة ، لكن كلماته ظلت ترنّ في اذني الخليفة . وبعد بضعة ايام اتخذ ابو بكر قرارا لفتح العراق . وهو لن يحارب الامبراطورية الفارسية بكاملها ، لان ذلك سيكون هدفا كبيرا جدا لايمكن تحقيقه في الظروف الحالية . وانما سيستولي على عراق العرب ، وهذا يعني المنطقة الواقعة غرب دجلة . وبذلك ستتّسع حدود الاسلام وسينتشر الدين الجديد . ففي أرض الوطن كان السلام مستتباً ، حيث عاد الاسلام الى ربوع الجزيرة العربية كسابق عهده بعد هزيمة كِندة في حصن النُّجير .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٢ .

ان الإسلامَ هو دينُ سلام ، لكنه ليس سلام الجبان او المستسلم . وهو يؤمن بالسلام ، لكنه السلام العادل والقوي . فالقرآن الكريم يقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » [1] .
« وقاتلوهم حتى لاتكونَ فتنةٌ ويكون الدينُ كله لله فانِ انتَهَوْا فان الله بما يعملون بصيرٌ . » لذا فان الحرب ستكون مع الفرس الكافرين ، عَبَدَةِ النـار .

صمّم ابو بكر على فتح العراق ، ولكن كان عليه ان يعمل بحرصٍ شديد ، لان العرب كانوا يخشون الفرس بدون سبب سوى ما كان يتناقله الناس عن قوة الفرس وبأسهم عبر القرون . وكان الفرس بدورهم ينظرون الى العرب نظرة ازدراء . وكان على جانب عظيم من الاهمية ان لايصاب العرب بهزيمة ، لان ذلك لو تم سيؤكد ويقوي الخوف الفريزي من الفرس . ولكي يضمن ابو بكر النصر فقد قرّر ان يقوم باجرائين : اولهما ، ان يكون الجيش الفاتح مؤلفا من المتطوعين ، وثانيهما ، ان يكون خالدا قائدا للجيش .

فأرسل ابو بكر الاوامر الى خالد لكي يقوم بفتح العراق ومحاربة الفرس. وطلب منه ان يستدعي اولئك الرجال الذين قاتلوا المرتدين وظلوا ثابتين على دينهم بعد وفاة رسول الله ، وان يستبعد من الحملة الذين ارتدوا عن الدين . واضاف : « وأْذَنا لمن شاء بالرجوع » [3] ، مشيرا بذلك الى الجنود .

وعندما اعلن خالد لقواته ان الخليفة قد سمح لمن شاء منهم ان يعود لبيته اذا رغب في ذلك ، صُعق خالد من النتيجة : لقد ترك الآلافُ من المقاتلين الجيش وعادوا الى المدينة وما حولها . فبينما كان لديه في معركة اليمامة ثلاثة عشر الفا ، بقي معه الآن الفان فقط . فكتب خالد على الفور الى الخليفة يعلمه بما حدث ويطلب منه العونَ والمَدَدْ . وعندما وصل كتاب خالد الى الخليفة ،

---

(١) سورة رقم (٢) ــ آية رقم ١٩٠ .
(٢) سورة رقم (٨) ــ آية رقم ٣٩ .
(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ .

كان جالسا بين اصحابه ومستشاريه . فقرأ الكتاب بصوت مرتفع بحيث يسمعه جميع الحاضرين . ثم أرسل في طلب شاب شجاع يدعى القعقاع بن عمرو .

فجاء القعقاع الى الخليفة ، وهو مسلّح ومجهّز للسفر . فأمره الخليفة ان يذهب الى اليمامة كتعزيز لجيش خالد . فنظر الاصحاب الى أبي بكر بدهشة وقالوا : « أتمدّ رجلا قد أرفضّ عنه جنوده برجل ؟ » [1] .

فنظر ابو بكر الى القعقاع هنيهة ثم قال : « لايُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا » [2] . وذهب القعقاع بن عمرو لتعزيز جيش خالد !

لكن ابا بكر لم يرسل القعقاع فقط لتعزيز قوات خالد ؛ بل كتب ايضا الى المثنى ، ومذعور بن عدي (وهو زعيم هام في شمال شرق الجزيرة العربية) ، يأمرهما ان يجمعا محاربيهم ويضعا انفسهما تحت إمرة خالد من اجل فتح العراق .

بعد ان اصدر ابو بكر هذه التعليمات ، جلس مستريحا . فقد أسند الى خالد مهمة فتح العراق ومحاربة الفرس ؛ وطلب منه ان يبدأ بمنطقة الابلة ؛ وحدّد لخالد « الحيرة » كهدف له ؛ ووضع تحت إمرة خالد جميع القوات التي امكن جمعها . ولم يستطع ابو بكر ان يفعل اكثر من ذلك . والآن جاء دور خالد لانجاز هذه المهمة . وانطلق خالد الذي بلغ الثمانية والاربعين من عمره لفتح العراق .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ ــ ٥٥٤ .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

مَعْرَكَة السَّلاسِل

عندما تلقى خالد اوامر الخليفة ، شرع على الفور بالاعداد والتحضير لتشكيل جيش جديد . وانطلقت خيالة خالد في منطقة اليمامة ، وفي اواسط وشمال الجزيرة العربيــة ، لدعوة الرجال الشجعان لحمل السلاح مــن اجل فتح العراق . وتجمّع الرجال الشجعان بالآلاف ، وكان الكثيرون منهم زملاء ســلاح اشتركوا مع خالد في حروب الردّة ؛ فقرروا العوْدة للعمــل تحت لوائه ، بعد ان زاروا عائلاتهم . كان اسم خالد كالمغناطيس يجذب المحاربين اليه . فالقتال تحت إمرة خالد لايعني النصر فقط في سبيل الله ، ولكن الغنائم والسبي ايضا . وفي غضون بضعة اسابيع كان لدى خالد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل جاهزا للزحف [1] .

وكان يوجد اربعة امراء من المسلمين الهامّين في شمال شرق الجــزيرة العربية ومعهم اعداد كبيرة من الاتباع ، وهؤلاء هم : المثنّى بن حارثة ، ومذعور بن عدي ، وحرملة ، وسلمة . وقد جاء ذكر الاول والثاني في الفصل السابق. وكتب الخليفة الى هؤلاء الامراء لكي يجمعوا المحاربين ويعملوا تحت قيــادة خالد . ثم كتب خالد اليهم يعلمهم بتعيينه قائدا لجيش المسلمين ، وبالمهمــة التي تلقاها من الخليفة . وامرهم ان يأتوا اليه مع رجالهم ، في منطقة الابُلّه . ويُعتقد بأن المثنى ، الذي كان في الخفّان [2] في هذا الوقت ، لم يُسَر لهــذه المهمة . فقد كان يأمل ان يمنحه الخليفة قيادة مستقلة كبيرة في العــراق ،

---

(١) الطبري ــ الجــزء ٢ ، صفحــة ٥٥٤ .
(٢) الخفّان : مكان يقع على بعد ٢٠ ميلا الى الجنوب من الحيرة .

لانه يستحق ذلك ؛ لكنه نفذ الاوامر ووضع نفسه ورجاله تحت تصرف خالد . وبرهن المثنى انه افضل القادة المرؤوسين .

أحضر كل أمير من الامراء الاربعة الفي رجل . وبذلك دخل خالد العراق ومعه ثمانية عشر الف محارب [1] . وكان هذا أكبر جيش للمسلمين سبق ان تجمّع للمعركة .

وحوالي الاسبوع الثالث من آذار عام ٦٣٣ م (الاول من محرم ، عام ١٢ هجري) ، انطلق خالد من اليمامة . وقبل ان يغادر خالد اليمامة كتب الى هرمز ، الحاكم الفارسي على ولاية « داشت ميزان » : « أما بعد ؛ فأسلم تسلم ، او اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، واقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ الا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » [2] .

قرأ هرمز كتاب خالد بمزيج من الغضب والازدراء ، وأبلغ الامبراطور الفارسي ، أردشير ، بتهديد خالد . وصمّم على ان يلقن هؤلاء العرب درسا لن ينسوه .

بدأ خالد تقدمه من اليمامة بعد ان قسّم جيشه الى ثلاث فرق . ولم يسِرْ على طريق واحد ، لئلا ينهك قواته ، ويستغرق زمنا اطول اذا حرّك جميع قواته على نفس الطريق . وانطلقت الفرق ؛ وجعل بين الفرقة والاخرى مسيرة يوم . وبهذه الطريقة أمّن خالد لفرقه سهولة الحركة ؛ بنفس الوقت الذي كانت فيه قريبة من بعضها ، ليتمكن من حشدها بسرعة للمعركة اذا اقتضى الامر . وتحرك خالد مع الفرقة الثالثة في اليوم الثالث . وكان على جميع الفرق ان تتجمّع ثانية قرب الحفير ؛ وقبل ان يغادر اليمامة وعد رجاله بأن معركته مع هرمز ستكون عظيمة .

كان هرمز حاكما عسكريا لولاية « داشت ميزان » . وكان رجلا محنّكا وخادما أمينا للامبراطورية ، وقد أُسند اليه هذا المنصب بسبب الاهمية

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

السياسية والاقتصادية للولاية . وكانت ولاية متاخمة للجزيرة العربية ، وقد حدث فيها كثير من المتاعب نتيجة الاغارات العربية بقيادة المثنى . وكانت

ايضا ولاية غنية في حاصلاتها الطبيعية وفي التجارة . وكانت الأبلّة مدينة رئيسية في الاقليم ، وهي الميناء الرئيسي ايضا للامبراطورية الفارسية ؛ وكانت لهذا السبب حيوية بالنسبة لازدهار تجارة الامبراطورية . كما كانت ايضا عقدة مواصلات لعدة طرق برية قادمة من البحرين ، ومن الجزيرة العربية ، ومن غرب وأواسط العراق ؛ لذلك كانت لها اهمية استراتيجية حاسمة . وكانت عبارة عن بوابة على هرمز ان يحكمها ويدافع عنها بصفته حاكما اداريا ايضا .

كان المجتمع الفارسي آنذاك مجتمعا امبراطوريا ارستقراطيا . وفي مجتمع كهذا ، كان يوجد نظام دقيق للمراتب والمناصب التي تدل على مركز الرجل الاجتماعي والرسمي في البلاط . وكان اهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر احسابهم في عشائرهم فمن تمّ شرفه فقيمة قلنسوته مائة الف درهم ، فكان هرمز ممن تمّ شرفه فكانت قيمة قلنسوته مائة الف [1] .

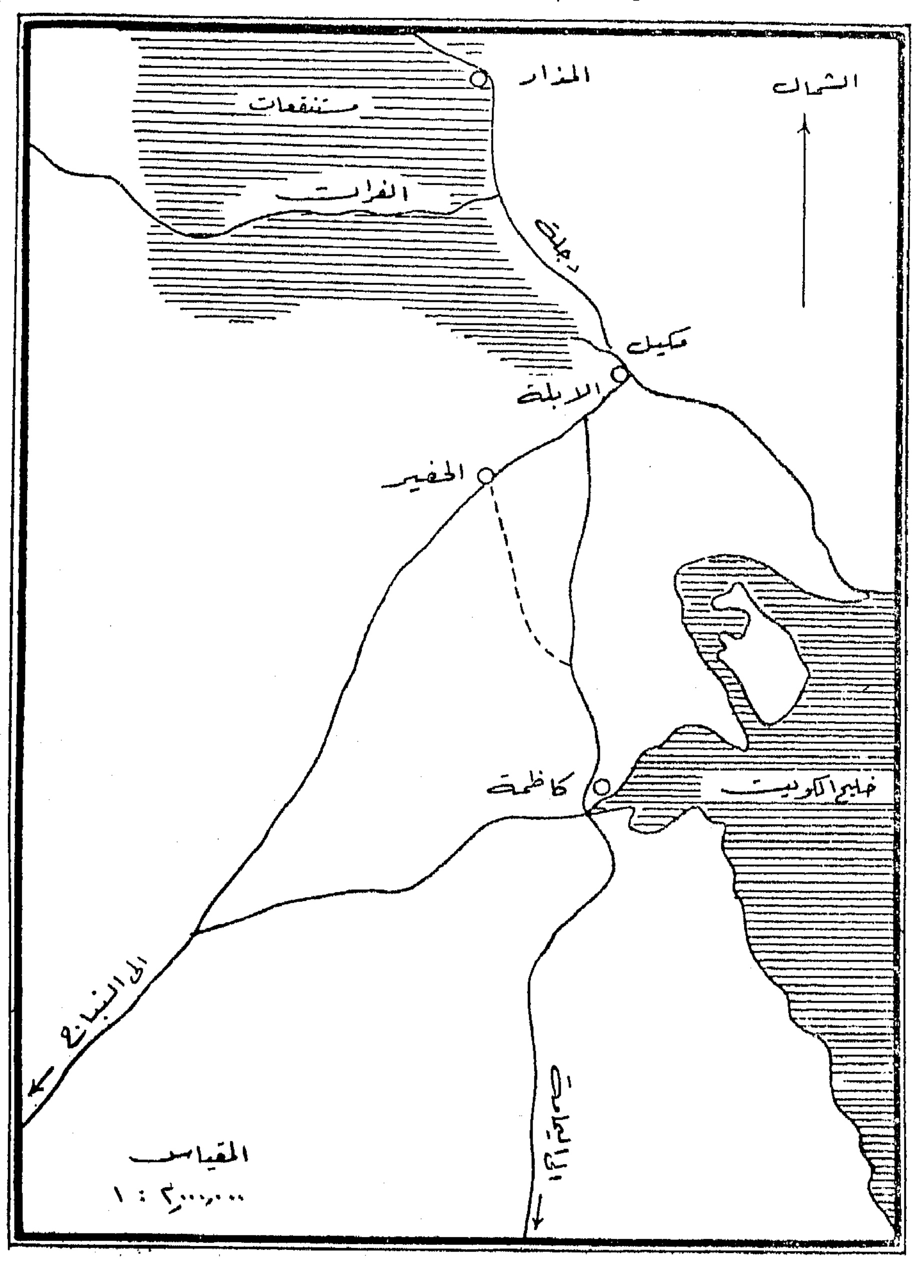
وكان هرمز رجلا استعماريا ، متعجرفا ، يعامل العرب المحليين بازدراء دون ان يخفي ذلك . وكان شديدا ومتعاليا في معاملته للعرب الذين كانوا يبادلونه الكراهية ويخافونه . وكان العرب يضربونه مثلا في الخبث حتى قالوا : « أخبثُ من هرمز » [2] . لكن العرب المحليين كانوا رعايا الامبراطورية الفارسية وليس لهم خيار سوى الخضوع والطاعة .

وبعد ان تلقى هرمز رسالة خالد ، وعرف انها قادمة من اليمامة ؛ اخبر الامبراطور بالغزو الوشيك المعراق من قبل خالد ، واستعد لمحاربته . فجمع جيشه وانطلق من الأبلّة ، ودفع امامه قوة تغطية من الخيّالة .

كان الطريق المباشر من اليمامة الى الابلّة يقع عبر كاظمة (في اراضي

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٦ .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

الخريطة رقم ١١ - موقعة السلاسل - ١



الكويت حاليـا) فجاء هرمز اليها متوقعا ان يسلك خالد هـذا الطريق . (انظر الخريطة رقم ١١) . وعند وصوله الى كاظمة ، فتح جيشه للمعركـة بحيث يواجه الجنوب الغربي ، ورتّب جيشه بترتيب قتال يتكون من قلـب وجناحين ، وامر ان يربط الرجال بالسلاسل . وانتظر وصول خالد وهـو على هذه الوضعية من الفتح للمعركة . لكن لم تظهر اية اشارة تدل على خالد. وفي صباح اليوم التالي ، وصلت الانباء من الكشافين ان خالدا لم يكن يتحرك نحو كاظمة وانما نحو « الحفير » [١] .

كان خالد قبل ان يغادر اليمامة قد توصل الى فكرة عامة حول كيفية التعامل مع جيش هرمز . فالمهمـة أعطيت اليه لمحاربة الفرس ، وكـانت هزيمة الفُرس أمرا محتّما اذا أريد فتح العراق وفـق خطط الخليفة . وبوجود جيش الفُرس في الابُلّة ، فان خالدا لن يستطيع ان يذهب بعيـدا . كما ان الاتجاه الذي حـُـدد له من قبل الخليفة وهو « الابلة » كان كافيـا لجلب الفرس الى المعركة ، لانه لايمكن لاي قائد فارسي ان يدع الابلة تسقط .

كان خالد يعرف الصفات الجيدة والقوة العددية لجيش الفرس ، وكذلك الشجاعـة والمهارة والتسليح للجندي الفارسي . وكان هـذا الجندي ، المسلح والمجهز جيدا مثاليـا للمعارك الجبهية التي تتم بشكل مجموعات من الكتل البشرية . وكانت نقطة الضعف الوحيدة في الجندي الفارسي وفي الجيش تكمن في فقدان خفة الحركة ؛ فالجندي الفارسي لايستطيع ان يتحـرك بسرعـة ، واية حركة لمسافة طويلة تجعله منهكا . اما قوات خالد فكـانت

---

(١) كانت كاظمة تقع على الساحل الشمالي لخليج الكويت ، كما هو مبيّن على الخريطة رقم (١١) ، على بعد خمسـة اميال من طريق البصرة ـ الكويت الحالي . وكانت مدينة كبيرة نسبيـا ، وكان قطرها يربو على الميل ، ولم يبق منها سوى بعض الخرائب . وربما تكون هـذه الخرائب من ايام مابعد خالد . ولا توجد اية آثار تدل على الحفير ، ولا يوجد مايدل على موقعها الصحيح . وحسب رواية ابن رستة فانها تقع على بعد ١٨ ميلا من البصرة على الطريق الى المدينة . وبمـا ان الميل في حسابات العرب الاقدمين يزيد عن الميل الحالي ، وضعت موقعها في مكان « الرميلة » الحالي التي تبعد ٢١ ميلا عن البصرة القديمة . (يوجد التباس لدى بعض الكتاب ، الذين جاءوا فيما بعد ، بالنسبة لحفير . فهم يذكرونها على انها « حفر البطن » الواقعة في الجزيرة العربية على بعد مائة وعشرين ميلا جنوب غرب كاظمة) .

متحركة حيث كانت تركب البعير وتسير الخيل وراءها جاهزة لتنفيذ هجمات الخيالة ؛ وبالاضافة الى كون المقاتلين المسلمين شجعانا وماهرين ، فكانوا بارعين ايضا في التحرك عبر اية ارض ، وخاصة الصحراء . علاوة على ذلك ، كانت الآلاف منهم قد اشتركت في حروب الردّة واصبحت لديهم خبرة قتالية جيدة .

قرّر خالد ان يستغل خفة الحركة التي يتميز بها جيشه عن جيش الفرس بطيء الحركة . فهو سيجبر الفرس على القيام بالمسير والمسير المعاكس حتى ينهكهم تماما . ثم يقوم بضربته عندما يصبح الفُرس منهكين . فالجغرافية سوف تساعده . كان يوجد طريقان يؤديان الى الابلّة عن طريق كاظمة ، والحفير ، ووجودهما سيسهل مناورته (انظر الخريطة رقم ١١) .

بعد ان كتب خالد الى هرمز من اليمامة ، عرَف ان الفرس سيتوقعون تقدمه على الطريق المباشر من اليمامة الى الابلّة ، عن طريق كاظمة ، وانهم سيضعون خططهم الدفاعية طبقا لذلك . فقرر خالد ان لايسير على ذلك الطريق ، وان يتقدم الى الابلة من الجهة الجنوبية الغربية بحيث يكون باستطاعته حرية المناورة على محورين : محور كاظمة ، ومحور الحفير ، وبذلك يخلق مشكلة صعبة امام الفُرس بطيىء الحركة . ووفقا لهذه الخطة ، سار الى النّبّاج ، وقسّم جيشه الى ثلاث فرق كما شرحنا سابقا ، وضمّ الى قيادته الالفي محارب التابعين للمثنى ، وكان هؤلاء مع قائدهم بانتظار خالد في النبّاج [1] . ومن النبّاج سار خالد باتجاه الحفير ، واثناء تقدمه انضم اليه الامراء الثلاثة الآخرون ، واقترب من الحفير ومعه ثماني عشرة الف رجل .

لم يكترث خالد لوجود جيش الفُرس في كاظمة . فوجود هرمز في كاظمة لايشكل اي تهديد لخالد ، فالفُرس لايجرؤون على دخول الصحراء لقطع

---

(١) النبّاج القديمة هي « النبكية » الحالية ، وهي تقع على بعد ٢٥ ميلا شمال شرق «بريدة» (انظر الخريطتين ٧ ، ٨) .

خطوط مواصلاته ، بصرف النظر عن ان قوات خالد خفيفة الحركة التي تعمل في الصحراء لايوجد لها خطوط مواصلات معـرّضة يمكن قطعها . فلم يحاول خالد ان يندفع الى الحفير ويتوجه الى الابلّة ، لان وجود جيش هرمز الكبير على مجنبته يجعل من تحركه للامام خلف الحفير مشكلة خطيرة . فيستطيع هرمز ان ينقض على مؤخرته ويقطع خط تراجعه . ولا يوجد أي عربي يقبل التدخل ، او حتى التهديد بالتدخل في طريق عودته الى الصحراء التي يطمئن اليهـا وهو سيدها دائما . لذا ، فقد انتظر خالد امام الحفير ؛ وخَصّص مفارز خفيفة من الخيالة لمراقبة هرمز باستمرار . وعرف خالد ان وجوده قرب الحفير سيسبّب الهلع لهرمز .

وهذا ما حدث فعلا . ففي اللحظة التي علم فيها هرمز بتحرك خالد نحو الحفير ، ادرك الخطر الذي يحدق بجيشه . كما ان العرب ليسوا بسطاء . وهو كاستراتيجي محنك عرَف ان قاعدته اصبحت مهددّة . فأمر بالتحرك فورا الى الحفير التي تبعد ٥٠ ميلا وبدأ جيشه المثقل بالتجهيزات والمعـدات الثقيلة يتقدم ببطء على الطريق . وكانت مسيرة اليومين لهذا الجيش مضنية، لكـن الجندي الفارسي الخشن والنظامي قبل الامر الواقع بدون تـذمر . وعندما وصل هرمز الى الحفير ، لم يجد اثرا لخالد . ففتح جيشه للمعركة متوقعا سرعة وصـول المسلمين مثلما فعـل في كاظمة ، ولكن لم يكد رجاله يتخذون مواقعهم حتى أخبره الكشافة ان خالدا يتقدم باتجاه كاظمة .

وفي الحقيقة كان خالد يتحرك نحو كاظمة . فقد انتظر قرب الحفير الى ان سمع باقتراب هرمز منها . ثم انسحب مسافة قصيرة وبدأ مسيرا معاكسا عبر الصحراء باتجاه كاظمة ، ولم يذهب بعيدا في الصحراء لئلا يصبح غـير مرئي من قبل كشافة هرمز . وكان خالد ليس على عجلة من أمره . فرجاله كانوا مزوّدين برواحل جيدة ، وكان الوقت متوفراً لديه . ولم يكن عنـده رغبة في الذهاب الى كاظمة واحتلالها ، لانه عندئذ سيثبّت نفسه في مواقـع لخوض المعركة بينما يكون خصمه قادرا على حرية المناورة . وفضّل خـالد ان يدع الفُرس يثبتون انفسهم في مواقع بينما يكون هو قادرا على المنـاورة والهجوم كما يشاء والصحراء من خلفه .

مرةً أخرى حزم الفُرس حقائبهم وانطلقوا الى كاظمة ، لأن هرمز لايستطيع ان يترك طريق كاظمة تحت سيطرة المسلمين . وكان بامكان هرمز ان يقاتل في معركة دفاعية قريبا من الابلة ؛ لكن تجربته مع المثنى الذي قام بعدة إغارات مفزعة في ولايته ، جعلته يقرر عدم السماح لخالد بالاقتراب مسافة كافية لئلا يتمكن فرسانه من العبث في منطقة الابلة الخصبة . وصمم على قتال خالد وتدميره على مسافة أمان من الولاية التي كان عليه حمايتها ، وسُر لتصوره بامكانية نشوب معركة الكتلة الواحدة ضد العرب الصحراويين. علاوة على ذلك ، فان الجيوش تتصرف كالمغناطيس ؛ انها تنجذب الى بعضها البعض . فأحيانا تصبح منطقة هامة تلك المنطقة غير الهامة استراتيجيا عندما يكون فيها جيش معاد . والآن انجذب هرمز الى كاظمة ليس فقط بسبب كونها هامة استراتيجيا ، بل لوجود جيش خالد فيها .

في هذه المرة لم يتم المسير الاجباري حسب مايشتهي الفرس ، وكان هنالك تذمر وخاصة بين صفوف العناصر العربية التي تعمل تحت قيادة هرمز ، واخذت هذه العناصر تلعن الفارسي الذي سبب لها جميع المشاكل . ووصل الفرس الى كاظمة وهم في حالة يُرثى لها من الإعياء . لم يضع هرمز ، وهو الجندي المحترف ، الفرصة ففتح جيشه للمعركة بترتيب القتال المألوف وهو القلب والجناحان . وكان يقود ميمنته وميسرته اميران من بيت الملك هما قباذ ، وانو شجان ، وهما اولاد اردشير الملك . (انظر الخريطة رقم ١٢ التي توضح المسير والمسير المعاكس) .

كانت السلاسل تستعمل من قبل جيش الفرس كثيرا لربط الجنود في المعركة . وكانت هذه السلاسل ذات اربعة اطوال ؛ لربط ثلاثة جنود ، أو خمسة ، أو سبعة ، أو عشرة [١] ، وكانت بمثابة مصدر قوة للجيش . ومن الخطأ القول ، كما يذكر بعض النقاد ، ان السلاسل كانت تستخدم من قبل الضباط خشية ان يهرب جنودهم . وكانت السلاسل تستخدم لاظهار

(١) الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٢٠٦ . ووفقا لرواية ابي يوسف (صفحة ٣٣) كانت اطوال السلاسل اربعة لربط خمسة جنود ، او سبعة ، او ثمانية ، او عشرة .

الشجاعة الانتحارية ، والتأكيد على رغبة الجنود في الموت في ميدان المعركة اكثر من رغبتهم في طلب النجاة والفرار من المعركة . كذلك فان السلاسل تقلل امكانية اختراق صفوفهم من قبل الخيالة المعادية ؛ فبالنسبة للجنود المربوطين بالسلاسل ، ليس من السهل على الخيالة ان تلقي ببعض الجنود ارضا وتحدث ثغرة تخترق منها . وبما ان جيش الفرس كان منظما ومدرّبا لمعركة الكتلة الواحدة ، فان هذا التكتيك مكّنه من الوقوف كالصخرة امام هجمة العدو . لكن السلاسل لها سيئة رئيسية واحدة وهي انها قد تصبح قيدا . فالرجال المربوطون بزملائهم الصرعى يفقدون كل قدرة على الحركة ويصبحوا ضحايا عديمي الحيلة امام المهاجمين المنتصرين .

وسميت هذه الموقعة في كتب التاريخ « بموقعة السلاسل » بسبب استخدام الفرس للسلاسل .

لم تستخدم العناصر العربية التي كانت تعمل تحت قيادة هرمز هذه السلاسل بسبب عدم استساغتهم لها . وعندما استخدم الفرس هذا الاسلوب ، حذرهم العرب من مغبّة ذلك وقالوا لهم : « لقد قيّدتم انفسكم للعدو . واياكم اللجوء الى السلاسل » . فأجابهم الفرس : « نفهم من ذلك انكم ترغبون في البقاء احرارا لكي تستطيعوا الهرب »[1] .

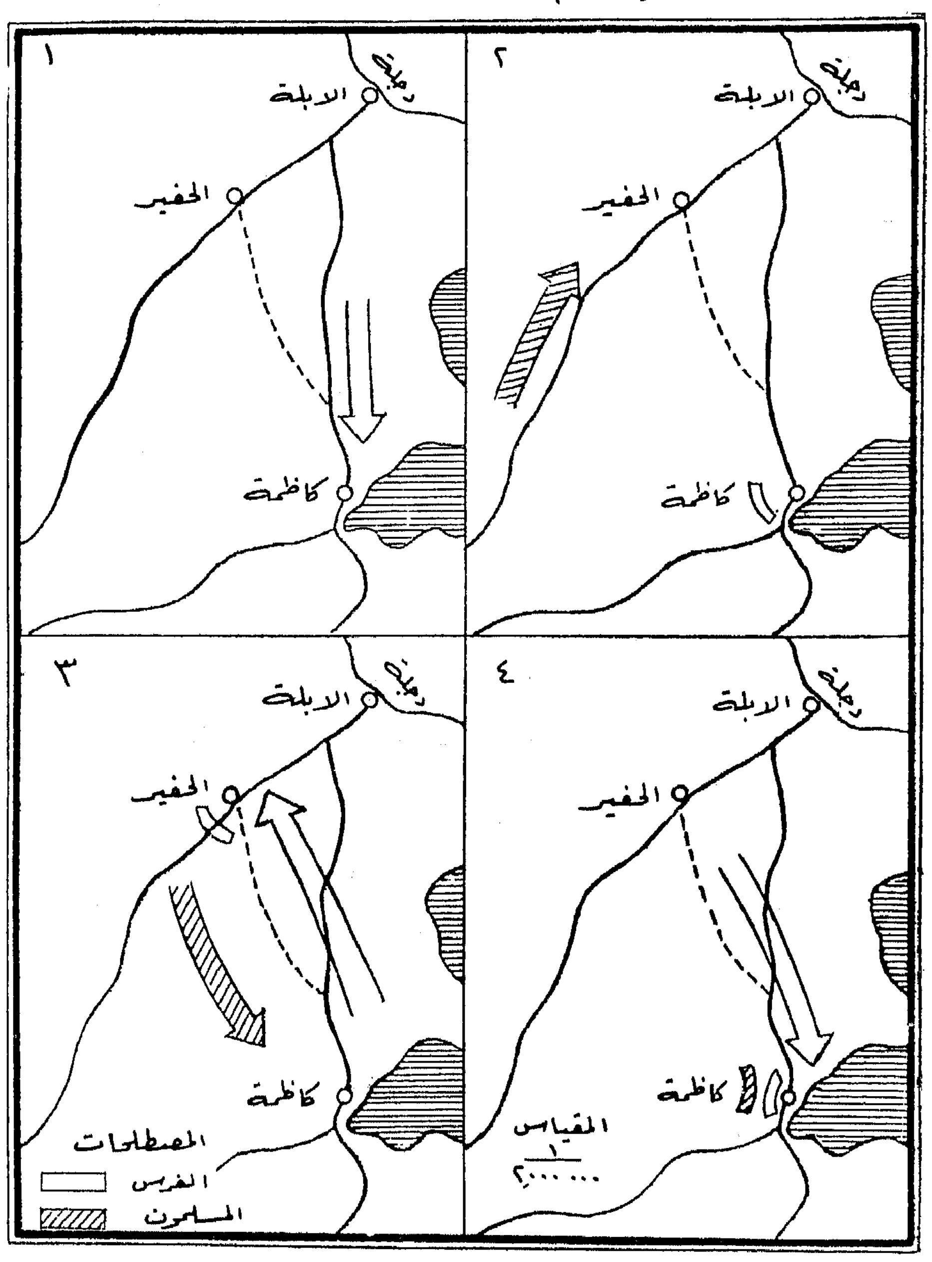
خرج خالد الآن من الصحراء واقترب من الفرس . وصمم على خوض معركة هنا وعلى الفور قبل ان يستعيد جيش الفرس نشاطه . لكن جيش المسلمين لم يكن لديه ماء ، وسبّب هذا خوفا لدى المسلمين الذين اخبروا خالدا بمخاوفهم . فأمرهم خالد بأن يحطوا اثقالهم وقال : « لعمري ليصيرَنّ الماء لأصبرِ الفريقين »[2] . وكانت ثقتهم بقائدهم عظيمة ، فاستعدوا

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٦ .

الخريطة رقم ١٢ - موقعة السلاسل - ٣



للمعركة . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ المطر ينهمر ، ونزل مطر كاف لشربهم ولملء قِرَبهم .

وقد نشر هرمز جيشه للمعركة امام الطرف الغربي لكاظمة ، وجعل المدينة تغص بالمقاتلين . وكان يمتد امام الفرس سهل رملي مغطى بالاعشاب بعمق حوالي ثلاثة اميال . وكان يوجد بعد السهل مجموعة تلال جرداء يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٠٠ — ٣٠٠ قدما . وكانت مجموعة التلال هذه جزءا من الصحراء وهي تمتد حتى الحفير ، وقد سلك خالد هذه التلال عندما سار الى كاظمة . وبعد ان ترك خالد هذه التلال ، انتقل بجيشه الى السهل الرملي ؛ وبعد ان جعل ظهره للتلال وللصحراء ، فتح بتشكيلة القتال المعتادة وهي القلب والجناحان . وعيَّن عاصم بن عمرو (شقيق قعقاع بن عمرو) وعدي بن حاتم (زعيم قبيلة طيِّىء ، طويل القامة الذي مرّ ذكره في الجزء الثاني) قائدين للجناحين . وبدات موقعة السلاسل في الاسبوع الاول من نيسان عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثالث من محرم ؛ عام ١٢ هجري) .

بدأت المعركة بمبارزة بين قائدي الجيشين . وكان هرمز محاربا قويا ، وهو معروف في الامبراطورية كبطل لايجرؤ على منازلته في مبارزة سوى القليل . (في تلك الايام لايستطيع المرء ان يصبح قائدا دون ان يكون مقاتلا شجاعا وماهرا) . فتقدم هرمز على فرسه ووقف في الفرجة بين الجيشين ، وكان اقرب الى صفوف جيشه . ثم نادى : « اين خالد ؟ »[1] فخرج خالد من بين صفوف المسلمين ووقف على بعد بضعة خطوات من هرمز . وكان الجيشان يراقبان الموقف عن كثب وبصمت عندما استعد البَطَلان للنزال .

نزل هرمز عن فرسه ، وأومأ الى خالد ان يفعل مثله . فنزل خالد . كان هذا الاجراء دليلا على شجاعة هرمز ، لان المبارزة بين مترجِّلَيْن لاتدع مجالا للهرب ؛ لكن هرمز لم يكن فارسا كما يتخيل المرء في هذه الحادثة . لان هرمز ، قبل ان يخرج للمبارزة ، اتفق مع بعض رجاله الشجعان ووضعهم في الصف الامامي قرب المكان الذي اختاره للمبارزة . واخبرهم انه سيبارز خالد ؛

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

وفي الوقت المناسب سوف يناديهم ، عندئذ يندفعوا ويحيطوا بالمتبارزين ويقتلوا خالدا . واخذ هؤلاء الرجال يراقبون القائدين وهما يترجلان ، بانتباه شديد . وكانوا متأكدين بأن خالدا لن ينجو من القتل .

بدا القائدان يتضاربان بالسيف والترس . وضرب كل منهما خصمه عدة مرات ، لكن هذه الضربات لم تؤثر على اي منهما . وكان كل منهما مندهشا لمهارة الآخر . وهنا اقترح هرمز ان يلقيا بسيفيهما ويتصارعان . فألقى خالد بسيفه على الارض ، وهو غير عالم بالمؤامرة ، مثلما فعل هرمز . وبدءا بالمصارعة . وبينما كان خالد يحتضن هرمزا ، نادى هرمز رجاله ، فاندفع هؤلاء الى الامام . وقبل ان يعرف خالد ما الذي يجري ، وجد نفسه ومعه هرمز محاطين بعدة رجال اشداء من الفرس .

الآن عرف خالد المؤامرة . وكان بدون سيفه وترسه ، وهو لن يسمح لهرمز ان يتخلص من قبضته الحديدية . وبدا انه لامهرب من الورطة ؛ ولكن بما ان خالدا كان اقوى من هرمز ، بدأ يدير خصمه باتجاه الرجال الاشداء بحيث لايستطيع هؤلاء ان يضربوا ضربتهم خشية ان يصيبوا قائدهم هرمز .

وهنا ثار الضجيج في صفوف الجيشين ؛ فاحدهما كان مبتهجا والآخر كان فزعا . واثناء هذا الضجيج ، كانت الانظار متجهة الى المتصارعين ، ولم يسمع رجال هرمز وقع الحوافر التي كانت تقترب منهم . ولم يعرفوا ما الذي اصابهم . فسقط منهم رجلان او ثلاثة على الارض بعد ان تدحرجت رؤوسهم امامهم ، قبل ان يدرك الآخرون ان عدد المتحاربين في هذا الاقتتال قد ازداد رجلا واحدا . ان هذا الرجل الاضافي هو قعقاع بن عمرو ، الرجل الذي ارسله ابو بكر لتعزيز خالد .

راى القعقاع رجالَ هرمز وهم يندفعون نحو القائدين ، فأدرك بسرعة غدر القائد الفارسي والخطر الذي يتهدد خالدا . ولم يكن لديه وقت ليخبر احدا بذلك ؛ ولم يكن لديه وقت ليشرح او ليجمع زملاءه لمساعدته . فامتطى

صهوة حصانه وانطلق كالسهم ووصل في اللحظة المناسبة وهجم على رجال هرمز بسيفه . فقتلهم جميعا .

بعد ان تحرر خالد من تهديد القتلة ، وجه انتباهه الكلي الى هرمز . وبعد دقيقة او دقيقتين كان هرمز ممددا على الارض بدون حراك ، وقد نهض خالد عن صدره وبيده خنجر يقطر دما .

فأمر خالد الآن بهجوم عام ، واندفع المسلمون للهجوم بحماس للثأر من الفرس الذين حاولوا الغدر بخالد . واندفع القلب والجناحان عبر السهل لمهاجمة جيش الفرس . وكان الفرس قد أصيبوا بصدمة معنوية بسبب مقتل قائدهم ، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين ، كما ان النظام الحديدي الذي كانوا يتميزون به جعلهم يحافظون على تماسكهم . وقاتلوا بشدة . وكانت نتيجة المعركة متأرجحة بين الجانبين لفترة من الوقت ، فالمسلمون سريعوا الحركة كانوا يهاجمون الفرس ، وهؤلاء كانوا يصدونهم وهم يحاربون كتلة واحدة ويرتبطون ببعضهم البعض بالسلاسل . ولكن سرعان مابدات تظهر دلائل الشجاعة والمهارة لدى المسلمين ، والتعب والانهاك لدى الفرس ، وبعد عدة محاولات ، نجح المسلمون في كسر جبهة الفرس في عدة اماكن .

وعندما لمس قائدا جناحي الفرس ، قباذ وانو شجان ، دلائل الهزيمة ، امرا بالانسحاب وبدءا بسحب رجالهم الى الخلف . فأدى ذلك الى تراجع عام ، وبما ان المسلمين استمروا في الضغط على الفرس بعنف ، انقلب التراجع الى هزيمة ساحقة . وعمد معظم رجال الفرس غير المربوطين بالسلاسل الى الفرار ، لكن اولئك الذين كانوا مربوطين بالسلاسل وجدوا ان هذه السلاسل كفخاخ الموت . فبسبب عدم قدرتهم على التحرك السريع ، وقعوا فريسة سهلة للمسلمين الظافرين وذبحوا بالآلاف قبل ان يحل الظلام ويضع حدا للمذبحة . ودبر قباذ وانو شجان امر هربهما ، ونجحا في انقاذ عدد كبير من الجيش واخراجه من ميدان المعركة .

---

(١) لم يذكر المؤرخون العدد الفعلي لرجال الفرس الذين اشتركوا في هذه المؤامرة وقتلوا بيد القعقاع . وربما كان عددهم خمسة او ستة .

وانتهت المعركة الاولى مع الفرس بنصر شامل للمسلمين ،

وقضى المسلمون اليوم التالي في رعاية الجرحى وجمع الغنائم المؤلفة من : الاسلحة ، والدروع ، والمخازن ، والالبسة الثمينة ، والخيل ، والاسرى . ووزع خالد أربعة اخماس هذه الغنائم على رجاله . وكانت حصة الخيّال ألف درهم ، وحصة الراجل ثلث هذا المبلغ . وكانت نسبة التوزيع هذه تقليدا سَنّه النبي . وكان الخيّال يعطى ثلاث حصص لكي يحافظ على حصانه بحالة جيدة ولكونه رجلا ثمينا للعمليات سريعة الحركة التي أحبها المسلمون .

وأرسل خُمس الغنائم الى الخليفة كحصّة للدولة ، وكان من بينها قلنسوة هرمز التي تقدر بمائة ألف درهم .

وكانت القلنسوة وفقا للتقاليد مُلكا لخالد ، لان جميع الاشياء التي تخص المغلوب تؤول الى المنتصر في المبارزات ، لهذا السبب أعاد ابو بكر القلنسوة الى خالد .

كذلك أسر المسلمون فيلا في موقعة السلاسل ، وأُرسل هذا الفيل الى المدينة ولم يكن العرب قد شاهدوا في حياتهم الفيل فطافوا به في المدينة ، ورأى ابو بكر انه لا نفع فيه فرده الى خالد .

وفي حين أُسرت عائلات الفُرس ، وعائلات عرب العراق الذين ناصروا الفُرس ، تُرك باقي سكان الولاية بدون ازعاج . وكان هؤلاء السكان يتألفون من صغار المزارعين ، والفلاحين ، والرعاة فوافقوا جميعهم على دفع الجزية والبقاء تحت حماية المسلمين .

بقي خالد مشغولا بضعة ايام في الامور التنظيمية . ثم حرّك جيشه نحو الشمال وأرسل المثنى على راس القوة الرئيسية للجيش ومعه خيّالته الالفان وذلك لاستطلاع المنطقة وقتل اي متخلف من جنود الفُرس المتراجعين.

وصل المثنى الى نهر صغير يقع شمال المكان الذي تقع عليه الزبير حاليا ، ويوجد على ضفته حصن يعرف باسم « حصن المرأة » ، وسمي بذلك لان

امراة كانت تحكمه [1] . فحاصر المثنى هذا الحصن ، ولكي يتجنب التأخير في تقدمه ، ترك أخاه « مُعَنّى » مسؤولا عن عمليات الحصار وترك معه بضع مئات من الرجال ، وسار هو شمالا مع بقية قواته .

بعد يومين أو ثلاثة من الحصار اقتنعت المرأة بعدم جدوى المقاومة ، فجيش الفرس في الأبلّه قد دُحر ، وهي لا تتوقع مساعدة أحد . فعرض « مُعَنّى » ان يقبل استسلام الحصن بدون اراقة دماء ، وبدون نهب ، وبدون سبي . فوافقت المرأة ، واستسلم المدافعون . ويبدو أن اللقاء بين مُعَنّى والمرأة بعد استسلام الحصن كان سارّا . فالمرأة اصبحت مسلمة ، وبعد ذلك تزوجها مُعَنّى .

في غضون ذلك ، كان خالد يتقدم شمالا من كاظمة مع الكتلة الرئيسية من جيشه .



(١) لا يزال النهر موجودا حتى الآن ويعرف باسم نهر المرأة ؛ ولكن لا يوجد أي أثر للحصن.



معركة النهر

(وقعة الثني او المذار [1])

كان هرمز قبل ان يلتقي بخالد قد بعث برسالة الى الامبراطور الفارسي اردشير ينبئه بقدوم خالد من اليمامة ، فجهز الامبراطور جيشا كبير العدد بقيادة «قارن بن قريانس» احد الامراء الذين تم شرفهم . وكانت قلنسوته ايضا تعادل مائة الف درهم ، فامره الامبراطور ان يسير الى الابلة على رأس جيشه لتعزيز هرمز . فانطلق « قارن » من « كتسفون » لتنفيذ المهمة .

سار « قارن » على امتداد الضفة اليسرى لنهر دجلة حتى وصل « المذار » ، ثم اجتاز دجلة ، وتحرك جنوبا على امتداد الضفة اليمنى حتى وصل الى نهر « مكيل » . فاجتاز هذا النهر ايضا عند اتصاله بدجلة ، ولم يكد يفعل ذلك حتى وصلته انباء كارثة كاظمة . وتبع ذلك وصول بقايا جيش الفرس الذين نجوا من معركة كاظمة الى معسكر « قارن » بإمرة القائدين قباذ وانوشجان . وكان من بين هؤلاء آلاف من العناصر العربية التي كانت تعمل تحت قيادة هرمز ، وكما هو معتاد في مثل هذه الحالات ، اخذ الشريكان ـ الفرس والعرب ـ بلوم بعضهما بعضا بسبب الهزيمة . ولم تكن معنوياتهم كما كانت في كاظمة ، لكنهم كانوا رجالا شجعانا وكان رد فعلهم ناجما عن الغضب اكثر من الخوف بسبب الهزيمة التي حلت بهم . وكان قباذ وانوشجان

---

(1) الثني : نهر في المذار . والمذار بينها وبين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط ، وتسمى ايضا وقعة المذار ـ المترجم .

متشوقين للمعركة مرة اخرى . ووجدا مع « قارن » ان من الصعب ان يؤمنوا بأن جيشا امبراطوريا يمكن ان يقهر في معركة من قبل قوات المسلمين غير المثقفة والبسيطة القادمة من الصحراء . ولم يدركوا ان معركة كاظمة قد خاضها جيش إسلامي رفيع المستوى قوي العقيدة وليس قوة من العرب غير المتحضرين. وعلى كل الاحوال ، كان « قارن » حكيما حيث أنه لم يتقدم وراء الضفة الجنوبية . وهنا يستطيع ان يقاتل وظهره للنهر وبذلك يؤمن مؤخرته . وبتحديده من إمكانيات المناورة ، فانه يستطيع ان يحارب باسلوب الكتلة الواحدة الجبهية الذي يحبه الفرس والذي يناسب تدريبهم ونظامهم .

لقد تمت مطاردة فلول جيش الفرس الذي كان في الابلة بواسطة خيالة المثنى الخفيفة ، وعندما كان التماس يتم مع الفرس ، كانت خيالة المسلمين تفتش المنطقة بحثا عن المؤن بينما يقوم المثنى بإشغال الفرس ومتابعة الاستطلاع، ولم يحاول الفرس ان يخرجوا من معسكرهم . فأرسل المثنى رسولا الى خالد ليعلمه بانه حقق التماس مع قوة معادية كبيرة في مكان يسمى « الثني » . والعرب تسمي كل نهر الثني . وقد حقق المثنى التماس مع الفرس على الضفة الجنوبية لنهر مكيل ، ولهذا السبب سميت المعركة التي نحن بصددها: « معركة النهر » .

عندما ترك خالد كاظمة ، سار شمالا حتى وصل بعض الخرائب قرب الزبير الحالية ، على بعد حوالي عشرة اميال جنوب غرب الأبلة . وكان خالد قد قرر مسبقا ان لايتجه نحو الأبلة ، حيث لايوجد فيها عدو يحاربه ، استنادا للمعلومات التي جاء بها رسول المثنى حول تحشد جيش قارن مع الذين نجوا من معركة كاظمة . وكان خالد حريصا على تحقيق التماس مع جيش الفرس الجديد وتدميره قبل ان يزول اثر صدمة معركة كاظمة من اذهان الفرس . لذلك أرسل خالد معقل بن مقرن مع سرية لدخول الأبلة وجمع الغنائم (وقد نفذ معقل ذلك) ، واتجه هو نحو نهر مكيل مع الكتلة الرئيسية من جيشه . واجتمع بالمثنى في الاسبوع الثالث من نيسان عام ٦٣٣ م (الاول من صفر ، عام ١٢ هجري) .

ثم قام خالد باستطلاع شخصي لموقع الفرس . ونظرا لكون ظهر الفرس للنهر ، فلم يجد امكانية للالتفاف حول جناح العدو ، ولم يجد خالد أيضا وسيلة لجعل الفرس يغادرون مواقعهم كما فعل مع هرمز . لذلك ، قرر خالد ان يخوض معركة الكتلة الواحدة، بنفس الاسلوب الذي يتبعه جيش الفرس، حيث لاتوجد وسيلة أخرى لتجنب مثل هذه المعركة . وطالما أن « قارن » مستعد للقتال بهذا الشكل ، فلا يستطيع خالد ان يجتاز النهر للدخول في عمق العراق ، ولا ان يتقدم غربا نحو الحيرة .

واحتشد الجيشان للمعركة . وكان قباذ وانوشجان يقودان جناحي جيش الفرس ، بينما احتفظ « قارن » بقيادة القلب ووقف في الامام . وكانت عناصر عربية تعمل تحت قيادة قارن قد انتشرت بين صفوف الفرس . كان « قارن » قائدا شجاعا وحكيما . ففتح للمعركة وظهره قريب من النهر ، وكان يوجد عدد كبير من القوارب جاهزة قرب ضفة النهر . وفتح خالد أيضا للمعركة بترتيب القتال المألوف ، وهو القلب والجناحان ، وعيّن مرة أخرى لقيادة الجناحين عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

بدات المعركة بثلاث مبارزات . وكان قارن أول من خرج من بين الصفوف متحديا للمبارزة . وعندما حثّ خالد فرسه الى الامام ، خرج مسلم آخر يدعى معقل بن الأعشى من الصف الامامي لجيش المسلمين واتجه نحو قارن. ووصل معقل الى « قارن » قبل خالد ، ونظرا لكونه ضارب سيف ممتاز وباستطاعته المبارزة على مستوى الابطال ، فلم يطلب خالد منه العودة . واقتتل قارن ومعقل ، وتمكن معقل (*) من قتل قارن . وكان قارن آخر رجل تمّ شرفه [1] يواجهه خالد في معركة .

عندما خرّ قائد الفرس صريعا بسيف معقل ، خرج من بين الصفوف القائدان الفارسيان الآخران قباذ وانوشجان وتحديا للمبارزة . فقبل التحدي قائدا جناحي المسلمين عاصم وعدي . فقتل عاصم انوشجان ، وقتل عدي

(*) في مرجع آخر ان خالدا هو الذي قتل قارن .

(1) من تمّ شرفه من الفرس يضع قلنسوة قيمتها مائة الف درهم .

قباذ . وعندما سقط القائدان الفارسيان ، أمرَ خالدٌ بشن هجوم عــام ، واندفع المسلمون الى الامام لمهاجمة جيش الفرس الكثيف .

كانت شخصية القائد في تلك الايام تلعب دورا هاما في مجرى المعركة . فعندما كان الجنود يشاهدون شجاعة قائدهم وانتصاره على عدوه في المبارزة ، كانت معنوياتهم ترتفع ويزداد اندفاعهم وحماسهم في المعركة ، بينما يؤدي مقتل القائد أو هربه الى هبوطٍ في المعنويات والى فوضى في الصفوف . والآن فَقَدَ جيشُ الفرس ثلاثةً مــن أكبر قادته ، ومــع ذلك فقد قاتل الفرس بشجاعة واستطاعوا ان يصدّوا هجمات المسلمين لبرهة . ولكن نظرا لغياب القادة الاكفاء ، سرعان ما ظهرت الفوضى في صفوف الفرس . ونتيجة لذلك، وبسبب هجمات المسلمين العنيفة والمستمرة ، فَقَدَ جيشُ الفرس تماسكه وبدأ بالهرب نحو النهر .

وقاد هذا التراجع غير المنتظم الى كارثة . فالمسلمون سريعو الحركــة استطاعوا ان يلحقوا باعدائهم الفرس المثقلين بالمعدات والتجهيزات . وعند ضفة النهر ، اصبحت الفوضى عامّة عندما تدافع الفرس الى القوارب ، وهم في حالة هياج وذعر ، للهرب من الرعب الذي طاردهم . وقد ذُبح الآلاف منهم بينما نجا آلاف آخرون بواسطة القوارب . وهؤلاء مدينون بحياتهم لحرص « قارن » الذي احتفظ بالقوارب جاهزة عند ضفة النهر . ولولا القوارب لما نجا فارسيٌ واحد . وبما أن المسلمين كانوا لايملكون وسائط لاجتياز النهر ، فلم يستطيعوا مطاردة الهاربين .

ووفقا لرواية « الطبري » ، فان عدد قتلى الفرس في هذه المعركة كان ثلاثين الفا [1] .

وكانت الغنائم في هذه المعركة أيضا تزيد عن الغنائم التي تم الاستيــلاء عليها في كاظمــة ووزع خالد اربعــة اخماس الغنائم علــى المقاتلين ، وأرسل الخُمس الى المدينة .

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ــ صفحة ٥٥٨ .

التفت خالدٌ الآن الى ادارة الولايات التي تم فتحها على يد المسلمين ، ووضع ذلك في المقام الاول . ووافق جميع السكان المحليين ، إذعانا لخالد ، على دفع الجزية وان يكونوا تحت حماية المسلمين . فتركوا بدون أي ازعاج. ونظّم خالد أمر الجباية وعيّن سويد بن مقرّن مسؤولا عنها وامره بنزول الحفير وجعل مقرّه فيها .

وبينما كان خالد منهمكا في تنظيم الأمور الادارية ، انطلقت العيون عبر نهر مكيل والفرات لتتبع آثار جيش قارن المقهور . وانطلق اناس آخرون على امتداد نهر الفرات باتجاه الحيرة لاكتشاف تحركات وتحشد جيش كسرى .

* * *

جحيم ولجة

أثارت أنباء هزيمة نهر « مكيل » اهالي كتيسيفون . فقد مُزّق جيش فارسي ثانٍ شرّ ممزق على يد هذه القوة الجديدة غير المتوقعة القادمة من صحراء الجزيرة القاحلة . وكان قائدُ كل جيش من الجيشين المنهزمين قد تمّ شرفه (أي أنه يلبس قلنسوة قيمتها مائة الف درهم) .

وقُتل هذان القائدان [1] مع قائدين آخرين من ذوي المراتب العالية [2] على يد المسلمين . وكانت هزيمة الجيشين الفارسيين أمراً لايصدّق ، على أعتبار ان هذا العدو الجديد لم يكن معروفا في مجال التقدم العسكري ، وبدت الهزيمة كالكابوس المخيف لكنه غير حقيقي .

فأمر الامبراطور أردَشير بحشد جيشين آخرين ، وكان قد أعطى هذا الامر بنفس اليوم الذي حدثت فيه معركة النهر . وقد يندهش القارىء لذلك، لان ميدان المعركة كان يبعد ثلاثمائة ميلٍ عن كتسفون برّاً . لكن الفُرس كانوا يملكون نظاما مشهورا للمواصلات العسكرية . فهم يضعون قبل المعركة خطّاً من الرجال ذوي الاصوات المجلجلة ، على مسافة صوت مسموع بين الواحد والآخر ، وعلى طول الطريق من ميدان المعركة وحتى العاصمة . ويستخدم مئات الرجال في هذا الخط . فكل حادث يقع في ميدان المعركة يقال بصوت عالٍ من قبل آ الى ب ، ومن قبل ب الى ج ، ومن قبل ج الى د ، وهكذا [3] . وبهذه الطريقة تصل انباء المعركة الى الامبراطور في غضون بضع ساعات .

(١) يقصد هرمز ، وقارن ــ المترجم .
(٢) يقصد قباذ ، وانوشجان ــ المترجم .
(٣) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ٤٣ .

تنفيذا لأمر الامبراطور ، بدأ المحاربون الفرس بالتحشد في العاصمة الامبراطورية . فجاؤوا من جميع المدن والحاميات فيما عدا تلك المتاخمة للحدود الغربية مع الامبراطورية الرومانية الشرقية . وفي غضون بضعة ايام ، كان الجيش الاول جاهزا .

كان البلاط الفارسي يتوقع تقدم المسلمين على امتداد نهر الفرات الى شمال غرب العراق . فالفرس كانوا يعرفون الفكر العربي جيدا ، اذ لايعقل ان تتقدمَ اية قوة عربية على التحرك بعيدا عن الصحراء طالما توجد قوات معادية على مسافة قريبة من مؤخرتها ومن طريقها الى الصحراء . ونظرا لتوقع أردشير ان يتقدم جيشُ المسلمين غربا فقد اختار الولَجة كمكانٍ لايقاف خالد وتدمير جيشه . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

سُلِّمتْ قيادة أولِ جيشٍ من الجيشين الفارسيين الجديدين الذي أنشىء في « كتسفون » الى القائد الفارسي « الاندرزغر » ، وكان هذا القائد حاكما عسكريا على ولاية خراسان ، كما كان يحظى بالتقدير من قبل الفرس والعرب على حدّ سواء . وكان فارسيا ُولد بين عرب العراق . وكَبُر وترعرع بين العرب ، وكان خلافاً لمعظم الفرس من مرتبته محبا حقيقيا لهم .

فأمر الاندرزغر ان يحرك جيشه الى الولَجة ، حيث سينضم اليه في اقرب وقت الجيش الثاني . وانطلق من كتسفون ، وسار على امتداد الضفة الشرقية لنهر دجلة ، واجتاز دجلة حتى اتى كسكر [1] ، ثم سار باتجاه جنوب غرب الى الفرات قرب الولَجة ، ثم اجتاز الفرات واقام معسكره في الولَجة . وقبل ان ينطلق من العاصمة ، ارسل مبعوثين لعدة قبائل عربية يعرفها ، وفي طريقه الى الولَجة انضم اليه آلاف من العرب الراغبين في القتال تحت لوائه . كذلك قابل بقايا جيش « قارن » ووضعهم تحت إمرته . وعندما وصل الى الولَجة كان مسرورا بقوة جيشه . وهنا اخذ ينتظر بفارغ الصبر « بَهْمَنْ بن جَاذَوَيه » قائد الجيش الثاني الذي سينضم اليه خلال بضعة أيام .

---

(١) كانت كسكر تقع في المكان الذي بنيت فيه واسط في عام ٨٣ هجري . وفي الحقيقة اصبحت كسكر الجزء الشرقي من واسط .

وكان بُهْمَن من الشخصيات العسكرية البارزة ، وقد تمّ شرفه أيضا .
وكان الامبراطور أردشير قد أمره ان يقود الجيش الثاني ، عندما يصبح جاهزا، الى الولَجة حيث ينتظره الاندرزغرَ . وهنا يتولى بهمن قيادة الجيشين ، وبهذه القوات الهائلة يهزم جيش المسلمين ويدمره في معركة واحدة كبيرة .

تحرك بهمن على طريق منفصل الى الاندرزغر . فمن كتسفون سار جنوبا ، بين النهرين ، وتوجه مباشرة الى الولجة . لكنه ترك كتسفون بعد مسير الجيش الاول بعدة أيام ، وكانت حركته أبطأ .

كانت معركة النهر نصرا رائعا للمسلمين الذين استطاعوا تدمير جيش فارسي كبير بخسائر طفيفة ، واستولوا على كمية كبيرة من الغنائم . لكن هذه المعركة تركت خالدا في حالة تفكير ، وبدأ يدرك الآن فقط ضخامة موارد الامبراطورية الفارسية . لقد خاض معركتين دمويتين ضد جيشين منفصلين وطردهما من ميدان المعركة بلا هوادة ، ولكنه مازّال فقط على تخوم الامبراطورية . وبامكان الفرس ان يحشدوا عدة جيوش مثل الجيشين اللذين حاربهما في كاظمة والنهر .

كان تفكير خالد رزينا ومنطقيا . فهو أول قائدٍ مسلم ينطلق لفتح أراضٍ أجنبية ولم يكن خالد قائدا عسكريا فحسب ، بل كان يحكم ، باسم الخليفة الموجود في المدينة ، جميع الاراضي التي تم فتحها من أجل نشر الاسلام . ولم يكن بقربه من يلجأ اليه سياسيا واداريا لارشاده في هذه الامور . علاوة على ذلك ، لم يكن رجاله كما كانوا في كاظمة من حيث النشاط والحيوية . لقد ساروا طويلا وسريعا وقاتلوا بعنف ، وهم يشعرون الآن بشيء من التعب . فأراح خالد جيشه لبضعة أيام .

وكان خالد قد نظم شبكة فعالة من العيون للتجسس على العدو .
وكان هؤلاء العيون من العرب المحليين الذين اعجبوا بالمعاملة الكريمة التي عامل بها خالد السكان المحليين ، على عكس المعاملة السيئة التي كانوا يلقونها على يد الفرس المتعجرفين . لذلك انحاز معظم السكان المحليين الى المسلمين وجعلوا خالدا على علمٍ بنشاطات الفرس وتحركات قواتهم . واعلمه هؤلاء العيون الآن عن تحرك الاندرزغر من كتسفون ، وعن العناصر العربية الكثيرة

التي انضمت اليه ، وعن ضمه لبقايا جيش قارن ، وعن تحركه نحو الولَجة. كذلك أعلموه عن مسير الجيش الثاني بقيادة بَهْمَن من كتيسفون وتحركه باتجاه الجنوب . وبوصول هذه المعلومات الى خالد ، ادرك ان الجيشين الفارسيين سوف يلتقيان قريبا وعندئذٍ إما أن يسدّا عليه الطريق جنوب الفرات أو يتقدما لمحاربته في منطقة الأبُلّة . ونظرا لضخامة القوات الفارسية فان اشتباكه معها بمعركة ناجحة قد لايكون ممكنا . وكان خالد يريد الذهاب الى الحيرة ، لكن الولَجة كانت عقبة في طريقه .

وهنالك أمر آخر كان يقلق خالدا وهو ان كثيرا من الفُرس كانوا يهربون من المعركة ثم يعودون للقتال مرة أخرى . فالذين نجوا من كاظمة انضموا الى « قارن » وقاتلوا في معركة النهر . والذين نجوا من معركة النهر انضموا الى الاندرزغَر وهم الآن في طريقهم الى الولَجة . فاذا قُدّر له ان يهزم جميع الجيوش التي تواجهه ، فسيعمل على عدم السماح لأي جندي فارسي ان يهرب من معركة وينضم الى جيش يعدّ للمعركة التالية .

إذن هاتان هما المشكلتان اللتان واجهتا خالدا : الاولى كانت استراتيجية، وهي وجود جيشين فارسيين على وشك الاندماج والهجوم عليه . ووجد لهذه المشكلة حلا استراتيجيا ايضا ، وهو التقدم بسرعة لمواجهة الجيش الاول وإبادته (جيش الأندرزغر) قبل ان يصل الجيش الآخر (جيش بَهْمَن) الى المسرح . أما الثانية فكانت تكتيكية ، وهي كيفية منع جنود العدو من الهرب من معركة ما والعودة للقتال في معركة تالية . ووجد لهذه المشكلة حلا تكتيكيا لايمكن إلا لعبقري ان يفكر بمثله .

اعطى خالدٌ تعليماته الى سويد بن مقرّن لكي يقوم بادارة الولايات التي تم فتحها ، مع عدد من الاداريين ، ووضع بعض المفارز لحراسة نهر دجلة الاسفل ضد أي اجتياز محتمل للعدو من الشمال والشرق ، ولاعطاء انذار مبكر عن أية قوات جديدة تأتي من هذين الاتجاهين . وانطلق خالد مع بقية جيشه البالغ عدده حوالي خمسة عشر الفا باتجاه الحيرة ، وسار بخطى حثيثة على امتداد الطرف الجنوبي للمستنقع الكبير .

لو خُيِّرَ الاندرزغر ، لاختار بالتأكيد انتظار وصول بُهْمن قبل الدخول في معركة حاسمة مع المسلمين . لكن الاندرزغر لم يخيّر . فقبل وصول بهمن ببضعة أيام ، ظهر جيش المسلمين فوق الافق الشرقي وعسكر على مسافةٍ قصيرة من الولَجة . على كل الاحوال ، لم يكن الاندرزغر قلقا ، فلديه جيش كبير من الفُرس والعرب ، وشعر بانه واثق من النصر . حتى انه لم يكلف نفسه عناء الانسحاب الى ضفة النهر ، على بعد ميلٍ واحد ، لكي يستخدم النهر في حماية مؤخرته . واستعد للمعركة في الولَجة .

بقي الجيشان في معسكريهما طيلة اليوم التالي ، وكان كل منهما يراقب الآخر ،بينما كان الامراء والقادة يقومون بالاستطلاعات والاستعداد للغد . وفي صباح اليوم التالي فتح الجيشان للمعركة ، وكان ترتيب قتال كل منهما يتألف من قلبٍ وجناحين . وسلِّمت قيادة جناحي جيش المسلمين مرة اخرى الى عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

كان ميدان المعركة يتألف من سهل مستوٍ يمتد بين هضبتين منبسطتين ومنخفضتين ، وتبعدان عن بعضهما قرابة ميلين ، ويبلغ ارتفاعهما من ٢٠ — ٣٠ قدما . وكان يوجد عند نهاية الطرف الشمالي الشرقي من السهل هضبة اخرى هي في الحقيقة امتداد للهضبة الشرقية ، بينما يمتد السهل جنوبا الى صحراءٍ قاحلة . وعلى مسافة قصيرة من الهضبة الشمالية الشرقية ، يجري فرع من الفرات يعرف باسم « نهر الخسيف » . وفتح الفُرس للمعركة في وسط هذا السهل ، وكانوا يواجهون الشرق والجنوب الشرقي ، وكانت الهضبة الغربية خلفهم ، وكان يسارهم يستند على سفح الهضبة الشمالية الشرقية . وفتح خالدٌ جيشه للمعركة أمام الهضبة الشرقية مباشرة ، وأصبح يواجه الفُرس . وكانت نقطة المنتصف بين الجيشين تقع على بُعد ميلين جنوب شرق « عين المحاري » الحالية ، وستة أميال جنوب « الشُنَّيْنفِيَّة » الحالية .

فوجىء الاندرزغر بقوة جيش المسلمين . وقدره بحوالي عشرة آلاف . وكان الاندرزغر يتوقع ، بناء على المعلومات التي سمعها ، ان يكون جيش خالد

أكبر من ذلك بكثير . وتساءل بينه وبين نفسه : أين خيالة المسلمين المخيفة؟ فمعظم هؤلاء الرجال مترجلون ! وقال في نفسه : ربما بالغ الذين نجوا من معركتي كاظمة والنهر في قوة العدو مثلما يفعل الجنود المهزومون عادة . وربما تقاتل الخيالة وهي مترجلة . ولم يعرف الاندرزغر ان المسلمين الذين يواجهونه هم ايضا فوجئوا بعدد الفرس ، الذين ظهروا بالامس وكأنهم أكثر عددا عما هم عليه اليوم . لكن الامر لم يقلقهم . فسيف الله يعرف أكثر منهم .

لقد جعل الموقف الراهن معنويات الاندرزغر عالية . فهو سيبيد هذه القوة الصغيرة ويطهر ارض العراق من هؤلاء المتصلفين سكان الصحراء . لذلك سينتظر اولا هجوم المسلمين . ثم يصد هذا الهجوم ويقوم بهجوم معاكس ويسحق العدو .

وعندما قام خالد بهجوم عام ، فرح الاندرزغر كثيرا . لان هذا هو ما كان يريده . فتقابل الجيشان واشتبكا في قتال عنيف .

احتدم القتال بين الطرفين . وانقض المسلمون الماهرون على الفرس المثقلين بالمعدات والتجهيزات ، لكن الفرس صمدوا في مكانهم ، وصدوا جميع الهجمات . وبعد ساعة من القتال شعر الطرفان بالإجهاد والتعب ، وكان إجهاد المسلمين اكثر لان عددهم كان أقل ، وكان كل واحد منهم يواجه عدة رجال من الفرس . علاوة على ذلك ، كان لدى الفرس احتياط من الجنود كانوا يستبدلون به رجالهم في الصف الامامي .

ان المثل الذي ضربه خالد جعل معنويات المسلمين مرتفعة . كان خالد يحارب في الصف الامامي .

واثناء المرحلة الاولى من المعركة ، ازدادت ثقة المسلمين بالنصر عندما شاهدوا خالدا يبارز أحد أبطال الفرس العمالقة ويدعى « حَضَرْمَرْد » ، ويقال بأنه يعادل الف رجل [1] .

وقد خرج هذا الرجل من بين صفوف الفرس وطلب المبارزة . فخرج

---

(١) حَضَرْمَرْد تعني بالفارسية الف رجل .

له خالد وبارزه . وبعد بضع دقائق ضربه خالد بسيفه وقتله . فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه [٢] .

انتهت المرحلة الاولى ، وبدأت المرحلة الثانية من المعركة بهجوم معاكس من الفرس . وكانت عين الاندرزغر الثاقبة ترى أمارات التعب بادية على وجوه المسلمين . وقدّر ان هذه هي اللحظة المناسبة لشن هجومه المعاكس ، وكان مصيبا في ذلك . وبناء على اوامره ، اندفع الفرس الى الامام وكثروا على المسلمين . واستطاع المسلمون ان يصدوهم لبعض الوقت بعد ان بذلوا جهودا جبارة في القتال . لكنهم بدؤوا بالتراجع ببطء ، ولكن بكل نظام . وشنّ الفرس هجمات عنيفة ، ونظر المسلمون الى خالد لتلقي أية اشارة تدل على تغيير في خطة او اي شيء آخر ينقذ الموقف . لكنهم لم يتلقوا شيئا من ذلك . وكان خالد يقاتل كالاسد وحثّ رجاله على القتال مثله . وفعل رجاله مثلما فعل .

خسر الفرس كثيرا اثناء تقدمهم ، لكنهم كانوا فرحين بالنجاح الذي احرزوه . كذلك كان الاندرزغر فرحا ، فالنصر كان قاب قوسين منه . وهو لم يصل بعد الى المرتبة العليا في الجيش والدولة ؛ اما الآن فصار يتخيل منحه القلنسوة التي قيمتها عشرة آلاف درهم . أما المسلمون فقد استمروا في القتال بشكل انتحاري وبذلوا اكثر من طاقتهم ؛ وبدأ بعضهم بالتساؤل فيما اذا خالد قد اوشك على الانتهاء .

بعد ذلك أعطى خالد الاشارة . ولم نعرف ماهي الاشارة بالضبط ، لكنها استلمت من قبل اولئك الذين ارسلت اليهم . وفي اللحظة التالية ، ظهر خطان سوداوان من الخيالة فوق قمة الهضبة الممتدة خلف الجيش الفارسي ؛ فالخط الاول ظهر من المؤخرة اليسرى للفرس ، والثاني ظهر من المؤخرة اليمنى . وارتفع صوت الله اكبر من حناجر خيالة المسلمين المهاجمين ؛ واهتز سهل الولجة تحت وقع حوافر خيل المسلمين الهادرة .

وانقلب فرح الفرس الى رُعب . واخذوا يصرخون بفزع عندما انقضّت

---

(٢) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

خيالة المسلمين على مؤخرة جيش الفُرس . وأنتعشت الكتاة الرئيسية من المسلمين التي كانت بإمرة خالد لمرآى خيالة المسلمين وقويت عزائمهم ، واستأنفوا الهجوم ضد جبهة الفرس ، وبنفس الوقت أطال المسلمون الجناحين للاتصال بالخيالة ومن ثم تطويق الفرس بشكل تام . ووقع جيش الاندرزغر بالفخ الذي لامهرب منه .

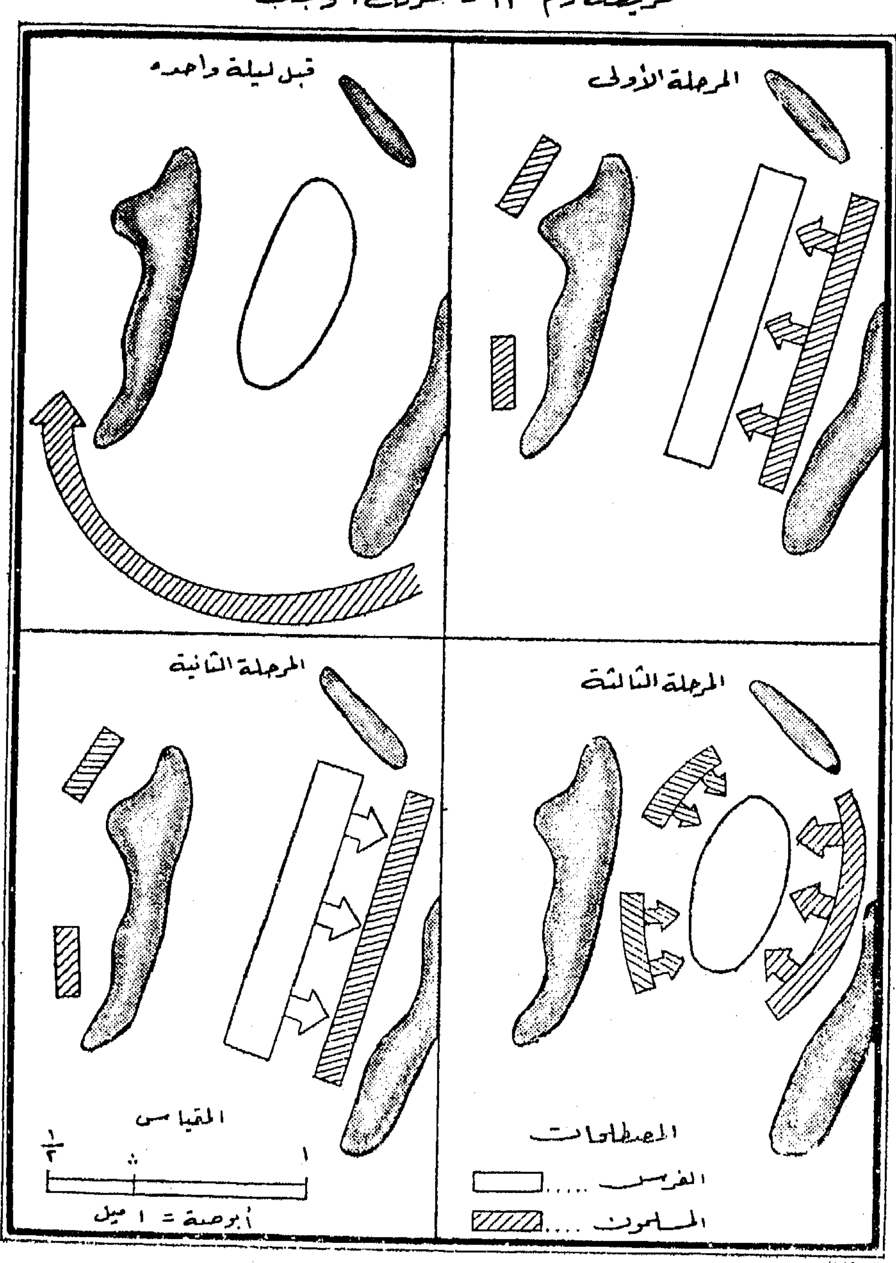
وفي لحظات تحول الفرس النظاميون الى غوغاء . وعندما كان يحاول جنودهم الفرار الى المؤخرة كانوا يقابلون بالرماح او يطعنون بالسيوف . وعندما كانوا يتوجهون الى المقدمة كانوا يضربون بالسيوف او يطعنون بالخناجر . ونتيجة للهجمات من جميع الاتجاهات ، تجمع الفرس على شكل كتلة غير متماسكة ، ولم يستطيعوا استخدام أسلحتهم بحرية كما لم يستطيعوا تجنب ضربات المسلمين المهاجمين . كذلك فان الفرس الذين كانوا يريدون القتال لم يعرفوا من سيقاتلون ، والذين كانوا يريدون الفرار لم يعرفوا الى أين يذهبون . وأخذوا يدوسون بعضهم بعضا وهم يتسابقون للهرب من الخطر المحدق بهم . وأصبح ميدان المعركة في الولجة جحيما لجيش الاندرزغر .

ان الحلقة الفولاذية التي تحيط بالفرس اصبحت محكمة ، وازدادت هجمات المسلمين عنفا وضراوة ، واقسم المسلمون على ان لايدعوا الفرس وعرب العراق ان يهربوا هذه المرة .

وقد نجح المسلمون في ذلك . اذ تم تدمير جيش الفرس كلية باستثناء بضعة آلاف تمكنوا من الهرب ؛ لانه لايمكن تدمير جيش كليةً دون ان يتمكن بعض عناصره من الهرب . وانتهى جيش الفرس وكأن هوة فتحت من تحته وابتلعته . وبينما دُحر جيشا « هرمز » و « قارن » وانهزما ، فإن جيش الاندرزغر قد أُبيد . ولم يعد هناك جيش اسمه جيش الاندرزغر . (انظر الخريطة رقم ١٣ لشرح مراحل المعركة) .

ومن الغريب حقا ان يلجأ الاندرزغر الى الهرب . لكن اتجاه هربه كان نحو الصحراء وليس نحو الفرات ، اذ كان همه الابتعاد ما امكن عن جحيم

الخريطة رقم ١٣ - معركة الولجة



الوالجة . وتعمق الاندرزغر سيء الحظ في الصحراء حيث اضاع طريقه ومات عطشا .

جمع خالد رجاله المنهكين بعد المعركة . وادرك ان هذه المعركة كانت عبئا كبيرا عليهم ؛ فهي اعنف المعارك الثلاثة التي خاضوها في العراق . وكان خالد حريصا على معنوياتهم لئلا تتأثر من تجارب هذه المعارك ؛ ولان تجارب اخرى كانت بانتظارهم . وقام خالد في الناس خطيبا يرغّبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : « الا ترون الى الطعام كرَفغِ التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله ، والدعاءُ الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به وتولّي الجوعَ والاقلالَ مَن تولاه ، ممن اثّاقلَ عما انتم عليه »[1] .

ووافق المقاتلون على رأي خالد .

في اليوم السابق لمعركة الولجة ، ارسل خالد قائدين هما بَسْر بن أبي رهم وسعيد بن مُـرّة . وجعل كلاً منهما مسؤولا عن الفي خيّال واسند اليهما المهمات التالية :

١ ـ عليهما ان يذهبا بخيالتهما اثناء الليل وان يلتفا حول جنوب معسكر الفرس .

٢ ـ عند الوصول الى الجانب البعيد من الهضبة الممتدة خلف معسكر الفرس ، ينبغي عليهما ان يخفيا رجالهما على ان يكونوا جاهزين للتحرك عند اول اشارة .

٣ ـ عند نشوب المعركة في الصباح ، عليهما ان يُبقيا رجالهما على الخيل خلف قمة الهضبة وان يضعا مراقبين لمراقبة اشارة خالد .

٤ ـ عندما يُعطي خالد الاشارة ، على القوتين الضاربتين ان تهاجما جيش الفرس من المؤخرة .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

واصدر خالد" الاوامر الضرورية لاولئك الذين ينبغي ان يكونوا على علم بهذه الخطة ، لكي يتم التجهيز والاعداد للقوتين الضاربتين بدون تعقيد ؛ وتم الحفاظ على سِـرّيّةِ الخطة ولم يعلم احد ممن ليس له علاقة بالخطة شيئا عنها . وفي الصباح ، لم يظهر احد" من القوتين الضاربتين ؛ وفتح خالد للمعركة بباقي جيشه الذي يبلغ عشرة آلاف ، أمام الفرس .

هذه هي معركة الوَلَجة التي حدثت في اوائل ايار عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثالث من صفر ، عام ١٢ هجري) . وكانت عبارة عن هجوم جبهي رافقته عملية التفاف واسعة . وقد تمت العملية ، حتى اصغر دقائقها وتفصيلاتها ، كما خطط لها خالد .

لم تكن هذه اول مناورة باهرة تنفذ في التاريخ . لقد حدث مثلها قبل ذلك . واشهر مثال على هذا النوع من المناورة هو معركة كانّي عام ٢١٦ قبل الميلاد ، عندما قام هانيبال بتنفيذ مناورة مماثلة ضد الرومان . واصبح هذا النوع من المناورة يدعى بعد معركة هانيبال باسم « المناورة الكانّية » .

لكن خالداً لم يسمع بهانيبال قط . وبالنسبة لخالد ، كانت مناورته نابعة من أفكاره .



نهر الدم

لقد تم كسب المعركة الثالثة الكبيرة التي جرت مع الفرس ، واصبح خالد قريبا من هدفه النهائي وهو الحيرة . ولكن كان لايزال أمامه طريق طويل وليس لديه فكرة عن الرحلة . وكان من غير المحتمل ان ينسحب الفرس المتشامخين من طريقه . وكان لابد من اراقة دم كثير .

وعلى الرغم من مناورة خالد البارعة وجهوده الضخمة ، استطاع بضعة آلاف من جنود الاعداء ان يهربوا من معركة الولجة . وكانوا بشكل رئيسي من العرب النصارى من قبيلة بني بكر (وهي قبيلة المثنى ؛ وهؤلاء العناصر من الذين لم يعتنقوا الاسلام واعتنقوا المسيحية) . وعاش معظم القبيلة في العراق ، كرعايا فارسيين . واستجابوا لنداء الاندرزغر وحاربوا معه وذاقوا الهزيمة معه في الولجة .

عَبَر هؤلاء العرب ، الذين نجوا من معركة الولجة وهربوا من الميدان ، نهر الخسيف وساروا بينه وبين نهر الفرات (كان يفصل بين النهرين مسافة ثلاثة اميال ، وكان نهر الخسيف فرعا من الفرات) . وانتهى بهم المطاف الى « اليس » ، وهي تبعد حوالي عشرة اميال عن الولجة (انظر الخريطة رقم ١٠) . وهنا شعروا بالامان ، لان المكان يقع على الضفة اليمنى من الفرات ، وعلى الجانب الآخر من اليس كان يجري الخسيف ، وهو يبدأ فعليا من الفرات فوق اليس . ولا يمكن الاقتراب من اليس الا جبهيا ، اي من الجهة الجنوبية الشرقية .

اراح خالد جنوده لبضعة ايام وبقي هو مشغولا بتوزيع الغنائم والاعداد

للمسير القادم . ونظرا لوجود جيش بَهمَن ، فان خالداً كان يتوقع حدوث معركة دموية اخرى لابد من خوضها قبل الذهاب الى الحيرة . وبما ان مركز ثقل الحملة في العراق قد انتقل الآن من دجلة الى الفرات ، استدعى خالدٌ مفارز المسلمين التي تركها عند نهر دجلة الاسفل .

عرَفَ خالدٌ من عيونه بوجود عربٍ معادين في أُلّيس ؛ وبما ان هؤلاء هم الناجون فقط من معركة الولجة ، فلم يعتبرهم مشكلة عسكرية . وفي جميع الحالات ، كان خالد حريصا على عدم زج قواته في معركة اخرى قبل ان ينالوا قسطاً من الراحة ويستعيدوا نشاطهم بعد التجربة الكبرى التي خاضوها مع الاندرزغَر . ولكن بعد مرور عشرة ايام أُبلغ بوصول قوات عربية اخرى الى أُلّيس ، فأدرك بأن عليه ان يقاتل جيشا جديدا كاملا . كما ان الحشد المعادي كان كبيرا لدرجة ينذر بحدوث معركة هامة . وعندما وصلت مفارز المسلمين من دجلة الاسفل وانضمت الى خالد ، انطلق من الولَجة ومعه جيش مؤلف من ثمانية عشر الفا . ونظرا لعدم وجود طريق يؤدي الى اليّس من الجنب بسبب وجود النهرين ، فلم يكن امام خالد من خيار سوى اجتياز الخسيف والاقتراب من هدفه جبهيا .

لقد اهتزت امبراطورية الفُرس من اساسها بسبب تدمير جيش الاندرزغر بعد هزيمة جيشي الفُرس الآخرين في معركة كاظمة والنهر . وبدا جيشُ المسلمين كقوة لاتقهر . وكان كل جيش فارسي يحاول مقاومة زحف المسلمين يصاب بالهزيمة والدمار . وكانت الصفعة التي اصابت البلاط الفارسي المتعجرف أليمةً ، لان الفُرس اعتادوا على معاملة اهل الصحراء بازدراء . ولم تُصب الامبراطورية في تاريخها الطويل بمثل هذه الهزائم العسكرية ، وبمثل هذه السرعة ، على ايدي قوات اقل حجماً من قواتها .

ولاول مرة وجد الفرس ان من الضروري ان يعيدوا النظر بفكرتهم عن العرب . وكان واضحا ان هنالك شيئا ما يكتنف الاسلام الذي استطاع ان يحوّل العرب من امة بدوية ، وغير منظمة ، وصعبة المراس الى امة مرهوبة الجانب ، وقوة فتح منظمة . وكان واضحا ايضا ان شيئا ما يحيط

بخالد ، الذي اصبح اسمه يثير الرعب في نفوس الفرس ، والذي اضــاف لمسةً من العبقرية على عمليات جيشه . ولكن امبراطورية عظيمة يبلغ عمرها اثني عشر قرنا لاتهزم بخسارة ثلاث معارك . وكان الفرس امةً من الفاتحين والحكام الذين خسروا معارك في الماضي لكنهم نهضوا ثانية . وقد انقضت حالة اليأس والفزع التي اصابت اهل مدينة كتسفون بعد انباء هزيمــة الولَجة ، وحلّ محلها تصميم لسحق هذا الجيش الفاتح وطرده الى الصحراء التي قــدم منها . لقد وقف الفرس على اقدامهم ونفضوا غبار الهزيمــة واستعدوا لجولة اخرى .

في غضون ذلك وصل مبعوثون من العرب النصارى من بني بكر الى كِتِسفون واخبروا الامبراطور عن وضعهم . وطلبوا مساعدة زملائهم العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين اليّس والحيرة ؛ واستجابة لذلك ، زحف الآلاف من العرب للانضمام الى بني بكر في اليّس ليخوضوا معركة حياة او موت ضد خالد ، وكانوا يتساءلون فيما اذا كان الامبراطور سيقدم المساعدة بارساله جيشاً آخر من المقاتلين الفرس ليعملوا جنبا الى جنب مع رفاقهم العرب المخلصين من اجل انقاذ الامبراطورية .

ان الامبراطور سيقدم المساعدة فعلا . فأرسل اوامره الى بَهمَن الذي كان لايزال موجودا شمال الفرات . وعندما سمع بَهمن بمعركة الولَجة ، توقف في مكانه وقرّر ان لايتحرك حتى يتسلم تعليمات جديدة . والآن تسلّم امر الامبراطور القاضي بالتقدم مع جيشه الى اليّس ، وان يضم الى قيادته المفارز العربية المتجمعة هناك ، ومن ثمّ يسدّ الطريق امام خالد ويمنعه من التقدم الى الحيرة .

لكن بَهمن لم يذهب هو نفسه الى اليّس . وارسل الجيش بإمــرة نائبه « جابان » ، بعد ان بلّغه اوامر الامبراطور ، وقال بهمن لجابان : « كفكِف نفسك وجنــدك من قتال القوم حتى الحق بك الا ان يعجلوك »[1] . وبعد ان انطلق جابان مع الجيش ، عاد بَهمن الى كتِسفون . لم يعرف سبب ذهابه

(١) الطبــري ــ الجــزء ٢ ، صفحــة ٥٦٠ .

الى العاصمة . ولكن المعروف انه رغب في بحث بعض الامور مع الامبراطور . وعندما وصل الى كتيسفون ، وجد الامبراطور اردشير مريضا جدا وبقي بجانبه للسهر عليه .

سار جابان مع جيشه الى اليس حيث وجد آلاف العرب النصارى الذين جاءوا من منطقة الحيرة وامغيشيا [1] . وادرك الجميع الآن ان هدف خالد هو الاستيلاء على الحيرة ، وايقنوا ايضا ان نجاح خالد معناه مزيدا من إراقة الدم والسبي . ولمنع ذلك ، جاؤوا لقتال خالد ، وهم على استعداد للقتال حتى الموت اذا لزم الامر . وتولى جابان قيادة جميع القوات ، وكان على راس قوة العرب النصارى زعيم يدعى عبد الأسود ، الذي فقد ولدين في الولجة وكان يتحرق للانتقام . وعسكر الفرس والعرب النصارى جنبا الى جنب وجعلوا الفرات على يسارهم ، والخسيف على يمينهم ، ونقطة إلتقاء نهر الخسيف مع الفرات خلفهم .

وحسب رواية المؤرخين الاوائل كان يوجد نهر هنا ؛ وقد ظهر هذا النهر الى الوجود في نهاية الاشتباكات التي حدثت في معركة اليس ، كما سنرى فيما بعد . وربما كان هذا النهر في يوم من الايام قناة ، لان مياهه كانت محجوزة عند نقطة التقائه مع الفرات بالقرب من اليس ، ولكن عند نشوب المعركة كان النهر جافا ، او شبه جاف ، لان فتحة السد كانت مغلقة . وقد اعتبرت ان هذا النهر هو الخسيف (وهو نهر صغير الآن) ، لانه لايوجد مكان في اليس لنهر آخر او لقناة . ونظرا لان الاسم : « خسيف » لم يكن مستعملا في ذلك الوقت ، فانني ساشير اليه باسم : « النهر » فقط .

قبل وصول جابان وجيشه ، ظهر المثنى وخيالته الخفيفة في اليس واصطدم مع العرب النصارى . واخبر خالدا عن موقع العدو ، وقوته ، ونواياه الظاهرة للقتال . فاسرع خالد الخطى على امل ان ينقض على العرب النصارى قبل ان يتم تعزيزهم بقوات فارسية اخرى . لكن جابان وصل اليس قبل خالد ، وربما ببضع ساعات فقط ؛ وهنا جوبه خالد

(1) امغيشيا : كانت مصرا كالحيرة ، وكانت اليس من ثغورها — المترجم .

مرة أخرى بجيش كبير . فصمم خالد أن يقتل أكبر عدد من جنود الاعداء لكي لايرى منهم الا القليل في المعركة التالية . وقرر ايضا ان يخوض المعركة وصدهم بنفس اليوم ؛ لان أيّ تأخر في خوض المعركة سيوفر وقتا اكثر للفرس لتنظيم وتنسيق خططهم . وجرت المعركة في منتصف ايار عام ٦٣٣ م (نهاية صفر ، عام ١٢ هجري) .

توقف خالد اثناء سيره مدة كافية لترتيب جيشه ووضعه على أهبة القتال ، وعيّن عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو مرة اخرى قائدين للجناحين ، قبل ان يبدأ التقدم الى أليس . في هذه المرة لم تكن حركات الالتفاف ممكنة ، لذا كان على خالد ان يعتمد من اجل النصر على السرعة والعنف في الهجوم اكثر من اعتماده على المناورة . واستمر تقدم المسلمين للمعركة لبعض الوقت قبل ان يعلم جابان بأنه على وشك ان ينهاجم .

وصلت هذه المعلومات الى جابان قبل منتصف النهار بقليل ، وهو موعد تناول الطعام من قبل الفرس . وكان الطباخون قد أعدوا الطعام للجنود ، والجندي الفارسي ، مثل جنود جميع الامم وعلى مرّ العصور ، يفضل وجبة ساخنة وينفر من الهجوم بمعدة فارغة . أما العرب النصارى فكانوا جاهزين للمعركة .

نظر جابان الى جنوده وهم يحملون أوعية الطعام ويأكلون بشهية . ثم نظر الى الاتجاه الذي يقترب منه المسلمون بسرعة وبترتيب القتال ، كذلك شاهد جنودُ الفرس جيش المسلمين . وكان جنود الفرس شجعانا ، لكنهم كانوا جائعين أيضا . فقالوا لجابان : « أنعالجهم أم نغدي القوم ، ولا نريهم أنا نحفل بهم ، ثم نقاتل بعد الفراغ ؟ » فأجابهم جابان : « ان تركوكم فتهاونوا ، ولكن ظني بهم ان سيعجلوكم ويعاجلوكم عن الطعام ، فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الاطعمة ، وتوافوا اليها » . وجلس الجنود على الارض وبدؤوا بتناول الطعام . وظنوا ان لديهم متسعا من الوقت . وفي غضون ذلك انتشر العرب النصارى ، الذين ليس لديهم عادات الفرس فيما يتعلق بتناول الطعام ، للمعركة .

ولم يكد يتناول جنود الفرس لقمة او لقمتين حتى بَدا لهم واضحاً ان هجوم المسلمين اصبح وشيكا . واذا تأخروا في خوض المعركة مدة أطول، فان امتلاء بطونهم لن ينفعهم ، ويكونوا عرضة للذبح . فتركوا الطعام على الفور ، وفتحوا للمعركة بناء على أمر جابان . ووضع جابان قواته في المنتصف وطلب من العرب النصارى ان يشكلوا الجناحين لجيشه تحت إمرة عبد الأسود والابجر .

كان ميدان المعركة يمتد جنوب شرق أليس بين الفرات والنهر . وفتح جيش الفرس وظهره الى أليس ، بينما فتح جيش المسلمين امامه . وكانت المجنبتان الشماليتان لكلا الجيشين تستند على الفرات ، والمجنبتان الجنوبيتان تستند على النهر . وكانت جبهة المعركة حوالي ميلين من النهر الى النهر .

كانت معركة أليس عنيفة جدا . وكانت معركة الولجة أعنف معركة من معارك خالد في العراق حتى الآن ، لكن هذه المعركة كانت اقسى واعنف . ولم ينس خالد هذه المعركة ابدا .

لانعرف تفاصيل التحركات والمناورة والاعمال الاخرى التي جرت في المعركة . لكننا نعرف ان خالدا قتل قائد العرب النصارى عبد الأسود في مبارزة بينهما . ونعرف ايضا ان جيشَ الفرس ، على الرغم من الخسائر الجسيمة التي مني بها ، لم يستسلم امام هجمات المسلمين ؛ بل على العكس كان مستعدا للقتال حتى النهاية . كما ان العرب النصارى كانوا يقاتلون قتال حياة او موت ، لانهم اذا خسروا هذه المعركة ، فلن ينقذ الحيرة اي شيء .

استمر العراك بين الجيشين زهاء ساعتين . وكان القتال على اشدّه عند ضفة النهر ، حيث سقط العديد من الفرس . ولم يَرَ المسلمون المنهكون الجائعون اية بارقة امل ، ولم يلمسوا اي ضعف في مقاومة الفرس والعرب النصارى . ثم رفع خالدٌ يديه بالدعاء الى الله وانذر قائلا : « اللهم ان لك

علـيّ إنْ منحتنا أكتافهم الا أستبقي منهم احدا قدَرْنا عليه حتى يجـري نهرَهم بدمائهم » [1] .

ولم يذر خالد اثناء ذلك لونا من الوان المداورة الا ضيق به الخنـاق على أعدائه ، فلما عيل صبرهم وتداعت قوتهم ، ولم يبق لهم من الهزيمـة مفر تحطمت صفوفهم وانقلبوا على اعقابهم يسارعون الى الهرب ، ولا مأرب لهم الا النجاة . وسقط الآلاف منهم قتلى ، خاصة على ضفة النهر وفي النهر نفسه حيث اصبح لون النهر الرملي احمر من كثرة الدماء .

عندما فرّ جيشُ الفرس من ميدان المعركة ، اطلق خالد" خيالته في إثره . وأمرَهم قائلا : « الاسرَ الاسر ، لاتقتلوا الا من امتنع » [2] . وكان سرير النهر مبتلا بالدماء ، لكن النهر « لم يجرِ دما » كما أنذر خالد .

انطلقت خيالة المسلمين في عدة مفارز ، وبدأت بمطاردة الهاربين الـذين اجتازوا الخسيف واتجهوا نحو الحيرة . وتمكنت الخيّالة من عزل مجموعات من الفرس والعرب النصارى وتطويقها والتغلب عليها ونزع اسلحتها وسوقها الى ميدان المعركة سوق الغنم . وكانت كل مجموعة تصل الى الميدان تسـاق الى النهر . فأمر خالد بضرب اعناقهم بعد ان صدّ الماء من النهر . وجعـل رجاله يضربون اعناق الاسرى يوما وليلة ، والنهر لايجري دما . فقال لـه احد اصحابه وهو القعقاع : « لو انك قتلت اهل الارض لم تجر دماؤهـم . ان الدماء لاتزيد على ان تترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » [3] .

وأضاف آخرون : « لقد سمعنا ان الارض تمتص بعض دم ابناء آدم ، فانها ترفض المزيد » [4] . وامر خالد فأُعيد الماء الى النهر فجرى دما عبيطا [5] ، فسمي نهر الدم لذلك الشأن الى اليوم .

عند حلول الظلام بعد انتهاء المعركة ، وبينما كانت خيالة خالد تطـارد فلول الهاربين لاحضارهم الى ميدان القتال ، وقف خالد على طعام الفرس

---

(١) الطبـري ـ الجـزء ٢ ، صفحـة ٥٦١ .
(٢) الطبـري ـ الجـزء ٢ ، صفحـة ٥٦١
(٣) الطبـري ـ الجـزء ٢ ، صفحـة ٥٦١ .
(٤) الطبـري ـ الجـزء ٢ ، صفحـة ٥٦١ ـ ٥٦٢ .
(٥) طريـا .

الذي كان موضوعاً على البسط على الارض وقال لجنوده : « قد نفلتكموه فهو لكم » . فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل .

انتهت معركة اليس ، وغنم المسلمون كميات كبيرة من الغنائم من بينها أسر المحاربين المهزومين من جيش الفرس . وطبقا لرواية الطبري ، بلغ عدد القتلى من الفرس والعرب النصارى سبعين الفا من ضمنهم الذين ضربت اعناقهم عند النهر . ولكن جابان تمكن من الهرب .

وفي اليوم التالي ، تحالف خالد مع سكان الولاية المحليين . واتفق معهم على دفع الجزية ووضعهم تحت حماية المسلين ؛ وفي هذه المرة أضيف بند الى الاتفاقية يقضي بجعل السكان المحليين عيونا ومرشدين للمسلمين .

لقد حُرّفت قصة نهر الدم وبولغ في تفاصيلها بشكل خارج عن المألوف من قبل بعض الكتاب . وقد ادّى ذلك الى بعض الاخطاء في فهم حقيقة ماجرى في هذه المعركة .

فهؤلاء الكتّاب يخبروننا ان النهر قد جرى بالدم فعلا ، وكان يوجد طاحون قرب ميدان المعركة تدار بواسطة ماء النهر ، وقد ظلت الطاحون هذه تدار بواسطة الدم وليس بالماء مدة ثلاثة ايام وذلك بسبب الدماء الغزيرة التي جرت في النهر .

ان هذه الرواية هي محض اختلاق ولا تمتّ الى الحقيقة بصلة . فالبلاذُري لم يذكر شيئا عن اية طاحون . واما الطبري فقد ذكر في ختام سرده للمعركة الطاحون كالتالي : « عن شعيب عن سيف عن طلحة عن المغيرة قال : كانت على النهر ارحاء فطحنت بالماء وهو احمر قوتَ العسكر ثمانية عشر الفا او يزيدون ثلاثة أيام » [1] .

وفي حال كون هذه الرواية صحيحة ، فانها لم تذكر شيئا عن تشغيل الطاحون بواسطة الدم . ولا يوجد اي ذكر آخر في كتابات الاوائل عن الطاحون. والحقائق هي كما ذكرت آنفا . فعندما امر خالد بفتح السدّ بناء على نصيحة القعقاع ، فمن الطبيعي ان يصبح لون الماء احمر وان يبقى كذلك فترة من الوقت .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٢ .

علاوةً على ذلك ، فان تسميةً ماحدث بأنه « قتل للاسرى » هو أمـر فيه شيء من المغالاة . فقياسا على ماحدث في السابق وما سيحدث فيما بعـد فان هؤلاء قتلوا اثناء المطاردة . وفي هـذه المعركة انذر خـالد بأن يجعـل النهر يجري دمـا ، لذلك فان آلاف الاسرى الـذين كان من الممكن قتلهم اثناء المطاردة ، جلبوا الى النهر وقطعت اعناقهم . وهذا هو كل ما في قصـة نهر الدم .

من بين المعارك التي خاضها خالد في زمن النبي ، كـانت معركة مؤتـة تحتل مكانا خاصـا في ذاكرته . فلم يتول قيادة في أي مكان مثلما تولاهـا عندما كانت الكارثة وشيكة الوقوع وتمكن من انقاذ المسلمين من براثن الموت . ومـن بين المعارك التي خاضها في العراق ، حفرت معركة التيس في ذاكرته مثل معركة مؤتة .

وفي احـد الايام ، بعد ان تكللت حملة العراق بالنجاح ، جلس خالـد يتسامر مع بعض اصحابه . فقال « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يـدي تسعة اسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من اهل فارس ، وما لقيت مـن اهل فارس قوما كأهل التيس » .

ان هذه الشهادة من خالد على شجاعـة الفرس لايعادلها شيء . لكـن البلاط الفارسي بدأ ينهار الآن . فأردشير يحتضر ، والامبراطورية الفارسيـة لن ترسل جيوشا اخرى لمجابهة سيف الله . وكانت التيس « اغنية البجعة » بالنسبة لاردشير حفيد انوشروان العادل .

* * *

فتح الحيرة

في منتصف ايار عام ٦٣٣ م (أول ربيع الاول عام ١٢ هجري) تقدم خالد من أليس الى امفيشيا . وكانت هذه قريبة من اليس ، وفي الحقيقة كانت اليس بمثابة مخفر امامي لامفيشيا[1] . وفي صباح نفس اليوم وصل جيش المسلمين الى امفيشيا فوجدوها خالية من أهلها .

كانت امفيشيا احدى مدن العراق الكبيرة ، وكانت تنافس الحيرة في حجمها ، وفي كثرة سكانها ، وفي غنى وفخامة اسواقها . ووصل المسلمون ليجدوا المدينة سليمة ، كما ان أسواقها ومبانيها تفص بالاثاث والعتاد والاموال. اما شباب المدينة فقد قتلوا في اليس . والباقون من النساء والاطفال والشيوخ هجروا مدينتهم بسرعة عندما سمعوا باقتراب خالد وانتشروا في الريف المجاور بعيدا عن طريق تقدم جيش المسلمين . فالخوف الذي كان يثيره اسم خالد اصبح عاملا نفسيا ذا أهمية كبيرة في العمليات التي يخوضها جيشه .

استولى المسلمون على امفيشيا غنيمة باردة . واخذوا كل شيء يمكن حمله او نقله . وتجمع لديهم ثروة كبيرة . وبعد ان اصاب منها ما لم يصب من غيرها هدمها خالد[2] . ويعتقد ان الغنائم التي اخذت من امفيشيا تعادل جميع الغنائم التي تم الاستيلاء عليها في المعارك الاربعة السابقة في العراق ، وكما جرت العادة ، فقد تم توزيع اربعة اخماسها على المحاربين وارسل الخمس الى المدينة وهو حصة الدولة من الغنائم .

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ : كانت امفيشيا تعرف ايضا باسم : « منيشيا » .
(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

أعتاد الخليفة الآن على تسلم انباء النصر من جبهة العراق . وكانت غنائم الحرب تصل تباعا بعد كل رسالة ، وقد اغنت هذه الغنائم خزائن الدولة وافرحت قلوب المؤمنين . حتى ان ابا بكر قد فرح بانتصار خالد وبالغنائم التي ارسلت من امفيشيا . فجمع المسلمين في الجامع وخطب فيهم قائلا : « يا معشر قريش ، عدا أسدكم على الاسد فغلبه على خراذيله [1] أعجزت النساء ان ينشئن مثل خالد » [2] .

وكان هذا أفضل ثناء للاشادة بفضل خالد بن الوليد .

كانت الحيرة عاصمة العراق العربي ودرة فارس اللامعة . وكان حاكم الحيرة مرزبانا فارسيا يدعى آزاذبه . وكانت هذه الايام عصيبة بالنسبة لآزاذبه . لقد سمع بالكارثة التي حلت بجيوش الفرس في كاظمة ، والمكيل والولجة ، واليس ، وكان واضحا ان خالدا يتقدم باتجاه الحيرة . فاذا كانت تلك الجيوش التي يقودها المع القادة ، تحطمت امام هجوم خالد ، فهل يستطيع هو بجيشه الصغير ان يقاوم ؟ ولم يكن هنالك تعليمات من الامبراطور المريض .

كان آزاذبه حاكما للحيرة كما كان قائدا لحاميتها . وكان شخصية رسمية هامة في الدولة . وكان قد بلغ نصف الشرف ـ اي ان قيمة قلنسوته خمسون الف درهم . وكان ملك الحيرة العربي اياس بن قبيصة ، وقد جاء ذكره آنفا ، وكان ملكا بالاسم فقط . كذلك كان الزعماء الاخرون والامراء بدون سلطة حكومية سوى ما يتعلق بالشؤون العربية او القبلية . ووقع عبء الدفاع عن الحيرة على عاتق آزاذبه ، وهو كابن بار لفارس صمم على بذل اقصى جهده للدفاع عنها .

فاخرج آزاذبه الحامية العسكرية من ثكناتها واقام معسكرا في ضواحي الحيرة ، ومن هناك ارسل ابنه مع مجموعة من الخيالة لايقاف تقدم خالد ، ونصحه ان يسد قناطر الفرات ، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، فيعوق سير السفن اليه اذا فكر خالد بالتحرك في السفن (التي استولى عليها خالد في

---

(١) الخراذيل = اي لحم مقطع ـ المترجم .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

امفيشيا) . فانطلق ابن آزاذبه الى مكان التقاء نهر العتيق بالفرات ، وهو يبعد اثني عشر ميلا من الحيرة . وهنا شكل قاعدة له ، حيث ارسل منها مفرزة من الخيالة الى الامام بضعة اميال ، حيث ينساب « بادَقلَى » الى الفرات على مقربة من امفيشيا [1] .

تابع خالد الآن سيره الى الحيرة . وقرر ان يستخدم النهر للنقل ، ووضع جميع الحمولات الثقيلة للجيش في السفن . وبينما كان الجيش يتقدم على الابل والخيل ، كانت السفن التي يقودها العرب المحليون تتحرك على مقربة منه . ولم يكد يسير خالد بعيدا عندما بدأ مستوى الماء في النهر بالانخفاض وسرعان ما ارتطمت السفن بقاع النهر . وعلم خالد بالسر ، لقد سد ابن آزاذبه قناطر الفرات .

ترك خالد جيشه عند ضفة الفرات ، وخرج في كتيبة من فرسانه وانطلق بسرعة على طريق الحيرة . وعندما وصل بادَقلَى ، وجد خيالة الفُرس التي ارسلت من قبل ابن آزاذبه كمخفر أمامي . ولم يكن هؤلاء الفُرس نِداً للمسلمين الاشداء ، فقبل ان يتمكنوا من تنظيم انفسهم للدفاع ، هاجمهم خالد مع فرسانه وتمكن من ذبحهم حتى آخر رجل . بعد ذلك أمر خالد بفتح القناطر لكي يتدفق الماء مرة ثانية الى النهر ، ثم تابع الجيش سيره عبر النهر .

لم يكن ابن آزاذبه يقظاً بالدرجة التي يتطلبها الموقف . وظنا منه ان مخفره الامامي في بادَقلَى كان كافيا ضد اية مفاجـاة من المسلمين ــ وهولا يشـك لحظة في ان المخفر الامامي سيبلغه بدنو الخطر ــ خلد الى الراحة . وفجأة داهمه خالد . وقد قتل ابن آزاذبه مع معظم الفُرس الذين كانوا في مجموعته ، واستطاع نفر قليل من خيالته الافلات وحمل النبأ الحزين الى آزاذبه .

---

(١) لا يزال نهر العتيق موجودا حتى الان . وهو نهر صغير جدا يشبه جدول الماء ، وربما كان قناة في تلك الايام . وهو يبدأ من منطقة ابو صخير وينساب غرب الفرات مسافة خمسة اميال ثم ينضم الى الفرات على بعد ميل من القادسية الحالية (وهي على بعد ثمانية اميال جنوب شرق القادسية التاريخية) . وفي الجزء الاخير من رحلة نهر العتيق يسمى (دجيج) . اما بادقلى فكان قناة او قنالا ينساب الى الفرات قرب امفيشيا (الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣) .

سمع آزاذبه من هؤلاء الخيالة عن فقدان مجموعة الخيالة وعن موت ابنه. وسمع من المبعوثين القادمين من كتيسفون نبأ موت الامبراطور أردشير . ووجد آزاذبه نفسه غير قادر على تحمل اعباء مسؤوليته على اثر موت ابنه ، وموت الامبراطور . فتخلى عن مهمة الدفاع عن الحيرة ، واجتاز نهر الفرات وانسحب الى كتسفون وكتب الى بهمَن يعلمه بالامر . وتركت الحيرة للعرب النصارى للدفــاع عنها .

تابع خالد تقدمه نحو هدفه . ولكن لم يُعرف متى ترك السفن وسار على الطريق ، وقد يكون تمّ ذلك على بعد بضعة اميال من الحيرة . ونظرا لتوقع خالد حدوث مقاومة عنيفة في الحيرة ، قرر ان لا يقترب منها جبهيا . فحرك جيشه والتف نحو اليسار مبتعدا عن الحيرة من جهة الغرب وظهر في الخورنق ، وهي مدينة مزدهرة تبعد ثلاثة اميال شمال وشمال غرب الحيرة[1] . ثم اجتاز خالد الخورنق واقترب من الحيرة من الخلف . وعندما دخل المدينة لم يلق اية مقاومة . وكان جميع السكان في المدينة ، لم يهربوا ولم يقاوموا ، لذا فان جنود المسلمين تركوهم بدون مضايقة عندما تغلغلوا في مدينتهم .

وسرعان ما تبلور الموقف ، لقد كان موقفا مختلطا بين السلم والحرب . فالحيرة كانت مدينة مفتوحة ، وبامكان المسلمين ان يستولوا عليها . لكن قلاع الحيرة الاربعة ، وكل واحدة منها تضم حامية قوية من العرب النصارى ويقودها زعماء عرب ، كانت مستعدة للدفاع والقتال من اجل ذلك . واذا كان خالد يريد اية واحدة من هذه القلاع ، كان عليه ان يحارب من اجل ذلك .

وكانت كل قلعة من القلاع الاربع تشتمل على قصر يعيش فيه قائد القلعة ، وكانت كل قلعة تسمى باسم القصر الموجود فيها . وهذه القلاع هي : القصر الابيض وفيه إياس بن قبيصة (ملك العراق) ، وقصر العَدَسيّين وفيه عدي بن عدي ، وقصر بني مازن وفيه ابن أكال ، وقصر ابن بقيلة وفيه عمرو ابن عبد المسيح .

فارســل خالد جزءا مــن جيشه ضد كل قلعة من القلاع بإمرة قائد

(١) لم يبق اي اثر لمدينة الخورنق سوى رابية تبعد ٦٠٠ ياردة الى الغرب من طريق النجف .

مرؤوس . وهؤلاء القادة الذين حاصروا القلاع هم ، حسب الترتيب الـذي ذكرت فيه القلاع آنفا : ضرار بن الازور ، وضرار بن الخطاب (لا يمت بصلة القرابة الى عمر) ، وضرار بن المقرن ، والمثنى . واصدر خالد اوامره الـى هؤلاء لكي يهاجموا القلاع ، ولكن قبل ان ينفذوا ذلك عليهم ان يعرضوا على حاميات القلاع ان يختاروا واحدة من ثلاث : الدخول في الاسلام ، او دفع الجزية ، او القتال ، وان يعطوهم مهلة يوم واحد للتفكير بالامر . وتحرك القادة مع قواتهم وحاصروا القلاع . وابلغوا الحاميات بالانذار . ولكن في اليوم التالي ، رفض العرب النصارى الانذار وبدات الاعمال القتالية .

وكان ضرار بن الازور اول من شن هجومه ضد القصر الابيض . ووقف المدافعون على فتحات القلعة ، وبدؤوا باطلاق السهام على المسلمين،واستخدموا المنجنيق لقذف كرات من الطين على المهاجمين . فقرر ضرار تدمير المنجنيق . فشق طريقه الى الأمام مع مجموعة مختارة من رماة السهام ، وعندما أصبح المنجنيق في مدى رمي السهام ، امر ضرار برمي رشقة من السهام دفعة واحدة على سدنة المنجنيق فقتلوا جميعا ، بالاضافة الى عدد كبير من رماة العدو ايضا . وانسحب الباقون بسرعة من فتحات القلعة .

وحدث تبادل في رمي السهام في القلاع الاخرى ، ولم يكن يوجد في هذه القلاع المنجنيق . ولم يمض وقت طويل حتى طلب زعماء القـلاع الاربـع شروط المسلمين . واتفقوا على ارسال رجل منهم ليتحدث باسمهم جميعا مع خالد . وكان هذا الرجل هو زعيم قصر ابن بقيلة ، عمرو بن عبد المسيح .

خرج عمرو بن عبد المسيح من قلعته وسار باتجاه المسلمين . وسار ببطء شديد لانه كان رجلا طاعنا في السن ، « وكان حاجباه يتدليان فـوق عينيه»[1] .

كان عمرو بن عبد المسيح من اشهر ابناء عرب العراق في زمانه . وكـان اميرا ومعروفا برجاحة رأيه ، وكان يتمتع بسلطة رسمية منحه اياها البلاط

(١) ابو يوسف ، صفحة ١٤٣ .

الفارسي ، لكنه كان محترما من قبل العرب العراقيين وكان ذا نفوذ كبير في شؤونهم . وكان يتصف بروح المرح والفكاهة . واصبح شخصية مرموقة في اوائل ايام انوشروان العادل . وعندما قابل عمرو بن عبد المسيح انوشروان قبل وفاة الاخير ، حذره عمرو بن عبد المسيح من ان امبراطوريته ستؤول الى الانحطاط بعد موته .

اقترب هذا الرجل الحكيم من خالد . وعندما توقف ، جرى حوار بينه وبين خالد وهو يعتبر اغرب حوار جرى تسجيله من قبل المؤرخين . فقال له خالد : كم اتت عليك ؟ » فقال عمرو : « مائتي سنة » ، فقال خالد :« فما اعجب مارايت ؟ » ، قال عمرو : « رايت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المراة من الحيرة فلا تزود الا رغيفا » .

كان عمرو يشير الى النظام الذي لا مثيل له في زمن انوشروان . لكن خالدا لم يفطن الى المعنى الذي يقصده عمرو ، وقال في نفسه لا بد ان يكون الرجل قد خرف . ثم قال خالد : « هل لك من شيخك الا عقلة خرفت والله يا عمرو » . ثم اقبل على أهل الحيرة فقال : « ألم يبلغني انكم خَبَثة خَدَعة مَكَرَة فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء » . فتجاهل له عمرو واحب ان يريه من نفسه ما يعرف به عقله ويستدل به على صحة ما حدثه به . فقال : « وحقك ايها الامير اني لاعرف من اين جئت » .

فقال خالد : « فمن اين جئت ؟ »
قال عمرو : « اقترَبَ أم ابعَدَ ؟ » .
قال خالد : « ما شئت » .
قال عمرو : « من بطن امي » .
قال خالد : « فأين تريد ؟ »
قال عمرو : « أمامي » .
قال خالد : « وما هو ؟ »
قال عمرو : « الآخرة » .
قال خالد : « فمن اين اقصي اثرك ؟ »

قال عمرو : « من صلب أبي » .

قال خالد : « ففيم أنت ؟ »

قال عمرو : « في ثيابي »

قال خالد : « اتعقل ؟ »

قال عمرو : « أي والله واقيد » .

فأخذ خالد يتمتم : « قَتَلَتْ أرضٌ جاهلَها ، وقَتَلَ أرضاً عالمها . والقوم اعلم بما فيهم » .

فقال عمرو : « ايها الأمير ، النملة اعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة . »

ادرك خالدٌ انه امام رجل غير عادي . فكل كلمة قالها عمرو كانت في محلها ، وكل إجابة لها معنى وفكاهة . وكانت نبرة خالد تنم عن الاحترام الزائد عندما قال لعمرو : « اخبرني بما تتذكر » . فأمعن عمرو بالتفكير ، واخذ ينظر باهتمام الى أبراج القلاع المنتشرة في المدينة امامه ثم قال : « انني أذكر عندما ابحرت سفن الصين خلف هذه القلاع » . وكان يشير بذلك الى العصر الذهبي لأنوشروان .

انتهى الحديث الجانبي ، وانتقل خالد الى صلب الموضوع فقال : « اني ادعوكم الى الله والى الاسلام . فان قبلتم ان تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا . واذا ابيتم فالجزية ، واذا رفضتم دفع الجزية ، فانني والله قد اتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة » .

فأجاب عمرو : « ليست لدينا رغبة في قتالكم ، وسنبقى على ديننا . وسنعطيكم الجزية » .

وانتهت المحادثات . وتم التوصل الى اتفاقية . واوشك خالد ان يطرد الرجل عندما لاحظ كيسا صغيرا يتدلى من نطاق خادمٍ مرافقٍ لعمرو وقد وقف على بعد بضع خطوات خلفه . فمشى خالد الى الخادم ، وخطف الكيس وافرغه في راحة يده . فسأل عَمْراً : « ما هذا يا عمرو ؟ »

فقال عمرو : هذا وامانة الله سم" ساعة » .

فقال خالد : « ولم تحتقب السم" ؟ »

فقال عمرو : خشيت أن تكونوا على غير ما رايت وقد اتيت على اجلي والموت أحب" الي" من مكروه ادخله على قومي واهل قريتي . »[1]

وفي نهاية أيار عام ٦٣٣ م (منتصف ربيع الأول ، عام ١٢ هجري) كتبت شروط الاستسلام . ووقّع الاتفاق . وفتَحت القلاعُ أبوابها وعاد السلام إلى الحيرة . وقد تم تحقيق المهمة التي أعطيت من قبل الخليفة بعد اربعة معارك دموية وعدة اشتباكات صغيرة . وصلّى خالد صلاة الفتح ثماني ركعات .

ووفقاً للاتفاقية ، كان على اهل الحيرة أن يدفعوا الى الدولة الاسلامية مائة وتسعين ألف درهم كل عام . وكانت الاتفاقية تتضمن بعض المواد الاضافية منها : « على أهل الحيرة أن يعملوا كعيون وادلاء للمسلمين » . وهنالك المادة الخاصة بأميرة عربية .

في أحد الأيام كان النبي الكريم جالساً مع بعض أصحابه ، وكانوا يتحدثون بشتى المواضيع . ثم تطر"ق الحديث الى البلدان الاجنبية ، فذكر النبي أن المسلمين سيفتحون الحيرة . وكان هنالك رجل مسلم ، بسيط ، غير متعلم ، سمع رسول الله يذكر فتح الحيرة ، وكان هذا الرجل يدعى « شويل »[2] . فقال للرسول : « يا رسول الله ؛ اذا فتحنا الحيرة ، هل تعطيني كرامة بنت عبد المسيح ؟ »

كانت كرامة ، ابنة عبد المسيح ، اميرة" . وكان سكان الجزيرة العربية قد سمعوا بجمالها الأخاذ ، وكانت اجمل امراة موجودة في الحيرة . فابتسم الرسول وقال : « هي لك . »[3]

والآن تم فتح الحيرة . وعندما جاء جنود خالد ليستمعوا الى محادثاته

(١) ان هذا الحوار مأخوذ عن البلاذري صفحة ٢٤٤ ، والطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٤ ــ ٥٦٦ .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

مع عمرو بن عبد المسيح ، والتحضيرات لكتابة شروط الاستسلام ، اقترب شويل ، الذي كان يعمل خادماً لدى خالد ، من سيف الله . وقال لخالد : « أيها الأمير ، عندما تستسلم الحيرة هل بامكاني أن آخذ كرامة بنت عبد المسيح ؟ لقد وعدني بها رسول الله . »

وجد خالد ان من الصعب عليه أن يصدق ان النبي قد وعد باعطاء أميرة من بيت عبد المسيح الى هـذا الرجل البسيط . فقال خالد : « هل لديك شهود ؟ » فقال شويل : « نعم والله » . واحضر شويل شهوده الذين أيدوا كلامه . عندئذ اضاف خالد هذه النقطة كمادة في الاتفاقية : وتُعطى « كرامة » بنت عبد المسيح الى شويل .

فبكت نساءُ بيت عبد المسيح عندما سمعن بذلك النبأ . فكيف يمكن لأميرة عاشت طيلة حياتها في سُؤدد ورفاهية أن تُعطى لأعرابي بسيط يعيش في الصحراء . ومما جعل الأمر مضحكا ان « كرامة » كانت تبلغ الثمانين من عمرها . لقد كانت في يوم ما أجمل بنات زمانها ، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد .

ووجدت الأميرةُ نفسُها الحلّ . فقالت : « خذوني اليه . فان هـذا رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن ان الشباب يدوم » [(1)] . ثم غادرت قصر ابن بقيلة وبصحبتها خادمة .

وكان شويل ينتظر جائزته ، وهو غارق في أحلامه الجميلة . فجاءت كرامة ووقفت أمامه . وعندما نظر شويل الى تجاعيد وجهها ، اصيب بالذهول وعلَتْ وجهه أمارات الكآبة . وظل صامتاً حيث خانه الكلام .

فكسرت الأميرةُ الصمت حيث قالت : « ما أربُك الى عجوزٍ كما ترى ؟ فدعني أرحل . »

ووجد شويل أن الفرصة سانحة الآن لكي تدفع له ثمن حريتها . فاجابها : « لا إلا على حكمي » . فقالت : « لك حكمك مرْسَلاً » . فقال : « لست لأم شويل إن نقصتُكِ من الف درهم . » فاستكثرت العجوزُ ذلك لتخدعه . ثم

---

(1) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

دفعت اليه المبلغ في الحال ورجعت الى اهلها . فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال : « ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف . »

وعندما سمع خالد بذلك ضحك وقال : « يريد المرءُ امراً ، ولكن الله يريد غيره » [1] .

ولما تم لخالد فتح الحيرة ، انصرف الى اخضاع اجزاءٍ أخرى من العراق ، مبتدئاً بالأقاليم القريبة اليه . فكتب الرسائل الشخصية الى رؤساء الاقاليم وكبار المسؤولين فيها ، وطلب منهم أن يختاروا واحدة من ثلاث : الدخول في الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو السيف . فاختارت جميع الأقاليم المجاورة للحيرة دفع الجزية والعيش تحت حماية المسلمين . وكتبت العهود والاتفاقيات بشأن ذلك ، وشهد على هذه الاتفاقيات العديد من أمراء المسلمين ، ومن بينهم هشام ، شقيق خالد ، الذي قاتل في هذه الحملة تحت إمرة اخيه .

في أثناء ذلك ، كانت احوال الفُرس تسير من سيء الى أسوأ . حيث انقسموا على انفسهم بشأن مسألة وراثة العرش . لقد كان الفُرس متحدين لمواجهة خالد ، لكن هذه الوحدة كانت عقيمة ، ولم تؤد الى نتائج ايجابية . تسلم « بَهْمَنْ » منصب القائد العام في الوقت الذي كان فيه الجيش الفارسي في حالة يرثى لها من الفوضى ، فعمل بكل طاقته لتنظيم الدفاع عن « كتِيسفون » ضد هجوم اسلامي كان متأكداً من انه سيحدث . ولم يكن بهمن يطمح بشيء سوى الدفاع عن كتِيسفون ؛ وكان واقعياً بذلك ؛ لأن الفُرس لم يكونوا يسيطرون على باقي المنطقة الواقعة غرب دجلة الأسفل .

وكانت خيل العرب تسيطر على هذه المنطقة . كما أن خالداً كان يعلم ، بعد أن دحر أربعة جيوش فارسية كبيرة ، بأنه لم يعُد هناك تهديد بشن هجوم معاكس من كتِيسفون ، وان بامكانه أن يغامر في الهجوم على أواسط العراق بقوة . وجعل الحيرة قاعدة لعملياته وقذف بخيالته عبر الفرات . وانطلقت هذه القوات الراكبة الى أواسط العراق حتى دجلة ، واخذت تقتل أولئك الذين أبدوا مقاومة في وجهها ، وعقدت الاتفاقيات مع الذين قبلوا بدفع الجزية.

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٩ .

وأسند خالد إمرة هذه القوات السريعة الى أكفأ أمرائه وهم : ضرار بن الأزور ، والقعقاع ، والمثنى . وبنهاية حزيران عام ٦٣٣ (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) أصبحت المنطقة الواقعة بين النهرين خاضعة له . ولم يكن هنالك من يتحدى سلطاته السياسية والعسكرية .

كان خالد ينظم إدارة الأراضي التي يُخضعها جنباً الى جنب مع الفتوحات العسكرية . وعيَّن موظفين في جميع المناطق لمراقبة دفع الجزية وللتأكد من أن السكان يزودون المسلمين بالمعلومات عن تحركات جيوش الفُرس. كذلك أرسل خالد كتابين الى كتِيسفون ، واحد للخاصة وواحد للعامة . وكان نصّ الكتاب الموجّه الى البلاط الفارسي كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . أما بعد ، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم ووهَّن كيدكم وفرّق كلمتكم . ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرّاً لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. »[1] .

وكان الكتاب الموجّه الى العامّة مماثل تقريباً للكتاب الموجّه الى الخاصّة ، مع اضافة وعد بأن يقوم المسلمون بحمايتهم لقاء دفعهم الجزية . وقد حُمل الكتابان من قبل سكان الحيرة العرب الى كتِيسفون . ولم يرد الجواب على الكتابين .

* * *

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٢



الأنبار وعين التمر

أصبح الجزء الاوسط من العراق الواقع بين الفرات ودجلة ، تحت سيطرة العرب المسلمين . كما ان عدم نشاط الفرس اكد اعتقاد خالد بان كتسفون لم تعد بوضع يسمح لها التدخل في عملياته ، او ان تشكل تهديدا لقاعدته في الحيرة او خطوط مواصلاته مع الصحراء . وهنا وجه خالد اهتمامه نحو الشمال ، حيث لم تصل قواته الى تلك المنطقة بعد . وكان هنالك مدينتان من المحتمل ان تقاوما خالدا ، وهاتان المدينتان هما : الانبار ، وعين التمر ، وكان يدافع عن كليهما حامية لا بأس بها من الفرس ومن العرب الذين يقاومون زحف المسلمين . وكان يحكم المدينتين أمراء من الفرس . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

قرر خالد ان يستولي على الانبار اولا . وكانت الانبار مدينة قديمة محصنة ومركزا تجاريا تأتي اليه قوافل التجارة من بلاد الشام وبلاد فارس . كذلك كانت شهيرة ايضا بمخازن الغلال الكبيرة . وفي نهاية حزيران عام ٦٣٣ م (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) ، سار خالد من الحيرة بنصف جيشه (حوالي تسعة آلاف رجل) ، وترك وراءه حامية قوية في الحيرة وعدة مفارز من الجند في اواسط العراق . وتحرك على امتداد الضفة الغربية لنهر الفرات، واجتاز النهر في مكان ما قرب الانبار . وبعد ان سارت عناصر كشافته شرقا لكي تجعل طرق الاقتراب من كتسفون تحت المراقبة ، حرك جيشه الى الانبار وفرض الحصار على المدينة . ووجد المسلمون ان المدينة ، بالاضافة الى الاسوار المحيطة بها ، محصنة بخندق عميق مليء بالماء . وكان هذا الخندق ضمن المدى الفعال لرمي السهام بحيث ان اية محاولة لاجتيازه تكون عرضة للرمي المؤثر

من النبالة الموجودين على الاسوار . وعندما أقترب المسلمون من المدينة دمرت الجسور التي فوق الخندق[1] .

كانت الانبار هي المدينة الرئيسية في ولاية « ساباط » ، التي تقع بين النهرين غربي كتسفون . وكان حاكم ساباط يسكن في الانبار ، وكان هذا الحاكم، واسمه « شيرزاذ » ، مشهورا بالذكاء والثقافة اكثر من شهرتـه بالكفاءة العسكرية . وكان على شيرزاذ ان يقوم الآن بمهمة الدفاع عن الحصن ضد جيش المسلمين بالقوات المتوفرة تحت قيادته وهي الحامية الفارسية وعدد كبـير من العرب الذين لا يثق فيهم كثيرا على ما يبدو .

في اليوم التالي لوصول خالد ، قام بجولة حول الحصن لتفحص دفاعاته . فوجد على قمة السور آلافا من الفرس والعرب يقفون حول السور بدون مبالاة وهم ينظرون الى المسلمين وكأنهم يشاهدون احدى المباريات . فقال خالد عندما رأى هذا المنظر : « اني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب »[2] .

جمع خالد الف نبال ، من احسن رماته ، وشرح لهم خطته : عليهم ان يتقدموا بحرص الى طرف الخندق وأقواسهم جاهزة للرمي ، دون ان يضعوا فيها السهام . وعندما يعطي خالد الاشارة عليهم ان يضعوا السهام بالأقواس بسرعة ثم يرموا الرشقة تلو الرشقة على حامية الحصن . وقال لهم خالـد : « فأرموا عيونهم ولا توخوا غيرها »[3] .

وتحركت مفرزة النبالة باتجاه الحصن . وأخذ الفرس والعرب الواقفون على السور ينظرون الى النبالة باستغراب وماذا عساهم ان يفعلوا بعد ذلك ، وعندما وصل النبالة الى الخندق ، اعطى الامر ، فانطلق الـف سهم عبـر الخندق ، وتلا هذه الرشقة رشقات اخرى مـن السهـام . وفي غضون ثوان

(١) لا يوجد الآن من الانبار سوى بعض الروابي التي تقع على بعد ثلاثة أميال شمال غرب (الفلوجة) الحالية ، وحوالي ميل من الفرات . وبامكان المرء ان يلتقط الآن بعض قطع الفخار من الروابي التي تحتل مساحة نصف ميل مربع ، وحسب رواية ياقوت (الجزء الاول ، صفحة ٢٧٩)، فان الفرس يسمون هذه المدينة « فيروز سابور » .

(٢) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

(٣) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

فَقَىء للحامية الف عين . وتصايح اهل المدينة : « ذهبت عيون اهل الانبار » . فسميت تلك الواقعة بوقعة ذات العيون [1] .

عندما سمع شيرزاذ بما حل بالحامية ، عرض على خالد ان تستسلم الحامية وفق شروط معينة . لكن خالدا رفض العرض ، وقال يجب ان يتم الاستسلام بدون قيد أو شرط . فقرر شيرزاذ استمرار المقاومة .

وصمم خالد على مهاجمة الحصن . وكان لابد من تسلق الاسوار ، ولم يكن هذا العمل غاية في الصعوبة . وكانت المشكلة الرئيسية هي اختراق الخندق ، الذي كان عميقا وعريضا . ولم تكن القوارب متوفرة ، وكذلك المواد التي تصنع منها القوارب أو الطوافات ، كما ان عرب الصحراء كانوا يجهلون السباحة . فقرر خالد ان يضع جسرا من اللحم والعظم .

اختار خالد مكان الهجوم عند اضيق نقطة من الخندق ، وقرب البوابة الرئيسية للحصن . ووضع رماته بحيث يستطيعون الرمي على نبالة العدو الذين يواجهون مكان الهجوم ، كما أمر رماته بان يمنعوا نبالة العدو من الرمي على الخندق .

ثم أمر خالد بجمع ابل الجيش الضعيفة والكبيرة في السن . فنحرت هذه الإبل والقي بها في الخندق . وشكلت جثث الابل جسرا فوق مستوى سطح الماء الموجود في الخندق . بعد ذلك عبرت مجموعة من محاربي خالد فوق جثث الابل الى ما وراء الخندق .

وعندما استعد هؤلاء المحاربون للتسلق على السور ، فتحت بوابة الحصن وخرجت منها مجموعة من الفرس وبدات بمهاجمة المسلمين محاولة طردهم الى الخندق . ونشب قتال عنيف بينهم وبين المسلمين ، لكن المسلمين نجحوا في صد هذه الهجمة المعاكسة ، وانسحب الفرس بسرعة الى داخل الحصن واغلقوا البوابة خلفهم خشية دخول المسلمين الى الحصن من هذه البوابة . حدث هذا بينما كان رماة المسلمين يرمون سهامهم على الفرس وعلى العرب

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

الموجودين علـى السور منعهم من التدخل في عملية اقامة الجسر واختراق الخندق .

كان خالد على وشك ان يأمر بتسلق السور عندما ظهر مبعوث عند بوابة الحصن ارسله شيرزاد وقدم عرضا آخر من الحاكم : انه سيسلم الحصن اذا سمح له المسلمون بمغادرته بأمان هو وجنوده الفرس . فالقى خالد نظرة اخرى على السور . فرأى ان تسلق السور ، والقتال بعد ذلك داخل الحصن ، ليس امراً سهلاً . فأخبر خالد المبعوث بانه يوافق على شروط شيرزاد شريطة ان يترك الفرس جميع ممتلكاتهم .

فَسُرَّ شيرزاد بالسماح له بمغادرة المدينة ، وقبل بشروط خالد . وفي اليوم التالي غادر الجنود الفرس وعائلاتهم الى كتسفون ، ودخل المسلمون الحصن . والقى العرب النصارى اسلحتهم ووافقوا على دفع الجزية . حدث هذا في الاسبوع الثاني من تموز عام ٦٣٣ م (نهاية ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري). وفي الايام القليلة التالية استسلمت جميع القبائل التي تسكن في منطقة الانبار .

وغادر شيرزاد مع الحامية الفارسية الى كتسفون ، حيث لامه بهمن بشدة . فوضع شيرزاد اللوم على جنوده ، شأنه شأن كل قائد فاشل ، ولكنه في هذه المرة وضع اللوم على الجنود من العرب النصارى .

ولما فرغ خالد من الانبار واستحكمت له استخلف على الانبار الزبرقان بن بدر ، وانطلق مرة اخرى بجيشه. واجتاز نهر الفرات مرة ثانية وسار جنوبا. وعندما اقترب من « عين التمر »[1] ، وجد جيشا عربيا صرفا منتشرا بترتيب القتال في طريق تقدمه .

كانت عين التمر مدينة كبيرة محاطة بأشجار النخيل ، ويعتقد انها سميت باسمها لهذا السبب . وكانت حامية هذه المدينة تتكون من الجنود الفرس والعرب النصارى ، لذلك كانت في مركز اقوى من الانبار لمقاومة تقدم خالد . وكان القائد الفارسي لعين التمر يدعى «مهران بن بهرام جوبين» ، وكان،بالاضافة

(١) بلدة قريبة من الانبار غرب الكوفة .

الى كونه قائداً ماهراً ، سياسياً محنكاً . كانت حامية عين التمر الفارسية كبيرة ، وكان العرب هناك ينتمون الى قبيلة النمر شديدة البأس . وكانت هنالك قبائل اخرى من العرب النصارى الذين انضموا الى قبيلة النمر لتشكيل جبهة متحدة ضد المسلمين . وكان قائد جميع القبائل العربية « عقة بن أبي عقة » .

وعندما جاءت كشافة العرب بأنباء تقدم المسلمين من الانبار باتجاه عين التمر ، ذهب عقة الى القائد الفارسي وقال له : « ان العرب اعلم بقتال العرب فدعنا وخالدا » .

فوافق مهران وقال : « صدقت لعمري لانتم اعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا في قتال العجم » [1] فخدع عقة بمديح مهران . ثم قال مهران : « دونكموهم وان احتجتم الينا اعناكم » [2] .

وكان يوجد عدد من قادة الفرس قرب مهران اثناء حديثه مع عقة . فلما مضى عقه نحو خالد قالوا له : « ما حملك على ان تقول هذا القول ؟ » فقال مهران « دعوني ، فاني لم ارد الا ما هو خير لكم وشر لهم ، انه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم ، فاتّقَيْتُه بهم ، فان كانت لهم على خالد فهي لكم ، وان كانت الاخرى فلم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن اقوياء وهم مضعفون » [3] . فاعترفوا له بفضل الراي .

وبقي الفرس في عين التمر بينما تحرك العرب مسافة عشرة اميال على الطريق المؤدي الى الانبار . وهنا نشر عقّة جيشه العربي للمعركة .

وعندما وصل خالد ليواجه عقّه ، دهش ليجد قوة عربية صرفة منتشرة امامه ، فجميع المعارك التي خاضها في العراق كانت ضد قوات مشتركة من الفرس والعرب . وعلى كل الاحوال ، فتح خالد جيشه للقتال متخذا ترتيب القلب والجناحين واتخذ لنفسه مكانا امام القلب ، وكان بصحبته مفرزة قوية

(١) الطبري – الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ .
(٢) الطبري – الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦
(٣) الطبري – الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

من الحرس الخاص . وكان عقته يقف امام قلب جيشه . فقرر خالد أن يأخذ عقته حياً .

عندما كان خالد ينشر قواته في ترتيب القتال ، اصدر تعليماته الى قائدي الجناحين ان يشتبكا مع جناحي العدو عند صدور اشارة منه ، دون ان يدخلا معركة عنيفة ، بشكل يكفل تثبيتهما ريثما يشن هجومه بواسطة القلب . واعطى خالد الاشارة ، وتقدم جناحا المسلمين الى الامام واشتبكا مع جناحي العدو . واستمر الاشتباك بين الاجنحة لبعض الوقت . وظل عقة حائراً بسبب عدم هجوم قلب المسلمين . ثم هجم خالد على عقة يتبعه حرسه الخاص.

اشتبك حرس خالد الخاص بالمحاربين الذين وقفوا بالقرب من عقه ، بينما بدأ خالد وعقة بالمبارزة . وكان عقة شجاعا ومقاتلا ماهراً ؛ ولكن خالد تمكن من احتضانه واخذه اسيرا . وعندما وجد الجنود العرب قائدهم أسيرا ، استسلم الكثيرون منهم ، وفر الباقون بسرعة الى عين التمر .

وعندما وصل العرب الى الحصن وجدوه خاليا من الفرس . لقد ارسل مهران بعض الكشافة ليراقبوا المعركة ويبلغوه تفاصيلها . وعندما شاهد الكشافة العرب الفارين أمام خالد ، عادوا بسرعة الى مهران واخبروه بهزيمة العرب . وبدون ان يضيع دقيقة من الوقت ، قاد مهران جيشه من عين التمر الى كتسفون . وعندما اكتشف العرب الموالون للفرس ان الفرس قد اخلوا المدينة ، اندفعوا الى داخلها واغلقوا ابوابها ، واستعدوا للحصار .

ووصل المسلمون وحاصروا الحصن . وجلب عقة وباقي الأسرى واقتيدوا امام الحصن لكي يرى المدافعون قائدهم وزملاءهم مكبلين بالحديد . وقد اثر هذا المشهد على المدافعين وطلبوا التسليم بشروط ، لكن خالدا رفض طلبهم . وقال يجب ان يستسلموا بدون قيد او شرط . فتشاور ذوو الرأي من العرب فيما بينهم لفترة قصيرة ، ثم قرروا ان التسليم بدون قيد او شرط خير من مغامرة القتال ، لان حظهم في البقاء على قيد الحياة اذا اختاروا القتال غير مضمون . وفي نهاية تموز عام ٦٣٣ م (منتصف جمادى الاولى — عام ١٢ هجري) استسلم المدافعون عن « عين التمر » الى خالد .

وبناء على اوامر خالد ، فقد ضربت اعناق المحاربين الذين دافعوا عن الحصن ، واولئك الذين حاربوا المسلمين في الطريق الى الانبار [1] . وكان من بين هؤلاء الزعيم عقة بن ابي عقة . اما الباقون فقد اعتبروا اسرى ، وتم الاستيلاء على ثروات عين التمر حيث وزعت كغنائم حرب .

وفي عين التمر وجد المسلمون أربعين غلاما في دير - وهم من العرب النصارى - كانوا يتعلمون الانجيل لكي يصبحوا من رجال الكهنوت . وقد اخذوا اسرى . وكان من بين هؤلاء غلام يدعى نصير ، هو ابو البطل الفاتح موسى بن‌نصير ، واصبح موسى شهيرا كحاكم لشمال افريقية ، وهو الذي ارسل طارق بن زياد لفتح اسبانيا .

بعد ان قضى خالد بضعة ايام في التنظيم وفي الامور الادارية ، استعد للعودة الى الحيرة . وكان على وشك الرحيل عندما تسلم طلبا للمساعدة من شمال الجزيرة العربية . وبعد دراسة قصيرة لهذا الطلب ، غير خالد اتجاه سيره واعطى لرجاله اتجاها جديدا - هو « دومة الجندل » .

* * *

(1) الطبري - الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧

دومة الجندل مرّة أخرى[1]

كانت دومة الجندل إحدى المدن التجارية الكبيرة في الجزيرة العربية ، وهي مشهورة بأسواقها الغنية . كذلك كانت مركزا هاما للمواصلات ، ونقطة التقاء الطرق القادمة من اواسط الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام . لقد وصفتُ في القسم الاول من هذا الكتاب كيف جاء خالد الى دومة الجندل اثناء حملة النبي الى تبوك واسَرَ اكيدر بن عبد الملك ، قائد الحصن . ثم كيف اعلن اكيدر خضوعه واقسم يمين الولاء للنبي ، ولكن بعد عمليات عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في حرب الردّة ، نكث أكيدر بوعده وقرر الانفصال عن المدينة . واصبح حاكماً على ولاية من النصارى والوثنيين .

وفي الوقت الذي انطلق فيه خالد من اليمامة لفتح العراق ، ارسل ابو بكر عِياض بن غَنْم للاستيلاء على دومة الجندل واعادة القبائل الشمالية الى ولائها السابق للاسلام . ومن المحتمل ان الخليفة كان ينوي ارسال عياض الى العراق ، لمعاونة خالد ، بعد الانتهاء من مهمته . وعندما وصل عياض الى دومة الجندل وجدها محصنة ومحمية بأفراد قبيلة « كَلْب » ، وهي قبيلة كبيرة من العرب النصارى تقطن هذه المنطقة والطرف الشرقي من بلاد الشام . ففتح قواته ونشرها في مواجهة الجهة الجنوبية من الحصن ، وكان الموقف من وجهة النظر العسكرية غير مقبول . فالعرب النصارى اعتبروا انفسهم محاصَرين ، لكن الطرق من الجانب الشمالي للحصن كانت مفتوحة . واشتبك المسلمون مع الحصن من مسافة قريبة واعتبروا انفسهم متورطين ولا يمكنهم كسر التماس والتملص . وطبقا لروايات المؤرخين الاوائل كان كلا

الجانبين محاصرا . وكانت العمليات مقتصرة على رمايات النبالة وهجمات حامية الحصن التي امكن صدّها من قبل المسلمين . واستمر هذا الوضع عدة اسابيع وشعر كلا الجانبين بالتعب والملل من جرّاء هذا الجمود .

وفي احد الايام قال الوليد بن عقبة ــ الذي ارسله أبو بكر لمعاونة عياض بن غَنْم ــ الى عياض : « الراي في بعض الحالات خير من الجند الكثيف ، ابعث الى خالد فاستمده » [1] . وقبل عياض مشورة الوليد فبعث يستنجد بخالد، فكتب اليه رسالة يشرح فيها الموقف في دومة الجندل ويطلب مساعدته . ووصلت الرسالةُ الى خالد وهو على وشك مغادرة عين التمر الى الحيرة .

لم يطُل التفكير بخالد . فالموقف على الجبهة العراقية مستقراً ، ولديه قادة اكفاء يستطيعون التعامل مع الفُرس اذا ما فكروا بشن هجوم معاكس من كتيسفون . وارسل رسالة الى القعقاع في الحيرة يطلب منه ان يتصرف كنائبٍ له وان يقود الجبهة اثناء غيابه . وترك حاميةً في عين التمر . ثم غادر عين التمر في اليوم التالي على راس جيشٍ مؤلف من ستة آلاف رجل للالتحاق بعياض . وارسل امامه مبعوثُ عياض وحمّله رسالةً الى عياض يقول فيها :

« لبّثْ قليلاً تأتك الحلائبْ [2]
يحملْنَ آساداً عليها القاشبْ [3]
كتائب تتبعها كتائبْ »

وقد اكتُشف تحركُ خالد من قبل المدافعين عن دُومة الجندل قبل وصوله بعدة ايام ، واتخذت الاستعدادات داخل الحصن . وهم يستطيعون صدّ قوة المسلمين التي يقودها عياض بقوتهم الحالية ، ولكنهم لايستطيعون ذلك اذا اشترك جيش خالد في قتالهم . وعلى الفور بدؤوا بارسال المبعوثين الى القبائل المجاورة طلباً للنجدة . فاستجابت قبائل العرب النصارى بحماس

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .
(٢) الحلائب = جمع حلوبة وهي الناقة المحلوبة اللبن ــ المترجم .
(٣) القاشب = السيف الصقيل المجلو ــ المترجم .

الى طلب المساعدة . وبدأ المقاتلون يتوافدون من بطون قبيلتي غسان وكَلْب للانضمام الى المدافعين عن الحصن ، وعسكر الكثيرون منهم خارج أسوار الحصن بسبب اكتظاظ الحصن بالمقاتلين . واصبح عياض نتيجةً لذلك في موقف حرج ، واخذ يدعو الله كي يصل خالد بسرعة .

وكان يقود قوات العرب النصارى زعيمان كبيران هما : الجُودي بن ربيعة ، وأُكيدر بن عبد الملك . وكان الزعيم الوحيد الذي لديه تجربة في التعامل مع خالد هو أُكيدر ، وقد اصيب هذا الرجل بالتوعك بمجرد سماعه انباء تحرك خالد من عين التمر . وعندما تجمعت القبائل في دومة الجندل ، دعا أُكيدر زعماء هذه القبائل الى اجتماع وقال لهم : « انا اعلم الناس بخالد ، لا احد اينمَنْ طائراً منه ، ولا أحدٌ في حرب ، ولا يرى قومٌ وجه خالد قلوا او كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم » [1] .

لكنهم استنكروا نصيحته وصمموا على قتال خالد . وعلى كل الاحوال ، فان اكيدر فقد أعصابه تماما . فهو لايستطيع ان يواجه سيف الله مرة أخرى ، وفي احدى الليالي تسلل من الحصن وانطلق على الطريق المؤدي الى الاردن . ولكن الاوان كان قد فات . فجيش خالد وصل لتوّه واعترضته احدى مفارز الخيالة بإمرة عاصم بن عمرو وأسَرَتْهُ .

ووقف أُكيدر أمام خالد مرة اخرى . لقد كان يأمل ان تثير ذكرياتُ المقابلة السابقة مع خالد والتي انتهت الى سلام الرحمةَ في قلب خالد الا أن ظنه قد خاب . فالموقف في ذهن خالد كان واضحا تماما : لقد نقض أُكيدر العهد ، وثار على الخليفة . فأمر خالد بضرب عنقه ، ونفذ الامر بدون إبطاء . وهذه كانت نهاية أُكيدر بن عبد الملك ، امير كندة ، وسيّد دومة الجندل .

وفي اليوم التالي وضع خالدٌ عياضَ تحت إمرته وضم قوته الى جيشه . ونشر رجال عياض جنوب الحصن لاغلاق طريق الجزيرة العربية ؛ ووضع

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .

جزءا من جيشه الذي كان في العراق الى الشرق ، والشمال ، والغرب من الحصن ، للسيطرة على الطرق المؤدية الى العراق والاردن ؛ واحتفظ بباقي جيشه كاحتياط قوي . قدّر خالد ان الحصن مدافع عنه بقوة والهجوم عليه سيكلف غاليا . لذلك قرر الانتظار على امل ان يقوم المدافعون بمهاجمته خارج الحصن بعد ان يملتوا من الحصار . وبهذه الحالة فانه سينزل بهم اقصى الخسائر وسيهاجم الحصن بعد ان تكون حاميته قد ضعفت . وبناء على ذلك وضع قواته خلف الحصن بمسافة .

وكان جميع جيش العرب النصارى قد اصبح تحت إمرة الجودي بن ربيعة بعد ان ترك اكيدر الحصن . وانتظر الجودي لكي يقوم المسلمون بالهجوم أولا ، لكن المسلمين ظلوا قابعين في اماكنهم . وبعد مرور بعض الوقت رأى الجودي ان المحاصِرين لايحاولون الهجوم على الحصن فنفذ صبره واراد ان يهاجم خالداً . لذلك امر بشن هجومين : الهجوم الاول تقوم به مجموعة ضد عياض على طريق الجزيرة العربية ، والثاني تقوم به قبيلته نفسها ، وهي قبيلة وديعة ، بإمرته مباشرة ضد معسكر خالد الى الشمال .

طرَد عياضُ العرب الذين خرجوا لمهاجمته . وبعد ان تركوا وراءهم كثيرا من القتلى ، عادوا بسرعة الى الحصن واغلقوا بابه . وكانت هذه المجموعة محظوظة . اذ كان عليها ان تواجه قائدا غير مجرب مثل عياض بن غنم وجنودا ليسوا من وزن جنود خالد المتمرسين على القتال .

وبنفس الوقت قامت المجموعة الاخرى ، وهي اكبر عددا وتتألف من قبيلة وديعة ، بقيادة الجودي بالتقدم نحو خالد ، الذي كان ناشرا قواته بترتيب القتال على مسافة خلف الحصن . وعندما رأى الجودي ان خالدا في مكانه لايتقدم ، تجرأ الجودي اكثر من ذي قبل ونشر مجموعته للمعركة وتقدم لملاقاة خالد . واقتربت القوتان من بعضهما كثيرا ، وتصوّر الجودي ان بامكانه دحر المسلمين من ساحة المعركة . وفجاة هجم خالد على الجودي بمنتهى العنف والسرعة .

لم يدرك العرب النصارى ما الذي اصابهم ؛ اذ في غضون دقائق انهارت قواتهم كبيت من الورق . واسر الجودي مع المئات من أبناء قبيلته ، بينما فرّ الباقون بفوضى وفزع نحو الحصن . ولم يكن المسلمون في حالة مطـاردة لانهم كانوا معهم ، وبينهم ، وامامهم ، وخلفهم . فاذا كان اول من وصـل الحصن هو عربي نصراني ، كان الثاني مسلما . وشاهد العرب الذين بقـوا في الحصن جنمعا غفيرا يتجه نحو باب الحصن ، نصفه على الاقل من المسلمين . فأغلقوا باب الحصن في وجه زملائهم ، وبقيت قبيلة وديعة التي هاجمت بإمرة الجودي خارج الحصن . وتم أسر المئات من قبل المسلمين ، وقتل الباقون إمـا اثناء المعركة القصيرة العنيفة او اثناء المطاردة حتى باب الحصن والقتال الذي جرى عنده . وتذكر العرب النصارى نصيحة اكيدر بمرارة . كان خالد كما قال اكيدر حقاً ؛ ولكن كان الاوان قد فات .

لقد تم انجاز الجزء الاول من خطة خالد . بعد ذلك حـرّك جيشه قريبا من الحصن لكي يجعل المدافعين يرون انه لاتوجد امكانية للهرب ، ثم طلب من الحامية ان تستسلم . لكن الحامية رفضت ذلك .

فأمر خالد بأن يجلب الجودي وباقي الاسرى من قبيلته لكي يراهـم المدافعون عن الحصن . ثم ضربت أعناقهم على مرأى من المدافعين . لكن ذلك لم يفت في سواعدهم فبدلا من كسر الروح المعنوية لهؤلاء ، كما كان يـأمل خالـد ، تصلب مدافعو دومـة الجندل في موقفهم وصمموا على القتـال حتى النهايـة .

واستمر الحصار عدة أيام . بعد ذلك هاجم خالد الحصن (التفاصيل غير معروفة) . وحاول المدافعون الصمود امام هذا الهجوم لكنهم فشلوا امـام قوات خالد المتمرسة في القتال . وذبح معظم الحامية ، لكن النساء والاطفال والكثير من الشبان اخذوا اسرى . حدث ذلك في حوالي الاسبوع الاخير من آب عام ٦٣٣ م (منتصف جمادى الآخرة ـ عام ١٢ هجري) .

قضى خالد الايام القليلة التالية في تدبير شؤون دومة الجندل . ثـم انطلق الى الحيرة ، واخذ معه عيـاض كقائد مرؤوس . لقـد عاد خالد الى العراق ليجد أن الموقف قد تغيّر نوعا ما ، لان الفُرس كانوا في طـريق الحرب مرة اخرى .

* * *

المعارضة الأخيرة

لم يكد خالد يذهب من عين التمر حتى وصلت أنباء مغادرته الى البلاط الفارسي . وكان يُعتقد بان خالدا قد عاد الى الجزيرة العربية بجزء كبير من جيشه ، وتنفست كتيسفون الصعداء . وبعد مرور بضعة أيام اجتاحت الفرس موجة من الغضب والرغبة في قذف المسلمين في الصحراء واستعادة الاراضي التي فتحوها والهيبة التي فقدتها الامبراطورية . وصمم الفرس على عدم محاربة خالد مرة اخرى ، ولكنهم كانوا مستعدين تماما لمحاربة المسلمين بدون خالد .

وبدا بَهْمَنْ بالعمل . وفي هذا الوقت نظّم جيشاً جديدا يتألف من بقايا « اليّس » ، ومن المقاتلين الذين سحبوا من الحاميات الموجودة في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، ومن مقاتلين جدد . وكان هذا الجيش الآن جاهزا للمعركة. وعلى اية حال ، فان وجود عدد كبير من المتطوعين الجدد في هذا الجيش جعله اقل كفاءة من الجيوش التي حاربها خالد جنوب نهر الفرات .

وقرر بَهْمن ان لا يزج هذا الجيش في المعركة قبل ان يتم تعزيزه بقوات العرب النصارى الكبيرة التي بقيت مخلصة للامبراطورية . لذلك بدأ بالتفاوض مع العرب .

فاستجاب العرب النصارى بترحيب وشوق الى طلبات البلاط الفارسي. فبالاضافة الى هزيمة عين التمر ، كان عرب هذه المنطقة يطلبون الثأر لمقتل زعيمهم الكبير « عقّة » . كذلك كانوا راغبين في استعادة الاراضي التي فقدوها، وفي اطلاق سراح زملائهم الذين تم أسرهم من قبل المسلمين . وبدأ عدد كبير من القبائل بالاستعداد للحرب .

قسم بَهْمَن القوات الفارسية الى جيشي ميدان وارسلهما من كْتِسِفون. فالجيش الاول الذي كان بقيادة « روزبة » تحرك الى الحصيد ، والجيش الثاني ، بإمرة « زرمهر » ، تحرك الى خنافس . وقد تم حشد هذين الجيشين في مكانين متباعدين من اجل سهولة الحركة والنواحي الادارية ، وكان عليهما ان لايتقدما من مكانيهما حتى يتم استعداد العرب النصارى للمعركة . وكانت خطة بَهْمن تقضي بان يحشد جميع الجيش الامبراطوري وينتظر هجوم المسلمين او يتحرك جنوبا لقتال المسلمين في الحيرة .

لكن العرب النصارى لم يكونوا مستعدين بعد . وكانوا منظمين في مجموعتين : الاولى بإمرة زعيم يدعى هذيل بن عمران وكانت تتجمع في المصيَّخ، والثانية بإمرة الزعيم ربيعة بن بجير وكانت تتجمع في مكانين قريبين من بعضهما البعض وهما : الثنيّ [1] ، والزُميل (وهذه تعرف ايضا باسم البَشَر [2]) .

وعندما تصبح هاتان المجموعتان جاهزتين تنضمان الى الفُرس حيث يشكلون معا جيشا واحدا كبيرا (انظر الخريطة رقم ١٤) .

وعندما كانت هذه الاستعدادات جارية ، اتخذ القعقاع ، قائد جبهة العراق اثناء غياب خالد ، اجراءات معاكسة . فسحب بعض المفارز التي ارسلها خالد عبر الفرات وحشدها في الحيرة . وارسل كتيبتين الى الامام : واحدة الى « الحصيد » ، والثانية الى « الخنافس » . وقد امر قائدا هاتين الكتيبتين بان يظلا بتماس مع قوات الفُرس في هذين المكانين ، وذلك لتأخير تقدم الفُرس في هذين المكانين ، في حال اتخاذهم قرارا وذلك بالزحف الى الامام ، ولجعل القعقاع على علم بقوة الفُرس وتحركاتهم . وتحركت هاتان الكتيبتان الى اهدافهما المحددة وحقّقتا التماس مع الفُرس . وفي اثناء ذلك ، احتفظ القعقاع بباقي الجيش في حالة الجاهزية للزج في المعركة .

هذا هو الموقف الذي واجه خالدا عند وصوله الى الحيرة في الاسبوع

---

(١) جبل في عرض الفرات من أرض الشام ـ المترجم .
(٢) جبل يمتدّ من الثنيّ ـ المترجم .

الخريطة رقم ١٤ - المعارضة الاخيرة



الرابع من ايلول عام ٦٣٣ (منتصف رجب ، عام ١٢ هجري) . ومن الممكن أن يكون الموقف خطيرا في حال نجاح القوات الامبراطورية الاربعة بتشكيل جيش واحد بهجوم على الحيرة . وان اية خطة يتبناها المسلمون ينبغي ان تستجيب لمطلبين استراتيجيين وهما :

١ ـ منع تجمع القوات الامبراطورية في جيش واحد كبير لايمكن قهره .

٢ ـ حماية الحيرة ضد العدو في قطاع واحد بينما يقوم المسلمون بعمليات ضد العدو في قطاع آخر .

قرّر خالد ان يخوض العملية بطريقة معينة أصبحت الآن مميزة له . فهو سيبدأ الاعمال الهجومية ويدمر كل قوة امبراطورية على حدة وفي مكانها . وبناء على الافكار الاستراتيجية التي كانت تدور بخلده ، قسّم حامية الحيرة الاسلامية الى مجموعتين : الاولى بإمرة القعقاع ، والثانيـة بإمرة ابي ليلى . وارسلهما خالد الى عين التمر حيث سيلتحق بهما بعد حين ، وبعد ان تكون القوات التي حاربت في دومة الجندل قد نالت قسطا من الراحة .

وبعد مضي بضعة أيام احتشد جميـع جيش المسلمين في عين التمر ، باستثناء حامية صغيرة تركت بقيادة عِياض بن غَنْم لحراسة الحيرة . ونظم الجيش الآن في ثلاثة الوية وكل لواء يتألف من خمسة آلاف رجل ، وتم الاحتفاظ بأحد هذه الالوية كاحتياط . وارسل خالد القعقاع الى الحصيد ، وابا ليلى الى الخنافس وأمرهما ان يدمرا جيشي الفرس في هذين المكانين . وكان على هذين القائدين ان يتوليا قيادة كتائب المسلمين المنتشرة مسبقا في القطاعات المخصصة لهما . وكانت نية خالد هي محاربة الجيشين الفارسيين بسرعة وبآن واحد ، بحيث لايستطيع ان يفلت أحد منهما ، بينما يكون الثاني يتمزق إربا . ولكن هذا لم يتم ، لان المسير الى الخنافس كان أطول منه الى الحصيد ، كما ان أبا ليلى قد فشل في تحريك قواته بالسرعة المطلوبة لكـي يعوض الفرق في المسافة . وفي غضون ذلك بقي خالد مع لوائه الاحتياطي في عين التمر للتعامل مع أية حركة هجومية قد توجه نحو الحيرة من الثني او الزُميل .

سار القعقاع الى الحصيد ، وتبعه ابو ليلى من عين التمر في طريقه الى الخنافس ، وتقدم كلاهما الى هدفيهما على طريقين منفصلين . وعندما اقترب القعقاع من هدفه ، طلب « روزبة » ، القائد الفارسي في الحصيد ، المساعدة من « زرمهر » ، القائد الفارسي في الخنافس . فلم يستطع زرمهر ان يرسل جيشه الى الحصيد ، لان عليه أن يستأذن بهمن قبل ان يحرك جيشه من الخنافس. لكنه ذهب الى الحصيد بنفسه ليرى الامور على الطبيعة ، ووصل في الوقت المناسب ليشترك في معركة الحصيد ، التي تم خوضها حوالي منتصف تشرين الاول عام ٦٣٣ م (الاسبوع الاول من شعبان ، عام ١٢ هجري) .

حالما وصل القعقاع الى الحصيد ، فتح لواءه للمعركة وهاجم به الجيش الفارسي ، الذي كان يفوقه عددا . وقد تم ذبح روزبة على يد القعقاع . وتقدم زرمهر أيضا الى الامام وطلب المبارزة ، فبارزه احد قادة المسلمين وقتله . لم يكن ينقص الفُرس الشجاعة ، ولكنهم مع ذلك هُزموا بواسطة القعقاع وطُردوا من ميدان المعركة . وتراجع الفُرس بسرعة الى الخنافس بعد ان تركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، حيث انضموا الى الجيش الفارسي الآخر ، الذي اصبح الآن تحت قيادة قائد آخر يدعى « مهبوزان » .

وصل جنود الفُرس الفارّون من الحصيد الى الخنافس قبل وصول لواء ابي ليلى بفترة قصيرة . وقد وصلت انباء اقتراب المسلمين . وكان مهبوزان قائدا حكيما ، واخذ درسا مستفادا من هزيمة الحصيد فقرر أن يتجنب الدخول في معركة مع المسلمين . وخرج من خنافس على الفور ، وسار الى المصيّخ حيث انضم الى قوات العرب النصارى المحتشدين بإمرة هذيل بن عمران . وعندما وصل ابو ليلى الى خنافس وجدها خالية من الفُرس . فاحتلّها وابلغ خالدا بذهاب الفُرس الى المصيّخ .

سمع خالد وهو في عين التمر انباء هزيمة الجيش الفارسي في الحصيد . ثم سمع بعد ذلك انباء تحرك جيش الفُرس الثاني ، مع بقايا الجيش الاول، من الخنافس الى المصيّخ . وقد ترك هذا التحركُ مدينة كتِسفون غير محمية ومعرّضة للهجوم ، على الرغم من وجود حامية فيها للدفاع المحلي . واصبحت المصيخ تضم الآن اقوى تحشد للقوات الفارسية . ومن جهة اخرى ، فان

تحشدات العرب النصارى في الثني والزُميل لم تعد تشكل تهديدا للحيرة ، فالنكسات التي حلّت بالفرس في الحصيد والخنافس سوف لا تشجع هؤلاء العرب على المغامرة والقيام بأعمال عدائية .

كان امام خالد الآن ان يختار هدفا من ثلاث : العاصمة الامبراطورية ، او الجيش الامبراطوري في المصيّخ ، او قوات العرب النصارى في الثنيّ والزُميل . لقد قدّر خالد إمكانية الهجوم على كتيسفون ، لكنه نبذ هذه الفكرة لسببين : الاول هو خشيته من استياء الخليفة لمهاجمة كتيسفون ، حسب رواية الطبري [1] . ويبدو ان ابا بكر لا يرغب في ذلك . والثاني ، وهو سبب عسكري صرف ، فان التقدم الى كتيسفون يجعل مجنبة خالد ومؤخرته معرضة لهجوم قوات الفرس الهائلة في المصيّخ . ومن الممكن ان تهاجم هذه القوات مؤخرته اثناء اشتباكه مع كتسفون ، أو ان تتقدم وتستولي على قاعدته في الحيرة ،وبذلك يتم قطع خطوط مواصلاته مع الصحراء .

اختار خالد من الهدفين الباقيين المصيّخ . لان الهدف الآخر كان صغيرا ومن الممكن التعامل معه فيما بعد بدون صعوبة . وقد تم تحديد مكان المعسكر الفارسي في المصيخ بدقة بواسطة عيون خالد ، ومن أجل التعامل مع هذا الهدف خطط خالد لتنفيذ مناورة من النادر ان ينفذ مثلها في التاريخ ، وهي صعبة من حيث السيطرة والتعاون ، وتتلخص هذه المناورة بشن هجوم في آن واحد ومن ثلاث اتجاهات ، ليلا .

واصدر خالد بادىء الامر اوامره من أجل التحرك . اذ على الالوية الثلاث ان تتقدم من اماكنها الحالية في الحصيد ، والخنافس ، وعين التمر ، على ثلاثة محاور منفصلة ومحدّدة مسبقا بين الفرات وطريق الثنيّ — **الزُميل**، ثم تلتقي في ليلة معينة وفي ساعة محدّدة في مكان يبعد بضعة أميال قبل المصيّخ . وتم تنفيذ هذا التحرك كما هو مخطط ، واحتشدت الالوية الثلاث في المكان المحدّد . ولا يمكن تنفيذ مثل هذه المناورة بتوقيتها الدقيق إلا من قبل جيش رفيع المستوى .

---

(١) لان مهمة خالد هي فتح العراق .

وهكذا تم تنفيذ هذه المناورة . فقد نام الفرس والعرب باطمئنان ، لان آخر التقارير افادت بان المسلمين ما زالوا على مسافة بعيدة ، ولا توجد ظواهر تدل على خطر هجوم مفاجىء . وكانت هذه هي آخر ليلة لهم في المصيّخ . فقد علم الجيشُ الامبراطوري بالهجوم فقط عندما انقضت ألوية المسلمين الثلاث على معسكر الفرس .

ودبّت الفوضى في صفوف الفرس وانتابهم الخوف والفزع وبدؤوا يتراكضون في ظلام الليل واختلط الحابل بالنابل . وذُبح الآلاف منهم . واخذ المسلمون يضربون بشدة للقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما كما قضوا على جيش « اندرزغر » في الولَجَة ، ومع ذلك فقد استطاع عدد كبير من الفرس والعرب ان يهربوا تحت جنح الظلام الذي ساعد على تحقيق المفاجأة .

وعندما أشرقت الشمس فوق الافق الشرقي لم يبق محارب من الجيش الامبراطوري على قيد الحياة في المصيّخ . ولا نعرف مصير القائد الفارسي مهبوزان ، لكن القائد العربي هُذيل بن عمران تمكن من الفرار والتحق بقوات العرب النصارى في الزُّميل .

حدث هذا الاشتباك في الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الرابع من شعبان عام ١٢ هجري) . لقد نجحت مناورة خالد ، وكان توقيتها صحيحا ودقيقا .

كان من بين العرب الذين فقدوا أرواحهم في المصيّخ اثنان من المسلمين. وهذان الرجلان كانا قد سافرا الى المدينة قبل فتح العراق بوقت قصير ، وقابلا ابا بكر ، واعتنقا الاسلام وعادا ليعيشا بين رجال قبيلتهم النصارى . وعندما سمعت المدينة بموت هذين المسلمين على ايدي جيش خالد ، هرع عمر الى الخليفة يشتكي ظلم خالد ، لكن ابا بكر قال لعمر : « كذلك يلقي من ساكنَ اهل الحرب في ديارهم [1] » . ومع ذلك ، فقد امر ابو بكر بدفع الدية لأسرتيهما . واما بالنسبة لخالد فقال ابو بكر : « لا اشيم سيفا سله الله على الكفّار » .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٨١

ومن المصيّخ أتجه خالد الى الثني ّ والزُميل . وكانت الثنيُ أقرب من الزُمَيْل لذا أصبحت الهدف الاول ، حيث قرر خالد ان يكرر مناورة المصيّخ. وسوف يعمل جيشه بالالوية الثلاث كالسابق . وسوف تنطلق الالوية من المصيّخ على محاور منفصلة ، ثم تهاجم الثني ّ في ليلةٍ محدَّدة وفي وقت معين. وتقدم خالد على الطريق المباشر من المصيخ بينما سار اللواءان الآخران على مجنبتيه . ففي الليلة المحدَّدة ، وفي الوقت المعين — في الاسبوع الثاني من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الاول من رمضان عام ١٢ هجري) — انقضت الالوية الثلاث على معسكر العرب النصارى في الثني ّ . وفي هذه المرة نجا القليلون من المذبحة . وعلى كل الاحوال ، فقد تركت النساء والاطفال وعدد كبير من الفتيان وأخذوا أسرى . كذلك فقد قتل قائد العرب النصارى، ربيعة بن بُجير ، وسُبِيَت ْ ابنته الجميلة ، وتزوجها علي بن أبي طالب [1] .

كان خالد يناور بجيشه بمنتهى السهولة كلاعب الشطرنج . فبعد معركة الثني بليلتين أو ثلاثة فعل بالزُمَيْل مثلما فعل بالثني — ثلاث الوية تهاجم من اتجاهات مختلفة — وكذلك تم ابتلاع العرب النصارى في الزُمَيْل من قبل الوية خالد التي ضربت المصيّخ والثني ّ .

وبعد ان تخلص خالد من الاسرى والغنائم التي تم الاستيلاء عليها في الزُميل ، اتجه نحو الرّضاب ، حيث كان هلال بن عقّه يجمع القبائل العربية لكي يثأر لموت والده . ولكن عندما وصل المسلمون الى الرضاب لم يجدوا احدا فيها . اذ في اللحظة الاخيرة قرر هؤلاء العرب ان اية مقاومة لن تجدي وانتشروا في الصحراء .

ويحقّ لخالد الآن ان يفرح بانتصاراته . ففي اقل من شهر استطاع ان يسحق قوات امبراطورية هائلة في اربع معارك منفصلة ضمن منطقة عمليات يبلغ طولها مائة ميل . وحقّق ذلك باستغلال قابلية الحركة الكبيرة التي كان

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٨٢

يتمتع بها جيشه الراكب . لقد انجز المهمة التي أسندت اليه من قبل الخليفة ، ولم يبق امامه اية مقاومة لسحقها .

لقد غامر الفرس وخرجوا من العاصمة الامبراطورية عند سماعهم لنبأ مغادرة خالد لعين التمر ، لكن خالداً عاد وخاض غمار الحرب ثانية . وتقوقعت كتيسفون على نفسها .

وشنت عدة اغارات من قبل خالد في المنطقة الواقعة بين النهرين . كما ان الاماكن التي لم تشعر بوطأة الحرب حتى الآن بدات تردد اصداء وقع حوافر خيالة المسلمين ونداء « الله اكبر » . لكن جماهير الشعب في العراق تركوا بدون ازعاج . فهؤلاء الناس اعتبروا وصول المسلمين نعمة لهم ، لان المسلمين جلبوا النظام والاستقرار اللذين لم يعرفا منذ ايام أنو شروان العادل الذهبية .

ولكن لم يكن من طبيعة خالد ان يركن الى الهدوء والراحة . وكان من طبيعته ان لا يقنع بالانجازات الماضية ، بل كان دائما يسعى الى المجد والاعمال الجليلة . وكانت العاصمة الامبراطورية تبدو محجمة عن إرواء ظمأه بارسال جيوش اخرى ضده ، لذا كان من دواعي سروره ان يتذكر بأن حامية فارسية كبيرة مازالت موجودة على الفرات عند « الفراض » (قرب ابو كمال الحالية — انظر الخريطة داخل غلاف الكتاب) ، التي كانت على الحدود بين امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت حامية الفراض هي الحامية الفارسية الوحيدة التي تركت الى الغرب من كتسفون ، وبما ان خالداً قد تلقى تعليمات الخليفة التي تقتضي بمحاربة الفرس ، فقد قرر ان يبيد هذه القوة ايضا . فتحرك الى الفراض . وعندما وصل خالد اليها في الاسبوع الاول من تشرين الثاني عام ٦٣٣ م (نهاية رمضان ، عام ١٢ هجري) ، وجد فيها حاميتين احداهما فارسية والاخرى رومانية . وهاتان الحاميتان اللتان تمثلان امبراطوريتين تحاربتا في العقدين الماضيين ضد بعضهما البعض في حرب طويلة باهظة الثمن ، اتحدتا الآن لمحاربة المسلمين ، وانضم اليهما لهذا الغرض عدة قبائل من العرب النصارى المحليين .

لم يحدث شيء طيلة ستة اسابيع . فالجيشان كانا ينظران الى بعضهما البعض عبر نهر الفرات ، فالمسلمون على الضفة الجنوبية والروم والفرس على الضفة الشمالية ، وكلا الجيشين كانا غير راغبين في عبور النهر . وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني عام ٦٣٤ م (الخامس عشر من ذي العقدة عام ١٢ هجري) استطاع خالد ان يجذب الحليفين عبر نهر الفرات الى الضفة التي يقف عليها جيشه ، ولم يكد يتم عبور الروم والفرس حتى قام خالد بهجوم سريع وعنيف كالمعتاد . وذُبح الآلاف من الاعداء قبل أن يتمكن الباقون من الفرار بسلام .

لم تكن هذه المعركة كبيرة ولا فاصلة ، كما ان قوة العدو لم تكن كبيرة كذلك، وفقا لروايات بعض المؤرخين الاوائل . (اذ ليس من المعقول ان يترك اي قائد فارسي حامية كبيرة في مدينة على الحدود مثل الفراض بينما اواسط العراق وغربها في ايدي المسلمين ، كما ان كتسفون نفسها كانت مهددة) . وتكمن اهمية المعركة بانها آخر معارك خالد في العراق .

قضى خالد الايام العشرة التالية في الفراض . وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني عام ٦٣٤ ، غادر الجيش الفراض متوجها الى الحيرة . وتنظم مسير الجيش هذا بترتيب : حرس مقدمة ، ثم القوة الرئيسية ، ثم حرس مؤخرة . ولكن عندما خرج حرس المؤخرة من الفراض ، ذهب خالد ومعه عدد من اصحابه باتجاه الجنوب بشكل خفي . لقد كانوا في طريقهم الى مكة لاداء فريضة الحج الذي كان موعده بعد اسبوعين .

ان الطريق الفعلي الذي سلكه خالد غير معروف . « لقد سار في طريق من طرق أهل الجزيرة لم يُر طريق اعجب منه ولا اشدّ على صعوبته منه »[1] . وفي مكة ادى خالد وصحبه فريضة الحج متنكرين لئلا يتعرف عليهم احد . ثم عادوا بسرعة الى العراق . ويمكن تخيل السرعة التي سار بها خالد واصحابه اذا عرفنا ان حرس المؤخرة لم يكد يدخل الحيرة حتى انضم اليه . ودخل الحيرة

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، ٥٨٣ .

مع حرس المؤخرة وكانه معه طيلة الوقت . وكان قائد حرس المؤخرة ، فقط يعرف السر ، ولكن رجال حرس المؤخرة تعجبوا من ان خالداً وبعض اصحابه قد حلقوا رؤوسهم .

بعد هذه المغامرة بوقت قصير ، ذهب خالد في مغامرة اخرى . فبعد ان سئم من السلام والهدوء اللذين يعمّان العراق ، قرر ان يقود إغارةً بنفسه في المنطقة القريبة من كتسفون . فاغار عليها ومعه المثنى وعاد محملا بالغنائم .

اذا كان خالد يعتقد انه من غير الممكن التعرف عليه في مكة فقد كان مخطئاً. اذ لم يكد يَعُدْ من اغارته هذه حتى تلقى رسالة من ابي بكر يحذره قائلا : « إياك ان تعود لمثل ذلك » . وكان مع التحذير مهمة اخرى كبيرة : كان على خالد ان يتوجه الى بلاد الشام . فالحملة في العراق قد انتهت .

كان فتح العراق نجاحا باهراً . فالمسلمون خاضوا عدة معارك عنيفة ضد الجيوش الفارسية التي تفوقهم عدداً ، ولم يقتصر عملهم على كسب كل معركة ، بل اوقعوا الهزائم الساحقة بالفرس والعرب النصارى . علماً بان جيش الفرس في ذلك الوقت كان اكبر آلة حربية يخشى جانبها .

كانت استراتيجية خالد في هذه الحملة ، وهي استراتيجية لم يَحِدْ عنها ابداً ، تقضي بان يخوض معاركه قريبا من الصحراء ، بحيث تكون الطرق المؤدية الى الصحراء مفتوحة امامه في حالة اضطراره للتراجع . ولم تكن الصحراء ملجأامينا فقط لا يستطيع الفرس المغامرة باقتحامها ، بل كانت ايضا منطقة تسمح بالتحرك السريع الى اي هدف يختاره بسهولة ويسر . ولم يدخل خالد في عمق العراق الى ان فقد الجيش الفارسي قدرته على تهديد الطرق المؤدية الى الصحراء .

اما استراتيجية الفرس العسكرية فقد كانت متأثرة بالضرورةالسياسية للدفاع عن الحدود الامبراطورية ، وادّى ذلك الى ان يخوضوا معاركهم ضد المسلمين على الحدود بين الصحراء والاراضي الزراعية ، كما كان يتمنى خالد . ولكنهم ، ضمن هذا التحديد السياسي ، اتبعوا اسلوبا سليما وخططوا لتنفيذ

تحشدات كبيرة لقواتهم من اجل المعركة . فكان على « قارن » ان ينضم الى « هرمز » ، و بَهْمَنْ الى « اندرزغر » ، « وروزبة » ، « وزرمهر » الى العرب النصارى في المصيَّخ والثنيّ والزُّمَيْل . ولو قدّر لهذا التجميع أن يتم ، لتغير مجرى الحملة . لكن هذا التجميع لم يتم ، فشكرا لخالد على تحركه السريع وعلى تخطيطه القاضي بخوض معاركه ضد الجيوش الفارسية الواحد بعد الآخر ، في الزمان والمكان اللذين يختارهما .

وكان العاملان الهامان اللذان اعتمد عليهما خالد في تحقيق مناوراته وتحركاته الناجحة هما النوعية القتالية للمسلمين وخفة الحركة لقواته . واستثمر خالد هذين العاملين الى ابعد الحدود التي تعجز عنها طاقة البشر . ومع ان جزءا فقط من جيشه كان من الخيالة ، الا ان باقي الجيش كان يركب الابل من اجل التحرك وبامكانه ان يضرب في المكان والزمان اللذين يختارهما خالد . وكان جيش خالد يستطيع ان يتحرك بسرعة لخوض معركة في (آ) ، ثم ينتقل الى (ب) لخوض معركة ثانية قبل ان يستطيع العدو الردّ على الهجوم .

ولا توجد معلومات مؤكدة عن قوة الجيوش الفارسية التي واجهها خالد في المعارك المختلفة ، وكذلك لاتوجد معلومات عن الخسائر التي تكبدها الطرفان . فربما أرقام الخسائر التي ذكرتها عن الفرس قد تكون مبالغا فيها . فالشيء المؤكد ان تلك الجيوش كانت جرَّارة وتكبدت خسائر كبيرة خاصة في الولَجة ، وأليّس ، والمصَيخ ، والثنيّ ، والزُّمَيْل ، حيث انها فقدت قدرتها القتالية . وتقديري الشخصي لتعداد الجيوش الفارسية التي واجهت خالدا في كاظمة ، ومكيل ، والولَجة ، وأليس هو من اربعين الفا الى سبعين الفا . ان هذه القوة التي تفوق جيش خالد بأربع مرات لم تؤثر على خالد او جنوده الشجعان . والجيوش الفارسية هذه لاتعتبر كبيرة جدا بالمعايير الفارسية . (ففي معركة القادسية ، التي حدثت بعد ثلاث سنوات ، حشد الفرس جيشا تعداده مائة وثلاثون الفا) . واما بالنسبة لخسائر المسلمين ، فهي قليلة نظرا لان جيشهم بقي فعّالا طيلة مدة الحملة .

بالاضافة الى ماتقدم ، فان شخصية خالد لعبت دورا كبيرا وهاما في فتح العراق . فهو اول القـادة المسلمين البارعين الـذين انطلقوا لفتح اراض اجنبيـه وغيروا الخريطة السياسبة والدينية للعالم . ولم يكن ليفرض اي عمل شاق على جنوده لايستطيع هو تحمله . وكان ايمان رجاله به بلا حدود وهـذا مما جعلهم يركبون الاهوال بشجاعة نادرة .

لقد اجتاح خالد العراق كالعاصفة الهوجاء . انه سيجتاح الآن كالعاصفة الهوجاء ايضا بلاد الشام وسيضرب جيوش امبراطورية اخرى متشامخة ، انها الامبراطورية الرومانية الشرقية .

* * *



الجزء الرّابع

فتح بلاد الشّام



المسير الخطر

في أواخر شهر أيار عـام ٦٣٤ م ، فضّ خالد رسالة الخليفة وقـرا مـا جاء فيهـا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عتيق ، ابن ابي قحافة [١] ، الى خالد بن الوليد . السلام عليك . أحمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام . سِرْ حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام ، فهم في حالة كبيرة من القلق » .

وتوقف خالد عن القراءة ، خشية ان يكون ذلك معناه تقليلا من شأنه وان ضغط عمر ابن الخطاب قد أثمر اخيرا ، وتمتم خالد قائلا : « هذا عمل الاعيسر ابن ام شملة ، يعني عمر بن الخطـاب ، حسـدني ان يكون فتح العـراق على يـدي » [٢] . لكن مخاوفه تحولت الى سرور عندما تابع قراءة الرسـالة : « وانني اعيّنك قائدا على جيوش المسلمين وآمرك ان تقاتل الروم . وانـت القائد على ابي عبيدة ومن معه . واذهب بسرعة ابا سليمان ، واتمم عملـك بمعونة الله جل شأنه . واقسم جيشك الى قسمين ودع النصف مـع المثنى الـذي سيخلفك في العراق . فاذا فتح الله عليكم بالشام فارجع الى عملـك بالعراق . ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل ، واياك ان تتباطأ بعمل ، فان الله عز وجلّ له المن وهو ولي الجزاء » .

(١) مع ان الخليفة يعرف بالتاريخ باسم « أبي بكر » ، فان اسمه الحقيقي هو عبد الله ، وقـد لقبه النبي بالعتيـق .

(٢) الطبـري ، الجـزء ٢ ، صفحـة ٦٠٨ .

وهكذا تم تعيين خالد قائدا عاما لقوات المسلمين في الشام من قبل الخليفة ابي بكر . وبدأ خالد بالتحضير للمسير . فشرح تعليمات الخليفة الى المثنى ، وقسّم جيشه الى قسمين وسلم نصفه الى المثنى . ولكن عند تقسيم الجيش الى قسمين ، حاول خالد في البداية ان يحتفظ بجميع اصحاب النبي من المهاجرين والانصار ، وهؤلاء يكنّ لهم الجنود كل تقدير واحترام ، لكن المثنى اعترض بشدة وقال لخالد : « والله لا أقيم الا على إنفاذ أمر ابي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة او بعض النصف وبالله ما ارجو النصر الا بهم »[1] .

ورأى خالدٌ ان طلب المثنّى هو طلب عادل . فترك معه قسما كافيا من اصحاب رسول الله ، وكان من بينهم عدد كبير من خيرة امراء الجيش . وبعد ان تم ذلك ، كان خالد جاهزا للمسير الى الشام .

كانت عادة ابي بكر ان يعطي قادته مهمتهم ، والمنطقة الجغرافية التي ستنفذ فيها المهمة ، والموارد التي يمكن توفيرها لتنفيذ المهمة . ثم يترك لقادته انجاز مهمتهم في الاسلوب الذي يختارونه . وقد اتبع هذه الطريقة عندما أرسل خالدا الى العراق ، وهو يتبعها الآن مع خالد اثناء ارساله الى الشام . كانت المهمة التي اعطيت لخالد واضحة : عليه ان يتحرك بسرعة الى الشام ، ويتولى قيادة قوات المسلمين ، ويقاتل الروم حتى يتحقق النصر . وترك لخالد ان يختار طريقه الى بلاد الشام ، وكان هذا هو اهم قرار سريع ينبغي على خالد ان يتخذه . كما ان خالدا لم يكن يعرف مواقع قوات المسلمين الموجودة في بلاد الشام بشكل تفصيلي . وهو يعرف بشكل عام ان هذه القوات موجودة في منطقة بصرى والجابية ، وان عليه ان يذهب الى هناك بأقصى سرعة .

وكان هنالك طريقان معروفان يمكن لخالد ان يختار احدهما . فالاول هو الطريق الجنوبي الذي يمر عبر دومة الجندل ويستطيع الجيش ان يسير على هذا الطريق الذي تستخدمه القوافل المتجهة الى الشام . وهو يعتبر اسهل الطرق ويوجد كثير من المياه على امتداده ولا يمكن للعدو

---

(1) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٥ .

ان يتـدخل في تحرك الجيش عليـه . ولكن هذا الطريق أيضا يعتبر اطـول الطرق ، والتحرك عليه يستغرق وقتا طويلا . علما بأن الخليفة قد أكـد على السرعة ، لان موقف المسلمين في الشام كان خطيرا على مايبدو . لذلك قرّر خالد عدم السير على هذا الطريق .

أماالطريق الثاني فهو الطريق الشمالي الذي يمتد على طول نهر الفرات ويؤدي الى شمال شرق بلاد الشام . وكان هذا الطريق ايضا جيدا ومـلائما ، لكن هذا الطريق يبعده عن الجيوش الاسلامية ، كما ان الحاميات الرومانية الموجودة على الفرات قد تسدّ عليه الطريق . ويستطيع خالد بلا شك ان يتغلب على هذه الحاميات ، ولكنه مع ذلك سيصل متأخرا . وكان عليه ان يجد طريقا آخر للوصول الى قوات المسلمين في الشام .

دعا خالد لعقد مجلسِ حرب وشَرَح الموقفَ لقادتـه . ثم سألهم : « كيف لي بطريق اخرج فيه من وراء جموع الروم فإني ان استقبلتها حبَستني عن غياث المسلمين » . وكان يشير بذلك الى حاميات الروم الموجودة على طول الطريق الشمالي . فقال له قادته : « لانعرف الا طريقا لايحمل الجيوش يأخذه الفذّ الراكب فإياك ان تغـرّر بالمسلمين »[1] .

لكن خالدا كان مصممًا على ايجاد طريق جديد ، وطرح سؤاله علـى قادته مرة ثانية . فلم يوافقه على ذلك سوى رافع بن عميرة وهو محارب ذائع الصيت . وأوضح رافع انـه يوجد طريق عبر ارض سماوة . ويمكن للجيش ان يتقدم من الحيرة الى « قراقر » عبر عين التمر والمصيّخ ، ومن الممكن ان يكون هـذا المسير سهلا . فقراقر كانت واحة مشهورة بوفرة مياهها وهي تقع في غرب العراق . ومن « قراقر » الى « سُوَى » يوجد طريق غير معـروف كثيرا وهو يمر في صحراء جرداء لاماء فيها . وفي سُوى يوجد ماء وفير . وقبل سُوى بمسيرة يوم يوجد نبع ماء يعرفه ، وهو يؤمن الماء الكافي للجيش . ويعتبر الطريق من قراقر الى هـذا النبع هو اخطر جزء في الرحلة ، اذ يبلغ طوله حوالي مائة وعشرين ميلا .

---

(١) الطبري – الجـزء ٢ ، صفحـة ٦٠٣ .

ولكن رافع حذّره قائلاً : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والاثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغرّرا انها لخمس ليال جياد لايصاب فيها ماء مع مضلتها »[1] . فهزّ القادة رؤوسهم علامة عدم الموافقة . لان تقدم الجيش على طريق كهذا ، حيث من الممكن ان يضلّ الجيش بكامله ويموت عطشا ، لايمكن ان يقبله رجل ذو راي سديد .

فقال خالد بصوت هادىء : « لابدّ من اجتياز هذا الطريق » . واضاف قائلا ، عندما رأى التجهم يكسو وجوه قادته : « لايختلفنّ هديكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتي على قدر النيّة ، والاجر على قدر الحِسبة ، وان المسلم لاينبغي له ان يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له »[2] .

واثارت كلمته وعزيمته وقوة حماسته اصحابه فقالوا في عزم وثقة وامل : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك »[3] . وبدا جيش خالد يستعد للمسير الى الشام بحماس منقطع النظير عبر طريق لم يسر عليه اي جيش في السابق ولا يعرفه سوى رجل واحد هو رافع بن عميرة . (انظر الخريطة رقم ١٥) .

وفي أوائل حزيران عام ٦٣٤ م (اوائل ربيع الثاني ، عام ١٣ هجري) سار خالد من الحيرة ومعه تسعة آلاف رجل . ولم يرافق هذا الجيش الاطفال والنساء ، حيث تركوا في الخلف ، بناء على اوامر خالد ، تمهيدا لترحيلهم الى المدينة ، وهنا يظلوا حتى يحين الوقت المناسب لنقلهم الى بلاد الشام . وسار الجيش عبر عين التمر ، وصندودة ، والمصيّخ الى قراقر ؛ ورافق المثنى خالدا حتى قراقر حيث عاد الى الحيرة وفق تعليمات الخليفة ليكون

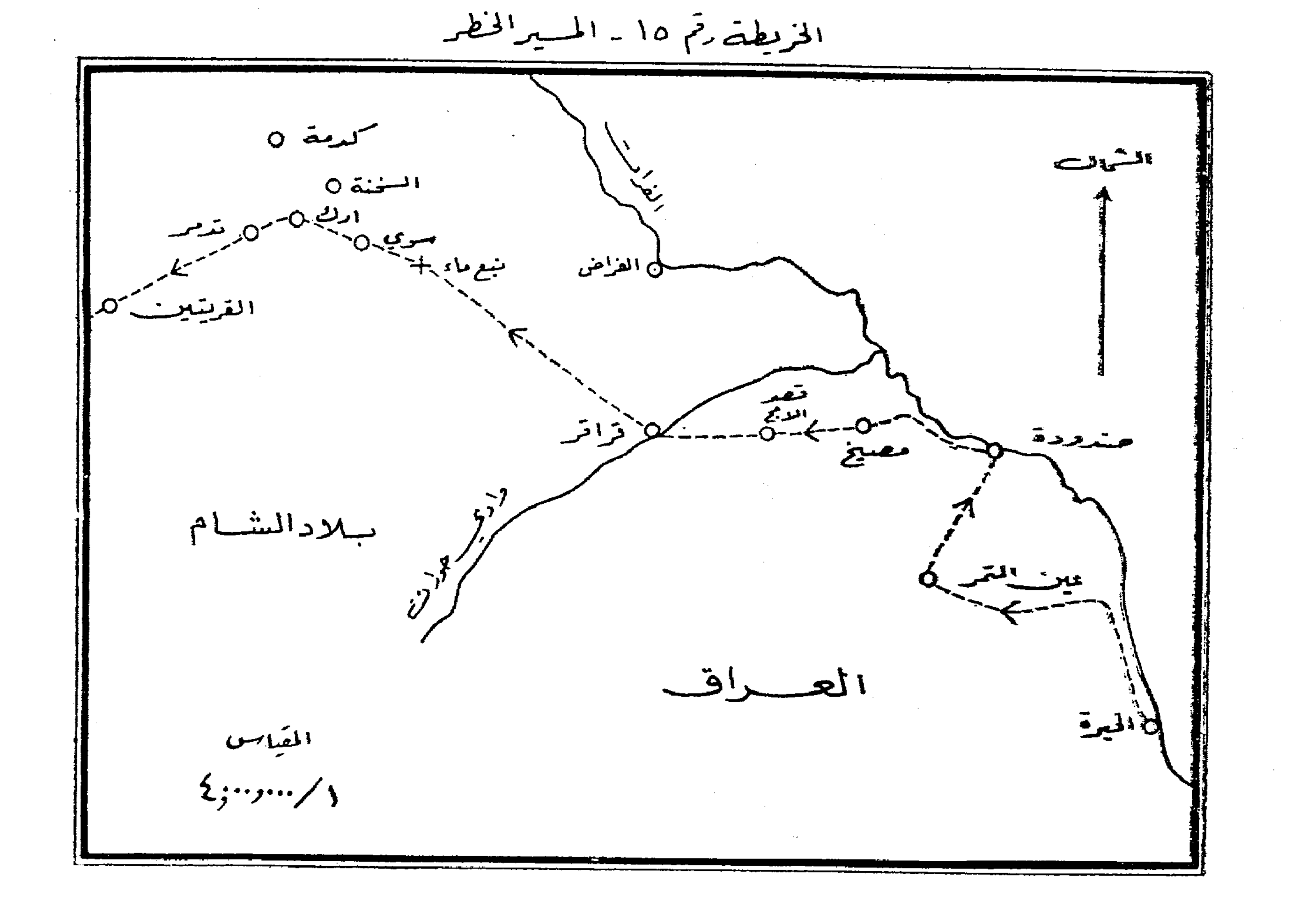
---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .

(٣) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

الخريطة رقم ١٥ - المسير الخطر



مسؤولا عن العراق اثناء وجود خالد في الشام . وعسكر جيش خالد في قراقر لقضاء الليل ولملء قرب الماء والاوعية الاخرى التي تكفي الرجال والرواحل مدة خمسة ايام .

وفي صباح اليوم التالي ، عندما كان المسير الخطر على وشك الابتداء ، اقترب رافع من خالد وقال له مرة ثانية ماسبق ان قاله : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والانقال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه » . فالتفت خالد الى رافع وقال له : « الويل لك يارافع . والله لو عرفت طريقا يؤدي بي الى الشام بسرعة لسلكته . ولا بدّ والله من ذلك فمر بأمرك » [1] .

وسقط في يد رافع ولم يجد مفراً من التنفيذ فقال : « استكثروا اذن من الماء من استطاع منكم ان يصرّ اذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله » .

وانطلق الجيش بقيادة خالد وارشاد رافع بن عميرة لتنفيذ اكبر مأثرة عسكرية في التاريخ . وركب الرجالَ على الجمال كالمعتاد ، بينما جرّوا الخيل خلفهم . وكان الوقت هو شهر حزيران ، وكانت الرمال اللاهبة تلفح الوجوه وتلسع الاقدام .

ومرت الايام الثلاثة الاولى سهلة يسيرة . فعلى الرغم من الحرارة الشديدة ، استطاع جنود خالد ان يتحملوا وطأة الحرّ ، خاصة وان المياه متوفرة لديهم . ولكن الماء الذي كان من المفروض ان يكفي لمدة خمسة ايام نفذ في نهاية اليوم الثالث . وكان امامهم يومان آخران بدون قطرة ماء [2] .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

(٢) بالنسبة لاسطورة ملء بطون الابل بالماء ، فان المؤرخين الاوائل قد وصفوا قبل تنفيذ المسير الخطر كيف جاء المسلمون بابل سمان وظمأوها ثم اوردوها الماء لكي يخزّن هذا الماء في بطونها . وكيف ان هذه الابل كانت تذبح اثناء المسير بأعداد قليلة كل يوم ثم يؤخذ الماء من بطونها لسقي الخيل ... الخ . ان هذه اسطورة قديمة ، ومن الغريب انها مصدّقة حتى اليوم . فعمليا لايمكن للابل ان تحتفظ باي كمية من الماء في بطونها على شكل خزان او في اي

وسار الجيش في اليوم الرابع بصمت . وبدات الحرارة بالارتفاع . وتوقف الحديث بين الرجال اثناء المسير ، لانهم كانوا يفكرون بالماء فقط وبالاهوال التي سيلاقونها في حالة الضياع في الصحراء والموت عطشا . وبدؤوا يشعرون بالرجفة لمجرد التفكير باحتمال ان يضلّ رافع طريقه ، وماذا يحدث لو تم ذلك . وعسكر الرجال في تلك الليلة كالمعتاد ، ولكنهم لم يعرفوا طعم النوم . وكانوا يردّدون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » (1) .

وفي صباح اليوم الخامس بدات المرحلة الاخيرة من المسير حيث سيصلوا في نهايتها الى نبع الماء الذي يعرفه رافع . وكان الجيش يقطع ميلا بعد ميل في صمت مطبق . وكان الرجال يسيرون ساعة بعد اخرى فوق الرمال المحرقة. واستطاعوا ان يكملوا مسيرة اليوم المقررة وهم مازالوا على قيد الحياة ، مع ان معظمهم قد بلغ حدود التحمل البشري . ولم تكن ارتال جيش المسلمين منتظمة كما كانت عند بدء المسير . وكان العديد من المحاربين يسيرون ببطء خلف الارتال ، وهم يأملون ان لايقعوا على جانبي الطريق .

وعندما وصل راس رتل جيش المسلمين الى المنطقة التي يفترض ان يكون فيها نبع الماء ، لم يعد رافع يرى بعينيه . فقد كان يعاني من التهاب في العينين ؛ كما ان اشعة الشمس المحرقة زادته سوءا . فغطى عينيه بجزء من عمامته واوقف جمله . وذُعر الذين كانوا يسيرون خلفه عندما رأوا حالته ، وقالوا له : « يارافع ؛ نحن على شفا الموت . هلاّ وجدت الماء ؟ » لكن رافع لم يعد يرى شيئا . فقال بصوت خفيض متحشرج : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « اضربوا يمنة ويسرة لعوسجة كقعدة الرجل » فنظروا وقالوا : « مانراها » . فقال : « إنا

جزء من جسمها . والحقيقة هي ان الانسجة العضلية للجمل تحتوي على نسبة مئوية من الماء أعلى مما تحتويه الانسجة العضلية للحيوانات الاخرى ، وبذلك يستطيع الجمل ان يسير مسافات طويلة بدون ماء دون ان يعاني الجفاف . اذن هي مجرد اسطورة .

(1) قرآن كريم : سورة رقم (3) ـ آية (173) .

لله وانا اليه راجعون . هلكتم والله اذن وهلكت لا ابالكم ! انظروا » . فنظروا ثانية فوجدوها قد قطعت وبقيت منهـا بقية . فلما رآها المسلمون كبَّروا وكبَّر رافع بن عميرة ثم قال : « احفروا في أصلها ، فحفروا فنبع الماء فشربوا حتى ارتووا . وحمدوا الله على نعمته وشكروا رافعا على دلالته . ثم شربت الابل والخيل ، وبقي ماء وفير . وملأ المئات من الجنود قرب الماء ورجعوا الى الوراء على الطريق الذي ساروا عليه للبحث عن المتأخرين ، وكان عددهم كبيرا . وتم العثور عليهم جميعا واحضروا احياء .

وانتهى المسير الخطر ، لقد نفَّذه المسلمون . ان مثل هذا المسير لـم يتم في الماضي ولن يحدث قط مرة ثانية . ووصل خالد الى تخوم بلاد الشام ، تاركا وراءه الحدود الرومانية وحاميات الروم وهي تواجه العراق . وأصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد فقط من « سُوَى » ، حيث انتهت الصحراء وبدأ العمران . (انظر الخريطة رقم ١٥) .

كان خالد لايشك في انه وجيشه قد اجتازوا الجحيم وكانوا على وشـك الهلاك . ولكن الخطر الحقيقي الذي واجهوه لم يدرك الا عندما جاء رافـع الى خالد وقال له باسما : « والله ماوردت هذا الماء قط الا مرة واحدة ، وكان ذلك منذ ثلاثين عاما ، وردته مع أبي وانا غلام »[١] .

لقد كتب احدُ الخلفاء ، في السنوات التالية ، الى أديب رفيع الشـأن يطلب منه ان يصف له الاراضي التي تحت الحكم الاسلامي . فكتب الاديبُ الوصف المطلوب وارسله الى الخليفة . وعندما وصل الى وصف بلاد الشـام قـال : « واعلم يا امير المؤمنين ان بلاد الشام هي ارض السُحب والتـلال والرياح والخصب . فهي تنعش الجسد وتنقّي البشرة ، خاصة ارض حمص ، التي تجمّل الجسم وتنمّي المدارك . وماؤها نقي يرهف الحواس . ان بـلاد الشام ، يا أمير المؤمنين ، هي أرض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة . وانهارها تجري في مجراها الصحيح ، ونوقها تدرّ اللبن الوفير »[٢] .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحـة ٦٠٤ ، ٦٠٩ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ــ الجزء ٢ ، صفحـة ٦١ ، ٦٢ .

وفي الحقيقة ، كانت بلاد الشام ارضا جميلة ؛ وهي اجمل اقاليم الامبراطورية البيزنطية . فمناخها معتدل بتأثير البحر الابيض المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الاجواء الشمالية . وكانت انطاكية ، عاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية ، وتأتي بعد القسطنطينية في البهاء والاهمية السياسية . والمدن الكبرى في بلاد الشام هي : حلب ، وحمص ، ودمشق . وهذه المدن ، بالاضافة الى مركزها المالي والتجاري ، كانت مركزا للثقافة والحضارة . ومن موانئها المزدهرة على البحر الابيض المتوسط : اللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا ، ويافا . وكانت هذه الموانيء ملتقى للسفن القادمة من كل مكان والمحمّلة بالبضائع .

كانت بلاد الشام تتألف ، سياسيا ، من اقليمين : اقليم سورية وهو يمتد من انطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الاعلى من البحر الميت ، واقليم فلسطين وهو يقع غرب وجنوب البحر الميت ويضم الاماكن المقدسة للاديان السماوية ومدنا لاتقل غنىً ومدنية عن سائر مدن العالم . وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن اقليم الاردن وهو يقع بين سورية وفلسطين ؛ ولكن هذه المنطقة يمكن اعتبارها اقليما من الناحية الجغرافية فقط وليس من الناحية السياسية او الادارية . وكانت جميع هذه الاقاليم جزءا من الامبراطورية البيزنطية . لذا فان فتح بلاد الشام يعني غزو روما ، وهذا ليس بالامر السهل .

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية ايضا تسير نحو الانحطاط ، وكان هذا الانحطاط مستمرا منذ مدة اطول من بدء فترة انحطاط امبراطورية الفُرس . فامبراطورية الفُرس كانت ماتزال تتمتع بدرجة من الاستقرار القوة ، التي تعزى الى عدة عوامل من بينها قوة الاسرة المالكة الساسانية التي حكمت بشكل مستمر طيلة القرون الاربعة الماضية . اما الروم ، من جهة اخرى ، فلم يكن لديهم مثل هذه الاسرة الحاكمة ، كما لم يكن لديهم تصور لانتقال العرش ، ضمن اسرة مالكة ، من شخص لآخر من سلالته . فعندما يموت الحاكم ، كان العرش ينتقل الى اكفا قائد عسكري ، أو سياسي ، او مدبّر للدسائس .

لكن جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية كان لايزال أداة قوية لشن الحروب الامبراطورية ؛ وهو يعتبر ، بعد الجيش الفارسي ، اقوى آلة عسكرية في العالم . وكانت فرق جيش الروم مجهزة جيدا ولها قيادات قديرة ، وتستطيع ان تثير الرعب في قلوب الناس الذين تجتاح اراضيهم . وكأي جيش امبراطوري كبير ، لم يكن هذا الجيش وطنيا بل كان يضم مجموعات من مختلف الاجناس والشعوب . وكان في صفوفه الروم ، والسلاف ، والفرنجة ، والاغريق ، والجيورجيون ، والارمن ، والعرب ، وقبائل من مناطق مختلفة . وكان هؤلاء الجنود يقيمون في حاميات في مدن الشام ، وكانت معظم هذه المدن محصنة .

كانت بلاد الشام ، مثل العراق ، ارضا عربية خاصة في الاجزاء الشرقية والجنوبية منها . وكان العرب فيها قبل زمن الروم ؛ وعندما جعل الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية دين الدولة في اوائل القرن الرابع للميلاد ، اعتنق هؤلاء العرب ايضا المسيحية . لكن عرب الشام لم يكن لهم تأثير الى ان هاجرت قبيلة غسّان من اليمن الى الشام ، وذلك قبل الاسلام ببضعة قرون . وتحاربت قبيلة غسان مع حاميات الروم شرقي الشام . وبعد ان ادرك الروم قيمة الصفات العسكرية والروح العالية التي يتميز بها الغساسنة ، عقدوا معهم صلحا ووافقوا على اقامتهم في الشام ، ومنحوهم الحكم الذاتي ، واصبح لهم ملكهم الخاص بهم . واصبحت اسرة الغساسنة احدى الاسر الحاكمة النبيلة في الامبراطورية ، كما اصبح غسّان ملكا على العرب في الاردن وجنوبي سورية من عاصمته بصرى . وكان آخر ملوك الغساسنة ، الذي حكم ايام فتوحات خالد هو جبلة بن الايهم . وكان هذا الرجل ، وعدي بن حاتم الذي جاء ذكره في اول هذا الكتاب ، يعتبران اطول عربيين في التاريخ . وكانت قدما جبلة تصل الارض عندما يمتطي صهوة جواده [1] .

اذا هذه هي بلاد الشام ، وهذا هو وضعها السياسي والعسكري ،

(1) ابن قتيبة ، صفحة ٦٤٤ .

وهي التي رحبت بجيش المسلمين في الاسابيع الاولى من العام الثالث عشر للهجرة .

كان أول من قاد حملة عسكرية هامة الى بلاد الشام هو خالد بن سعيد ابن العاص ، وكانت مواهبه العسكرية على النقيض من مواهب خالد بن الوليد. ففي اواخر عام ١٢ هجري (اوائل عام ٦٣٤ م) عيّنه ابو بكر بتَيْماءَ ، وهي على مسافة ما شمال المدينة ، مع مفرزة من الجند كاحتياط عام .

وعندما كان في تَيْمَاءَ ، بعث الى ابي بكر يسأله الاذن في منازلة الروم خوفا من ان يأخذوه على غرة . وكان ابو بكر لاينوي محاولة فتح الشام بقوة عسكرية صغيرة ، خاصة تحت إمرة قائد غير مجرب ، ولا يعوّل عليه (يقصد خالد بن سعيد) . لكن المسلمين كانوا يعرفون القليل عن الموقف العسكري في بلاد الشام ، وقرّر ابو بكر ان تتم هذه العملية كعملية استطلاع بالقوة . لذلك كتب الى خالد بن سعيد وسمح له بدخول الشام ، ولكنه حذّره من التورط بأعمال عسكرية ، لان ذلك يعرض للخطر انسحابه الى الجزيرة العربية .

وانطلق خالد بن سعيد بقوته الصغيرة ، ودخل بلاد الشام وتقدم بسرعة نحو بعض قوات الروم . وكان قائد الروم ، الذين اصبحوا بتماس مع قوات المسلمين ، هو « باهان » ؛ وكان تكتيكيا بارعا ؛ فاغرى المسلمين المندفعين للوقوع في فخ نصبه لهم ونفذ حركة كماشة الاحاطة بهم . وعندما شاهد خالد بن سعيد ذلك ، فقد اعصابه وهرب ، تاركا وراءه معظم رجاله . ومن حسن حظ المسلمين ان عكرمة بن ابي جهل كان موجودا معهم ؛ فتولّى القيادة ، وخلّص المسلمين من خطأ كاد ينقلب الى ماساة كبيرة . وبذلك استطاع عكرمة ان ينقذ المسلمين ، لكن الحملة وُصِمَتْ بالهزيمة . واصبح خالد بن سعيد موصوما الآن بالعار ، ولم يُخْفِ ابو بكر احتقاره لجُبن هذا الرجل وعدم كفاءته . (وعلى كل الاحوال ، فقد سُمح له فيما بعد بالالتحاق بالمسلمين في بلاد الشام ، واستردّ شرفه بالموت في المعركة) .

لم يتفق المؤرخون على المكان الصحيح لهذا الاشتباك الذي حدث بين

الروم والمسلمين . فبعضهم يقول انه حدث في مَرْج الصُفَّر ، جنوب دمشق، ولكن من غير المحتمل ان تستطيع حملة خالد بن سعيد ان تتوغل الى ذلك المكان دون أن تشتبك مع جيش الروم . وكانت نتيجة هذه المغامرة العقيمة ان الخليفة اصبح متأكدا بأن فتح بلاد الشام ليس امرا يسيرا .

وعندما عاد ابو بكر من الحج السنوي في مكة ، في شباط عام ٦٣٤ م ، دعا الى حمل السلاح من اجل فتح بلاد الشام . وكان كل شيء هادئا على الجبهة العراقية . وقد اثبتت حملة العراق نجاحا منقطع النظير : فهي لم تقتصر على توسيع الحدود السياسية للدولة الاسلامية ، بل ملأت ايضا خزائن المدينة . وبدأ المسلمون يشعرون بأن باستطاعتهم محاربة الروم بعد ان انتصروا على الفرس ، علما بأن الروم لم يكونوا بنفس مستوى القوة العسكرية الفارسية . علاوة على ذلك ، فان الحركة الدينية الجديدة ينبغي نشرها للبشرية جمعاء ، لان الاسلام جاء لخير الناس جميعا .

ولبّى دعوةَ ابي بكر المحاربون من جميع القبائل الاسلامية . وجاؤوا بالآلاف من كافة ارجاء شبه الجزيرة العربية ، وكذلك من عُمان واليمن . وجاؤوا راكبين ومسلحين للمعركة ، لكنهم ايضا جلبوا معهم نساءهم واطفالهم . واستُبعد من هؤلاء الذين سبق ان ارتدوا فقط . كذلك فقد تم تعبئة جميع القادرين على حمل السلاح من مسلمي الجزيرة العربية في شهر آذار عام ٦٣٤ م (شهر محرم ، عام ١٣ هجري) .

ونظّم ابو بكر القوة البشرية المتوفرة في اربعة الوية ، وكل لواء من حوالي سبعة آلاف رجل . وكان قادة هذه الالوية والاهداف التي اعطيت لهم كما يلي :

١ ــ عمرو بن العاص : الهدف فلسطين . ويتحرك على طريق المرشرش [١] ، ثم عبر وادي عَرَبة .

٢ ــ يزيد بن ابي سفيان : الهدف دمشق . ويتحرك على طريق تبوك .

---

(١) ايلات الحالية .

٣ ـ شرحبيل بن حسنة : الهدف الاردن . ويتحرك على طريق تبوك بعد تحرك يزيد . (لقد حارب شرحبيل في حملة العراق تحت قيادة خالد ، وأرسل حديثا الى المدينة كرسول حيث استبقاه ابو بكر وسلمه قيادة لواء في حملة الشام) .

٤ ـ ابو عبيدة الجراح : الهدف حمص . ويتحرك على طريق تبوك خلف شرحبيل .

كان قصدُ ابي بكر ان يفتح بلاد الشام ويستولي على اكبر جزء ممكن منها . (انظر الخريطة رقم ١٦) . ونظرا لكون ابي بكر يجهل حجم جيش الروم وتنظيماته ، فلم يعزّز اي لواء على حساب الالوية الاخرى . ولكنه كان متأكدا بأن الروم سيحشدون جيشا كبيرا في اي قطاع من مسرح العمليات ، لذلك امر قادته بأن يحافظوا على التماس فيما بينهم لكي يستطيعوا مساعدة بعضهم بعضا في حال تعرض احدهم لخطر كبير من قبل قوات الروم . كما امر بأن يتولى قيادة جميع جيش المسلمين ابو عبيدة ، في حالة حشد جميع الالوية في معركة واحدة .

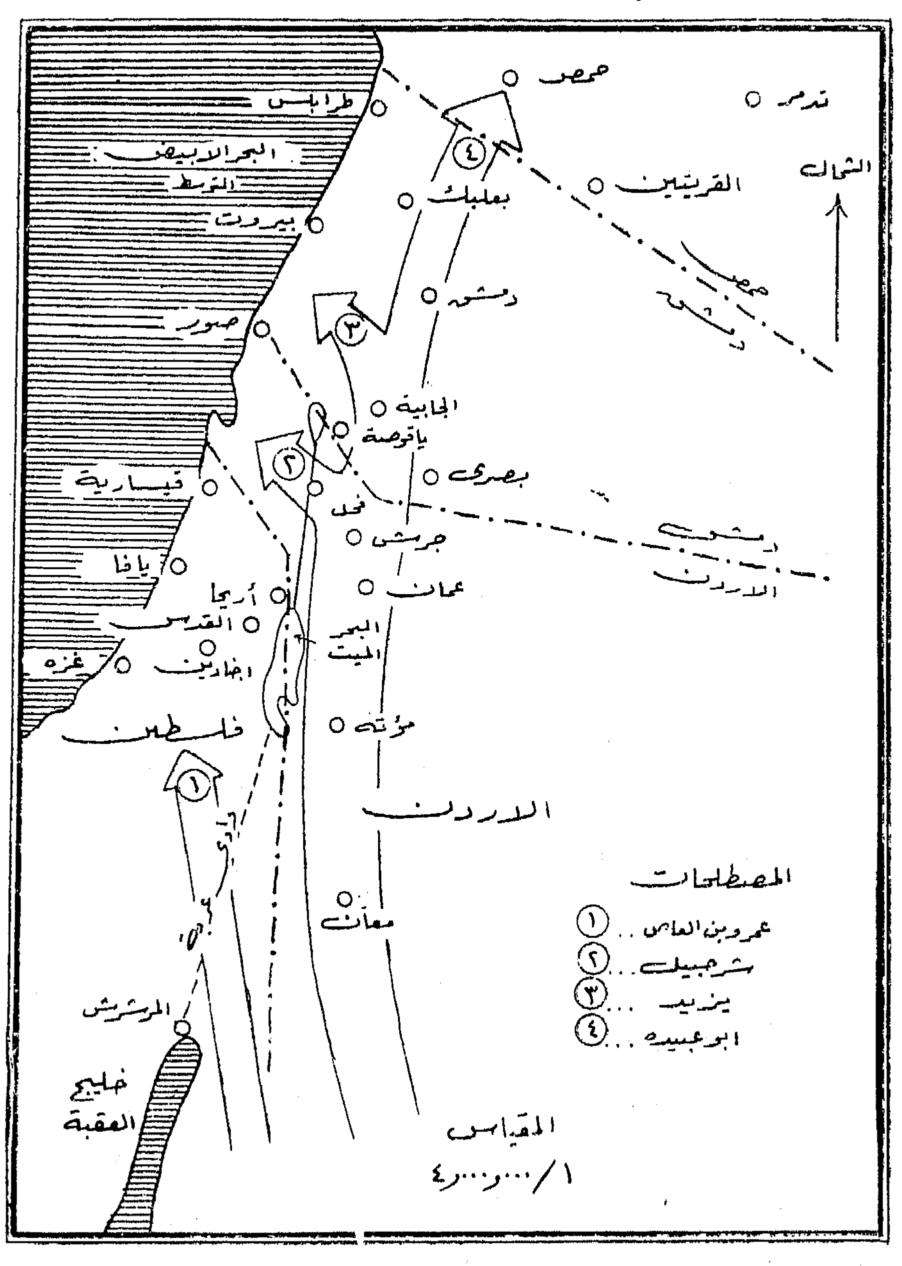
وفي الاسبوع الاول من نيسان عام ٦٣٤ م (الاول من صفر ، عام ١٣ هجري) ، بدأت قوات المسلمين بالتحرك . وكان يزيد اول من تحرك ؛ وعندما غادرت قواته معسكرها خارج المدينة ، سار معه ابو بكر مسافة قصيرة . وكانت وصيته ليزيد ، وقد كررها على مسامع باقي قادة الالوية ، هي ما يلي :

ـ اثناء سيرك لا تقسو على نفسك او على جيشك . ولا تكن شديدا على رجالك او قادتك المرؤوسين ، وعليك ان تشاورهم في جميع الامور .

ـ كن عادلا واقلع عن الشر والظلم ، فالامة التي لا تحكم بالعدل لا يمكن ان تفلح وتنتصر على اعدائها .

ـ وعند ملاقاتك للعدو لا تولي الادبار ، لان من يولي الادبار ، الا لمناورة او لاعادة تجميع ، يبوء بغضب من الله ومصيره جهنم وبئس القرار .

الخريطة رقم ١٦ - فتح بلاد الشام



- وعندما يمن الله عليك بالنصر على اعدائك ، لا تقتل امرأة او طفلا أو شيخا ولا تذبح حيوانا الا اذا ابتغيت أكله . ولا تنقض عهدا اخذته على نفسك .

- وسوف تأتي اناسا يعيشون كالرهبان في الاديرة ، وهم يعتقدون انهم يتعبدون الى الله . فدعهم وشأنهم ولا تدمر اديرتهم . وسوف تقابل اناسا آخرين موالين للشيطان وعبدة للصليب ، وهم يحلقون شعرهم من منتصف رؤوسهم فترى فروة رؤوسهم . فاحمل عليهم بسيفك حتى يعتنقوا الاسلام او يدفعوا الجزية .
واني اتركك لعناية الله [1] .

كان ابو بكر في وصيته هذه يحذو حذو الرسول الكريم ، الذي كان عندما يرسل حملة عسكرية يوصي قائدها بما يلي :

قاتل باسم الله : قاتل ولكن لا تتعدى الحدود ، ولا تكن غادرا ، ولا تمثل بالقتلى ، ولا تقتل النساء والاطفال ، ولا تقتل اهل الاديرة[2] . وقيل ان أبا بكر قد سار مع يزيد مسافة ميلين تقريبا ، وعندما طلب منه يزيد ان يعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الاقدام التي تعفّر بالتراب في سبيل الله لن تصيبها نار جهنم .

وانطلق يزيد ، وكلمات ابي بكر ترن في اذنيه ، من المدينة . لقد بدأ فتح بلاد الشام .

سار يزيد على الطريق الى تبوك بسرعة جيدة . وسار خلفه لواء شرحبيل ، ثم لواء ابي عبيدة ، وكان بين اللواء والآخر مسيرة يوم . وسار عمرو بن العاص بلوائه على الطريق الغربي الى المرشرش . وبعد ان قطع يزيد مرحلتين او ثلاثة بعد تبوك كان اول من اصطدم بالعدو . وكان هذا العدو عبارة عن قوة من العرب النصارى ارسلت من قبل الروم الى الامام كمفرزة استطلاع . وقد انسحب هؤلاء العرب بسرعة بعد مناوشة بسيطة مع حرس

(١) الواقدي ـ صفحة ٤ .
(٢) ابو يوسف ـ صفحة ١٩٣ ـ ١٩٥ .

المقدمة للواء المسلمين . وبعد انسحابهم ، تابع يزيد سيره الى وادي عربة الذي يلتقي بالطرف الجنوبي للبحر الميت . (انظر الخريطة رقم ١٦)

وصل يزيد الى وادي عربة بنفس الوقت تقريبا الذي وصل فيه عمرو ابن العاص الى المرشرش . واصطدم كلا اللوائين الآن بقوات من الروم ، تماثل قوات اللوائين ، وقد ارسلت قوات الروم هذه من قبل جيش الروم الرئيسي لمنع المسلمين من دخول فلسطين . وحارب يزيد وعمرو بن العاص قوات الروم التي اتجهت صوبهما ودمراها بعد ان انزلا بها خسائر جسيمة . وعندما انسحبت قوات الروم التي امام يزيد بسرعة كبيرة ، ارسل يزيد مفرزة لمطاردة الروم وتمكنت هذه المفرزة من اللحاق بهم على مسافة بضعة اميال قبل الوصول الى غزة ، واوقعت بهم خسائر فادحة ثم عادت وانضمت الى يزيد في وادي عربة . لقد حدثت هذه الاشتباكات خلال اسبوعين من بدء مسير المسلمين من المدينة .

وبينما كانت هذه الاشتباكات دائرة من قبل لواء يزيد ـ هذه الاشتباكات التي اخرته عن الوصول الى الهدف الموكل اليه من قبل الخليفة ـ تابع شرحبيل وابو عبيدة مسيرهما شمالا على الطريق الرئيسي : معان ـ مؤته ـ عمّان . وبعد فترة قصيرة لحق بهما يزيد . وفي نهاية شهر صفر (اوائل ايار) وصل شرحبيل وابو عبيدة الى المنطقة الواقعة بين بصرى والجابية[1] . وعسكر يزيد في مكان ما شمال شرق الاردن ، وبقي عمرو في وادي عربة . وفي هذه المرحلة ايقن المسلمون ان الروم بدؤوا يستعدون . وفي الحقيقة كان الروم جاهزين للقتال .

كان الامبراطور هرقل في حمص ، يخطط لاجراءات معاكسة ضد المسلمين . وعندما سمع لاول مرة بالهزائم الساحقة التي مُني بها جيشُ الفرس على يد خالد ، لم يفاجأ بذلك ابدا ، لانه كان يحمل نفس الفكرة التي

---

(١) يحدد المسعودي (مروج الذهب ـ الجزء ٤ ، صفحة ٦٦) موقع الجابية على بعد ميلين من جاسم . وهي تقع الى الغرب قليلا من خط جاسم ـ نوى ، وبعد وصول المسلمين اصـ ـ الجابية مركزا عسكريا .

يحملها البلاط الفارسي عن العرب . لكنه لم يكن مفرطا في الحذر . ثم جاءت انباء فشل خالد بن سعيد ، فشعر هرقل بالاطمئنان . وعلى كل الاحوال ، فقد امر هرقل ، على سبيل الحيطة ، بوضع عدة فرق رومانية في أجنادين ، حيث تستطيع من هناك ان تتعامل ضد اية قوة للمسلمين تدخل فلسطين او الاردن .

عندما انطلقت الوية المسلمين من المدينة ، تلقى جيش الروم معلومات عن التحرك بواسطة العرب النصارى . وبعد ان اخبر هرقل بآخر المعلومات عن الموقف وعن اتجاه تحرك المسلمين ، ادرك ان هذا التحرك هو محاولة خطيرة لفتح مملكته . وبعد ذلك بوقت قصير سمع هرقل بأنباء هزيمة قوات التغطية الرومانية التي أرسلت من اجنادين على يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين . فقرر ان ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين ويلقي بهم في الصحراء التي قدموا منها . وبناء على اوامره ، بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم بالاستعداد للتحرك الى اجنادين من الحاميات المنتشرة في فلسطين وسورية .

في هذه الاثناء اقام قادة المسلمين اتصالات مع السكان المحليين ووضعوا الاساس لشبكة استخبارات . وبواسطة هذه الشبكة علموا بوجود جيش الروم في اجنادين . وبعد ذلك ببضعة ايام تلقوا معلومات عن تحرك قوات اخرى باتجاه اجنادين ، وارسل جميع قادة الالوية رسائل الى ابي عبيدة الجراح لابلاغه عن هذه التحركات . وكانت الوية من جيش المسلمين موجودة في نفس المنطقة تقريبا — وهي المنطقة الواقعة شرق الاردن وجنوب سورية — وفي الحال ، وضع ابو عبيدة هذه الالوية تحت امرته . وكان عمرو بن العاص منعزلا بعض الشيء عن باقي الوية المسلمين ، وشعر بان الاستعدادات الرومانية كانت موجهة ضد لوائه . لذلك طلب المساعدة من ابي عبيدة .

في منتصف ربيع الاول (الاسبوع الثالث من ايار) ، تلقى الخليفة رسالة من ابي عبيدة يشرح فيها صورة الموقف في سورية وفلسطين . وكانت تقديرات المسلمين تتلخص بان الروم يستطيعون في الوقت الحاضر حشد جيش تعداده مائة الف رجل في اجنادين ، حيث يستطيع هذا الجيش من هنا ان يضرب

في المواجهة لواء عمرو بن العاص ، او ان يقوم بمناورة للالتفاف حول اجناب ومؤخرة الوية المسلمين الثلاثة الاخرى . وكانت هذه التقديرات لقوة الروم قريبة من الحقيقة ، كما سنرى فيما بعد .

بدأ الموقف الآن يسوء . فقوة الروم اكبر بكثير مما توقع المسلمون عندما بدأ التحرك للفتح ؛ وكان واضحا ان الروم لن يقبعوا في مدنهم الحصينة وينتظروا الهجوم . وكانوا يحشدون قواتهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية كبيرة في الميدان . وليس أمام المسلمين الا ان يختاروا حلاً من اثنين وهما : الحرب ضد الروم في معركة من حالة الثبات ، او الانسحاب بسرعة الى الجزيرة العربية ، وهذان الحلاّن غير ملائمين للتفكير بهما . وقد عارض الخليفة الحلّ الثاني بشكل قطعي . فالعودة الى الجزيرة أمام تهديد الروم غير واردة . وفتحُ بلاد الشام قد بدأ ولا يمكن الرجوع عنه ؛ ويجب تدعيمه . ولكن الشيء الذي أقلق ابا بكر هو من سيقود جيش المسلمين ؟ فأبو بكر كان قد أمر بأن يتولى ابو عبيدة قيادة الجيش عندما تعمل جميع الالوية مجتمعة في معركة واحدة . وكان ابو عبيدة رجلا عاقلا وذكيا والجميع يكنون له التقدير والاحترام . وكان ايضا رجلا شجاعا . ولكن ابا بكر كان يعرف طبيعته الوديعة وعدم خبرته في قيادة قوات عسكرية في عمليات كبيرة ، لذلك شك ابو بكر في قدرته على قيادة جميع جيش المسلمين في مجابهة خطيرة مع جيش الروم القوي والمدرّب .

واخيرا توصل ابو بكر الى حل لهذه المشكلة : لقد قرّر ان يرسل خالد بن الوليد لقيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . فخالد قد حطّم منذ عهد قريب جيشَ الفُرس في عدة معارك دموية . كما ان خالدا يعرف ماذا عليه أن يفعل . وشعر ابو بكر بأن حِملاً قد انزاح عن كاهله . وقال : « والله لأنسِيَنّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[1] . لذلك ارسل رسولا سريعا الى الحيرة ومعه تعليمات الى خالد لكي يسير بنصف جيشه الى الشام ؛ ويتولى قيادة قوات المسلمين ويحارب الروم .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .

يتحدث الفصل القادم عن مجرى الحوادث التي تكـون فتوحات خالـد ببلاد الشام . وقد اخذتُ على عاتقي هذا الموضوع وانا على يقين من احتمـال حـدوث بعض الاخطـاء في سردي لهذه الحملة ، بسبب الفوضى والتناقض الموجود في روايات الاوائل . اذ يوجد عدم اتفاق حول كثير من الامور التي تتعلق بهـذا التاريخ العسكري منها : تواريخ المعارك الكبيرة ؛ وعدد القـوات التي اشتركت في هذه المعارك ؛ والترتيب الذي حدثت به هذه المعارك ايضا ؛ وحتى هنالك اختلاف في الراي حول من قاد بعض المعارك . والكاتب الوحيد الـذي وصف الحملة بتفصيل دقيق هو « الواقدي » ؛ ولكن روايته ايضا تتضمن اخطاء ، لانها اعتمدت على روايات المحاربين الشفوية ، وهي تتعارض في بعض الاحيان مع تسلسل الحوادث .

لقد أعددتُ في هذا الكتاب ، من جميع الروايات المتوفرة ، تسلسـلا منطقيا للحوادث يتفق مع الفَهْم العسكري ولا يترك مجالا للتناقض أو الالتباس. وقد وفّرتُ بذلك على القارىء الكريم مشقة حواشٍ عديدة تشرح الروايات المختلفة والمتناقضة للاحداث التي جرت في هذه الحملة ؛ ولكن القارىء سيجد حواشٍ في المسائل الهامة فقط ، وبذلك يستطيع ان يكوّن رأيا خاصاً به .

* * *



التوغّل في بلاد الشّام

اذاكان الجنود يأملون بالحصول على يوم من الراحة بعد تجربة الايام الخمسة من المسير الخَطِر ، الذي أوشك ان يؤدي بهم الى الهلاك قبل ان يخوضوا اية معركة ، فهم مخطئون . ففي صبيحة اليوم التالي تحرك خالد مع جيشه نحو « سُوَى » . ولم يستطع الرجال ان يشتكوا ، لان قائدهم نفسه لم ينلْ قسطا من الراحة ، ولا يبدو عليه انه بحاجة لهذه الراحة . وفي الحقيقة عندما بدأ المسير واخذ خالد يتفقد جنوده وهم يتقدمون ، دب النشاط في هؤلاء الجنود حينما راوْا قائدهم في ذروة النشاط والحماس ، ونَسَوْا ذكريات المسير الخطر المريرة . واصبحوا في هذا اليوم على استعداد لبذل دمائهم في حملة الشام . وعليهم ان يفعلوا ذلك ، لان خالدا هو قائدهم .

بدأ خالد حملته لبلاد الشام وهو يرتدي درعا من السَّرد كان قد حصل عليه من مسيلمة الكذاب . وكان يتدلى من حزامه الجلدي سيف نفيس حصل عليه من مسيلمة ايضا . وكان الدرع والسيف تذكارين من معركة اليمامة . وكان يرتدي فوق خوذته عمامة حمراء ، وتحت الخوذة ، كان يضع قلنسوة حمراء ، واذا أمعن النظر في هذه القلنسوة وُجد بضع خطوط سوداء ؛ وهذه القلنسوة ستذكر في وقت آخر . وكان يحمل في يده راية سوداء كان النبي
القلنسوة ستذكر في وقت آخر . وكان يحمل في يده راية سوداء كان النبي
قد أعطاه اياها . وكانت في يوم ما تخص النبي وكانت تعرف باسم « العُقَابْ » .

وسار مع خالد تسعةُ آلاف من المحاربين الشجعان المتمرسين في القتال

الذين اشتركوا في عدة معارك ناجحة ، وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم عند صدور الاوامر من قائدهم المحبوب . وسار في هذا الجيش ايضا بعض القادة الصغار الذين اثبتوا شجاعة نادرة ، وهم على استعداد الآن ايضا لصنع المعجزات والسخرية من الموت . كان في هذا الجيش ابنُ خالد ، عبدُ الرحمن الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعا . وكان فيه ايضا ابنُ الخليفة واسمه عبدُ الرحمن . وكان يوجد رافع بن عميرة دليلُ خالد بن الوليد اثناء « المسير الخَطِر » ، وهو محارب جبّار ، وهو زوج ابنة خالد . كذلك كان يوجد قعقاع بن عمرو ، الذي أرسله ابو بكر لتعزيز خالد في معركة سابقة . وكان يوجد شاب ، سنسمع عنه الكثير في هذه الحملة ، هو ضرار ابن الأزور . وكان ضرار شابا نحيلا ، قوي البنية ، يفيض حيوية ويشتعل حماسا ؛ بحيث يستطيع أن يلهب حماس اي رجل منهك القوى ويجعله يندفع الى القتال . واصبح ضرار فيما بعد الساعد الايمن لخالد . حيث أسندت اليه بعد ذلك معظم المهام الصعبة ، واظهر رجولة وتحدياً للموت بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب .

بعد منتصف النهار بقليل ، وصل جيشُ خالد الى « سُوَى » . (انظر الخريطة رقم ١٥) . وهذه كانت اول قرية قرب حدود الشام ، وهي عبارة عن واحة محاطة بمنطقة معشوشبة تستخدم لرعي قطعان الماشية . واجتاز خالد هذه القرية ، بعد ان قضى على جميع المقاومات فيها ، وساق امامه قطعانَ الماشية التي كانت في المراعي لإطعام جيشه .

وفي اليوم التالي وصل الجيش الى « أرك » ، وهي مدينة محصنة كان يدافع عنها حامية من العرب النصارى بإمرة قائد من الروم . وعندما تحصنت الحامية داخل الحصن لدى مشاهدتها المسلمين ، فرض المسلمون الحصار على « أرك » . وهنا أدرك خالد مدى شهرته المنتشرة خارج حدود الاراضي التي حارب فيها . وكانت شهرته كفيلة بأن تؤدي الى استسلام الحامية بدون قتال .

وكان يعيش في « أرك » رجل حكيم كبير السن ، على علم بأحداث العالم

وشؤونها . وعندما أخبر بوصول جيش معاذ عبر الصحراء ، سأل قائلا : « هل راية الجيش سوداء ؟ وهل قائد هذا الجيش طويل القامة ، قوي البنية ، عريض المنكبين ، ذو لحية كبيرة ، ويوجد على وجهه بعض آثار مرض الجدري [1] ؟ فأكد الذين شاهدوا خالدا وهو يتقدم مع جيشه هذه الاوصاف. فقال الرجل الحكيم : « اذن إياكم ومحاربة هذا الجيش » .

لقد عرَض قائد الحامية الروماني تسليم الحصن ، ودُهش للشروط السخية التي قُدمت من قبل المسلمين . فما على أهل أرك سوى دفع الجزية . وتم توقيع الاتفاقية ، واستسلم الحصن ، وعسكر جيش المسلمين خارجه لقضاء الليل .

وفي اليوم التالي أرسل خالدٌ مجموعتين لاخضاع السخنة وكَدْمَة (تعرف اليوم باسم « كديم ») . وارسل بنفس الوقت رجلا على بعير ليفتش عن ابي عبيدة في منطقة الجابية ويخبره ان يبقى في مكانه حتى يصل خالد او استلام تعليمات جديدة . ثم سار خالد بباقي جيشه الى تدمر .

وعندما وصلت المجموعتان اللتان ارسلهما خالد الى السخنة ، وكَدْمة ، استقبلهما السكان بالترحيب والفرح بعد ان سمعوا بالشروط السخية التي قُدمت في اليوم السابق الى « أرك » . وكانوا حريصين فقط على اقامة علاقات ودية مع جيش المسلمين . لذلك لم تحدث هنا اية مشاكل وعادت المجموعتان بدون اراقة دماء .

وفي تدمر ، أغلقت حاميتُها باب الحصن . وعندما وصل المسلمون واحاطوا بالحصن ، بدأت المفاوضات لتسليم الحصن بدون قتال . ووافق أهلُ تدمر على دفع الجزية واطعام وإيواء جنود المسلمين الذين يمرّون بمدينتهم. كما ان زعيمَ تدمر العربي قدّم حصانا هدية الى خالد ، وقد استخدمه خالد في عدة معارك جرت في هذه الحملة .

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٥ .

وسار الجيشُ من تدمر الى القريتين ، وقاوم اهلُ القريتين الفاتحين المسلمين . فتمّتْ محاربتهم ، وهزيمتهم ، ونُهبتْ مدينتهم .

ثم توقف الجيشُ في « حَـوّارين » (وتقع بعد القريتين بعشرة اميال) ، التي يوجد فيها قطعان كبيرة من الماشية . وبينما كان المسلمون يجمعون المواشي ، قام العربُ النصارى بمهاجمتهم . وكان هؤلاء من السكان المحليين المعـزّزين بقواتٍ من الفساسنة قَدِمَتْ من بصرى لنصرتهم . وقد تَمّتْ هزيمتُهم ايضا ونُهبتْ مدينتهم .

وفي صباح اليوم التالي تابع خالد تقدمه باتجـاه دمشق ، وبعد مسيرة ثلاثة ايام وصل الجيشُ الى مَمَرٍّ يقع بين عدرا والقطيفة (الحاليتين) ويجتاز هـذا الممر قمة جبلية منحدرة ترتفع تدريجيا حتى تصل الى ارتفاع يزيـد عن الفي قدم عن مستوى الاراضي المحيطة بها . وهذه القمة الجبلية هي جزء من السلسلة الجبلية التي تعرف باسم : « جبل الشرق » ، الذي هو فرع من سلسلة جبال لبنان الشرقيـة ، وتمتد باتجـاه شمال شرق الى تـدمر . والممر نفسه ليس كبيرا ولكنه طويل . ووقف خالد على اعلى جزء من الممر ، وهنـا وضع رايته . ونتيجة لذلك اصبح الممر يُعرف باسم : « ثنية العُقاب »؛ اي ممر العُقاب ، نسبة الى راية خالد التي تسمى « العُقاب » ، ولكنْ احيانا يشار الى الممر بالثنية فقط . مكث خالد في هذا الممر ساعةً كاملة ، وكـانت رايته تخفق فوقه ، واخذ ينظر الى غوطة دمشق . ولم يستطع خالد من مكانه في الممر ان يرى دمشق نفسها بسبب اختفائها عن النظر من جـرّاء الارض المرتفعة التي تمتد من الشرق الى الفرب ، وشمال المدينة ، وقد أعجب خالد بجمال الفوطة وغناها .

تحرك خالد من ممر العُقاب الى مرج راهط ، وهي مدينة غسانية كبيرة قرب عدرا (الحالية) على الطريق الى دمشق . ووصل المسلمون في الوقت المناسب ليشاركوا الفساسنة في مهرجانٍ كانوا يحتفلون به في مرح ، ولكن هذه المشاركة كانت على شكل اغارة عنيفة . ففي مرج راهط ، تجمع عـدد كبير من اللاجئين الذين فروا من المنطقة التي كانت مسرحا لعمليات خالد منذ

فترة وجيزة ، واختلط هؤلاء اللاجئون بالجماهير المحتفلة بالمهرجان . ولم يكن الفساسنة غير مكترثين بالخطر الذي سببه دخول خالد الى بلاد الشام . فقد وضعوا قوات تغطية قوية على الطريق من تدمر ، أسفل المرج ؛ ولكن قوات التغطية هذه انهارت في دقائق أمام هجوم خيالة المسلمين السريع . ومع ان مقاومة الفساسنة استمرت اثناء تقدم المسلمين ، الا انها توقفت بمجرد وصول المسلمين الى المدينة وقيامهم بالاغارة عليها . وبعد ان جمع المسلمون كمية كبيرة من الغنائم وعددا من الاسرى ، انسحب خالد من المدينة وعسكر خارجها .

وفي صباح اليوم التالي أرسل خالد مجموعة راكبة قوية نحو دمشق بمهمة الاغارة على الغوطة . وبعد ان ارسل رسولا يحمل تعليمات الى ابي عبيدة في بصرى ، توجه مع القوة الرئيسية الى بصرى ، متجنبا دمشق . ووصلت المجموعة الراكبة التي ارسلت الى دمشق ضواحي المدينة ، واستولت على المزيد من الغنائم والاسرى ، ثم عادت وانضمت الى خالد وهو في طريقه الى بصرى .

وانتهت الآن العمليات الثانوية التي جرت بعد دخول خالد الى بلاد الشام .

كان ابو عبيدة قد احتل منطقة حوران التي تقع شمال شرق نهر اليرموك . وكان يوجد تحت إمرته ثلاثة الوية من جيش المسلمين وهي لواءه ، ولواء يزيد ، ولواء شرحبيل ؛ لكنه لم يخض اية معركة ولم يستول على اية مدينة . وكان يقلقه مكان واحد بشكل كبير هو « بصرى » ؛ وبصرى مدينة كبيرة ، وهي عاصمة مملكة الفساسنة . ويوجد في بصرى قوة كبيرة من الروم والعرب النصارى بإمرة قائد من الروم .

وبينما كان خالد ينظف المنطقة الشرقية من بلاد الشام ، علم ابو عبيدة بانه سيصبح تحت إمرة خالد عند وصول الاخير . لذلك قرر ان يستولي على بصرى بسرعة ، لكي لايهتم بهذه المشكلة . فأرسل شرحبيل في الحال مع اربعة آلاف رجل للاستيلاء على بصرى . وسار شرحبيل الى بصرى ؛ وبمجرد ظهور

المسلمين انسحبت الحامية الى المدينة المحصنة . وكانت هذه الحامية تتألف من اثني عشر الف جندي ؛ ولكن نظرا لكونها تتوقع وصول المزيد من قوات المسلمين ، على اعتبار ان قوة شرحبيل عبارة عن حرس مقدمة ، بقيت داخل اسوار الحصن . وعسكر شرحبيل على الجانب الغربي من المدينة ، ووضع جماعات من رجاله حول الحصن من جميع الاتجاهات .

ولم يحدث أي شيء لمدة يومين . وفي اليوم التالي ، عندما استأنف خالد المسير الى بصرى في يومه الاخير ، خرجت الحامية من المدينة للدخول في معركة مع المسلمين خارج الاسوار . وانتظمت القوتان بترتيب المعركة ؛ ولكن جرت في البدء محادثات بين شرحبيل والقائد الروماني ، حيث عرض شرحبيل على قائد الروم ان يختار احدى ثلاث : الاسلام ، او الجزية ، او السيف . فاختار قائد الروم السيف ، وعند الضحى بدأت المعركة .

واستمر القتال ساعتين دون ان يحرز أي من الطرفين نجاحا بارزا ؛ وعند الظهر بدأ يظهر تفوق الروم العددي واتجه القتال لصالحهم . واستطاع الروم ان يرسلوا قوات للاحاطة بأجناب المسلمين ، وزادت حدّة القتال وضراوته . وعندما شعر المسلمون بالخطر المحدق بهم قاتلوا بشكل منقطع النظير لمنع الروم من تطويقهم ، حيث كان الروم يهدفون الى ذلك بشكل جليّ . وحوالي بعد الظهر تقدم جناحا الروم الى الامام ، وبات تطويق قوات شرحبيل امرا مؤكدا . وفجأة لاحظ المتحاربون قوة هائلة من الخيالة تعدو بمجموعات كبيرة نحو ميدان المعركة وهي قادمة من الاتجاه الشمالي الغربي . وكان امام هذه القوة رجلان يلوحان بسيفيهما ، وكان احدهما ضخما ويرتدي عمامة حمراء .

كان خالد على بعد ميل واحد من بصرى عندما حملت اليه الريح اصداء المعركة . وفي الحال امر رجاله بركوب الخيل ، وعندما اصبحت الخيالة جاهزة ، انطلق بها عدواً نحو ميدان المعركة . وكان يعدو بجانبه على فرسه عبد الرحمن بن أبي بكر . لكن خالدا لم يتقابل مع الروم ابدا . فحالما اكتشف الروم وصول خيّالة المسلمين ، قطعوا التماس مع شرحبيل وانسحبوا بسرعة

الى الحصن . واعتبر جنودُ شرحبيل ان ماحدث هو معجزة : فسيف الله قد ارسل اليهم لانقاذهم من الدّمار .

كان شرحبيل رجلا شجاعا ومسلما تقيا في منتصف الستينات من عمره . وكان من اصحاب رسول الله المقربين ، وكان احد الذين يكتبون القرآن الذي انزل على النبي ، ولذلك أصبح يعرف باسم « كاتب رسول الله » . وكثيرا ماكان يخاطب بهذا الاسم . وكان شرحبيل ايضا قائدا عسكريا وسليم المنطق ، وقد تعلم الكثير من فنون الحرب على يدي خالد عندما حارب تحت إمرته في اليمامة وفي حملة العراق .

وبنظرة فاحصة سريعة ادرك خالد مقدار قوة المسلمين وقوة الروم وتعجّب لعدم انتظار شرحبيل لوصوله قبل ان يشتبك مع حامية البصرى . وعندما تقابل الاثنان رحّبا ببعضهما ، ثم قال خالد لشرحبيل : « الا تعلم ياشرحبيل ان هذه هي مدينة هامة وتضم حامية قوية بإمرة قائد شهير ؟ لماذا تزج بنفسك في المعركة بهذه القوة الصغيرة ؟ » .

فأجاب شرحبيل : « بناء على اوامر ابي عبيدة » . فقال خالد : « ان ابا عبيدة رجل نقي السريرة ، لكنه لايعرف فنون الحرب »[1] .

وفي صبيحة اليوم التالي خرجت الحامية الرومانية من الحصن للقتال . فالصدمة التي تلقاها الروم في اليوم السابق لدى وصول خالد ، قد زال اثرها ؛ اذ انهم عندما رأوا ان جميع قوات المسلمين التي امامهم تقارب قواتهم حجما ، قرروا ان يجربوا حظهم مرة اخرى . كذلك توقعوا ان يحاربوا ويهزموا المسلمين قبل ان ينالوا قسطا من الراحة بعد سيرهم الطويل . ولكنهم لم يعرفوا ان مقاتلي خالد كانوا غير معتادين على الراحة .

وانتظم الجيشان بترتيب المعركة على السهل الموجود في ظاهر المدينة . واستلم خالد قيادة القلب ، وعيّن رافع بن عميرة قائدا للجناح الايمن وضرار ابن الازور قائدا للجناح الايسر . ودفع أمام القلب قوة تغطية خفيفة بإمرة

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٧ .

عبد الرحمن بن ابي بكر . وعند لحظة بدء المعركة تبارز عبد الرحمن مع قائد جيش الروم وهزمه . وعندما هرب القائد الروماني الى صفوف جيشه ، شنّ خالد هجوما عاما على طول المواجهة . وقد قاوم الروم بشجاعة فترة من الوقت ، وفي غضون ذلك كان جناحا المسلمين يدمران جناحي الروم ، وخاصة ضرار الذي اصبح مشهورا منذ هذه اللحظة في الحملة على بلاد الشام . واصبح جنود المسلمين يحبونه جدا ، كما ان الروم كانوا يخشون بأسه . وبسبب شدة الحرارة في هذا اليوم القائظ ، خلع ضرار درعه المصنوع من الزرد ، وهذا العمل جعله يشعر بخفة الحركة والسعادة . ثم خلع قميصه واصبح صدره عاريا . وهنا شعر بخفة الحركة والسعادة بشكل اكثر . وانقض ضرار على الروم واعمل فيهم السيف حيث قضى على كل رومي تقدم نحوه في مبارزة فردية . وفي غضون اسبوع انتشرت اخبار البطل عاري الصدر في ارجاء بلاد الشام ، ولم يجرؤ على مبارزته من الروم سوى اشجع الشجعان .

وبعد قتال دام فترة من الوقت بين الجانبين ، قطع الرومُ التماس وانسحبوا الى الحصن . في هذا الوقت كان خالد يقاتل مترجلا امام قلب جيشه . وبينما كان يهمّ بالذهاب لاصدار الاوامر من اجل بدء الحصار ، رأى خيّالا يقترب من بين صفوف المسلمين . وهذا الخيّال سيحقق اعمالا بطولية وسيكسب الشهرة والمجد في حملة الشام وسيصبح ثاني رجل بعد خالد .

كان هذا الخيال في اوائل الخمسينات من عمره ، طويلا ، نحيلا ، ذا انحناءة خفيفة . وكان وجهه النحيف واضحَ القَسَمات جذّابا ، وكانت عيناه تنمّان عن الفهم والوداعة . وكانت لحيته الدقيقة مصبوغة . وكان يحمل في يده راية كالتي يحملها القادة فقط . ويعتقد بأن هذه الراية ، وهي صفراء اللون ، كانت رايةَ الرسول الكريم في وقعة خَيْبَر [1] . وكان الدرع الذي يرتديه لايخفي بساطة الملابس التي يرتديها . وعندما كان يبتسم لخالد ، ظهرت فجوة في اسنانه الامامية ، وكانت هذه الفجوة موضع حسد جميع المسلمين . ان هذا الخيّال هو ابو عبيدة بن الجراح ، الذي ليس له

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٣٨ .

اسنان قواطع . لقد فقد قواطعه عندما كان يسحب حلقتين من حلق خوذة النبي انغرزتا في وجنة الرسول في غزوة احد ، ويقال بأن ابا عبيدة كان أوسم من كانوا بدون قواطع [1] .

كان ابو عبيدة بن الجراح من اعزّ المسلمين الى قلب رسول الله . وقد قال عنه النبي يوما : « لكل امة أمين . وامين هذه الامة ابو عبيدة » [2] . وبعد ذلك اصبح يعرف باسم «أمين الامة» . وكان احد العشرة المبشرين بالجنة .

هذا هو الرجل الذي وضع تحت قيادة خالد ؛ وقد نظر اليه القائد الجديد بإمعان وهو يقترب نحوه . لقد كان خالد يعرف أبا عبيدة جيدا في المدينة ، وكان يحبه ويحترمه لفضائله الكثيرة ولورعه وتقاه . كما ان ابا عبيدة كان يحب خالدا بسبب حبّ النبي له ، ووجد فيه اداة عسكرية اختارها الله لسحق الكافرين . واطمأن خالد لابتسامة ابي عبيدة . وعندما اقترب اكثر ، بدأ ابو عبيدة بالترجل عن فرسه ، لان خالدا كان لايزال مترجلا . فقال له خالد : « ابق على فرسك » ، وبقي ابو عبيدة على فرسه ، فسار خالد اليه وتصافح القائدان الكبيران .

وبدأ ابو عبيدة الحديث قائلا : « يا أبا سليمان ، لقد تلقيت بسرور كتاب أبي بكر بخصوص تعيينك قائدا علي . ولا يوجد غلّ في صدري ، لانني اعرف مهارتك بشؤون الحرب » .

فأجاب خالد : « والله لولا ضرورة اطاعة اوامر الخليفة لما قبلت ابدا ان اتأمر عليك . فأنت أعلى منزلة مني في الاسلام . انني من اصحاب رسول الله ، اما انت فقد دعاك الرسول : امين هذه الامة » . وعند هذه الملاحظة السعيدة اصبح ابو عبيدة تحت قيادة خالد .

قرّض المسلمون الحصار الآن على بصرى . وفقد قائد الروم الامل ؛ لانه كان يعلم ان معظم الاحتياط المتوفر إمّا قد تحرّك الى اجنادين او في

(١) ابن قتيبة ـ صفحة ٢٤٧ .
(٢) ابن قتيبة ـ صفحة ٢٤٨ .

الطريق اليها ، وشك في امكانية وصول اية مساعدة اليه . وبعد بضعة ايام من الهدوء ، سَلّم الحصنَ بدون قتال . والشرط الوحيد الذي فرضه خالد على بصرى هو دفع الجزية . وجرى الاستسلام في حوالي منتصف تموز عام ٦٣٤ م (منتصف جمادى الاولى عام ١٣ هجري) .

كانت بصرى اول مدينة هامة تم الاستيلاء عليها من قبل المسلمين في سورية . وفقد المسلمون مائة وثلاثين رجلا خلال يومين من القتال قبل احراز هذا النصر . اما خسائر الروم والعرب النصارى فلم تعرف . وكتب خالد الآن الى ابي بكر يعلمه بانجازاته وانتصاراته منذ دخوله الى بلاد الشام ، وارسل خمس الغنائم التي تم الاستيلاء عليها خلال الاسابيع القليلة الماضية . ولم تكد تستسلم بصرى حتى عاد كشاف ، أُرسل من قبل شرحبيل الى منطقة اجنادين ، ومعه معلومات تشير الى تحشدات الروم الجارية هناك على قدم وساق . وانهم سيحشدون في اجنادين جيشا كبيرا يبلغ تعداده تسعين الفا . وأدرك خالد على الفور انه ينبغي عليه ان لايضيع الوقت .

في هذا الوقت كان يزيد لايزال جنوب نهر اليرموك ، وكان عمرو بن العاص لايزال في وادي عَرَبة ، وكانت عدة مفارز من لوائيْ شرحبيل وأبي عبيدة منتشرة في منطقة حوران . فكتب خالد الى جميع القادة للبدء بالتحرك فورا والتحشد في أجنادين ؛ وسار المسلمون ومعهم زوجاتهم واطفالهم وعدد كبير من قطعان الماشية التي كانت بمثابة احتياط تعيينات متحرك . وفي اجنادين سوف يتم خوض أول المعارك الكبيرة بين المسلمين والروم .

* * *

معركة أجنادين

في الاسبوع الثالث من تموز عام ٦٣٤ م ، سار جيشُ المسلمين من بصرى، وكان منظر مسير هـذا الجيش مدهشاً ، فهو لايشبه اي جيش نظامي . وكان تقدمه يشبه مسير قافلة اكثر من مسير قوة عسكرية .

فجنود هذا الجيش لايرتدون زياً موحدا ، ولا يوجد تشابه في ملابسهم التي يرتدونهـا . وكان بإمكان المسلمين ان يرتدوا أي زي يشاؤون ، بمـا في ذلك الملابس التي تم الاستيلاء عليها من الفرس والروم . ولم يكن لديهـم اشارات تدل على الرتب للتمييز بين الرئيس والمرؤوس . وفي الحقيقة لم يكن يوجـد قادة بمعنى التسلسل العسكري حتى ذلك الوقت ؛ لان القيادة كانت منصبا وليست رتبة . فأي مسلم يستطيع ان ينضم الى جيش المسلمين ، وبغض النظر عن المركز القبلي لهذا المسلم فان انضمامه الى الجيش يعتبر شرفا له . ويمكن ان يحارب الرجل كجندي عادي في احد الايام ثم يصبـح قائدا لكتيبة في اليوم التالي ، او حتى قائدا لقوة اكبر . وكان القادة يعينون لقيـادة معركة او حملة ؛ وعند انتهاء العملية يعود هؤلاء الى صفوف الجنود مرة اخرى . وكان الجيش منظما على النظام العشري ، وهو نظام بداه النبي في المدينة [1] . فكان يوجد قادة لكل عشرة رجال ، ولكل مائة رجل ، ولكل الف رجل . وكان تنظيم الالف رجل يقابل تنظيم الكتيبة . وكان تجميع عدد مـن الكتائب لتشكيل قوة اكبر أمراً مَرِناً يتغير حسب الموقف .

(١) الطبـري ـ الجـزء ٣ ، صفحـة ٨ .

حتى بالنسبة للاسلحة والمعدات لم يكن هنالك مقياس او قاعدة ثابتة لهذا الجيش . فالرجال يقاتلون بأية اسلحة يملكونها ، وعليهم ان يؤمنوا اسلحتهم الخاصة بهم عن طريق الشراء او من اعدائهم الذين يسقطون في المعركة . وكانت جميع الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت موجودة لديهم مثل : الرمح ، والحربة ، والمزراق ، والسيف ، والخنجر ، والقوس . وبالنسبة للدروع فقد كانوا يرتدون دروعا من الزرد وخوذا من السلاسل . وكانت هذه الدروع والخوذ بألوان وتصاميم مختلفة ؛ وفي الحقيقة كان معظمها مأخوذا عن الفرس والروم . وكان معظم الرجال يركبون الإبل ؛ اما الذين يملكون الخيل فقد كانوا يشكلون مفارز الخيالة .

وكانت هنالك سمة بارزة لتحرك هذا الجيش الكبير وهي عدم وجود خطوط مواصلات وراءه . اي انه لم يكن وراءه خطوط تموين لعدم وجود قاعدة شؤون ادارية له . فطعام الجيش كان يُنقل معه ؛ واذا نفد اللحم ، يستطيع الرجال والنساء والاطفال ان يعيشوا اسابيع على تعيين بسيط مكون من التمور والماء . فمثل هذا الجيش لايمكن عزله عن قواعد تموينه ، لانه لاتوجد لديه مستودعات تموين . وهو لايحتاج الى طرق لتحركه ، لانه لايملك عربات نقل وكل شيء يحمل على الإبل . لذا فان بامكان هذا الجيش ان يذهب الى اي مكان ويجتاز جميع انواع الاراضي عبر اي ممر او مدق يستطيع الرجال والحيوانات المرور فيه . ان سهولة الحركة هذه اعطت المسلمين ميزة كبيرة على الروم من حيث خفة الحركة والسرعة .

وعلى الرغم من ان هذا الجيش تحــرك على شكل قافلة واعطى انطباعا انه عبارة عن حشد غير مدرب ، الا انه من وجهة النظر العسكرية كان مثار اعجاب . فعندما تقدم الجيش ارسل امامه حرس مقدمة متحرك بقوة كتيبة او اكثر . ثم تحركت القوة الرئيسية للجيش خلف حرس المقدمة ، وتحركت خلف القوة الرئيسية النساء والاطفال والمتاع على ظهور الجمال . وفي نهاية هــذا الرتل ، تحرك حرس المؤخرة . كانت الخيل تجر في المسيرات الطويلة ؛ ولكن اذا كان هنالك اي خطر محتمل من العدو للتدخل في المسير ، كان الرجال

يركبون الخيل ، ويتقدمون إما كحرس مقدمة او كحرس مؤخرة أو يتحركون على احـدى المجنبـات ، ويتوقف ذلـك على الاتجـاه الاكثر خطـرا . وعند الحاجـة ، يستطيع الجيش ان يختفي في نحو ساعـة ويصبح آمنا على مسافة خلف ارض صعبة لايستطيع العدو اجتيازهـا . وعلى هذه الصورة سـار المسلمون من بصرى .

ان الطريق الذي سلكه الجيش غير مذكور في المراجع التاريخية ؛ ولكن من المعتقد انـه يقع شمال البحر الميت ، لان الجيش وصل الى اجنادين قبل لواء عمرو بن العاص ، الذي انضم الى الجيش في اجنادين . فلو ان الجيش سار جنوب البحر الميت ، لتقابل مع عمرو بن العاص ، الذي كان مايزال فـي وادي عربة ، على الطريق . ومن المحتمل ان يكون الجيش قد سار عبر جرش واريحا ، ثم التفـّ حول القدس ، التي كانت محمية بقوة من قبل الـروم ، واجتاز الجبـال الممتدة الى الجنوب منها . وبعد ذلك انحدر الى سهـل اجنادين ، ووصل الى اجنادين في الرابع والعشرين من تموز . وفي اليوم التالي وصل الى اجنادين عمرو بن العاص ، الذي تحرك من وادي عربة بنـاء على اوامر خالـد ، وكان فَرَح عمرو بالوصول لايوصف . فقد كان في حالة مـن القلق طيلة عدة اسابيع ، لانه كان يتوقع ان تهب العاصفة المتجمعة في اجنادين فوق راسه في اي يوم .

اقام المسلمون الآن معسكرا ؛ وهذا عمل كبير بالنظر لمـدد الجيش الهائل الذي يبلغ اثنين وثلاثين الف رجل ، وهو اكبر جيش اسلامي احتشد لخوض معركة . اُقيم المعسكر على بعد حوالي ميل من معسكر الـروم ، وكان هذا اكبر من معسكر المسلمين وهو يسيطر على طريق القدس ـ بيت جبرين . وكان المعسكران يمتدان امام بعضهما بشكل متوازٍ بحيث يسهل على كليهما المبادرة الى الهجوم بدون اجراء تحركات غير ضرورية .

استغرق حشدُ جيش المسلمين في اجنادين اسبوعاً ، بينما استغرق حشد الروم فيها اكثر من شهرين . فجيش الروم ، مثل اي جيش نظامي ، احتاج الى وقت لإجراء تحركاته ، واستغرق اسابيع في الاستعدادات مثـل :

تكديس المؤن ، والعربات والخيل ؛ وتوزيع الاسلحة والمعدات : ونظرا لان جيش الروم يتحرك على آلاف العربات والمركبات ، فقد احتاج الى طرق جيدة للتحرك عليها . واستطاع الروم ان يحشدوا في غضون الشهرين المذكورين جيشا مؤلفا من تسعين الف رجل ، في اجنادين ، بقيادة « وردان » ، حاكم حمص . وكان يعاونه قائد آخر هو القُبُقْلار ، نائبه .

سار المسلمون الى أجنادين بمحض اختيارهم . وطالما ان جيش الروم بقي في اجنادين ، فانه لايوجد أي خطر يتهدد الوية المسلمين . فلو ان الروم قاموا بتحرك الى الامام ، فانهم في هذه الحالة فقط يشكلون تهديدا للمسلمين؛ عندئذ فان استراتيجية العرب المنطقية تقضي بأن يتراجعوا الى الجزء الشرقي او الجنوبي من الاردن ويخوضوا المعركة وظهرهم مستند الى الصحراء ، حيث يستطيعون الانسحاب اليها في حالة خسارة المعركة .

في هذه الحالة ، لماذا تحرك جيش المسلمين من الصحراء وتوغل في اعماق منطقة خصبة ومأهولة لمواجهة جيش الروم الذي يفوقه بثلاثة اضعاف ؟ ان الجواب يكمن في شخصية خالد . كان قدره المحتوم ان يخوض المعارك ، وكانت هذه المعارك تجذبه كالمغناطيس . وبعد اثني عشر قرنا قال قائد مشهور، وهو نابليون : « لاشيء يسعدني اكثر من خوض معركة كبيرة » . وكذلك كان الامر مع خالد . فلو كان قائد جيش المسلمين غير خالد ، لما غامر في التحرك الى أجنادين .

وعلى مرّ الايام ، ظهر ان قرار خالد كان صوابا . فمع وجود جيش كبير في اجنادين ، كان من الممكن ان يبقى المسلمون مثبّتين في المنطقة التي احتلوها ، وهذه المنطقة كانت قليلة الاهمية . لذلك كان من الضروري التخلص من التهديد الروماني الذي خُطّط بدهاء من قبل هرقل .

وهكذا أصبح الجيشان يواجهان بعضهما بعضا كل في معسكره في اجنادين . وكانت الحراسات والمخافر الامامية مدفوعة من كلا الجانبين لمنع المفاجأة . وكان القادة يقومون باستطلاعاتهم الشخصية ، بينما كان الجنود يستعدون للمعركة .

كان لمنظر معسكر الروم الضخم وقع مزعج في نفوس المسلمين . اذ كان كل شخص يعرف مـدى قوة جيش الروم ــ وهي حوالي تسعين الفا . وكانت غالبيـة المسلمين لم تشترك قط في معركة كبيرة . وكان الرجال الوحيدون الذين لم يتأثروا بقوة معسكر الروم هم جنود خالد ، البالغ عددهم تسعـة آلاف ، والذين خاضوا معارك نظامية ضد جيوش كبيرة في العراق ؛ حتىهؤلاء لم يسبق ان واجهوا مثل هذا الجيش الجرّار .

قام خالد بجولة تفقدية على الوحدات المختلفة في المعسكر وتكلم مع قادة الوحدات والجنود . وقال : « اعلموا ايها المسلمون انكم لم تروا قطّ جيشاً للروم كما ترون اليوم . فاذا هزمهم الله على ايديكم ، فانه لن تقم لهم قائمة . فاثبتوا في المعركة ودافعوا عن دينكم . واياكم ان تولوا الادبار ، لان من يولّي الادبار يكون جزاؤه نار جهنم . كونوا يقظين وصامـدين في صفوفكم ، ولا تهاجموا الا بأمر مني » [1] . كانت شخصية خالد والثقة بالنفس التي يتمتع بها ذات اثر عجيب في رفع الروح المعنوية لجنوده .

وفي المعسكر المعادي ، عقد « وِرْدان » مجلس حرب وتكلم مع قادته قائلا:

« أيها الرومان ؛ لقد وضع قيصر ثقته بكم . فاذا هزمتم ، فإنكم لـن تستطيعوا قطّ الوقوف امام العرب ؛ وهم سوف يفتحون ارضكم ويسبون نساءكم . فاصمـدوا . وعندمـا تهاجموا ، هاجموا كرجـل واحـد ولا تشتتوا جهودكـم . اطلبوا عـون الصليب ؛ وتـذكروا انكـم ثلاثـة لكـل واحد منهم » [2] .

وكجزء من الاستعدادات للمعركة ، التي لم تنشب في الحقيقة الا بعـد مضي بضعة أيام ، قرر خالد ان يرسل كشافا جريئا ليقوم باستطلاع لمعسكر الروم عن كثب . وتطوع ضرار لهذه المهمة وارسل الى الامام بناء على ذلك . ركب ضرار حصانه ، بعد ان نزع قميصه واصبح عاري الصدر ، وصعد الى

(١) الواقـدي ــ صفحـة ٣٥ .
(٢) الواقـدي ــ صفحـة ٣٥ .

تلّ صفير ليس بعيدا عن قلب معسكر الروم . وهناك شاهده الروم وارسلوا مفرزة من ثلاثين محاربا لالقاء القبض عليه . وعندما اقتربوا منه ، بدأ ضرار بالعودة خَبَباً الى معسكر المسلمين ؛ وعندما اقتربوا منه اكثر ، زاد في سرعته. وكان هدف ضرار هو جذب هؤلاء الروم بعيدا عن معسكرهم ، بحيث لايستطيع آخرون من المجيء لنجدتهم . وعندما وصل الى بقعة بين الجيشين ، اتجه نحو مطارديه وبدأ بمهاجمة اقرب رجلٍ برمحه . وبعد ان طرحه ارضاً ، هاجم رجلا ثان وثالث ورابع واستمر في القتال ، وكان يناور بحصانه اثناء القتال بحيث لا يواجه سوى رجل واحد في كل مرة . واستخدم سيفه ايضا ضد بعض الروم ، ويعتقد بأنه قتل تسعة عشر من الروم قبل ان يهرب الباقون نحو معسكرهم . وفي تلك الليلة كان معسكر الروم يزخر بقصص البطل ، عاري الصدر ، شديد البأس .

وعندما عاد ضرار الى معسكر المسلمين قوبل بالترحيب والثناء ؛ لكن خالدا نظر اليه بغضب وأنّبه على اشتباكه مع الروم لان مهمته كانت هي الاستطلاع .

بعد هذه الحادثة ، أرسل القُبُقْلار ، نائب قائد الروم ، احدَ العرب النصارى ليدخل معسكر المسلمين ، ويقضي يوما وليلة مع المسلمين ، ويجمع كل المعلومات الممكنة عن قوة ونوعية جيش المسلمين . ولم يجد هذا العربي النصراني اية صعوبة في دخول معسكر المسلمين ، حيث ظنوه احد المسلمين . وفي اليوم التالي عاد الى القُبُقْلار فسأله هذا عن المسلمين فقال العربي النصراني : « بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان . ولو سرق ابن ملكهم ، قطعوا يده ؛ ولو زَنَى رُجِمَ لاقامة الحق فيهم » . فقال القُبُقْلار : « لئن كنت صدقتني ، لبطنُ الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ولوددتُ ان حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي »[1] . وكان قائد الروم « وردان » متحمسا للقتال ؛ اما القُبُقْلار فقد اصبح فاقدا لاعصابه .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦١٠ .

وفي صباح الثلاثين من تموز عام ٦٣٤ م (الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، عام ١٣ هجري) ، بعد أن انتهى الرجال من اداء صلاة الصبح ، أمر خالد بالتحرك الى مواضع المعركة ، وكانت قد أعطيت تعليمات مفصلة للقادة في اليوم السابق . فتحرك المسلمون الى الامام وفتحوا بتشكيل المعركة على السهل الكائن امام معسكر الروم . كان جيش خالد يتجه نحو الفرب على مواجهة تبلغ حوالي خمسة اميال ، وقد فتح خالد على هذه المواجهة الكبيرة لكي يحول دون تطويق مجنباته من قبل جيش الروم كبير العدد . وكان ترتيب قتال جيش المسلمين يتألف من القلب وجناحين قويين . ودفع خالد احراس مجنبة على كلا جانبي الجناحين ليزيد في طول مواجهته وليمنع التفاف العدو حول الجناحين او محاولته تطويق قوات المسلمين بكاملها .

وضع القلب تحت إمرة معاذ بن جبل ، والجناح الايسر تحت إمرة سعيد بن عمير والجناح الايمن تحت إمرة عبد الرحمن ، ابن الخليفة . ونعرف ايضا ان حرس الجنب الايسر كان بإمرة شرحبيل ، اما قائد حرس الجنب الايمن فهو غير معروف لانه لم يذكر في روايات المؤرخين . ووضع خالد خلف القلب اربعة آلاف رجل بإمرة يزيد ، كاحتياط وللحماية القريبة لمعسكر المسلمين الذي يضم النساء والاطفال . وكان مكان خالد قرب القلب ، واحتفظ بعدد من القادة بالقرب منه لاستخدامهم كأبطال او كقادة مجموعات خاصة لتنفيذ اي مهام تطرا في ميدان المعركة . وكان من بين هؤلاء عمرو بن العاص ، وضرار ، ورافع ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

وعندما شاهد الروم تقدم المسلمين ، خرجوا من اماكنهم وبدؤوا بالفتح بترتيب المعركة على بعد نصف ميل من خط مواجهة المسلمين . وفتحوا بنفس مواجهة المسلمين تقريبا ، لكن ترتيب قتالهم كان عميقا ، وبالنسبة لتفاصيل ترتيب قتال الروم فهي غير معروفة لعدم ذكرها من قبل المؤرخين . ووقف وردان والقبقلار وسط حرسهما الخاص في القلب . وكان منظر تشكيلات الروم الكثيفة ، وهي تحمل الصلبان والرايات ، يثير الرعب والرهبة .

وعندما فتح رجال خالد للمعركة ، سار خالد على فرسه على طول المواجهة لتفحص الوحدات ولإثارة حماسة المقاتلين في سبيل الله . واكد خالد

خلال هـذه الجولة التفقدية على ضرورة تركيز الجهـود في الوقت المحدد والهجوم كرجل واحد . وقال : « عندما تستخدمون اقواسكم ، دعوا السهام تطير من اقواسها كأنهـا تخرج من قوس واحد لتنهـال على العدو كسرب من الجراد » . وتحدث خالد كذلك الى النساء في المعسكر واخبرهن ان يكـنّ على استعداد للدفاع عن انفسهن ضد أيٍّ من الروم قد يستطيع اختـراق جبهة المسلمين . فأكّدنَ له ان هذا العمل هو اقل مايمكن ان يفعلنه ، واخبرنه انه لم يُسمح لهن بالقتال في الصفوف الامامية .

واستغرق الجيشان مدة ساعتين في الفتح بترتيب المعركة . وعندمـا أصبح الجيشان جاهزين للاشتباك ، خرج أسقف يرتدي قبعة سوداء مـن قلب جيش الروم ، وسار نصف المسافة بين الروم والمسلمين ثم صاح بأعلى صوته بلغة عربية فصيحة : « من منكم يتقدم ويتحدث معي ؟ » .

كان قائد المسلمين في تلك الايام يقوم بنفسه بمهام إمام الجيش . لـذا خرج خالد باتجاه الاسقف . فسأله هذا : « هل انت قائد هـذا الجيش ؟ » فأجاب خالد : « هكذا يعتبرونني طالما أطيع الله ورسوله ؛ ولكنني اذا فشلت في هـذا ، ليس لي حق الإمارة عليهم وليس لي حق الطاعة » . ففكر الاسقف هنيهـة ثم قال : « انكم بذلك تغلبوننـا » . ثم تابع كلامه : « اعلموا ايهـا العرب انكم قد فتحتم ارضا لم يجرؤ اي ملك على دخولها . ولقد دخلهـا الفُرس ولكنهم عـادوا بفزع . وجاء آخـرون ايضا وحاربوا لكنهم فقدوا أرواحهم ، ولم يحصلوا على مايبتغون . لقد انتصرتم علينا حتى الآن ، لكن النصر لن يكون حليفكم دوما . وان سيدي ، وردان ، يرغب في ان يكـون كريما معكم . وقد أرسلني لاخبرك انك اذا اخذت جيشك من هنا ، فانـه سيعطي كل رجل من رجالك دينارا وثوبا وعمامة » ، اما انت فستعطى مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة . ثم تابع كلامه قائلا : « انظر ، ان لدينا جيشا جرّاراً ، وهو ليس كالجيوش التي واجَهْتَهَا من قبل . فقيصر ارسل مع هذا الجيش اشجع قادته واشهر اساقفته »[1] .

---

(1) الواقـدي ــ صفحـة ٣٦ .

وكانت اجابة خالد ان على قائد الروم ان يختار احدى ثلاث : الاسلام ، او الجزية ، او السيف . وبدون ذلك لن يرض المسلمون بترك بلاد الشام . أما فيما يتعلق بالدنانير والملابس الفاخرة ، فقد نوّه خالد بأن المسلمين سيمتلكونها قريبا كحق مكتسب للفاتحين .

عاد الاسقف باجابة خالد الى قائده وردان واخبره بكل ما سمع . فغضب قائد الروم واقسم على سحق المسلمين بهجوم واحد كاسح .

وأمر وردان صفاً من النبالة ان يتقدم امام مواجهة الروم بحيث يكون جيش المسلمين ضمن مدى رمي النبّالة . وعندما تقدم صف نبالة الروم ، بدأ معاذ ، قائد قلب المسلمين ، بأعطاء الاوامر لرجاله لكي يهاجموا ، ولكن خالدا أمره بالتوقف عن الهجوم وقال له : « لاتهجم حتى أعطي الامرَ بذلك ، وهذا لن يكون قبل ان تنحرف الشمس عن كبد السماء » [1] .

كان معاذ يرغب في الهجوم لان نبّالة الروم يملكون أقواسا جيدة ذات مدى اطول من مدى أقواس المسلمين . والطريقة الوحيدة لمعالجة الموقف هي الاقتراب من الروم . لكن خالدا لم يرغب في المغامرة بشن هجوم مبكر ضد فرق الروم المنظمة جيدا . وقبيل الظهر بساعتين ، بدأت المعركة برمايات نبالة الروم .

سارت هذه المرحلة من المعركة في غير صالح المسلمين ، اذ قتل وجرح عدد كبير منهم . وسُرّ الروم لهذه النتيجة ؛ وانهالت السهامُ من الاقواس فترة من الزمن . ولما كان المسلمون غير قادرين على عمل أي شيء لتحويل الموقف لصالحهم ، أرادوا ان يهاجموا بالسيف والرمح ، لكن خالدا منعهم وكبح جماحهم . واخيرا جاء ضرار العنيف الى خالد وقال له : « ولِمَ الانتظار؟ والله سوف يظن عدوّنا اننا نخشاه . اعط الامر بالهجوم ، وسوف نهاجم معك » . فقرر خالد ان يتبارز أبطال المسلمين مع ابطال الروم . ففي هذه المبارزات الفردية فان المسلمين سوف يحرزون تفوقا على الروم ؛ وهي مفيدة

(١) الواقدي ـ صفحة ٣٦ .

ايضـا في قتل اكبر عدد ممكن من قادة الروم ؛ وهذا مما يقلل فعالية جيش العدو . وقال خالد لضرار : « بامكانك ان تبدأ الهجوم ياضرار » وانطلق ضرار الى الامام وهو في غاية السرور .

ونظراً لان الروم كانوا يقذفون النبال ، لم ينزع ضرار درعه المصنوع من الزرد ولا خوذته ، وحمل بيده ترسا مصنوعا من جلد الفيل ، كان في يوم ما ملكاً لاحد الروم . وبعد ان أصبح في منتصف المسافة بين الروم والمسلمين ، توقف على فرسه ورفع رأسه وتحدى الروم للمبارزة . وعندما تقدم نحوه عدد قليل من ابطال الروم الذين قبلوا التحدي ، نزع ضرار بسرعة درعه وقميصه واصبح عاري الصدر ، فعرفه الروم على الفور انه « البطل عاري الصدر » . وفي الدقائق القليلة التالية قتل ضرار عدة رجال من الروم كان من بينهم قائدان ، احدهما حاكم عمّان والآخر حاكم طبرية .

بعد ذلك خرج من بين صفوف الروم عشرة من القادة الصغار وتقدموا نحو ضرار . عند ذلك ، ارسل خالد عشرة من صناديد المسلمين فاعترضوا قادة الروم وقتلوهم . ثم خرج أبطال آخرون من كلا الجانبين ، بعضهم فرادى ، والبعض الآخر جماعات . وازدادت حدة المبارزات تدريجيا ، واستمرت زهاء ساعتين . وقد اعادت هذه المرحلة من المعركة التوازن بين الجانبين ، لان معظم ابطال الروم قتلوا في المبارزات .

وبينما كانت المبارزات مستمرة ، وقد انقضى نصف النهار ، امر خالد بشن هجوم عام ؛ وتحركت صفوف المسلمين الى الامام وانقضت على جيش الروم . ودارت المعركة الرئيسية الآن بالسيف والترس .

لقد تم هذا الهجوم بشكل جبهي ولم يعد هنالك إمكانية للقيام بالمناورة ، ولم يحاول احد الجيشين ان يقوم بالالتفاف على مجنبات الجيش الآخر . وكان القتال يدور بين الجانبين على مسافة قريبة بشكل عنيف جدا واستمر كذلك بضع ساعات . وفي آخر النهار أصبح الطرفان منهكين فقطعا التماس بينهما وعاد كل منهما الى معسكره . وانتهت الاعمال القتالية لهذا اليوم .

كانت خسائر الروم مذهلة . وضعق قائد الروم « وردان » عندما علم بأن الآلاف من جنوده قد قتلوا في ميدان المعركة ، ولم يقتل من المسلمين سوى عـدد قليل . فجمع مجلس الحرب وعبّر عن استيائه لنتيجة المعركة ، لكـن قادته اقسموا انهم سيقاتلون حتى النهاية . وتبادل « وردان » الآراء مع قادته؛ ومن بين الاقتراحات والآراء التي قدمت اليه ونالت استحسانه ، تدبـير مؤامرة لقتل قائد المسلمين . وطبقا لهذه الخطة ، فان وردان يتقدم شخصيا الى الامام في صباح اليوم التالي ، ويعرض السلام ويطلب من خالد ان يتقـدم لبحث الشروط معه . وعندما يصبح خالد على مسافة كافيـة فان وردان يشتبك معه في قتال ؛ ثم ، عند صدور اشارة منه ، ينطلق عشرة رجال يكونوا مختبئين جيدا بالقرب منه وينقضوا علـى قائد المسلمين ويقطعونه إرَبا . وكانت المؤامرة بهذه البساطة . وكان وردان قائدا شجاعا فوافق على الخطة . فالرجـال العشرة سيختبئون في اماكنهم المحـدّدة اثناء الليل ، وسيلقّنون مهمتهم بحرص وحذر .

ثم ارسل قائدُ الروم احد العرب النصارى ويدعى « داوود » ، وكـان هـذا الرجل يعمل ضمن اركان القائد الروماني ، واعطاه تعليمات لكي يذهب الى جيش المسلمين ويقابل خالدا . وَطُلب منه ان يقول لقائد المسلمين ان دماء كثيرة قد اُريقت ؛ وينبغي وقف القتال ؛ وعقد صُلح بين الطرفين ، وان يتقابل خالد مع وردان في صباح اليوم التالي في منتصف المسافة بين الجيشين لبحث شروط السلام . وينبغي ان يتقابل القائدان لوحدهما .

وقد ذُعر داوود لسماع هذه التعليمات لانها بدت وكأنها ضد أوامـر هرقل التي تقضي بقتال المسلمين وقذفهم في الصحراء . لذلك رفض ان يقوم بهذه المهمة . فاخبره وردان بخطة المؤامرة لكي يقنعه بأن مهمته لاتتعارض مع تعليمات الامبراطور الروماني . وكان هذا ، كما سنرى ، خطأ .

لم تكد الشمس تشرق في صباح اليوم التالي حتى كان داوود يتجه نحو جيش المسلمين ، الذي كان لايزال يصطف بترتيب القتال ، وطلب ان يـرى خالدا بخصوص سلام مقترح من قبل وردان . وحالما اُخبر خالدٌ بذلـك ، خرج لرؤية داوود ووقف ينظر اليه .

كان منظر خالد الذي يبلغ طوله ستة اقدام والذي يتميز بضخامة الجسم وقوة العضلات وهو يتفرس في وجه اي انسان يثير الرعب في قلب هذا الانسان . كما ان وجهه الصارم القسمات الذي لوّحته الشمس وغبار المعركة يبدو قاسيا بالنسبة لمن يعتبرهم اعداءه . وكان تأثير نظرات خالد على داوود المسكين فعّالا . فلم يصمد داوود امام تفرّس خالد فيه فتعجّل في الكلام قائلا : « انا لست رجل حرب . انني مبعوث فقط » . فاقترب خالد منه وامره بالتكلم وقال له : « اذا كنت صادقا فانك ستنجو . واذا كنت كاذبا فانك ستهلك » . فقال العربي النصراني : « ان وردان متألم من جرّاء اراقة الدماء غير الضرورية وهو يرغب في تجنب ذلك . وهو مستعد لتوقيع اتفاقية معك وانقاذ ارواح الذين مازالوا احياء . ولن يكون هنالك قتال جديد حتى تنتهي المباحثات . وهو يقترح عليك ان تتقابلا لوحدكما في مكان ما بين الجيشين في صباح الغد ليبحث شروط السلام .

فأجاب خالد : « اذا كان سيّدك ينوي الخداع ، فنحن والله اعرف منه في المكر والخداع . واذا كان يدبّر مؤامرة سرّية ، فانها ستعجّل بنهاية وبإبادة من تبقّى منكم . اما اذا كان صادقا ، فلن نوقّع على سلام الا بعد دفع الجزية . وبخصوص أي عرض مادي ، فاننا سنأخذه منكم قريبا على اية حال » .

كان لكلمات خالد ، التي تفوّه بها بثبات وقوة ، تأثير عميق على داوود . فقال لخالد إنه سوف يذهب وينقل رسالة خالد الى وردان ، واتجه نحو صفوف الروم بينما كان خالد ينظر اليه وهو يقلب أفكاره بأن ماقاله له داوود لايبدو كله صحيحا . ولم يكد يذهب داوود بعيدا حتى هتف في اعماقه هاتف وادرك ان خالدا على حق ؛ وان النصر سيكون حليف المسلمين ، وان الروم سيهلكون مهما فعلوا من مكر وخديعة . فقرر ان ينقذ نفسه واسرته بالاعتراف بالحقيقة . لذلك عاد ثانية بإتجاه صفوف المسلمين ووقف امام خالد وكشف له مؤامرة الروم بكاملها ، بما في ذلك المكان الذي سيختبىء فيه الرجال العشرة وهو اسفل تلّ صغير يقع الى يمين قلب الروم . فوعد خالد بانقاذ

داوود واسرته شريطة ان لايخبر وردان بأن المسلمين قد عرفوا بالمؤامرة . فوافق داوود على ذلك .

وعندما عاد داوود الى جيش الروم ، اخبر وردان عن حديثه الاول مع خالد وعن موافقته على الاجتماع **الذي** اقترحه وردان ؛ لكنه لم يخبره عن الحديث الثاني الذي تمّ مع خالد . وسُرّ وردان بأخبار داوود .

فكّر خالد في بادىء الامر بالذهاب لوحده الى التل الصغير لقتل الرجال العشرة بنفسه . وكانت روح المغامرة تلح عليه ان يخوض مثل هذا القتال المجيد . ولكنه عندما بحث الامر مع ابي عبيدة ، اقترح عليه ان لايذهب وان يرسل بدلا عنه عشرة ابطال من المسلمين . فوافق خالد على هذا الاقتراح . واختار خالد عشرة من الابطال المسلمين وكان بينهم ضرار الذي عُين بنفس الوقت قائدا لهؤلاء العشرة . واعطى خالد تعليمات الى ضرار لكي يكون مستعدا في صباح اليوم التالي لكي يندفع من الصف الامامي للمسلمين ويعترض الرجال الروم العشرة ويقتلهم بمجرد ظهورهم . ولم تكن روح المغامرة عند ضرار اقل منها عند خالد ، فأصَرّ على ان يسمح له ولرجاله باستخدام ساعات الظلام لكي يجد الرجال الروم في اماكنهم المختبئين فيها ، ثم يقتلهم في وكرهم . وبما ان خالدا يعرف ضرار حق المعرفة ، استجاب لطلبه . وقبيل منتصف الليل انطلق ضرار مع رجاله التسعة من المعسكر .

بعد شروق الشمس **بقليل** خرج وردان من صفوف الروم وهو يرتدي زيا رسميا ويضع درعا مرصعا بالجواهر ، ويتدلى سيف مرصع بالجواهر على جنبه . ثم تقدم خالد من قلب جيش المسلمين ووقف امام وردان . وكان الجيشان فاتحين بتراتيب المعركة كاليوم السابق .

بدأ وردان المفاوضات بمحاولة لتخويف المسلمين . فأخذ يقلل من شأن العرب ؛ وبدأ بالحديث عن الظروف التعيسة التي يعيشونها ، وعن حالة الحرمان وشظف العيش التي تسود وطنهم . فكان جواب خالد حادّا وعنيفا ؛ اذ قال له : « أيها الرومي الكلب ! هذه فرصتك الاخيرة لتقبل الاسلام

أو تدفع الجزية »[1] . عندئذ ، قفز وردان على خالد ، دون أن يستل سيفه ، وبنفس الوقت نادى رجاله العشرة لكي يساعدوه . ورأى وردان بأم عينه عشرة من الروم يأتون من خلف التل الصغير ويتجهون نحوه . كذلك رآهم خالد وانتابه الاضطراب ، لانه كان يتوقع رؤية المسلمين يخرجون من خلف التل الصغير . ولم يكن قد اتخذ ترتيبات اخرى لحماية نفسه ، واخذ يفكر بمصير ضرار وهل تقابل اخيرا مع ندّ له . وعندما اقتربت مجموعة الرجال العشرة ، لاحظ وردان ان قائد هؤلاء « الروم » كان عاري الصدر ؛ عندئذ نزلت عليه الحقيقة نزول الصاعقة .

في الواقع ، ذهب ضرار مع رجاله التسعة اثناء الليل الى التل الصغير ، فقتلوا الرجال الروم العشرة بدون ضجة ، وبعد ذلك ، ارتدى ضرار ملابس الروم ودرعهم ، على سبيل المزاح . لكنه نزعها فيما بعد وعاد الى لباس القتال العادي الذي كان يرتديه . وعندما لاح الفجر ، ادى هؤلاء المسلمون العشرة صلاة الصبح ثم انتظروا نداء القائد الروماني .

ترك وردان خالدا وتراجع الى الوراء وهو ينظر بيأس بينما كان المسلمون العشرة يحيطون بالاثنين . وتقدم الآن ضرارٌ شاهرا سيفه . عندئذ توسل وردان الى خالد قائلا « أتوسل إليك ، باسم الذي تعبده ، أن تقتلني بنفسك ، ولا تدع هذا الشيطان يقترب مني »[2] .

فأومأ خالد الى ضرار ، وارتفع سيف ضرار ليهوي على راس وردان ويبتره .

كان اسلوب خالد في القتال يعتمد على التوقيت المناسب لشن هجومه ؛ فعندما يحصل على أية ميزة تكتيكية على خصمه ، يستغل هذه الميزة لاقصى حد ويشن الهجوم . وعندما لايجد امكانية الوصول على أية ميزة تكتيكية ، وعندما تكون المناورة مقيدة ، عندئذ يلجأ خالد الى التاثير النفسي فيقوم بقتل

---

(١) الواقدي ـ صفحة ٤١ .
(٢) الواقدي ـ صفحة ٤١ .

قائد جيش الخصم او عدة قادة كبار ، وقبل ان يفيق العدو من صدمته المعنوية من جرّاء مثل هذه الخسارة يقوم بتوجيه ضربة قوية بجميع قواته في آن واحد . وهنا فعل خالد نفس الشيء . فحالما قتل وردان ، امر خالد بشن هجوم عام : فاندفع القلب ، والجناحان ، واحراس المجنبة الى الامام وهجموا على الروم ، الذين اصبحوا الآن بقيادة القُبُقْلار .

وعندما تقابل الجيشان ، بدأت مرحلة أخرى من القتال القريب العنيف وازدادت حدّة القتال دون ان يحرز اي من الطرفين نجاحا ملحوظا . وكان المسلمون يضربون تشكيلات الروم بشدّة ، وكان الروم يقاتلون بيأس لصد هجوم المسلمين . وكان خالد وجميع قادته يقاتلون امام جنودهم ، وكذلك فعل العديد من قادة الروم الذين كانوا مستعدين للموت دفاعا عن مجد امبراطوريتهم . وتناثرت جثث القتلى في ساحة المعركة وكان معظمهم من الروم نتيجة للقتال الضاري الدائر بين الفريقين .

واخيرا ، وعندما بلغ الجانبان درجة الاعياء ، زَجّ خالدٌ احتياطه المؤلف من أربعة آلاف رجل بقيادة « يزيد » نحو القلب ، واستطاع المسلمون نتيجة لهذا التعزيز ان يخترقوا صفوف الروم في عدة اماكن على شكل أسافين عميقة اخترقت جيش الروم . وتقدمت مجموعة من قلب جيش المسلمين الى المكان الذي يقف فيه القُبُقْلار ، وكان راسه ملفوفا بثوب ، فقتلوه . ويعتقد بأن القُبُقْلار امر بأن يُلفّ رأسه بالثوب لانه لم يستطع ان يتحمل مشاهدة مثل هذه المذبحة [1] . وبموت القبقلار ضعفت مقاومة الروم ، ثم سرعان ماانهارت كليّة . وهرب الروم من ميدان المعركة .

كان الصمود والقتال ضد العرب المسلمين أسلم من الهرب امامهم ؛ لان عرب الصحراء كانوا ماهرين في مطاردة اعدائهم المنهزمين . وعندما بدأ الروم بالهرب ساروا في ثلاثة اتجاهات : فالبعض هربوا باتجاه غزة ، والبعض باتجاه

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦١٠ ، ٦١١ : « فلما راى القبقلار ماراى من قتال المسلمين قال للروم لفّوا راسي بثوب ، قالوا له : لمَ قال يوم البئيس لا أحب ان اراه ، مارايت في الدنيا يوما اشدّ من هذا » فاحتز المسلمون رأسه ...

يـافا ، اما المجموعة الكبيرة من الهاربين فقد اتجهت نحو القدس . وعلـى الفور ارسل خالد خيّالته لمطاردة فلول العدو على الاتجاهات الثلاث ؛ وقد فقـد الروم على ايدي هؤلاء الخيالة اكثر مما فقدوه في قتال اليومين في سهل اجنادين . واستمرت مطاردة وقتل الهاربين حتى غروب الشمس ، حيث عادت الخيّالة الى معسكر المسلمين .

لقـد تمزق شمـل جيش الروم .

وكان نصر المسلمين تاماً . لقد حارب الروم باسلوب الكتلة الواحـدة طبقا لاساليب قتالهم النظامية ، فلم يهزموا تكتيكيا فقط بل ذُبحوا ايضـا بلا هوادة . فالجيش الروماني الذي تجمع في اجنادين لم يَعُدْ جيشا ، على الرغم من تمكن عدد لابأس به من الفرار ، خاصة الجزء الذي هرب الـى القدس ووجد الامان داخل اسوارها . وتغلب اتباع محمد على البيزنطيين في اول مجابهة كبيرة بين المسلمين والبيزنطيين .

كانت معركة اجنادين عنيفة ، واتخذت طابع المعركة الكاملة ، ولكـن بدون استخدام المناورة . ولم يحاول جيش الروم القيام باية حركة التفاف على اجناب جيش المسلمين . وكذلك جيش المسلمين لم يقم بأية حركة التفاف على اجناب الروم بسبب صغر جيشهم نسبيا ؛ أما المناورة ضد اجناب ومؤخرة العدو فكان بإمكان المسلمين تنفيذها ولكن على حساب اضعاف القلـب وهذه مجازفة غير مأمونة ، لذلك لم يلجؤوا اليها . وعلى هذا الاساس فالمعركة كـانت عبارة عن مواجهة جبهية بين كتل ضخمة من الرجال ، وتمكنت قيادة المسلمين وشجاعة ومهارة جنودهم من التغلب على فرق جيش الروم الضخمة . وكانت مناورة خالد الوحيـدة المتوفرة لديه هي توقيت هجماته لكي يستفيد مـن الموقف الراهن الى اقصى حدّ ، وقد فعل خالد ذلك كما ذكر سـابقا . وطبعا عندما كُسر جيش الروم ، اظهر خالد كفاءة ظاهرة بتنظيم المطاردة لقتل اكبر عدد ممكن من الروم قبل ان يصلوا الى مكان امين .

لقد فَتَح النصرُ في معركة اجنادين الطريق الى فتوحات بلاد الشـام . وهذه البلاد طبعا لايمكن قهرها بمعركة واحدة ؛ لان قوات كبيرة مـن الروم

بقيت في مدن سورية وفلسطين ، وبامكان الامبراطور الروماني ان يجلب الامدادات من جميع ارجاء امبراطوريته ، التي تمتد من أرمينيا الى البلقان . لكن اول صدام كبير مع الروم كان قد انتهى ؛ وباستطاعة المسلمين الآن ان يستمروا في الفتوحات وهم على يقين بأنهم سيحققون الانتصارات في المعارك الكبيرة المماثلة التي ستجري فيما بعد .

بعد المعركة بثلاثة ايام ، وطبقالرواية الواقدي ، كتب خالد الى ابي بكر واخبره عن المعركة ، وقدر إصابات الروم بخمسين الف قتيل ، اما خسائر المسلمين فكانت أربعمائة وخمسين قتيلا فقط [1] . وقتل في المعركة القائد العام لجيش الروم ، ونائبه ، وعدد كبير من القادة الكبار . وأخبر خالد" الخليفة أيضا انه سيسير نحو دمشق قريبا . واستقبلت أنباء الانتصار في المدينة بالبهجة وصيحات « الله أكبر » ، وتطوع الكثيرون للاشتراك في الحرب المقدسة الجارية في بلاد الشام . وكان من بين هؤلاء أبو سفيان وزوجته هند اللذان سافرا الى بلاد الشام للانضمام الى لواء ابنهما يزيد . ورد" ابو بكر على رسالة خالد وطلب منه ان يفرض الحصار على دمشق حتى يتم فتحها ، وطلب منه بعد ذلك ان يهاجم حمص وانطاكية . وعلى اية حال ، كان على خالد ان لا يتقدم ابعد من الحدود الشمالية لبلاد الشام .

كان هرقل في حمص عندما وصلته أنباء هزيمة الروم النكراء في أجنادين . وشعر هرقل بمدى الكارثة . فسافر الى انطاكية ، ونظرا لتوقعه بأن يقوم المسلمون بالتقدم الى دمشق ، فقد أمر بقايا جيش الروم في القدس (وليس حامية المدينة) باعتراض المسلمين في الياقوصة [2] وتأخير تقدمهم . (انظر الخريطة رقم ١٦) . وبنفس الوقت امر قوات أخرى بالتحرك نحو دمشق لتعزيز هذه المدينة والاستعداد للحصار .

بعد معركة اجنادين بأسبوع ، سار خالد بجيش المسلمين نحو دمشق ، وسلك الطريق الواقع الى الجنوب من القدس لتحاشي المرور في هذه المدينة.

(١) الواقدي ـ صفحة ٤٢.

(٢) وتعرف ايضا بالواقوصة .

وفي فحل ، التي تضم حامية رومانية قوية ، ترك خالد سرّية خيالة بإمرة ابي الاعور السلمي لتثبيت الحامية في الحصن ، وسار بباقي الجيش الى أن وصل الى ضفة نهر اليرموك عند الياقوصة ، حيث جوبه مرة اخرى بقوات من الروم على الضفة الشمالية . كان الروم بوضع لا يسمح لهم بإبداء مقاومة جدية ، حيث مازالوا تحت تأثير صدمة هزيمتهم في اجنادين ، وكانت مهمتهم الرئيسية هي العمل كحرس مؤخرة فقط لكسب وقت اطول من اجل تحصين دمشق . ومع ذلك فلم تنشب المعركة في الياقوصة حتى منتصف آب عام ٦٣٤ م (منتصف جمادى الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، وهُزم الروم مرة اخرى [١] .

وتقهقر الروم وتراجعوا بسرعة ، وزحف خالد نحو دمشق .

* * *

(١) يبدو ان بعض المؤرخين الاوائل ، ومن بينهم الطبري ، قد التبس عليهم الامر بالنسبة لمعركة الياقوصة وخلطوا بينها وبين معركة اليرموك التي جرت في نفس المنطقة تقريباً ، واعتبروا ان معركة اليرموك قد حدثت في عام ١٣ هجري ، وهذا غير صحيح .

فَتحُ دمَشق

كانت دمشق تسمى فيحاء الشام . وهي حاضرة متألقة تحتوي كل ما يجعلها كبيرة وشهيرة ، ففيها الثروة ، والثقافة ، والمعابد ، والجنود . وهي مدينة تاريخية . وكان يحيط بالجزء الرئيسي من المدينة سور ضخم يبلغ ارتفاعه احد عشر مترا [1] ، ولكن كان يوجد خارج الاسوار بعض الاحياء غير المحمية . وكان طول المدينة المحصنة ميلا وعرضها نصف ميل وكان لها ستة ابواب هي : الباب الشرقي ، باب توما ، باب الجابية ، باب الفراديس ، باب كيسان ، الباب الصغير . ويجري نهر بردى على امتداد السور الشمالي ، وهو نهر صغير جدا ليس له اهمية عسكرية .

اثناء حملة الشام ، كان القائد العام لجيش الروم في دمشق يدعى « توماس » ، وهو زوج ابنة الامبراطور هرقل . وكان توماس مسيحيا ورعا ، وكان ايضا مشهورا بشجاعته ومهارته في قيادة القوات بالاضافة الى ذكائه وثقافته . وكان نائبه قائدا عسكريا يدعى « هربيس » ولا يُعلم عنه الا القليل .

كان قائد حامية دمشق يدعى « أدادير » ، وهو جندي متمرس في القتال قضى معظم سني حياته في القتال في الشرق واكتسب شهرة في المعارك التي خاضها ضد الفرس والاتراك . وكان يعتبر بطلا كبيرا وكان يفتخر بأنه لم يخسر اية مبارزة . ونظرا لانه خدم في بلاد الشام مدة طويلة ، فقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة .

---

(١) لقد ارتفع مستوى سطح مدينة دمشق اربعة امتار منذ ذلك الحين ، وعلى هذا الاساس فان ارتفاع السور الآن يبلغ سبعة امتار فقط فوق مستوى الارض المحيطة به .

كانت حامية « ادادير » تتألف من حوالي اثني عشر الف جندي ، لكن دمشق لم تكن مهياة كمدينة لاي حصار . ومع ان اسوارها وابراجها كانت منسقة بشكل جيد ، الا انه لم تتخذ اي ترتيبات لتخزين الطعام والعلف ؛ وهذه الترتيبات تستغرق الاسابيع والاشهر بالنسبة للحامية والسكان الكثيرين. وفي الحقيقة من الصعب وضع اللوم على الروم لهذا الاهمال ، لانه منذ الهزيمة النهائية للفرس على يد هرقل في عام ٦٢٨ م ، لم يهدّد بلاد الشام اي خطر من اي نوع ؛ ولم يشعر الروم بالخطر الحقيقي الذي بات يهددهم الا بعد معركة أجنادين .

شرع الآن هرقل ، من مقر قيادته في انطاكية ، بوضع الامور في نصابها واعداد دمشق للحصار . وبعد ان امر بقايا جيش اجنادين بتأخير المسلمين في الياقوصة ، ارسل قوة قوامها خمسة آلاف جندي من انطاكية لتعزيز حامية دمشق . وَوُضعت هذه القوة تحت قيادة « كولوس » ، الذي وعد الامبراطور بجلب راس خالد على رمح [1] . وصل كولوس الى دمشق خلال نشوب معركة الياقوصة . وبذلك ارتفع عدد حامية دمشق الى سبعة عشر الفا ، ولكن كولوس واداديز كانا لايحبان بعضهما البعض ويتمنى كلٌ منهما الفشل للآخر .

عمل توماس بدون كلل لاعداد المدينة للحصار . فجُمعت المؤن من القرى المجاورة لتعزيز صمود الحامية والسكان في حالة قطع خطوط الامداد من قبل المحاصرين . وعلى أية حال ، فلم يتم جمع المؤن الكافية لحصار طويل . وأرسل الكشافون لمراقبة تحرك المسلمين والإبلاغ عن اي تحرك لهم ، وأمرت القوة الرئيسية لجيش الروم بترك حراسات قوية واحتياط في دمشق ، والاستعداد لخوض معركة خارج أسوار المدينة . وكانت الفكرة هي هزيمة المسلمين ودحرهم قبل ان يتمكنوا من الاحاطة بالمدينة ؛ لكن اهالي دمشق كانوا ينتظرون وصول خالد بقلق كبير .

في هذا الوقت نظّم خالد هيئة عسكرية ؛ هي بدايةٌ بسيطة لما سُمي فيما بعد في التاريخ العسكري بـ « الاركان العامة » . فقد جمع من جميع

(١) الواقدي ـ صفحة ٢٠ .

المناطــق التي حارب فيها وهي : الجزيرة العربية ، والعراق ، وسوريــة ، وفلسطين ؛ مجموعة صغيرة من الرجال الاذكياء اللامعين وجعلها تعمل كهيئــة استشارية ؛ تماثل في عصرنا « ضباط الاركان » ، وكان عملها الرئيسي يتعلق بالاستخبــارات . فكانت هذه المجموعــة تجمع المعلومات ، وتنظم ارســال واستجواب العمــلاء ، وتجعل خالدا على علم دائم بآخر تطورات المــوقف العسكري . كانت الاستخبارات احدى صور الحرب التي وجّه خالد اهتمامه اليها . كان خالد دائما متيقظا وجاهزا لاستغلال اية فرصة سانحة ، وكــان يقال عنه : «لاينام ولا ينيم ولا يخفىعليه شيء» . [1] ولكن هذه المجموعةكانت بمثابة هيئة اركان شخصية اكثر منها هيئة اركان لقيادة الجيش ؛ فحيثما كان يذهب خالد ، كانت هذه المجموعة تذهب معه .

أجرى خالد ايضا تغييرا هاماً في تنظيم الجيش . فمن جيشه الــذي كــان معه في العراق ، والذي اصبح عدده بعد معركة اجنادين ثمانيــة آلاف رجل ، نظّم قوة من الخيّالة تعدادها اربعة آلاف فارس لتعمل « كحــرس متحرك » . وهذه القوة ، مثل جيش العراق الذي يتألف الآن من لواء واحد ضمن جيش المسلمين ، وضعت تحت قيادة خالد الشخصيــة واعتبــرت كاحتيــاط متحرك للاستخــدام في المعركة حسب متطلبات الموقف . وكــان الحرس المتحرك هــذا يتألف مــن خيرة الرجال في الجيش ـــ انه « الصفوة المختــارة » .

سار خالد من الياقوصة مع لوائه ، الذي كان معه في العراق ، في مقدمة الجيش . ثم تبعته الالوية الاخرى ، والنساء والاطفال . وانضمت الآن الــى جيش المسلمين في بلاد الشام أسر المحاربين التي أرسلت من العراق الى المدينة قبل « المسير الخطيــر » . وبعد مسير ثلاثة ايام على طريق الجابية ، وصلت طلائع الجيش الى مرج الصُفّــر ، التي تبعد اثني عشــر ميلا من دمشق ، واكتشفت وجود جيش كبير من الروم يسد الطريق امامها . وكانت قــوة الروم هذه ، التي تتألف من اثني عشر الف جندي والتي يقودها « كولوس »

(١) الطبري ـــ الجزء ٢ ، صفحــة ٦٢٦ .

« واداديز » ، قد أرسلت الى الامام من قبل توماس لخوض معركة خارج المدينة وطرد المسلمين بعيدا عن دمشق ، وإذا لم تنجح في ذلك عليها ان تؤخر تقدم المسلمين لكسب وقت اطول في تموين المدينة . ومن اجل قضاء الليل ، عسكر لواء المسلمين الذي كان في الطليعة على بعد ميل من مواقع الروم ، بينما كانت باقي الالوية لاتزال على مسافة بعيدة في الخلف .

يمتد مرج الصُفَّر جنوبا من الكسوة ، وهي قرية صغيرة تبعد اثني عشر ميلا من دمشق على الطريق الحالي المؤدي الى درعا . وعند الطرف الجنوبي من الكسوة يوجد واد مفعم بالشجر ومن هذا الوادي يمتد مرج الصُفَّر باتجاه الجنوب . وكان يوجد الى الغرب من الكسوة هضبة قليلة الارتفاع ، وأمام هذه الهضبة وجنوب الوادي كان يوجد موقع الروم[1] .

في صباح اليوم التالي ، التاسع عشر من آب عام ٦٣٤ م (التاسع عشر من جمادى الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، حَـرَّك خالد لواءه ؛ ونشر المسلمون والروم قواتهم لمعركة مرج الصُفَّر . وكان باقي جيش المسلمين يندفع نحو ميدان المعركة ، ولن يصل قبل ساعتين او نحو ذلك . اما لواء الطليعة الذي فتح الآن للمعركة ، فسيكون بمثابة قاعدة وطيدة لتشكيل باقي الجيش عند وصوله . وظهر ان الروم ينوون البقاء بوضعية الدفاع لانهم لم يتقدموا للاشتباك مع المسلمين . وفي غضون ذلك بدأ خالد بتنفيذ مرحلة من المبارزات لاشغال الروم حتى تصل باقي الوية المسلمين .

كانت هذه المرحلة تشبه المهرجان الذي يعرض فيه الابطال شجاعتهم ومهارتهم ، باستثناء الدم الذي يراق . واستجاب الروم للعبة المبارزة بروح رياضية ، لانه كان بينهم عدد من الابطال ، وكان من بين هؤلاء ؛ القائدان كولوس واداديز ، وهما يُعتبران اشجعهم وافضلهم . واخذ جنود الجيشين يهتفون « للّاعبين » كأنهم متفرجون في مباراة .

---

(١) ان الكسوة ، والهضبة ، والوادي لاتزال موجودة حتى الآن ، كما ان السهل لايزال موجودا وهو يبدو كالمرج الاصفر .

بدأ خالد هذا المهرجان الدموي بنداء عدد من الصناديد ، من بينهم ضرار وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبي بكر . وخرج هؤلاء الفرسان من الصف الامامي للمسلمين ، ووقفوا في الفراغ الكائن بين الجيشين وبدأ كل منهم يتحدى الروم للمبارزة . وخرج لكل منهم قائد من الروم ، وبدأت المبارزة بين كل اثنين من الجانبين . وعمليا فقد قتل كل رومي خرج للمبارزة . وبعد ان يقتل المسلم خصمه يعود عدواً من أمام صفوف الروم وهو يتحدى الاعداء ؛ واذا سنحت له فرصة مناسبة ، فانه يقوم بجندلة رجل او اثنين من الصف الامامي قبل ان يعود الى جيش المسلمين . وكما في المبارزات السابقة ، فقد قام ضرار ، وهو عاري الصدر ، بذبح اكبر عدد من الروم ، مما اثار اعجاب « المتفرجين » بجراته وشجاعته .

وبعد ان مضى على هذه المبارزات زهاء ساعة ، قرر خالد انه قد حان الوقت للمبارزة الكبيرة . فاستدعى قادته وطلب منهم ايقاف المبارزات والعودة . وانطلق هو نفسه الى الامام . وعندما اصبح في وسط ميدان المعركة اخذ يتحدى الروم للمبارزة . وبما انه كان قائد جيش المسلمين ، فينبغي ان يكون المبارز من مرتبة قادة الروم . وكان كولوس في هذا الوقت قد فقد حماسه للقتال ، لانه فزع من الحظ السيء الذي اصاب جميع الروم الذين خرجوا للمبارزة مع المسلمين هذا الصباح . وبدا كانه لا يرغب بقبول تحدّي خالد ؛ ولكن تحت إلحاح منافسه ادادير خرج من صفوف جيش الروم . وعندما اقترب من خالد اشار بأنه يرغب في الكلام ؛ لكن خالدا لم يلتفت الى اشارته وهاجمه برمحه . فاتّقى كولوس الضربة ، مظهرا مهارة غير عادية في ذلك . وهجم خالد مرة اخرى ، ولكن كولوس اتّقى الضربة مرة ثانية .

فقرر خالد ان لايستخدم الرمح بعد ذلك . واقترب من خصمه ، والقى بالرمح على الارض وتشابك معه بالايدي . وامسك خالد بياقته ورماه عن فرسه ؛ فسقط كولوس على الارض ولم يحاول ان يبذل جهدا للنهوض . عندئذ اشار خالد الى رجلين من المسلمين ليأتيا اليه . وعندما اقتربا منه امرهما ان يأخذا كولوس كأسير وقد فعلا ذلك .

وبينما كان الروم في حالة من اليأس بعد مشاهدتهم لمصير كولوس ، كان اداديز مفتبطا بينه وبين نفسه وكان يتمنى ان يقوم المسلمون بقتله . وتقدم أداديز الآن ، وهو يعتبر نفسه اكفأ من كولوس ، وهو لايشك بأنه سينهي خالدا بأسرع مايمكن . ولكن عليه أولا ان يسليّ نفسه بالسُخرية من قائد المسلمين . فتوقف أداديز على بعد بضع خطوات من خالد وقال بالعربية : « يا أخا العرب ، اقترب مني لكي اسألك بعض الاسئلة » . فأجاب خالد : « ياعدو الله ، اقترب مني أنت وإلا فسوف آتي وأحزّ رأسك » . فنظر اداديز بدهشة ، لكنه دفع حصانه وتوقف على مسافة تسمح بالمبارزة . وفي لهجة هادئة تابع كلامه : « يا أخا العرب ، ما الذي دعاك لان تأتي للمبارزة بنفسك ؟ الا تخشى إن قتلتك ، ان يبقى اصحابك بدون قائد ؟ » فقال خالد : « يا عدو الله ، لقد شاهدت منذ قليل مافعل نفر قليل من أصحابي . فلو أنني أعطيهم الاذن ، لقضوا على جيشك بكامله بعون الله . ان معي رجالا يعتبرون الموت سعادة ، وان هذه الحياة ما هي إلا وَهْم» . وعلى كل حال ، من أنت ؟ » فقال أداديز باستغراب : « ألا تعرفني ؟ لقد سميّت على اسم ملاك الموت . أنا عزرائيل ! فضحك خالد وقال : « أخشى أن يكون من سُمّيت باسمه يبحث عنك ليأخذك الى جهنم » . فتجاهل أداديز هذه الملاحظة واستمر بالكلام دون ان يكترث بما قيل : « ماذا فعلت بأسيرك كولوس ؟ » فقال خالد : « انه مقيد بالحديد » . فقال أداديز : « ماالذي يمنعك من قتله ؟ انه من ادهى رجال الروم » .

فقال خالد : « لاشيء يمنعني سوى رغبتي في قتلكما معا » .

فقال اداديز : « اسمع ، سوف اعطيك الف قطعة من الذهب ، وعشرة أثواب من الحرير وخمسة احصنة اذا قتلته واعطيتني راسه » .

فقال خالد : « هذا ثمن كولوس . وماذا ستعطيني لتنقذ نفسك ؟ »

فقال اداديز : « ماذا تريد مني ؟ »

فقال خالد : « الجزيــة » .

فغضب أدادير وقال : « كما نرتفع بالمجد ، فانك ستسقط بالعار . دافع عن نفسك ، لانني سأقتلك الآن » .

ولم يكد يتفوه أدادير بهذه الكلمات حتى انقض عليه خالد . وضربه خالد عدة مرات بسيفه ، لكن أدادير ، اظهر مهارة وتمكن من صد جميع الضربات . وصدرت صيحة اعجاب من صفوف المسلمين للمهارة التي يدافع بها الرومي عن نفسه أمام قائدهم ، الذي لايوجد له ند في المبارزة وان وجد فهو من بين المسلمين فقط . ثم توقف خالد عن المبارزة وهو في دهشة مما حدث .

وارتسمت الابتسامة على وجه الرومي عندما قال : « والمسيح انني أستطيع أن اقتلك اذا شئت . لكنني مصمم على اخذك حياً ، لكي اطلق سراحك بعدئذ شريطة ان تترك ارضنا » .

وثار غضب خالد لبرودة أعصاب القائد الروماني ولنجاحه في الدفاع عن نفسه . وقرر أن يأخذ الرومي حياً لكي يذله . وعندما تقدم خالد ليهاجم مرة اخرى ، انطلق ادادير بسرعة نحو صفوف الروم . واعتقد خالد ان الرومي قد هرب من القتال ، لذلك بدأ خالد على الفور بمطاردته وشاهد «المتفرجون» من كلا الجيشين القائدين وهما يطاردان بعضهما في الارض الحرام بين الجيشين . ودار الفارسان حول ميدان المعركة عدة مرات ، وبعد ذلك بدأ خالد بالتخلف عن اداديز بسبب تعرّق حصانه وتعبه . وكان حصان الرومي افضل حيث لم تظهر عليه أمارات التعب .

وبدا هذا وكأنه خطة مدبّرة مسبقا من قبل اداديز ، لانه عندما رأى ان حصان خالد قد تعب ، اوقف حصانه وانتظر لكي يمسك بخالد . وكان خالد في حالة لاتعرف الصفح ، خاصة وان خصمه قد تفوق عليه في المطاردة ، ولم يتحمل مزاجه ان يسمع الرومي وهو يسخر منه ويقول : « ايها العربي ! لاتظن انني هربت خوفا منك . في الحقيقة كنت لطيفا معك . انني قابض الارواح ! انني ملاك الموت » .

لم يعد حصان خالد يصلح للقتال . فترجل وسار نحو اداديز ، والسيف

بيـــده . واخذ أدادير يحملق في خصمه وهو يقترب منه مترجلا بينما هـــو على حصانه . وفكر الآن بأن خالدا وصل الى حيث يريد . فعندما اصبح خالد على مسافة قريبة من أدادير ، استـــل هذا سيفه وهوى به بشدة نحو خالد لكي يضرب عنقه ؛ لكن خالدا خفض رأسه لكي يتفادى نصل السيف الذي مر فوق رأسه ببضع بوصات . وفي اللحظة التالية ضرب خالد القائمتين الاماميتين لحصان أدادير فبترهما عن جسم الحصان بشكل كامل ، وسقط الحصان وراكبه على الارض . والآن خانت الشجاعة أدادير . فنهض وحاول ان يهرب ، لكن خالدا قفز عليه وأمسك به بكلتا يديه ، ورفعه عن الارض ثـم هوى به ثانية . ثم امسك بأدادير من ياقته وشده الى اعلى وساقه نحو جيش المسلمين ، حيث لحق بكولوس كأسير مكبل بالحديد [1] .

ولم تكد هذه المبارزة العظيمة تنتهي حتى وصل لواءان آخران من الوية المسلمين ، وهما لواءا ابي عبيدة وعمرو بن العاص ، الى ميدان المعركة . وفتح خالد هذين اللوائين للمعركة وجعلهما جناحين لجيشه ؛ وحالما انتهى التشكيـــل في ترتيب المعركة ، أمر خالد بشن هجوم عام .

ثبت الروم لمدة ساعة تقريبا ، لكنهم لم يستطيعوا صد المسلمين والصمود اكثر من ذلك . وقد اثر على روحهم المعنوية فقدهم لعدد كبير من القـــادة وخاصة ادادير وكولوس ؛ كما ان حقيقة وجود دمشق قريبـــة منهم ، وان بإمكانهم الاحتماء داخل اسوارها ، جعلهم يفكرون بالانسحاب اليها . لذا فقـــد انسحبوا بانتظام تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى . ووصل جيش الروم الى المدينة ، واحتمى بأسوارها ، واغلق ابوابها خلفه .

قضى المسلمون الليل في السهل ، وفي اليوم التالي ساروا الى المدينـــة . وهنا فرض خالد الحصار على دمشق ، وذلك في العشرين من آب عام ٦٣٤ م العشرين من جمادى الآخرة عام ١٣ هجري) .

لقد وضع خالد في وقت سابق سرية خيالة في « فحل » لشغل حاميـــة

---

(١) ان وصف هذه المبارزات والحوار ماخوذين من الواقدي صفحة ١٩ ــ ٢١ .

الروم ومنعهـا من التقـدم لمساعدة دمشق او التدخل في تحرك المراسلين والتعزيزات من المدينة . والآن ارسل خالد سرية اخرى على طريق حمص للتمركز قرب « بيت لاهية » ، وهي تبعد حوالي عشرة اميال عن المدينة [1] ، وامر قائدها ان يرسل كشافين لمراقبة وصول قوات نجدة من الروم والابلاغ عنهـا . واذا لم يتمكن قائد هـذه السرية من التعامل مـع قوات النجـدة الرومانية ، عليه ان يطلب مساعدة خالد . وبعد ان وضع خالد قوة لسـد الطريق وعزل دمشق عن شمال سورية ، وهي المنطقة الاكثر احتمـالا لوصول النجدات منهـا الى دمشق ، قـام بتطويق المدينة بباقي جيشه . (انظـر الخريطـة رقم ١٧) .

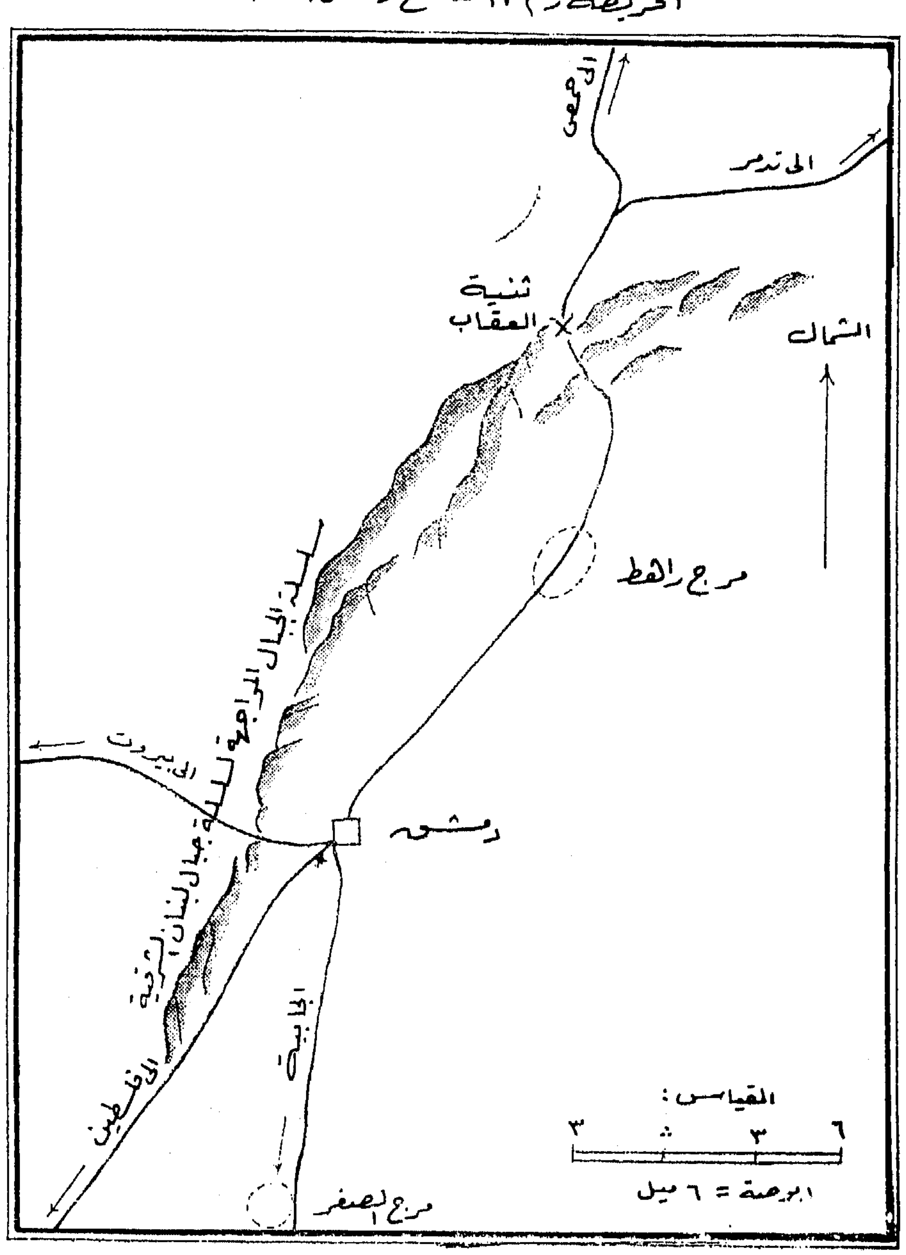
كانت دمشق تضم حامية من الروم يتراوح عددها بين خمسة عشر الفـا وستة عشر الفا ، بالاضافة الى عدد كبير من السكان المدنيين الذين يتألفـون من السكان الاصليين وعدد كبير من سكان المنطقـة المجاورة الذين التجـأوا الى المدينة . اما بالنسبة لعدد قوات المسلمين فلم يسجلها المؤرخون ، ولكنها تقـل بعض الشيء عن قوتهم في الشهر السابق . فعدد قتلى المسلمين فـي المعارك الثلاث التي خاضوها وهي : اجنادين ، والياقوصة ، ومرج الصُفَّـر ، يزيد على الالف هذا بالاضافة الى بضعة آلاف من الجرحى وهؤلاء غير قادرين على الاشتراك في الحصار . علاوة على ذلك ، فقد أرسلت مفرزة لسد الطريق المؤدي الى دمشق من جهة الشمال ، كما تركت مفرزة اخرى في « فحل » . واذا اخذنا بعين الاعتبار كل ماتقدم، فانني اقدر قوة المسلمين في دمشق بحوالي عشرين الفا ، وفرض خالد الحصار على المدينة بهذه القوات .

وضع خالد لواء العراق الذي يضم وحدات من الحرس المتحرك عنـد باب شرقي . ووضع القوة الرئيسية لهذا اللواء تحت إمرة رافع ؛ وبقي خالد على مسافة قصيرة من باب شرقي ومعه احتياط مؤلف من اربعمائة خيّـال

---

(١) لم يعد « لبيت لاهية » وجود ، كما ان موقعها غير معروف . وهي قرية صغيرة من قرى الغوطة (ياقوت ـ الجزء الاول ، صفحة ٧٨٠) ، وقد حددتُ مكانها في الطرف الخارجي من الغوطة لان من غير المعقول عسكريا وضع قوة لسـّد الطريق قرب المدينة .

الخريطة رقم ١٧ - فتح دمشق - ١



من الحرس المتحرك . وجعل قيادته في دير ، واصبح هذا الدير يعرف فيما بعد باسم « دير خالد » (ويقال ان الرهبان الذين كانوا يعيشون في هـذا الدير قد ساعدوا المسلمين بأشكال مختلفة ، من بينها العناية بجرحى المسلمين) . ووضع قوة تتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف عند باقي الابواب . وكان توزيع القادة كما يلي :

باب توما : شرحبيل .

باب الجابية : ابو عبيدة .

باب الفراديس : عمرو بن العاص .

باب كيسان : يزيد .

الباب الصغير : يزيد .

واصدر خالد تعليمات الى قادة الالوية تتضمن ما يلي :

١ ـ التعسكر خارج مدى السهام التي تطلق بواسطة الاقواس من الحصن .

٢ ـ مراقبة الابواب باستمرار .

٣ ـ تقديم النبالة للاشتباك مع نبالة الروم الذين يظهرون من فتحات الحصن .

٤ ـ صدّ اية قوة رومانية تخرج لمهاجمة المسلمين .

٥ ـ طلب مساعدة خالد في حال التعرّض لضغط شديد .

كما اسند مهمة لضرار ، الذي وضعت تحت إمرته قوة من الخيالة تبلغ الفي فارس من الحرس المتحرك ، وهي القيام بالدوريات في الفراغات بين الابواب ليلا ومساعدة أي لواء يهاجم من قبل الروم .

بعد ان تلقت الوية المسلمين هذه التعليمات ، فتحت للمعركة وبدات

---

(١) ان هذا الدير الذي يسمى ايضا «الدير الاحمر» ليس له وجود الآن ، لكن موقعه معروف بشكل عام . فعلى بُعد ½ ميل من باب شرقي نحو الشرق يوجد حديقة ، وكان الدير في هذه الحديقة .

بفرض الحصار . ونصبت الخيام ، وبدأ ضرار بالقيام بأعمال الدوريـة . كما أغلقت جميع طرق النجدات الرئيسية وكذلك طرق الهرب ، ولكن هـذا ينطبق على التشكيلات والمجموعات . أما الافراد فكان بامكانهم النزول مـن السور في عدة أماكن خلال الليل ، وبذلك كان توماس قادرا علـى الاتصال مع العالم الخارجي ومع هرقل في انطاكية .

وفي اليوم الذي تلا وصول المسلمين ، أحضر خالد كولوس وأدادير قرب الباب الشرقي وهم يرسفون بالحديد بحيث يستطيع الروم الموجودون علـى السور من رؤيتهما . وهنا عرض على القائدين اعتناق الاسلام ، لكنهما رفضا العرض . عندئذ ضربت اعناقهما على مرأى من حامية الروم ، وكان ضـرار بن الازور هو السيّاف .

لقد مرت ثلاثة اسابيع على الحصار دون ان تحصل اشتباكات كبـيرة باستثناء بعض الهجمات الصغيرة التي شنّها الروم والتي لم يجد المسلمون اية صعوبة في صـدّها . وكان الجانبان يتبادلان رماية السّهام اثناء النهار ، لكن خسائر الجانبين كانت طفيفة . وكان المسلمون مصممون على متابعـة الحصار حتى النهاية . ولا بد من استسلام دمشق [1] .

حالما سمع هرقل بأنباء هزيمة الروم في مرج الصُفـّر على يد خالـد وبانباء حصار دمشق ، اتخذ الاجراءات اللازمة لتشكيل قوات جديـدة . فالضربات التي نزلت بالامبراطورية منذ وقت قريب كانت خطيرة للغاية ؛ لكن التقدم الناجح للمسلمين خلق الآن موقفا اكثر خطورة ، واصبحت دمشق نفسها معـرّضة للخطر . فـاذا سقطت دمشق ، فان ذلك سيكون ضربـة قاصمة لهيبة الامبراطورية البيزنطية ومركزها ، ولن تستطيع هذه الامبراطورية استعادة مركزها دون ان تعبىء كافة الموارد العسكرية المتوفرة في الامبراطورية ؛ وهـذا الاجراء لن يتم اتخاذه الا في حالة الطوارىء والضـرورة القصوى .

---

(١) طبقا لرواية الطبري (الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٦) فقد استخدم المسلمون المنجنيق في هذا الحصار ؛ ولكن هـذا غير ممكن لانه لم يكن لدى المسلمين معدات للحصار ، كما انهم لايعرفون كثيرا عـن استخدامـه .

ودمشق معرّضة للسقوط ليس بسبب قلة القوات في المدينة ، ولكن بسبب نقص المؤن . فالمدينة لم تجهز بالتموين الكافي لحصار طويل .

وفي غضون عشرة ايام من بدء الحصار ، شكّل هرقل جيشا جديدا من اثني عشر الف رجل سحبوا من الحاميات المتعددة الموجودة في شمال سورية والجزيرة [1] .

وأرسل هذا الجيش من انطاكية ومعه قافلة كبيرة من المؤن ، وطلب من قائده ان يصل الى دمشق بأي ثمن لانقاذ حاميتها المحاصرة . وسارت هذه القوة عن طريق حمص ، ثم اصطدمت بعناصر كشافة المسلمين على الطريق بين حمص ودمشق ، واصبحت منذ الآن جاهزة للزج في المعركة عند اي طلب .

في التاسع من ايلول عام ٦٣٤ م (العاشر من رجب ، عام ١٣ هجري) ، وصل مراسل الى معسكر خالد واخبره بأن جيشا كبيرا من الروم لايُعرف عدده يتقدم بسرعة من اتجاه حمص ، وسيشتبك هذا الجيش في غضون يوم تقريبا مع قوة سدّ الطريق المنتشرة عند بيت لاهية . لم يُفاجأ خالد لسماعه هذا النبأ ، لانه توقع ان يقوم هرقل بعمل اي شيء يستطيعه لانقاذ دمشق ؛ وهو لهذا السبب وضع قوة لسدّ الطريق الرئيسي التي يحتمل ان تتقدم عليه قوة الانقاذ للاقتراب من المدينة .

وفي الحال نَظّم خالد قوة من الخيّالة يبلغ تعدادها خمسة آلاف رجل ووضعها تحت إمرة ضرار . وأمّرَ ضراراً ان يتقدم بأقصى سرعة الى منطقة بيت لاهية ، وان يتسلّم قيادة القوة المنتشرة هناك ، وان يشتبك مع قوة النجدة القادمة من حمص . وحـذّر ضرارا من الاندفاع بتهوّر واخبره ان يطلب تعزيزات قبل ان يزج بقواته في المعركة اذا كانت قوات العدو كبيرة جدا . ان كلمات خالد التحذيرية لضرار لم يكن لها اي تأثير على ضرار ؛ لانه اذا كان

---

(١) كانت الجزيرة تشمل المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ، واليوم يقصد بالجزيرة شمال شرق سورية ، وشمال غرب العراق ، وجنوب شرق تركيا .

ينقصه صفة ما فهي الحذر . وانطلق ضرار مع نائبه رافع من دمشق باتجاه قوة سدّ الطريق المنتشرة عند بيت لاهية ؛ وعندما وصلها تقدم بجميع قواته الى هضبة منخفضة تقع بالقرب من ثنية العقاب ونشر قواته هناك على شكل كمين .

وفي صباح اليوم التالي ظهر جيش الروم على مرمى النظر . فانتظره المسلمون . وعندما اقترب رأس رتل الروم من موضع الكمين ، امر ضرار بالانقضاض . فنهض رجاله من مكامنهم وهجموا على الروم بامرة قائدهم «عاري الصدر » . ولكن الروم كانوا جاهزين لمثل هذه المفاجاة . ففتحوا بسرعة في تشكيل المعركة واصبح القتال اشتباكا جبهيا ، فالمسلمون كانوا مهاجمين ، والروم كانوا مدافعين بثبات على ارض مرتفعة امام ممر العقاب . وادرك المسلمون الآن القوة الحقيقية للروم ، وهي تعادل ضعفي قوتهم . لكن هذا التفوق ليس مهما بالنسبة لضرار .

وبينما كان ضرار يهاجم بعنف امام رجاله ، ابتعد عنهم كثيرا وبعد فترة قصيرة اصبح محاطا بالروم . وتعرف عليه أعداؤه فهو البطل « عاري الصدر » ، وقرروا ان ياخذوه حيا الى امبراطورهم ويقدموه كهدية له . واصيب ضرار بسهم في ذراعه الايمن لكنه استمر في القتال بينما كان الروم يقتربون منه أكثر . واخيرا بعد ان اصيب بعدة جراح ، تغلّب عليه الروم ، فاخذ وارسل بعد ذلك الى المؤخرة .

كان لخسارة ضرار تأثير سيء على المسلمين ، لكن « رافعا » كان خير خلف لضرار المتهور . فتسلم القيادة ، وشنّ عدة هجمات للوصول الى ضرار وانقاذه ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، وتحول القتال الى حالة من الجمود . وايقين رافع انه لايستطيع عمل شيء للتغلب على قوة الروم المنتشرة امامه ، فارسل بعد الظهر رسالة الى خالد يخبره فيها عن الاشتباك ، وعن قوة العدو ، وعن فقدان ضرار ـ الذي من المحتمل انه لا يزال حيّا .

كانت الشمس لاتزال فوق الافق عندما استلم خالد انباء الاشتباك . وايقن ان قوة الروم في بيت لاهيه كانت كبيرة بحيث لايستطيع رافع ان يتعامل

معها بقواته فقط . وهذا الموقف جعل خالدا في ورطة كبيرة . اذ لابد من هزيمة قوة النجدة الرومانية وطردها نحو حمص ، ويمكن ان يتم هذا فقط اذا تسلم القيادة في بيت لاهيه خالد نفسه مع تعزيزات مناسبة من دمشق . واذا لم يتم ذلك ، فان قوة النجدة الرومانية ستتمكن من شق طريقها عبر قوة سد الطريق ، وبالتالي ستفك الحصار عن دمشق مما سيؤثر تأثيرا سيئاً على المسلمين .

ولكن كانت هنالك أيضا مشكلة الوقت . فلو ان تحركا سريعا قد تم لتعزيز رافع ، فان الحامية الرومانية ستلاحظ التحرك ومن ثَمّ ستشن هجوما خارج السور ضد قوة الحصار الضعيفة . إذَنْ لابد من ضرب قوة النجدة الرومانية في بيت لاهيه ، مع اخفاء التحرك عن حامية دمشق . لذلك قرَّر خالد ان يجازف بالتأخير بحيث يستمر بتنفيذ التحرك حتى الجزء الاخير من الليل دون ان تتمكن حامية المدينة المحاصَرة من اكتشافه .

واتخذت الاستعدادات طبقا لذلك . فسُلّمت القيادة في دمشق الى ابي عبيدة لكي يستمر في عملية الحصار أثناء غياب خالد . وبعد منتصف الليل، اتخذت مفرزة مؤلفة من الف رجل بقيادة ميسرة بن مسروق مواقعها عند باب شرقي ، كما أجريت بعض التعديلات في توزيع القوات عند أبواب دمشق الاخرى . ثم انطلق خالد في وقت ما بين منتصف الليل والفجر على رأس قوة من الحرس المتحرك تبلغ اربعة آلاف خيّال . وتحرك الحرس بسرعة خلال الوقت المتبقي من الليل ، وفي صباح اليوم التالي وصل خالد الى ساحة المعركة الناشبة بين رافع والروم . واستمر القتال في هذا اليوم الثاني للمعركة دون ان يتم حسم الموقف لصالح اي من الجانبين . وفي الحقيقة اصبح المسلمون الآن في حالة من التعب والإنهاك أمام الروم الذين كانوا صامدين كالصخرة في وجه هجمات المسلمين .

عندما اقترب خالد من ميدان المعركة ، رأى فجاة احد الخيالة المسلمين يمر من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة . وقبل ان يتمكن خالد من ايقافه ، استطاع هذا الخيال من الوصول الى صفوف الروم . كان هذا الخيال نحيلا ،

ويرتدي زيتاً أسود ، ويغطي صدره بدرع ، وكان يتسلح بسيف ورمح طويل. وكان يضع على راسه عمامة خضراء ، ويلف وجهه بقناع بحيث لايرى منه سوى العينين . لقد وصل خالد الى ميدان المعركة في الوقت الملائم ليرى هذا الخيال وهو يقذف بنفسه نحو الروم باندفاع يثير الدهشة ويجعل كل من شاهده يظن ان به مس" من الجنون هو وحصانه . ورأى رافع" هذا الخيال قبل رؤيته لخالد وعلّق على ذلك قائلا : « انه يهجم مثل خالد ، لكنـه ليس خالدا » . [1] ثم اجتمع خالد برافع .

استفرق خالد بعض الوقت في تنظيم مجموعة رافع وقوة الخيالة الخاصة به في مجموعة واحدة ، وفي فتحها للمعركة كقوة مشتركة . وفي أثناء ذلك قام الخيّال المقنّع بعرض يهزّ المشاعر امام المسلمين ، اذ كان يهجم على صفـوف الروم فيقتل أحدَهم ثم يعدو على حصانه الى جزء آخر من جبهة الروم فيضرب شخصاً آخر . وتقدم عدد قليل من الروم للانقضاض عليه لكنهم سقطوا جميعا بواسطة رمحه المخيف . وقد اعجب المسلمون بهذا الخيّال لكنهم لم يستطيعوا ان يروا منه أكثر من ملامحه الشابه وعينيه اللتين تشعّان تحت القناع . وكان هذا الخيّال يبدو وكأنه يريد الانتحار فثيابه ورمحه كانت تقطـر دما ، وهو يضرب المرة تلو الاخرى في صفوف الروم .

لقد اثار عمل هذا الخيّال حماسة وشجاعة رجال رافع ، الذيـن نسوا تعبهم وعادوا الى القتال بروحٍ معنوية عالية عندما أصدر خالد اوامره للهجوم.

تابع الخيّال المقنّع ، وقد انضم اليه العديد من المسلمين ، حربَه ضد الروم بينما قامت جميع قوات المسلمين بالهجوم على مواجهة الروم . وبعد أن بدا الهجوم العام ، اقترب خالد من الخيّال المقنّع وقال له : « أيها الفارس ، ارنا وجهك » . فنظر الفارس بعينيه السوداوين الى خالد ثم انطلق بسرعـة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال . بعدئذٍ استطاع نفر قليل من رجال خالد ان يوقفوا الخيّال ، وقالوا له : « أيها المقاتل الكريم ، قائدك يناديك وانت تهرب

---

(١) الواقدي ــ صفحة ٢٨ .

منه أرنا وجهك واخبرنا عن اسمك كي يكرمك القائد . » ومرة أخرى تملّص الخيال وكأنه يحاول اخفاء هويته عمدا .

وبعد ان عاد الفارس المقنّع من هجومه ، مرّ بالقرب من خالد الذي طلب منه التوقف . فتوقف الفارس ، فقال خالد : « لقد فعلت مافيه الكفاية لتملأ نفوسنا بالاعجاب . فمن أنتَ ؟ » .

وعندما سمع خالد الإجابة اوشك ان يسقط عن فرسه ، لان الصوت كان لفتاة : « أيها القائد ، لقد ابتعدت عنك بسبب التواضع فقط . فأنت القائد العظيم ، وأنا واحدة من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب . لقد قاتلتُ كما رأيت لان قلبي يشتعل نارا . » فقال خالد « من أنتِ ؟ » فقالت الفتاة : « أنا خولة ، أخت ضرار . لقد أسر اخي ، ويجب عليّ ان أقاتل لاطلاق سراحه » .

لقد أعجب خالد بالرجل العجوز ، الأزور ، والد هذين المقاتلين الجريئين ، الشاب والفتاة . ثم قال لها خالد : « اذن تعالي وهاجمي معنا » .

استمر قتال المسلمين بقوة ، وحوالي منتصف النهار بدأ الروم بالانسحاب من ارض المعركة بانتظام . ولحق بهم المسلمون ، وشدّوا الضغط عليهم ، ولكن لم يجدوا اي أثر لضرار حيّاً او ميتاً . ثم جاء بعض العرب المحليين وأخبروا المسلمين بأنهم رأوا حوالي مائة من الروم وهم يتجهون نحو حمص ومعهم رجل عاري الصدر مربوط الى فرسه . فأدرك خالد على الفور ان ضرار قد أرسل بعيدا عن ميدان المعركة ، فأمرَ رافعا ان يأخذ معه مائة من خيرة الفرسان ، وان يتحرك حول مجنبة الروم للوصول الى طريق حمص واعتراض قوة الحراسة المكلفة بمرافقة ضرار الى حمص . وعلى الفور اختار رافع مائة من الصناديد وانطلق ومعه طبعا خولة بنت الازور .

وصل رافع الى طريق حمص وانتظر في نقطة لم تصل اليها قوة الحراسة بعد ونصب فيها كمينا . وعندما وصل المائة رومي الى هذه النقطة ، انقضّ

(١) الواقدي ـ صفحة ٢٧ .

رافع ورجاله عليهم ، وقتلوا معظمهم واطلقوا سراح ضرار . واجتمع البطل عاري الصدر مع اخته الشجاعة . وعاد رافع مع فرسانه للانضمام الى خالد بعد ان سار مسافة طويلة حول طريق حمص ـ دمشق لتجنب جيش الروم ، وقد سُرّ خالد من رافع لانقاذه ضرار .

وتحت ضغط المسلمين المستمر ، زاد الروم في سرعة تراجعهم . وعندما ضرب المسلمون بقوة ، تحول التراجع الى هزيمة ، وهرب الروم باتجاه حمص.

لم يستطع خالد ان يطارد العدو لانه ينبغي عليه ان يعود الى دمشق . فالمسلمون الذين يحاصرون دمشق أضعفوا بسبب سحب تسعة آلاف رجل من قوتهم (خمسة آلاف مع ضرار ثم مع رافع ، واربعة آلاف مع خالد) . ففي حالة مهاجمة اي لواءٍ من ألوية المسلمين بقوة من قبل الروم ، فان الروم سيخترقون صفوفه وسينتج عن ذلك خطر جسيم . لذلك اكتفى خالد بارسال كتيبة خيالة فقط بإمرة « صمت بن الاسود » لمطاردة الروم الى حمص . ووصل « صمت » الى حمص في حينه ووجد الروم قد انسحبوا الى حصنها . وعلى العموم ، فقد اتصل سكان حمص المحليين « بصمت » واعلموه بأنهم لايرغبون في قتال المسلمين ، وانهم على استعداد لعقد اتفاقية سلام ، كما انهم على استعداد لإطعام اي جنود يقيمون في مدينتهم . وبعد ان تبادل « صمت » الرسائل الودية معهم ، عاد الى دمشق .

في غضون ذلك كان خالد قد التحق بجيش المسلمين في دمشق . فتسلم القيادة وأعاد توزيع قوات المسلمين حول المدينة كما كانت قبل ظهور قوة النجدة الرومانية القادمة من حمص .

انتشرت أنباء مصير قوة النجدة السيئة بين سكان دمشق ، وكانت ضربة قاصمة حقاً . فأهل دمشق كانوا يضعون املهم في هرقل من اجل ارسال قوات لنجدتهم . وقد فعل هرقل مابوسعه ، لكن آمالهم قد انهارت نتيجة لقتال خالد في بيت لاهية . ولا شك بأن هرقل يستطيع جمع قوات اكثر ، لكن ذلك يحتاج الى وقت . وفي غضون ذلك كانت المؤن تنقص تدريجيا ولا يوجد في الأفق اية بارقة امل تطمئن اهالي دمشق وترفع من معنوياتهم .

وكان يُطرح عدد من الاسئلة حيثما اجتمع الناس . فحتى لو ان هرقل استطاع ان يجمع قوات جديدة – وهذا غير محتمل خلال وقت قصير – فما هو الضمان بأن هذا الجيش الجديد يستطيع ان يحقق اكثر مما حقق الجيش السابق ؟ فاذا استطاع المسلمون ان يفعلوا ما فعلوا لجيش مؤلف من تسعة آلاف رجل في اجنادين ، فما هو المصير الذي ينتظر القوة الصغيرة نسبيا الموجودة في دمشق ؟ وما هي الفرصة المهيأة لها لتجنب الهزيمة العسكرية ، والنهب والاسر الذي سيتبع ذلك بدون شك ؟ وما هي المدة التي ستستهلك فيها باقي المواد الغذائية في المدينة ؟ أليس من الافضل عقد صلح مع المسلمين بأية شروط تقدم ، وبهذه الطريقة يتم تجنب الدمار الكامل ؟ لقد انخفضت المعنويات وظهر التذمر في دمشق ، وخاصة في القطاع غير الروماني من المدينة . واصبح الموقف ميؤوسا منه ، وزادت حدة التوتر في المدينة .

ثم جاء وفد من شخصيات المدينة الى توماس . واخبروه بمخاوفهم واقترحوا عليه امكانية عقد صلح مع خالد ، لكن توماس اكد لهم ان لديه قوات كافية للدفاع عن المدينة ، وهو سينتقل الى الهجوم سريعا لطرد المسلمين . واقيمت الصلوات في الكنائس من اجل انقاذ المدينة من الاخطار التي تتهددها . وقرر توماس ان يقوم بمحاولة لشن هجوم قوي من الحصن . وكان توماس رجلا شجاعا ، فطالما ان لديه بعض الامل في النجاح ، فانه لن يستسلم .

وفي صباح اليوم التالي ، اي في اوائل الاسبوع الثالث من ايلول عام ٦٣٤ م ، سحب توماس رجالا من جميع قطاعات المدينة وشكل قوة كبيرة للهجوم من باب توما . وكان يقف قبالة هذا الباب شرحبيل مع لوائه المؤلف من حوالي خمسة آلاف رجل . وبدأ توماس العملية برمايات مركزة من السهام والحجارة ضد نبالة المسلمين لكي يطردهم بعيدا عن باب توما وبالتالي لكي يفسح مجالا لقواته للخروج من الباب المذكور . ورد المسلمون على رمايات السهام برمايات مماثلة. واثناء تبادل الرمي بين الجانبين،قتل عدد من المسلمين،وكان من بينهم ابان بن سعيد بن العاص – وهو رجل تزوج حديثا من امرأة شجاعة بشكل

غير عـادي . وحالما علمت بأنها اصبحت ارملة ، اخذت قوسا وانضمت الـى نبالة المسلمين ، طلبا للثأر . ووقف علـى سور الحصـن ، قرب باب توما ، قسيس وهو يحمل صليبا كبيرا على صدره ، وقد كان الهدف من وقفته هذه هو شحذ همم الروم واثارة روح الشجاعة فيهم . ولكن لسوء حظ هـذا القسيس فقد اختارته الارملة الشابة هدفا لها . واخترق السهم الذي رمته صدر القسيس ، وسقط القسيس من السور على الارض جثة هامدة .

وعلى اية حال ، فقد تفوق الروم على المسلمين في تبادل رمايات السهام، وبعد فترة من الوقت اضطر المسلمون المحاصرون للتراجع الى خط يقع خارج مدى رمايات السهام .

بعد ذلك فتح باب توما وخرج منه مشاة الروم تحت تغطية رمايات النبالة من فوق السور ، واندفعوا خارجه وفتحوا بتشكيل المعركة . وبعد ذلك أمر توماس بشن هجوم ضد لواء شرحبيل ، الذي انتشر للمعركة أيضا علـى بعد بضع مئات من الياردات عن باب توما . وقاد توماس الهجوم بنفسه،وكان سيفه بيده ، وطبقا لروايات المؤرخين كان يزمجر كالجمل[1] .

وسرعان ما نشب قتال عنيف بين الجانبين . كان الروم يفوقون لواء شرحبيل ، لكن هذا اللواء ثبت في مكانه ولم يتزحزح بوصة واحدة ، وبدات خسائر الروم بالتصاعد . ولاحظ توماس شرحبيل وقدر انه هو قائـد قوات المسلمين ، فهجم عليه . فرآه شرحبيل وهو يتقدم نحوه ، فاستعد لملاقاته وسيفه الذي يقطر دما بيده . ولكن توماس اصيب بسهم في عينه اليمنى قبل ان يتمكن من الوصول الى شرحبيل ؛ وسقط على الارض ؛ وكانت الارملة هي التي رمته بالسهم . وفي الحال رفع عن الارض من قبل رجاله وحمل بعيداً ، وفي نفس اللحظـة بدا الروم بالتقهقر نحو الحصن . وهكـذا تراجع الروم الى الحصن تحت ضغط حملة السيوف ونبالة المسلمين التي كانـت تفتح على المجنبتين ، وتركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، وسقط العديد من هؤلاء بسهام أرملة ابان .

---

(١) الواقدي ـ صفحـة ٤٦ .

وقام الجراحون بفحص عين توماس داخل الحصن . فالسهم لم يخترق بعمق كبير ، لكنهم وجدوا انه لا يمكن اقتلاعه . لذلك عمدوا الى قطعه ، واظهر توماس شجاعة نادرة ، اذ لم يكتئب لفقدان عينه وآلام جراحه . واقسم ان يقلع الف عين مقابل عينه ، وانه لن يكتفي بهزيمة هؤلاء المسلمين بل سيطاردهم الى الجزيرة العربية التي ستصلح مأوى للوحوش المفترسة فقط بعد ان ينتهي منها . وامر بشن هجوم كبير آخر وتنفيذه ليلا .

وفي غضون ذلك كان شرحبيل يشعر ببعض القلق . لقد خسر عددا كبيرا من الرجال بين قتيل وجريح ، وخشي أن شن الروم هجوما مدبرا آخر ، فانهم قد ينجحون في اقتحام لوائه . لذلك طلب تعزيزات من خالد ، لكن خالدا لم يكن لديه قوات يستغني عنها . فهو لا يستطيع اضعاف الألوية الاخرى ، لان الروم يستطيعون عندئذٍ ان يهاجموا عند اي باب من أبواب دمشق ، ثم يختارون بابا آخر لهجومهم التالي . وأمر شرحبيل ان يصمد بقدر المستطاع ، واكد له بان ضرارا مع رجاله الألفين سيخف لنجدته في حالة الضغط الشديد . واذا احتاج الامر فانه سيأتي مع احتياطه لقيادة المعركة عند باب توما . واستعد شرحبيل لهجوم آخر من قبل الروم ، وهو مصمم على الصمود حتى آخر رجـل .

واختار توماس من اجل الهجوم الليلي باب توما مرة اخرى هدفا لتركيز جهده الرئيسي لكي يستغل الخسائر التي نزلت بلواء شرحبيل . لكنه خطط لشن هجمات ثانوية من الابواب الاخرى . وكانت حامية دمشق تعرف اماكن الوية المسلمين وأسماء قادتهم بالتفصيل . ولكي لاتستطيع الوية المسلمين الموجودة عند الابواب الاخرى مساندة شرحبيل ، فقد امر توماس بشن هجمات من باب الجابية ، والباب الصغير ، والباب الشرقي . وبالنسبة للباب الشرقي فقـد خصّص له قوات اكثر من باقي الابواب ، لكي لايستطيع خالد ان يتحرك لنجدة شرحبيل وتولي القيادة في القطاع الحاسم . وبهجومه من عدة ابواب فانه يعطي العملية شيئا من المرونة . فاذا تحقق النجاح في اي قطاع غير باب توما ، عندئذ يمكن اعتبار هذا القطاع هو قطاع الجهد الرئيسي ويتم استغلال النجاح طبقا لذلك .

وأكـد توماس في اوامره على الهجمات السريعة لكي يؤخذ المسلمون على حين غرة في معسكـراتهـم ، ومـن ثمّ يتم تدميرهم . كما امرهم بعـدم استخدام الرأفة . وامرهم بأن يقتلوا اي مسلم يرغب في الاستسلام في مكانه، باستثناء خالد اذ ينبغي ان يؤتى به حيًا . وكان القمر في ذلك الحين يبزغ قبل منتصف الليل بساعتين . فبعد بزوغه مباشرة وعند صدور الامر مـن توماس ، يقرع ناقوس كإشارة لفتح الابواب ، ثم يبدأ الهجوم من الابـواب المحـددة بآن واحد .

وبدات هجمات الروم كما هو مخطط في ضوء القمر . ونشب قتـال عنيف عند باب الجابية ، واشترك ابو عبيدة نفسه بالقتال وهو شاهر سيفه . وكان ابو عبيدة ماهرا في استخدام السيف ، وقد سقط العديد من الـروم تحت ضرباته قبل ان يتم صدّ الهجوم وعودة الروم الى المدينة بسرعة .

كان لدى يزيد عند الباب الصغير قوات أقل مما هو موجود عند الابواب الاخرى ، واستطاع الروم تحقيق بعض النجاح . ولكن لحسن حظ يزيد كان ضرار قريبا منه فانضم اليه مع مقاتليه الألفين . وبدون ان يضيع ضرار دقيقة واحدة هجم هو ورجاله على العدو ، وقد تصرف الروم بذعر من جراء هجوم ضرار ، كأنهم هوجموا من قبـل شياطين ، وانسحبوا بسرعة الى الحصـن وضرار في إثرهم .

وعند الباب الشرقي كان الموقف خطيرا ، لان قوات الروم هنالك كانت كبيرة . وقد استطاع خالد ان يدرك من اصوات المعركة بأن العدو تقدم اكثر ممـا يجب ، وخوفا من ان لايتمكن رافع من صد الهجوم ، ذهب خالد بنفسه للمعركة ومعه اربعمائة من صناديد الحرس المتحرك . وعندما وصل الى الروم اخذ يصرخ بصوت عال : « انا خالد بن الوليد .. » .

وكان صوت خالد هذا معروفا لجميع الروم ، وكان له تأثير كبير علـى خفض الروح المعنوية لهم . وفي الحقيقة كان مجيء خالد الى الباب الشرقي نقطـة تحول في هجوم الروم عند هذا الباب . اذ سرعان ماتراجع الـروم وسـد المسلمون الطريق على الذين تأخروا عن اللحاق برفاقهم . واستطاعت

معظم قوة الروم ان تعود الى المدينة وان تغلق الباب الشرقي خلفها . وعلى ايـة حال ، فان اعنف قتال حـدث عنـد باب توما ، حيث كان يقاتل لواء شرحبيل بضراوة اثناء النهار ، والذي كان عليه ان يتحمل وطأة القتال ليلا . وقد ساعد ضوء القمر الروم في اندفاعهم عبر باب توما وفتحهم للمعركـة . واثناء خروجهم من الباب وقعوا تحت وابل من رمايات السهام التي قذفهـا نبّالة شرحبيل ، ولكن على الرغم من بعض الخسـائر ، أتمّ الروم فتحهم في تشكيل المعركة وتقدموا للقتال . واستمر القتال مدة ساعتين بدون توقف ، وكـان رجال شرحبيل يناضلون مـن اجل ايقـاف هجوم الروم . وقـد نجحوا في ذلـك .

وبعد منتصف الليل بقليل ، استطاع توماس الذي كان يقاتل في الصف الاول ان يميّز شرحبيل . وكان من السهـل تمييز قائد المسلمين بواسطـة الاوامر التي كان يعطيها بصوتٍ عال الى مقاتليه . وتقدم توماس نحو شرحبيل وبدات مبارزة بين القائدين بالسيف والترس . واستمرت المبارزة بين القائدين لبعض الوقت دون ان يتغلب احدهما على الآخر ، بينما كان باقي الجنود يتقاتلون بشراسة وعنف . ثم انقض شرحبيل بكل قوته على توماس وضربه بالسيف على كتفه ، لكن سيفه أصاب واقية الكتف المعدنية للدرع الذي يرتديه توماس وانكسر السيف . واصبح شرحبيل الآن تحت رحمة توماس . ولحسن حظ شرحبيل ، قدم في نفس اللحظة اثنان من المسلمين واشتبكا مـع توماس . فتراجع شرحبيل الى الخلف ، والتقط سيف احد القتلى المسلمين وعاد ثانية للقتال . لكن توماس لم ينتظر وانسحب نحو صفوف الروم .

لقد ادرك الـروم الآن ان لا فائدة من استمرار القتـال . كما انهم لم يلاحظوا اية نقطة ضعف في جبهة المسلمين ، لذلـك قرّر توماس ان استمرار القتال معناه سقوط المزيد من القتلى بين رجاله . فأمر بالانسحاب ، وبدا الروم بالتراجع . ولم يحاول المسلمون اللحاق بهم ، مـع ان نبّالتهم انزلت خسـائر لا بأس بها بالعدو . واستخدمت الارملة الشابة توسهـا مرة اخرى وأوقعت بالعدو اصابات قاتلة .

كانت هذه آخر محاولة يقوم بها توماس لفك الحصار عن المدينة . وقد فشلت هذه المحاولة . وخسر الآلاف من رجاله في الهجمات التي شنتّها ، ولم يعد باستطاعته القتال خارج أسوار المدينة . وقد شاركه في هذا الراي جنوده . فهم مستعدون للدفاع عن المدينة ، ولكنهم لا يستطيعون الاشتباك مع المسلمين خارج الحصن . واعطى توماس الآن صلاحيات أكثر لنائبه ، « هربيس » ، واوكل اليه عدة مهام كان يتولاها هو بنفسه .

بعد فشل الهجوم الليلي ، بلغ اليأس بين اهالي دمشق درجة كبيرة . وبدا التذمر ينتشر بين الناس الذين لا يريدون شيئا الآن سوى السلام ، وقد شاركهم في هذه الرغبة توماس الذي قاتل بشجاعة دفاعا عن المدينة واستجاب لنداء الشرف . وكان مستعدا لتحقيق السلام وتسليم الحصن بشروط ، ولكن هل كان خالد مستعدا لعقد الصلح ؟ فهو معروف بأنه رجل عنيف ويعتبر المعركة نوعا من الرياضة ؛ وبما انه يعرف بدون شك الظروف الداخلية التي تسود دمشق ، فهل يقبل شيئا اقل من التسليم بدون قيد او شرط ، وبذلك يصبح الجميع تحت رحمته ؟

كان الروم يعرفون قادة المسلمين حقّ المعرفة . وهم يعرفون ان ابا عبيدة يأتي بعد خالد في سلسلة القيادة ، وكانوا يتمنون لو انه كان الرجل الاول في القيادة . كان ابو عبيدة الجراح رجل سلام ، لطيف المعشر ، محبّاً للخير ، ينظر للحرب كواجب مقدس اكثر من كونها مصدر سرور وإثارة . فمع ابي عبيدة يستطيعون تحقيق السلام ، وسيكون بلا شك كريما في شروطه . لكن ابا عبيدة لم يكن قائد الجيش . واستمر التفكير في هذه المعضلة مدة يومين او ثلاثة ؛ لكن الامر خرج من ايديهم بواسطة « يونان العاشق » .

كان يونان بن ماركوس يونانياً يعشق فتاة يونانيــة لدرجــة العبادة . وكانت هذه الفتاة في الواقع زوجته . وكانا قد تزوجا قبل وصول المسلمين مباشرة ، لكن حفلة الزفاف لم تتم بسبب وصول المسلمين وفرضهم الحصار على دمشق . فطلب يونان من اهل الفتاة عدة مرات ان يزفّوها اليه لكنهــم رفضوا قائلين بأنهم مشغولون جدا في القتال وان هذه الحرب هي مسألة حياة

او موت ؛ فكيف يفكر يونان بمثل هذه الاشياء في وقت كهذا ؟ وفي الحقيقة كان يونان لايفكر بشيء سوى بفتاته .

بعد حلول الظلام في الثامن عشر من ايلول عام ٦٣٤ م (التاسع عشر من رجب عام ١٣ هجري) ، هبط يونان من فوق السور ، بواسطة حبل ، قرب الباب الشرقي ، واقترب من احد الحرّاس المسلمين ، وطلب رؤية خالد . وعندما ارسل الى القائد ، قصّ عليه قصته الحزينة وشرح الفرض من زيارته . وقال لخالد هل يساعده في الحصول على زوجته اذا ادلى بمعلومات تؤدي الى سرعة الاستيلاء على دمشق ؟ فأجاب خالد بالايجاب . ثم اخبر خالدا بأن الناس في المدينة يحتفلون بمهرجان في هذه الليلة ونتيجة لذلك فانهم سيكونون في حالة من السكر والعربدة ولن يكون هنالك من الحرّاس الا القليل عند الابواب . فاذا استطاع خالد ان يتسلق السور ، فانه لن يجد اية صعوبة في فتح اي باب يشاء والدخول الى المدينة .

شعر خالد بالثقة والاطمئنان لهذا الرجل . وبدا له انه صادق فيما قال. فعرض خالدٌ الاسلامَ على يونان فقبل ، اذ كان قد سمع كثيرا عن الإسلام خلال السنوات القليلة الماضية وكان توّاقاً لذلك . واعتنق يونان الاسلام على يدي خالد . وبعد ذلك اخبره خالدٌ ان يعود الى المدينة وينتظر ، فذهب يونان حسب تعليمات خالد .

وحالما غادر اليوناني ، امر خالدٌ بتأمين حبال وتجهيز سلالم من الحبال . ولم يكن لدى خالد وقتا لعمل خطة منسقة للهجوم ، للجيش بكامله ؛ لذلك قرر ان يقتحم الحصن من الباب الشرقي بواسطة لواء العراق الذي كان متمركزا عند هذا الباب . فالقمر سيبزغ حوالي منتصف الليل ، وبعد ذلك مباشرة سيشنّ الهجوم .

وطبقاً لخطة خالد ، سيقوم مائة رجل بتسلق السور من مكان قرب الباب الشرقي ، الذي كان معروفا عنه انه لايقهر . وسوف لايجد حراساً بالتاكيد . وسيقوم ثلاثة رجال في بادىء الامر بالتسلق مع الحبال . ثم تثبّت سلالم الحبال بالحبال وتشدّ بواسطة الرجال الثلاثة لكي تستخدم من قبل

الرجـال المائة لكي يصعدوا إلى قمة السور . ويبقى بعض الرجال عند القمة ، بينما يهبط الآخرون الى الحصن ، ويقومون بقتل اي حرّاس يجدونهم عند الباب ثم يقومون بفتح الباب .

وكان القادة الثلاثة الذين سيتسلقون السور هم : خالد ، وقعقـاع ، ومذعور بن عدي . فأُلقيت الحبال الى الاعلى ، وعلقتْ بالمتاريس الموجودة على السور ، ثم تسلق القادة الثلاثة يداً بيد . فلم يجدوا حرّاساً في اعلى السور . فمدت سلالم الحبال ، وبدأ باقي الرجال بتسلق هذه السلالم بصمت مطبق . وعنـدما وصل نصف الرجال الى أعلى السور ، تـرك خالد بعضَ الرجـال ليساعدوا باقي المتسلقين ، وانحدر مع الآخرين الى المدينة . وقد تقابل مع عـدد قليل من جنود الروم فضرب اعناقهم بالسيف . بعد ذلك تدفق رجاله على الباب وكان يوجد بقربه حارسان . فَقَتَلَ خالدٌ واحدا وقتل قعقاعٌ الآخر . ولكن في هـذا الوقت أُعلن الانـذار ، وبدات مجموعات الروم تتدفق على الباب الشرقي .

اما باقي جماعة المسلمين فقد تمركزت بسرعة لمنع تقدم الروم ، بينما اخذ خـالد وقعقاع على عاتقهما فتح الباب الموصد والمثبّت بالسلاسل . وبعد بضع ضربات تَهشّم المغلاق وفتح الباب على مصراعيه ، فاندفع لواء العراق عبر الباب . اما جنود الروم الذين تدفقوا نحو الباب فلم يعد احد منهم ؛ ومـلأت جثثهم الطريق المؤدي الى مركز المدينة .

وكان جميع سكان دمشق في ذلك الحين في حالة يَقَظة . واندفع جنود الروم الى الاماكن المحدّدة لهم سابقا ، واحتلوا اماكنهم حول الحصن . وعندما بدأ خالد هجومه الاخير للوصول الى مركز مدينة دمشق ، كان لدى توماس احتياطا صغيرا فقط . وقد تمكن خالد من قتل جميع الذين اعترضوا طريقه من عناصر الكتائب التي تدافع عن قطاع الباب الشرقي .

كان الوقت قبيل الفجر ؛ وكان توماس قد قرر ان يلعب ورقته الاخيرة بذكاء . فعَرَفَ توماس ان خالدا قد امّن موطىء قدم ثابت له في المدينة ، وان المدينة ستكون تحت سيطرته بعد قليل . ونظراً لعدم وجود نشاط عند

الابواب الاخرى ، فقـدّر توماس ان خالدا كان يهاجم لوحده وان باقي الالوية لم تكن مشتركة في الهجوم على الحصن . كما اعتقد ايضا بأن قادة الالويـة الاخرى ، باستثناء ابي عبيدة ، لايعلمون شيئا عن اقتحام خالد للباب الشرقي. لذلك تصـرّف توماس بسرعة . فقذف باحتياطه الاخير ضد خالد ليؤخـر تقدمه اكبر وقت ممكن ، وارسل بنفس الوقت مبعوثين الى باب الجابيـة للتحدث مع ابي عبيدة ، وتقـديم عرض بتسليم الحصن بـدون قتـال ، ودفع الجزيـة .

استقبل ابو عبيدة هؤلاء المبعوثين بالحفاوة واستمع الى عرض تسليم الحصن . واعتقد بانهم جاؤوا اليه لانهم كانوا خائفين من مواجهة خـالد . وإذا به يسمع أصوات المعركة من مكانه الحالي فلا بد انه ظن انه هجوم شنّه الروم ؛ لانهُ لم يكن يتصور ان خالدا سيتسلق السور بالحبال . ولم يشـك ابو عبيدة بينه وبين نفسه ان خالدا أيضا سوف يوافق على السلام لوضع حدّ لاراقة الدماء ولتأمين احتلال سريع لدمشـق . لذلك اخذ على عاتقه مسؤولية اتخاذ القرار وقبل بشروط التسليم . فدخول دمشق سيتم سِلْمياً ؛ ولن يكون هنالك اراقة دماء ، ولا نهب ، ولا سبي ، ولا تدمير للمعابد ؛ وسيدفـع السكان الجزية ؛ كما ان للحامية ولأيّ من السكان المحليين الحريّة في مغادرة المدينة كما يستطيعون اصطحاب جميع امتعتهم معهم . بعد ذلـك ذهب المبعوثون الى قادة الالوية الموجودين عند الابواب الاخرى واخبروهم بأنه قد اتفق على السلام مع قائد المسلمين وان الابواب ستفتح قريبا ، حيث يستطيع المسلمون عندئذ ان يدخلوا المدينة بدون قتال . ولن تكون هنالك مقاومة .

وبعد الفجر مباشرة دخل ابو عبيدة ، ومعه قادته وباقي لوائه ، الـى دمشق بدون قتال من باب الجابية ، وسار نحو مركز المدينة . وكان يرافقه من الروم توماس وهربيس وعدد كبير من الاساقفـة ورجال الدين . وكـان ابو عبيدة يمشي كملاك للسلام ، وكان خالد يتقدم كالإعصار ، وقد وصلا بآن واحد الى مركز مدينة دمشق ، عند كنيسة مريم . واستطاع خالد ان يخترق آخر مقاومة للروم قبل ان يصل الى هذا المكان . كذلك دخل باقي قادة الالوية الى المدينة وكانوا يتقدمون الى مركز المدينة بدون قتال .

نظر أبو عبيدة وخالد الى بعضهما البعض بدهشة . ولاحظ ابو عبيدة ان خالدا ورجاله كانوا يحملون سيوفهم بأيديهم وهي تقطر دما ، فأدرك أن شيئا ما قد حصل دون علمه . ولاحظ خالد ظواهرَ السلام التي تحيط بأبي عبيدة وقادته ، كما لاحظ ان سيوفهم في غمدها ، وان نبلاء الروم واساقفتهم يرافقونهم .

وخيم الصمتُ على الجميع . ثم كسر ابو عبيدة الصمت وقال : « يا أبا سليمان ، لقد مَنَحَنَا اللهُ المدينةَ بسلام على يديّ ، ووفّر على المسلمين القتال من اجلها » . فقال خالد بغضب : « أي سلام هذا الذي تقول ! لقد استوليتُ على المدينة بالقوة . فسيوفنا تقطر بدمائهم ، وقد استولينا على غنائم واسرى » .

وكان من الواضح ان مجابهة « عنيفة » ستحدث بين هذين القائدين ، وسيكون لها نتائج خطيرة . فخالد كان هو القائد ، وتجب اطاعته ؛ علاوة على ذلك ، فهو ليس بالرجل البسيط الذي يتقبل اي هراء من مرؤوسيه . كما أن شخصيته الشامخة وآراءه السديدة في الامور العسكرية جعلت من الصعب مناقشته ، خاصة في مثل هذا الموقف ، فقد كان مصمما على أنْ يعتبر أنّ فتحَ دمشق كان نتيجةَ استخدام القوة وليس نتيجة مفاوضات السلام . ومن جهة اخرى ، كان ابو عبيدة لايتمتع بشيء من العبقرية العسكرية التي كان يتمتع بها خالد ، وهو آخر شخص يمكن ان يدعي العكس . لكنه كمسلم كان في المقام الاول ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهو « أمين هذه الامة » . وهو الاشرم الذي فقد قواطعه ؛ ولا يمكن لاحد ان ينس كيف فقد إسنانه الامامية .

كان ابو عبيدة مخطئا في الاتفاق على السلام بدون علم خالد وإذنه ، لكنه كان مصمما على اعتبار ان كلمة المسلم مقدسة ، وانه تم تجنب اراقة الدماء غير الضرورية . وهو يحترم قيادة خالد ويعرف ان التعامل معه ينبغي أن يتم بحرص شديد . وكان ابو عبيدة في الحقيقة هو الرجل الوحيد في بلاد الشام الذي يستطيع ان يناقش أي قرار لخالد . حتى ان خالدا لايرفع صوته

عندما يتكلم مع ابي عبيدة ، مهما كان غاضبا . ومما جعل الموقف اقل خطورة هو الحب والتقدير الذي يكنّه كل منهما للآخر بسبب الصفات العديدة التي جعلتهما عظيمين . وكان ابو عبيدة يعرف أيضا ان بامكانه إسكات خالد ببضع كلمات ، لانه كان مزوّدا بصلاحيات لايعلم خالد عنها شيئا . لكنه قرر أن لايستخدم هذه الصلاحيات إلا كملجأ اخير ، عندما تفشل جميع محاولات اقناعه . وكان لطيفا في ذلك مع خالد ، وسنرى اكثر فيما بعد .

وقال ابو عبيدة : « ايها القائد ، إعلم انني دخلت المدينة بدون قتال » .

واتقدت عينا خالد غضبا ، لكنه كبح جماح نفسه ؛ واجاب بصوت يشوبه الاحترام : « انك تتصرف دائما بدون اكتراث . فكيف امكنهم ان يحصلوا على السلام منك بينما دخلتُ المدينة بالقوة وقضيت على مقاومتهم ؟ » فقال ابو عبيدة : « إتّق الله ، أيها القائد ! لقد اعطيتهم ضمانا للسلام ، وانتهى الامر » . فقال خالد : « لستَ مخوّلا بمنحهم السلام بدون أوامري . فأنا قائدكم . ولن أغمد سيفي قبل ان ابيدهم عن بكرة ابيهم . » فقال ابو عبيدة : « أنا لا أصدق انك تعارضني بعد ان اعطيت ضمانا للسلام لكل فرد منهم . لقد منحتهم السلام باسم الله ، جل شأنه ، وباسم النبي عليه صلوات الله وسلامه . كما ان المسلمين الذين كانوا معي وافقوا على هذا السلام ، ونقضُ العهود ليس من صفاتنا » .

في هذه المرحلة كان بعض جنود خالد يستمعون للنقاش الذي يدور بين خالد وأبي عبيدة ، ورأوا بعض الروم وهم يقفون بالقرب منهم ، فاستلوا سيوفهم واخذوا يلوّحوا بها وتقدموا نحو الروم لقتلهم . فراى ابو عبيدة هذه الحركة فتقدم بسرعة وأمر الرجال أن يتوقفوا عن قتال الروم حتى تنتهي المناقشة بينه وبين خالد . فأطاعه الرجال . وكان لايستطيع ان يفعل ذلك سوى أبي عبيدة ؛ كما ان خالدا لايستطيع ان يفعل شيئا سوى كظم غيظه .

ووصل قادة الالوية الثلاث الآخرون وبدؤوا بمناقشة الموقف . وبعد بضع دقائق توصلوا الى اتفاق فيما بينهم ونقلوا رأيهم الى خالد : فليكن السلام ، لان الروم الموجودين في بلاد الشام اذا سمعوا بأن المسلمين قد أعطوا ضمانا

للسلام ثم بعد ذلك ذبحوا هؤلاء الذين منحوا الضمان وامّنوا على حياتهم ، فلن تستسلم اية مدينة اخرى الى المسلمين ، وهذا سوف يجعل مهمة فتح بلاد الشام اكثر صعوبة .

لم تؤثر العاطفة ابدا على منطق خالد ؛ ورأى هذا المنطق الحكمةالعسكرية في النصيحة التي قدمها قادة الالوية . واخذ ينظر الى توماس وهربيس برهة من الزمن . ثم قال : « حسنا ، انني أوافق على السـلام ، فيما عدا هذين اللعينـين » .

فقال ابو عبيدة : « هذان الرجلان هما اول من يشملهما السلام . ويجب ان لاتكسر كلمتي . حلّت عليك رحمة الله » .

فقال خالد : « والله لولا كلمتك لقتلتهما . فدعهما يخرجان من المدينة ، حلّت عليهما اللعنة اينما ذهبا » .

كان توماس وهربيس يراقبان المناقشة بين القائدين المسلمين بينما كان المترجمون ينقلون اليهما مايدور من حديث . وبذلك فهما كـل ماقيل وتنفّسا الصعداء عندما علما نتيجة الحوار . ثم تقدّما نحو ابي عبيدة مع مترجم وطلبا الاذن بالخروج من المدينة والذهاب على أي طريق يختارانه . فقال ابو عبيدة : « انا موافق . ويمكنكما ان تذهبا على أي طريق تختارانه . ولكن اذا فتحنا مكانا وانتما تقيمان فيه ، فلن تكونا عندئذ تحت حمايتنا » . فقال توماس ، وكان يخشى ان يلحق به خالد : « امنحنا ثلاثة ايام من السلام ؛ وبعدها تنتهي الهدنة ثم اذا امسكتم بنا ، فافعلوا بنا ماتشاءون : اقتلونا او خذونا اسرى » .

وهنا تدخّل خالد بالحديث وقال : « انا موافق ، شريطة ان لاتاخذا معكما سوى مايكفيكما من الطعام لرحلتكما » . فاعترض ابو عبيدة وقال : « ان هذا الشرط يتعارض مع الاتفاق الذى يسمح لهما بأن يأخذا كل امتعتهمـا » . فقـال خالد : « اذن انا موافق على هذا ايضا ولكن بدون اسلحة » . فاحتج توماس قائلا : « يجب ان نأخذ معنا بعض الاسلحة للدفاع عن انفسنا ضـدّ اعداء آخرين غيركم . والا فسنبقى هنا ؛ وتستطيعوا ان تفعلوا بنـا ما يحلو

لكم » . وكان توماس يعرف مدى تمسك المسلمين بعهودهم ومواثيقهم ، لذلك فقد استغل هذه الصفة .

وافق خالد على أن يصطحب كل رجل سلاحا واحدا فقط : السيف ، او الرمح ، او القوس . وهكذا حلّت آخر مشكلة [1] .

بعد ذلك مباشرة ، وكانت الشمس قد أشرقت منذ قليل ، كُتبت الاتفاقية ووقعت من قبل خالد وهذا هو نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها ، أعطاهم امانا على انفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يُسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير اذا أعطوا الجزية . » [2] .

وتم الاتفاق على مقدار الجزية وهي دينار عن كل رأس ، وعلى كمية من الطعام تؤمن للمسلمين .

لقد تم فتح دمشق واصبحت بيد المسلمين ؛ ولكن الذين فتحوا المدينة كانوا ينظرون الى نصرهم هذا بشعور مختلط .

فالمسلمون قاتلوا بعنف للاستيلاء على هذه المدينة . ومع ان خسائرهم كانت اقل بكثير من خسائر الروم ، الا انهم دفعوا ثمنا باهظا في سبيل ذلك . وناضلوا مدة شهر وبذلوا دمهم وعرقهم من أجل هذا النصر . لقد فتحوا المدينة بالسيف ــ خاصة لواء العراق ، الذي اقتحمها في الليلة الاخيرة وقضى على كل المقاومة . لكن ثمار تعبهم انتزعت بدبلوماسية توماس الذكي ، وببساطة وطيبة ابي عبيدة . لم يكن من حق ابي عبيدة ان يفعل ذلك ، لكنه كان « أمين هذه الامة » ، ولم توجّه كلمة لوم ضده .

تجمع المسلمون ليشاهدوا قافلة الروم وهي تغادر المدينة . وكانت القافلة تتالف من حامية المدينة وآلاف المدنيين الذين آثروا عدم البقاء تحت حكم

---

(١) ان الحوار الذي دار بين خالد وأبي عبيدة مأخوذ من الواقدي ــ صفحة ٥١ ، ٥٢ .
(٢) البلاذري ــ صفحة ١٢٨ .

المسلمين وخرجوا من دمشق مع زوجاتهم واطفالهم . وسافرت زوجة توماس ، وهي ابنة هرقل ، مع زوجها . وسار مع القافلة مئات العربات والمركبات التي تحمل حوائج المسافرين وبضائع المدينة ، وكان من ضمنها ثلاثمائة بالة من اجود انواع البروكار [1] تخصّ هرقلا . وكان بعض المسلمين ينظرون بغضب، وآخرون باكتئاب عندما شاهدوا دمشق وهي تفرّغ من ثروتها . لقد كانت لحظة مؤلمة بالنسبة لفاتحي دمشق .

وكان خالد ومعه نفر من اصحابه ، يحدّثون بغيظ . فالروم لم يتركوا شيئا ذا قيمة في دمشق . وكان خالد يشعر بألم في أعماقه . لقد كان هو قائد الجيش ، وهو الذي فتح دمشق بالسيف ، وهو الذي اقتحم الحصن . وابو عبيدة فعل هذا !

ونظر خالد الى الآخرين فوجد وجوههم تفوح غضبا . فجميع هذه الثروات هي من حقهم حسب شريعة الفتوحات . وكانت مجموعات المسلمين تقف على طول الطريق وهي تراقب بصمت . وكان بامكانهم الانقضاض بسهولة على القافلة وأخذ ما يريدون ، لكن جيش المسلمين كان منضبطا وكان يحترم العهود والمواثيق ، ولم يفكر أي فرد من هذا الجيش التدخل في مسيرة القافلة .

حاول خالد جاهدا ان يكبح جماح غضبه . ثم رفع يديه الى السماء وقال بصوت عالٍ : « يا إلهي امنحنا جميع هذه الثروة عونا للمسلمين » .

سمع خالد صوت رجل يتنحنح خلفه ، فالتفت ورأى يونان العاشق ، وكان هذا لايزال حزينا كما كان في الليلة السابقة عندما قابل خالدا في فسطاطه. فبعد ان قابل يونان عروسه بعد تسليم المدينة ، طلب منها ان تأتي معه ، وكانت في بادىء الامر مسرورة لذلك . ولكن عندما اخبرها بأنه أصبح الآن صديقا للمسلمين وانه اعتنق دينهم ، إبتعدت عنه واقسمت ان لا تراه . وقررت أن تغادر دمشق ، وهي تسافر الآن في قافلة توماس . وكان يونان لايزال العاشق الشارد الذهن والمتيم بحب فتاته ، فجاء الى خالد يلتمس مساعدته.

(1) نسيج حريري مشجّر ـ المترجم .

وسأل فيما اذا كان باستطاعة المسلمين ان يأخذوا الفتاة عنوةً ويسلموها اليه . فأجيب بان ذلك غير ممكن . لانها مشمولة بالأمان الذي أعطاه خالد لأهل دمشق . وسأل فيما اذا كان باستطاعة المسلمين ان يهاجموا القافلة . فأجيب بأن ذلك غير ممكن لان الامان الذي اعطاه خالد للقافلة كانت مدته ثلاثة أيام ، وقبل انقضاء الايام الثلاثة لايمكن مهاجمتها .

وبعد ثلاثة أيام لايمكن اللحاق بالقافلة لان السرعة التي تسير بها تجعل من العسير على المسلمين ان يدركوها .

فقال يونان بل إنهم يستطيعون إدراكها ، فهو يعرف دروبا قصيرة يستطيع الخيّال الذي يتحرك عليها بسرعة ان يلحق بالقافلة ، بينما تكون القافلة مجبرة على سلوك الطرق ولا تستطيع تقصير محاورها . فقيل له إن ذلك غير ممكن ايضا . فالحصون العديدة مثل : حمص،وبعلبك ، وطرابلس ،كانت قريبةبحيث يمكن الوصول اليها في غضون ثلاثة أو أربعة أيام ، وتستطيع القافلة انتصل بأمان الى داخل اسوار احدى هذه الحصون قبل ان يتمكن المسلمون من اللحاق بها.

فقال يونان إنه يعرف ان القافلة لن تذهب الى أيٍّ من هذه الحصون ، وهو يعلم ايضا انها ستتوجه الى انطاكية وتحتاج الى عدة أيام للوصول الى هناك . وهو على استعداد ليكون دليلا للمسلمين . وكل مايريد مقابل ذلك هي فتاته .

فلمعت عينا خالد . فالامكانيات التي تحدث عنها يونان كانت كالماء بالنسبة للعطشان . فأومأ الى نفر من قادته : ضرار ، ورافع ، وعبد الرحمن ابن ابي بكر . وطلب منهم ان يقوموا بالمطاردة بعد ثلاثة أيام . ووُضعت الخطط، وصدرت الاوامر ، واتخذت الاستعدادات . فعندما تنقضي الايام الثلاثة ، ينطلق الحرس المتحرك لمطاردة الروم بأقصى سرعة . وتقرر بناءً على اقتراح يونان ان يرتدي الجميع لباس العرب المحليين ، لانه في حالة ملاقاتهم لاية وحدة رومانية وهم في الطريق فان هذه الوحدة ستظن انهم من العرب المحليين ولن تعترض طريقهم . وتحرك الامل في قلوب المؤمنين !

وفي صباح اليوم الرابع ، بعد شروق الشمس بقليل ، وبعد انتهاء مهلة

الايام الثلاثة ، انطلقت قوة الحرس المتحرك من دمشق وعلى رأسها خالـد ويونان . وبقي ابو عبيدة في دمشق قائدا للمسلمين فيها .

والمحور الذي سلكه الحرس المتحرك غير مذكور في روايات المؤرخين . وقد ذكر الواقدي ان المسلمين أدركوا القافلة على مسافة قصيرة من انطاكية، ليس بعيدا عن البحر ، على سهل مرتفع وراء سلسلة التلال المسماة من قبل العرب ب « الأبرش » ومن قبل الروم بـ « بَرْدَى » . وكان المطر ينهمر بكثرة ، وانتشرت القافلة في السهل اتقاء المطر ، بينما كانت البضائـع والامتعة تملأ المكان . ولم يكن لدى الروم أدنى شك بأن صاعقة ستنزل بهم . لذا كانت رزم البروكار مبعثرة على الارض وقد سمي السهل بعد ذلك « بمرج الديباج » ، ولهذا السبب أيضا سمي الاشتباك الذي حدث هنا « بمعركة مرج الديباج » .

تحسّن الطقس الآن . واستطاع يـونان وبعض الكشافة الآخـرين ان يحدّدوا مكان القافلة دون ان يكتشفهم احد ، وجلبوا معلومات كافية لكي يستطيع خالد ان يخطط لهجومه . واحتاج خالد لبضع ساعات لاعطاء أوامره وتوزيع الحرس المتحرك لتنفيذ مهمتها . واظهر خالد ، سيد الحركة والمفاجأة ، هنا ايضا كفاءة عالية في تطبيق مبادىء الحرب هذه .

عرف الـروم بوجود المسلمـين لاول مرة عندما قامت كتيبة خيّالـة بمهاجمتهم من الجنوب ، على امتداد الطريق القادم من دمشق ، بقيادة ضرار « عاري الصدر » . وقد دهش الروم لتمكن ضرار من اللحاق بهم ، لكنهم رأوا ان القوة التي معه كانت صغيرة ، لذلك قرروا ان يمزقوه إربا ثم يستريحوا بعد ذلك مرة اخرى . وتشكلوا في ترتيب المعركة لمواجهة هجوم المسلمين ، وبدؤوا بالقتال بالشجاعة المعروفة عنهم .

وبعد نصف ساعة ظهرت مجموعة اخرى من خيّالة المسلمين ، وهـي مؤلفة من الف خيّال بإمرة رافع ، من جهة الشرق ، وادرك الروم خطأهـم لاعتقادهم بأن كتيبة واحدة فقط هي التي تمكنت من اللحاق بهم . فالمسلمون لديهم بدون شك كتيبتان . فالكتيبة الاولى كانت الغاية منها جذب انتبـاه الروم ، بينما كانت الكتيبة الثانية مكلفة بتوجيه الضربة الرئيسية من الجنب .

ومع ذلك فان هاتين الكتيبتين لاتؤثران عليهم ، وسوف يمزقون كتيبتين بدلا من واحدة . وتشكل الروم مرة ثانية وتلقوا هجوم رافع ايضا .

وبعد ذلك بنصف ساعة ، ظهرت كتيبة خيالة اخرى من جهة الشمال . أي من اتجاه انطاكية ، وكانت هذه الكتيبة بإمرة عبد الرحمن ، وهنا شعر الروم بخطورة الموقف لانهم عزلوا عن انطاكية ، وعليهم الآن ان يشتبكوا بسرعة مع هذه الكتائب الثلاثة لكي يفتحوا الطريق شمالا او ينسحبوا الى الغرب ، وهذا الاتجاه هو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا امامهم . وتشكل الروم مرة اخرى ، وبدأت معنوياتهم الآن بالانخفاض . وهجمت كتائب المسلمين على تجمعات الروم بالسيف والرمح ؛ لكن الروم استطاعوا ان يثبتوا في مواقعهم، واستمر القتال العنيف ساعة اخرى .

ثم ظهرت من الغرب كتيبة رابعة من خيالة المسلمين وانقضّت على الروم. ومن صرخة المعركة التي اطلقها القائد ، عرف الروم من هو قائد هذه المجموعة الاخيرة :

« إنه خالد بن الوليد .. » .

لقد ذُبح الكثيرون من الروم بنفس الاسلوب المعتاد لخالد . وقتَل خالد بنفسه توماس وهربيس في مبارزات فردية ، وتوغل خالد في عمق جيش الروم وانعزل عن اصحابه واصبح محاطا بالاعداء . ولم يكن ليخرج حياً لولا عبد الرحمن ، الذي اندفع بمجموعة من الفرسان وانقذه .

وبعد مزيد من القتال ، خفّت مقاومة الروم . ونظرا لان عدد المسلمين كان قليلا وغير كاف لتطويق جيش الروم بشكل تام ، فقد استطاع الآلاف من الروم ان يهربوا وينجوا بأنفسهم . واستولى المسلمون على جميع الغنائم وعلى عدد كبير من الاسرى من كلا الجنسين . ووجد يونان حبيبته . وتقدم نحوها ليأخذها عنوة ؛ لكنها عندما رأته يتقدم منها اخرجت خنجرا من ثنايا ملابسها وغرزته في صدرها . وعندما وقعت على الارض جثة هامدة ، جلس يونان بجانبها والدموع تنهمر من عينيه . واقسم ان سيظل مخلصا

لـذكرى عروسه التي لم يكن مقـدرا لـه ان يمتلكها ، واقسم ان لاينظـر لفتـاة غيرها .

وعندما علم خالد بمصاب يونان ، ارسل في طلبه وقـدم له امرأة شابـة اخرى كانت تقف قريبة منهما ، وكان يبدو عليها الجمال والفنى مـن الملابس الفاخرة والمجوهرات التي تتزين بها . وبعد ان القى يونان النظرة الاولى على هذه المراة الشابة لم يعد يستطيع الكلام . وعندما استطاع الكلام مرة اخرى ، اخبر خالدا ان هذه المراة هي ابنة هرقل وارملة توماس . وهو لايستطيـع ان يأخذها ، لان هرقل إما ان يرسل جيشا لاستعادتها او يرسل مبعوثـين لـدفع الفدية .

وعـاد المسلمون الآن مع غنائمهم واسراهم التي تجلب السرور لأي جيش فاتح . ان الطريق الذي سلكوه في عودتهم ايضا غير مذكور في روايات المؤرخين، ولكن لم يحدث معهم أي شيء في رحلتهم . وعندما كانوا على بعد مسيرة يوم من دمشق ، شاهدوا سحابة صغيرة من الغبار تقترب على الطريق القادم من انطاكية . وعندما اصبحت هذه السحابة قريبة منهم ، كشفت عن مجموعة صغيرة من الفرسان ، وكان من الواضح ان هذه المجموعة لا تنوي القتال ، لان عددهم كان قليلا . وخرج من هذه المجموعة نبيل روماني وتقدم نحو خالـد وقال له : « انا سفير هرقل ، وهو يقول لك : « لقد علمتَ بما فعلتَ لجيشي . لقد قتلتَ زوجَ ابنتي وسَبَيْتَ ابنتي . لقد انتصرت وخرجت سالما . وانا اطلب منك الآن ابنتي . فإما إن تعيدها اليّ لقاء دفع فدية او تعطيها لي كهدية، لان الشرف صفة قوية في خلقك ؛ هذا مايقوله هرقل » .

كان الشرف حقاً صفة قوية من صفـات خالد . وكذلك كان خـالد يتصف بالمروءة والشهامة . وكان خالد معطاءً كريماً ، وقد سبب له هـذا الكرم مشكلة كبيرة فيما بعد . والآن قرر ان يكون كريما مع امبراطور الروم . فقال لسفير هرقل : « خذها كهدية ، ولا حاجة لدفع الفدية [١] . واخذ السفير ابنة هرقل وعاد بها الى انطاكية .

---

(١) الواقـدي ـ صفحة ٥٨ .

بقي يونان حزينا . ولم يستطع احد ان يجلب السرور الى قلبه . وقـدّم خالد له جائزة كبيرة من حصته من الغنائم ، يستطيع بها الحصول على زوجة اخرى ، وعند الضرورة عن طريق الشراء ؛ لكن يونان أبى ان يأخذ شيئـا . وصمم ان يظل وفياً لذكرى فتاته . كذلك بقي مخلصا لدينه الجديد ، وقاتل تحت راية الاسلام لمدة سنتين حتى معركة اليرموك ، حيث استشهد فيها .

استقبل المسلمون في دمشق عودة الحرس المتحرك وهو محمّل بالغنائم بالهتاف والترحيب . وقد غابت هذه القوة عن دمشق مدة عشرة ايام ، كـان المسلمون خلالها في حالة من القلق ؛ اما الآن فكل شيء اصبح على ما يرام . وأرسل خالد على الفور رسالة الى المدينة اخبر فيها ابا بكر عن فتح دمشـق وكيف عمد أبو عبيدة الى الصلح مع الروم وعن مطاردته لقافلة الـروم ، وقتله لتوماس وهربيس ، والاستيلاء على الغنائم والاسرى ؛ وعن ابنة هرقل واطلاق سراحها . وكتبت هذه الرسالة في الاول من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الثاني من شعبان عام ١٣ هجري) .

وبعد ذهاب المراسل الذي يحمل هـذه الرسالة بعدة ساعات انتحى ابو عبيدة بخالد جانبا واخبره ان ابا بكر قد مات وان عمر اصبح خليفة الآن . واخرج رسالة أرسلها اليه الخليفة الجديد . فأخذ خالد الرسالة وبدأ بقراءتها . وعندما وصل الى السطر الذي يقول : « إنني اعيتنك قائدا لجيش خالد بـن الوليد . . » رفع خالد رأسه عن الرسالة .

* * *

الجرح القاسي

عندما كان الخليفة ابو بكر على فراش الموت في المدينة ، طلب ورقة ومداداً وكتب الامر التالي : يتولى الخلافة من بعدي عمر بن الخطاب ، وعلى المسلمين ان يبايعوه على الخلافة . وكان هذا آخر أمرٍ اصدره ابو بكر .

وفي الثاني والعشرين من آب عام ٦٣٤ م (الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٣ هجري) ، توفي ابو بكر واصبح عمر خليفة المسلمين . وفي نفس اليوم أصدر الخليفة الجديد اول امر له : وهو عزل خالد عن قيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . وكتب الى أبي عبيدة الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة واخرجنا من الظلمات الى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك ، لا تقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده وتعلمَ كيف ما أتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كَثْف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد ابلاك الله بي وابلاني بك ، فغمِّض بَصَرك عن الدنيا واله قلبها عنك ، وإياك ان تهلكك كما اهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم . » (١)

واعطى الكتابَ الى الرسول ، وطلب منه ان يسلمه الى ابي عبيدة شخصياً .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٢ .

وفي اليوم التالي أمّ عمر المسلمين في جامع النبي للصلاة . وبعد انتهاء الصلاة خطب في المسلمين ، وكان أول خطاب له بعد توليه الخلافة . وبدأ خطابه بحمد الله والثناء عليه ، وبالصلاة على رسوله الكريم ، ثم قال : « إنما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده فلينظر قائدُه حيث يقود واما انا فوربّ الكعبة لأحملنهم على الطريق . » (١)

واكّد عمر في بقية خطبته على ضرورة التحلي بالفضيلة وعلى الواجبات الملقاة على عاتق المسلمين ، وتعهد بان يعمل قصارى جهده من أجل مصالح الإسلام . وعندما وصل الى نهاية خطبته ، ابلغ المصلين بأنه عزل خالداً عن قيادة الجيش في بلاد الشام ، وانه عيّن ابا عبيدة بدلا عنه .

تلقى المسلمون هذا الخبر بصمت ووجوم . وكان كل شخص يعلم ان الودْ مفقود بين عمر وخالد ، لكن أحداً لم يكن يتوقع ان يتصرف عمر ضد « سيف الله » بهذا الاسلوب ، وبمثل هذه السرعة ، وخاصة بعد الانتصارات العظيمة التي حققها خالد للاسلام حلال السنوات الثلاث الاخيرة . ومهما يكن من أمر ، فقد كان عمر مرهوب الجانب ، والجميع يكنّون له الاحترام ، وقليل من الناس من كان يجرؤ على مخالفته . علاوة على ذلك ، فهو بحكم منصبه كخليفة يتمتع بصلاحية تعيين وعزل القادة كما يشاء ، لذلك يجب ان يُقبل قراره ويُطاع . وبقي الجميع صامتين ، فالصمت كان ابلغ من الكلام .

وقام له ابو عمر بن حفص بن المغيرة وقاطعه في غلظة وهو يقول : « والله ما أعذرت ياعمر ، نزعت عاملا استعمله رسول الله ، ووضعت لواءً رفعه الله واغمدت سيفاً سلّه الله ، ولقد قطعت الرحم ، وحسدت ابن العم » .

وعرف عمر هذا الشاب الذي هو من بني مخزوم — وهي قبيلة خالد . وادرك ايضاً ان المصلين لم يسرُّوا لهذا النبأ . وقرر ان لايقول اكثر من ذلك حول الموضوع . لكنه قال للشاب : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، تغضب في ابن عمك . » (٢) وخرج من المسجد .

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٢ .

(٢) الواقدي — صفحة ٦١ .

وخلال النهار فكّر عمر مليّاً بموضوع عزل خالد . ورأى ان من المفضل ان يشرح للمسلمين اسباب العزل لكي يقنعهم بعدله . فشخصية لامعة مثل خالد لايمكن عزلها دون تقديم مبرّرات مقنعة . وفي اليوم التالي جمع عمر الناس وخطب فيهم : « إني اعتذر عن هجر خالد بن الوليد ، فاني أمَرْتُه أن يحبس هذا المال على ضعفه المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف وذا اللسان ، فأمَّرتُ أبا عبيدة » .

ولم يتكلم احد من الناس في هذه المرة .

وصل الرسول الذي يحمل الكتاب الهامّ الى دمشق بينما كان الحصار مضروبا حولها ولم تكن المعركة ضد قوة النجدة الرومانية قد نشبت بعد . وكان الرسول الذي يحمل الكتاب يعرف محتوياته ، وبما انه كان رجلا ذكيا ، ادرك مدى ما سيحدثه من اثر سيء على المسلمين الذين هم في حالة قتال مع العدو الروماني . لذلك كان يخبر اي رجل يقابله بأن الامور على خير مايرام وان التعزيزات في طريقها الى المسلمين . ثم ذهب الى فسطاط ابي عبيدة ، ولم يكن احد معه ، وسلّمه الكتاب .

وعندما قرأ ابو عبيدة الكتاب اصيب بالذهول . وكان لايتمنى ان يحدث هذا لخالد . فهو يعرف ان خالداً كان رمزا للجيش ، وان وجودَه على راس هذا الجيش كان عاملا في غاية الاهمية لجعل المسلمين يثقون بالنصر على اعدائهم . كما ان تغيير القيادة سيكون له تأثير عكسي ، خاصة وان المسلمين مشغولون بحصار عنيف لم تظهر اية دلائل بانه لصالحهم حتى الآن . وكان من الصعب اقناعهم بعدالة عزل خالد او بالحكمة من حدوثه في هذا الوقت . علاوة على ذلك ، فان ابا عبيدة لم يكن راغباً في تولي القيادة في منتصف العملية التي نظمها خالد بشكل جيد . لذلك قرّر ان لايذكر شيئا عن وفاة ابي بكر او عن تغيير القيادة حتى ينتهي الحصار بنجاح . وسأل الرسول فيما اذا علم احد بفحوى الكتاب ، فاكد له الرسول بأن احدا لم يطلع على الكتاب ، فحذّره أبو عبيدة عن إفشاء مضمونه .

وبقي المسلمون في دمشق لا يعلمون شيئا عن تغيير القيادة خلال باقي أيام

الحصار ، وحتى في يوم الفتح ، لم يُشر ابو عبيدة الى ذلـك أثناء النقاش الذيجرى بينه وبين خالد . فلو فعل ابو عبيدة ذلـك لكانت طعنة نجلاء توجه ضد خالد وبالتالي تؤدي الى التقليل من شأنه امام الصديق والعدو .
وهكذا وقع خالد الاتفاقية مع أهالي دمشق وليس ابا عبيدة . وبعد عودة خالد من الاغارة على « مرج الديباج » ببضع ساعات ، اخذه ابو عبيدة جانبا واخبره بوفاة ابي بكر وتعيين الخليفة الجديد ، واعطاه كتاب عمر ليقرأه .

قرا خالد الكتاب ببطء . وادرك انه اصبح معفياً من الخدمة . واصبح ابو عبيدة قائداً عاماً . ربما كان يتوقع ذلك اذا اصبح عمر خليفة ، لكنه لم يكن يتوقع ذلك لانه لم يفكر ابداً بإمكانية وفاة ابي بكر وبأن يصبـح عمر خليفـة .

وعرف خالد من التاريخ المؤرخ على الكتاب بانه مرسل منذ اكثر من شهر وان ابا عبيدة قد استلمه منذ ثلاثة اسابيع على الاقل . فنظر الى ابي عبيدة وسأله : « لماذا اخفيت هذا عني ؟ رحمك الله ! » فأجابه ابو عبيدة : « لم ارغب في إضعاف سلطنك وانت مشتبك مع العدو . »[1]

وسَرَحَ خالدٌ بأفكاره بضع دقائق وهو يفكر بأبي بكر ، صديقـه ومرشده ، والمحسن اليه . ونظر اليه ابو عبيدة بعين ملؤها العاطفة والحيرة . ثم اردف خالد : « رحم الله ابا بكر ، فلو انه كان حياً لما عـزلتمن قيادتي . »[2] وسار سيف الله ببطء الى فسطاطه .

وفي تلك الليلة بكى خالد على فراق ابي بكر[3] .

وفي صباح اليوم التالي ، الثاني من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الثالث من شعبان ، عام ١٣ هجري) ، جُمع الجيش وابلغ بتولي عمر الخلافة ، وتولي ابي عبيدة القيادة . وفي هذا اليوم اقسـم المسلمون في دمشق يمين الولاء للخليفة الجديد .

---

(١) البلاذري ـ صفحة ١٢٢ .
(٢) الواقدي ـ صفحة ٦٢ .
(٣) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ الجزء ٢ ، صفحة ١٤٠ .

ولم يُظهر خالد اي تصرف يدل على استيائه او غضبه نتيجة عزله . وكان يقول لاصدقائه : « اذا مات ابو بكر وتولى عمر الخلافة فعلينا السمع والطاعة . »[1] وكان خالد لايستطيع ان يفعل شيئاً يدل على استيائه دون ان يسبّب ضرراً خطيراً لجيش المسلمين ولقضية الإسلام في بلاد الشام ، لان اي عمل ضد عمر سوف يؤدي الى إنقسام الجيش ، وهذا آخر ما يجول بخاطر الجندي الحقيقي والمسلم الصادق .

عندما يُعزل القائد العام من منصبه فهو لا يخدم عادة ــ اذا كان لابد من خدمته ــ في نفس المسرح الذي كان يتولى فيه القيادة . وهو عادة يحال على التقاعد . او يَطلب نقله ، او يُنقل الى اي مكان آخر حرصاً على شعوره . ولكن قدَّرَ خالد كان القتال والفتوحات ، وقد منحته الطبيعة جميع الصفات العسكرية المطلوبة لتحقيق هذا القدَر . وهكذا نرى هنا الظاهرة الجديرة بالاهتمام لاعظم قائد (في الحقيقة كان اعظم قائد في الالف سنة الاولى من العصر المسيحي) وهي استعداده للخدمة في مرتبة ادنى ، حتى كجندي عادي ، بنفس الاندفاع والحماس اللذين اظهرهما عندما كان قائدا للجيش . وكانت هذه الرغبة في الخدمة تعكس ايضا روح المسلمين في ذلك العصر . واصبح كل ذلك واضحاً بعد اسبوعين في ازمة « ابي القدس » .

بعد تولي أبي عبيدة قيادة الجيش باسبوع ، جاء احد العرب النصارى الذي كان يلتمس ودّ المسلمين الى القائد الجديد واخبره ان سوقا كبيرة سيقام في « ابي القدس » في خلال بضعة ايام . وسوف يأتي الزوار والتجار الى هذا السوق من جميع البلاد في المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية ومعهم السلع الثمينة للبيع والشراء . فاذا كان المسلمون يرغبون في الحصول على غنائم اكثر ، فما عليهم إلا ان يرسلوا قوة إغارة للاستيلاء على جميع الثروات التي يريدونها . (تعرف ابو القدس الآن باسم « أبلا » ، وهي تقع

---

(١) الواقدي ــ صفحة ٦٢ .

عند السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الغربية ، قرب زحلة ، على بعد حوالي اربعين ميلا من دمشق على الطريق المؤدي الى بعلبك) .

ولم يستطع المخبر ان يؤكد فيما اذا كان هنالك جنودا من الروم لحراسة السوق ، لكنه ذكر انه توجد حامية قوية في طرابلس ، على ساحل البحر الابيض المتوسط .

تكلم ابو عبيدة مع المقاتلين الذين جلسوا حوله ، وسألهم فيما اذا كان احد منهم يتطوع لقيادة قوة الإغارة على « أبي القُدس » . وكان يأمل أن يتطوع خالد لهذه المهمة ، لكن خالداً ظلّ صامتاً . ثم تقدم شاب ، لم ينبت الشعر على ذقنه الا منذ فترة قصيرة ، وابدى رغبته في التطوع بحماس شديد . وكان هذا الشاب يدعى عبد الله ، وهو ابنٌ لجعفر ، ابن عم النبي الذي استشهد في مؤتة . وكان هذا الشاب قد وصل من المدينة لتوّه وكان تواقاً للحصول على المجد في ساحة المعركة . وقبل ابو عبيدة تطوع الشاب وعينه قائداً على خمسمائة من الخيّالة .

وفي الرابع عشر من تشرين الاول عام ٦٣٤ م (الخامس عشر من شعبان عام ١٣ هجري) ، سارت مفرزة الخيالة على ضوء القمر الساطع . وكان مع عبد الله جندي بارّ ومتعبد يدعى ابو ذر الغفاري . وفي صباح اليوم التالي شنّ الشاب المندفع هجوما على قوة من الروم يبلغ عددها خمسة آلاف رجل كانت تحرس السوق . وبما ان عبد الله كان يبتغي المجد وأبا ذرّ يطلب الشهادة ، فلم تكن هناك قوة تستطيع كبح جماح المسلمين ؛ وكانت النتيجة كارثة . فبعد قتال بطولي ، طـوّق المسلمون من قبل الروم ، واصبح جلياً أن احدا لايستطيع الهرب . ولكن عندما يحاصر المسلم يصبح مقاتلا مستميتا. وعرف صناديد المسلمين كيف يدافعون عن انفسهم فشكلوا بسرعة حلقة متماسكة لابقاء الروم خارجها ؛ واستمروا في القتال وهم مطوقون ، واتخذ الروم جانب الحذر بسبب شجاعة المسلمين وقتالهم الشديد . ولكن إبادتهم كانت مسألة وقت فقط .

واستطاع احد المسلمين ان يهرب من طوق الروم ، وان يذهب الى دمشق

طلباً للنجدة بعد ان ادرك مدى خطورة الموقف . وكان ابو عبيدة جالسا مع قادته عندما وصل هذا الرجل وابلغ عن الكارثة وطلب المساعدة الفورية ، والتي بدونها لن يعود مسلم واحد من « أبي القدس » . فأُصيب ابو عبيدة بالذهول. وتذكر على الفور كلمات عمر : « لاتقــدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة » . علاوة على ذلك ، كانت هذه الاغارة اول قرار عسكري يتخذه كقائد عام فاذا لم ينجح عبد الله ورجاله ، سيكون أثر ذلك على الجيش مدمّــرا . ومن يقدر ان يقوم بالمهمة سوى خالد !

فالتفت ابو عبيدة الى خالد وقال : « يا ابا سليمان، اناشدك بالله ان تذهب وتنقذ عبد الله بن جعفر . فأنت الشخص الوحيد الذي تقدر على ذلك » . فأجاب خالــد : « سأفعل ذلك باذن الله ، وانا رهن إشارتك » . فأردف ابو عبيدة : « كنت أشعر بالتردد وانا اطلب منك ذلك » . وكان يشير بذلك الى الارتباك الذي شعر به عند تغيير القيادة .

فأجاب خالد : « والله لو جعلت طفلا عليّ لأطعته . وكيف لا أُطيعك وانت اعلى مني شأناً في الاسلام وسميت بالرجل الامين من قبل النبي ؟ انني لــن ابلــغ مركزك قطّ وانا أُعلن الآن هنا انني كرّستُ حياتي في سبيــل الله جــلّ شأنه » .

فقال ابو عبيدة بصوت منفعل : « رحمك الله يا ابا سليمان . اذهــب لانقاذ اخوتك »[1] .

وبعد نصف ساعة كان الحرس المتحرك ينطلق باتجاه « ابي القدس » وعلى راسه خالد وضرار . وتمكن خالد من انقاذ المسلمين المطوقين ، على الرغم من قتل الكثيرين منهم على يد الروم . ولم يقتصر الامر على ذلك بل اغار خالد ايضا على سوق « ابي القدس » واحضر معه كمية كبيرة من الغنائم . وعــاد خالد ايضا وهو مصاب بعدة جروح ، واصابته بالجروح هي امر طبيعي وكــان لايعطيها اي اهتمام .

---

(١) الواقــدي ـ صفحــة ٦٦ .

لم نترك نتيجة الاشتباك في « ابي القدس » اي شك (اذا كـان يوجد هنالك شك) باخلاص خالد بعد عزله عن القيادة . وكتب ابو عبيدة الى عمر يخبره بما حدث ، واطنب في مديح خالد للدور الذي قام به في هـذا الاشتباك لكن الآذان التي يمكن ان تستمع الى هذا الاطراء في المدينة لم تكن مستعـدة لسمـاع ذلـك .

ان التغيير الذي حدث في الخلافة وفي القيادة ، كان له اثر على الصعيد العسكري . فأساليب عمر كانت تختلف كليّاً عن سَلَفه . فبينما كان ابو بكر يعطي قادته مهمتهم ومنطقة العمليات ويترك لهم قيادة الحملة ، نجد ان عمر يحدد في اوامره اهدافا معينة لكل معركة . وكان يتدخل في ادق التفصيلات ، حتى انه كان يذكر من يقود الجناح الايسر ومن يقود الجناح الايمن ، وهكذا . واوجد عمر نظام العيون في الجيش لابلاغه عن كل مايجري داخله [1] .

قرر عمر أن يستمر قادة الوية المسلمين بتنفيذ المهام التي اوكلها اليهم ابو بكر : عمرو بن العاص يكون قائدا في فلسطين ، ويزيد في دمشـق ، وشرحبيل في الاردن ، وابو عبيدة في حمص ــ بعد الاستيلاء عليها . ولـم تقتصر مهامهم على القيادة العسكرية فقط بل تشمل ايضا القيادة السياسية على هذه المناطق . فمثلا كان شرحبيل قائد لواء المسلمين في الاردن ، وحاكما اداريا عليها . ومع ان ابا عبيدة كان قائدا عاما لجيش المسلمين ، الا انه لـم يكن يتولى هذه القيادة فعلا الا اذا عملت جميع الالوية معا ضد الروم . ولم يكن لخالد اي دور . وبناء على أمر عمر كان على خالد ان يعمل تحت إمـرة ابي عبيدة ، فسلّمه ابو عبيدة قيادة لواء العراق الذي كان يضم الحرس المتحرك . كان خالد متساوياً مع قادة الالوية في المنزلة العسكرية ؛ اما سياسياً فلم يكن يتمتع باية سلطة .

كان هنالك تباطؤ في العمليات العسكرية . وكان ابو عبيدة رجلا عظيماً ومقاتلا ماهرا . وخلال السنوات القليلة التالية اصبح قائدا جيدا كنتيجـة لنصائح وتوجيهات خالد . وكان يعتمد كثيرا على مشورة خالد الذي كـان

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦٥٨ .

يسعى لان يكون قريبا منه ، لكنه لم تكن لديه الرؤية الاستراتيجية او الإحساس التكتيكي الذي يتمتع به خالد . وكان يعقد المجالس الحربية او يكتب الى المدينة طالبا توجيه الخليفة فيما يتعلق بالاهداف التالية . لكن خالدا كان يندفع كالاعصار من معركة لاخرى ، وكان يستخدم المفاجاة ، والجراة والعنف لكسب معاركه ، بينما كان ابو عبيدة يتحرك ببطء وبثبات . ومع ذلك كان ابو عبيدة يحرز النصر في معاركه .

واستمر فتح بلاد الشام بهذا الترتيب الجديد ، وبالاحترام المتبادل والمحبة بين ابي عبيدة وخالد ، وبوضع عبقرية خالد تحت تصرف القائد العام.

مَعركةُ فَحل

سوف يذكر المزيد في فصل لاحق عن شخصية وقدرات هرقل والاستراتيجية التي استخدمها في محاولته لسحق العرب المسلمين الفاتحين في امبراطوريته . وهنا تجدر الاشارة الى ان هرقل كعدو ، كان رجلا فذا لايترك النضال عندما يكون لديه أدنى امل في النجاح . وكان عمل هرقل بعد اشتباك « ابي القُدُس » هو وضع جيش آخر في الميدان ، يضم جنودا جُدُداً من شمال بلاد الشام ، والجزيرة ، واوروبا . وكان هذا الجيش يشتمل على النّاجين من معركة « مرج الديباج » . وقد اجتمع جزء من الجيش في انطاكية ، بينما نزل الجزء الآخر بحرا الى موانىء البحر الابيض المتوسط في سورية وفلسطين .

وبدا حشد هذا الجيش في بيسان ، غرب نهر الاردن ، في أواخر كانون الاول ٦٣٤م (أوائل ذي القعدة ، عام ١٣ هجري) . وقرر ان يضرب من هناك باتجاه الشرق وسيحاول قطع طرق مواصلات المسلمين مع الجزيرة العربية . وطبقا لهذه الخطة ، كان هرقل ينوي تجنب الصدام المباشر مع المسلمين في دمشق ، ووضعهم في مركز استراتيجي غير ملائم ، واجبارهم على اخلاء دمشق . وكانت « فَحْل » التي تقع الى الشرق من نهر الاردن ، محتلة سابقا من قبل حامية من الروم متوسطة الحجم ، وكانت هذه الحامية مشتبكة مع سرية من خيّالة المسلمين بإمرة ابي الأعور .

وتلقى المسلمون معلومات عن تحرك قوات الروم من السكان المحليين ، وذلك قبل ان يتم حشد الروم في بيسان ، وعلموا ان قوة هذا الجيش الجديد

تبلغ حوالي ثمانين الف رجل ، وان قائده هو «سقلاّر بن مخراق » . وكان واضحا ان هذه القوة سوف تتحرك شرقا وستتحشد على جانبي خطوط مواصلات المسلمين . فعقد ابو عبيدة مجلس حرب ، وتقرر ان يتحرك المسلمون ويسحقوا هذا الجيش الرومي الجديد ، وان يتركوا خلفهم حامية قوية للدفاع عن دمشق ضد أي تهديد من الشمال والغرب . وفي هذا الوقت كان المسلمون قد نالوا قسطا من الراحة بعد أعمالهم البطولية المجيدة . وبعد اشتباك ابي القدس مباشرة ، وصلت تعزيزات من الجزيرة العربية ، وقد انضم عدد كبير من جرحى المسلمين الذين أصيبوا في المعارك الاولى الى صفوف المسلمين . وبذلك ارتفع عدد جيش المسلمين الى حوالي ثلاثين الف رجل ، تنظّموا في خمسة الوية متفاوتة القوى .

ان ترتيبات القيادة التي اتخذت من قبل ابي بكر ووافق عليها عمر سرى مفعولها بطريقة غير اعتيادية . كان يزيد قائد منطقة دمشق وحاكمها الاداري، ولذلك بقي في دمشق مع لوائه . وكان شرحبيل قائد منطقة الاردن التي تقع ضمنها بيسان وفحل . وبناءً على تعليمات الخليفة كانت القيادة العامة لمن يقع القتال في منطقته ولهذا تولى شرحبيل القيادة في فحل . وفي حوالي الاسبوع الثاني من كانون الثاني عام ٦٣٥ م ، انطلق جيش المسلمين ، بعد ان ترك لواء يزيد في الخلف ، من دمشق بقيادة شرحبيل ، وكان خالد مع لواء العراق يشكل حرس المقدمة . وفي منتصف كانون الثاني وصل المسلمون الى فحل فوجدوا ان حامية الروم قد ذهبت ، وان ابا الأعور كان يحتل المدينة [1] .

حالما سمعت حامية الروم في فحل عن تقدم جيش المسلمين من دمشق، اتركت المدينة بسرعة ، وانسحبت عبر النهر ، والتحقت بالقوة الرئيسية لجيش الروم في بيسان . ونظرا لان الروم كانوا يرغبون في إتمام استعداداتهم في بيسان دون ان يزعجهم احد ، فقد قاموا بسدّ النهر على بعد بضعة اميال جنوب خط بيسان — فحل مما ادى الى إغراق الشريط الكائن على جانبي

(١) تقع فحل تحت سطح البحر ، وتنحدر الارض المحيطة بها الى سرير وادي الاردن . وفي هذه المنطقة يبلغ ارتفاع نهر الاردن حوالي ٩٠٠ قدم تحت سطح البحر .

النهر . وكان يوجد بعض الطرق عبر هذه المنطقة المغمورة بالمياه ، ولكنها كانت معروفة للروم فقط . كان المسلمون يعرفون الصحراء جيدا ، وبدؤوا يعرفون المناطق الجبلية ، لكن هذا الشريط من الماء والطين الذي يمتد أمامهم كان تجربة جديدة لهم واوقعهم في حيرة . وعلى أية حال ، فقد قرروا ان يحاولوا اجتيازه .

فتح شرحبيل جيشه للمعركة عند سفح المنحدر تحت فحل ، وكان يواجه الشمال الغربي ، وكان ابو عبيدة وعمرو بن العاص يقودان الجناحين . وعيّن ضرار قائدا لخيالة المسلمين ، بينما وُضع خالد مع لوائه في المقدمة ليقود الهجوم الى بيسان . وتقدم المسلمون بهذا التشكيل . ولكن قبل ان يتحركوا مسافة بعيدة وقع حرس المقدمة في الوحل ووجد صعوبة كبيرة في تخليص نفسه . ولعن المسلمون الرومَ على هذه الخدعة ، ثم عادوا الى فحل ، وانتظروا فيها زهاء اسبوع .

وقرر سقلار ، القائد الروماني ، الآن ان الوقت قد حان لتوجيه الضربة. كانت استعداداته كاملة ، وكان يأمل ان يأخذ المسلمين على حين غرة بعد أن يكون المستنقع قد اعطاهم نوعا من الطمأنينة . فأدلاؤه سوف يقودون الجيش عبر المستنقع الذي اعتبره المسلمون غير قابل للاجتياز . وبعد غروب شمس الثالث والعشرين من عام ٦٣٥ م (السابع والعشرين من ذي القعدة عام ١٣ هجري) ، تشكّل جيش الروم غرب النهر وبدأ تقدمه نحو فحل على امل ان يفاجىء المسلمين في معسكرهم ليلا .

لكن المسلمين لم يركنوا الى الراحة . وكان شرحبيل قائدا حذرا ، وكان يتوقع ان يجيء الروم ولهذا كان لايبيت ولا يصبح الا على تعبئة . وكان يحتفظ بجزء من كل لواء في مواقعه القتالية خلال الليل . كذلك فقد وضع ستارة من الكشافين على امتداد المستنقع لرصد تحرك الروم نحو فحل . وهكذا عندما اقترب الروم من فحل ، لم يجدوا جيشا مستريحا في معسكره ، بل وجدوا جيشا مُشكّلا في ترتيب المعركة . وفي الحال بدات المعركة بين الجانبين . وقاتل الجيشان طيلة الليل ونهار اليوم التالي وهو الرابع والعشرين من كانون

الثاني عام ٦٣٥ م . وبقي جيش المسلمين في حالة الدفـاع ، وصَدّ جميع محاولات الروم لاختراق صفوفه ، وقتل أثناء هذه المحاولات سقلار . وعندما حلّ الظلام مرة اخرى ، قرر الروم ان يوقفوا القتال . وقد أصيبوا بخسـائر جسيمة على أيدي المسلمين ، الذين وقفوا كجدار من الفولاذ امام تقدمهم ، ولم ينجح الروم في خرق هذا الجدار في أي مكان منه . وبدأ الروم تحت جنح الظلام بالانسحاب عبر المستنقع باتجاه بيسان .

وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها شرحبيل . فقد قاتل الروم حتى أنهكهم ، وبعد ان يئسوا من النجاح وصُدت جميع هجماتهم بدؤوا بالانسحاب. وحان الوقت الآن لشن الضربة المعاكسة . فأمر شرحبيل بالتقدم ، وانقضّ ساكنو الصحراء ليلا على مؤخرات الروم .

وفي هذه المرة فشلت خطة السيطرة على التحرك ، وضاع الآلاف منهم في المستنقع . وعندما طاردتهم جموع المسلمين ، انهاروا وفقدوا أعصابهم . وتابع المسلمون مطاردتهم للروم بمعنويات عالية للقضاء على هذا الجيش . وقتل فيمعركة فحل عشرة آلاف من الروم ، وتعرف هذه المعركة في التـاريخ الاسلامي أيضا باسم « معركة الوحل » . ووصل بعض الروم الى بيسان بينما فرّ آخرون وتبعثروا في جميع الاتجاهات حرصا على ارواحهم .

وبهزيمة جيش الروم في فحل ، وُزع جيش المسلمين أيضا ، فأبو عبيدة وخالد بقيا في فحل ، ومن هنا سوف ينطلقان نحو دمشق وشمال سورية .

واجتاز شرحبيل مع عمرو بن العاص المستنقع والنهر عبر الطرق التي كان يستخدمها الروم والتي عرفت الآن ، وفرضا حصارا على بيسان . وبعد بضعة أيام شنّ الروم هجوما من حصن بيسان،لكنهم ذُبحوا من قبل شرحبيل. وسرعان ما استسلمت بيسان بعد هذا الهجوم ووافقت على دفع الجزية وبعض الضرائب الاخرى . بعد ذلك ذهب شرحبيل الى طبرية التي استسلمت أيضا بشروط مماثلة . وقد تم ذلك قبل نهاية شباط عام ٦٣٥ م (ذي الحجة عام ١٣ هجري) . ولم تعد هنالك مقاومة في منطقة الاردن .

في بداية العام الرابع عشر للهجرة ، وجّه عمرو بن العاص وشرحبيل اهتمامهما الى فلسطين . وهنا حدث تغيير آخر في القيادة . ففلسطين كانت منطقة عمرو ، لذلك تولى قيادة الجيش فيها وعمل شرحبيل تحت إمرته كقائد لواء . وقد تم ذلك قبل دخول هذا الجيش الصغير المؤلف من لوائين بفترة قصيرة من الزمن .

وعندما كان عمرو لايزال في الاردن ، كتب الى الخليفة وابلغه بآخر المعلومات عن توضع الروم وعن قوتهم في فلسطين . وكانت اقوى قوة للروم موجودة في اجنادين . واصدر عمر تعليمات مفصلة الى عمرو حول الاهداف التي ينبغي عليه أن يستولي عليها ، وكتب أيضا الى يزيد للاستيلاء على ساحل البحر الابيض المتوسط . ووفقا لهذه التعليمات عمل جيش المسلمين ، باستثناء لوائي أبي عبيدة وخالد ، ضد الروم في فلسطين وشمالا حتى بيروت . وسار لواء عمرو وشرحبيل الى اجنادين ، وحاربا وهزما جيشا رومانيا في معركة اجنادين الثانية . وكان قائد جيش المسلمين عمرو بن العاص . وبعد ذلك افترق اللواءان . فذهب عمرو للاستيلاء على نابلس ، وعمواس ، وغزة ، ونُبنه ، وبذلك إحتَلَّ جميع فلسطين ، بينما اندفع شرحبيل نحو المدن الساحلية وهي : عكا ، وصور ، التي استسلمت له بشروط معينة . اما يزيد فقد تقدم مع أخيه معاوية ، الذي لعب دورا هاما تحت قيادته ، من دمشق واستولى على صيدا ، وجُبيل ، وبيروت .

وقد استغرق الاستيلاء على قيسارية أطول وقت . وكان عمر قد اسند مهمة الاستيلاء عليها الى يزيد ، وفرض يزيد واخوه معاوية الحصار عليها ، لكن قيسارية المحصنة والتي كانت تعزز بالامدادات من قبل الروم بحرا لم يتم الاستيلاء عليها على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلاها . ورُفع الحصار عنها بسبب اعادة تجميع قوات المسلمين من اجل معركة اليرموك ، ولكن الحصار فُرض مرة ثانية بعد تلك المعركة واستمر حتى سقط الميناء في عام ٦٤٠ م (عام ١٩ هجري) .

وفي نهاية عام ١٤ هجري (تقريبا عام ٦٣٥ م) ، كانت فلسطين، والاردن وجنوب سورية ، باستثناء القدس وقيسارية ، بيد المسلمين .

فتح حمص

في أوائل شهر آذار عام ٦٣٥ م (أوائل محرّم عام ١٤ هجري) ، انطلق ابو عبيدة وخالد من فحل لمتابعة القتال شمالا . وقد انتظرا في فحل بينما كان شرحبيل يقاتل في بيسان وطبرية ، وذلك لكي يشتركا في القتال اذا كبر نطاق المعارك هناك . وبمجردالاستيلاء على طبرية ، فان إمكانية حدوث معركة كبيرة قد تلاشت وأصبح بامكانهما الانطلاق .

كان يمتد على بضعة أميال الى غرب وجنوب غرب دمشق سهل اخضر يعرف في التاريخ الاسلامي باسم « مرج الروم » ، فسار ابو عبيدة وخالد نحو هذا السهل دون ان يمرا بدمشق واستمرا في التقدم الى حمص . وكان يزيد لايزال في دمشق وظل هناك بضعة اشهر اخرى قبل ان يتلقى اوامر عمر للعمل على ساحل البحر الابيض المتوسط . وفي مرج الروم ، اشتبك ابو عبيدة مع قوات كبيرة من الروم .

عندما سمع هرقل بعمليات المسلمين في بيسان وطبرية ، ادرك ان المسلمين قد اختاروا الاردن وفلسطين كأهداف استراتيجية تالية وانهم غير مهتمين بشمال سورية . وسمع أيضا ان لواءً واحدا ضعيفا من جيش المسلمين بقي في دمشق ، وكان هذا اللواء لا يظهر اية دلالة عن نوايا عدائية . لذلك قرر استعادة دمشق . فأرسل قوة من الروم بقيادة « توذر » لقتال الحامية الاسلامية في دمشق ودحرها واستعادة المدينة . وانطلقت هذه القوة من انطاكية وتحركت عن طريق بيروت ، واقتربت من دمشق من جهة الغرب . ولم يكد يبدأ

هذا التحرك حتى علم هرقل أن ابا عبيدة وخالد قد غادرا فحل وهما يتقدمان شمالا مرة اخرى . وسيصلا دمشق في نفس الوقت الذي يصل فيه «توذر» تقريبا ، عندئذٍ لن يتمكن الروم من استعادة المدينة . فأمر هرقل ، من أجل تعزيز القوة الرومانية ، بارسال مفرزة من الحامية الكبيرة في حمص لتعزيز « توذر » . وسارت هذه المفرزة بإمرة « شَنْس » من حمص على الطريق الرئيسي الى دمشق .

وعندما وصل المسلمون الى مرج الروم وجدوا « توذر » بانتظارهم . وفي نفس اليوم أيضا وصل « شنس » من حمص وفتح الجيشان في تشكيل المعركة وتقابلا وجها لوجه . وكان أبو عبيدة يواجه « شنس » بينما كان خالد يواجه « توذر » .

وقوة الروم هنا غير معروفة لعدم ذكرها من قبل المؤرخين ، لكن يعتقد بأنها كانت حوالي لوائين قويين . ولا يمكن ان تكون اقل من ذلك لان الروم لايمكن ان يجازفوا بدخول معركة ضد لوائين من المسلمين . وبقي الجيشان طيلة النهار في مواقع المعركة ، وكل منهما ينتظر الآخر ليبدأ الخطوة الاولى في القتال .

وعند حلول الظلام ، قرر توذر ان ينفذ مناورة استراتيجية بارعة . فترك شنس في مواجهة المسلمين ، وسحب فيلقه تحت جنح الظلام ، وتحرك به حول مجنبة خالد وعند فجر اليوم التالي وصل الى دمشق . وكان يهدف الى ابقاء جيش المسلمين الرئيسي مشغولا في مرج الروم بفيلق شنس ، بينما يقوم هو بفيلقه بتدمير حامية المسلمين في دمشق بسرعة . وكانت خطة ذكية جدا ، ونفذ التحرك بتنظيم جيد ولم يعلم المسلمون بذهاب نصف جيش الروم الذي امامهم إلا في الجزء الاخير من الليل .

وفي دمشق ، اعلمت كشافة يزيد عند الفجر عن مجيء الروم . وعندما تلقى يزيد هذه الانباء ، نشر لواءه الصغير على الفور خارج الحصن وكان يقابل الجنوب الغربي . وكان المسلمون خارج أسوار المدينة كأنهم في وطنهم ، فهم يفضلون القتال في السهل اكثر من القتال داخل المدينة . وبدات المعركة بين

توذر ويزيد بعد شروق الشمس مباشرة ، ووجد المسلمون انفسهم تحت ضغط الروم الشديد ، لان الروم كانوا يفوقونهم بشكل كبير . لكنهم تمكنوا من الصمود حتى الضحى . وعندما اصبح الموقف يائسا بالنسبة ليزيد ، اصيب الروم بضربة قوية في مؤخرتهم بواسطة قوة كبيرة من خيالة المسلمين . وكانت هذه القوة هي لواء العراق ، وكان على راسه الحرس المتحرك . وفي وقت قصير تمكن خالد وصناديده الابطال ، الذين هاجموا الروم من الخلف ، من تمزيق فيالق الروم شرّ ممزّق . ولم ينجُ من الروم سوى القليل ، وقتل توذر على يد خالد في مبارزة بينهما . واستولى المسلمون على كميات كبيرة من الغنائم، كان معظمها من الاسلحة والدروع ؛ ووزعت على مقاتلي خالد ويزيد ، باستثناء الخمس الذي كان يرسل الى المدينة .

عندما اكتشف خالد في الليلة الماضية بان نصف جيش الروم قد ترك مرج الروم ، ادرك على الفور بانه ذهب الى دمشق لقتال يزيد . وخشي خالد أن لايستطيع يزيد الصمود مدة طويلة ؛ لذلك اقترح على أبي عبيدة ان يأخذ لواءه الى دمشق لنجدة يزيد ، بينما يقوم ابو عبيدة بقتال من تَبَقّى من الروم بقيادة « شنس » . فوافق ابو عبيدة ، وغادر خالد مرج الروم في الصباح الباكر لانقاذ دمشق ، كما ذكر آنفا . وبينما كان خالد يقوم بتصفية فيلق توذر ، هاجم ابو عبيدةُ الرومَ في « مرج الروم » . وتمكن ابو عبيدة من قتل « شنس » في مبارزة جرت بينهما ، وامتلأ السهل بقتلى الروم ، لكن الجزء الرئيسي من فيلق الروم تمكن من التملص والانسحاب بسرعة الى حمص .

حدث هذا الاشتباك في آذار عام ٦٣٥ م (محرّم ، عام ١٤ هجري) ، وهو يعرف باسم « معركة مرج الروم » .

لقد صُرف بعض الوقت في مرج الروم ودمشق من أجل توزيع الغنائم واتخاذ التدابير اللازمة بشأن جرحى المسلمين واسرى الروم . وبعد الانتهاء من هذه الامور ، ارسل ابو عبيدة خالدا على راس لوائه على الطريق المباشر المؤدي الى حمص ، بينما تقدم هو الى بعلبك . فاستسلمت حامية بعلبك بدون قتال،

وتابع ابو عبيدة تقدمه للانضمام الى خالد الذي فرض الحصار على حصن مدينة حمص [1] .

وبعد بضعة ايام من بدء الحصار تم الاتفاق على عقد هدنة بين الجانبين. وبموجب هذه الهدنة ، كان على حمص ان تدفع عشرة آلاف دينار وان تقدّم مائة ثوب من « البروكار » ، وفي مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم مهاجمة حمص لمدة عام . وفي حال وصول تعزيزات الى المدينة من قبل الروم ، تصبح المعاهدة لاغية . وفور توقيع المعاهدة فتحت أبواب حمص ، وبعد ذلك بدا المسلمون بالدخول الى سوق حمص والخروج منه بحرية ، وقد تملكت أهالي حمص الدهشة عندما وجدوا ان المسلمين يدفعون ثمن كل شيء يأخذونه من السوق .

وبعد ان سمع اهالي قنسرين بالطريقة التي تجنب بها سكان حمص الدخول في معركة مع المسلمين ، قرروا ان يفعلوا مثلهم . فالمعاهدة خير من الاستسلام المشين ، وهو أسلوب ملائم لتأجيل اتخاذ القرار الصعب . لذلك ارسل مبعوث من قبل حاكم قنّسرين الى حمص ، واتفق هذا المبعوث مع أبي عبيدة على عقد معاهدة مماثلة لمدة عام . لكنّ حاكما حمص وقنسرين اتفقا على عقد المعاهدة بسبب ضغط الظروف وكسبا للوقت . فكان كلاهما يأمل بوصول تعزيزات الى مدينتيهما من قبل هرقل في غضون مدة ليست طويلة ، وحالما تصل هذه التعزيزات فانهما سيباشران الاعمال العدائية ضد المسلمين . وعلى اية حال ، فان الرجل العادي في المنطقة كان معجبا للغاية باللطف والمعاملة الحسنة التي كان يتحلى بها المسلمون كما أنهم لم يكونوا يتصفون بالغطرسة والطغيان الذي يتميز به حكم الروم لبلاد الشام .

بعد ان حلّ ابو عبيدة مشكلتي حمص وقنسرين بشكل مؤقت ، ارسل القوة الرئيسية لجيشه في مجموعات للاغارة على شمالي سورية . ووصلت قوات المسلمين شمالا حتى حلب ، فتركت منطقة قنّسرين واغارت على الاماكن

---

(١) توجد روايات اخرى تذكر ان معركة كبيرة قد خاضها ابو عبيدة قبل استسلام بعلبك ، ويذكر بعض المؤرخين ان بعلبك قد استسلمت بدون قتال ، وانا اميل الى الاخذ بهذه الرواية.

التي صادفتها في طريقها وعادت الى معسكر المسلمين قرب حمص ومعها الغنائم والاسرى . وعلى أية حال ، فقد التمس الآلاف من هؤلاء الاسرى الحصول على حريتهم ، وقد اطلق سراح جميع الذين قبلوا بدفـع الجزية وتعهدوا بالولاء للمسلمين مع أسرهم واموالهم وامتعتهم ، وسمح لهم بالعودة الى منازلهم واعطوا ضمانات بالامان وعدم اعتراضهم من قبل قوات المسلمين .

استمر هذا العمل بضعة اشهر ، وقضي معظـم الصيف على هـذا المنوال . وفي اثناء ذلك نفذ صبر عمر في المدينة . فالمسلمون كانوا يقاتلون في فلسطين بشكل مُرْضٍ ، اما في شمالي سورية ، اي في قطاع ابي عبيدة ، فكان هناك نوع من الجمود . لذلك ارسل عمر في خريف عام ٦٣٥ م كتابا الى أبي عبيدة يطلب منه ان يتابع فتح سورية . وفور تسلّم هذا الكتاب عقد ابو عبيدة مجلس حرب ، واتفق فيه على ان يتقدم جيش المسلمين شمالا لفتح المزيد من الأراضي .

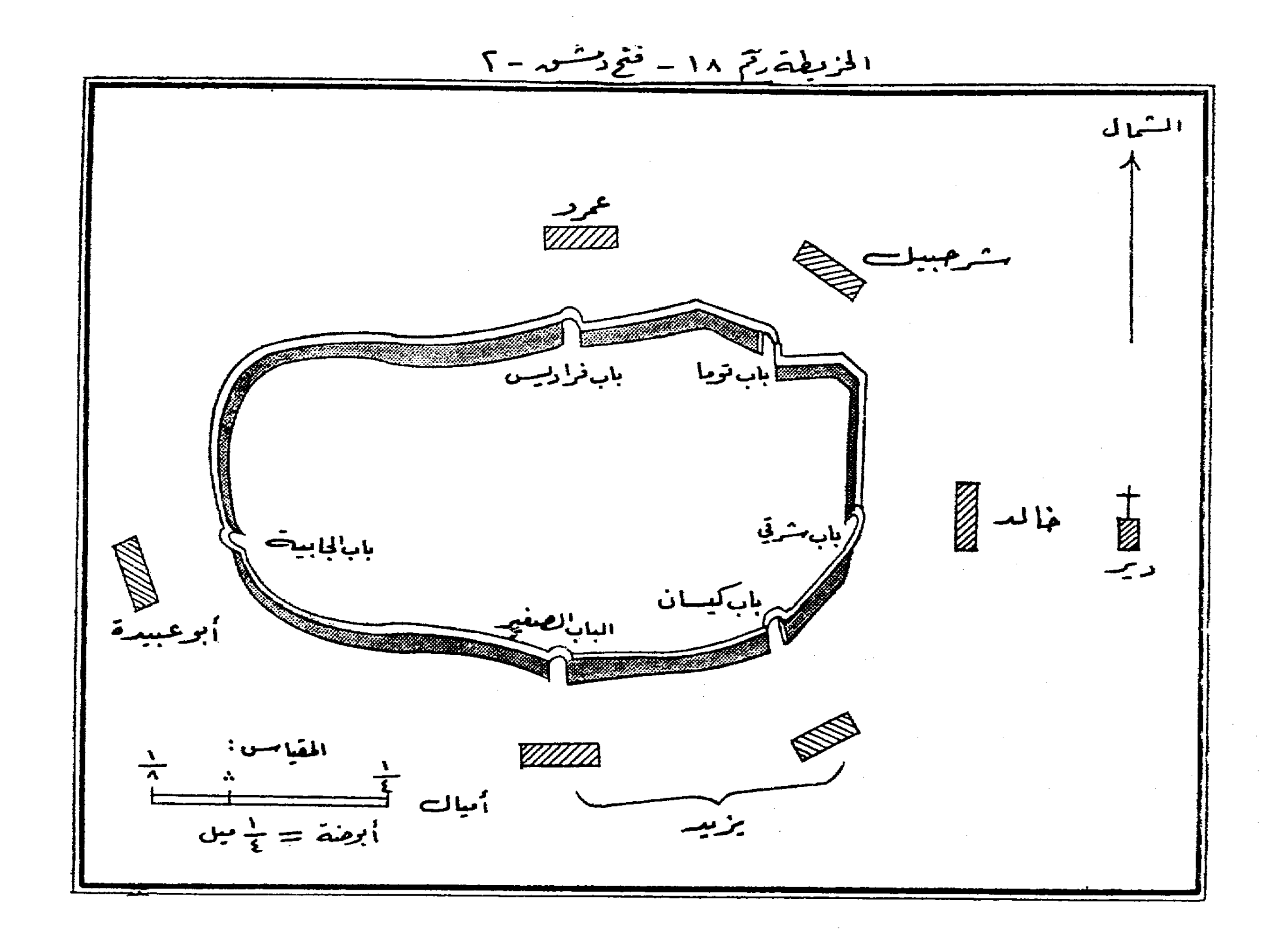
فبالنسبة لحمص وقنسرين لايمكن عمل شيء ضدهما بسبب الهدنـة التي عقدت معهما ، أما بالنسبة للاماكن الاخرى فلا يوجد مثل هذه المعاهدة ، ومن الممكن مهاجمتها والاستيلاء عليها .

وفي أوائل شهر تشرين الثاني عام ٦٣٥ م (منتصف رمضان ، عام ١٤ هجري) ، سار جيش المسلمين من حمص الى حماه ، وهنا خرج اهالي حماه للترحيب بالمسلمين . وفتحت المدينة ابوابها طواعية ، وتابع الجيش تقدمه . وبدات مدن شيزر ، وافامية (تعرف اليوم باسم قلعة المضيق) ، ومعرّة حمص (تسمى الآن معرّة النعمان) بالاستسلام الى المسلمين بدون قتال ووافقت على دفع الجزية . (انظر الخريطة رقم ١٨) .

واستقبل المسلمون في بعض الاماكن بعازفين على آلات موسيقية كدليل على الترحيب . ولأول مرة في سورية ، تم اعتناق الاسلام من قبل أعدادٍ كبيرة من السكان المحليين في هذه المناطق . ولعبت شخصية أبي عبيدة دورا هاما في تحوّل هذه الاعداد الكبيرة للاسلام .

وعندما كان المسلمون في شيزر سمعوا انباءً تشير الى تحرك تعزيزات

الخريطة رقم ١٨ - فتح دمشق - ٢



الى قنسرين وحمص .وبذلك تم خرق الهدنة من قبل الروم . فوصول هذه التعزيزات الجديدة انعش الامل في قلوب الروم الموجودين في حمص وقنسرين ، كما ان حلول الشتاء اعطاهم تأكيدا بالنجاح . فوجودهم في حصونهم يقيهم البرد أكثر من العرب المسلمين الذين كانوا غير معتادين على البرد الشديد ، كما أن وجود المسلمين في الخيام يجعلهم يقاسون كثيرا من شتاء سورية . وفي الحقيقة كتب هرقل الى هربيس ، الحاكم العسكري لحمص : « إن طعام هؤلاء هو لحم الإبل وشرابهم لبن النوق . وهم لايستطيعون مقاومة البرد . فحاربهم في كل يوم بارد بحيث لا يبقى احد منهم بحلول الربيع » [1] .

قرر أبو عبيدة ان يستولي على حمص أولا ، وبذلك يؤمن مؤخرته قبل ان يقوم بعمليات هامة في شمالي سورية . لذلك سار المسلمون الى حمص وكان خالد ومعه لواء العراق في الطليعة . وعند الوصول الى المدينة وجد خالد قوة رومانية قوية منتشرة في طريق تقدمه ، ولكنه تمكن من طردها الى الحصن بعد ان شن عليها هجوما خاطفا بلوائه . واتبع الروم تعليمات هرقل التي تقضي « بمحاربتهم في كل يوم بارد » ، ولكن بعد تجربتهم في هذا الصدام الاول مع خالد ، قرروا أن يتركوا هذه المهمة للشتاء نفسه . وعندما انسحب الروم الى الحصن واغلقوا أبوابه ، وصل أبو عبيدة مع باقي الجيش وفتح قواته للمعركة بأربعة مجموعات ووضع كل مجموعة امام باب من ابواب حمص الاربعة.

كانت حمص عبارة عن مدينة محصنة بشكل دائري ، وكان قطرها لايتجاوز الميل وكان يحيط بها خندق مائي . وكان يوجد أيضا قلعة على قمة تل صغير داخل الحصن . وكان يمتد خارج المدينة سهل خصب ، يقطعه من الغرب نهر « أورُونتس » (يسمى الآن نهر العاصي) [2] .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) ان الباب الوحيد الموجود حاليا هو « الباب المسدود » ، ويقع جنوب غرب المدينة . ويمكن للزائر ان يشاهد مواقع الابواب الثلاثة الاخرى وهي : باب تدمر (شمال شرق) ، وباب الدريب (شرقا) ، وباب هود (غربا) ، ويذكر سكان المدينة الحاليون انهم سمعوا بوجود باب الرستن ولكن موقعه غير معروف . وهو بلا شك في مكان ما في السور الشمالي للمدينة ، لان هذه السور يواجه الرستن التي تقع على الطريق المؤدي الى حماه . ويذكر المؤرخون الاوائل باب الرستن كأحد الابواب الاربعة ، ونحن لانعرف أيا من الابواب الاربعة المذكورة أعلاه لم يكن موجودا آنذاك . اما الخندق المائي فلا يزال موجودا في عدة أماكن .

وكان ابو عبيدة وخالد والحرس المتحرك يعسكرون عند الطرف الشمالي، على مسافة قصيرة من باب الرُستن . كانت قوة المسلمين في حمص تعد حوالي خمسة عشر ألفا مقابل حامية المدينة الرومانية المؤلفة من ثمانية آلاف جندي. ترك ابو عبيدة إدارة الحصار لخالد ، الذي برهن انه قائد كفؤ في هذه العملية. كان الوقت الآن اواخر شهر تشرين الثاني او أوائل كانون الاول (حوالي منتصف شوّال) ، وهبط الشتاء كالغطاء الثقيل فوق حمص .

استمر الحصار اكثر من شهرين على وتيرة واحدة . وكان كل يوم يتم تبادل رمايات النبّال بين الجانبين ، ولكن لم يحدث أي اشتباك يمكن ان يقرر مصير الحصار بأي شكل من الاشكال . وكان الروم عندما ينظرون الى المسلمين المعرّضين للبرد خارج المدينة ، يشعرون بالثقة بأن البرد وحده كفيل بصدّهم وطردهم الى مناطق اكثر دفئا .

كان المسلمون بلا شك يقاسون من البرد ولكن ليس بالدرجة التي تخيلها الروم . ولم تفتر همتهم ولم تضعف عزيمتهم للاستيلاء على حمص ، مهما طال وقت انتظارهم .

وحوالي منتصف شهر شباط عام ٦٣٦ م (أوائل محرّم ، عام ١٥ هجري)، جاء أمر من عمر يقضي بارسال لواء العراق الى العراق . وفي الحقيقة ليس لخالد علاقة بهذا الامر . فمعركة القادسية كانت على وشك النشوب في العراق بين سعد بن أبي وقاص ورستم الفارسي ، وأراد عمر ان يعزز المسلمين لان قوات الفرس كانت تفوقهم كثيرا . ولم يذكر عمر في أمره أي شيء بخصوص خالد ، فاعتبر ابو عبيدة ان الخليفة لا يرغب في ان يذهب خالد مع لواء العراق، وهذه هي المشكلة في الحقيقة .

لقد تغيرت بنية لواء العراق بشكل جوهري منذ أيام المسير الخَطر . ففي ذلك الوقت كان يتألف من محاربي الجزيرة العربية الذين هم من المهاجرين، والانصار ، والاعراب . وبعد معركة اجنادين ، شكل خالدٌ الحرسَ المتحرك من عناصر هذا اللواء ، وضمّ الى اللواء بدلا من هؤلاء عناصر جديدة من اليمن والحجاز ومن أهل العراق الذين اعتنقوا الاسلام ، وكان معظم هؤلاء من قبيلة

ربيعة [1] . وهكذا ، كان لدى خالد أثناء حصار حمص الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف رجل بالاضافة الى لواء العراق المؤلف من ستة آلاف رجل .

وبناءً على أوامر عمر . ارسل لواء العراق جنوبا ليسلك طريق دومة الجندل المؤدي الى العراق . وسار هذا اللواء بإمرة هشام بن عتبة بن أبي وقاص ، وكان على راس المقدمة قعقاع بن عمرو . كانت مغادرة هذا اللواء لحظة حزينة بالنسبة لخالد ، وودع رفاق السلاح الذين خاض معهم العديد من المعارك المجيدة بقلب مِلؤه الحسرة . واصبح خالد بدون لواء الآن ليقوده ، لكنه كان لايزال يحتفظ بالحرس المتحرك [2] .

وعندما راى الروم مغادرة لواء العراق ، اعتقدوا بان المسلمين قد قاسوا من البرد بما فيه الكفاية وانهم بدؤوا بالانسحاب جنوبا . وبذلك ارتفعت معنويات الحامية المحاصَرة . ولكن عندما مرّت بضعة أسابيع دون ان يتابع المسلمون انسحابهم ، أيقن الروم بأن خصومهم لاينوون رفع الحصار . وكان الوقت الآن حوالي منتصف آذار عام ٦٣٦ م (أوائل صَفَر ، عام ١٥ هجري) ، حيث خفّت حدّة البرد . وتلاشى بذلك أمل الروم في ان البرد كفيل بطرد المسلمين . وبدات مؤن المسلمين بالتناقص ، لكن مجيء الربيع والطقس الحسن سيمكنهم من جلب المؤن والتعزيزات وعندئذٍ سيكونون في مركز قوي . وكان لابد من عمل شيء ما بسرعة . فالسكان المحليون يرغبون في السلام ، لكن هربيس كان إبناً باراً للامبراطورية ويبحث عن المجد عن طريق المعارك . فقرر هربيس ان يقوم بهجوم مفاجيء ضد المسلمين ويهزمهم في معركة خارج اسوار المدينة ، وبقرار هربيس هذا ، اقتربت النهاية ، ولكن ليست النهاية التي كانت في مخيلة هربيس .

---

(١) الطبري ـ الجزء ٣ ، صفحة ٥٢ .

(٢) ان وقت مغادرة لواء العراق غير متفق عليه من قبل المؤرخين . وهو مرتبط بمعركة القادسية التي ذكر المؤرخون انها حدثت في شهر محرّم عام ١٤ هجري ، ومحرّم عام ١٥ هجري . ووصل هذا اللواء في اليوم الاخير للمعركة ، باستثناء حرس المقدمة الذي وصل بقيادة القعقاع قبل يومين من وصول اللواء واشترك في المعركة . وانا ارى ان معركة القادسية جرت في محرّم عام ١٥ هجري .

وفي صباح احد الايام فتح باب الرستن واندفع خمسة آلاف رومي بقيادة هربيس في هجوم سريع ضد المسلمين الذين كانوا يواجهون ذلك الباب. لقد فوجىء المسلمون بسرعة وعنف الهجوم ، ومع ان المسلمين عند هذا الباب كانوا اكبر المجموعات الاربع ، إلا أنهم تراجعوا عن موقعهم الذي فتحوا عنده للمعركة . واستطاع المسلمون التوقف على مسافة قصيرة الى الخلف والصمود امام هجوم الروم ، لكن ضغط الروم كان شديدا وأصبح خطر اختراق صفوف المسلمين واضحا .

فطلب ابو عبيدة من خالد ان ينقذ الموقف . وتحرك خالد الى الامام مع الحرس المتحرك ، وتسلّم قيادة مجموعة المسلمين المعرّضة لضغط الروم الشديد واعاد ترتيب جيش المسلمين للمعركة . كان لمفاجاة الصباح تاثير سيء على المسلمين ، الذين كانوا في حالة سيئة بسبب البرد ، واحتاجوا لفترة من الوقت لكي يستعيدوا ثقتهم بانفسهم ، ولكن عندما اصبح خالدٌ في وسطهم ، استعادوا معنوياتهم العالية بسرعة واصبحوا مستعدين للعطاء . استمر هذا الموقف حتى منتصف النهار . وبعد ذلك انتقل خالد الى الهجوم وبدأ بطرد الروم الى الخلف ، ولكنهم لم يُطردوا نهائيا الى داخل أسوار المدينة حتى قبيل غروب الشمس . كان هجوم المسلمين ناجحا ، لكن القتال الذي جرى بينهم وبين الروم جعلهم يشعرون بشيء من الاحترام لهربيس وللمقاتلين الروم في حمص .

وفي صباح اليوم التالي عقد ابو عبيدة مجلس حرب . وكان قادة المسلمين في حالة من الفتور ، ولم يظهروا حماسهم المعهود . وعبّر ابو عبيدة عن عدم رضاه للطريقة التي تصرف بها المسلمون عندما تراجعوا امام هجوم الروم ، وهنا نوّه خالد بان هؤلاء الروم كانوا أشجع من قابلهم في حياته . عندئذٍ سأله ابو عبيدة : « بماذا تشير علينا يا أبا سليمان ؟ » . فاجاب خالد : « ايها القائد، دعنا نترك هذا الحصن غدا صباحا . . . » [1] .

وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الروم نشاطا غير عادي في معسكرات

(١) الواقدي ـ صفحة ١٠٣

المسلمين حول حمص . فالخيام نزعت وحُمِّلت على الإبل . وشاهدوا بأم أعينهم القوة الرئيسية لجيش المسلمين وهي تتحرك جنوبا ، بعد ان تركت مجموعات صغيرة لتسهر على ترحيل النساء والاطفال ، والمتاع ، والماشية .
وهنا جاء الخلاص ! فالمسلمون قد رفعوا الحصار وانسحبوا الى الجنوب .
واخيرا استطاع الشتاء ان يقهرهم ! وابتهج جنود الروم لهذا المنظر ، لكن هربيس لم يكن الرجل الذي يرضى بمعركة انسحاب . ورأى بعينه الخبيرة ان الفرصة سانحة الآن . فجمع على الفور خمسة آلاف مقاتل من الروم وانطلق بهم خارج الاسوار ليطارد المسلمين . وعندما اقترب الروم من معسكر المسلمين الريسي ، نظر المسلمون القلائل الذين كانوا في المعسكر الى الروم بفزع وأطلقوا صيحات الرعب وهربوا نحو الجنوب ، تاركين وراءهم النساء والاطفال والمتاع والماشية ! .

فقرر هربيس ان يترك المعسكر مؤقتا . فبإمكان المعسكر ان ينتظر . وانطلق بقواته الراكبة بمطاردة سريعة للتحاق بالعدو المتراجع وضربه أثناء تراجعه . وأدرك المسلمين على بعد بضعة أميال من حمص . وبينما كانتعناصر المقدمة لقوات الروم على وشك الانقضاض على « العدو المتراجع » ، توقف المسلمون فجأة وبدؤوا بضرب الروم بعنف ، فارتبك هؤلاء وتوقفوا للدفاع عن انفسهم . وعندما اتجه المسلمون نحو الروم اشار خالد الى مجموعتين راكبتين فانفصلتا عن جيش المسلمين ، والتفتّتا بسرعة حول أجناب الروم وتقابلتا خلفهم . ان الخطة التي اقترحها خالد في اليوم السابق في مجلس الحرب ، والتي ووفق بالاجماع عليها ، سارت على خير مايرام ، فالروم أصبحوا داخل حلقة من الفولاذ ! وفكر هربيس بأسى بكلمات أحد الكهنة الذي حاول ان يحذره عندما كان يغادر حمص لمطاردة المسلمين . فقد قال له الكاهن : « اقسم بالمسيح ان هذه خدعة من العرب . فهم لايتركون قط نساءَهم واطفالهم وإبلهم خلفهم . » [1] ولكن فات الاوان الآن .

وبثبات ونظام ، احكم المسلمون الطوْق من جميع الجهات وبدؤوا يضربون

(١) الواقدي ـ صفحة ١٠٤

بالحراب والسيوف . وبدات جثث الروم تملأ الارض الدامية . وفي البداية قاتل الروم بشجاعة نادرة ولكن بعد ان سقط العديد منهم ، أصيبوا باليأس وخيبة الامل . واستطاع خالد ، وهو يضرب بسيفه يمينا ويسارا ، ان يصل مع مجموعة صغيرة الى قلب جيش الروم ، وهنا وجد هربيس لا يزال يقاتل، وهو يرفض الاستسلام . وهجم خالد على هربيس ، لكن قائدا رومانيا آخر اعترض سبيله ، ولم يكن الروم يعرفون انهم حتى ولو هربوا من هذا الفخ فلا يوجد أي مكان يذهبون اليه .

ففي الوقت الذي بدأ فيه المسلمون هجومهم على الروم المطوقين ، جاءت قوة من الخيالة ، يبلغ عددها خمسه آلاف فارس بأمرة معاذ بن جبل ، الى حمص لتمنع الروم الهاربين من الدخول الى المدينة . وعندما اقترب هؤلاء الفرسان من حمص ، سارع السكان المذعورون وباقي حامية الروم ، الذين لم يشتركوا في مطاردة المسلمين ، بالدخول الى داخل اسوار المدينة واغلقوا الابواب . فنشر معاذ رجاله امام ابواب المدينة ليمنع الروم الموجودين في حمص من الخروج ، والروم الموجودين خارج حمص من الدخول اليها . وأصبح معسكر المسلمين الآن بأمان .

وتهيأ خالد والقائد الروماني للمبارزة . وقد وصف أحدُ شهود العيان هذا القائد بانه كان يزار كالأسد [1] . وبدأ خالد المبارزة وهوى بسيفه بقوة على رأس الروماني الذي كان يرتدي خوذة من الحديد ، وبدلا من ان يثقب الخوذة ، كُسر السيف وبقيت قبضته بيد خالد . وقبل ان يتمكن الرومي من الضرب هجم عليه خالد واحاط به بكلتا يديه . وأمسك العملاقان ببعضهما البعض بقوة ، وبدأ خالد يضغط بشدة على صدر الرومي بذراعيه . واحتقن وجه الرومي وأصبح غير قادر على التنفس عندما اشتد ضغط خالد على صدره . وحاول الرومي أن يتخلص من قبضة خالد الفولاذية لكنه لم يتمكن من ذلك وازداد الضغط أكثر فأكثر . ولم يتركه خالد حتى لفظ انفاسه ووقع

---

(١) الواقدي ــ صفحة ١٠٢ .

على الارض جثة هامدة . لقد استطاع خالد ان يسحق خصمه حتى الموت بقوة ذراعيه . واستولى خالد على سيف القائد الروماني .

عندما عرض خالد خطته الخاصة بالانسحاب التظاهري ، وعد أبا عبيدة بأن المسلمين « سيمزقون الروم ويقصمون ظهورهم » . وقد نجح المسلمون في تحقيق ذلك . وقد ذكر المؤرخون ان مائة فقط من الروم استطاعوا الهرب. وفقد المسلمون مائتين وخمسة وثلاثين قتيلا فقط في جميع العمليات التي تمت ضد حمص منذ بدء الحصار وحتى انتهاء هذا الاشتباك الأخير .

وبعد ان انتهى هذا الاشتباك عاد المسلمون الى حمص واستأنفوا الحصار ، لكن اهل حمص لم يكونوا راغبين في القتال . فعرضوا التسليم بشروط ، وقبل ابو عبيدة هذا العرض . حدث ذلك حوالي منتصف آذار عام ٦٣٦ م (أول صفر ، عام ١٥ هجري) . ودفع سكان حمص الجزية بمعدل دينار عن كل رجل ، وعاد السلام الى حمص . ولم تخرب المدينة ، ولم يأخذ المسلمون اي شيء .

بعد استسلام حمص ، انطلق المسلمون نحو الشمال مرة اخرى للاستيلاء على شمال سورية بكامله بما في ذلك حلب وانطاكية . فاجتازوا حماه ووصلوا الى شيزر . وهنا استولى خالد على قافلة رومانية كانت تحمل المؤن الى قنسرين ، وكان يحرس هذه القافلة مفرزة صغيرة من جنود الروم . وبعد ان تم استجواب الاسرى ، حصل المسلمون على معلومات جعلتهم يتوقفون حيث هم .

لقد حارب المسلمون وهزموا جميع القوات التي قذف بها هرقل ضدهم. وكانت هذه القوات تتألف من الجيوش ، وقوات النجدة ، وحاميات الحصون. وقد انحنت جميعها امام نوعية جيش المسلمين العالية . ولكن هرقل كان يخطط الآن لشن هجوم عاصف ضد المسلمين ، فاذا لم يحتاطوا له فانه سيقذف بهم الى صحراء الجزيرة العربية اشلاءً ممزقة .

---

(١) الواقدي — صفحة ١٠٢

ماقبل اليرموك

كان مسرح العمليات في بلاد الشام يشبه حلبة صراع يدخلها المتصارعون من اتجاهين متقابلين . وكان يمتد خلف كل مدخل بحر ، هو بمثابة ارض الوطن للمتصارع الذي دخل من ذلك الاتجاه . ففي غرب سورية وفلسطين يقع البحر الابيض المتوسط الذي كان « بحيرة رومانية » . وفي الشرق والجنوب تمتد الصحراء التي يعتبر العرب سادة لها . وكان الروم يستطيعون التحرك بحرية في البحر الابيض المتوسط بواسطة أساطيل من السفن بدون تدخل من المسلمين، كما كان المسلمون يستطيعون التحرك في الصحراء بواسطة قوافل الجمال بنفس الحرية وبدون تدخل من الروم . ولم يكن المسلمون يغامرون بالذهاب الى بحر المياه ، وكذلك الروم لم يكونوا يغامرون بالذهاب الى بحر الرمال . وضمن حلبة الصراع هذه ، كان كلا الطرفين قادرا على المناورة بسهولة .

وهكذا فانه من أجل الصراع في هذه الحلبة ، فان الموقع المثالي لكل خصم كان الضفة التي في جانبه بحيث يستطيع ان يفتح قواته للمعركة وظهره باتجاه البحر الخاص به كما يستطيع الانسحاب بأمان في حالة التراجع ، بينما يكون في امكانه بنفس الوقت ، اذا كان منتصرا ، ان يطارد خصمه ويدمره قبل أن يتمكن من الفرار الى قواعده . لكن هذه الميزة كانت في صالح المسلمين اكثر مما هي في صالح الروم ، لان المسلمين كان بامكانهم التخلي عن مسرح العمليات والانسحاب الى حافة الصحراء دون فقدان الكرامة او الثروة او الارض . بينما كان الروم لايستطيعون التخلي عن مسرح العمليات لانه يمثل امبراطوريتهم

وعليهم الدفاع عنها . وكانت هذه الميزة الاستراتيجية التي يتمتع بها المسلمون، وهي قدرتهم على القتال من الصحراء التي تعتبر أرض الوطن بالنسبة لهم ، موجودة في ذهن هرقل عندما خطط للعملية التالية التي تعتبر اكبر عملية في هذه الحملة .

لقد جاء هرقل الى العرش في عام ٦١٠ م عندما كانت شؤون الامبراطورية الرومانية الشرقية في غاية الانحطاط ، وعندما كانت الامبراطورية تتألف من المنطقة التي حول القسطنطينية وأجزاء من اليونان وافريقية . في البداية كان عليه ان يتجرع الكثير من كؤوس المرارة ، ولكن بعدئذٍ ابتسم له الحظ ، وفي فترة زمنية تقارب عقدين من الزمن أعاد بناء الامبراطورية وارجعها الى سابق عظمتها . فقد هزم برابرة الشمال ، واتراك القوقاز ، والفرس المتقدمين حضاريا في امبراطورية كسرى ، ولم ينفذ ذلك بواسطة القتال الضاري فحسب ، وانما ايضا ــ وهذا أكثر اهمية ــ بالاستراتيجية البارعة والتنظيم الجيد . وكان هرقل استراتيجيا فذّاً ، اذ استطاع ، بسبب قدرته غير العادية على التنظيم، ان يخلق جيشا امبراطوريا ومنظما وان يضعه في الميدان . وكان هذا الجيش يتكون من أكثر من اثنتي عشر أمة بدءا من الفرنجة في غرب أوربا الى الارمن في جنوب القوقاز .

والآن اجبر هرقل مرة أخرى على تجرع كؤوس المرارة ، وكان ذلك على يد جنس يزدريه الرومان ويعتبرونه متخلفا جدا وغير جدير بالاهتمام ولا يشكل أي نوع من التهديد العسكري ضد الامبراطورية . وقد باءت جميع المناورات التي تمت ضد المسلمين بالفشل ، مع انها كانت محكمة استراتيجيا. فالحشد الاول لجيش الروم في اجنادين ، الذي كان مكلّفا بضرب مؤخرة المسلمين ، قد دمّر من قبل خالد في معركة اجنادين الاولى . كما ان محاولات هرقل للحدّ من نجاح المسلمين ، باقامة دفاع قوي حول دمشق ، قد فشلت على الرغم من بذله أقصى الجهود لتعزيز الحامية المحاصرة . كذلك فان مناوراته الهجومية التالية ، وهي حشد جيش روماني جديد في بيسان ، والتي كان القصد منها ايضا ضرب مؤخرة المسلمين ، قد فشلت وهُزم جيشه على يدي

شرحبيل . وبعد ذلك لم يقتصر الامر على فشل محاولاته لاستعادة دمشق على يدي ابي عبيدة وخالد ، وانما انهارت دفاعاته الاخرى عندما انتقل المسلمون من نصر الى نصر واستولوا تقريبا على كل فلسطين وسورية حتى حمص شمالا .

قرر هرقل ان ينظم عملية انتقام كبيرة وان يشكل جيشا لم يُرَ له مثيل في بلاد الشام من قبل ، وسوف يجرّ المسلمين الى معركة بهذا الجيش بحيث لا يفلت من قبضته أحد . وبذلك تتحول الهزيمة الى نصر مؤزر .

في أواخر عام ٦٣٥ م ، عندما كانت حمص محاصرة ، بدأ هرقل استعداداته لهذه المناورة الكبرى . فحشدت جميع قواته من جميع أرجاء الامبراطورية، وانضم اليها الامراء والنبلاء ورجال الدين . وفي أيار عام ٦٣٦ م ، كان قد شكل جيشا قوامه مائة وخمسون ألفا تحت السلاح حُشد في منطقة انطاكية وفي أماكن من شمال سورية . وكانت هذه القوة العسكرية الضخمة تتألف من مجموعات عسكرية من الروس ، والسلاف ، والفرنجة ، والروم ، واليونان ، والجيورجيين ، والأرمن ، والعرب النصارى [١] . وأرسل جميع النصارى الذين يعيشون في كنف الامبراطورية البيزنطية مقاتلين الى الجيش الجديد ليحاربوا الفاتحين بروح من الحرب الصليبية . ونظمت هذه القوة في خمسة جيوش ، وكان كل منها يتألف من حوالي ثلاثين الفا . وكان قادة هذه الجيوش : ماهان ملك أرمينيا ، وقناطير وهو أمير روسي ، وغريغوري ، وديرجان ، وجبلة بن الايهم ملك العرب الغساسنة . وكان ماهان [٢] يقود جيشا ارمنيا صرفا ، وكان جبلة يقود قوة من العرب النصارى ، وكان قناطير يقود الروس والسلاف . أما بقية المجموعات (وهي من الاوربيين) فوضعت تحت إمرة غريغوري وديرجان . [٣]

وعُيِّن ماهان قائدا عاما للجيش الامبراطوري بكامله .

في هذا الوقت كان المسلمون موزعين في اربع مجموعات : عمرو بن العاص

(١) الواقدي - صفحة ١٠٠ .
(٢) كان هذا الملك يسمى أيضا « باهان » .
(٣) الواقدي - صفحة ١٠٦ .

في فلسطين ، وشرحبيل في الاردن ، ويزيد في قيسارية ، وأبو عبيدة وخالد في حمص والى الشمال . في مثل هذا الشكل من الانتشار ، كان المسلمون معرّضين للمباغتة بحيث يسهل مهاجمة كل لواء من الويتهم على حدة دون ان تتهيأ لهم ادنى فرصة للقتال مجمعين في معركة ناجحة . وقد استغل هرقل هذا الوضع استغلالا تاما في خطته التي وضعها موضع التنفيذ .

لقد عززت قيسارية من البحر ووصل عدد القوات فيها الى أربعين الف رجل . وكانت مهمة هذه القوات تثبيت يزيد ولواءه الذي يقوم بالحصار بحيث لا يستطيع ان يتحرك للانضمام الى رفاقه . أما باقي الجيش الامبراطوري فكان عليه ان يعمل وفقا للخطة التالية :

١ ـ يتحرك قناطير على طول الطريق الساحلي حتى بيروت ، ثم يتجه نحو دمشق من جهة الغرب لقطع وعزل ابي عبيدة .

٢ ـ يسير جبلة من حلب على الطريق الرئيسي الى حمص مارا بحماه ، ويقوم بتثبيت المسلمين بالمواجهة في منطقة حمص . وبذلك يكون العرب النصارى أول من يشتبك مع العرب المسلمين ، وهذا الامر قد يكون انسب شيء للروم . وكما قال هرقل لجبلة : « كل شيء يدّمر بشيء من نوعه . فلا يفل الحديد الا الحديد [(١)] » .

٣ ـ يتحرك ديرجان بين الساحل وطريق حلب ثم يتجه نحو حمص من جهة الغرب ، وبذلك يتم ضرب المسلمين من مجنبتهم بينما يكون قد تم تثبيتهم بالمواجهة بواسطة جبلة .

٤ ـ يتقدم غريغوري الى حمص من الجهة الشمالية الشرقية ويهاجم المسلمين من مجنبتهم اليمنى في نفس الوقت الذي يضربون فيه من قبل ديرجان .

٥ ـ يتقدم جيش ماهان خلف العرب النصارى ويعمل كاحتياط .

(١) الواقدي ـ صفحة ١٠٦ .

وبهذه الطريقة يتم اكتساح جيش المسلمين في حمص بواسطة قوات متفوقة عشرة اضعاف ، وتهاجمه من جميع الاتجاهات ، وتسدّ عليه طرق الهرب (انظر الخريطة رقم ١٩) . وهذا الأمر أكبر من أن يعالجه خالد . وبعد ابادة المسلمين في حمص ، يتقدم الجيش الامبراطوري جنوبا بينما تتقدم حامية قيسارية من الساحل ، وتقوم الجيوش الرومانية بمهاجمة وتدمير الوية المسلمين في عدة معارك وكلا على حدة ، مركزة جميع قواها على اللواء الواحد.

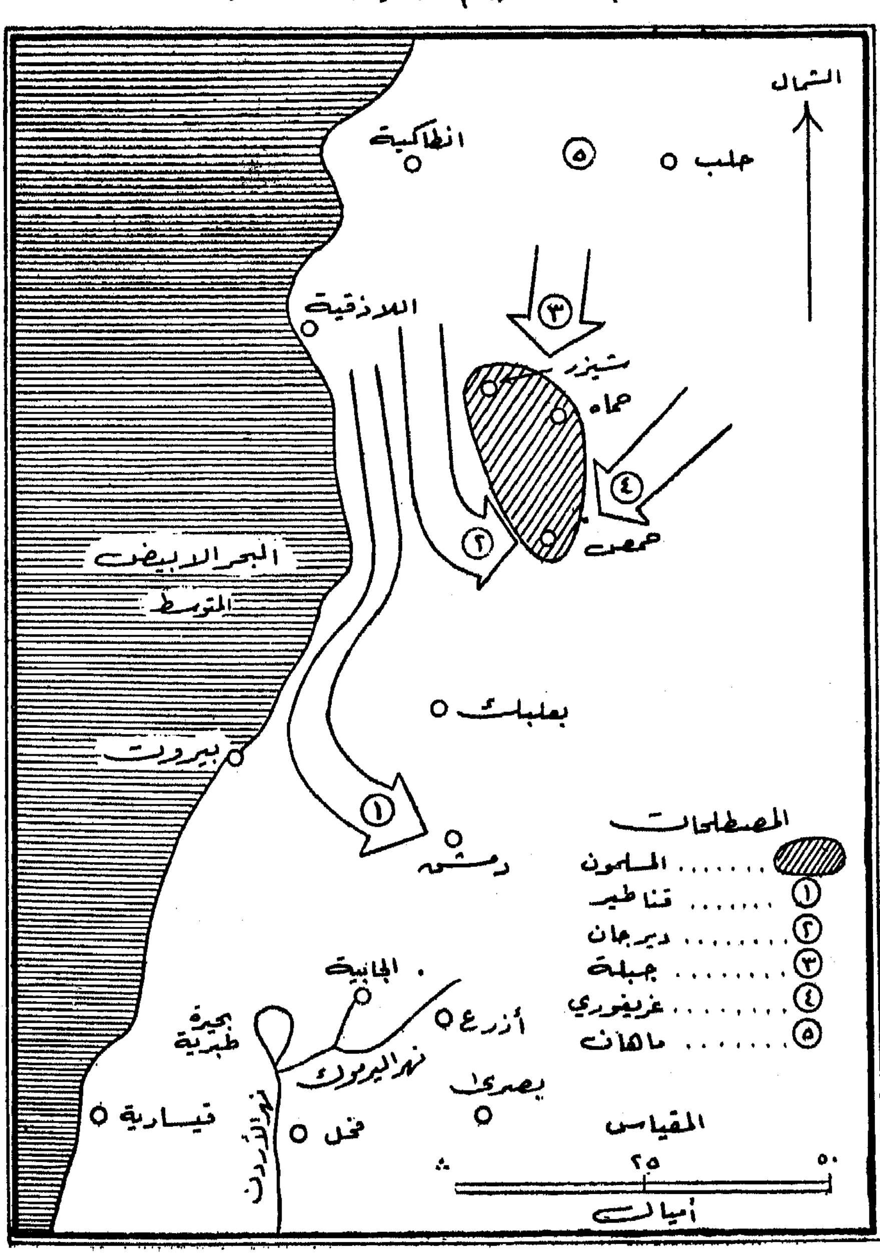
وقد اقيمت صلوات خاصة في جميع انحاء الامبراطورية من اجل نصرة الجيش الامبراطوري . وقام القادة والاساقفة بحثّ الرجال على القتال دفاعا عن عقيدتهم وانقاذا لوطنهم وشعبهم من الفاتحين . وبناء على هذه الخطة المحكمة انطلق الجيش الامبراطوري من انطاكية وشمال سورية في حوالي منتصف حزيران عام ٦٣٦ م .

وعندما وصلت طلائع جيش جبلة الى حمص لم يجد احدا من المسلمين. اما جيش قناطير فقد هاجم دمشق من جهة الغرب وهو يحلم بتدمير المسلمين فيها لكنه لم يجد جنديا واحدا من جنود المسلمين في المدينة .

من خلال اسرى الروم في «شيزر» ، علم المسلمون لاول مرة بالاستعدادات التي قام بها هرقل . وقد انشأ المسلمون نظام استخبارات ممتاز في المنطقة ، بحيث كان لايخفى عليهم اي تحرك رئيسي او حشد للقوات المعادية . وفي الحقيقة كان لديهم عيون داخل الجيش الامبراطوري . وعندما كانت الايام تمتد الى اسابيع ، فان الاجزاء المتفرقة من المعلومات التي يجلبها العيون كانت تجمع مع بعضها وتحلّ على طريقة تقاطع المعلومات، وكان من الصعب على الجيوش الامبراطورية ان تتحرك دون ان يعلم بها المسلمون وباتجاهاتها . وحتى التعزيزات التي وصلت الى قيسارية ومقدار قوتها عُرفت من قبل المسلمين.

لقد ذُهل المسلمون بالتقارير التي كان كل منها اسوا من سابقته . واصبح الظلام يحوم علّى الافق اكثر فاكثر . وعلى كل الاحوال ، فان خالدا بشعوره الاستراتيجي الذي لا يخطىء ادرك في الحال خطة هرقل ومدى تعرض جيش المسلمين الموجود في حمص وشيزر للخطر . وكان التصرف

الخريطة رقم ١٩ - الهجوم الروماني قبل معركة اليرموك



السليم هو الانسحاب من شمال ووسط سورية ، وكذلك من فلسطين ، وحشد جميع القوات بحيث تكون هناك قوة قوية وموحدة ضد قوة الروم الجبارة ، ويفضل ان لاتكون هذه القوة بعيدة عن الصحراء الام . ونصح خالد ابا عبيدة بذلك فوافق قائد الجيش على الاقتراح . فأمر بانسحاب الجيش الى الجابية ، التي كانت ملتقى الطرق القادمة من سورية ، والاردن،وفلسطين. علاوة على ذلك ، فقد مارس سلطته كقائد عام في سورية وامر شرحبيل ، ويزيد ، وعمرو بن العاص بالتخلي عن المنطقة التي كانوا يحتلونها والانضمام اليه في الجابية . وهكذا ، قبل ان يصل الروم الى دمشق ، كان ابو عبيدة وخالد مع عناصر من لواء يزيد في الجابية ، بينما كانت الالوية الاخرى تتحرك في طريقها للانضمام اليهم . لقد نجوا بأنفسهم من براثن الموت .

ان المعاملة الكريمة التي عامل بها ابو عبيدة اهالي حمص ، عندما غادر المسلمون المدينة ، تلقي اضواءا على مفهوم العدالة والصدق اللتين يتحلى بهما هذا القائد الشجاع والنبيل . فأثناء فتح حمص ، جمع المسلمون الجزية من السكان المحليين . وهذه الضريبة ، كما شرح آنفا ، كانت تؤخذ من غير المسلمين مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من الاعداء . ولكن بما أن المسلمين الآن سيغادرون المدينة ، والموقف لا يسمح لهم بحماية سكانها ، فقد جمع ابو عبيدة السكان واعاد اليهم الاموال التي اخذها منهم كجزية . وقال لهم : « نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم . وأنتم الآن احرار بأنفسكم . » فأجاب أهل حمص : « ان حكمك لنا وعدالتك اعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل . » [1] علاوة على ذلك ، فان ابا عبيدة لم يكن قانعا بالعدل الذي حققه في منطقته فيما يتعلق بالجزية ، فكتب الى امراء الالوية الاخرى في سورية لكي يعيدوا الى الناس الجزية التي جمعوها منهم ، وقد تم تنفيذ ذلك من قبل كل امير قبل تحركه للانضمام الى ابي عبيدة في الجابية [2] . ان هذا الاجراء الذي قام به المسلمون باعادة الجزية الى أصحابها لم يحدث مثله قطّ من قبل . ولن يحدث مرة اخرى .

(١) البلاذري ـ صفحة ١٤٣ .

(٢) ابو يوسف ـ صفحة ١٣٩ .

في منتصف تموز عام ٦٣٦ م ، اصطدمت العناصر الامامية للجيش الامبراطوري ، وكانت تتألف من العرب النصارى ، بقوات الستارة الامامية للمسلمين بين دمشق والجابية . واصبح ابو عبيدة قلقا للغاية . فالمعركة اصبحت مؤكدة ، وهي ستقرر مصير المسلمين في بلاد الشام . وكانت قوة الاعداء المعروفة للمسلمين تقدر بحوالي مائتي الف رجل ، وبدت هذه القوة وكأنها كابوس مخيف . ولم يكن ابو عبيدة قلقا على نفسه بل على جيش المسلمين وعلى قضية الاسلام . فدعا ابو عبيدة مجلس الحرب للانعقاد ليوجز لأمراء الجيش موقف العدو وليتشاوروا في الامر .

جلس امراء الجيش صامتين امام هذا الموقف العصيب الذي يواجههم. وتحدث أحدهم مقترحا الانسحاب الى الجزيرة العربية حيث يستطيع الجيش الانتظار حتى تمرّ العاصفة الرومانية ثم يعود الى بلاد الشام ثانية ، ولكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض لانه يعني التخلي عن الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام . وتكلم آخرون واقترحوا القتال وقالوا : « نحن نؤيد القتال هنا وليكن الآن » ، وأيدهم في ذلك معظم أمراء الجيش . ومع ذلك ، فقد كانت الحالة النفسية للمجلس ليست مشجعة ، ولكن التصميم على القتال ، اذا كان لابدّ من ذلك ، كان واضحا على وجوه الحاضرين .

بقي خالد صامتا عندما كان النقاش دائرا . ثم التفت اليه ابو عبيدة وقال : « يا ابا سليمان ! انك رجل الجراة والإقدام والراي . فما رايك فيما سمعت ؟ » فأجاب خالد : « ماقالوه فهو حسن . اما انا فلدي وجهات نظر مختلفة لكنني لا اعارض المسلمين . » فقال أبو عبيدة : « اذا كان عندك وجهات نظر اخرى ، تكلم ، وسوف نفعل ماتقول . » عندئذٍ شرح خالد خطته بقوله : « ايها الامير ، إعلَمْ انك ان انتظرت في هذا المكان ، فانك بذلك تساعد العدو عليكم . ففي قيسارية ، التي ليست بعيدة عن الجابية ، يوجد أربعون الف روماني بقيادة قسطنطين بن هرقل . وانا أشير عليك ان تنتقل من هنا وتجعل إزرع خلفك ولتكن على اليرموك . وبذلك سيسهل على الخليفة ارسال التعزيزات ، وسيكون أمامك سهل كبير ملائم لهجوم الخيالة [1] » .

(١) الواقدي ـ صفحة ١٠٩ .

لم يقل خالد ذلك حرفيا ، لكن الاستنتاج هو أن قسطنطين عندما يتقدم من قيسارية ، فانه يستطيع ان يهاجم المسلمين من الخلف في الجابية بينما يكونون يواجهون الجيش الامبراطوري القادم من الشمال ، وتمت الموافقة على خطة خالد بالاجماع ووضع التحرك موضع التنفيذ . وترك خالد مع الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف فارس كحرس مؤخرة ؛ وبدلا من الانتظار في الجابية ، تحرك الى الامام واشتبك مع العناصر الامامية لجيش الروم . وهاجم خالد مقدمة الرتل الروماني وطرده الى الخلف باتجاه دمشق . وفرض هذا الاشتباك على الروم ان يتخذوا جانب الحذر ، ولم يحاولوا بعد ذلك التدخل في حركة انسحاب المسلمين . وبعد بضعة أيام انضم خالد الى الكتلة الرئيسية لجيش المسلمين .

بعد ان تحرك المسلمون بضعة ايام باتجاه جنوب شرق ، انشؤوا صفا من المعسكرات في الجزء الشرقي من سهل اليرموك . ان مكان هذه المعسكرات غير معروف تماما إلا انها ربما كانت جنوب خط نوى ـــ شيخ مسكين الحالي ، وكانت تواجه الشمال الغربي ، لكي يستطيع المسلمون الفتح للمعركة ومواجهة الهجوم الروماني القادم من الشمال (محور الجابية) ومن الشمال الغربي (اتجاه القنيطرة) . وهنا انضمت الى أبي عبيدة الوية شرحبيل ، وعمرو بن العاص ، ويزيد . وعلى مسافة ما الى الشرق من المسلمين ، تمتد التلال البركانية من شمال ازرع الى شرقها ، ويمتد جبل العرب شمال بصرى وشرقها .

وبعد أيام قليلة تقدم الجيش الروماني ، الذي كان يتقدمه العرب النصارى بقيادة جبلة ، واصطدم بمخافر المسلمين الامامية الموجودة في سهل اليرموك . لم يذكر المؤرخون الطريق الذي سلكته القوة الرئيسية للجيش الروماني ، ولكن من المؤكد انها قدمت من الجهة الشمالية الغربية ، لان الروم اقاموا معسكراتهم في شمالي وادي الرّقاد .

(من المحتمل ان يكون اشتباك خالد مع الروم على محور الجابية جعلهم يغيرّون محور تقدمهم) . كان معسكر الروم يمتد ثمانية عشر ميلا ، وكان يقع

بين معسكر الروم ومعسكر المسلمين الجزء الاوسط والجزء الاوسط الغربي من سهل اليرموك [1] . وبوصول الروم وإقامة معسكرهم ، اصبح اتجاه هجومهم واضحا ، وعدّل ابو عبيدة مواقع معسكرات المسلمين لتلائم جبهة المعركة الممتدة من اليرموك وحتى طريق الجابية . وهذا هو ما اقترحه خالد : « ان تكون مؤخرة المسلمين باتجاه ازرع ، ومجنبتهم مستندة على اليرموك ».

واستقرّ الآن الجيشان في معسكراتهما وبدأ كل منهما يستعد للمعركة: الاستطلاع ، والخطط ، والاوامر ، وتفقد الاعتدة ... الخ . وكان الروم يبدون للمسلمين « كأسرابٍ من جراد [2] » .

لم يكد يستقر الروم في معسكرهم حتى وصل رسول من قبل هرقل يحمل تعليمات الى ماهان ، القائد العام ، يطلب منه ان لا يبدأ الاعمال العدائية حتى يتم التباحث مع المسلمين في جميع السبل المؤدية الى السلام . وطلب من ماهان ايضا ان يعرض على المسلمين شروطا سخية اذا وافقوا على العودة الى الجزيرة العربية وعدم الرجوع الى بلاد الشام ثانية . لذلك ارسل ماهان احد قادته ، وهو غريغوري ، لاجراء مباحثات مع المسلمين . وخرج غريغوري الى معسكر المسلمين ، واجرى محادثات مع ابي عبيدة . وعرض الروم أن يذهب المسلمون بسلام ، وأن يأخذوا معهم كل شيء حصلوا عليه في بلاد الشام ، شريطة ان يتخلوا نهائيا عن فتح الشام مرة ثانية . وكان جواب ابي عبيدة بالرفض ، وعاد القائد الروماني بخفي حنين .

بعد ذلك ارسل ماهان جبلة ، على اعتبار أنه عربي وقد تتكلل مساعيه بالنجاح في اقناع المسلمين بترك بلاد الشام بسلام . وبذل جبلة جهده لاقناعهم، ولكنه عاد خائبا مثل غريغوري .

تأكد ماهان الآن بان المعركة لامفر منها ولا يمكن عمل شيء لتجنبها .

---

(١) حسب رواية الواقدي ــ صفحة ١٠٩ ــ كان معسكر الروم يقع قرب الجولان (وهي المنطقة الواقعة بين وادي الرقاد وبحيرة طبرية والمنطقة شمالها) ، وكانت المسافة التي تفصل بين المعسكرين المتخاصمين حوالي احد عشر ميلا (ثلاثة فراسخ ، والفرسخ يساوي ستة كيلو مترات) .

(٢) الواقدي ــ صفحة ١١٨ .

لذلك ارسل جبلة الى الأمام مع معظم جيشه من العرب النصارى للقيام بهجوم « جس نبض » ضد المسلمين . وفي الحقيقة لم يكن هذا الهجوم سوى استطلاع بالقوة لاختبار قوة جبهة المسلمين . فمثل هذه المهمة تلائم العرب النصارى الراكبين اكثر من الجيش الامبراطوري الروماني المجهز بالمعدات الثقيلة . حدث ذلك في أواخر تموز عام ٦٣٦ م (منتصف جمادى الآخرة ، عام ١٥ هجري) .

تحرك جبلة بجيشه من العرب النصارى فوجد المسلمين منتشرين بترتيب المعركة . وتقدم جبلة بحذر وببطء الى الامام ، وكان يرغب في الاقتراب ما أمكن من المسلمين قبل ان يأمر بالهجوم العام ، لكنه قبل ان يتمكن من اصدار مثل ذلك الامر ، وجد نفسه محاطا بمفارز قوية من خيالة المسلمين التي تعمل بإمرة « سيف الله » . وبعد مقاومة ضعيفة انسحب العرب النصارى ، مؤكدين مخاوف ماهان بأن المعركة مع هؤلاء المسلمين لن تكون امرا سهلا .

مضى حوالي الشهر ، ولم تحدث اشتباكات هامة في سهل اليرموك. ولم يُعرف سبب لعدم النشاط هذا . اكننا نستطيع التخمين فقط بأن المسلمين لم يكونوا اقوياء بدرجة كافية لاخذ زمام المبادرة والقيام بالهجوم ، ولم يشعر الروم كذلك بشجاعة كافية للقيام بالهجوم . وعلى أية حال ، فان فترة الهدوء اثبتت انها مفيدة للمسلمين ، اذ وصلت وحدات جديدة خلال هذه الفترة تقدر بستة آلاف مسلم للانضمام اليهم ، ومعظم هؤلاء كانوا من اليَمَن . واصبح لدى المسلمين الآن أربعون ألف مقاتل ، من ضمنهم الف من صحابة رسول الله ، وكان من بين هؤلاء مائة محارب ممن اشتركوا في غزوة بدر ، وهي اول معركة في الاسلام . وكان جيش المسلمين يضم مواطنين من كبار المسلمين مثل الزبير (ابن خالة الرسول ، واحد العشرة المبشرين بالجنة)، وأبي سفيان ، وزوجته هند .

بعد مرور شهر على صد هجوم جبلة ، شعر ماهان بانه قوي بدرجة كافية لاستلام زمام المبادرة ، لكنه قرّر ان يقوم بمحاولة اخرى من اجل

السلام . فقرر هذه المرة ان يقوم باجراء المحادثات بنفسه . فطلب من المسلمين ان يبعثوا اليه برسول الى مقر قيادته ، وتلبية لهذا الطلب ارسل ابو عبيدة خالدا مع نفر من الرجال . وتقابل خالد مع ماهان في معسكر الروم ، ولكن لم ينجم عن تلك المحادثات اي شيء بسبب تصلب الطرفين وعدم استعدادهما للقيام ببعض التنازلات . فهدّد ماهان خالدا بجيشه العظيم وعرض مبلغا كبيرا من المال لجميع المسلمين ، بما فيهم الخليفة في المدينة ، لكن هذا العرض لم يؤثر على خالد ، وعرض خالدٌ بالمقابل واحدة من ثلاث : الإسلام ، او الجزية ، او السيف ، فاختار ماهان الحلّ الاخير . وعلى اية حال ، فقد ظهر من نتيجة هذا اللقاء ان كلا القائدين قد تأثر بشخصية الآخر ، وبدأ المسلمون يعتبرون ان ماهان رجل ممتاز إلا انه ، كما قال ابو عبيدة : « لقد اغواه الشيطان [1] » .

وعندما افترق القائدان ، ادركا انه لن تكون هنالك مفاوضات بعد الآن . فقد وصلا الى طريق مسدود ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي .

انقضى بقية اليوم في نشاط كبير . واستعد كلا الجانبين للمعركة . وقد انجزت الخطط ، ووزعت الاوامر . ووضعت الفيالق والالوية في مراكزها لكي يعرف كل فرد مكانه في المعركة القادمة . وتفقد كل مقاتل درعه وسلاحه .

واقام كلا الطرفين الصلوات بحماس شديد من اجل النصر ، وابتهلوا الى الله ان يساعدهم ، وبالطبع تضرع كل منهما الى نفس الإله . ففي الجانب الروماني رُفعت الصلبان من قبل رجال الدين الذين طلبوا من الجنود ان يضحوا بأرواحهم من اجل المسيح . واقسم عشرات الالوف من المسيحيين على ان يموتوا وهم يقاتلون ، وانهم لن يفروا امام العدو . وحافظ الكثيرون منهم على قسمهم .

يتالف ميدان المعركة ، الذي يمتد بين المعسكرين ، من سهل اليرموك المحاط من جانبيه الغربي والجنوبي بمنحدرات عميقة وشديدة . فمن الغرب

(١) الواقدي ـ صفحة ١٢٨ .

ينفتح وادي الرقاد الذي يتصل بنهر اليرموك قرب الياقوصة . ويمتد هذا النهر من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مسافة احد عشر ميلا خلال وادٍ عميق محاط بحافتين شديدتي الانحدار ، ويخف هذا الانحدار عند طرفه العلوي . ويمكن عبور هذا الوادي العميق في بعض الاماكن ولكن يوجد معبر رئيسي عند احدى المخاضات حيث تقع قرية « كفر إلما » حاليا . ويقع وادي نهر اليرموك جنوب ميدان المعركة ، وهو يبتدىء من « جلين » ويسير بتعرج وانعطاف مسافة خمسة عشر ميلا ، حتى يلتقي بوادي الرقاد ، ثم يستمر بالجريان حتى يتصل بنهر الاردن جنوب بحيرة طبرية (بحر الجليل) . وفي جلين يجري جدول يسمى « الحرير » من جهة الشمال الشرقي ويصب في وادي اليرموك ليصبح نهر اليرموك . وفي الشمال يستمر امتداد السهل وراء ميدان المعركة ، بينما يمتد شرقا حوالي ثلاثين ميلا من وادي الرقاد الى سفوح تلال ازرع . وكان الجزء الغربي والاوسط من السهل يشكل ميدان المعركة .

ان أهم المعالم الموجودة في ارض المعركة هي وادي الرقاد ونهر اليرموك ، ويوجد لهما ضفاف يبلغ ارتفاعها حوالي الف قدم ، وبينما كانت شدة انحدار ضفافهما تعتبر سببا كافيا لجعلهما عائقين خطيرين ضد اي تحرك ، الا انهما يزدادان خطورة بسبب الجروف المحيطة بضفافهما في معظم الامكنة . وكانت هذه الجروف موجودة احيانا في اسفل الوادي ، واحيانا في اعلاه ، واحيانا اخرى في منتصفه مشكلة انحدارا شديدا وهوات عميقة يتراوح ارتفاعها بين مائة ومائتي قدم . وعند التقاء وادي الرقاد ونهر اليرموك ، تصبح الضفاف اشد انحدارا والجروف اكثر علوا — وهي تشكل خطورة عند اجتيازها .

ان الهيئة التكتيكية الوحيدة المسيطرة على سهل اليرموك هي الهيئة الموجودة على الخرائط باسم « تل السمن » ، وهي تبعد ثلاثة اميال جنوب غرب قرية « نوى » الحالية . كذلك يوجد تل الجابية ، وهو يقع شمال غرب « نوى » ، لكنه كان خارج ميدان المعركة ولم يكن له دور في المعركة . ان تل السمن الذي يرتفع ثلاثمائة قدم يسيطر على المنطقة المحيطة به ، ويؤمن مراقبة جيدة لكافة السهل مما يحتم على القائد الذي يريد ان يفتح قواته

للمعركة اولا ان لا يغفل احتلاله . ونتيجة لهذه المعركة سمي هذا التل باسم : « تل الجموع » ، لان جزءا من جيش المسلمين احتشد عليه . ولا توجد اي ارض حاكمة ومسيطرة على سهل اليرموك سواه .

اما السهل نفسه فقد كان منبسطا بشكل عام ، وهو ينحدر تدريجيا من الشمال الى الجنوب مع بعض التعرجات . ويوجد وادٍ وحيد يشكل هيئةطبيعية تكتيكية هامة ، وهو « وادي العلان » ، ويجري باتجاه الجنوب عبر السهل حتى يتصل باليرموك ، وهذا الوادي ايضا قد كون منحدرا بطرفين شديدي الانحدار في الخمسة اميال الاخيرة من رحلته ، وهو لا يعتبر عائقا خطيرا مثل تلك العوائق الكبيرة الموجودة في المنطقة . وكان ميدان المعركة نموذجيا بالنسبة لمناورة المشاة والخيالة ، وباستثناء الجزء الجنوبي من وادي العلان ، فهو لا يشكل عائقا أمام اي تحرك .

فتح ماهان الجيش الامبراطوري للمعركة امام وادي العلاّن . وقد استخدم جيوشه الاربع النظامية لتشكيل خط المعركة الذي كان طوله اثني عشر ميلا ، وهو يمتد من اليرموك الى جنوب تل الجابية[1] . ووضع ماهان جيش غريغوري في الميمنة ، وجيش قناطير في الميسرة ، ووضع في القلب جيش ديرجان وجيش ماهان ، وكان كلا الجيشين بإمرة ديرجان . ووزعت خيالةالروم بالتساوي بين الجيوش الاربعة . وتشكّل كلُ جيش بترتيب المعركة ووضعت المشاة في الامام واحتفظ بالخيالة في الخلف . وفتح ماهان امام خط المواجهة ، الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلا ، جيش جبلة المؤلف من العرب النصارى الذين كانوا يمتطون الخيل والإبل .

وقام هذا الجيش بمهمة التغطية والمناوشة ، ولم يكلف بالاشتباك الحاسم في القتال (ما عدا المجموعات التي الحقت بالجيوش التي تعمل في المواجهة) .

وكانجيش غريغوري ، الذي يشكل الجناح الايمن للروم ، يستخدم

(١) بالاصطلاحات الجغرافية الحالية ، ابتدأ الخط الروماني من غرب « نوى » بحوالي ميلين واتجه جنوبا وجنوب غرب قرية تسيل ، ومن ثم مر بسحم الجولان الى ضفة اليرموك . وبالطبع لم تكن هذه القرى موجودة اذ لم يرد ذكرها في سرد المعركة .

السلاسل لربط جنوده المترجلين البالغ عددهم ثلاثين الفا [١] . وكان طول السلسلة يكفي لربط عشرة جنود ، وكان استخدام هذه السلاسل دليل شجاعة بالنسبة للافراد الذين ابدوا رغبتهم في الصمود حتى الموت . وكانت السلاسل تستخدم ايضا لمنع خيالة العدو من اختراق صفوفهم ، كما ذكر في سرد « معركة السلاسل » .

وعلى الرغم من ان الجيش الامبراطوري شكل مواجهة تعادل طول مواجهة جيش المسلمين تقريبا ، الا انه يمتاز بتفوق مقداره اربعة اضعاف عدد المسلمين . وقد استغل ماهان ذلك التفوق العددي بوضع جيش جبلة بكاملة كستارة امامية وبذلك حقق عمقا اكبر للتشكيلات المنظمة بشكل قوي . وكان عدد صفوف الجيش ثلاثين صفا . هكذا كان ترتيب جيش القيصر العظيم لخوض المعركة .

وعندما عاد خالد من محادثاته مع ماهان ، اخبر ابا عبيدة وباقي امراء الجيش ان لا مفاوضات بعد هذا اليوم ، وان الامر سيقرره السيف ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي . ولقد تقبل ابو عبيدة انباء خالد برضى المؤمن بارادة الله . وكقائد عام كان عليه ان ينظم جيشه للمعركة ويدير العملية طبقا لتقديراته التكتيكية . ولكن مهارته العسكرية لم تكن كبيرة وهو يعلم ذلك ، كما ان خالدا ومعظم امراء الجيش يعرفون ذلك ايضا . وكان ابو عبيدة يخوض غمار المعارك بطريقة تدل على قوة ادراكه ، وكان يتصرف طبقا للمواقف التكتيكية المتغيرة كأي قائد جيد . ولكن مع عدو يفوقه أربعة اضعاف ، فالحصافة وقوة الادراك لا تكفي . وكان المطلوب وجود قيادة أكفأ من حيث النوعية ، ولهذا قرر خالد تقديم خدماته للعمل كقائد فعلي في المعركة . فقال لابي عبيدة : « ايها الامير ، ارسل في طلب جميع قادة الكتائب واخبرهم بان يستمعوا لما سأقوله » [٢] .

ففهم ابو عبيدة المقصود من كلام خالد . وهو شخصيا لم يكن يرغب

(١) ويقال انه كان يوجد خندق عميق ، ولكن لا يمكنني تحديد مكانه او تقدير مدى اهميته ، وقد قيل ان الروم قد فتحوا امامه وليس خلفه . وربما كان هذا اجراء ضد التراجع .
(٢) الواقدي ـ صفحة ١٢٩ .

بافضل من ذلك ، وفي الحال ارسل ابو عبيدة لقادته يامرهم بالاجتماع في مقر قيادته لكي يستمعوا لما سيقوله خالد ويطيعوا اوامره . ففهم القادة معنى الرسالة . وتجمعوا في القيادة لتلقي اوامر خالد . وبهذا الاسلوب اللبق تم تسلم قيادة الجيش من قبل خالد ، وكان الجميع راضين بهذا الاجراء .

وبقي ابو عبيدة القائد الاسمي . واخذ على عاتقه معالجة المسائل الادارية. ولكن من اجل خوض المعركة ، اصبح خالد الآن قائد جيش المسلمين في بلاد الشام ، وظل كذلك حتى نهاية هذه المعركة .

وفي الحال بدأ خالد باعادة تنظيم الجيش ووزعه على اساس كتائب (كراديس) مشاة وخيالة ضمن كل لواء . وكان عدد الجيش اربعين الفا منهم عشرة آلاف خيال . وقسمت هذه القوة من قبل خالد الى ستة وثلاثين كتيبة (كردوس) مشاة وكل كتيبة (كردوس) كانت تتألف من ثمانمائة الى تسعمائة رجل ، وثلاثة كتائب خيالة تضم كل منها الفي فارس ، وحرس متحرك تعداده اربعة آلاف فارس . وكان قادة كتائب الخيالة هم : قيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق ، وعامر بن الطفيل . وكان كل لواء من الالوية يتألف من تسع كتائب مشاة ، شكل كل منها على اساس القبيلة والعشيرة ، لكي يقاتل كل رجل بجانب افراد عشيرته .

وفتح الجيش على مواجهة طولها احد عشر ميلا ، بحيث تنطبق تقريبا على مواجهة جيش الروم . وارتكز الجناح الايسر للمسلمين على نهر اليرموك على مسافة ميل الى الامام عند اول الوادي ، بينما ارتكز الجناح الايمن على طريق الجابية[1] . وكان لواء يزيد على اليسار ، ولواء عمرو بن العاص على اليمين ، واعطي كل لواء من لوائي الاجنحة كتيبة خيالة تحت امرته . اما القلب فكان يتألف من لوائي ابي عبيدة (يسار) وشرحبيل (يمين) . ومن بين قادة الكتائب في لواء ابي عبيدة ، كان عكرمة بن ابي جهل ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وخلف القلب ، ؛ كان يوجد الحرس المتحرك وكتيبة خيالة كاحتياط للقلب لاستخدامها حسب تعليمات خالد . وعندما يكون خالد

---

(١) حسب الاصطلاحات الجغرافية الحالية ، كان خط المسلمين يبتدىء من غرب « نوى » بحوالي ميل ، ويتجه جنوبا وجنوب غرب مارا بتل الجموع . ثم يسير بين تسيل وعدوان ، ثم بين سحم الجولان وجلين ، الى قرب اليرموك .

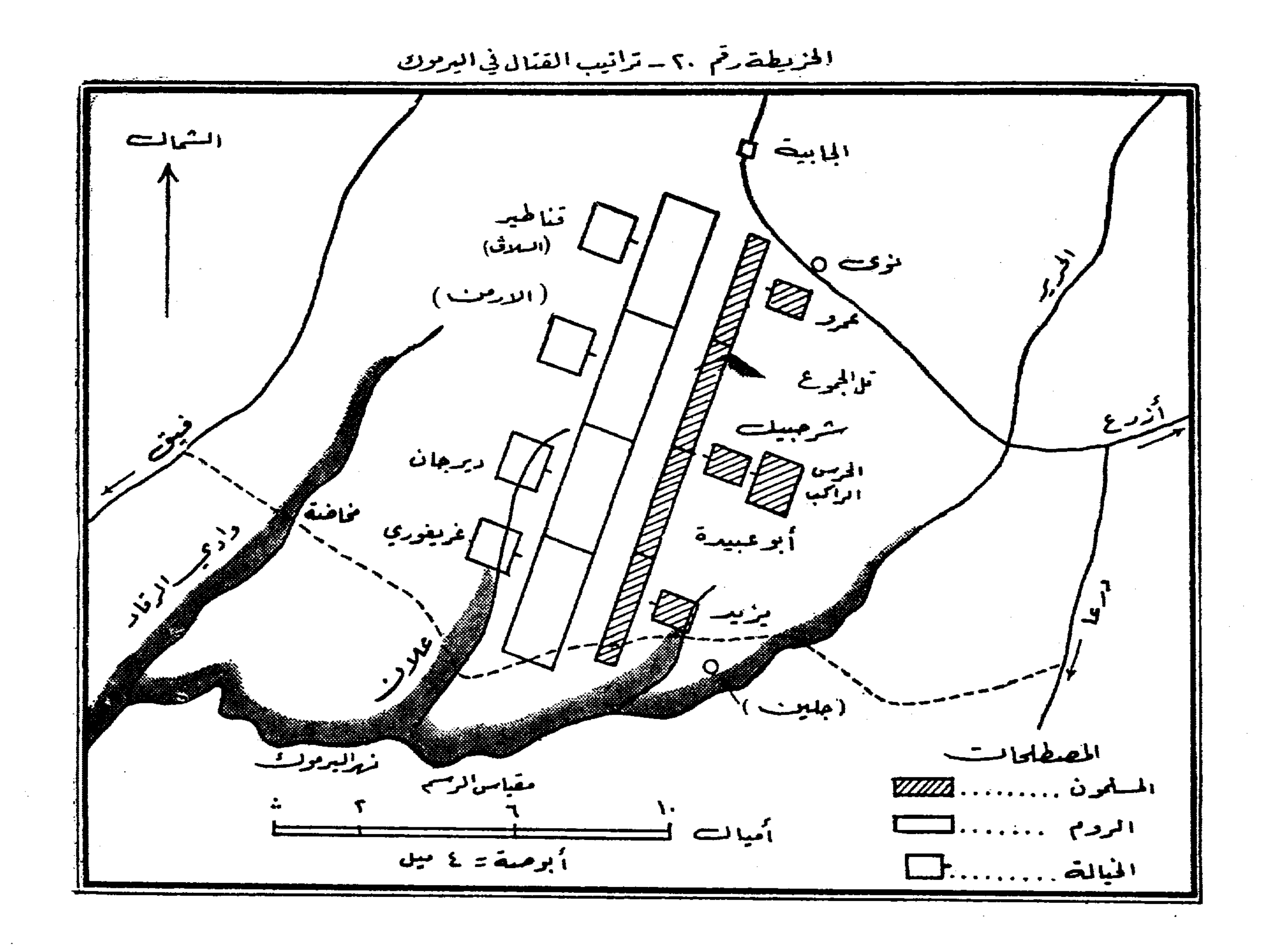
مشغولا في أي وقت بادارة المعركة ، يتولى ضرار بن الازور قيادة الحـرس المتحرك . ودفع كل لواء بعض الكشافين للامام لابقاء الروم تحت المراقبة . (انظر الخريطـة رقم ٢٠) .

وبالمقارنة مع الروم ، كان جيش المسلمين يشكل جبهة رقيقة تتألف من ثلاثة صفوف فقط بالعمق . ولكن لا توجد ثغرات بين هذه الصفوف التي كانت تمتد بشكل متصل من الطرف الى الطرف . واعطيت الرماح المتوفرة في جيش المسلمين للصف الامامي ، وفي المعركة كان الرجال يصطفون ورماحهم جاهزة للاستخدام ، بحيث يكون من الصعب على المهاجم ان يخترق الصفوف دون ان يتعرض للطعن بالرماح . اما رماة النبال الذين كان معظمهم من اليمن فكانوا يقفون في الصف الامامي . فحالما يقترب العدو ، يقوم الرماة باستخدام النبال للاطاحة بأكبر عدد ممكن مـن الروم . وعندما يلتحم المهاجمون بصفـوف المسلمين ، كان يقضى عليهم بالرماح ، ومن ثم يستخدم الرجال سيوفهم .

وكان على لوائي الجناحين ان يستخدما كتائب الخيالة كاحتياط لهما ، لاعادة الوضع الى ما كان عليه في حالة نجاح الروم في زعزعتهم عن مواقعهم . اما خالد فيقوم بحرسه المتحرك وكتيبة خيالة بواجب الاحتياط المحلي لكلا لوائي القلب ، ويكون جاهزا للعمل كاحتياط للجيش للتدخل في المعركة مع كلا لوائي الجناحين حسبما يتطلب الموقف ذلك .

كان موقف الجيشين بالنسبة للاجنحة متشابها . فالجناح الجنوبـي لكلا الجيشين كان يرتكز على اليرموك ولا يمكن الالتفاف حوله . اما الجناح الشمالي لكلا الجيشين فقد كان مكشوفا ، ويمكن القيام هنا بحركات التفاف. اما الاختلاف في موقف الجيشين فيكمن في مؤخرتيهما . فخلف موقع المسلمين يمتد سهل اليرموك الشرقي حيث توجد تلال ازرع وجبل العرب ، وفي هذه المنطقة يستطيع المسلمون الانسحا بأمان ويكونون غير معرضين للخطر في حالة تراجع. وخلف جزء من موقع الروم ، يوجد المنحدر الشديد لوادي الرقاد العميق ذي الجروف الحادة . وكان هذا الموقع ملائما لانه لا يشجع على التراجع ومن المحتمل ان يجعل الروم يقاتلون بضراوة ، ولكن في حالة الضغط عليهم

الخريطة رقم ٢٠ - تراتيب القتال في اليرموك



أثناء المعركة ، يمكن عزلهم من طريق الفرار الشمالي ، وهكذا يصبح المنحدر مقبرة لهم . وعلى أية حال ، فان الروم لم يكن لديهم شعور باحتمال خسارة هذه الموقعة .

كان للوضع الطبوغرافي المقام الاول في مخيلة خالد عندما وضع خطته للمعركة. ففي البداية يقف المسلمون كمدافعين ويتلقوا ويصدوا هجوم الروم حتى يفقد زخمه ويصبح العدو في حالة انهاك . بعد ذلك يستلم المسلمون زمام المبادرة للهجوم فيدفعوا الروم باتجاه وادي الرقاد . وسيصبح المنحدر الشديد كالسندان الذي تقع عليه مطرقة المسلمين لسحق الجيش الروماني والقضاء عليه . وهذا ما خطط له خالد على اقل تقدير .

وقد وضعت النساء والاطفال في معسكرات ممتدة خلف مؤخرة الجيش. وخلف رجال كتيبة كانت تقف نساؤهم واطفالهم [1] . وتجول ابو عبيدة في المعسكرات وخاطب النساء قائلا : « احملن اعمدة الخيام بأيديكن واجمعن اكواما من الحجارة . فاذا كسبنا المعركة فكل شيء يسير على ما يرام . ولكن اذا رأيتن مسلما يهرب من المعركة ، فاضربنه على وجهه بعمود الخيمة ، وارجمنه بالحجارة ، وامسكن بأطفاله أمامه واخبرنه ليقاتل من اجل زوجته وأطفاله ومن اجل الاسلام [2] . واستعدت النساء كما طلب منهن ابو عبيدة .

وعندما تشكل الجيش بترتيب المعركة ، قام خالد وابو عبيدة وبعض القادة الآخرين بتفقد الكتائب وتكلموا مع القادة والجنود . والقى خالد كلمة أمام كل كتيبة : « يا رجال الاسلام ! لقد حان الوقت لكي تثبتوا . فالضعف والجبن يقودان الى العار ، وكل من يثبت يمده الله بعون من عنده . وكل من يصمد بشجاعة امام حد السيف سيكرم ، وسوف يلقى الثواب عندما ينتقل الى جوار ربه . والله يحب الصابرين [3] » .

---

(١) طبقا لبعض الروايات ، فقد وضعت النساء والاطفال على احد التلال الموجودة في الخلف، ولكن كما سنرى من مجرى المعركة ، لا يمكن ان يكون ذلك صحيحا .

(٢) الواقدي ـ صفحة ١٢٩ ، ١٣٠

(٣) الواقدي ـ صفحة ١٣٧

وبينما كان خالد يتفقد احدى الكتائب ، سمع شابا يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين » ! فالتفت اليه خالد وقال : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال [1] » .

وقام بعض القادة الآخرين بحث الرجال على القتال ، وكانوا يتلون آيات من القرآن الكريم : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين[2] » . وتحدثوا عن نار جهنم ونعيم الجنة ، وعن الايمان بالله والقتال لنصرة الدين الذي من اجله قاتل النبي وانتصر في معاركه .

وكانت الليلة التالية حارة ورطبة . كان ذلك في الاسبوع الثالث من آب عام ٦٣٦ م (الاسبوع الثاني من رجب ، عام ١٥ هجري) . وقضى المسلمون الليل في الصلاة وتلاوة القرآن ، واخذوا يذكرون بعضهم بعضا باحدى اثنتين : اما النصر والحياة او الشهادة والجنة . وقد اوجد الرسول الكريم تقليدا للمسلمين بعد غزوة بدر وهو قراءة سورة الانفال قبل المعركة ، وكانت تسمع خلال الليل تلاوة هذه السورة من قبل المسلمين .

وارتفعت السنة النيران في كلا المعسكرين بوهج شديد طيلة الليل ، وكانت ترى على مسافة أميال مثل النجوم المتلألئة التي تسقط على الارض . لكن الفرح كان بعيدا عن قلوب الجالسين حول تلك النيران . كما ان فكرة المحنة التي تنتظرهم قد طردت السرور من عقولهم . لقد كان هؤلاء الجنود الذين ينتظرون الغد رجالا شجعانا ، انهم من الروم والعرب ، ومن الاوربيين والاسيويين ، ومن النصارى والمسلمين . لقد كانوا اسودا وعقبانا وذئابا . ولكنهم كانوا ايضا بشرا يفكرون بزوجاتهم واطفالهم الذين سيودعونهم بعد ساعات قليلة — وربما لآخر مرة .

هذا ما كان عشية معركة اليرموك .. أعظم معركة في ذلك القرن ... واحدى المعارك الحاسمة في التاريخ ... وربما كانت اضخم معركة جرت بين المسلمين والصليبيين .

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٤ .

(٢) قرآن كريم : سورة رقم ٢ ، آية رقم ٢٤٩ .

اليرموك

اصطفت الوية المسلمين لصلاة الفجر . وكان يؤم الصلاة امراءُ الالوية والكتائب . وحالما انتهت الصلاة ، أسرع كل رجل الى مكانه المعين له . وبطلوع الشمس كان الجيشان يقابلان بعضهما بترتيب المعركة ، في وسط سهل اليرموك ويبعدان عن بعضهما اقل من ميل .

لم تصدر اية حركة سوى ضجةبسيطةعندما تقابلت الجبهتان مع بعضهما البعض . لقد عرف الجنود ان القتال في هذا اليوم سيكـون حتى النهاية ، وسيمزق احد الجيشين على ارض المعركة قبـل نهاية القتال . جال المسلمون بانظارهم في دهشة من التشكيلات الجديدة للفـرق الرومانية المزينة بالاعلام الخفاقة والصلبان المرفوعة فوق رؤوس الجنود . لقد نظر الجنود الرومانيون بخوف اقل الى جيش المسلمين المنتشر امامهم . واطمأنوا الى ثقتهم بكثـرة عددهم ، ولكن خلال العامين الماضيين ادخل تصرف المسلمين في بلاد الشام الاحترام في قلوب الرومان . لذا فان نظرة الحذر كانت تبدو في عيونهم . وهكذا مضت ساعة من الزمن لم يتحرك اثناءها اي شخص . وانتظر الجنود بدء المعركة التي كما يقول المؤرخون « تبدأ بشرارة نار وتنتهي باجيج مدمرة تكون اشد ضراوة يوما بعد يوم[1] » .

ثم ظهر جنرال روماني واسمه جورج (جُرْجَه) من قلب جيش الروم وتقدم على فرسه باتجاه المسلمين وعندما اقترب من قلب جيش المسلمين ،

---

(١) الواقدي ــ صفحة ١٣٣ .

رفع صوته وطلب خالدا . ومن جانب المسلمين ، خرج خالد راكبا على فرسه وهو سعيد بفكرة ان المعركة ستبدأ به شخصيا بالمبارزة . وعليه أن يبدأ الخطوة الاولى للمعركــة .

وعندما اقترب خالد ، لم يتحرك الروماني لسحب سيفه ، ولكنه استمر ينظر الى خالد بامعان . وتقدم خالد حتى تلاصقت رقاب الخيل ، وحتى ذلك الوقت لم يسحب الروماني سيفه ، عندئذ تكلم الروماني بالعربية : « ياخالد اصدقني القول ، ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل انزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم الا هزمتهم ؟ » .

فأجاب خالد : « لا » .

فقال جرجة : « ففيم سميت سيف الله ؟ »

فقال خالد : « ان الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم ان بعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم ان الله أخذ بقلوبنا وتواصينا فهدانا به فتابعناه . فقال : أنا سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله وأنا من اشد المسلمين على المشركين » .

فقال جرجة : « يا خالد اخبرني الى ما تدعوني ؟ »

فقال خالد : « الى شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، والاقرار بما جاء به من عند الله » .

فقال جرجة : « ومن لم يجبكم ؟ » .

فقال خالد : « فالجزية ونمنعهم » .

فقال جرجة : « فان لم يعطها ؟ »

فقال خالد : « نؤذنه بحرب ثم نقاتله » .

فقال جرجة: «فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الامر اليوم؟».

فقال خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا واولنا وآخرنــا » .

فقال جرجة : « هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الاجر والدخر ؟[1] » .

فقال خالد : نعم وافضل .

ولدهشة الجيشين ، اللذين لم يعرفا ما دار بين القائدين ، عطف خالد جواده ، وسار مع الروماني ببطء . واتجها الى الجيش الاسلامي . وبمجرد وصول جورج الى الجيش الاسلامي كرر بعد خالد كلمات : « لا اله الا الله محمد رسول الله » . (وبعد مضي بضع ساعات قاتل جورج الذي اعتنق دينه الجديد بشجاعة واستشهد في المعركة) . وبهذا الاعتناق السعيد ، ابتدات معركة اليرموك .

وبدات مرحلة المبارزة بين الابطال ، وهذا يلائم الطرفين ، لان في ذلك تطوير للمعركة . فتقدم عشرات القادة من الجيش الاسلامي ، منهم من تقدم حسب تعليمات خالد ، ومنهم من تقدم حسب رغبته ، طلبا للمبارزة ، واشتبكوا مع من خرج لمبارزتهم من جانب الروم . وقد قضوا تقريبا على هؤلاء الرومان في المبارزات ، ويعود الفضل لعبد الرحمن بن ابي بكر الذي قتل خمسة قادة من الرومان الواحد تلو الآخر .

واستمرت المبارزة حتى منتصف النهار ثم قرر ماهان ، القائد العام ، ايقاف القتال حيث لو طال سوف يخسر الروم عددا كبيرا من قادتهم وبالتالي ستتأثر الروح المعنوية لقواتهم وهو يأمل ان يكون للروم فرصة افضل للنجاح في معركة عامة يكون فيها كثرة العدد له وزنه لصالحهم . ولكن قائد الروم كان حذرا لان اي خطوة خاطئة في بداية المعركة لها تأثير كبير على سيرها. ومن الافضل له ان يحاول القيام بهجوم محدود على جبهة عريضة لاختبار قوة جيش المسلمين ، واذا امكن احراز اختراق في اية نقطة ضعيفة في جبهة المسلمين .

وفي منتصف النهار تقدمت عشرة صفوف امامية من الجيش الروماني ،

---

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٥ .

اي ثلث المشاة من كل جيش من الجيوش الاربعة ، الى المعركة . وتحركت هذه الموجة البشرية للامام ببطء . وحالما اصبحت في مدى رمي سهام المسلمين ، انطلقت سهام المسلمين عليها وسببت بعض الخسائر . واستمرت الموجة في التقدم . وفي وقت قصير اصطدمت بالصف الامامي للمسلمين . وفي الحال ، القى المسلمون بحرابهم الدامية واستلوا سيوفهم ، والتحم الطرفان في القتال.

ولكن الهجوم الروماني لم يكن قويا ، وكان معظم الجنود غير معتادين على المعركة ، فلم يضغطوا ويندفعوا بهجومهم ، بينما ضراوة القتال التي ابداها المحاربون المسلمون المتمرسون ولدت الحذر لدى الرومان وكان القتال في بعض الجهات اشد عنفا ، ولكن بصورة اجمالية ، كان القتال متوسط الشدة وعلى وتيرة واحدة . وقد ثبت المسلمون في صفوفهم . ولم يحاول الروم تعزيز مشاتهم الامامية .

وبغروب شمس ذلك اليوم انتهت الاعمال القتالية وعاد كلا الجيشين الى معسكراتهم . كانت الخسائر طفيفة في هذا اليوم ، ولكنها كانت في الجانب الروماني اكثر منها في الجانب الاسلامي .

ومضى الليل في هدوء . وقامت النساء المسلمات بالترحيب برجالهن بكل فخر ومسحن العرق والدماء عن وجوههم واذرعهم وضمدوا جراحهم بغطاء رؤوسهن وخاطبت الزوجات ازواجهن قائلات : « تمتعوا في اعلى درجات الجنة يا احباء الله[1] » وقد شعر المسلمون الآن بثقة اكبر بعد ان اوقعوا بالعدو خسائر افدح من خسائرهم ، واستمرت الصلاة وتلاوة القرآن معظم تلك الليلة . وخلال الليل ، تقدمت بعض المجموعات الرومانية الى المنطقة الحرام لسحب قتلاهم وقد ادى ذلك الى وقوع بعض الاشتباكات مع الدوريات وخلافا لذلك لم يحدث اي اشتباك يعكر هدوء الليل .

ولم يحقق ماهان اي شيء . فعقد مجلس حرب حيث نوقشت خطط اليوم التالي . وكان عليه ان يفعل شيئا مغايرا عن الامس اذا اراد احراز النجاح،

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٣٣

ولهذا قرر القيام بهجومه التالي عند اول ضوء بعد ان شكل قواته للقتال في ساعات الظلام مؤملا ان يفاجيء المسلمين قبل ان يكونوا مستعدين للمعركة. وعلاوة على ذلك ، فسيهاجم بقوة اكبر . وطلب من كلا جيشي القلب ان يثبتا قلب جيش المسلمين ، بينما يقوم جيشا الاجنحة بالضربة الرئيسية وطـرد الوية اجنحة المسلمين خارج المعركة او دفعهم نحو القلب . واقام ماهان منصة عالية على احدى الروابي خلف الجناح الايمن الروماني حيث يستطيع الاشراف على المعركة . وهنا وضع ماهان نفسه وحاشيته وحرسه المكون من الفي ارمني، بينما استعد باقي الجيش لهجوم الصباح المباغت .

وحالما انبلج الصباح ، وكان المسلمون يؤدون الصلاة ، اذ سمعوا قرع الطبول . فاسرع المراسلون على خيولهم عائدين من نقاط القتال الامامية واخبروا قادتهم بهجوم الروم . لقد بوغت المسلمون بدون شك ، ولكن خالـد كان قد امر بوضع خط قوي من نقاط القتال الامامية في الامام اثناء الليل ، وهذه النقاط تستطيع تأخير الروم بوقت كاف بحيث يستطيع المسلمون خلاله ارتداء دروعهم وحمل اسلحتهم والوصول الى موقع المعركة قبل ان يعصف بهـا طوفان الروم . علاوة على ذلك ، فان السرعة التي وصل بها المسلمون الـى مواقعهم كانت اكبر مما توقعه الروم . ولم ترتفع شمس ذلك اليوم الثاني للمعركة الا وبدأ الجيشان بالتصادم من جديد .

واستمرت معركة لوائي الاجنحة معظم النهار دون حدوث تصدع في خط المسلمين . وهنا لم يضغط الروم هجومهم بشكل قوي وهذا يعني أنه هجوم محدود لتثبيت لوائي المسلمين في مواقعهم . وهكذا بقي القلب ثابتا . ولكن لوائي الاجنحة تحملا الضربات الشديدة من الجيش الروماني ، وتلقتا أيضا عنف صدمة القتال .

وكان يوجد أمام ميمنة المسلمين جيش قناطير ، الذي تتكون غالبيته من السلاف ، وهجم هذا الجيش على لواء عمرو بن العاص . وثبت المسلمـون بشجاعة وصدوا الهجوم . قام قناطير بهجوم ثان وبقطعات جديدة ، ومرة أخرى صد المسلمون هذا الهجوم . ولكن عندما هاجم قناطير للمرة الثالثة ،

استخدم مرة اخرى وحدات جديدة ، مما ادى الى ضعضعة مقاومة المسلمين المرهقين فتراجع اللواء وانكفأ الى المعسكر ، بينما انضم قسم منه للقلب ، أي نحو لواء شرحبيل .

وحيث ان تراجع هذا اللواء كان على صورة فوضى وغير منظم ، فقد أمر عمرو كتيبة الخيالة المؤلفة من الفي خيال للقيام بالهجوم المضاد وطرد الرومان . واندفعت الخيالة الى المعركة بعنف وجراة واستطاعت كبح تقدم الروم لبعض الوقت ، لكنها لم تستطع ان تصده لمدة أطول . وصد الروم هذا الهجوم المضاد وأبعدوه عن المعركة ، وعادت الخيالة الى معسكر المسلمين أيضا. وبمجرد وصول الخيالة الى المعسكر بنفس الوقت الذي وصل فيه الجنود المترجلين ، وجدوا صفاً من النساء في انتظارهم حاملين اعمدة الخيام والحجارة في أيديهن وهن يصرخن : « لعن الله الذين يفرون امام العدو » . وصرخن على ازواجهن قائلات : « انتم لستم بازواجنا اذا لم تستطيعوا انقاذنا من هؤلاء المشركين » . [1] وبدات بعض النساء الاخريات بقرع الطبول والغناء :

« يامن تهرب من امراة وفية
تملك الجمال والفضيلة
وتتركها للمشرك البغيض الشرير
لتنال العار والدمار . » [2]

ولم يتلق هؤلاء المسلمون من نسائهم اللوم والتقريع فقط ، بل تعرضوا لهجوم فعلي . في البداية قذفوهم بوابل من الحجارة ، وبعدئذ أسرعت النسوة الى الرجل مستخدمات أعمدة الخيام لضرب الخيّال وفرسه . وكان هذا أكثر من ان يتحمله المقاتل ذو الكرامة ، وعندما شعروا بما حدث منهم من تخاذل، عادوا من المعسكر وتقدموا بهياج شديد باتجاه جيش قناطير . قام عمرو بهجوم مضاد ثانٍ بمعظم قوات لوائه .

كان الموقف على ميسرة المسلمين لايقل خطورة . فالمسلمون هنا أيضا

(١) الواقدي ـ صفحة ١٤٠
(٢) الواقدي ـ صفحة ١٤٠

صدوا الهجوم الروماني الابتدائي ، ولكن اثناء الهجوم الثاني الروماني تم اختراق لواء يزيد . وكان الجيش الروماني المواجه للواء يزيد هو جيش غريفوري ، ذي السلاسل ، وهو ابطأ من الآخرين ولكنه كان أكثر صلابة . واستخدم يزيد ايضا كتيبة الخيالة لشن هجوم مضاد . ولكن تم صده ، وبعد فترة مقاومة عنيدة ، تراجع مقاتلو يزيد الى معسكرهم حيث كانت النسوة في انتظارهم ، تتقدمهن هند وخولة . وكان أول فارس يصل من الميسرة الى المعسكر هو ابو سفيان ، وكانت أول امراة تقابله هي هند وليس سواها . فضربت رأس فرسه بعمود الخيمة وصرخت فيه : « الى أين يا ابن حرب ؟ عد الى المعركة واظهر شجاعتك عسى ان تغفر خطاياك التي ارتكبتها تجاه رسول الله » . [1]

كانت لدى ابي سفيان تجربة سابقة نحو مزاج زوجته الحاد ، وعاد سريعا الى المعركة ، اما المقاتلون الآخرون فقد تلقوا نفس المعاملة من النساء كما حدث لمقاتلي عمرو ، وفي الحال عاد لواء يزيد للمعركة . وهرول عدد قليل من النسوة وسرن بجانب الفرسان المهاجمين واستطاعت واحدة منهن جندلة أحد الرومان بسيفها .

وعندما عاد مقاتلو يزيد للاشتباك مع جيش غريفوري ، ابتدات هند بنشيد اغنيتها التي غنتها يوم أحد .

« نحن بنات طارق — إن تقبلوا نعانقْ
ونبسط النمارق — أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق » [2]

ويجوز ان يسأل احد مدى ملائمة نشيد هند بهذه الاغنية المثيرة ، ولكنها شعرت بأنها لاتزال شابه للقيام بذلك . خاصة وانها لم تتجاوز الخمسين بيوم واحد .

كان الوقت الآن حوالي الظهر . وبينما كان لواءا الجناحين لجيش المسلمين

(١) الواقدي ــ صفحة ١٤١
(٢) الواقدي ــ صفحة ١٤٠

يخوضان معركتهما ، كان خالد بن الوليد يراقب المعركة من موقعه في القلب وحتى الآن لم يفعل شيئا لمساعدة هذين اللوائين ، ورفض أن ينجرّ الى المعركة مع احتياطيه قبل ان يتأكد ان ذلك هو ضروري جدا . ولكن عندما عاد اللواء الى المعركة من المعسكر الذي انسحب اليه ، قرر خالد ان يزج باحتياطيه من الفرسان لمساعدتهم والاسراع في اعادة انشاء مواقع المسلمين .

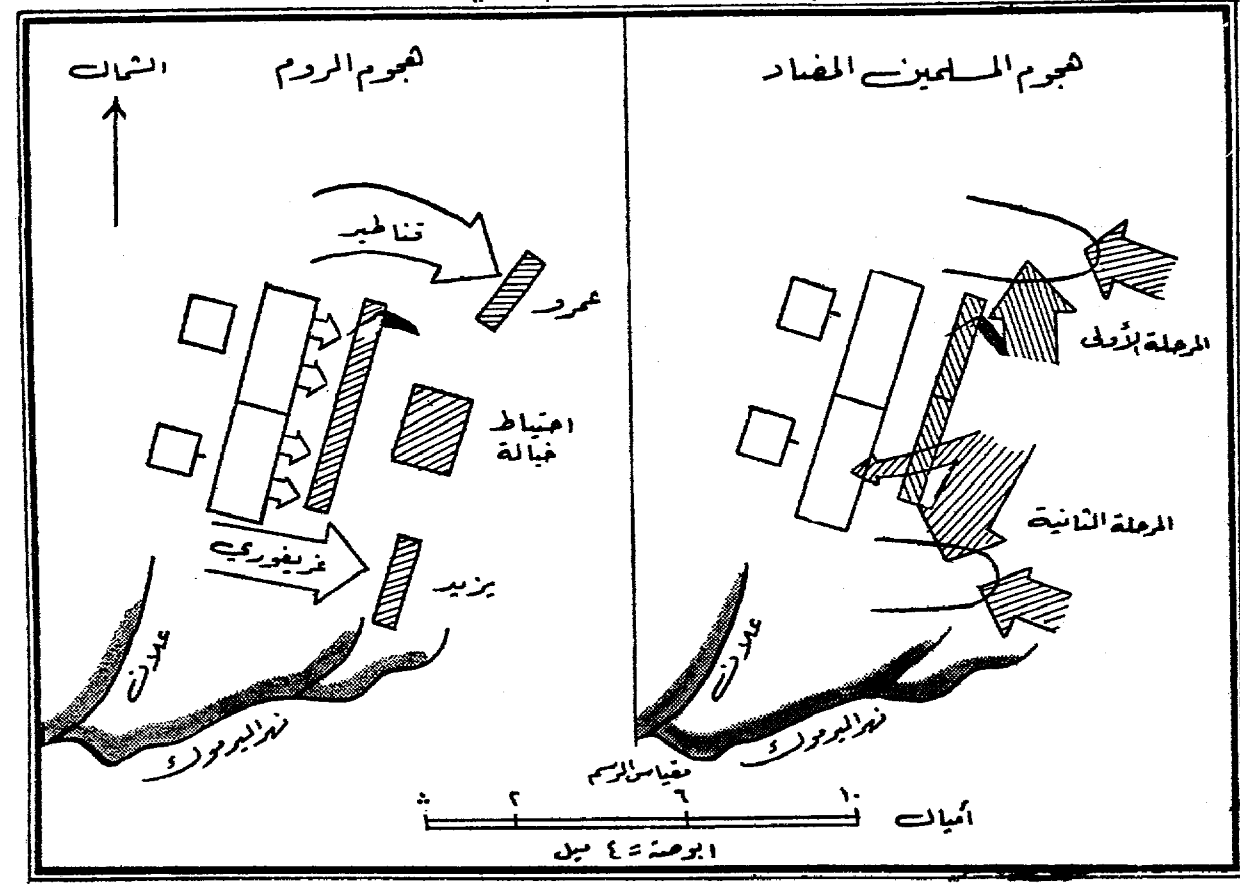
التفت خالد أولا الى الجناح الايمن فقام مع حرسه المتحرك وكتيبة الخيالة بضرب جناح جيش قناطير ، وبنفس الوقت قام عمرو بن العاص بهجوم مضاد آخر من الامام . وفي الحال هوجم الرومان من الجانبين وارغموا على التراجع الى مواقعهم الاصلية . واسترد عمرو جميع الارض التي فقدها وعمل على اعادة تنظيم لوائه ليكون مستعدا للجولة القادمة .

عندما تأكد خالد أن الوضع قد عاد الى ما كان عليه ، انتقل الى الجناح الايسر وبدأ «يزيد» الآن يضغط بهجوم مضاد كبير من الامام ليدفعالرومان الى الخلف . ووضع خالد كتيبة بامرة ضرار وأمره ان يقوم بالهجوم على مقدمة جيش ديرجان لكي يحدث تحويلا ويهدد بانسحاب الجناح الايمن للروم من موقعه المتقدم . وبباقي احتياط الجيش هاجم خالد جناح غريفوري . (انظر الخريطة رقم ٢١) . وهنا انسحب الروم مرة اخرى تحت الهجمات المعاكسة من الامام والجنب ، ولكن الانسحاب كان بطيئا بسبب ربط الجنود بالسلاسل وعدم استطاعتهم التحرك بسرعة .

عندما تقهقر الجناح الايمن للرومان ، اندفع ضرار داخل جيش ديرجان ووصل الى قائده الذيكان يقف معحرسه الخاص. وهنا قتل ضرار ديرجان. ولكن بعد ذلك ، أصبح الضغط عليه كبيرا فأجبر على التراجع الى صفوف المسلمين .

قبل غروب الشمس ، تم دحر جيشي الجناحين وطردهما الى الخلف. وعند الغروب ، قطع جيشا القلب التماس مع المسلمين وانسحبا الى مواقعهما الاصلية ، وأعيد الوضع الى ما كان عليه عند الصباح . وواجه المسلمون موقفا حرجا الا انهم عادوا واستردوا الارض التي فقدوها . وقد تحمل جناح

الخريطة رقم ٢١ – اليرموك – اليوم الثاني



المسلمين الايمن أكثر من الالوية الاخرى ، لان القتال الضاري جرى في قطاع عمرو . وعلى أية حال ، فقد انتهى القتال اليومي في هذه الفترة على تلك النقاط ، وكانت كفة المسلمين هي الراجحة .

وكانت الليلة التي تلت هادئة ايضا . وكانت النساء المسلمات مشغولات بتضميد الجرحى ، واعداد الطعام ، وجلب الماء ... الخ . وعلى العموم ، كانت روح المسلمين المعنوية عالية اذ انهم هوجموا من قبل القوة الرئيسية لجيش الروم واستطاعوا ان يصدّوا الهجوم ويردّوا المهاجمين على اعقابهم . وبقي المسلمون في حالة الدفاع ، ولم تكن الهجمات المعاكسة سوى جزء من وضعية الدفاع العامة . وعلى أية حال ، كانت الحالة في معسكر الروم سيئة . فقد قتل الآلاف منهم في هذا اليوم ، ولم يصدّ المسلمون الجيوش التي اخترقت مواقعهم من الاجنحة فقط ، بل قاموا بهجوم على قلب جيش الروم (هجوم ضرار) واكتسحوه وقتلوا قائد الجيش . وهذه كانت أكبر خسارة لان ديرجان يعتبر قائدا كبيرا ومشهورا . وعيّن ماهان قائدا آخر اسمه « قورين » ليقود جيش ديرجان ، وانتقلت قيادة الارمن الى قناطير ، قائد ميسرة الروم . وكان هذا ضروريا ، لان هجوم الروم الرئيسي في اليوم التالي سيكون ضد ميمنة المسلمين ويمين القلب .

نشبت المعركة من خلال « شرارة من النار » ، لكنها لم تصل بعد الى « درجة التأجج » ، ولكن النار مع ذلك اشتعلت بشكل مخيف عندما دخلت المعركة في يومها الثالث . وهذا ما كان ينتظره المسلمون .

لم يستطع « جيش السلاسل » ان يتحرك هذا اليوم لانه قاسى الكثير في اليوم السابق أكثر من جيش قناطير . كما أن جيش « قورين » قام بهجوم محدود على جبهة ابي عبيدة بهدف تثبيت احتياطات المسلمين . لكن الارمن ، والجناح الايسر لجيش الروم ، وكلاهما كان تحت قيادة قناطير ، ضربا بشدة ميمنة المسلمين ولواء شرحبيل ، حيث اختاروا نقطة الفصل بين شرحبيل وعمرو بن العاص كنقطة رئيسية للهجوم .

وقد صدّ الهجوم الاولي بواسطة عمرو وشرحبيل ، ولكن تفوق الروم

العددي بدات تظهر نتائجه . وقبل الظهيرة بوقت قصير ، اقتحم قناطير في عدة أماكن . وتراجع لواء عمرو الى المعسكر ، كما أن الجزء الايمن من جبهة شرحبيل قد تراجع للخلف ، بينما ظل الجزء الايسر محتفظا بمواقعه . وظهرت عدة ثغرات في جبهة المسلمين .

جاءت نساءُ المسلمين مرة أخرى الى العمل ومعهن أعمدة الخيام والحجارة والالسنة الحادة ، ومرة أخرى هرب الرجال من أمامهن وعادوا لقتال الروم . وقد أسَرَّ احد هؤلاء الرجال الى صاحبه : « إن مواجهة الروم أسهل من مواجهة نسائنا [1] .

وقد أنشأت القوة الرئيسية من اللوائين خطا ثانيا وصدَّت محاولات الروم الرامية لاختراقه . وتحول عمرو للهجوم وقام بضرب الروم بواسطة الخيالة والمشاة ، بقصد طردهم من المواقع الامامية ، وقد أحرز نجاحا قليلا في ذلك .

في هذه المرحلة ، توجهت امرأة مسلمة الى خالد وهي تحمل فكرة عسكرية طرأت في مخيلتها وطلبت من خالد ان يستفيد من هذه الفكرة — وكأن خالداً لايعرف ذلك ! وقالت : « يا أبن الوليد ، لديك خيرة العرب . فاعلَمْ ان الرجال يصمدون مع قادتهم . فاذا صمد القادة صمد الرجال . واذا هُزِم القادة هُزِم الرجال معهم [2] » .

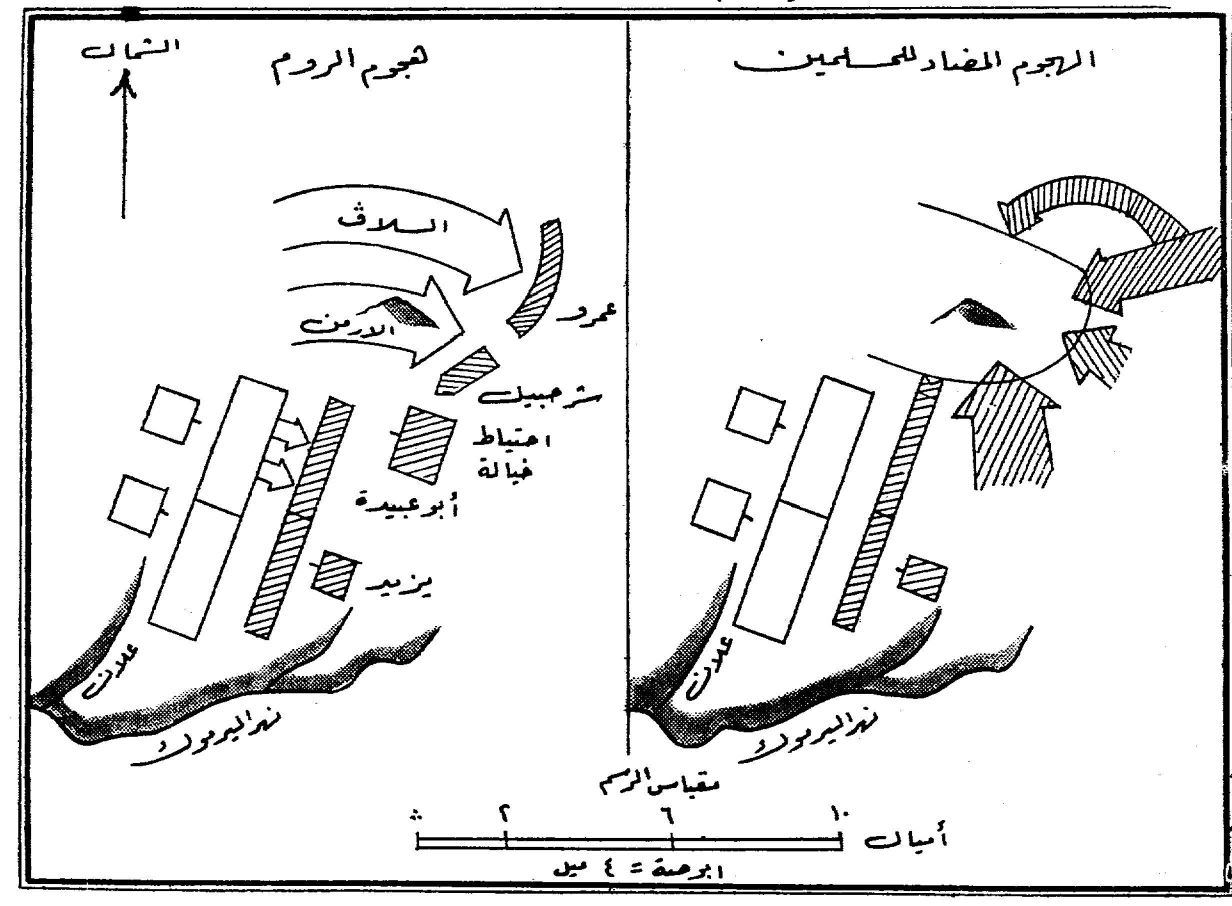
فشكرها خالد على نصيحتها وأكد لها بان القادة في هذا الجيش لايُهزمون.

شَنَّ خالد الآن احتياط الخيالة ضد جناح قناطير . وفي نفس الوقت ناورت كتيبة خيالة عمرو من اليمين وهجمت على الجناح الايسر لقناطير ، بينما قامت مشاة عمرو وشرحبيل بهجوم مضاد في المواجهة . (انظر الخريطة رقم ٢٢) . وفي هذا الوقت كانت مقاومة الروم عنيدة أمام هجوم المسلمين المضاد ، وسقط مئات المسلمين في هذه المعركة . ولكن عند الغسق ، تقهقر الروم للخلف وعاد الوضع الى ما كان عليه عند بدء المعركة .

---

(١) الواقدي — صفحة ١٤٢ .
(٢) الواقدي — صفحة ١٤٢ .

الخريطة رقم ٢٣ - اليرموك / اليوم الثالث



وكان هذا اليوم اصعب من اليوم السابق . ولكن خسائر الروم كانت أكبر من خسائر المسلمين ، وكانت الروح المعنوية في نهاية هذا اليوم عالية في صفوف المسلمين ، بينما كانت الروح المعنوية للروم منخفضة . وقد دبّ فيهم اليأس . فجميع الهجمات التي شنوها قد باءت بالفشل ، على الرغم من الخسائر الجسيمة التي لحقت بهم في الارواح ، ولم يكونوا بوضع افضل مما كانوا عليه عند بدء المعركة . وقد أنّبَ ماهان القادة الذين أقسموا على ان يعملوا بشكل افضل في اليوم التالي . ولكن اليوم التالي كان في الحقيقة اصعب يوم من أيام المعركـة .

قضى خالد وابو عبيدة ليلتهما وهما يتجولان في معسكر المسلمين ، ويشجعان الرجال المنهكين ، ويتحدثان الى الجرحى . وكانت الاصابة بالجروح لاتعني الاخلاء الى الخلف في هذه المعركة . وفي الواقع كان جرحى المسلمين الذين جراحهم خطيرة هم فقط يستريحون من القتال . اما المصابون بجراح خفيفه فكانوا يستريحون قليلا ثم يعودون للقتال .

أطلّ فجر اليوم الرابع للمعركة في جو يسوده التوتر ومليء بالتوقعات . فالروم كانوا يعلمون ان هذا اليوم سيكون حاسما ، ولهـذا فانهم سيبذلون اليوم قصارى جهدهم لتمزيق جيش المسلمين الذي صدّ جميع محاولاتهـم للاقتحام . فاذا فشل هجومهم هذا اليوم ، فانهم لن يتمكنوا من شن هجمات أخرى فيما بعد . وكانوا مصممين على حسم الموقف اليوم والا فلن يتـم ذلك قطّ .

وكان خالد يعلم أيضا ان المعركة قد وصلت مرحلة حاسمة ، وان عمليات اليوم سوف تعطي المدلولات النهائية للنجاح او الفشل . ولقد قتل الآلاف من الروم حتى الآن ، فاذا أمكن صدّ الروم في هذا اليوم مع تكبيدهم خسائر فادحة فانهم لن يحصلوا على المبادأة مرة أخرى . وعندئذ يمكن القيام بهجوم مضاد . وقد استنفذت قوى جيش المسلمين بعض الشيء . وقد تكبد رماة السهـام الموجودين في الامام خسائر كبيرة ، وبقي الفان منهم فقط في حالة جيدة تسمح لهم بالقتال . ووزع هؤلاء بمعدل خمسمائة لكل لواء . ولقد كان المسلمـون

منهكين اكثر من الروم بسبب قلة عددهم الا ان شجاعة جيش المسلمين لم تضعف أبدا .

كان جلّ اهتمام خالد بالجناح الايمن . وعلى اية حال ، فان وجود عمرو بن العاص في قيادة هذا الجناح ، أعطى تطمينات لخالد ، وكان عمرو يعتبر الرجل الثاني بعد خالد . وتَحَمَّل عمرو عبء القتال الشديد في هذه المعركة ، وكان مقدّرا له ان يستمر في تحمل هذا العبء . وعلى العموم ، كان عمرو معروفا بصلابته وشجاعته بين العرب ، ولم يكن له ندّ بين قادة الروم.

قرر ماهان ان يبدأ عملياته لهذا اليوم بالهجوم على النصف الايمن من جبهة جيش المسلمين كما فعل في اليوم السابق . فحالما يهزم هذا الجزء للخلف وتتورط احتياطات المسلمين في القتال في هذا القطاع ، فانه سيضرب بباقي جيشه على النصف الايسر من جبهة المسلمين . وطبقا لهذه الخطة تحرك جيشا قناطير وهجم السلاف والارمن على لوائي عمرو وشرحبيل . وأجبر عمرو على التراجع مرة أخرى ، ولكنه لم يتراجع للخلف مثلما حدثفي اليوم المنصرم ؛ في هذا الوقت لن يواجه المسلمون غضب نسائهم ! واستطاع لواء عمرو ايقاف السلاف على مسافة قصيرة خلف موقعه الاصلي ، وهنا انهارت مناورة الروم امام عنف هجوم المسلمين بقيادة عمرو الذي كان شاهرا سيفه ، ووقعت فيهم خسائر جسيمة .

أما في قطاع شرحبيل فقد تمكن الارمن من اختراق صفوف المسلمين ودفعهم نحو معسكرهم . وقد تم دعم الارمن بواسطة العرب النصارىالتابعين لجبلة ، وكان أخطر اختراق يجري في صفوف المسلمين . ولقد كان بمقدور شرحبيل ان يبطيء تقدم الارمن ولكنه لم يفلح في صدهم . واتضح سريعا أن اللواء لن يستطيع الصمود طويلا . لقد أصبح الآن من الضروري ان يدخل خالد باحتياطه في هذا القطاع .

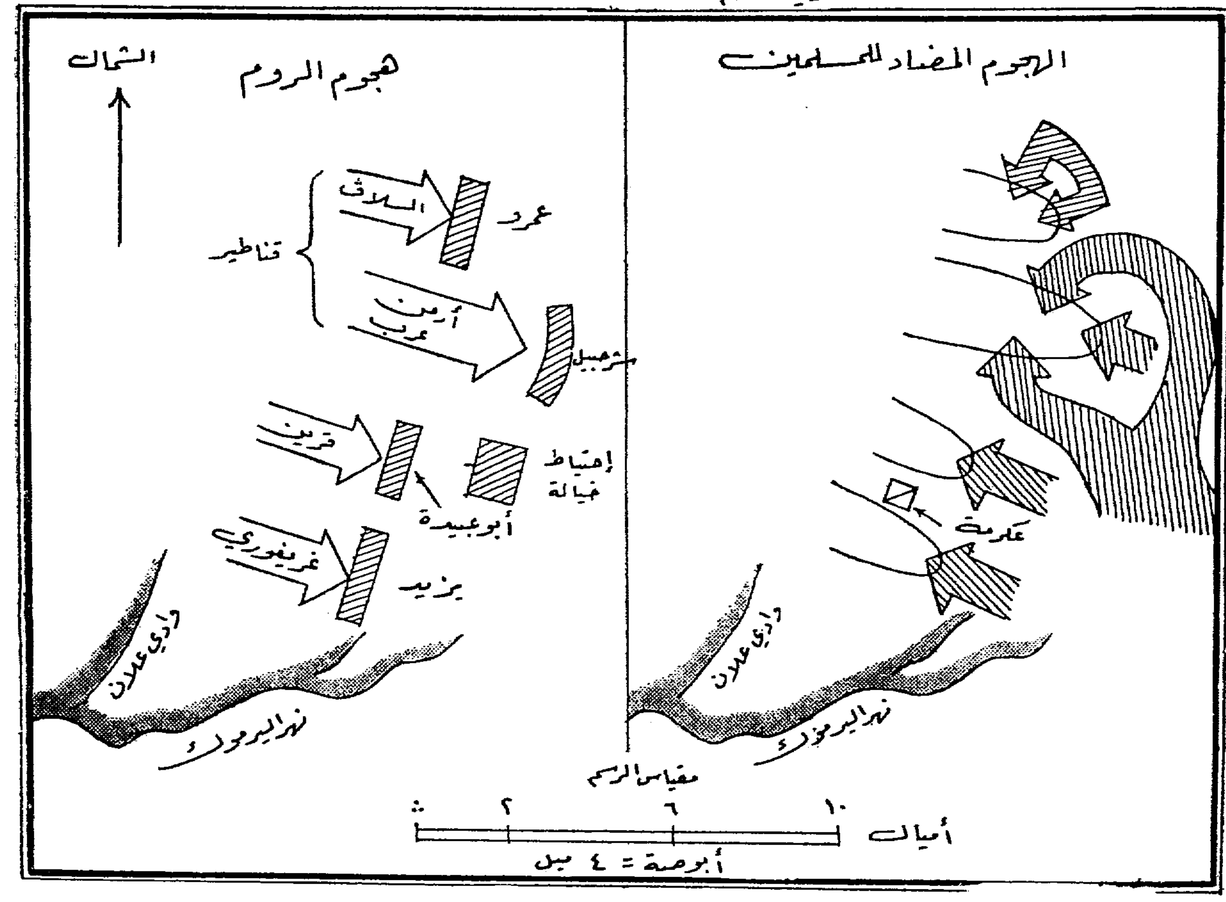
ولقد كان أكثر مايخشاه خالد هو هجوم قوي على جبهة عريضة فاذا تمكن العدو من الاختراق في عدة اماكن ، عندئذ لايمكن طرده لان احتياط الجيش لايمكن ان يكون في كل مكان بنفس الوقت . وفي اليوم الثاني للمعركة

استطاع خالد ان يعيد الوضع الى ماكان عليه عند الجناحين وذلك بالعمل عند كل جناح على حدة ، ولكن اذا استطاع الروم أن يخرقوا بقوة في عدة اماكن، عندئذ لايمكن اعادة الوضع الى ماكان عليه . ولذلك ، عندما رأى بداية نجاح الروم ضد عمرو وشرحبيل ، أمر أبا عبيدة ويزيد ان يهاجما في قطاعاتهما وبذلك يحبطوا هجوم الروم على ميسرة المسلمين في حالة شن مثل هذا الهجوم . وعند الضحى كان لواء أبي عبيدة ويزيد يشتبكان مع جيش قرين وغريغوري ، وفي نفس الوقت عندما اصبح موقف شرحبيل دقيقا ، كان كلا هذين اللوائين يضغط بشدة على النصف الايمن لجبهة الروم .

وبعد ان اطمأن خالد لميسرته ، قرر ان يهاجم الارمن ، فقسم احتياط الجيش الى مجموعتين متساويتين وكلف قيس بن هبيرة بقيادة مجموعة وتولى هو بنفسه قيادة المجموعة الثانية . وتحرك خالد بمجموعته والتف حول لواء شرحبيل وظهر امام الجناح الشمالي لجيش الارمن . وبدأ بشن هجوم معاكس ذي ثلاثة شعب ضد الارمن والعرب النصارى :

خالد من اليمين ، وقيس من اليسار ، وشرحبيل من المواجهة . (انظر الخريطة رقم ٢٣) . واحتدم القتال في هذا الجزء من ميدان المعركة حيث قاوم العدو ببسالة ، ودار قتال عنيف عدة ساعات بين المسلمين والنصارى ، ولكن اخيراً دُحر الارمن بواسطة ضربات خيّالة المسلمين ومشاتهم وتقهقروا الى مواقعهم الاصلية بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة . وفي هذا الاشتباك ، الذي دام طيلة ساعات بعد الظهر ، كانت الخسائر الكبيرة في صفوف العرب النصارى .

وعندما أجبر الارمن على التراجع ، جَدَّد عمرو بن العاص محاولاته لطرد السلاف من المواقع التي احتلوها ، وتراجع السلاف ايضا بعد ان رفضوا مساعدة الارمن لجناحهم . وبذلك تمت استعادة مواقع شرحبيل وعمرو . لكن هذا الاشتباك على ميمنة المسلمين لم ينته الا في المساء ، وبينما كان هذا الاشتباك جاريا كانت تدور رحى معركة عنيفة وقاسية على الجانب الايسر من جبهة المسلمين . ومما جعل هذا الاشتباك خطيرا هو انشغال


الخريطة رقم ٣٣ - اليرموك / اليوم الرابع
هجوم الروم
الشمال
السلاف
عمرو
قناطير
أرمن
عرب
شرحبيل
قرين
إحتياط
خيالة
أبو عبيدة
غريغوري
يزيد
وادي علان
نهر اليرموك
الهجوم المضاد للمسلمين
عكرمة
مقياس الرسم
أميال
أبوصة = ٤ ميل
١٠
٦
٢
٠

احتياط الجيش على الجانب الايمن .ولا يستطيع عمل شيء لمساعدة ابـي عبيدة ويزيد اللذين كان عليهما ان يعتمدا على قواتهما الذاتية فقط .

وبناء على اوامر خالد ، تقدم لواءا الجناح الايسر لمهاجمـة الـروم في مواقعهم ، وعندما حرّك خالد الحرس المتحرك لمهاجمة الارمن ، كـان هذان اللواءان قد اشتبكا مع الروم . في البداية حقق اللواءان بعض النجاح ، وتم دحر الروم الى الخلف . ولكن لم يمض وقت طويل على بداية هذا الاشتباك حتى وجد المسلمون انفسهم عرضة لرمايات شديدة من النبال . لقد قذف الآلاف من نبالة الروم سهامهم على المسلمين ، وكانت السهام تقذف بشـدة وبكثافة حتى ان بعض الروايات ذكرت « ان السهام كانت تسقط كالبَرَد وقد حجبت نور الشمس » .[1] وجُرح العديد من المسلمين من جرّاء هذه السهام ،وفَقَد سبعمائة مسلم عيناً واحدة من عيونهم . وكان النواح والعويل يرتفع من قطاعي ابي عبيدة ويزيد : « آه فقدت عيني ، آه فقدت بصري »[2] .

ويعتقد بان ابا سفيان قد فقد عيناً في هذا الاشتباك[3] .

ونتيجة لهذه الكارثة فقد اعتبر اليوم الرابع من المعركة « بيوم فقد العيون »[4] .

ويعتبر ذلك شهادة لمهارة رماة الروم . وكان هذا اليوم بلا شك أسوأ يوم من ايام المعركة بالنسبة للمسلمين .

لقد تراجع المسلمون الذين يقاتلون في الجناح الايسر . فأقواسهم لم تكن فعالة ضد نبالة الروم بسبب قصر مداها وقلة عددها . وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب خسائر اخرى هو الانسحاب خارج مدى نبالة الروم . وقد فعل ذلك ابو عبيدة ويزيد على الفور . وعندها قطع التماس بين الجانبين

---

(١) الواقدي ــ صفحة ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٢) الواقدي ــ صفحة ١٤٩ .

(٣) لقد لاحظنا سابقا ان ابا سفيان قد فقد عينا في الطائف ، ولكن بعض المصادر تشير الى ان ذلك قد حدث في اليرموك وليس في الطائف .

(٤) الواقدي ــ صفحة ١٤٨ .

وظلت الجبهتان هادئتين وامتنع المسلمون بحكمة عن التقدم مرة أخرى . وفي الحقيقة كان يوجد نوع من الرعب بين المسلمين نتيجة فقد العيون والجراح التي سببتها السهام .

ولكن ماهان وقادة جيشه ، غريغوري وقرين ، عندما شاهدوا الاصابات التي لحقت بالمسلمين قرروا ان يستثمروا هذه الفرصة فتقدم الجيشان الآن لمهاجمة المسلمين قبل ان يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم وبدأ الصدام بين الجانبين مرة اخرى . ونتيجة لهجوم الروم تقهقر المسلمون الى مواقعهم الاصلية . وكان الروم يعلمون ان هذا اليوم هو اليوم الفاصل للمعركة ، لذلك هاجموا بعنف وضراوة . وقد تم دحر لوائي ابي عبيدة ويزيد مرة اخرى لمسافة قصيرة ، باستثناء كتيبة عكرمة التي كانت تقف عند الطرف اليساري لقطاع ابي عبيدة .

رفض عكرمة المقدام التراجع . وطلب من رجاله أن يقسموا على القتال حتى الموت وعدم تسليم موقعهم . وعلى الفور أقسم أربعمائة من رجاله على على ذلك ، وانقضوا على الروم كالذئاب الجائعة . ولم يقتصر هجوم عكرمة على الروم المواجهين له ، بل انقض ايضا على كتائب الروم التي كانت تمر على مجنبته . ولم يسقط هذا الموقع من يد المسلمين ابدا . إن رجال عكرمة الاربعمائة الابطال الذين أقسموا على القتال حتى الموت قد اصيبوا جميعهم إما بإصابات مميتة أو بجروح خطيرة ، لكنهم قتلوا من الروم أعدادا تفوقهم بعدة مرات . وقد أصيب عكرمة وابنه عمر بإصابات مميتة .

لم يذهب لواءا ابي عبيدة ويزيد هذه المرة الى المعسكر . إنهما لم يجرؤا على ذلك ايضا ، لان النساء كنّ يحملن السيوف وقد اندفعن الى الامام وانضممن الى رجالهن . حتى النساء فهمن ان مصير المعركة يتعلق بهذه المرحلة . وجاءت النساء وهن يحملن السيوف وأعمدة الخيام لضرب الروم وجلبن الماء للجرحى والعطشى من المسلمين . وكانت بينهن خولة ، وزوجة الزبير ، وام حكيم ، التي صرخت في النساء قائلة : اضربن الروم على أذرعهم [1] . واندفعت

(١) الواقدي صفحة ١٤٩ . اما البلاذري فيذكر ان هذه الكلمات قالتها هند (صفحة ١٤١)

النساء بين الوية المسلمين حتى وصلن الى الصف الامامي ، وصممن على القتال امام رجالهن هذه المرة ، وكان عملهن نقطة تحول في هذا القطاع .

كان منظر النساء وهنّ يقاتلن مع الرجال ، مثيرا لحماس المسلمين . فهجموا على الروم بشجاعة نادرة . واستخدموا في هجومهم السيوف والحراب، واستطاع صناديد أبي عبيدة ويزيد دحر الروم عن مواقعهم . وتراجع الروم امامهم بسرعة تحت تأثير ضرباتهم الشديدة . (انظر الخريطة رقم ٢٣) .

بلغت المعركة في هذا اليوم ذروتها على طول المواجهة في ساعات بعد الظهر . وفي هذا الوقت كان جميع القادة مشتبكين في القتال مثل رجالهم ، واثبت كل قائد لواء انه قائد كفوء لرجاله الشجعان . ووقع العديد من الروم على الارض تحت عنف ضربات النساء المسلمات . واندفعت خولة نحو احد الروم ، لكن خصمها كان امهر منها باستخدام السيف ، فضربها على راسها بسيفه ، فخرت على الارض وقد اصطبغ شعرها بالدم . وعندما دحر الروم للخلف ، ورات باقي النساء جسد خولة بدون حراك بدان بالبكاء والنحيب واخذن يبحثن عن ضرار ليبلغنه بموت شقيقته الغالية . لكنهن لم يجدن ضرار حتى المساء . وعندما وصل الى المكان الذي ترقد فيه خولة ، وجدها بخير اذ نهضت وهي تبتسم .

انتهت الاعمال القتالية لهذا اليوم عند الغسق . وعاد كل جيش مرة أخرى الى مواقعه الاصلية . لقد كان يوما عنيفا ، لايمكن ان ينساه صناديد اليرموك حيث كان الروم قريبين جدا من النصر . لكن عددا كبيرا من الروم دفع حياته ثمنا لنصر لم يقدر لهم أن يحرزوه . وكانت معظم الخسائر في صفوف الروم المربوطين بالسلاسل ، والارمن ، والعرب النصارى . وخسر المسلمون أكثر من خسارتهم في اليوم السابق ، وكان عدد الجرحى أكبر من عدد الذين لم يجرحوا ، ومع ذلك فقد كان الفخر والاعتزاز بالنفس يملأ قلوبهم، وخاصة خالد ، الذي أيقن ان الازمة قد انتهت .

هنالك حادثة واحدة ينبغي ذكرها قبل ان نأتي على نهاية سرد يوم « فقد العيون » . فاثناء توقف القتال في قطاع شرحبيل ، ظهر القلق فجأة

على وجه خالد ، وهذا ادهش رجاله الذين لم يروه هكذا قط ، ولكنهم عرفوا السبب عندما امرهم ان يبحثوا عن قلنسوته الحمراء التي سقطت منه في ارض المعركة . فجرى البحث على الفور وتم العثور عليها . كان يوجد بعض الرجال الذين لايعرفون شيئا عن هذه القلنسوة فسألوا خالدا عن أمرها . عند ذلك سرد خالد قصتها قائلا :

عندما حلق الرسول الكريم شعره في حجة الوداع ، التقطت بعض شعرات من راسه . فسألني : ماذا ستفعل بها ياخالد ؟ فأجبت : سأستمد منها القوة وانا احارب أعداءنا يارسول الله . فقال : ستبقى منتصرا طالما هذه الشعرات معك .

فَحَبَكتُ الشعرات في قلنسوتي ، ولم اقابل عدواً قط إلا وهزمته ببركة رسول الله عليه الصلاة والسلام [1] .

هذه هي قصة قلنسوة خالد الحمراء ، وهي القلنسوة التي لايفارقها ابدا .

لقد هبط الظلام عندما كان خالد جالسا على الارض المضرجة بالدماء عند الطرف الايسر من قطاع ابي عبيدة . وكان راس عكرمة يستند على احدى ركبتيه ، وعلى الركبة الثانية كان يستند راس عمر بن عكرمة . لقد كان الاب والابن يحتضران . وكان خالد يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلوقهما الماء وهو يقول : « زعم ابن الحنتمة اننا لانستشهد » . [2] وهكذا مات عكرمة وابنه بين ذراعي سيف الله . فالرجل الذي ناهض ضد الاسلام عدة سنوات نال الشهادة اخيرا . إن المجد العظيم الذي احرزه المسلمون في يوم «فقد العيون» ، وهو يوم لن يرى المسلمون مثله قط في بلاد الشام ، يعود الفضل فيه الى عكرمة ابن أبي جهل .

مرت الليلة في هدوء كي ينال المنهكون والجرحى قسطا من الراحة والعناية.

---

(١) الواقدي صفحة ١٥١ .

(٢) الطبري الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٧ ، وهو يقصد بابن حنتمة = عمر ابن الخطاب ، ويقصد باننا = بني مخزوم .

وكان من عادة ابي عبيدة ان يعين قائدا مناوبا في الليل ، كانت مهمته المرور على الحرس وعلى النقاط الامامية للتأكد من يقظة الرجال لكن القادة انفسهم كانوا منهكين هـذه الليلة حتى أن أبا عبيدة طيب القلب لم يطلب من احـد منهم ان يقوم بهذه المهمة الشاقة . ومع ان سيفه كان يقطر دما مـن جراء مبارزاته مع الروم وهو بحاجة الى الراحة مثل الآخرين ، فقد قرر ان يقوم بهذه المهمة بنفسه . وبدأ على الفور جولته مع بعض أصحاب رسول الله . لكنه لم يكن بحاجة الى القلق ، فحيثما ذهب وجد القادة يقظين وهم يتجولون ويتحدثون الى الحرس والجرحى . وكان الزبير يقوم بجولته مصطحبا زوجته وكل منهما على فرسه .

وفي صبيحة اليوم الخامس للمعركة فتح الجيشان على نفس الخطوط التي اتخذوها قبل بداية المعركة . ولكن في هذا اليوم لم يكن الجنود علـى استعداد للقتال اذ كان التعب باديا عليهم . وكان يقف بجانب كل رجـل صحيح رجل" جريح . وكان بعضهم يقف بصعوبة ولكنهم وقفوا . واخذ خالد ينظر بإمعان إلى جبهة الروم ليلحظ اذا كان هنالك أي تحركات تدل على أنهم سيقومون بالهجوم مرة أخرى . ولكنه لم يلحظ اية حركة تدل على ان هنالك نية للهجوم قبل ساعة او ساعتين على الاقل . ثم ظهر رجل من قلب جيش الروم . وكان هذا مبعوثا من قبل ماهان وهو يحمل اقتراحا لعقد هدنة بين الطرفين تدوم بضعة أيام من اجل اجراء مفاوضات بين الجانبين . وكان ابو عبيدة على وشك ان يقبل الاقتراح ولكنه بالحاح من خالد أعاد المبعوث مع عدم الموافقة على الهدنة بعد ان قال له : « نحن في عجلة من أمرنا لانهاء هذا الامر [1] » .

وعرف خالد الآن ان ظنّه كان في محله ، فالروم كانوا لايرغبون في القتـال .

ومضى النهار ، وكان خالد مشغولا باصدار الاوامر للهجـوم المعاكس واتخاذ بعض الترتيبات الخاصة باعادة تنظيم الجيش . فجمع كافة كتائب

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٥٣ .

الخيالة في قوة واحدة ومعها الحرس المتحرك . وكان تعداد هذه القوة حوالي ثمانية آلاف فارس .

ان سيف الانتقام سوف يلمع غدا فوق سهل اليرموك .

بزغ فجر اليوم السادس للمعركة صافيا وواضحا . وكان ذلك في الاسبوع الرابع من آب عام ٦٣٦ م (الاسبوع الثالث من رجب ، عام ١٥ هجري) . وكان هدوء الصباح لاينذر بوقوع المجزرة البشرية التي حدثت فيما بعد . وكان المسلمون يشعرون بالنشاط الآن ، وكانوا على علم بنوايا قائدهم الهجومية وبعض تفصيلات الخطة لذلك كانوا متشوقين للمعركة . كما أن الآمال التي تجيش في صدور المسلمين هذا اليوم قد طمست ذكريات « يوم فقد العيون » الاليمة . وكانت تمتد امامهم جبهة جيش الروم الذي كان أمله اضعف لكنه كان مستعدا للقتال .

وعندما أشرقت الشمس ، خرج غريغوري قائد جيش السلاسل ، على فرسه من قلب الجيش الامبراطوري . وكانت مهمته قتل قائد جيش المسلمين بغية التأثير على معنويات صفوف وتشكيلات المسلمين . وعندما اقترب من قلب المسلمين صاح بأعلى صوته طالبا قائد المسلمين لمبارزته .

وتهيأ ابو عبيدة على الفور للخروج اليه . لكن خالدا والآخرين حاولوا منعه ، لان غريغوري كان يتمتع بشهرة كبيرة كمقاتل بارع ، وكان كذلك فعلا. وشعر الجميع بان من المفضل ان يخرج خالد لمبارزته ، لكن ابا عبيدة أصرّ على ملاقاته . وسلّم راية الجيش الى خالد وقال له : « اذا لم أعُدْ عليك ان تتولى قيادة الجيش ، الى أن يتدبر الامرَ الخليفةُ » [1] ، وخرج لملاقاة خصمه .

تقابل القائدان على ظهور الخيل ، واستلّا سيفيهما وبدات المبارزة بينهما . وكان كل منهما مبارزا ماهرا وعنده المعرفة التامة بفن استخدام السيف . واشتد الصراع بينهما وحبس الروم والمسلمون انفاسهم وهم

(١) الواقدي ـ صفحة ١٥٣ .

يراقبون المبارزة العنيفة . وبعد بضع دقائق من المبارزة ، انسحب غريغوري من المبارزة وأدار حصانه وبدأ يتراجع للخلف . وتعالت الهتافات من بين صفوف المسلمين لهزيمة القائد الروماني ، لكن ابا عبيدة لم يظهر اي ردّ فعل . وثبّت عيناه على الروماني المتراجع ، واسرع للتحاق بخصمه .

ولم يكد يبتعد غريغوري بضع مئات من الخطوات حتى لحق به ابو عبيدة . وهنا عمد غريغوري الى الإبطاء في سيره حتى يلحق به ابو عبيدة ، وعندما اصبح ابو عبيدة بجانبه رفع سيفه وهوى به على أبي عبيدة . لقد كان هربُ غريغوري حيلةً لكي يأخذ خصمه على حين غرة . لكن ابا عبيدة لم يكن تلميذا مبتدئا ، فهو يعرف فن استخدام السيف اكثر من غريغوري. فعندما رفع غريغوري السيف كان ذراعه يمتد الى اعلى مدى ، وفي هذه اللحظة فاجأ ابو عبيدة خصمه بضربة على قاعدة عنقه ، وسقط السيف من يده وهوى على الارض . وظل ابو عبيدة على ظهر فرسه بضع دقائق وهو ينظر الى ضخامة جسم القائد الروماني . ثم عاد الى صفوف المسلمين تاركا وراءه درع الروماني الموشّى بالاحجار الكريمة والذهب وأسلحته ، دون ان يهتم بمثل هذه الاشياء الدنيوية .

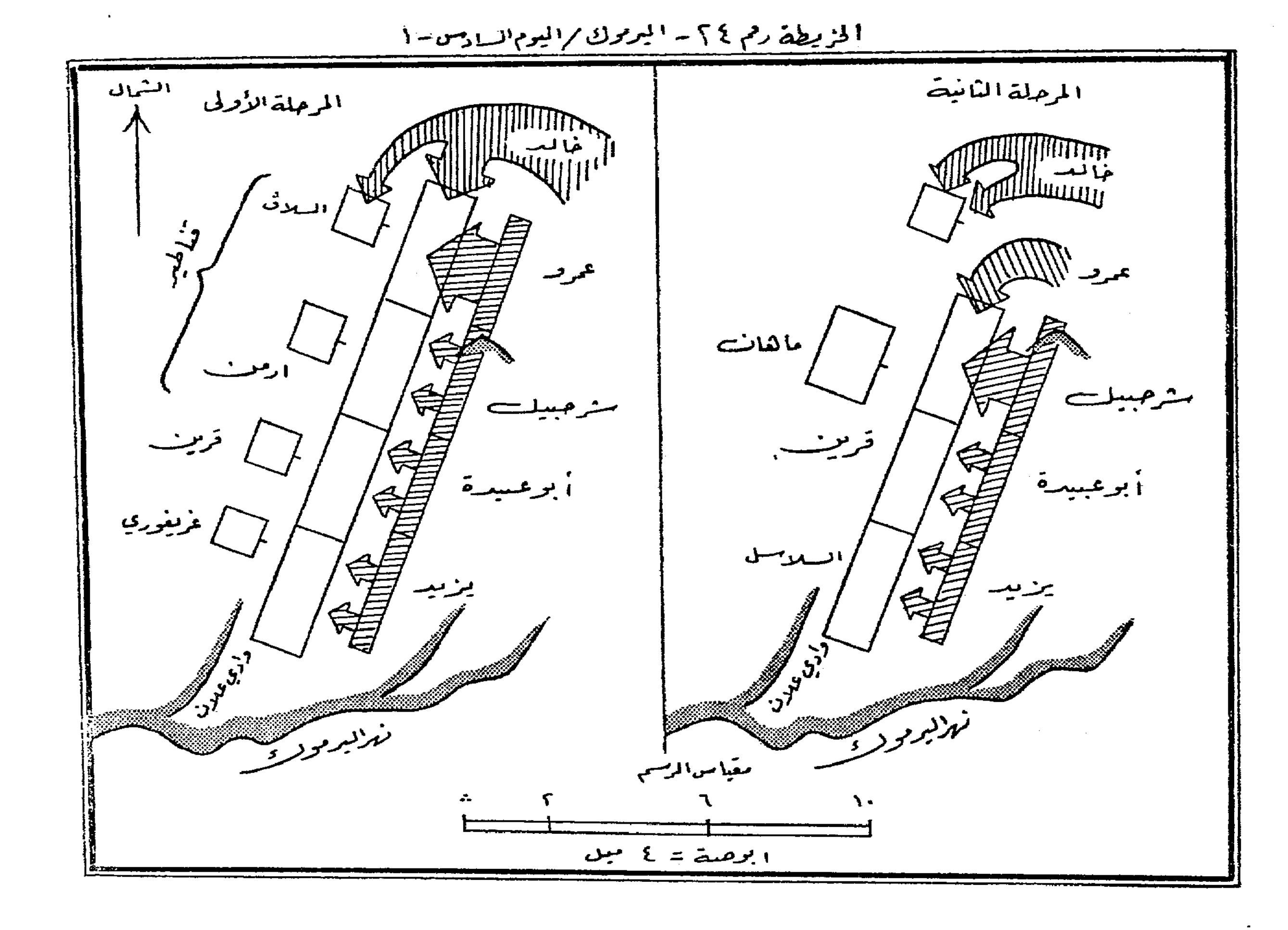
وعند عودة أبي عبيدة ، ذهب خالد للالتحاق بالخيالة الذين تمركزوا خلف لواء عمرو بن العاص . وعند وصوله أعطى الاشارة للهجوم العام وزحف جيش المسلمين للامام . وهاجم قلب جيش المسلمين وميسرته جيوشَ الروم في مواقعهم دون ان يشدّدا الهجوم . والتفّتْ الخيالة حول جنب الروم الايسر . ومن هنا أرسل خالد كتيبةً للاشتباك مع خيالة ميسرة الروم، وقام مع باقي الخيالة بضرب مجنبة الجناح الايسر للروم (السلاف) بنفس الوقت الذي هاجم فيه عمرو من الامام بعنف شديد . كان السلافيون محاربين أشدّاء ، فدافعوا عن انفسهم بشجاعة فترة من الوقت ، ولكن نظرا لعدم دعمهم بواسطة خيالتهم ولمهاجمتهم من الامام والجنب ، فقد دُحروا في النهاية . وتراجعوا تحت تأثير ضربات خالد وعمرو نحو قلب جيش الروم- أي نحو الارمن .

وعندما تداعى جناح الروم الايسر ، حَرّك عمرو لواءَه الى الامام ،ثم الى اليسار حيث واجه ميسرة الروم وبذلك أصبحت مجنبة الارمن مكشوفة، وكانت الفوضى تسود صفوف هذه المجنبة بسبب وصول السلاف المنهزمين. وفي غضون ذلك أسرع خالد بدفع خيالته واشتبك مع خيّالة ميسرة الروم ، التي تم ايقافها بواسطة الكتيبة التي أرسلها خالد منذ وقت قصير . وبدأت المرحلة الثانية من هجوم المسلمين بأن قام شرحبيل بمهاجمة جبهة الارمن بينما قام عمرو بمهاجمة مجنبتهم . ثم هجم خالد على خيّالة ميسرة الروم وطردها من مواقعها الى الخلف. وبما ان هذه المجموعة من الخيّالة قد تلقت ضربات قوية من خالد ، فقد هربت شمالا حيث الامان . إنها قاست بما فيه الكفاية في هذه المعركة . (انظر الخريطة رقم ٢٤) .

سوف لا احاول ان اشرح خطة خالد لانها ستتوضح للقارىء من خلال سير المعركة . ولكن هنالك نقطة واحدة ينبغي ذكرها وهي تتعلق بنوايا خالد نحو خيالة العدو . لقد صمّم خالد على طرد خيّالة العدو من ميدان المعركة لكي تبقى المشاة ، وهي تشكل القوة الرئيسية لجيش الروم ، بدون دعم من الخيالة وهكذا تصبح المشاة عاجزة عندما تهاجم من الجنب والمؤخرة . ففي العمليّات سريعة التحرك تعتبر الخيّالة « الشريك المسيطر » وبدونها تصبح المشاة غير قادرة على التحرك بسرعة وانقاذ نفسها عندما يتغير الموقف في غير صالحهـا .

في نفس الوقت الذي تم فيه طرد خيّالة ميسرة الروم بواسطة خالد، كان ماهان قد حشد باقي خيالته في جيش واحد قوي خلف قلب الروم للقيام بهجوم مضاد واستعادة المواقع المفقودة . ولكن قبل ان تتمكن قوة الخيّالـة هذه من القيام بأية مناورة ، هوجمت مـن الامام والجنب مـن قبل خيّالة المسلمين . وقاتل الروم فترة من الوقت ببسالة نتيجة تشجيع ماهان المقدام لهم ، لكن في مثل هذا الموقف المائع ، فان الخيالة الثقيلة لاتقارن بخيالة خالد الخفيفة والسريعة التي تستطيع الضرب ، والتملّص ، والمناورة ، والضرب مرة اخرى . واخيرا عندما رات خيالة الروم ان لافائدة ترجى من القتال ، قطعت

الخريطة رقم ٤٢ - اليرموك / اليوم السادس - ١



التماس مع المسلمين وهربت الى الشمال ومعها القائد ماهان . وبذلك تركت خيالة الروم المشاة تحت رحمة الاقدار . وكان عدد الذين هربوا مع ماهان اربعين الفا من الخيالة ، وكانوا يتألفون من خيالة الروم النظاميـــة وخيالة العرب النصارى ، وهذه كانت بإمرة جبلة بن الأيهم .

لم يُشاهَدْ ضرار في اشتباكات الخيالة هذا الصباح . وافتقد المسلمون المنظر المألوف للمحارب « عاري الصدر » الذي كان يصول ويجول في مثل هذا النوع من الاشتباكات . ولم يكونوا يعرفون اين هو ، كما ان خالدا لم يخبرهم .

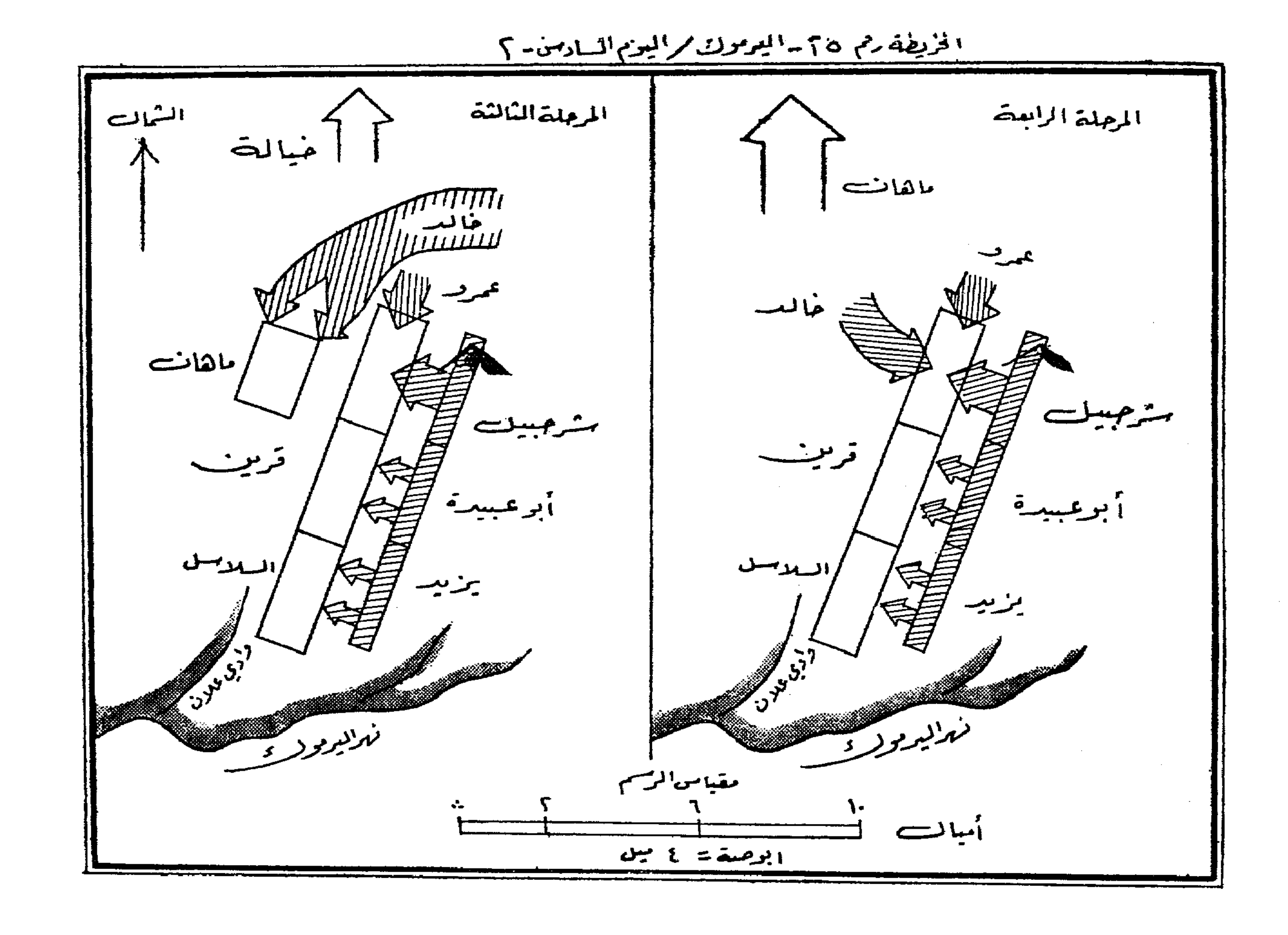
في اثناء ذلك كان الأرمنُ يقاومون ببسالة محاولات عمرو وشرحبيـــل لسحقهم ، واستطاع لواء المسلمين من احراز بعض التقدم ، ويمكن ادراك ذلك لان الارمن كانوا محاربين اشداء » . [1] وكان ابو عبيدة ويزيد ايضا يهاجمان الروم في مواجهتهما (مع ان مهمتهما كانت ثانوية وهي تثبيت الروم) ، لكنهما صُدّا بواسطة جيش قنرين وجيش السلاسل . وفي هذه المرحلة التفت خالد الى الارمن ، بعد ان طرد خيالة الروم من ميدان المعركة ، فهاجمهم من المؤخرة . (انظر الخريطة رقم ٢٥) . وامام الهجوم ذي الشُعَب الثلاث انفرط عقـــد الارمن . وبعد ان تركوا مواقعهم ، هربوا باتجاه جنوب غرب — وهو الاتجاه الوحيد المفتوح لهم ، وقد دُهشوا كثيرا لان خيالة المسلمين لم تحـــاول ان تتدخل بانسحابهم وكان بمقدورهم ان يفعلوا ذلك . لقد ساروا في الاتجاه الذي وجدوا فيه الامان . ولكنهم لم يعلموا ان هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي يريدهم خالد ان يسيروا فيه .

وعندما انهار جيش الارمن واختلط بشكل فوضوي بفلول جيش قناطير السلاقي ، هرب باتجاه وادي الرقّاد ، وايقنت جيوش الروم المتبقية عـــدم الفائدة من بقائها في مواقعها لان مجنباتها ومؤخراتها اصبحت مكشوفة تماما . لذلك بدأت هذه الجيوش ايضا بالانسحاب بانتظام واتخذت طريقها نحـــو الغرب . وهنا ايضا لم يتم اعتراض حركة الروم من قبل خالد .

---

(١) يصف Gibbon في كتابه : « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانيـــة » الارمن بأنهم كانوا اكثر رعايا الروم حبا للحرب .

الخريطة رقم ٢٥ - اليرموك / اليوم السادس - ٢



ولم تكد الشمس تصل الى كبد السماء حتى كانت مشاة الروم في تقهقر تام ، وقد هرب جزء منها بذعر ، والجزء الآخر انسحب بانتظام . واتجهت نحو وادي الرقاد . وسارت ألوية المسلمين خلف الروم المنسحبين ، وكانت هذه الالوية قد أعيد تنظيمها في صفوف منتظمة ومواجهات أقصر . وتحركت خيالة المسلمين الى شمال جيش الروم لكي لايتمكن احدٌ من الهرب في ذلك الاتجاه، مع ان آلاف السلاف والارمن قد تمكنوا من الهرب قبل اغلاق طريق الهرب. وبهذه الطريقة أغلق المسلمون طرق الفرار أمام جيش قيصر المنهزم [1] .

عندما هرب الروم من ميدان المعركة ، كان همّهم الوحيد هو جعل مسافة كبيرة بينهم وبين المسلمين . وكانوا يعلمون ان طريق الهرب الشمالي قد أغلق من قبل خيّالة المسلمين ، ولكن كان يوجد محور آخر للهرب بعد اجتياز وادي الرقاد عبر مخاضة ، وهو طريق جيد . وكان القادة يسيرون أمام جنودهم باتجاه المخاضة . وعندما وصلت كتيبة المقدمة الى المخاضة ، اندفعت الى المنحدر الشرقي للوادي وبدأت باجتياز جدول الماء . ولم يكن المنحدر الشرقي سيئا عند هذه النقطة كما هو الحال في اجزاء أخرى من الوادي ، لكن المنحدر الغربي كان أكثر صعوبة بسبب انحداره الشديد ، وقرب القمة كان يوجد هوة سحيقة على جانبي الطريق ، وتشكّل بذلك عنق زجاجة حيث يستطيع حفنة من الرجال البواسل ايقاف جيش بكامله .

وبدأ الرجال الذين في المقدمة صعود الطريق الموجود على الضفة الغربية للوادي ، وهم فرحين بهربهم من سهل اليرموك . وعندما وصلوا الى القمة فقط شاهدوا مجموعة من المسلمين تقف فوقهم وكان أفرادها شاهرين

---

(1) ان رواية بعض الكتاب الغربيين ، التي تعزو هزيمة جيش الروم الى استغلال خالد لعاصفة رملية شديدة هبت في وجوه الروم ، غير صحيحة على الاطلاق . ولم يذكر اي مؤرخ اسلامي شيئا عن هذه العاصفة . ويذكر Gibbon (الجزء ٥ ، صفحة ٣٢٧) انه طبقا لرواية « ثيوفانس » كان يوجد « سحابة من تراب وريح شديد » ، ولكن الطفل فقط يستطيع ان يتخيل ان جيش المسلمين المؤلف من ثلاثين ألفا من الجنود الاشداء ، والمنتشر على مواجهة أحد عشر ميلا ، يمكن ان يخوض المعركة بهذه السرعة ، والمناورة الرائعة لمجرد انه استغل عاصفة هوجاء . وفي وقت كانت المواصلات مقتصرة فيه على راكبي الخيل . وما هذه الرواية الا محاولة من المؤرخين الغربيين المتعجرفين لايجاد مبرر لهزيمة الروم .

سيوفهم . وكان على راس المجموعة محارب شاب ، نحيل الجسم ، عاري الصـدر !

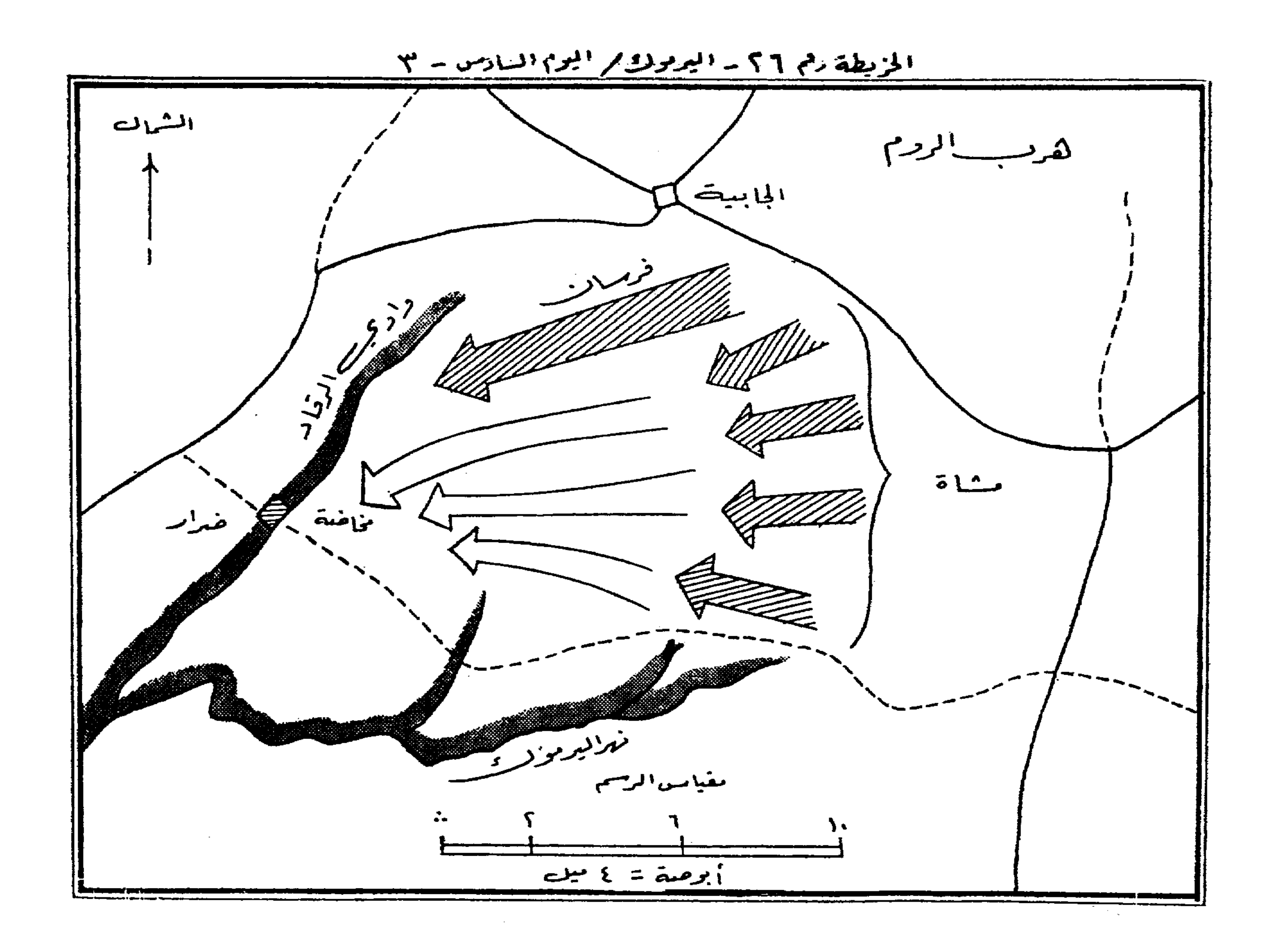
كان خالد قد أرسل خلال الليل ضرار ومعه خمسمائة خيال من الحرس المتحرك للالتفاف حول ميسرة الروم ، والوصول الى خلف وادي الرقاد ، واحتلال موقع لسد" الطريق عند الضفة البعيدة للوادي . وكان مـع ضرار دليل" يدعى « ابو جُبير » [1] وهو من العرب النصارى ، وقـد نفّذ ضرار التحرك بكفاءة تدعو للاعجاب . وقد استطاع ضرار تأمين الضفة الغربيةلوادي الرقاد ، دون ان يعلم الروم بذلك ، واخفى رجاله قرب المخاضة . وكان الروم يعتبرون أن اجتياز وادي الرقاد من الجهة البعيدة ذو اهمية تكتيكية.ووقف ضرار مع رجاله على قمة الضفة الغربية ، وهم ينظرون الى الروم المنهكين الذين يصعدون المنحدر . (انظر الخريطة رقم ٢٦) .

وفي الحال انهمرت رشقة من الحجارة على الروم . وحاول عدد قليـل منهم الوصول الى القمة ، ولكنهم قتلوا على الفور . وتراجعت العناصر التي كانت في الامام ، ووقعت على الرجال الذين كانوا في الخلف ، وهؤلاء وقعوا على الذين خلفهم وهكذا ، بسبب تعرضهم لسيل من الحجارة . وعندما هجم ضرار على الروم ، هبطوا وهم يصرخون ويتدحرجون راسا على عقب حتى استقروا في اسفل الوادي .

وعندما رأى الروم الموجودون على الضفة الشرقية ما حل" بكتيبة المقدمة توقفوا في مكانهم . وبدا واضحا ان طريق الهرب هذا كان مغلقا ايضا . ولم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء لزحزحة ضرار بسبب ضيق المعبر الذي لايسمح بالمناورة ، لذا تحول الجيش الروماني للدفاع عن نفسه ضد الهجوم الوشيك من الشرق . ونشر قادة الجيش ، الذين مازالوا مع الجيش ، كتائبهم بصـورة عاجلة للدفاع جاعلين ظهورهم باتجاه وادي الرقاد ومركزين مجنبتهم اليمنى على نهر اليرموك . وقد وقعوا بين نارين ــ المسلمين والوادي ــ ولم يستطيعوا ان يقرروا أيهما كان اسوأ .

(١) الواقدي ــ صفحة ١٥٢ .

الخريطة رقم ٢٦ - اليرموك / اليوم السادس - ٣

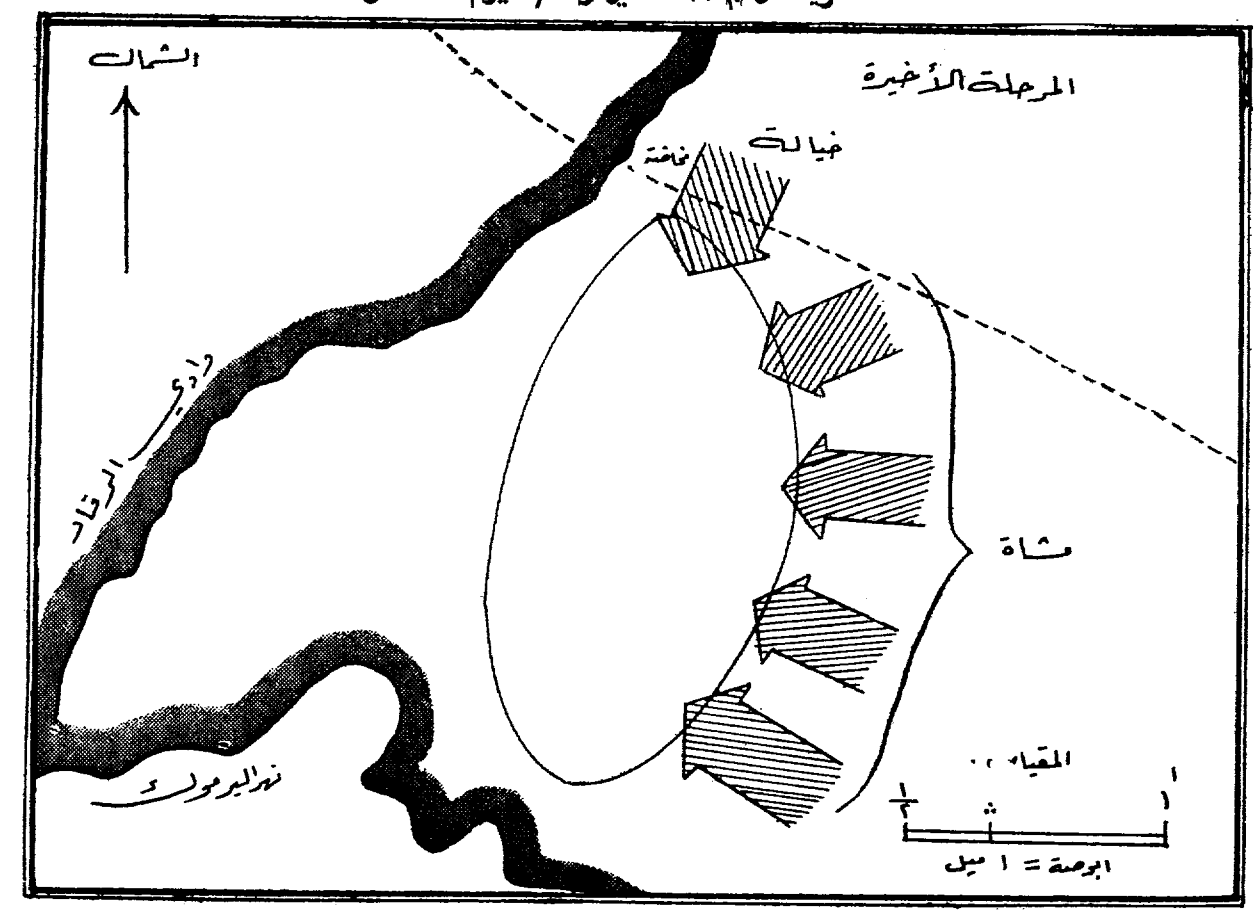


وبعد ظهر اليوم السادس من المعركة ، بدات المرحلة الاخيرة من هجوم المسلمين . (انظر الخريطة رقم ٢٧) . وقد بقي ثلث جيش الروم فقط في هذه الزاوية المزدحمة من سهل اليرموك ، وكان يقف أمام هذه الزاوية المسلمون على شكل نصف دائرة منتظمة ، وكانت المشاة تقف ناحية الشرق والخيالة في الشمال . وكانت قوة المسلمين هنا اقل من ثلاثين الفا . لقد انتهى الآن وقت المناورة والقيادة . فمهارة القائد قد وضعت القوات في الموقف النموذجي للقتال ، والامر متروك للجنود لكي يقاتلوا وينتصروا . واستلّ القادة سيوفهم واصبحوا مقاتلين مثل الآخرين ، كأسُود الصحراء الذين تحركوا للضربة الاخيرة القاتلة .

واستخدم المهاجمون السيوف والرماح ضد الكتل البشرية المضطربة والواقفة أمامهم . وكان الروم في بعض الاماكن محتشدين بكثافة لدرجة انهم لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم ، ولكن صفوفهم الامامية قاتلت بشجاعة بطولية وحاولت ايقاف موجة الهجوم ولكن بدون جدوى . وسرعان ما انهارت مقاومتهم ، وبدأت الصفوف تنهار الواحد تلو الآخر بينما كان المسلمون يتقدمون عبر هذه الصفوف وهم يضربون الروم بعنف وضراوة . وتدافع الروم وهم يهربون واختلط الحابل بالنابل وقتل الكثيرون ممن لم يكن لديهم القوة الجسدية الكافية تحت اقدام بعضهم البعض . ثم انضمت مفرزة ضرار الى خيالة المسلمين وبدأ الضغط على الروم بشكل أكثر ودفعهم باتجاه الزاوية حيث حُرموا من حرية العمل . واخذ فرسان خالد يَطَـؤون الروم بقوائم خيلهم وحوافرها . واختلطت صرخات الروم بصيحات المسلمين عندما كانت تنهار آخر مقاومة ، وتحولت المعركة الى مجزرة وكابوس من الرعب . وتم دحر الروم وقهرهم بشكل نهائي ، وهربوا بشكل غير منتظم . وقد تمّ اجتياحُ الذين كانت لديهم رغبة في القتال من قبل زملائهم الهاربين والمذعورين ، وخاصة في جيش السلاسل حيث كانت المجموعات المؤلفة من عشرة افراد تسقط على الارض معا .

ووصل الروم ، الذين كانوا يتراكضون كقطيع الماشية المذعورة ، الى حافة

الخريطة رقم ٢٧ ــ اليرموك / اليوم السادس ــ ٤



الوادي . وكان المنظر مخيفا في اسفل الوادي ، ولكن هـذا كان آخر هجوم عنيف للمسلمين . وقد ضغط الذين جاؤوا من الخلف على هؤلاء الموجوديـن عند حافة الوادي ، وبدات صفوف جيش الروم تسقط في الهاوية الواحد تلو الآخر . وكانت صرخات المتدحرجين تستمر حتى تصل أسفل الوادي وافرادها تتضرج دما ، بينما خفتت صرخات آخرين بعد اصطـدام اجسادهم بالصخور البارزة ، وكانت جثثهم تستمر في الهبوط الى اسفل الوادي ككتـل لحمية مضرجة بالدم بعد ان فقدت معالمها الآدمية .

وعندما توقف آخر روماني عن الحركة كان الليل قد ارخى سدوله . وبذلك انتهى هذا اليوم الرهيب ، وانتهت معه أعظم معركة خاضها خالد .

وفي صباح اليوم التالي ، بينما كان باقي الجيش يجمـع غنائم الحرب ويدفن الشهداء ، انطلق خالد مع خيالة المسلمين علـى الطريـق المؤدي الى دمشق على أمل اللحاق بماهان . وكان القائد العام الروماني ، الذي كان كسير القلب بسبب إبادة جيشه والذي كان لايشك لحظة بان المسلمـين سيقومون بالمطاردة ، يتحرك بدون سرعة . وحوالي بعد الظهر تمكن خالد مـن اللحاق بالروم قبل وصولهم الى دمشق ببضعة اميال ، وقام على الفور بمهاجمة حرس المؤخرة . وهرع ماهان الى حرس المؤخرة ليشرف على الاشتباك ، فقتل ماهان، ملك ارمينيا والقائد العام للجيش الامبراطوري على يد فارس مسلم . وبعـد موته مباشرة ، انقسمت خيالة الروم الى مجموعات ، وبدات بالهرب من براثن خالد واتجهت نحو الشمال والغرب .

وخرج اهالي دمشق الآن لتحية خالد . وذكّروه بالمعاهدة التي عقدهـا معهم عند استسلام المدينة قبل سنتين ، فاكد لهم خالد بانهم مازالوا تحت حمايتهـا .

وفي اليوم التالي عاد خالد الى جيش المسلمين في سهل اليرموك .

كانت معركة اليرموك اكبر كارثة حلّت بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث انهت الحكم الروماني في بلاد الشام . وفي الشهر التـالي غادر هرقـل

انطاكية الى القسطنطينية عن طريق البر" . وعندما وصل الى الحدود بين بلاد الشام وبلاد الروم نظر باتجاه الشام وقال بصوت حزين : « تحية لك يا بلاد الشام ! ووداعا . فلن يعود اليكِ الروم أبدا إلا في خشية . ما اجملها من بلاد اتركها للعدو [١] » .

كانت موقعة اليرموك ، كعملية عسكرية ، تضم أشكالا تكتيكية كثيرة مثل : الهجوم الجبهي ، والاختراق الجبهي ، والهجوم المعاكس وصدّه ، والهجوم من الجنب ، والهجوم من المؤخرة ، والمناورة حول الاجنحة . وكانت خطة خالد بالبقاء في وضعية الدفاع حتى يتم انهاك الروم قد نجحت بشكل يدعو للإعجاب . وخلال مرحلة الدفاع التي دامت اربعة ايام كانت كل ضربة هجومية من قبل خالد تعتبر مناورة تكتيكية محدودة لاستعادة توازن الدفاع . ولم يشن خالد هجومه المضاد الا بعد ان تأكد ان الروم قد اصيبوا بخسائر كبيرة وانهم غير قادرين على القتال الهجومي ، وذلك في آخر يوم من ايام المعركة . وفي هذا اليوم تمكن من زعزعة موقع الروم من الجنب ، ولكن فقط بعد ان فَصَل الخيالة عن المشاة وجعل هؤلاء عاجزين عن القتال لوحدهم . ثم طرد مشاة الروم الى الزاوية الكائنة بين وادي الرقاد ونهر اليرموك حيث كان ضرار بانتظارهم مع مفرزته عند معبر الوادي كي لايستطيع احد من الهرب ، وشن" هجومه الكاسح الاخير . وقد هَشّمت مطرقةُ المسلمين جيشَ الروم على سندان وادي الرقاد وجعلته هباء منثورا .

من المعروف ان المسلمين قد فقدوا في هذه المعركة أربعة آلاف شهيد ، وكان عدد الذين لم يصابوا بجراح قليل جدا ، لكن ارقام خسائر الروم متباينة. فالواقدي يذكر عددا كبيرا مبالغا فيه . ويذكر الطبري ان عدد قتلى الروم مائة وعشرون الفا [٢] ، ثم يعود فيذكر ان عددهم ، حسب رواية ابن اسحاق ، سبعون الفا [٣] . ويقدرهم البلاذري أيضا بسبعين الفا [٤] . ويبدو ان هذا

---

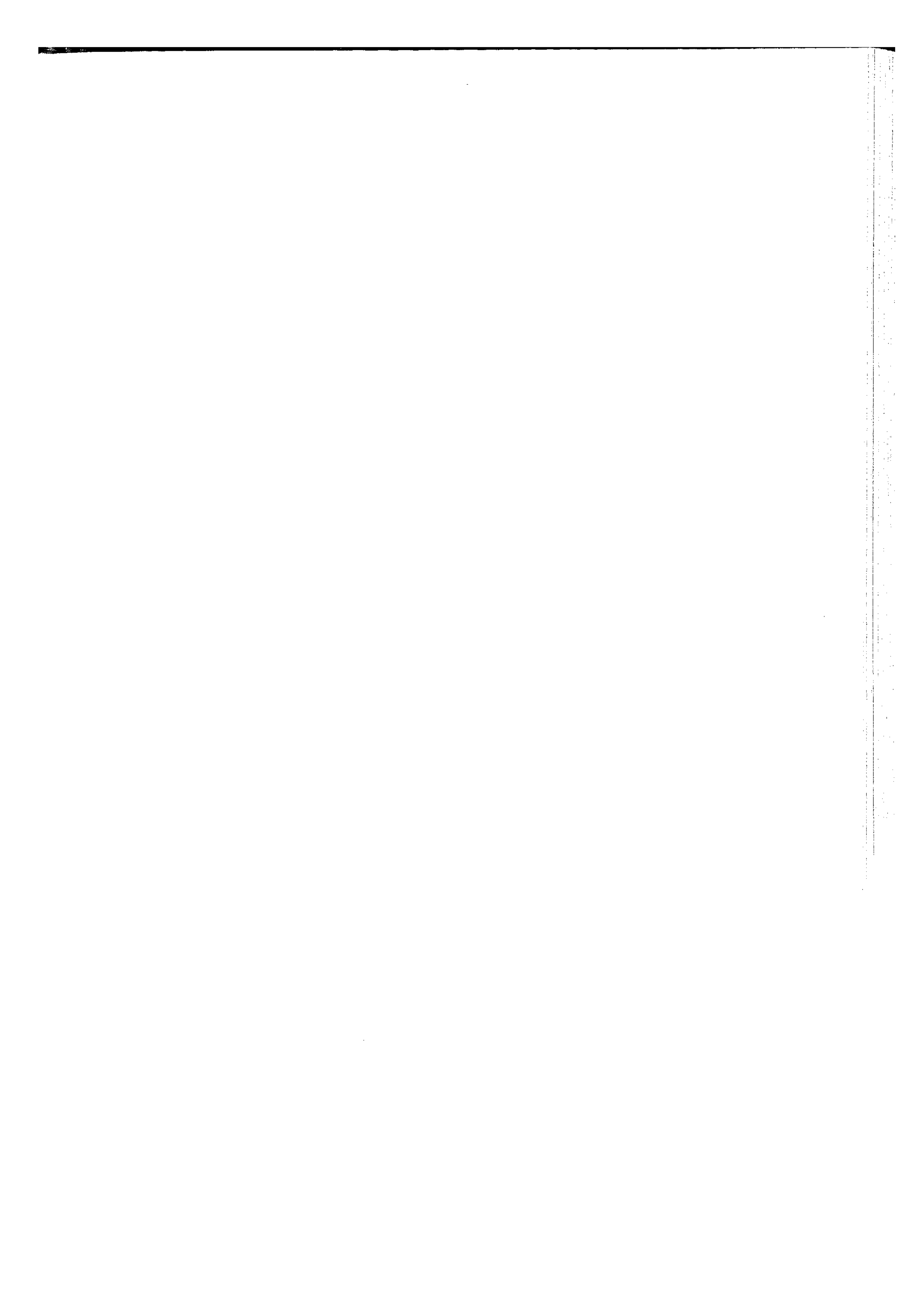
(١) الطبري ـ الجزء ٣ ـ صفحة ١٠٠ ، والبلاذري ـ صفحة ١٤٢ .
(٢) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٦ .
(٣) الطبري ـ الجزء ٣ ، صفحة ٧٥ .
(٤) البلاذري ـ صفحة ١٤١ .

الرقم الاخير هو المعقول اذ ان هذا العدد يشكل ٤٥٪ من جيش الروم . وقد قتل نصف هذا العـدد في سهـل اليرموك ، وسقط النصف الآخر في الوادي السحيق . واستطاع حوالي ثمانين الفا من الهرب ، وكان معظمهم يمتطـون الخيل والإبل ، بما فيهم أولئك الذين هربوا قبل ان يُحكم المسلمون الطوْق. ومن الممكن أيضا ان يكون عدد كبير قد استطاع اجتياز وادي الرقّاد من اماكن غير منحدرة ويسهل عبورها .

كانت معركة اليرموك نصرا مؤزرا للاسلام ، وكان سهل اليرموك ووادي الرقاد أكبر دليل على ذلك . ففي السهل واسفل الوادي كانت عشرات الآلاف من جثث الروم مبعثرة هنا وهناك . وكانت تشاهد أسوأ دلائل المذبحة عند زاوية السهل وفي الوادي السحيق نفسه الذي كان ممتلئا بالاجساد البشرية. وكانت الاجساد المشوهة والممزقة تُرى في كل مكان وهي بأوضاع غريبـة . فالاجساد الملطخة بالدم تقبع على الارض المخضّبة بالدماء وهي بدون أطراف، وعيون القتلى تحدّق في خلود الموت دون أن ترى شيئا . وكان الآلافُ من الروم مُمَدّدين على الارض والسيوف المهشمة بأيديهم، وقد كانوا صادقين في قَسَمِهِم الذي قطعوه على انفسهم في اليوم السابق للمعركة . وكان عدد لا يُحصى من القساوسة بين جثث الروم وهم يقبضون على الصلبان بأيديهم . وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المتآكلة والتي تسبب الغثيان تملأ الجو فوق سهل اليرموك .

لقد تمّ خوض معركة بطولية كبيرة ، وتم احراز نصرٍ عظيم .

* * *



إتمام الفتح

بعد معركة اليرموك انسحب ماتبقى من جيش الروم بسرعة الى شمال سورية والى الجزء الشمالي من ساحل البحر الابيض المتوسط . وكان جنود الروم المهزومون ، الذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة اليرموك ، في حالة لاتسمح لهم بخوض المعارك . وكذلك كان جنود المسلمين المنتصرون في حالة من الإعياء لاتسمح لهم بخوض المعارك . وأرسل ابو عبيدة مفرزة لاحتلال دمشق، وظل مع باقي جيشه في منطقة الجابية مدة شهر كامل . واستراح الرجال خلال هذه المدة ، وتم جمع واحصاء وتوزيع الغنائم ، وأعطي الجرحى وقتاً للشفاء . وكان هنالك الكثير من الامور الادارية ، وهذا ماجعل القادة مشغولين .

في أوائل عام ٦٣٦ م (أواخر شعبان ، عام ١٥ هجري) ، عقد ابو عبيدة مجلس حرب لبحث خطط المستقبل . وكانت الآراء مختلفة حول الاهداف التالية بين القدس وقيسارية . وكانت هاتان المدينتان هامتين في نظر أبي عبيدة ، فهما قد قاومتا جميع محاولات المسلمين للاستيلاء عليهما . وعندما لم يستطع ابو عبيدة ان يتخذ قرارا حول ذلك ، كتب الى عمر طالبا تعليماته. فأمره الخليفة بفتح القدس . لذا سار ابو عبيدة نحو القدس بجيشه منطلقا من الجابية ، وكان خالد مع حرسه المتحرك في مقدمة الجيش . ووصل المسلمون الى القدس في أوائل تشرين الثاني تقريبا ، فانسحبت حامية الروم الى المدينة المحصنة .

استمر حصار القدس اربعة اشهر بدون انقطاع . ثم عرَض بطريرك القدس ، وكان يُدعى « سوفرونيوس » ، تسليم المدينة ودفع الجزية ، ولكن بشرط واحد وهو ان يأتي الخليفة بنفسه ويوقع المعاهدة وتسلّم المدينة إليه. وعندما علم المسلمون بشروط البطريرك ، اقترح شرحبيل ان يُرسَل خالدٌ على انه الخليفة بدلاً من انتظار عمر للمجيء وقطع مسافة طويلة من المدينة . وكان عمر وخالد متشابهين في المظهر [1] ، ومن الممكن ان ينطلي ذلك على اهل القدس الذين لم يروْا عمر بعد .

كما ان المسلمين يستطيعون القول بأن الخليفة موجود هنا فعلا ، وسيوقع المعاهدة . وفي صباح اليوم التالي ابلغ البطريرك بحضور الخليفة ، وذهب خالد الى القدس وهو يرتدي زيّا بسيطا ، كما كانت عادة عمر ، للتباحث مع البطريك . لكن الحيلة لم تنطل . فخالد كان مشهورا جدا ، ومن الممكن ان يكون في القدس بعض العرب النصارى الذين سبق ان زاروا المدينة ورأوا عمر وخالدا ، ومن السهل ان يميزوا بينهما . علاوة على ذلك ، فان البطريرك قد يتساءل كيف يمكن للخليفة العظيم ان يكون موجودا عندما تدعو الحاجة اليه ! وعلى اية حال ، فقد انكشفت الحيلة سريعا ، ورفض البطريرك ان يتكلم . وعندما ابلغ خالد عن فشل مهمته ، كتب ابو عبيدة الى عمر حول الموقف ، ودعاه ان يأتي الى القدس ويقبل استسلام المدينة . وبناءً على ذلك انطلق عمر مع نفر من اصحابه باتجاه القدس وكانت هذه اول رحلة من رحلاته الاربع الى بلاد الشام .

جاء عمر اولا الى الجابية ، حيث قابل ابا عبيدة وخالدا ويزيداً الذي جاء الى هنا مع مفرزة من رجاله لاستقبال الخليفة . وكان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين الذي يحاصر القدس . وكان خالد ويزيد يرتديان الملابس الفاخرة ويمتطيان فرسين مطهمين مما اثار سخط عمر .

فترجل عمر عن فرسه ، والتقط من الارض حفنةً من الحصَى ورماها على القائدين المسيئين . ثم صرخ قائلا : العار لكما ، لاستقبالكم لي بهذا الزي !

(1) الواقدي ـ صفحة ١٦٢ ؛ والاصفهاني ـ الجزء ١٥ ، صفحة ١٢ ، ٥٦ .

انكما لم تأكلا حتى الشبع الا في العامين الماضيين فقط . والعار لما تأكلان من طعام اوصلكما الى هذه الحال . فوالله لو فعلتم ذلك بعد مائتي عام من الفلاح، لظللتُ مصرا على عزلكما وتعيين آخرَين مكانكما [1] .

وكان عمر يرتدي ملابس بسيطة كما اعتاد ان يفعل في زمن النبي الكريم . وعندما اصبح خليفة لم يغير لباسه او نمط حياته ، واستمر في كرهه للبذخ والترف .

فسارع خالد ويزيد الى فتح اثوابهما حيث ظهر تحتهما الدروع والاسلحة التي كان يرتديانها وقالا : يا امير المؤمنين ! ان هذه مجرد أثواب . ولا زلنا نحمل أسلحتنا [2] . فهدا غضب عمر لهذا الجواب . ثم تقدم ابو عبيدة ، وهو يرتدي ملابس بسيطة كما هي عادته دائما ، نحو عمر وتصافحا ثم تعانقا .

وتقدم عمر من الجابية الى القدس ، وبصحبته قادته ومفرزة الحراسة . وكان وصوله الى القدس لحظة عظيمة بالنسبة لجنود المسلمين الذين فرحوا كثيرا لرؤية خليفتهم .

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، كان عمر جالسا مع مجموعة كبيرة من الاصحاب ، وهم يتحدثون بشتى الامور . وحان وقت صلاة العصر . وكان بلال الحبشي موجودا ايضا . ان بلال ، الذي جاء ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، قد قاسى العذاب الشديد في الايام الاولى للاسلام على يد المشركين من قريش ، لكنه ظل ثابتا ومتمسكا بدينه . وعندما تبنّى المسلمون سنّة الاذان في العام الثاني للهجرة ، عيّن النبي بلالاً مؤذناً ، وبعد ذلك ، كان يُسمع صوتُ بلال خمس مرات كل يوم وهو يؤذن بصوت قوي رخيم في المدينة ، داعيا المؤمنين للصلاة . وبمرور السنين ، اصبح بلال مسلما بارا ، ومن اقرب المقربين الى رسول الله . ولكن عندما توفي النبي ، صَمَت بلال ولم يعد يؤذن للصلاة .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ١٠٣ .
(٢) الطبري ــ الجزء ٣ صفحة ١٠٣ .

وقد ارتأى بعضُ الصحابة ان فتح مدينة القدس المقدسة قد يكـون مناسبة هامة وكافية لجعل بلال يخرج عن صمته . وطلبوا من عمر ان يؤذن بلال هذه المرة فقط . فالتفت عمر الى بلال وقال : يابلال ! إن اصحاب رسول الله يتوسلون اليك ان تؤذن لكي تذكرهم بأيام نبيّهم ، عليه الصلاة والسلام[1] . وظل بلال بضع دقائق غارقاً في تفكير عميق . ثم نظر الى وجوه اصحاب رسول الله والى آلاف جنود المسلمين الذيـن تجمعوا لأداء الصـلاة ، ووقف يؤذن مرة أخرى .

ودوى صوت المؤذن الشهير في الجموع الغفيرة . وعندما قال : « الله اكبر ، الله اكبر » ، تذكر المؤمنـون نبيهم الكريم وبدات الدمـوع تنهمر من عيونهم . وعندما وصل الى :

« واشهد ان محمداً رسولُ الله » ، اجهشوا بالبكاء .

وفي اليوم التالي كُتبت المعاهدة [2] . وقد وقعها الخليفة عمر نيـابة عن المسلمين وشهد عليها خالد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية . واستسلمت القدس الى الخليفة ، وعاد السلام الى المدينة المقدسة، حدث هذا في نيسان عام ٦٣٧ م (ربيع الأول ، عام ١٦ هجري) . وبعد أن مكث عمر في القدس عشرة ايام ، عاد الى المدينة .

وبناءً على تعليمات الخليفة ، سار يزيد الى قيسارية ، وفرض الحصار مرة اخرى على هذه المدينة الساحلية . وعاد عمرو وشرحبيل لاعادة فتـح فلسطين والاردن ، وانتهت هذه المهمة في نهاية ذلك العام . وعلى اية حال ، فلم يتم الاستيلاء على قيسارية حتى عام ٦٤٠ م (عام ١٩ هجري) ، حيـث استسلمت حاميتها اخيرا امام معاوية . وانطلق ابو عبيدة وخالد مع جيش مؤلف من سبعة عشر الفا من القدس لفتح كل شمال سورية .

سار ابو عبيدة الى دمشق ، التي هي بايدي المسلمين ، ثم الى حمص

---

(١) الواقدي ـ صفحة ١٦٥ .

(٢) طبقا لبعض الروايات فان المعاهدة قد وقعت في الجابية من قبل ممثلين من البطربرك، وبعد التوقيع هناك ، سافر عمر الى القدس وتسلم المدينة .

التي رحبّت بعودته . وكانت قنسرين هدفه التالي ، فتقدم الجيش نحوها وكان خالد والحرس المتحرك في المقدمة . وبعد بضعة أيام وصل الحرس المتحرك الى حضير التي تبعد عن قنسرين ثلاثة أميال شرقا ، وهنا هوجم الحرس بقوة من قبل الروم [1] .

وكان القائد الروماني في قنسرين يدعى « ميناس » ، وكان قائدا مشهورا ومحبوبا من قبل جنوده . وكان ميناس يعلم انه اذا بقي في قنسرين فانه سيحاصر من قبل المسلمين وبالتالي سيَستَسلِم ، لانه لايتوقع في الوقت الحاضر أية مساعدة من الامبراطور . لذلك قرر ان يتحول الى الهجوم ويهاجم عناصر مقدمة جيش المسلمين خارج المدينة ومن ثمّ يهزمها قبل ان تنضم اليها القوة الرئيسية . وطبقا لهذه الخطة ، هاجم ميناس الحرس المتحرك في حضير بقوة لم يذكر المؤرخون تعدادها . وكان ميناس إما انه لايعلم ان خالداً كان مع عناصر المقدمة او انه لم يصدّق كل ماسمع عن خالد .

فبالنسبة لخالد لايستغرق زج خيالته في القتال سوى بضع دقائق ، وسرعان ما نشب القتال الضاري في حضير . وقُتل ميناس والمعركة لاتزال في مراحلها الاولى ، وعندما انتشر نبأ موته بين رجاله ، اندفع الرومان وهاجموا بعنف وشراسة انتقاما لقائدهم المحبوب . لكنهم كانوا في مواجهة اكفأ المقاتلين في ذلك العصر . لكن رغبتهم في الانتقام كانت وبالاً عليهم ، لانه لم ينجُ احد من الروم في معركة الحضير [2] .

وحالما انتهت المعركة ، خرج أهالي حضير من مدينتهم لتحية خالد . واخبروه بانهم عرب وليس لديهم نية في القتال ضده . فقبل خالد استسلام مدينتهم ، وتقدم الى قنسّرين .

عندما تلقى عمر التقارير عن معركة حضير ، لم يحاول ان يخفي اعجابه بعبقرية خالد العسكرية اذ قال : خالد قائد بطبيعته . ورحم الله ابا بكر لقد

---

(١) لاتزال حضير موجودة حتى الآن ، وهي قرية زراعية كبيرة .
(٢) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

كان حكمه على الرجال خيراً من حكمي [1] . وكان هذا أول اعتراف لعمر بأن حكمه على خالد لم يكن صوابا .

وفي قنسرين التجأ انقسم ، الذي لم يذهب مع ميناس ، من الحامية الرومانية داخل الاسوار واغلقوا ابواب الحصن . وحالما وصل خالد ، أرسل كتابا الى الحامية قال فيه : « لو كنتم في السحاب لحَمَلنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » [2] . وبدون أدنى تأخير استسلمت قنّسرين الى خالد . حدثت معركة الحضير واستسلام قنسرين في شهر حزيران عام ٦٣٧ م (جمادى الاولى ، عام ١٦ هجري) .

وانضم الآن ابو عبيدة الى خالد في قنسرين ، وسار الجيش الى حلب، وكان يدافع عن الحصن حامية قوية بإمرة قائد روماني يدعى « يواكيم » . وخرج هذا القائد لملاقاة المسلمين خارج الحصن ، مثلما فعل قائد قنسرين ، واصطدم مع الحرس المتحرك على بعد ستة أميال جنوب المدينة . وحدث اشتباك عنيف هنا ، غلب فيه الروم ، وانسحب على اثره « يواكيم » بسرعة الى داخل أسوار المدينة .

تتكون حلب من مدينة ذات اسوار كبيرة ، ومن قلعة حصينة تقع على قمة تل خارج المدينة يحيط بها خندق مائي . وتقدم المسلمون وفرضوا حصارا حول القلعة . وكان « يواكيم » قائدا جريئا وقد شنَّ عدة هجمات لكسر الحصار لكنه كان يتكبد خسائر جسيمة في كل مرة . وبعد عدة ايام من الاشتباكات غير المجدية بالنسبة للروم ، قرروا البقاء داخل القلعة بانتظار وصول تعزيزات من هرقل . لكن هرقل لم يستطع ارسال شيء ، وبعد اربعة اشهر ، أي حوالي تشرين أول عام ٦٣٧ م ، استسلم الروم بشروط . اذ سُمح لجنود الحامية بمغادرة المدينة بأمان ، لكن يواكيم لم يذهب . لقد اصبح مسلما واختار ان يخدم تحت راية الإسلام . وفي الحقيقة ، اثبت يواكيم في الاسابيع القليلة التالية انه قائد قدير ومخلص ، وقاتل بشجاعة تحت إمرة عدة قادةٍ من المسلمين .

---

(١) الطبري – الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

(٢) الطبري – الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

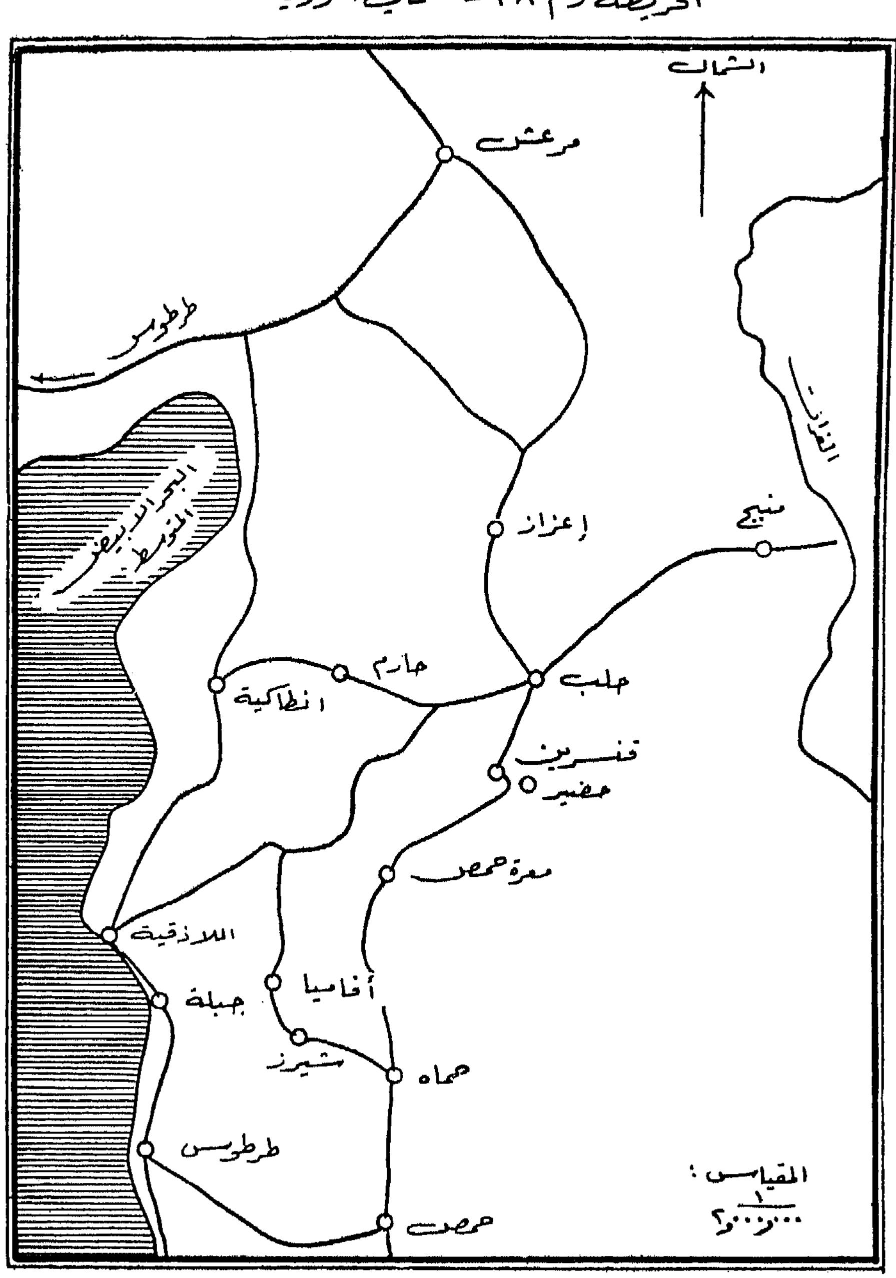
بعد الاستيلاء على حلب ، أرسل ابو عبيدة قوةً بإمرة « مالك الأشتر » للاستيلاء على إعزاز الواقعة على الطريق المؤدي الى حدود بلاد الروم . وكان المسلمون يقصدون بذلك المنطقة الكائنة حاليا جنوب تركيا وشرق جبال طوروس . واستطاع مالك بمساعدة يواكيم ان يستولي على إعزاز ثم وقع معاهدة مع أهلها وعاد الى حلب .

وكان الاستيلاء على إعزاز وتأمينها من الأهمية بمكان لضمان عدم وجود قوات كبيرة من الروم شمال حلب ، لانهم في هذه الحالة يستطيعون ضرب مجنبة ومؤخرة المسلمين عند خوض العملية الكبيرة التالية . وعندما انضم مالك الى الجيش ثانية ، سار أبو عبيدة غربا للاستيلاء على انطاكية . (أنظر الخريطة رقم ٢٨) .

سار الجيش عبر حارم واقترب من انطاكية من جهة الشرق . وعلى مسافة حوالي اثني عشر ميلا من المدينة في مكان يدعى«مَحْرَبَة» ،حيث يوجد جسر حديدي فوق نهر أورُونتيس (يعرف الآن باسم نهر العاصي) ، تقابل المسلمون مع جيش روماني كبير كان مكلّفاً بمهمة الدفاع عن انطاكية . ونشبت هنا معركة رئيسية ، لكن تفاصيلها لم تذكر من قبل المؤرخين ودحر أبو عبيدة جيش الروم ، وقد لعب خالد دورا بارزاً مع حرسه المتحرك .
وباستثناء خسائر الروم في اجنادين واليرموك ، تعتبر خسائرهم في هذه المعركة أفدح خسائر حملة بلاد الشام ، وفرَّ باقي جيش الروم الى المدينة بدون انتظام . وتقدم المسلمون وفرضوا حصارا على انطاكية ، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت اكبر مدينة في بلاد الشام ، وعاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية ، في أيدي المسلمين . ودخل ابو عبيدة المدينة في الثلاثين من تشرين الاول عام ٦٣٧ م (الخامس من شوّال عام ١٦ هجري) . وسمح لجنود الروم المنهزمين بمغادرة المدينة بأمان .

وبعد استسلام انطاكية ، تقدمت قوات المسلمين جنوبا على طول ساحل البحر الابيض المتوسط واستولت على اللاذقية ، وجبلة ، وطرطوس ، وبذلك تم تطهير معظم شمال غرب سورية من العدو . وعاد ابو عبيدة بعد ذلك الى

الخريطة رقم ٢٨ - شمالي سورية



حلب ، وخلال هذه العودة أخضعت قواته ما تبقى من شمالي سورية. وذهب خالد مع حرسه المتحرك للاغارة شرقا حتى نهر الفرات بجوار منبج ، لكنه وجد مقاومة ضعيفة . وفي أوائل كانون الاول عام ٦٣٨ ، انضم الى ابي عبيدة مرة اخرى في حلب .

واصبحت جميع بلاد الشام الآن بأيدي المسلمين . وترك ابو عبيدة خالدا كقائد ومدير لقنسرين ، وعاد مع باقي جيشه الى حمص ، حيث قام بأعباء منصبه كحاكم لمنطقة حمص ، والتي تعتبر قنسرين جزءاً منها . وكانت مهمة خالد في قنسرين مراقبة تحركات الروم في الشمال .

وفي نهاية عام ١٦ هجري (حوالي عام ٦٣٧ م) كانت جميع انحاء بلاد الشام وفلسطين بيد المسلمين ، باستثناء قيسارية التي مازالت بيد الروم . وتولى مختلف قادة المسلمين ادارة المناطق التي فتحوها : فعمرو بن العاص كان اميرا على فلسطين ، وشرحبيل على الاردن ، ويزيد على دمشق (واشتبك فيما بعد مع الروم في قيسارية) ، وابو عبيدة على حمص . وكان خالد يتولى منصبا اقل كمدير لقنسرين تحت سلطة ابي عبيدة . واستمرت حالة السلام هذه بضعة اشهر اي حتى منتصف صيف عام ٦٣٨ م ، عندما تجمعت السحب السوداء مرة اخرى فوق شمال سورية . وفي هذه المرة اختار العرب النصارى القاطنين في الجزيرة طريق الحرب .

لم يكن باستطاعة هرقل ان يحاول العودة الى بلاد الشام . وفي الحقيقة كان قلقا بشكل متزايد الآن على باقي امبراطوريته ، التي اصبحت معرضة لخطر هجوم المسلمين بعد تدمير جيشه في اليرموك وانطاكية . ولم يبق لديه سوى قوات قليلة للدفاع عن ممتلكاته ضد جيش المسلمين الذي كان يسير من نصر الى نصر . ولكي يكسب الوقت من اجل إعداد دفاعاته كان لابد من إشغال المسلمين في سورية ، فلجأ الى اثارة عرب الجزيرة لكي يقوموا بهجوم ضدهم . ونظراً لارتباطهم معه برباط الدين ، فقد اذعنوا لتحريضه ، وبعد ان احتشدوا بعشرات الآلاف ، بدؤوا بالتحضير لعبور القوات وغزو شمال سورية من جهة الشرق .

وجاءت العيون بالاخبار الى ابي عبيدة بخصوص الاستعدادات الجارية في الجزيرة . وعندما بدأ العرب النصارى تحركهم ، جمع ابو عبيدة مجلس حرب لبحث الموقف . وكان رأي خالد ان يخرج المسلمون من المدن كجيش واحد ويقاتلوا العرب النصارى في الارض المكشوفة ، لكن القادة الآخرين حبذوا الدفاع في حمص . فقرر ابو عبيدة الاخذ برأي الغالبية لذلك أحضر الحرس المتحرك من قنسرين والمفارز الاخرى من الاماكن التي احتلوها في شمالي سورية . وحشد جيشه في حمص وبنفس الوقت أخبر عمر بالموقف.

كان عمر لايشك بان بمقدور ابي عبيدة وخالد ان يعالجا الموقف ضد الجيش غير النظامي الذي يهددهما بالقوات المتوفرة لديهما ، ومع ذلك فقد قرر ان يعززهما ، ونفذ ذلك باسلوب غير عادي . فأرسل تعليمات الى سعد ابن أبي وقاص ، قائد المسلمين العام في العراق ، لارسال ثلاث مجموعات من جيشه الى الجزيرة :

المجموعة الاولى بإمرة « سهيل بن عدي » وهدفها الرقة .

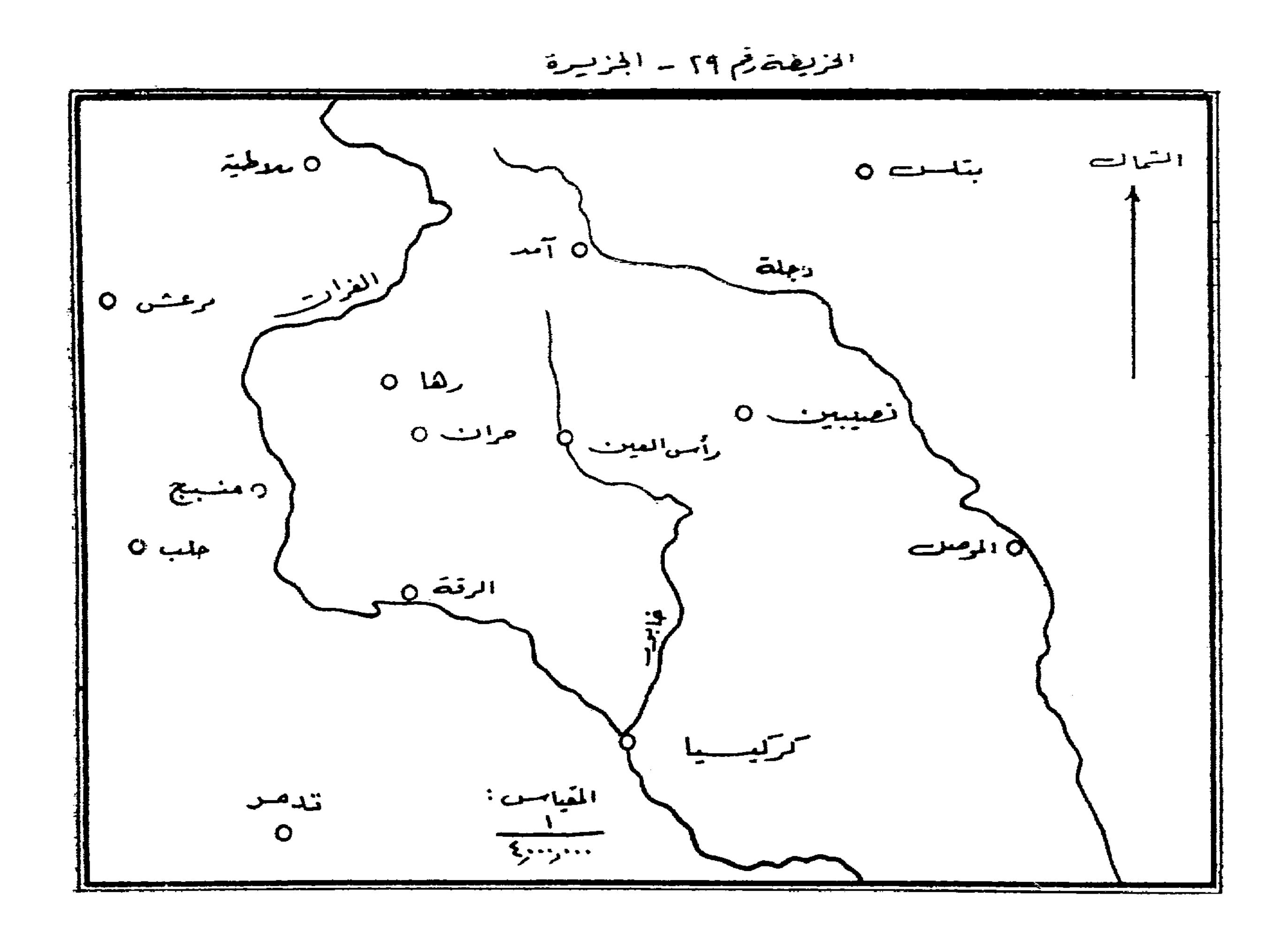
ـ المجموعة الثانية بإمرة « عبد الله بن عتبان » وهدفها نصيبين .

ـ المجموعة الثالثة بإمرة « عياض بن غنم » ومهمتها العمل بين المجموعتين الاولى والثانية .

(انظر الخريطة رقم ٢٩) . وبنفس الوقت أمر عمر بارسال أربعة آلاف رجل بإمرة « قعقاع بن عمرو » من العراق الى حمص ، على امتداد طريق الفرات ، لتعزيز أبي عبيدة .

وعندما وصل العرب النصارى الى حمص وجدوا المسلمين محصنين داخلها بشكل جيد ، ولما كانوا لا يعلمون ماذا سيفعلون ، فرضوا حصارا حول المدينة . ولكن لم يكد يبدأ الحصار حتى وصلتهم الأنباء من الجزيرة بان ثلاث مجموعات من قوات المسلمين تتقدم من العراق نحو الجزيرة . وأيقن العرب النصارى الآن صعوبة موقفهم . فبينما هم يقاتلون المسلمين في سورية«ويلتقطون الكستناء لهرقل من قلب النار » ، كانت أراضيهم على وشك السقوط بأيدي

الخريطة رقم ٢٩ - الجزيرة



المسلمين القادمين من اتجاه آخر . فرفعوا الحصار وعادوا مسرعين الى الجزيرة ، وهذا هو الامر المنطقي الذي كان عليهم ان يفعلوه . ووصل قعقاع الى حمص بعد مغادرة العرب النصارى بثلاثة أيام .

وحالما سمعت مجموعات المسلمين الثلاثة بعودة العرب النصارى ، توقفت في المكان الذي وصلت اليه بانتظار تعليمات أخرى من سعد . فمهمتها قد انتهت . وبهذه المناورة البارعة ، استطاع عمر أن يصدّ جيش العرب النصارى القادم من الجزيرة دون ان يُطلق سهم" واحد .

ان المحاولة الفاشلة التي قام بها العرب النصارى من الجزيرة لقتال المسلمين لم تسبب أي ضرر للمسلمين في سورية . لكنها اثارت غضب المسلمين وجعلتهم حذرين بحيث لايستطيعون اعتبار سورية انها بحوزتهم بشكل نهائي إلا بعد تطهير الاراضي المجاورة من العناصر المعادية . وكانت هذه العناصر تعيش في الجزيرة وفي المنطقة الواقعة شرق جبال طوروس ، ولا بدّ من اخضاعها او تدميرها لخلق منطقة أمان وراء حدود سورية .

قرر عمر ان ينتهي من الجزيرة أولا . وأمر سَعْداً ان يتخذ الاجراءات للاستيلاء عليها ، وعيّن عياض بن غنم قائدا لمسرح العمليات . وأعطى سَعْد" تعليمات الى عياض لكي يستمر في فتح الجزيرة بالقوات الموضوعة تحت إمرته ، واستأنف المسلمون القادمون من العراق تقدمهم في أواخر صيف عام ٦٣٨ م . واستخدم عياض المجموعات الثلاثة ، وفي غضون بضعة اسابيع اكتسح المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات حتى نصيبين والرُها (تسمى الآن اورفة) . (انظر الخريطة رقم ٢٩) . وتمت العملية بدون اراقة دماء .

بعد ان تم الاستيلاء على هذا الجزء من الجزيرة ، كتب ابو عبيدة الى عمر طالباً منه ان يضع عياض تحت قيادته ، لكي يستخدمه في شنّ إغارات عبر الحدود الشمالية . ووافق عمر على هذا الطلب ، وتحرك عياض الى حمص مع جزء من قوة المسلمين التي ارسلت من العراق الى الجزيرة .

وفي خريف عام ٦٣٨ م ، ارسل ابو عبيدة عدة مفارز ، منها اثنتان بقيادة

خالد وعياض للإغارة على الاراضي الرومانية شمال سورية وغربا حتى طرسوس .وكان هدف خالد هو « مرعش » ، وعندما وصل اليها فرض عليها الحصار وكان بداخلها حامية رومانية . ان وجود خالد هنا كان كافيا لالقاء الرعب في قلوب الروم ، وبعد بضعة ايام استسلمت مرعش شريطة ان يخلي سبيل الحامية والسكان . واستولى المسلمون على غنائم كثيرة . ثم عاد خالد الى قنسرين وهو محمّل بالغنائم بشكل لم يسبق له مثيل . وكانت غنائم مرعش كافية لجعل افراد هذه الحملة أغنياء مدى الحياة .

ولولا صفة التبذير التي لازمت خالد منذ ايام شبابه ، لكان من أغنى رجال عصره . وجرت العادة في تلك الايام ان يستولي المحارب على جميع ممتلكات خصمه الذي ينهزم أمامه في المبارزة ، هذا بالاضافة الى حصته من الغنائم التي توزع على جميع المقاتلين . وقد اشترك خالد في عدد لايحصى من المبارزات وفاز فيها جميعا . علاوة على ذلك ، كان خصومه من القادة ، وهؤلاء اغنى من باقي المقاتلين ، وخاصة القادة الفرس والروم الذين كانوا يتزينون بالجواهر والذهب . وبذلك وصلت الى ايدي خالد ثروة لم تصل الى أيدي آخرين ، لكن هذه الثروة انزلقت بين اصابعه كذرات الرمل . فكان يعيش بسعة ويعطي بسخاء . وكانت الثروة التي يحصل عليها في احدى المعارك تدوم حتى المعركة التالية فقط . وكان لدى خالد حاشية كبيرة من الرقيق . وتزوج عدة مرات وانجب عشرات الاطفال ، وكانت نفقات منزله تستهلك قدرا كبيرا من المال . وكان هنالك ايضا الجنود الذين يبلون بلاءً حسناً في المعارك اذ كان خالد يبحث عنهم ويعطيهم الهدايا من حسابه الخاص . وكان هذا التصرف معروفا للخليفة الصارم والمقتصد ، وقد اعتبره إسرافاً وليس سخاءً .

وعند عودة خالد من « مرعش » حدث نفس الشيء ، فقد أعطى جنوده بسخاء . وبرز الآن عدد من الاشخاص المستهترين في جيش المسلمين واصبحوا قادة مرموقين ، واخذوا يتغنون بأمجادهم ويتسلمون الهدايا . ومن هؤلاء كان الأشعث بن قيس ، وهو زعيم قبيلة كِندة ، وقد ورد ذكره في الجزء الثاني من هذا الكتاب (لقد قاد المرتدين من قبيلته في اليمن ، وانقذ نفسه في آخر دقيقة بخيانة اتباعه) . وكان الأشعثُ شاعراً كبيرا . فجاء الى خالد في قنسرين

واسمعه قصيدة جميلة في مديح القائد العظيم ، واعطاه خالد مقابل ذلك جائزة مقدارها عشرة آلاف درهم . وفي غضون اسبوعين كانت انباء هذه الحادثة لدى الخليفة بواسطة عيونه ، فغضب عمر من ذلك . وصمم ان يضع حداً لتصرفات خالد الذي تجاوز الحدود !

ولم يعلم الأشعث بأنه عندما تلا قصيدته البليغة ، كان يحفر في الحقيقة قبراً لمستقبل خالد العسكري .

* * *

وداعاً للسلاح

بعد إستيلاء خالد على مرعش بوقت قصير ، في خريف عام ٦٣٨ م (عام ١٧ هجري) ، علم عمر بقصيدة الاشعث التي مدح فيها خالداً ونيله جائزة مقدارها عشرة آلاف درهم . فغضب عمر وكتب إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الاشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقرّ بخيانته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأعزله على كل حال ، وأضمم اليك عمله . وقد حمل هذا الكتاب الى أبي عبيدة في حمص بلال الحبشي .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قنّسرين ، وذكر له تهمة عمر ضده ، وسأله فيما إذا كان يعترف بذنبه . فدُهش خالد وقال له : « إنتظرني أستشير أختي (١) في أمري » . ففعل ابو عبيدة واستشار خالد أخته . فقالت له : « والله لا يحبك عمر أبداً وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك » . فقال لها : « صدقتِ » !

وعاد خالد الى أبي عبيدة وأخبره بأنه لن يعترف بذنبه . فسار القائدان بصمت الى مكان يحتشد فيه عدد كبير من المسلمين . وساد الصمت بضع دقائق . إذ لم يستطع المسلمون المحتشدون يعرفون سبب الاجتماع ، وكذلك خالد . فهو لم يستطع أن يربط بين تهمة عمر ضده وبين هذا الجمع من الناس ، لانه لم يدر بخلده قط بأنه سيواجه محاكمة علنية . ونظر بلال إلى أبي عبيدة لكنه أدار وجهه . فأدرك بلال أن أبا عبيدة لا يرغب في استجواب خالد . عندئذ وقف بلال وقال بصوت مسموع من قبل جميع المحتشدين :

(١) فاطمة بنت الوليد .

« يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف ؟ أم من اصابة ؟ » فلم يجبه ، وابو عبيدة ساكت . ثم قام بلال اليه فقال : « إن أمير المؤمنين قد أمر فيك بكذا وكذا » . ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال : « ما تقول أمن مالك أم من اصابة ؟ » فقال خالد : « لا بل من مالي » . فأطلقه وأعاد قلنسوته ، ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » (١) .

وساد الصمتُ جميعَ الحاضرين بضع دقائق . وكان أبو عبيدة وبلال ينظران الى الارض . ثم وقف خالد وهو منفعل لما حدث . ولم يكن يعرف نتيجة المحاكمة وهل هو معزول أم لا يزال قائدا للوائه . كما إنه لم يرغب في أزعاج أبي عبيدة بطرح أسئلة عليه ؛ لذا ترك الاجتماع وامتطى صهوة حصانه وعاد الى قنّسرين .

عاد بلال إلى المدينة وقدّم تقريراً إلى الخليفة عما حدث مع خالد . وكان عمر ينتظر الآن كتاباً من أبي عبيدة لكي يخبره بعزل خالد عن قيادته في قنّسرين؛ ولكن عندما مر اسبوع آخر ولم تصل مثل هذه الرسالة ، أدرك الخليفة إن أبا عبيدة غير قادر على إبلاغ خالد بعزله ، وكتب إلى خالد لكي يحضر اليه في المدينة .

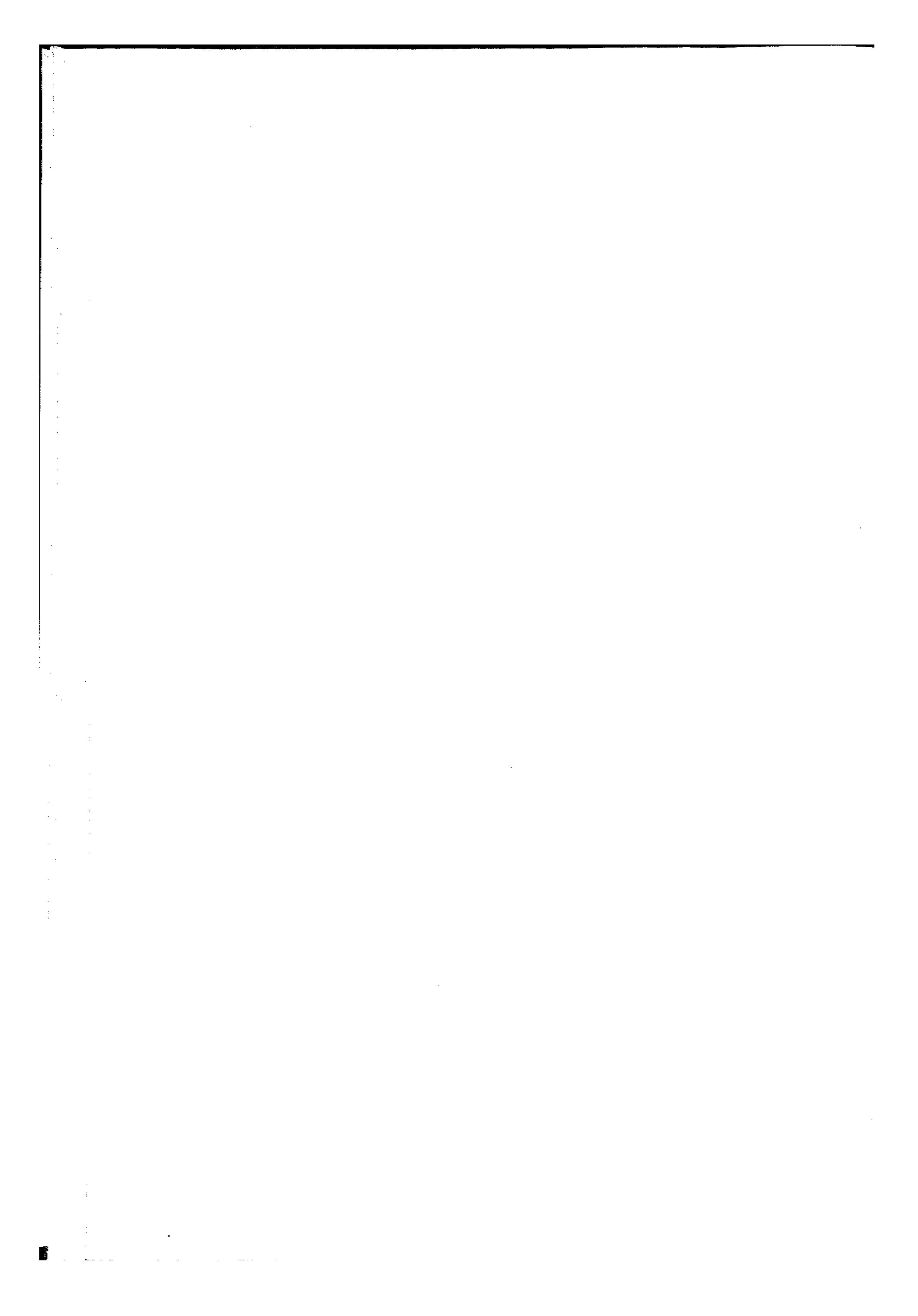
وعندما تلقى خالد كتاب عمر ، جاء الى حمص وسأل أبا عبيدة عن وضعه . فأخبره القائد العام بأنه معزول من وظيفته بأمر الخليفة . فقال له خالد : « رحمك الله ما اردت إلى ما صنعت ، كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم » .

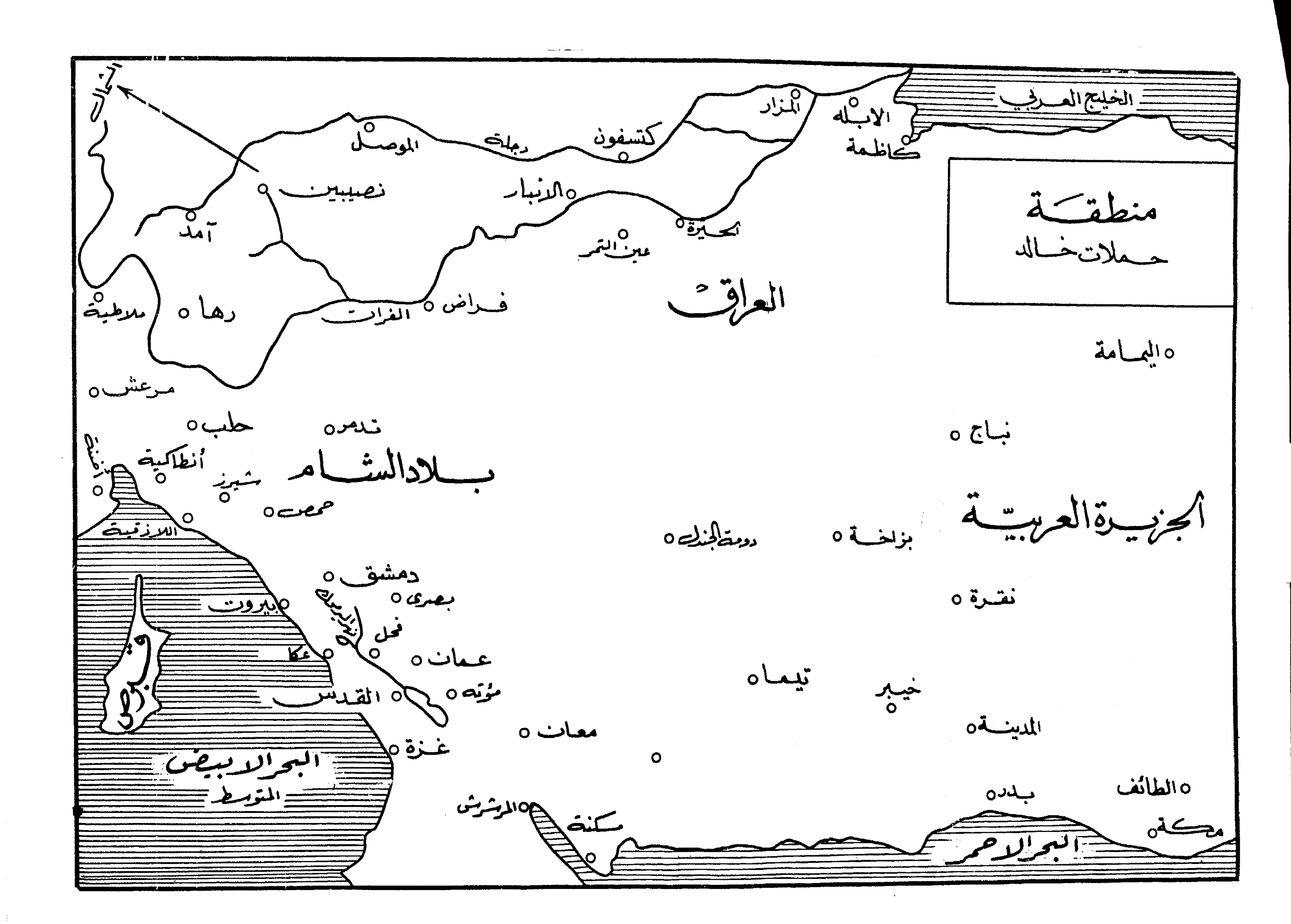
وكان الاسى واضحا في عيني أبي عبيدة ، وقال له بمحبة وحنو . أعلمُ والله إن ذلك سوف يسبب لهم الهم . وانا لا أرغب في إيذاء مشاعرك .

وعاد خالد إلى قنّسرين ، وجمع المحاربين الذين خاض معهم معارك النصر والمجد واخبرهم بأنه عُزل عن قيادته ، وأنه سيذهب الى المدينة بناء على تعليمات الخليفة . ثم ودع جنود الحرس المتحرك الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة تحت قيادة خالد .

ومن قنسرين عاد ثانية الى حمص ، وبعد وداعه لأصدقائه هناك ذهب

(١) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .





منطقة
حملات خالد
الخليج العربي
المزار
الابله
كاظمة
كتسفون
دجلة
الموصل
نصيبين
الانبار
الحيرة
عين التمر
آمد
العراق
فراض
الفرات
رها
ملاطية
مرعش
اليمامة
حلب
تدمر
نباج
أنطاكية
شيزر
بلاد الشام
حمص
اللاذقية
الجزيرة العربية
دومة الجندل
بزاخة
دمشق
بصرى
نقرة
بيروت
فحل
عمان
عكا
تيماء
خيبر
القدس
مؤته
المدينة
معان
غزة
البحر الابيض
المتوسط
الطائف
بدر
البحر الاحمر
مكة

الى المدينة . وكان ذاهبا الى المدينة ليس كبطلٍ عائد الىٰ وطنـــه بعد الحـــروب التي خاضها لتلقي التكريم ، وإنما كرجل حل به العار .

وصل خالد الى المدينة وتوجه على الفور الى دار الخليفة . لكنه تقـــابل مع عمر في الطريق . وعندما اقترب هذان الرجلان من بعضهما البعض ـ اكبر حاكم ، واكبر قائد في عصرهما ـ لم يكن يوجد خوف في عيني اي منهمـــا . وكان عمر أول من تكلم وقال أبيـــاتاً من الشعر في مدح ما صنع خالـــد ولكنه انهى شعره قائلا بأن الله هو الصانع . فقال خالد تعقيباً عـــلى ذلـــك : « لقـــد شكوتك الى المسلمين ، وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر » . فقـــال عمر : « فمن أين لك كل هذه الثروة ؟ » فقال خالد : « إنها حصتي من الغنائم . وكل ما يزيد عن ستين ألف درهم فهو لك » (١) .

فدقـّق عمر أموال خالد المؤلفة من العـــُدة والرقيق فحسب ، فوجد انها تساوي ثمانين ألف درهم . فصادر العشرين الفاً الزائدة .

بعد ذلك قال عمر لخالد : « يا خالد والله انك عليّ لكريم ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

وبعد بضعة أيام ، ترك خالد المدينة متوجها الى قنسرين ، ولم يعـــد الى الجزيرة العربية ابدا . ولم يكد يمضي في طريقه من المدينة ، حتى ذهب اهل المدينة الى عمر وطلبوا منه أن يعيد مال خالد اليه . فقال عمر : « إنما انا تاجر للمسلمين ، والله لا أردّه عليه ابدا » (١) .

وسرعان ما أدرك عمر حزن المسلمين للمعاملة التي عومل بها خالد . وكان يقال صراحة بأن ما لاقاه خالد كان بسبب غيرة عمر منه . ووجد عمر أن مـــن الضروري أن يكتب لجميع أمرائه وولاته . فكتب اليهم : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا اليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا ان الله هو الصانع ، والا يكونوا بعرض فتنة » (٢) .

كان هـــذا الكتـــاب اكبر ثنـــاء يمكن أن يحلم بـــه قـــائد : فهو يؤكـــد

---

(١) الطبري ـ الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

(١) الطبري ـ الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٥ .

(٢) الطبري ـ الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

بأن رجـال خالد يعتبرونه مناط النصـر والظفر ، لكن خالدا عاد الى قنّسرين وهو بحالة نفسية سيئة . فالرجل الذي قضى على المرتدّين ، والـذي فتـح العراق والشام ، عاد معزولا . وعندما حيَّته زوجته على الباب ، قال : أمَّرني عمر على الشام حتى صارت قمحاً وعسلا ؛ ثم عزلني (٣) .

لقد إنتهت حملات خالد . فسيف الله ــ وهو السيف الـذي سـلّه الله عـلى الكافرين ــ والذي رفض ابو بكر أن يغمده ، قد اغمـد اخيرا عـلى يـد الخليفة عمر .

لقد بقي القليـل ليُروى ، فقد عـاش خالد بعد عزلـه أقل من أربـع سنوات ؛ ولم تكن هذه السنين سارة . كما أن حالتـه المـادية لم تكن حسنة وفي عام ١٥ هجري ، بدأ عمر بتخصيص رواتب لكافة المسلمين ، وكانت هذه الرواتب تختلف حسب مراكزهم في الاسلام والخدمات التي قُدمت من قبلهـم في الحرب . فقد كان جميع الذين اعتنقوا الاسلام بعد « صُلح الحديبية » وقبل الردّة يتقاضون رواتب سنوية مقدارها ثلاثة آلاف درهم (١) ، وكانت هـذه الفئة تضم خالدا . وكان المبلغ كافيا للرجـل وأسرته أن يعيشوا بتواضـع ؛ لكن هذا المبلغ لم يكن كافيا لخالد الذي ولـد ارستقراطيا واعتـاد ان يصـرف آلاف الدراهم . فأخـذ اسرته الى حمص ، واشترى منـزلا واستقر فيهـا بقيـة حياته .

كان عزْلـه ضَربة قاسمة له . لكن المصيبـة الكبيـرة التي حلَّت به في هذه المدة هي تعقّب الموت أولاده واحـداً وراء الآخر ، إذ دهمهم الطـاعون فأمات منهم نحو اربعين في سنة الطاعون . وقد بدأ وباء الطاعون في عمواس، إحدى مـدن فلسطين ، في شـهر محرّم أو صفر عـام ١٨ هجري (كانون الثاني أو شباط عام ٦٣٩ م) ، ثم انتشر بسرعة عبر سورية وفلسطين واجتاح النصارى والمسلمين في طريقه . وقد حَزِن الخليفة كثيـرا لمعاناة المسـلمين في بلاد الشام ، وكان مهتما بشكل خاص بأبي عبيدة ، وفكّر في انقاذ « أمين هذه الامة » باستدعائه لزيارة المدينة . فاستنتج أبو عبيدة مـن كتاب عمـر وعرف انه سيؤخره في المدينة إلى أن تنتهي الجائحة . لكن الرجل الـذي لـم

---

(٣) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ٩٩ .

(١) الطبري ــ الجزء ٣ صفحة ١٠٩ .

يتخل عن جنوده في أعنف المعارك فانه لن يتخلى عنهم الآن بسبب الطاعون ، فرفض أن يزور المدينة ، ودفع حياته ثمنا لاخلاصه لرجاله .

ومات الآلاف من المسلمين في طاعون عمواس ، وكان من بينهم ابو عبيدة، وشرحبيل ، ويزيد ، وضرار (اعز أصدقاء خالد) . وهكذا قضت الجائحة على معظم أصدقائه وأحبائه . ونحن نعرف ثلاثة فقط من أولاد خالد الذين عاشوا بعده وهم : سليمان ، الذي سقط في المعركة في الجزء الاخير من حملة مصر ؛ ومُهاجر ، الذي قاتل واستشهد في صفّين تحت قيادة علي ؛ وعبد الرحمن الذي عاش حتى سن النضوج والذي كان موهوبا بصفات والده العسكرية . لكنه مات أيضا مسموما في عام ٤٦ هجري ، اثناء خلافة معاوية رحمه الله (١) . وقد قتل الرجل الذي اغتال عبدالرحمن بواسطة السم على يد ابن عبد الرحمن فيما بعد . ونحن لا نعلم عدد بنات خالد ، لكن شجرة الذكور تنتهي بحفيده خالد بن عبدالرحمن بن خالد .

بعد موت ثلاثة من أمراء الوية المسلمين الهامين ، تولى عمرو بن العاص قيادة الجيش ونشره على الفور في تلال سورية وفلسطين . وبذلك استطاع انقاذ معظم الجيش ، ولكن بعد أن سقط خمسة وعشرون الفا بسبب وباء الطاعون . وبعد انتهاء الجائحة عين عمر عياض بن غنم حاكما عسكريا على سورية الشمالية ، وعيَّن معاوية على دمشق والاردن ، بينما بقي عمرو قائدا في فلسطين .

عندما كان أبو بكر يخطط حملة الردّة ، بحث مع عمرو بن العاص مسألة تعيين عدد من أمراء الالوية . وقال له الخليفة : « يا عمرو ؛ انك رجل ثاقب الفكر ، فما هو رأيك بخالد؟ » فأجاب عمرو : « إنه سيد الحرب ، وصديق الموت . له جُرأة الأسد وصبر القط » (٢) .

لكن صبر القط لم يكن كافيا لرجل في مثل مزاج خالد في هذه المرحلة من حياته . فالدافع الذي يجعل القط صابرا هو أمله في الحصول على فريسة لطعامه . أما إذا كان لا يوجد أمل في الحصول على هذه الفريسة فإن القط لا يمكن أن يُحتمل الصبر ؛ وخالد الآن ليس لديه آمال ، ولا يوجد اي شيء

---

(١) الطبري ــ الجزء ٤ ، صفحة ١٧١ .

(٢) اليعقوبي ــ تاريخ اليعقوبي ــ الجزء ٢ ، صفحة ١٢٩ .

يحتملّ الصبر من أجله . وكان خالد يندب فقدان أصحابه وأبنائه وحيدا .

واستمرت فتوحات الاسلام . فبعد الطاعون ، في عام ١٨ هجري، توجه عياض مرة أخرى الى الجزيرة لاخضاعها ؛ وفي نهاية العام التالي أتم اخضاعها بعد عدة معارك ؛ ووصل شمالا حتى « سَمَيسَاط » و « آمِد » (تسمى الآن ديار بكر) ، و « بتلِيس » . واغار بنجاح أيضا حتى « مَلَطية » . (انظر الخريطة رقم ٢٩) . وكانت أخبار الجبهة الشرقية السارة تتوارد . فحوالي الوقت الذي عُزل فيه خالد ، كان سعد بن ابي وقاص قد فتح معظم ما يسمى الآن بالعراق وأجزاء من جنوب غرب بلاد فارس وهي : الأهواز ، وتُستر ، وسوس . وقد تم على هذه الجبهة نجاحات اخرى ، لكن المعارك الكبرى الاخيرة ضد قوات الفرس التي ما زالت قوية ، لم تنشب الا بعد موت خالد . وفي عام ٦٤٠ م (عام ١٩ هجري) استسلمت قيسارية أخيرا للمسلمين، وفي عام ٢٠ هجري ، فتح عمرو بن العاص مصر واستولى على الجزء الشمالي الشرقي منها .

وفرح خالد ، مثل جميع المسلمين ، بهذه الفتوحات الاسلامية ، لكن كل نصر كان يذكّره بأنه لم يشترك في المعارك . فالاخبار التي وصلته في حمص ، كانت بالنسبة اليه حلوة ومرة . فهو كالعاشق الولهان الذي يرى محبوبته امامه لكنه لا يستطيع الذهاب نحوها . وهكذا عاش خالد ـ الرجل الذي وصفه جيبون (Gibbon) ، في كتابه : « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، بأنه أعنف وانجح مقاتلي الجزيرة العربية ـ بقية سني حياته القصيرة (١) .

ولحسن الحظ ، فإن علاقات خالد مع عمر بدأت تتحسن . فعمر لم يعد ذلك الرجل القاسي والحاد الطبع . فأعباء الخلافة التي كانت على عاتقه قد خففت من حدة طبعه واصبح يتحلى بالصبر . وكان ما يزال صلبا ، لكنه كان لا يحمّل الآخرين ما لا يستطيع حمله هو نفسه . وكان صارما مع الاقوياء ، ورحيما مع الضعفاء ، وكريما مع الارامل واليتامى . وكان يجلس

---

(١) بينما تذكر بعض المصادر بأن خالدا حارب تحت امرة عياض في الجزيرة ، فان معظم المؤرخين الاوائل قد ذكروا بان خالدا لم يحارب تحت امرة أحد بعد موت أبي عبيدة . وأنا أميل الى الاخذ بهذا الراي .

مع الفقراء والمساكين ويقضي الليل نائما على عتبة المسجد . وكان يتجول ليلا في شوارع المدينة ويحمل بيده سوطا ، وكان لهـذا السوط رهبة اكثر مـن سيف رجل آخر . وكان يعيش على خبز الشعير ، والتمر ، وزيت الزيتون ، ولم يخصص مرتبات إضافية لأسرته . وكانت ملابسه بسيطة ويوجد فيهـا الكثير من الرقع . وكان عـادلا حتى إن ابنـه عبدالله قـد ضـرب بالسـوط لشربه الخمر .

وقد استطاع خالد الآن ، بعد أن توفر لديه وقت أكثر للتفكـير والتأمل ، أن يرى الفضائل العظيمة والصفات الحميدة التي يتحلى بها عمر رضي الله عنه فسامَحَه . وفي أحد الأيام قال خالد لأحد زائريه : « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت . وكان احب اليّ من عمر . والحمـد لله الـذي ولّى عمـر وكان أبغض اليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبّه (١) . وكان هذا التحول في العلاقة بين خالد وعمر عظيماً حتى إن خالداً جعل عمر وريثه بعد موته . لقد إلتأمت الجروح بمرور الزمن .

قضى خالد وقتا كبيرا وهو يفكر بمعاركه التي خاضها ، كما هي عـادة الجنود القدامى . وكان يستعيد بذاكرته المعارك والمبارزات التي هزم فيهـا أعظم أبطال العالم ومرغ انوفهم في التراب . وكان بطبيعته فخورا بانتصاراته، لكنه لـم يكن مغرورا او متكبرا . وكان ينسب انتصـاراته الى عـون لله والى قلنسوته الحمراء التي كانت بعض شعرات النبي مُحاكة فيها . وعندمـا كان يكف عن التفكير بمعاركه ، كان يفكر ويستعيد ذكريات قادته : أبي عبيـدة ، وشرحبيل ، ويزيد ، وعمرو بن العاص ؛ كما كان يفكر بأبطاله الميـامين مثل : عبد الرحمن بن أبي بكر ، ورافع بن عُميرة ، وضرار الذي لا يوجد لـه مثيل والذي ستظل ذكرى جراته وشجاعته الخارقـة حيّة مدى التـاريخ . وعلى أية حال ، فإن خالداً لم يكن يعرف مكانه في التاريخ كما نعرفه نحن الآن .

كان خالد من أعظم القادة متعددي الصفات الذي عرفهم التـاريخ ، ومن ألمع العباقرة العسكريين . وكانت استراتيجيته مثار الاعجاب . وكانت قوتـه الجسدية وجراته تعتبر أسطورة . وإننا لم نرَ حالة واحدة مشابهة في التاريخ بحيث تجتمع هذه الصفات كلها في رجل واحد . وكان خالد احد أعظم قائدين

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٨ .

في التاريخ لم يعرفا الهزيمة قط . وكان القائد الثاني هو جنكيز خان ، لكن جنكيز خان لم يكن مبارزا بطلا مثل خالد ، على الرغم من أن فتوحاته شملت مناطق أكبر . وبالاضافة الى عبقرية خالد الاستراتيجية والتكتيكية فقد كان عنيفا في تنفيذ أساليب قتاله . فالمعركة بالنسبة اليه لم تكن مجرد مناورة بارعة تؤدي الى نصر عسكري ، بل كانت عملا عنيفا يجب أن ينتهي بإبادة العدو إبادة كاملة . والمناورة هي عبارة عن أداة فقط لتحقيق تدمير العدو .

وكان خالد أول من أنزل هزيمة تكتيكية ضد النبي الكريم – في أحد . وكان أول قائد من المسلمين يغادر الجزيرة العربية ويفتح بلادا أجنبية ؛ وكان أول مسلم يُخضع أمبراطوريتين عظيمتين ، الواحدة تلو الاخرى . كما ان جميع معاركه تقريبا تعتبر مرجعا في فن القيادة العسكرية وخاصة معارك : أحد ، وكاظمة ، والوَلَجة ، والمصيَّخ ، واجنادين ، واليرموك . وكانت أبرع معاركه « الوَلَجة » ، وأعظمها بدون شك « اليرموك » .

كان خالد جنديا بطبيعته . وقد ادار المناطق التي فتحها بكفاءة ، لكنه فعل ذلك كإجراء عادي بحكم منصبه كقائد كبير الذي كان عليه ، بالاضافة الى الفتوحات ، مهمة الادارة كحاكم عسكري . وكانت خططه ومناوراته تنم عن إدراك عسكري كبير ؛ ولكن فيما يتعلق بالتعليم والثقافة فلم يكن ميّالا لذلك . وكان خالد جنديا صافي الذهن بالفطرة . وكان قَدَرُه أن يخوض معارك كبيرة ، وان يقهر اعداء أقوياء ، وان يهاجم ، ويقتُل ، ويفتح . وقد ظهر قَدَرُه هذا ، بظهور الاسلام ، على شكل حرب مقدسة نشبت في بلاد العرب . كما إن القَدَرَ وُضع موضع التنفيذ بعد ان اعتنق الدين الاسلامي وآمن برسول الله . فحيثما سار خالد ، كان الاعداءُ يقفون في طريقه ويقاومونه ، كأن حظّهم العاثر قد حكم عليهم بالموت بسيفه . وحيثما مر خالد ، كان يترك وراءه سلسلة من الاعمال المجيدة . فمنذ غزوة أحد وحتى عزله ، وهي فترة تزيد عن خمسة عشر عاما ، خاض واحدا وأربعين معركة (باستثناء الاشتباكات الصغيرة) ، وكان خمسة وثلاثون منها قد حدثت في السنين السبع الاخيرة . ولم يخسر قطّ معركة واحدة . هكذا كان خالد ، البطل الذي لا يقهر .

ومن الممتع ان يتأمل الانسان فيما كان سيحدث لو ان خالدا ظل قائدا لجيش المسلمين في بلاد الشام ولو انه ارسل لفتح الامبراطورية البيزنطية .

وبما أن خالداً لم يخسر معركة واحدة قط ، فإنه بدون شك كان قد إستولى على جميع آسيا الصغرى ووصل الى البحر الاسود والبسفور . ولكن هـذا لم يحدث . ففي نهاية عام ١٧ هجري انتهى شوط خالد . وبعد ذلك احتشد مسرح التاريخ بممثلين آخرين .

وفي عام ٦٤١ م ، مات عياض . وفي هذا العام أيضا ، توفي بلال مؤذن رسول الله ، كما توفي هرقل امبراطور روما . وفي العام التالي جاء دور خالد ليفارق الحياة .

ففي وقت ما من عام ٦٤٢ م (عام ٢١ هجري) ، مرض خالد وكان يبلغ الثامنة والخمسين . ونحن لا نعرف طبيعة مرضه ، لكنه استمر طويلا وساءت صحته كثيرا على اثر هذا المرض ، وظل طريح الفراش .

وقبل موته ببضعة أيام ، جاءه صديق قديم لزيارته وجلس بجانبه . فرفع خالد الغطاء عن جسده وقال لهذا الرجل : « لقد شهدت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح ، وها أنذا اموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العَير . فلا نامت أعين الجبناء » (١) .

فقال له الصديق : « يا خالد ، يجب أن تفهم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عندما سماك سيف الله ، فإنه اصبح مقدّرا لك أن لا تموت في معركة . فلو انك قُتلت على يد كافر فمعنى ذلك ان سيف الله قد كُسر من قبل عدو الله ، وهذا لا يمكن أن يحدث »

ظل خالد صامتا ، وبعد دقائق غادر الصديق . لقد اقتنع بما قاله الرجل ، لكن قلبه كان لا يزال يتمنى لو انه مات في القتال . فلماذا لا يموت شهيدا في سبيل الله !

وفي يوم وفاته ، لم يوجد في بيته غير فرسه وسلاح وغلامه ويدعى

---

(١) ابن قتيبة ـ صفحة ٢٦٧ ، والعَير : حمار الوحش .

حمّام . وكان في آخر يوم من أيــام حيــاته مستلقيا في فراشــه وبجــانبه حمّام الوفيّ .

وهكذا انتهت حيــاة خالــد بن الوليد ، سيف الله . رحمه الله وأدخلــه فسيح جناته !

ووصل نبأ وفاته الى المدينة كالعاصفة . وخرجت النســاء الى الشوارع ، وعلى راسهن نساء بني مخزوم ، وهن يبكين ، وسمع عمر بالنبــأ الحزين كمــا سمع أصوات البكاء والنحيب . فغضب لذلك . وكان عمر عندما تولى الخلافة قد أمر بعدم النحيب على من يموت من المسلمين . وكان يوجد منطق في وجهة نظره . فلماذا نبكي على هؤلاء الذين يذهبون الى جنــات النعيم التي وعــد الله بها المؤمنين . وقد سهر عمر على تنفيذ الامر وقــد استخدم سوطــه في بعض الاحيــان (١) .

سمع الآن عمر صوت البكاء والعويل . فحمل السوط وهمّ بمغــادرة منزله . فهو لا يسمح بعصيان أوامره ، ويجب ان يوقف البكاء . واتجه نحــو الباب ، لكنه توقف عنده . ومكث هنا بضع دقائق وهو صامت يفكر . ان هذا الموت ، على اية حال ، ليس امرا عاديا ، انه موت خالد بن الوليد . ثم سمع صوت بكاء ابنته حفصة ، زوجة النبي ، على فراق خالد .

فعاد عمر الى داخل منزله . وعلّق سوطه وجلس ثانية . ففي هــذه المرة خرق القاعدة . ثم قال : « دع نساءَ بني مخزوم يبكــين عــلى ابي سليمان ، فانهن لا يكذبن ، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي (٢) » .

وفي حمص ، على يمين الطريق المتوجه الى حماه ، توجد حديقة كبــيرة ملأى بأشجار الزينة والازهار والمرج الاخضر . وعنــد طرف الحــديقة يقــوم مسجد خالد بن الوليد . وهو جامع مهيب ، ذو مئذنتين ترتفعان من الزاويتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية ، وداخل المسجد فسيح ، حوالي خمسين باردة مربعة ، وارضه مفروشة بالسجاد ، والسقف يستند على أربع أعمــدة

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦١٤ .

(٢) الاصفهاني ــ الجزء ١٩ ، صفحة ٨٩ .

ضخمة . وكل زاوية من زوايا السقف الاربعة مبنية على شكل قبة ، لكن اعلى قبة فيها موجودة في المنتصف ، ويتدلى منها عدة ثريات متصلة بالسقف بسلاسل معدنية . وفي الزاوية الشمالية الغربية يقوم قبر خالد ــ المستقر الأخير لأبي سليمان .

ويعبر الزائر الحديقة ، ثم يمر في فناء المسجد ، ثم يخلع نعليه ويدخل المسجد . وفي داخل المسجد يرى الزائر قبر خالد على يمينه . ويجد فوق القبر قبة من المرمر تشبه مسجدا صغيرا داخل مسجد كبير . وبامكان الزائر ان يصلي ، اذا رغب في ذلك ، ثم ينسى نفسه وهو يفكر في الرجل الذي حمل اسم « سيف الله » .

واذا كان الزائر يعرف شيئا عن خالد وعن انجازاته العسكرية ، فانه يترك العنان لخياله لكي يتصور المعارك التي خاضها خالد . فبامكانه ان يتخيل صفا طويلا من الخيالة وهم يهجمون على مفرزة من الروم . كما يتخيل عباءاتهم وهي ترفرف خلفهم ، وحوافر خيلهم وهي تدق الارض بعنف . فبعضهم كان يحمل رماحا ، والبعض الآخر يحمل سيوفا ، وكان الروم يقفون في طريق الهجوم وهم يرتجفون من مرأى الرعب القادم ، لانهم كانوا يقفون في طريق الحرس المتحرك ، الذي لا يستطيع أحد ان يقاومه أو أن يبقى على قيد الحياة ليسرد ما حدث . وكان صف الخيالة المهاجمة ليس منتظما ، لانه من المستحيل المحافظة على تراصفه في مثل هذا الهجوم الخاطف الرهيب . وكان كل خيال يناضل لكي يسبق أصحابه ويصل الى الكافرين قبل زملائه ، ولكن ليس أمام القائد ، لأنه لا يمكن لأحد أن يلحق بالقائد .

وكان القائد يعدو على راس المسلمين . وكان رجلا ضخما ، عريض المنكبين ، قوي البنية ، وكان يمتطي صهوة حصان عربي أصيل وكأنه جزء منه. وكان الطرف المتدلي من عمامته وعباءته ترفرف خلفه ، وكانت لحيته المسترسلة تلامس صدره من جراء الريح . وكانت عيناه الحادتان تنمان عن تصميم على القتال والمجد ــ مجد النصر او الشهادة . وكان درعه وطرف رمحه يلمعان في ضوء الشمس ، وكانت الارض تميد تحت وقع حوافر حصانه الناري . وربما كان بجانبه فارس نحيل ، عاري الصدر .

ان الزائر لضريح خالد يرى كل هذه الاشياء في مخيلته . كما انه يسمع بمخيلته ايضا صيحة « الله اكبر » التي كان يطلقها عناصر الحرس المتحرك وهم ينقضّون على الروم ، كما يسمع صوت خالد وهو يصرخ : انا سيف الله خالد بن الوليد .

المـراجـع

ـ السيرة النبوية ....ابن هشام ـ القاهرة ١٩٥٥

ـ المغازي ....الواقدي ـ القاهرة ١٩٤٨

ـ فتوح الشام ....الواقدي ـ القاهرة ١٩٥٤

ـ الطبقات الكبرى ....ابن سعد ـ القاهرة ١٩٣٩

ـ المعارف ....ابن قتيبة ـ القاهرة ١٩٦٠

ـ تاريخ اليعقوبي ....احمد بن يعقوب ـ بيروت ١٩٦٠

ـ البلدان ....احمد بن يعقوب ـ ليدن ١٨٩٢

ـ فتوح البلدان ....البلاذري ـ القاهرة ١٩٥٩

ـ الاخبار الطوال ....الدينوري ـ القاهرة ١٩٦٠

ـ تاريخ الامم والملوك ....الطبري ـ القاهرة ١٩٣٩

ـ مروج الذهب ....المسعودي ـ القاهرة ١٩٥٨

ـ التنبيه والاشراف ....المسعودي ـ القاهرة ١٩٥٨

ـ الاعلاق النفيسة ....ابن رُستَه ـ ليدن ١٨٩٢

ـ الأغاني ....الاصفهاني ـ القاهرة ١٩٠٥

ـ معجم البلدان ....ياقوت الحموي ـ طهران ١٩٦٥

ـ كتاب الخراج ....ابو يوسف ـ القاهرة ١٩٦٢

ـ انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية[1] ....Edward Gibbon ـ لندن ١٩٥٤

ـ الفرات الاوسط[2] ....Alois Musil ـ نيويورك ١٩٢٧

---

(1) Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1954.
(2) The Middle Euphrates ; New York, 1927 .

آ ـ الفهرس

الموضوع	الصفحة
انهيار الردّة	٢٢٥
الجزء الثالث ـ فتح العراق	٢٣٥
التصادم مع الفرس	٢٣٧
معركة السلاسل	٢٤٧
معركة النهر	٢٦٣
جحيم ولَجة	٢٦٩
نهر الدم	٢٨١
فتح الحيرة	٢٩١
الانبار ، وعين التمر	٣٠٣
دومة الجندل مرة اخرى	٣١١
المعارضة الاخيرة	٣١٧
الجزء الرابع ـ فتح بلاد الشام	٣٣١
المسير الخطر	٣٣٣
التوغل في بلاد الشام	٣٥٣
معركة اجنادين	٣٦٣
فتح دمشق	٣٨١
الجرح القاسي	٤١٩
معركة فَحْل	٤٢٩
فتح حمص	٤٣٥
ما قبل اليرموك	٤٤٩
اليرموك	٤٦٩
اتمام الفتح	٥٠٥
وداعاً للسلاح	٥١٩
المراجع	٥٣٢

ب ـ فهرس الخرائط

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

★ ★ ★

